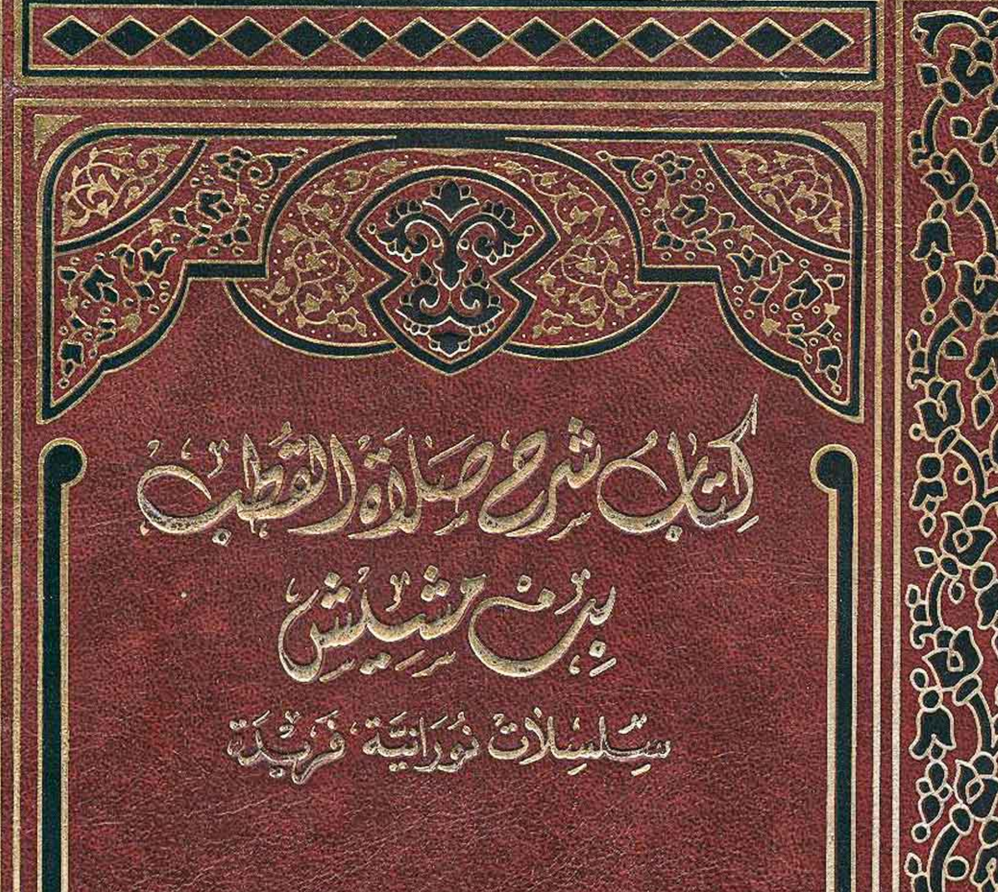


أكمل شرح صلاة القطب ابن مشيش

سلسلات نورانية فريدة

من تأليف

سيدي أحمد بنعجيبة

رضي الله عنه

جمع وتقديم

العمراني الخالدي عبد السلام

دار الحديثة الدار البيضاء

دار الرشاد الحديثة

الدار البيضاء المغرب

كتاب شرح صلاة القطب بن مشيش

سلسلات نورانية فريدة

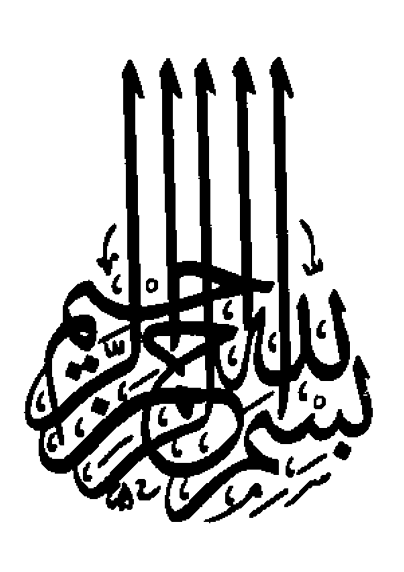
من تأليف

سيدي أحمد بنعجيبة
رضي الله عنه

السلسلة الأولى

جمع وتقديم
العمراني الخالدي عبد السلام
دار الحديثة الدار البيضاء

دار الرشاد الحديثة
الدار البيضاء - المغرب



تَعْرِيفُ سَيِّدِي أَحْمَد بنعَجِيبَةَ
رَضِيَ الله عَنْهُ

لِجَامِعِ مُؤَلَّفَاتِهِ، وَخَدِيمِ الطَّرِيقَةِ الْعَجِيبِيَّةِ الرَّشِيدةِ: الْعِمْرَاني الْخَالِدِي عَبْد السَّلام.

ـ الْحَمْدُ لله الْعَلِيمِ الْغَفَّارِ، ذِي الطَّوْلِ الْوَاسِعِ وَالنِّعَمِ الْغِزَارِ، والصَّلاَةُ والسَّلاَمُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ نُورِ الأنْوَارِ، وَسِرِّ الأَسْرَارِ، وَعَلَى آلِهِ الأَطْهَارِ، وَصَحَابَتِهِ الأَبْرَارِ. وَبَعْدُ:

فَإِنَّ سَيِّدِي أَحْمَد بِنعَجِيبَةَ الْحَسَنِي ـ رَضِيَ الله عَنْهُ وأَرْضَاهُ ـ عَارِفٌ كَبِيرٌ بِرَبِّهِ. مُتَضَلِّعٌ في عُلُومِ الْقَوْمِ. حَائِزٌ قَصَبَ السَّبْقِ فِي عَلُوم الشَّرِيعَةِ وَالطَّرِيقَةِ والْحَقِيقَةِ. لا يَحْتَاجُ إِلَى تَعْرِيفٍ، فَقَدْ طَلَعَ نَجْمُهُ عَلَى الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ. ووُضِعَتْ حَوْلَهُ أُطْرُوحَاتٌ، عَالِمٌ مَغْرِبيٌّ كَبِيرٌ، وَصُوفِيٌّ ذُوْقِيٌّ شَهِيرٌ. أَشْهَرَهُ عِلْمُهُ ومؤَلَّفَاتُهُ النَّادِرَةُ، الَّتِي فَاقَتِ الثَّلاثِينَ، فِي الشَّرِيعَةِ والْحَقِيقَةِ. فَكِتَابُهُ: «إِيقَاظُ الْهِمَمِ، في شَرْحِ الْحِكَمِ، والْفُتُوحَاتُ الإلٰهِيَّة، فِي شَرْحِ الْمَبَاحِثِ الأَصْلِيَّة» الْمَطْبُوعُ في دَارِ المعرفةِ، وَفِي بَعْضِ مَطَابِعِ مِصْر ـ مُنذُ عَشَرَاتِ السِّنِينَ، فَقَدْ عَرَّفَهُ، وَكَذَلِكَ مَنْ عَثَرَ عَلَى فهرسه، أَوْ بَعْضِ كُتُبِهِ، الَّتِي عَلَى رَأْسِهَا: «الْبَحْرُ الْمَدِيدُ، فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ» بالْعِبَارَةِ والإِشَارَةِ. أيْ بالظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ وَبَاطِنِ الْبَاطِنِ ـ يُدْرِكُ مَنْ هُوَ سَيِّدِي أَحْمد بنعجِيبَة، الَّذِي تَضَاءَلَتِ الْفُهُومُ أَمَامَ فهُومِهِ، وَتَقَاصَرَتِ الْجُهُودُ أَمَامَ جُهُودِهِ. فَسَيِّدِي أَحْمَد بنعجِيبَة، فَرِيدُ عَصْرِهِ وأَوَانِهِ. انْحَدَرَ مِنْ عَائِلَةٍ نُورَانِيَّةٍ، صَالِحَةٍ مُصْلِحَةٍ، أَفْرَادُهَا ـ ذُكُوراً وَإِنَاثاً، نَابِغُونَ بِالْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ، والذَّوقِ والْهِمَّةِ. وَلاَ تَزَالُ فِيهِمْ هَذِهِ الصِّبْغَةُ. فَهُوَ سَيِّدِي أَحْمَد بْن سَيِّدِي مُحَمَّدِ بْنِ سَيِّدِي الْمَهْدِي بْنِ سَيِّدِي الْحُسَيْن، بْنِ سَيِّدِي مُحَمَّدِ بنعجِيبَة الْحَجُوجِي، بنِ سَيِّدِي عَبْدِ الله بِنعَجِيبَة. ثُمَّ إِلَى سَيِّدِي سَحْنُونَ، بْنِ مَوْلاَيَ إِبْرَاهِيمَ، بْنِ مَوْلاَيَ مُحَمَّد، بْنِ مَوْلاَيَ مُوسَى، بْنِ مَوْلاَيَ عَبْدِ الله، ثُمَّ إِلَى مَوْلاَيَ إِدْرِيس الأَصْغَرِ، ابْنِ مَوْلاَيَ إِدْرِيس الأَكْبَرِ. هَكَذَا هُوَ في فهرسه. أَمَّا عَنْ تَعَبُّدِهِ، فَقَدْ أَلْهَمَهُ اللَّه الْخَلْوَةَ والْوَحْدَةَ وَهُوَ صَغِيرٌ

فَقَدْ قَالَ في فهرسه: «فكُنتُ لا أَلْعَبُ مَعَ الصِّبْيَانِ، ولا أَلْتَفِتُ إِلَيْهِمْ. فَقَدْ أَلْقَى الله في قَلْبِي مَحَبَّةَ الْعِلْمِ في حَالِ الصِّبَا».

ثُمَّ قَالَ بعْدَ كَلامٍ: «فَلَمَّا حَفِظْتُ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ، سَافَرْتُ لِتَحْقِيقِ الْقِرَاءَة. وتَعْلِيمِ التَّوْحِيدِ». وَقَدْ دَرَسَ رَضِيَ الله عَنْهُ بَعْدَ ذَلِكَ، عَلَى عُلَمَاءَ أَجِلاَّءَ، مُبَرِّزِينَ في الْعِلْمِ، وَلَهُ ثَلاثُ إِجازَاتٍ في فهرسه، مِنْ عُلَمَاءِ أَكَابِرِ عَصْرِهِ. الإجَازَةُ الأُولَى، لِلْعَلاَّمَةِ شَيْخِ الْجَمَاعَةِ بِالْمَغْرِب، سَيِّدِي التَّاوْدِي بْنِ سُودة. والثَّانِيَةُ، لِلْعَلاَّمَةِ، سَيِّدِي مُحَمَّد بِنِّيس الْفَاسِي. والثَّالِثَةُ، لِلْعَلاَّمَةِ سَيِّدِي مُحَمَّد الْوَرْزَازِي. وكُلُّهُمْ في إجازَاتِهِمْ، أَغْرَبُوا أَنَّ الْمُجَازَ فَوْقَهُمْ في الْعِلْمِ، وإِنَّمَا جَرَتْ عَادَةُ الشُّيُوخ. إجَازَةَ الْمُتَخَرِّجِينَ عَلَى أَيْدِيهِمْ. وبَعْدَمَا انْفَرَدَ بعُلُومِ الظَّاهِرِ، انْتَقَلَ لِلتَّجْرِيدِ إِلَى الْعَمَلِ والتَّجَرُّدِ لِلْعِبَادَةِ. اسْتِعْدَاداً لِعِلْمِ الْبَاطِنِ. وَهُوَ الْعَمَلُ بِالشَّرِيعَةِ الظَّاهِرَةِ. إِذْ لاَ يَنْتَقِلُ الْعَمَلُ إِلَى البَوَاطِنِ، حَتَّى تَسْتَقِيمَ الظَّوَاهِرُ. إِذِ الشَّرِيعَةُ بَابٌ، والْحَقِيقَةُ أَبْوَابٌ. وَقَدْ أَخَذَ رَضِيَ الله عَنْهُ عِلْمَ الذَّوْقِ عَنْ شَيْخِهُ المربي الكَبِير، الْقُطْب سَيِّدِي مُحَمَّد الْبُوزَيْدي الحسني رَضِيَ الله عَنْهُ. وَشَهِدَ لَهُ بِالْمَقَامِ الأسْنَى، فِي الْعُلُوم والْفُهُوم، شَيْخُهُ، وَشَيْخُ شَيْخِهِ، مَوْلاَيَ الْعَرَبِيِّ الدَّرْقَاوِي الْحَسَنِي. وَقَدْ فَاقَهُمَا عِلْماً وَذَوْقاً وَكَشْفاً. قَالَ في فهرسه: «أَمَّا عِلْمُ الْبَاطِنِ، فَهُوَ عِلْمي وَمَحَطُّ قَدَمِي، وَلِي فِيهِ الْبَاعُ الطَّوِيلُ». وَقَدْ جَدَّدَ طَرِيقَ الْقَوْمِ، في الْقَرْنِ الثَّاني عَشَرَ الْهِجْرِي. عَلَى دعَائِمَ قُدْسِيَّةٍ، دُونَ الْتِفَاتٍ لِغَيْرِهِ، وَطَبَعَهَا بِقَوْلِهِ: «وَهَذَا ذَوْقِي لا أُقَلِّدُ فِيهِ أَحَداً». وَذَلِكَ لَمَّا حَقَّقَ مَقَامَاتِ الْيَقِينِ كُلَّهَا، ذَوْقاً ومُشَاهَدَةً ومُعَايَنَةً. وَلَهُ قَصَائِدُ صُوفِيَّةٌ فَرِيدَةٌ. في آدَاب الصُّوفِيَّةِ، والْخَمْرَةِ الأَزَلِيَّةِ. وفِي تَفْسِيرِ أَطْوَارِ الرُّوحِ والنَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ، وَفِي الْحَضْرَةِ النَّبَوِيَّةِ. ثُمَّ فِي الْحَضْرَةِ الرَّبَّانِيَّة. إِضَافَةً إِلى مُؤَلَّفَاتِهِ الْعَدِيدَةِ. في الشَّرِيعَةِ والْحَقِيقَةِ. كَمَا سَبَقَتْ إِلَيْهِ الإشَارَةَ. وتُوُفِّيَ رَضِيَ الله عَنْهُ عَامَ خَمْسَةٍ وَعِشْرِينَ وَمَائَتَيْنِ وأَلْفِ هِجْرِيَّة. «1225» عَنْ عُمَرٍ يُنَاهِزُ الثَّالِثَةَ والسِّتِّينَ عَلَى الْمَشْهُورِ ـ حَقَّقَنَا الله تَعَالَى بِعُلُومِهِ وَفُهُومِهِ. وَجَعَلَنَا عَلَى هَدْيِهِ وآثَارِهِ. آمِين. وَالْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ. العرائش في 12 شوال عام 1414 هجرية. الموافق د: 23 مارس سنة: 1994 ميلادية.

جَامِعُهُ ومُصَحِّحُهُ:

الْعِمْرَاني الْخَالِدِي عَبْدُ السَّلاَمِ

ـ لَطَفَ الله بِهِ عَلَى الدَّوَامِ ـ

المقدّمة

تعريف بسيدي أحمد بنعجيبة

تَعْرِيفٌ بالْقُطْبِ الْكَامِلِ الأنْوارِ، فِي الْعُلُومِ والأذْواقِ والأَسْرَارِ، أَبِي العبَّاس سيِّدي أحْمَد بن محمَّد بنعجيبة الحَسَنِي الأَغَر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

والصَّلاةُ والسَّلامُ على مَوْلاَنَا المُصْطَفىٰ الْكَرِيم،

وَعَلى آلِهِ وصَحَابَتِهِ وأَهْلِ عِتْرَتِهِ الْمنعَّمِينَ أجْمَعِين

وبَعْدُ: فَقَدْ وَفَّقَنِي اللَّهُ تَعَالىٰ بِمَحْضِ الْمِنَّةِ، وَسَاقَنِي مُنْذُ عشرينَ سَنَةً، إلى صُحْبَةِ أكَابِرِ بَنِي عَجِيبَة، ذَوِي الْهِمَمِ الْعَالِيَةِ، في الْعُلُوم الذَّوْقِيَّةِ اللَّدُنِيَّة، بالإضَافَةِ إلى كَافَّةِ الْعُلُوم الشَّرْعِيَّةِ، وَجَمَعْتُ مِنْ جِهَاتٍ مِتَعَدِّدَةٍ، مِنْ مُؤَلِفَاتِ سَيِّدِي أحْمَد بنعجيبة، سِتَّةً وعِشْرِينَ مَا بَيْنَ شَرِيعَةٍ وَحَقِيقَةٍ، كلّها نَسَخْتُهَا بِيَدِي في نَحْوِ سِنِينَ عَشَرَةٍ، وشُرِّفْتُ بِأَمْرٍ مِنْ شَيْخِي ـ فَرِيد زَمَانِهِ، سَيِّدِي عَبْد الْقَادِرِ بنعجيبة، وشقيقه الْعَالِم الْجَلِيل، والصُّوفي الكَبِير، سَيِّدي محمَّد بنعجيبة ـ بِتَقْدِيم وَطَبْعِ شَرْحِ الصَّلاةِ المَشِيشِيَّة، لِجَدِّهِمَا الْعَارِف سيِّدي أحْمَد بنعجيبة، رَضِيَ الله عَنْهُمْ أَجْمَعِين، وتمَّتِ الطَّبْعَةُ الأُولى عام 1402هـ ـ 1982م.

واليَوْم، وقَدْ جَاءَ دَوْرُ طَبْعِ سِلْسِلاتٍ مُنَوَّرةٍ، مِنْ مُؤَلَّفَاتِ هذَا الْعَارِف الأكْبَرِ، يَتْلُوهَا طَبْعُ الْبَحْرِ الْمَدِيدِ، فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، بِإشَارَةٍ وإِذْنٍ مِنْ شَيْخِي الْمُنَوَّرِ، سَيِّدِي عَبْد الْقَادِرِ بنعجيبَة، لِنُخْبَةٍ طَيِّبَةٍ صَالِحَةٍ، وَجَرْياً عَلىٰ الْعَادَةِ الْمُتَّبَعَةِ، فِي التَّعْرِيفِ بِالْكُتُبِ النَّفِيسَةِ المَخْطُوطَةِ، وأصْحَابِهَا الْكُمَّال العَبَاقِرَةِ، فَقَدْ كُلِّفْتُ بِوَضْعِ تَعْرِيفٍ شَامِلٍ لِمُؤَلَّفَاتِ سَيِّدِي أحْمَد بنعجيبَة، لِيَتَعَرَّف النَّاسُ عَلَيْهَا وَعَلىٰ صَاحِبِهَا، وليَشْرَبُوا مِنْ فَيْضِهَا، لِيَحْصُلَ بِهَا الانْتِفَاعُ، ويتِمَّ بِهَا الاتِّبَاعُ، وسَيَجِدُ الْقَارِئُ الْكَرِيمُ، هٰذَا التَّعْرِيفَ مُصَدَّراً بِهِ السِّلْسِلاَت النورانيَّة الْعَجِيبيَّة، وتَفْسِيرَ الْبَحْرِ الْمَدِيدِ الْمُتِمّ الأُمْنِيَةِ. وَجَاءَ تَكْلِيفي بِهٰذِهِ الْمُهِمَّةِ، مِنْ أُمُورٍ عِدَّةٍ:

1 - لِكَوْنِي أَعْرَفَ النَّاسِ بِمُؤَلَّفَاتِهِ وعُلُومِهِ الظَّاهِرَةِ والبَاطِنَةِ.

2 - لِلإِذْنِ الَّذِي لِي فِي جَمْعِهَا ونَسْخِهَا وَنَشْرِهَا شَفَوِيًّا مِنْ شَيْخِي، وَمِنْ صَاحِبِهَا فِي عِدَّةِ رُأى صَادِقَةٍ.

3 - لِكَوْنِ نُسَخِهَا المُسْتَوْعِبَةِ لِفُنُونِهَا بِخَطِّ يَدِي وبِخَزَانَتِي مُتَوَفِّرَة.

4 - وَلاعْتِبَارَاتٍ أُخْرَىٰ تَرَكْتُهَا هُنَا تَوَاضُعاً لِلَّهِ تَعَالَىٰ. وإنَّ سَيِّدي أَحْمَد بنعجيبة، كَالشَّمْسِ الْمُشْرِقَةِ، تَعْرِفُهُ الْمَشَارِقَةُ والْمَغَارِبَةُ، لا يَحْتَاجُ إِلَى تَعْرِيفٍ، وَلاَ إِلَىٰ تَقْدِيم، فَقَدْ أَشْهَرَهُ كِتَابُهُ النَّفِيس: «**إِيقَاظُ الْهِمَمِ، فِي شَرْحِ الحِكَم، والْفُتُوحَات الإِلَٰهِيَّةِ، فِي شَرْحِ المَبَاحِثِ الأَصْلِيَّةِ**»، المطبُوع فِي مِصْر، وَفِي لُبْنَان، مُنْذُ مَا يَقْرُبُ مِنْ مَائَةِ سَنَةٍ، ويُجَدَّد طَبْعُهُ كُلَّمَا نَفَذَ. ومَعَ هٰذَا، فَهُنَاكَ جَوَانِبُ لاَ بُدَّ مِنْ مَعْرِفَتِهَا، فَلْيَعْلَم الْقَارِئُ الْكَرِيمُ، أنَّ الْعَارِفَ الْمُحَقِّقَ، سيِّدي أَحْمَد بنعجيبة، قَدِ انْحَدَرَ مِنْ عَائِلَةٍ، نَابِعَةٍ بِالْعُلُوم والْحِكْمَةِ، كَبِيرِهَا وَصَغِيرِهَا، ذَكَرِهَا وأُنْثَاهَا، مُنْذُ قُرُونٍ مُتَتَابِعَةٍ، وَلاَ زَالَ هٰذَا الْفَيْضُ الإِلَٰهِي بِهَا وَفِي أَتْبَاعِهَا، فَهُوَ سَيِّدِي أَحْمَد، بن سَيِّدِي محمَّد بن سيِّدي المَهْدِي، بن سَيِّدِي الْحُسَيْن بن محمَّد بنعجيبة الْحَجُوجِي، بْنِ سَيِّدِي عَبْد اللَّهِ بنعجيبَة الَّذِي اسْتَقَرَّ بِخَمِيسِ أَنْجَرَةَ، ثُمَّ إِلَى سَيِّدِي سَحْنُون، بن مَوْلاَي إِبْرَاهِيم، بْن مَوْلاَيَ مُوسىٰ، بْن مَوْلاَي عَبْد الله، ثُمَّ إِلَى مَوْلاَي إِدْرِيس الأَصْغَرِ، بن مَوْلاَيَ إِدْرِيس الأَكْبَرِ.

وكَانَ لأَجْدَادِهِ كَرَامَاتٌ وَخَوارِقُ عِدَّة، وَكَانَ مِنْ بَيْنِهِم مَنْ هُوَ في الْغَوْثَانِية، كسيدتنا فَاطِمَة العجيبيَّة، وَمِنْ مَشَاهِير أَجْدَادِهِ، فَاطِمَةُ العَجِيبية، وسَيِّدي عَبْد الله مِغراوي، وسيِّدي الحسن الحَجُوجي، وَقَدْ فَاقَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَجْدَادَهُ فِي الْكَرَامَاتِ والْمُكَاشَفَاتِ، وأَكْبَرُ كَرَامَاتِهِ، الْفَهْمُ الْكَبِيرُ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَىٰ بالإِشَارَةِ، عَلَىٰ مُسْتَوَىٰ عَالٍ فِي الْمَعْرِفَةِ، وَشَرَحَ مَعَهُ الْحُرُوفَ الْمُقَطَّعَةِ، الَّتِي افْتَتَحَ الله تَعَالَىٰ بِهَا بَعْضَ السُّوَرِ الْقُرْآنِيَّةِ. وَيَكْفِي قَوْلُهُ فِي فَهرسِهِ. أَمَّا عِلْمُ الْبَاطِنِ فَهُوَ عِلْمِي، وَمَحَطَّ قَدَمِي، وَلِي فِيهِ الْبَاعُ الطَّوِيلُ. فَلَمْ يُقَلِّدْ في الذَّوْقِ أَحَداً مِنَ السَّابِقِينَ، بَلْ كَانَ يَغْرِفُ فِيهِ بِمِغْرَافِ الْحَقِّ تَعَالَىٰ. وَقَدْ تَحَدَّثَ طَوِيلاً عَنِ التَّرْبِيَة النَّبَوِيَّةِ الذَّوْقِيَّة، وَقَالَ: وَهٰذَا ذَوْقِي، لاَ أُقَلِّدُ فِيهِ أَحَداً. فَقَدْ كَانَتْ لَهُ مَصَادِرُ يَكْرَعُ مِنْهَا الْعُلُومِ والْفُهُوم إِلَى حَدٍّ بَعِيدٍ أجْمِلُهَا في تَلَقِّيهِ الْعُلُومَ عَنِ الْكِبَارِ، وصُحْبَةِ شَيْخِهِ الْبُوزيدي صَاحِبِ الأَسْرَار. وَبِذٰلِكَ تَرَقَّتْ فِيهِ الْفِرَاسَةُ والإِلْهَامُ، والرُّؤْيَا الصَّادِقَة النَّابِعَة مِنْ وَحْي الإِعْلام، فَزَالَ عَنْ بَصِيرَتِهِ الْغِشَاءُ، وفَهِمَ عَنِ اللَّهِ جُلَّ الأَشْيَاءِ. وَقَدْ نَهَجَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في تَفْسِيرِ القرْآنِ الْكَرِيمِ، نِهْجاً دَقِيقاً، لَمْ يَصِلْهُ الْقُشَيْرِي في رِسَالَتِهِ،

وَلاَ صَاحِب الْفُتُوحات المكيَّة، وَلاَ صَاحِبُ التَّأويلاَت، ولا صَاحِبُ رُوح المَعَانِي، وَلاَ الطَّبَرِي في تَفسِيرِهِ، وَلاَ غَيْرهم مِمَّنْ تَكَلَّمَ في عِلْم الإشَارَةِ. فَقَدْ فَسَّرَ الْقُرْآنَ العَظِيمَ كُلَّهُ بِالْعِبَارَةِ والإشَارَةِ، في مُجَلَّدَاتٍ أربعَةٍ، سَمَّاهُ بـ«**الْبَحْرِ الْمَدِيدِ، فِي تَفْسِير الْقُرآنِ المَجِيدِ**» وَجَعَلَ لِلْفَاتِحَةِ شَرْحاً مُسْتَفِيضاً مُسْتقِلاً، سَمَّاهُ كَذَلِكَ، بِالْبَحْرِ الْمَدِيدِ، وَقَدْ بَلَغَتْ مُؤَلَّفَاتُهُ فِي الشَّرِيعَةِ والحَقِيقَةِ، سِتَّةً وَثَلاثِينَ، يَتطلَّعُهَا البَحْرُ المدِيدُ، في تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، وتَفْسِيرُ الْفَاتِحَة الْكَبِير، وشَرْحُ الْحِكَم العَطائية، والْفُتُوحَاتُ الإلَهِيَّةُ، فِي شَرْحِ الْمَبَاحِثِ الأصْلِيَّةِ، والْفُتُوحَاتُ الْقُدُوسِيَّةُ، فِي شَرْحِ الْمُقَدِّمَةِ الأجرُومية، بِالنَّحْوِ والإشَارَةِ، والأَنْوَارُ السَّنِيَّة، في شَرْحِ الصَّلاَةِ المَشِيشِيَّةِ، والجَامِعُ الصَّغِيرُ في الْفِقهِ، وتَسْهِيل الْمَدْخَلِ، لِتَنمِيَةِ الأَعْمَالِ، بِالنِّيَّةِ الصَّالِحَةِ عِنْدَ الإقْبَالِ، وَمِعْرَاجُ التشوُّفِ إلَى حَقَائِقِ التَّصوُّفِ، وَسِلْكُ الدُّرَرِ، فِي ذِكْرِ الْقَضَاءِ والْقَدرِ، وشَرْحُ صَلاَةِ ابْن الْعَرَبِي الحَاتِمِي، والأبْيَاتُ الثَّلاثَةُ الْمَنْسُوبَةُ لِلْجُنَيْدِ: «تَوَضَّأْ بِمَاءِ الْغَيْبِ إنْ كُنْتَ ذَا سِرٍّ» إلى آخرها. وشَرْحُ قَصِيدَةِ الرِّفَاعِي: «يَا مَنْ تَعَاظَمَ حَتَّىٰ رَقَّ مَعْنَاهُ» إلى آخرها. وشَرْحُ نُونِيَةِ الشُّشْتَرِي، وبَعْضُ مُقطَّعَاتِهِ الْمُنَوَّرَة، والأَنْوَارُ السَّنِيَّةُ، في الأَذْكَارِ النَّبَوِيَّة، وشَرْحُ خَمْرِيَّةِ ابْنِ الْفَارِضِ، وتَائِيَّةُ شَيْخِهِ سَيِّدِي محمَّد الْبُوزَيْدِي، وشَرْحُ تَائِيَةِ الْقُطْب الْفَرْدِ، سَيِّدِي عَلِي الجَعيدي، ونُبْذَةٌ مِنْ مَنَاقِبِ الزُّهَّادِ السَّبْعَةِ، وَكَشْفُ النِّقَابِ عَنْ سِرِّ لُبِّ الأَلْبَابِ، وشَرْحٌ فِي ذَمِّ الْغِيبَةِ والنَّمِيمَةِ، وشَرْحُ الوظِيفَةِ الزَّرُّوقيَّة، وشَرْحُ الْهَمْزِية والبُرْدة، وأَزْهَارُ البُسْتَانِ، فِي طبقَات الأعْيان، لِعُلَمَاءِ الظَّاهِرِ، ثُمَّ لِعُلَمَاءِ الْبَاطِنِ، وفَهْرسُهُ الَّذِي بِهِ حَيَاتُهُ وأعْمَاله ومَوَاهِبُهُ.

أَخَذَ طَرِيقَ التَّصَوُّف، عَنِ الْقُطْبِ الْكَبِير الْوَاصِل، الْمُرَبِّي، سَيِّدِي محمَّد الْبُوزَيْدِي الحَسَنِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وعَاشَرَ شَيْخَ الْمَشَايِخِ، مَوْلاَي الْعَرَبِي الدَّرقَاوِي. وَكَانَ لَهُ دَارَانِ عَامِرَتَانِ، دَارٌ ببَنِي سَعِيدٍ، وَدَارٌ بِالزَّمِيجِ بِأَنْجَرَة، وَكَانَ لَهُ فقراءُ في المشرقِ والْمَغرِبِ، ظَهَرَ فِيهم سِرّهُ. وَهُوَ دَفِينُ قَرْيَة الزَّمِيج، تُوُفِّيَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَامَ خَمْسَةٍ وعِشْرِينَ ومائَتَيْنِ وأَلْفِ هِجْرِيَّة، هكذا «1225». نَفَعَنَا اللَّهُ تَعَالَىٰ بِعُلُومِهِ وأذْواقِهِ، آمِين، والحمْدُ لِلَّهِ ربِّ الْعَالَمِين، وصَلَّى الله على سيِّدنا محمَّدٍ وآلِهِ وصَحْبِهِ وسَلَّمَ تَسْلِيماً.

«**العرائش في يوم الأحد** 26 محرَّم الحرام، عام **1414** هجرية»
الموافق لـ18 يوليوز سنة 1993 ميلادية لجامعه ومصحّحه ومقدّمه
العمراني الخالدي عبد السّلام لطف الله به على الدوام

شرح صلاة القطب ابن مشيش
رضي الله عنه

بسم الله الرحمن الرحيم

وصَلَّىٰ اللَّهُ عَلَىٰ سَيِّدنا مُحَمَّد وَآلِهِ وصَحْبِهِ وسَلَّم تَسْلِيماً

قَالَ الشَّيْخُ الإمَامُ، العَالِمُ العلاَّمة، الوليّ الصَّالح، العارف الربَّاني: سيّدي أحمد بن محمّد بنعجيبة الحَسَني رَضِيَ الله عَنْهُ، ونَفَعَنَا بِهِ آمِين.

نَحْمَدُكَ يَا مَنْ تَجَلَّىٰ لِقُلوب أوليائهِ، بِكَمالِ جَمَالِهِ وَبَهَائِهِ. فَتَنَزَّهَتْ فِي رِيَاضِ مَلَكُوتِهِ الأفْكَارُ. ونشكرك يَا مَنْ تولَّى أَسْرَارَ أنبيائِهِ وأصْفِيَائِهِ، فخاضَتْ فِي بِحَارِ جَبَرُوتِهِ الأسْرَارُ. ونصَلِّي ونُسَلِّم عَلى بَذْرَةِ الْوُجُودِ، ومَطلع شَمْسِ السُّعُودِ. سيِّدنا ومَوْلاَنَا محمَّد، الَّذي من سرِّ ناسُوتِهِ انشقَّت الأسرار. ومن لاهُوتِ صِفَاتِهِ؛ انفَلَقَتِ الأنْوَارُ. صَلاَةً وسَلاماً يَلِقيانِ بِمَا لَهُ مِنْ عَظِيمِ جَاهٍ ومِقْدارٍ. وَرَضِيَ الله تَعَالىٰ عَنْ أصْحَابِهِ الأبْرَارِ. وأَهْلِ بَيْتِهِ الأطْهَار.

وَبَعْدُ: فَهٰذَا شَرْحٌ لَطِيفٌ، عَلَىٰ تَصْلية القطبِ الجامع، سيدي عبد السَّلام بن مشيش نَفَعَنا اللَّهُ بِذِكْرِهِ. وأفاضَ عَلَيْنا مِن صيب فيضه آمين. نَدَبني إليه شيخنا العارف، الربَّاني، قدوة السائرينَ. ومُربِّي الواصلين، سيّدي محمّد بن أحمد البوزيدي الحسني. فأجَبْتُهُ إلَى ذلِكَ. رَجَاءَ التحقيق بِمَحَبَّتِهِ، والشُّرب مِنْ فَيْضِ مَدَدِهِ. ولْنقدِّمْ بَيْنَ يدي الكلام، ترْجمة الشَّيْخ. وَذِكْر شَيْءٍ مِنْ كَلاَمِهِ.

1 - الطبيعة. 2 - علم اللاَّهوتِ، عن الحقائق المتعلقة بالله تعالى. والله هويتي: العالِمُ بالحقائقِ المتعلقة بالله تعالى.

أما ترجمتهُ: فهو الشيخ الإمام، العارف الواصل، الولي الكبير، والقطب الشهير، شمس زمانِهِ، وفريد عصره وأوانِهِ. سيِّدنا ومولانا عبد السلام بن مشيش بالميم. وربما قيل بالباء. وإبْدَالُ البَاءِ بالميم، لغة مازنية، ومَعْناهُ الخَادم الخفيف؛ الحاذق اللبيب، ابن أبي بَكْر بن علي، بن حُرْمَة، بن عيسى، بن سلام، بن

مِزْوار. ومعْناه بلغة البَرْبر، بكر أبيه. ويستعمل في رئيس القوم، بن علي بن حيْدَرَة. وهو في الأصل، اسم الأسد، بن محمد بن إدريس الأزهر، بن إدريس الأكبر، بن عبد الله الكامل، بن الحسن المثنَّى، بن الحسن السبطي، بن علي كرَّم الله وَجْهَهُ، رضِيَ الله عَنهُمْ أجْمَعِين. توفي رضي الله عنه شهيداً سنة 622هـ، أو فيما بعده بقليل. قال ابن خَلْدُون: قتَلَهُ في جبَلِ العَلَمِ قَوْم، بَعَثهم لِقَتلهِ، ابن أبي الطواجِنِ الكتامي الساحر، المدَّعي النبوَّة. وبسَبَبِ هذه الدَّعوة، زَحَفَتْ إليه عَسَاكر سبْتة. وكَان عند بني سعيد فقتل. ثم قلت: أخْبَرني مَنْ أثقُ بِهِ من بني سعيدٍ، أنَّهُ قتلهُ شابٌّ مِنْهُمْ، وذلكَ أنَّ الظالمَ كَانَ فَاسِقاً. يتعمَّد بَنَاتِ النَّاس كرْهاً، فتزيًّا شاب بزَيِّ النِّسَاءِ، فلمَّا اختلطَ بهِ فِي خَلْوَتِهِ قتَلَهُ؛ لأنَّ الظَّالِمَ كَانَ أرَادَ أن يَدْخُلَ بِأُخْتِهِ، فتزيًّا بِزيِّ النِّساءِ وأُهْديَ لَهُ، عَلَى أنَّهُ بِنتٌ. فَقَتَلَهُ بخُنْجَارٍ. وَكَانَتْ وَفَاته سَنَة خمسٍ وعشرين وستمائة 625هـ، أي القطب ابن مشيش، على قَوْلِ ابن خلدون. وَدُفِنَ رَضِي الله عَنْهُ، في قمَّةِ الجَبَلِ، المُسَمَّى بالعلم. قَالَ فِي المِيرَاثِ: وَآثاره هُنَا كثيرة، من مغارة للخَلْوَةِ والعبادة، ومسجده، جُدرانه قصيرة، ومَوْضع لارْتقابِ الْفَجْر، وتحت ضَريحهِ بِنحْوِ الْمِيل، عيْن كَان يتوضَّأُ فيها، ومقتلهُ فَوْقَهَا بِقريبٍ يُقالُ: إنَّهُ توضَّأ فيهَا عِندَ الفَجْر. وقَصَدَ الصُّعُود لمَحلِّ العِبَادَة، وارْتقاب الْفَجْرِ، فَقَتَلُوهُ هُناك. ومِنَ الشَّائِع، أنَّه ألقي عليهم الضباب الكثيف، ودُفِعُوا إلى شَواهِقِ الجِبَالِ. فَترَدوا مِنْهَا في مَهَاوٍ سحيقة. فمُزِّقوا كلَّ مُمزَّقٍ. ولَمْ يَرْجع مِنهم مُخبر، وتَحْت هٰذه العين، بمسافة أخرى، رسوم داره التي كان يسْكنُها. قلْتُ: وقد وصَلْتُهَا، وصلَّيْتُ فِي أثرِ مَسْجِدِه، قُرْب العَيْن الَّتي يُسمُّونَهَا عيْن القشور عن يمينها، ولا سَاكِن هناك اليوم، وإنَّما العُمْران في سَفْح الجبل، دائراً بِهِ، في مداشر وعُمْران، يسكنها أهْل هذا النَّسَبِ الشريف، ومعهم غَيْرهم. وكانَ لَهُ مِنَ الأوْلادِ أرْبَعَةٌ. محمَّدٌ، وأحْمَدُ، وَعَبْدُ الصَّمَدِ، وعلاَّل. ومن بني ولده محمد: بنو عبد الوهَّاب، وطائفة يسمَّون الرَّحمونيين، بقرْبِ شفشاون. ومن وَلَده علاَّل أولاد الفِجْفج، مِنْهُمْ فرقة بمرَّاكش.

ولَهُ أخَوَانِ: مُوسَىٰ ويمْلاح. ومن بني موسَىٰ: الشفشاويّون القاطنون بفاس. ومن بني يمْلاَح: سيِّدي عبد الله بن إبراهيم، نزيل وزَّان. ولَهُ مِنَ الأعمام ستَّةٌ: يُونس، وعليّ، وملهى، وميمون، والفتوح، والحاج. ومن أولادِ يُونُسَ: أولاد بن رئيسون. وأولاد بن رحْمُون، وأولاد مرصو ومن المنقول، عن سيِّدي عبد الله الغَزْواني رضي الله عنه، أنَّ رَوْضَةَ مَوْلاَنَا عَبْد السَّلام، مشتملةٌ على ثلاثة قبور،

الوسط منهم هُوَ قَبْرُ الشَّيخ، والذي خَلْفَ ظَهْرِهِ، قبر ولدِهِ، سيِّدي محمَّد، والذي بيْن يَدَيْه، قبر خديمه بن خدامة رضي الله عَنْهُم. ويُرْوىٰ أنَّ الشَّيخ كَانَ يوماً بإزاء خَلْوَتِهِ، يتلو القرآن، ومعه تلميذه، الشَّيخ أبو الحَسن الشاذلي، حتى وصل سورة الأنعام، إلى قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعۡدِلۡ كُلَّ عَدۡلٖ لَّا يُؤۡخَذۡ مِنۡهَآ﴾. فَرَد عليه واردُ إلٰهي، اقتطعه عن حِسِّه، واسْتغرق فيه مدَّة، فلمَّا أفاق رفَعَ يده إلى السَّماء داعياً. فكان مِنْ دُعَائِهِ: اللهُمَّ من سَبَقَ لَهُ الشقاءُ مِنْكَ فَلاَ يصِلْ إليَّ، وَمَنْ وَصَلَ إليَّ أكونُ له شَفيعاً يَوْمَ القِيَامَةِ. اللَّهُمَّ لاَ تَبْعَثْ لَنَا مَنْ حَكَمْتَ بِشَقَائِهِ، وأمَّا علوّ قدرِهِ، وجَلاَلَة مَنْصِبه، فذلِك أمرٌ شَهيرٌ. وقَدْ تَغلغل في علوم القوم؛ التي مدارها علم التحقيق، بأخْلاقِ النبيّ ﷺ، فَنَالَ من ذلك الحظَّ الأوْفَر، وطريقه طريق الْغِنَىٰ الأكْبَر. قال الشَّيخ أبو الحَسن الشاذلي: دَخَلْتُ العِراقَ، واجتمَعْت بالشَّيْخ الصَّالح، ابن أبي الفتح، فما رأيْت مِثْلَهُ، وكُنْتُ أطْلب الْقُطب. فقال لي بعض الأولياءِ: تطلب القطبَ وهُوَ بِبلادِكَ. ارجع إلى بِلاَدِك تجِدْهُ. فرجَعْتُ إلى المَغْرب، إلى أن اجتمعْتُ بأسْتاذِي رضيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال أيْضاً: كُنْتُ يَوْماً بيْنَ يَدَيْ أُسْتاذِي. فقُلْتُ فِي نَفْسِي: ليْتَ شِعْرِي، هل يَعْلَمُ الشيْخ اسم الله الأعْظم. فقال ولد الشيخ: يا أبا الحسَن: لَيْس الشأن مَنْ يعلمُ وإنَّما الشَّأن من يكون هو عيْن الاسْم. فقال الشيخ: أصَابَ وتفرَّسَ فيكَ ولدي يا أبا الحسَن. وقيل: كان الولدُ المذكور من ثلاث سنين. وقال أيْضاً: كنْتُ في سياحَتِي في مَبْدأ أمْرِي، حصل لي تردد، هل ألْزَم البراري والقفار لأتفرَّغ للطاعة والأذكار أو أرجع إلى المُدن، لصحبة العلماء والأخيَار، فوُصِفَ لي وليٌّ هُناكَ، وكان بِرأسِ جَبَلٍ، فَصَعدت إليه ليلاً، وقلت في نَفْسي: لا أدخل عليه في هذا الوَقتِ: فَسَمعته وهو يقول: مَنْ دَخَلَ المَغَارة؟ اللَّهُمَّ إنَّ قَوْماً سألُوكَ أنْ تُسَخِّرَ لَهُمْ خَلْقك فَسَخَّرْتَ لَهُمْ خَلْقكَ فَرَضُوا بِذَلِكَ مِنْكَ، اللَّهُمَّ وإنِّي أسْألُكَ اعْوجَاجَ الخَلْقِ عليَّ، حتَّى لاَ يَكُونَ مَنْجَا إلاَّ إلَيْكَ. والْتَفتُّ إلى نَفْسِي، وقلتُ: يَا نَفْسِي، انْظري مِنْ أيّ بَحْرٍ يَغْتَرِفُ هٰذَا الشَّيخ؟ فلمَّا أصْبَحْت، دَخَلْتُ عَلَيْهِ، فارْتَعَبْتُ مِنْ هَيْبَتِهِ. فقلت: يا سيّدي، كيف حالك؟ فقال: أشكو إلى الله مِنْ بَرَدِ الرِّضَى والتَّسْليم، كَمَا تَشْكُو أنْتَ مِنْ حَرِّ التَّدْبير والاخْتيَارِ. فقلت: أما شكواي من حَرِّ التدبير والاختيار، فقد ذُقْتهُ، وإني الآن فيه، وأمَّا شكواك من بَرَدِ الرِّضَى والتَّسْليم فما ذقتهُما. فقال: أخاف أنْ تشغلَني حَلاَوتهما عَنِ اللَّهِ. فقلت: يا سَيِّدي سمعتُكَ البارحة تَقُولُ: اللَّهُمَّ إنَّ قوماً. . . الخ. فتبسَّمَ ثم قَالَ: يا بني عِوَضَ أن تقول: سَخِّر لي خَلْقَكَ، قل: يا

رَبِّ كُنْ لي. أترى إذا كانَ لَكَ أيفوتك شيء؟ فما هذه الجبانة؟ اهـ. وأمَّا كلامه في الحقائق والوصايا، فقال رضي الله عَنْهُ في بعض كَلاَمِهِ: «الْزَم الطَّهارَةَ مِنَ الشُّكُوكِ، كُلَّما أَحْدَثْتَ تَطَهَّرْتَ، ومن تَدنّس الدُّنيا، كلَّما مِلْتَ إلى شهوةٍ، أصلحت بالتوجه، ما أفْسَدت بالْوَهْمِ، أو كدت، وعليك بِمَحَبَّةِ اللَّهِ عَلَىٰ التَّوْقِير والنَّزاهةِ، وأدمِن الشرب بكأسها، معَ السُّكْرِ، كُلَّما أفقْتَ أو تَيَقَّظْتَ شَرِبْتَ، حتَّى يكونَ سُكركَ وصحوكَ بِهِ. وحتى تغيب بجماله عن المحبَّة. وعن الشَّراب، والشُّرْب والكأسُ بما يَبْدُو لَكَ مِنْ نُور جَمَالِهِ، وقُدْسِ كَمَالَ جَلاَلِهِ، ولعَلِّي أُحَدِّثُ مَنْ لاَ يَعْرف المحبَّة، وَلاَ الشُّرب، وَلاَ الكَأْسَ، وَلاَ السُّكْرَ وَلاَ الصَّحْو». قال له القائل: أجَلْ، وَكَمْ مِن غريق في الشيء لا يَعْرِفُ بِغَرَقِهِ. فَعَرِّفني ونَبِّهْني على ما أنا بِهِ جَاهِلٌ، أوْ مَا مَرَّ عليَّ وأنا عَنْهُ غَافِلٌ. قلت: لكَ نَعَمْ. المَحَبَّةُ آخذةٌ مِنَ الله. قُلْتُ: مَن أَحَبَّ بما يكشف له من نور جمالِهِ، وقُدْس كمالِ جَلاَلِهِ. وشُرْبُ المحبَّة: مَزْجُ الأوصَافِ بِالأوْصَافِ، والأخلاقِ بالأخلاقِ، والأنوارِ بالأنْوَارِ، والأسماءِ بالأسماءِ، والنُّعُوتِ بِالنُّعُوتِ، والأفعالِ بالأفْعَالِ. وَيَتَّسعُ فيه النَّظَر لِمَنْ شَاءَ الله عَزَّ وَجَلَّ. والشُّرْب: سَقي القلوب، والأوصال والعُرُوقِ مِن هٰذا الشرابِ، ويكُونُ الشربُ بِالتَّدْريب بَعْدَ التَّدريب، والتهذيب بعد التهذيب، فيسقى كل على قَدْرِهِ، فمنهم مَنْ يُسقَى بِغَيْر واسِطةٍ، والله يتولَّى ذلك، ومنهم من يُسقى مِن جِهَةِ الْوَسَائِطِ، كَالملائِكَة والعُلماء، والأكابِرِ مِنَ المُقَرَّبِينَ، فمنهم من يسكر بشهودِ الكأس، ولَوْ لَمْ يَذُقْ بَعْدُ شيئاً. فمَا ظنّك بَعْدُ بالذَّوْقِ، وبعدُ بالشرْب، وبَعْدُ بالرَّيّ، وبَعْدُ بالسُّكْرِ، وبعدُ بالمشروبِ. ثمَّ بالصحوِ، ثم بَعْدَ ذلك على مقادر شتّى. كالسُّكْر أيضاً كذلك. والكأس: مِعرفَة الحقّ، يُعرفُ بِهَا من ذلكَ الشَّرابِ الطهور المحضِ الصَّافي، لمَن شاءَ من عِبَادِهِ المخلصينَ من خَلْقِهِ. فتارةً يشْهَد الشراب بذلكَ الكَأْسِ صورة، وتارة يشهدها معنوية، وتارة يشهدها عِلْمية. فالصُّورة حَظُّ الأبدانِ والنُّفوس، والمعنوية حظُّ القلوب والعُقول، والعلمية حَظُّ الأرواح والأسْرَار. فَيَا لَهُ مِن شَرَابٍ ما أعْذَبَهُ!. فطوبَى لِمَنْ شَرِبَ مِنْهُ ودَامَ. وَلَمْ يُقْطَعْ عَنْهُ. نسأل الله من فضله، ذَلِكَ فضل الله يؤتيه من يشَاءُ. وقَدْ تجتمعُ جَماعة من المُحِبِّينَ، فَيُسْقَوْنَ مِن كَأْسٍ واحدة، وقد يُسْقَوْن مِن كُؤُوسٍ كثيرة، وقد تختلف الأشْرِبَةُ بِحَسَبِ الكُؤوسِ، وقَد يختلف الشُّرْبُ من كأس واحدة. وإنْ شَرِبَ مِنْهُ الجَمُّ الغَفِيرُ مِن الأحِبَّةِ اهـ. قُلْتُ: وَقَدْ شَرَحْت هٰذا الكَلاَم، في شَرْحِنا لخمرية ابن الفارض اهـ.

«ومِنْ وَصَايَاهُ رَضِيَ الله عَنْهُ، لتلميذِهِ أبي الحَسَنِ، قال له: الله الله، والنَّاسَ نَزِّهْ لسانَكَ عَنْ ذِكْرِهِمْ، وقَلْبكَ عَنِ التَّمَاثُلِ من قِبَلِهِم. وقل: اللَّهُمّ ارحَمْنِي مِنْ ذِكْرِهِم، ونَجِّني مِن شرِّهم، واغنني بِخَيْرِكَ عَنْ خَيْرِهِم، وتَوَلَّني بالخُصُوصية مِنْ بَيْنِهِمْ. إنَّكَ على كل شيءٍ قدير» وقال الشَّيخ أبُو الحَسَن رضي الله عَنهُ: أوْصَانِي حَبِيبِي، أي أُسْتَاذي مَوْلاَنَا عَبْد السَّلام بن مشيش، فقال: يا أبا الحسَن: لاَ تَنْقُلْ قَدَمَيْكَ إلاَّ حَيْث تَرْجُو ثَوَاب الله، وَلاَ تَجْلِسْ إلاَّ حَيْث تأمَن غالباً مِنْ مَعْصِية الله. وَلاَ تصْحَبْ إلاَّ مَن تَسْتعينُ بِهِ عَلَى طَاعَةِ الله. وَلاَ تصطفي لِنَفْسِكَ إلاَّ مَنْ تَزْدادُ بِهِ يقيناً، وقليلٌ مَا هُمْ اهـ. وقال أيْضاً: أوْصَانِي أُسْتاذِي فَقَالَ: «لاَ تَصْحَبْ مَنْ يُؤثر نَفْسَهُ عَلَيْكَ، فإنَّهُ سَئيمٌ، وَلاَ مَنْ يؤثرك على نَفْسهِ، فإنه قَلَّ ما يَدُومُ، واصحبْ مَنْ إذا ذُكِرَ، ذَكَرَ الله، فإنَّه يُغْنى بِهِ إذا شُهِدَ، وينوب عَنْهُ إذا فُقد ذِكرهُ نور القلب، ومُشاهدته مِفْتاحُ الغيوب». وقَالَ أيْضاً: رَضِيَ الله عَنْهُ: يَا أبا الْحَسَن «اهربْ مِنْ خَيْرِ النَّاسِ، أكْثَرَ مِنْ أن تَهْربَ مِن شَرِّهِمْ، فإنَّ خَيْرَهُمْ يصيبكَ في قَلْبِكَ، وشَرَّهُمْ يصيبُكَ في بَدَنِكَ، ولأنْ تُصَابَ في بَدَنِكَ خَيْرٌ مِن أن تصابَ فِي قَلْبِكَ، ولعَدُوٌّ تصِلُ بِهِ إلىٰ ربّكَ خَيْرٌ مِنْ حَبِيبٍ يقطَعُكَ عَنْ رَبّكَ». وَقَالَ أيضاً: سَأَلْتُ أُسْتَاذِي رضِيَ الله عَنْهُ عَنْ قَوْلِ الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلامُ: «يَسِّرُوا وَلاَ تُعَسِّرُوا، وبَشِّرُوا وَلاَ تُنَفِّرُوا». فَقَالَ رَضِيَ الله عَنْهُ: دلُّوهُمْ عَلَى الله، وَلاَ تَدُلُّوهُمْ على غَيْرِهِ، فإنَّ مَنْ دَلَّكَ عَلَى الدُّنْيَا فَقَدْ غَشَّكَ، ومَنْ دَلَّكَ عَلىٰ العمل فَقد أتْعَبَكَ، ومَنْ دَلَّكَ عَلىٰ الله فَقَدْ نَصَحَكَ. وَقَالَ أيْضاً: فَقَدْ سَأَلَنِي أُسْتَاذِي فَقَالَ: يَا أَبَا الحَسَن: بِمَاذَا تَلْقَىٰ الله؟ فَقُلْتُ بِفَقْرِي، فَقَالَ: لَئِن لَقِيت الله بِفَقْرِكَ لَتَلْقِيَنَّهُ بالصَّنَم الأعْظَم. وإنَّما يُلْقَى الله بِهِ سُبْحَانَهُ، لاَ بشَيْءٍ سِوَاهُ. وقَالَ لَهُ رَجُلٌ: يَا سَيِّدِي وَظِّفْ عَلَيَّ وظائف وأوراداً أعْمَلُ بِهَا. فَقال لَهُ: أرَسُولٌ أنا؟!. الفرائض مشهورة، والمحرمات معلومة، فَكُن للفَرَائضِ حَافِظاً، وللمعاصِي رَافِضاً، واحْفَظْ نَفْسَكَ مِن حُبِّ الدُّنْيا، وحُبِّ النِّساءِ وحُبِّ الْجَاهِ، وإيثار الشهوات، واقنَعْ بِما قَسَّمَ الله لكَ. إذا أخرجَ لَكَ مخرجَ الرِّضَى، فَكُنْ فِيهِ شَاكِراً، وإذا أخرج لك مخرج السُّخطِ، فكُن عليه صَابِراً، وحبُّ الله قُطْبٌ تَدُور عَلَيْهِ الخَيْراتُ، وأصْلٌ جَامعٌ لأنواعِ الكراماتِ وحَصْرُ ذلك كلّه في أرْبَعٍ: الوَرَع، وحُسن النِّيَّة، وإخلاص العمل، وصُحْبة العلم؛ ولا تَتِمُّ لهُ هذه الجملة إلاّ بِصُحْبَةِ أخٍ صالحٍ، أو شَيْخٍ نَاصِحٍ.

أخَذَ رَضِيَ الله عَنهُ عَنْ شَيْخِهِ أبِي محمَّد، سَيِّدي عَبْد الرَّحمن المَدَني، المُلقَّب بالزَّيَّات، لسُكناه بحارة الزياتين، وكَانَ الشَّيخ سيّدي عبد السَّلام بن مشيش

في صُغْرِهِ، انقطع للعبادة في مغارة بِجَبَلِ العَلَم، بَعْد أن أدْرَكَهُ الجَذْب؛ وهو ابْن سبع سنين. فَدَخل عليه بعد مُدَّةٍ رجلٌ عليه سيما أهْلِ الخَيْر والصَّلاح، فقال: أنا شيخُكَ الَّذي كنْت أمُدّكَ من وقت الجذبِ إلى الآن. ووصَفَ لَهُ ما وَصَلَ إلَيْه عَلَى يَدَيْهِ من المُنازَلاتِ والمَعَارِف، وفَصَّلَ لَهُ ذلِكَ مَقاماً مقاماً، وحالاً حالاً، وعيَّن لكلِّ حالٍ زمَنَهُ، ثم سُئِلَ رضي الله عَنْه بعد ذَلِكَ، هَلْ كَانَ يأتيكَ أوْ كُنْتَ تأتيه؟ فقال: كل قد كان. فقيل لهُ: أطيًّا لمسافة المكان، أوْ سفراً. فقال: طيًّا. وأخذ شيخه المذكور، عن عارف وقْتِهِ: القطبُ تقيّ الدِّين الفقير فيهما، وهو من أرض العِراق، وهو عن الْقطب فَخْر الدِّين، عن القطبِ نور الدِّين أبي الحسين، عن القطب تاج الدِّين، عن القطب شمس الدِّين بأرض الترك، عن القطب زيْن الدِّين القزويني، عن القطبِ أبي إسحاق، إبراهيم البَصْري، عن القطب محمَّد أبي القاسم أحمد المِرْواني. عن القُطْبِ أبي محمَّد سعيد، عن القطب سَعْدٍ، عن القطب محمد فتح السعود، عن القطب سعيد الغزواني، عن القطب أبي محمد جابر، عن أوَّل الأقطاب، سيِّدنا الحسَن، عن أبيه سيِّدنا علي بن أبي طالب، عن سيِّد الأولين والآخرين، سيِّدنا ومَوْلاَنَا محمَّد ﷺ، ويتَّصل نَسَبُنَا بِهذا الشَّيخ، من طريق شَيْخنا العارف البُزَيْدي الحسني، عن شيخه العارف، مَوْلاي العربي الدرقاوي الحسني، عن شيخه العارف، سيدي علي العمراني الحسني، عن شيخه العارف سيّدي العربي بن أحمد، بن عبد الله، عن أبيه سيدي أحمد بن عبد الله، عن سيدي قاسم الخصاصي، عن العارف بالله، سيدي عبد الرحمن الفاسي، عن سيدي محمَّد بن عبد الله الكبير، والد سيدي أحمد، وهما عن القطب سيدي يوسف الفاسي، عن العارف سيّدي عبد الرحمن المجذوب، عن شيخه سيّدي علي الصنهاجي؛ المشهور بالدوار، عن شيخه سيّدي إبراهيم أفحام، عن سيّدي أحمد زروق، عن شيخه سيّدي أحمد بن عقبة الحَضْرَمي، عن سيدي يحيى القادري، عن القطب سيدي علي بن وفا، عن والده سيّدي محمَّد بحر الصفا، عن سيدي داود البلفي، عن سيدي أحمد بن عطاء الله، عن القطب سيدي أبي العباس المرسي، عن القطب سيدي أبي الحسن الشاذلي، عن القطب الكبير العارف الشهير صاحب التصلية؛ الَّذي قال في أوَّلِهَا: «اللَّهُمَّ». أي يا الله، حذفت الياءُ إزالة للبُعْدِ الذي تدلّ عليه، وعُوضَتْ عنها الميم، دلالة على الجَمْع، ولذلكَ قال الحسَنُ: مَن قال: اللهمَّ، كأنَّما دَعَا الله بأسْمَائِهِ كُلِّها؛ لأنَّ الميم تدلّ على الجَمْع، كهُمْ «صَلِّ» أي ترحَّم وتعطف «عَلَى» سيّدنا ومَوْلاَنَا محمَّد «مَنْ» أيْ الذي «مِنْهُ» أيْ من نورهِ؛ الذي هو

بَذْرة الوجود، والسبب في كل مَوْجُودٍ. ويحتمل أن تكون مَنْ تعليلية، أيْ من أجْله ﷺ «انْشَقَّتْ» أي لاَحَتْ وظَهَرَتْ، أوْ نَبَعَتْ وَانْفَجَرَتْ «الأَسْرارُ» أي أسْرار الذَّات العالية. وقد كانت قبل ظهور نوره محجوبة باطنية، تجلَّى فيها الحقّ تعالى باسمه الباطن، فلمَّا أراد أن يتجلَّى باسْمِهِ الظَّاهِرِ، أظهر قبضةً مِنْ نوره، فقال: كُوني محمَّداً، فَمِن تلك القَبْضَة المُحَمَّدِيَّة، تكوَّنَتِ الأكوانُ، منَ العَرْش إلى الفرْش، فما ظَهرت أسْرار الذَّاتِ، إلاَّ من تلك القبْضة النورانية، فَظَاهِرُهَا ذات، وباطنها صفات، وبتلك الصفات، وقع التكثيف والتصويرُ، والتعبيرُ، والتشْكيل والتحيير.. وإلى ذلك أشار بقَوْلِهِ: «وانْفَلَقَتْ» أي من نورِهِ ﷺ، انفلقَتْ، أي انفلقَتْ وظَهَرَت «الأنْوارُ» أي أنْوار الصفاتِ، وأنوارُهَا: أي آثارها؛ التي ظهرتْ على ظاهر التجليات. مِنْ تكثيفٍ وتلطيفٍ، وتقييدٍ وتخصيصٍ، وتشكيل وتمييز، وإعْزاز وإذلالٍ، وخَفْضٍ وَرَفْع، وقبْضٍ وبَسْطٍ. وغَيْر ذلِكَ مِن اختلافِ الآثار، وانتقالات الأطوار، فهذه كلها من آثار الصفات الأزلية، التي هي القدرة، والإرادة، والْعِلم، والحياة. والصفات لا تفارق الموصوف، لكِنْ لمَّا كانت الصِّفاتُ لطيفة لا تُدْرَكُ أظهرتْ نفْسَها في المحسوساتِ، والذَّات عيْن الصفات، والصفات عيْن الذَّات، أي مَحَلّها واحِدٌ، فَحَيْث تجلَّتِ الذَّاتُ تجلَّتِ الصِّفاتُ، وحيْث ظَهَرَتِ الصِّفات، ظَهَرتِ الذَّات، فَعَبَّروا عن هذا الكلام بالاتِحادِ، والعَيْن، فأهْلُ الفَرْق وهُمْ أهْل الحجابِ، لا يشهدون إلاَّ الصفات، أي أثرها؛ وهم محجوبون عن شُهُودِ الذَّاتِ فكُلُّ مَنْ دَخَلَ عالم التكوين، فهُوَ من تِلكَ القَبْضةِ، فَظَاهِرها الخ... وأهْلُ الجمْع؛ وهم أهْل الجَذْبِ والفناء، لا يشهدونَ إلاَّ الذَّات، ويغيبُونَ عن أثر الصفاتِ، وأهْل البقاءِ؛ وهم أهْلُ الكَمَالِ يشهدونَ الذَّات فِي الصِّفاتِ، والجمْعَ في الفَرْقِ، لا يحجبُهُمْ جَمْعهم عن فَرْقِهِمْ؛ ولا فَرْقُهُمْ عن جَمْعِهِم، يعطون كل ذي حقٍّ حقَّهُ، ويُوفون كُلَّ ذي قِسْطٍ قِسْطَهُ. فَكَلام الشيخ رضي الله عنه مِنْ بابِ التَّرقِّي، فانشقاق الأسْرارِ؛ لأهل الفَنَاءِ فِي الذَّاتِ؛ وهم أهْل الجذْبِ والسكر. وانفلاق الأنْوار؛ لأهْلِ البقاءِ؛ وهو الرجوع إلى شهودِ الأثرِ بالله، وهم أهل السلوكِ بَعْدَ الجذْبِ والفناء.

ويحتمل أن يريد بقوله: منه انشقت الأسرار. أي أسرار الجبروت، ومنه انفلقت الأنوار، أي أنوار الملكوت. أو تقول: منه انشقت الأسرار. أي أسرار الحقيقة، وانفلقت الأنوار، أي أنوار الشريعة. أو تقول: منه انشقَّت الأسرار، أي أسْرار الإحسان، وانفلقت الأنوار، أي أنوار الإيمان والإسلام. أو تقول: منه

انشقت الأسرار: أسْرار عالم الغَيْب، وانفَقَلَتِ الأنْوَار: أنوار عالم الشَّهَادَةِ. أوْ تَقولُ: مِنْهُ انشقت الأسْرار: أسْرَار القدرة. وانفلقَتْ الأنوار، أنوار الحِكمة.

ويحتمل أنْ يكون كلامهُ من بابِ التَّدلِّي، فيكونُ قدَّم أوَّلاً مقام أهْل الإحسان، من أهْل الشهود والْعِيَان. ثم نَزَل إلى مقام أهْل الدَّليل والبُرْهان، وهم أهْل شهود أثر الصِّفَات، قبل شهود الذّاتِ، فيكون قَوْلهُ: انشقَّتِ الأسْرار لأهْل الفَنَاءِ فِي الذَّاتِ. وانفلَقَتِ الأنوارُ؛ لأهْل الفَنَاءِ في الصِّفاتِ؛ قبل الفَنَاءِ في الذَّاتِ. فإنَّ عامَّة المتوجِّهينَ، يَبْتدئون بِشهودِ الأثرِ، ثم يَرْتقُونَ إلى شهودِ المُؤثِّرِ بالشريعة، ثم بالحقيقة وبالإسْلام والإيمان، ثم بالإحسان، وبعالَم الشَّهادة، ثم عالَم الغَيْبِ، وبالحِكمة ثم القدرة، فيكون أوَّلاً في توحيد الأفْعال: لاَ فاعل إلاَّ الله؛ وهو نهاية الصالحين، ثم في توحيد الصفات: لا حَيّ ولا قَادِر مريد، وَلاَ سَمِيعَ، وَلاَ بَصِير، ولا متكلِّم إلاَّ الله، ثم في توحيد الذَّاتِ: لاَ موجود إلاَّ الله، ثم يزيدون إلى مقام البقاءِ، وإلى ذَلِكَ أشار بعضهم بقولِهِ:

وَيَفْنَى ثُمَّ يَفْنَى ثُمَّ يَفْنَى فَكَانَ فَنَاؤه عَيْنَ البَقَاءِ

ولقَدْ سمعتُ شيخنا البوزيدي رضيَ الله عَنْهُ يَقُولُ: طريقنا ليْس فيها إلاَّ فَنَاءانِ: فناء الأفعال، وفناء الذات. وأما فناء الصفات فهو مطوي في فناءِ الذَّاتِ؛ وهو كما قال رضي الله عَنْهُ، لأن طريق الشاذلية مختصرة، صاحبها أول قدم يضعه في مقام الإحسان فيفْنَى أوَّلاً في الاسْم، ثم في الذَّاتِ فنهاية الصَّالحين، بداية العارفين، وكلامنا كله مع مَنْ وجد شيخَ التربية، وأمَّا من لم يجد فَلاَ كَلاَم مَعَهُ، إذ لاَ سِرَّ لَهُ.

تنبيهٌ: إنما خصّ تجلِّي الذَّات بالأسرار، وتجلِّي الصفات بالأنْوارِ؛ لأن تجلِّي الذَّات لا يدركه إلاَّ الخواصّ، أو خواصّ الخواصّ. ومن شأن السرّ أن لا يُدْركه إلاَّ الأفراد، بخلاف تجلِّي الصفات؛ وهو الأثر، فيُدركه العام والخاصّ. كما أنَّ النور كذلِكَ، لا يخفى على أحدٍ، وإنما خصَّ أيْضاً السرّ بالشقّ، والنُّور بالفلقِ، لأنَّ الشق يكون أوَّلاً، ثم يقع الفلق ثانياً. تقول: انشقَّت الإناءُ إذَا لَمْ تَنْفَصِلْ فاحتجبَت بِلاَ حجاب، ولله درّ القائل:

وَمَا احْتَجَبَتْ إلاَّ بِرَفْعِ حِجَابِهَا وَمِنْ عَجَبٍ أنَّ الظُّهُورَ تستر

وفي مشاهدتها على ثلاثة أقسام:

قسم يشهدونها بعد مشاهدة الأكوانِ؛ وهم أهل الجذب والفناء؛ فإذا انْفَصَلَ، تقول انفَلَقَ، كذلِكَ انشقَّت الأسْرار، يكون أوَّلاً لأهل الفناء، وانفلاق الأنوار يكون ثانياً لأهْل البقاء بعد الفناء. واعلمْ أن الأنوار الحسية ثلاثة: نورُ النجوم، ونور القمر، ونور الشمس. والأنوار المعنوية كذلك: نور الإسْلام، كَنُور النُّجْومِ، ونور الإيمان كنور الْقَمَرِ، ونور الإحسان كَنُورِ الشَّمْسِ، أوْ تقول: نور الفَنَاءِ في الأفعالِ كنُور النجوم، ونُور الفناءِ في الصفات، كَنُور القَمَر، نور الفناء في الذَّاتِ، كنُور الشَّمْسِ فأوّلُ ما يكْشَفُ للمُريد، نور ضعيف كَنور النجوم، فتراه يسقط ويقوم، لخفاءِ الطريق، تختفي. ثم يَبْدُو لَهُ قَمَرُ التوحيد. فيقل عِثارُهُ. ثم تطلع عليه شمس العِرْفان، فلا يخفى عليه مكانٌ، وفي ذلك يقول المجذوب رضِيَ الله عَنْهُ:

طَلَعَ النَّهارُ على الأقمارِ ولا يَبْقَى إلاَّ رَبِّي النَّاسُ زَارَتْ مُحَمَّدْ وأنَا سَكَنْ لِي فِي قَلْبِي

وقال أيْضاً:

طَلَعَ النَّهارُ عَلَى قَلْبِي حتَّى نَظَرتُه بِعَينِيَا

وقال آخر:

إنَّ شَمْسَ النَّهَارِ تَغْرُبُ بِلَيْلِ وشَمْسُ الْقُلُوبِ لَيْسَتْ تَغِيبُ

وقُلْتُ فِي قصيدتي الرَّائية، في سِرِّ الرُّوحِ:

لطيفة نُورٍ في كَثَافَةِ ظُلْمَةٍ ولكِنَّ بَدْرَ التَّامِ في لَيْلِهِ يَجْرِي
فَإنْ أشْرَقَتْ شَمْسُ النَّهَارِ تَغَيَّبَتْ غَيَاهِبُ لَيْلٍ عَنْ سَمَا قَلْبِكَ الدُّرِّي
ألا إنَّ شَمْسَ الحِسِّ تَغْرُبُ لَيْلُهَا ولَيْسَ لِشَمْسِ الحَقِّ مِنْ أفُلٍ يَجْرِي

واعْلَمْ أنَّ هذه الأنوار؛ التي انفلقت مِن نُورِهِ عليه السَّلام، انحجَبَتْ بِسِرِّ الحِكْمَةِ في حَالِ ظهورها، إذْ لا بُدَّ لِلْحَسْنَاءِ مِنْ نِقَابٍ، والشَّمْسِ من سَحَابٍ، فَاخْتَجَبَتْ بِلاَ حِجَابٍ، ولله درُّ القائِلِ:

وَمَا احْتَجَبَتْ إلاَّ بِرَفْعِ حِجَابِهَا وَمِنْ عَجَبٍ أنَّ الظُّهُورَ تَسَتُّرُ

والنَّاسُ في مُشاهدتها على ثلاثة أقسام:

قسم يشهدونها بعد مُشَاهَدَة الأكْوَانِ؛ وهم أهْل الجَذْبِ والفَنَاءِ، مِنْ أهْلِ مقام الإحْسَانِ، وإليه أشار بعضهم بقولِهِ: ما رَأَيْت شَيْئاً، إلاَّ رأيْت الله قبله، ولَمْ أره حَدِيثاً، وإما هو من قول بعض العارفين، كالذي قبْلَهُ. والله تعالى أعْلَمُ.

وقَالَ الشَّيْخُ مَوْلاَنَا عَبْد السَّلام لِتِلْميذِهِ أبي الحسَنِ: «حَدِّدْ بَصَرَ الإيمَانِ، تَجِدِ الله تعَالَى في كُلِّ شَيْءٍ، وَعِنْدَ كُلِّ شَيْءٍ، وَمَعَ كل شيْءٍ، وتَحْتَ كل شيْءٍ، وقريباً من كلِّ شَيْءٍ، ومحيطاً بكلِّ شيْءٍ، بِقُرْبٍ هُوَ وَصْفُهُ، وبإحَاطَةٍ هِيَ نَعْتُهُ. وعُدَّ عَنِ الظَّرْفِيةِ والحدودِ، وعن الأماكِنِ والجِهَاتِ، وعن الصحبة، والقرْب في المَسَافَاتِ، وعن الدَّور بالمخلوقاتِ، وامْحَق الكلّ، بوصْفه الأول والآخِر، والظَّاهر والباطِنُ، وهُوَ هُوَ هو. كَانَ الله وَلاَ شَيْءَ مَعَهُ، وهو الآن على ما عليه كان». وَقَوْلُهُ: حَدِّدْ بحاءٍ مهْمَلة، أي صِف، وقوله: وامحَقْ، هو بالميم من المحقِ؛ وهو المحق والإضمِحلاَلُ، وبَاقِي كلامِه ظاهرٌ عِند أهْلِ الأذْوَاقِ، نَفَعَنَا الله بذكْرِهِمْ، وخَرَطَنَا فِي سِلْكِهِمْ آمينَ. ثم قال رضي الله عَنْهُ: «وفِيهِ»: أيْ في سَمَا قَلْبِهِ الصافِي «ارْتَقَت»: أي ارتفَعَتْ وأشرقَت شُمُوسُ «الحَقَائِقِ» العِرْفانية؛ والأسْرار الرَّبَّانية، والعلوم اللَّدُنية. شبَّهَ قَلْبَهُ عليه الصَّلاَة والسَّلام، بِسَمَاءٍ صاحِيَةٍ. أشرقت فيها شموس كثيرة، فامْتَلأَتْ بِالأَنْوَارِ. ولذلك جمع الحقيقة، وإن كَانَت في الأصل واحدة؛ لأنه عليه الصَّلاة والسلام، اجتمع فيه من الحقائق، ما افترَقَ في غَيْره. فكان باطِنه عليه الصَّلاة والسلام، معموراً بِأنوار الحقائقِ، وظاهِرُهُ معموراً بأنوارِ الشَّرائعِ، فَكَان عليه الصَّلاة والسلام، أعطاه الله القوة مِنَ الجِهَتيْنِ: ظاهره معموراً بالشرائع، وباطنه معموراً بالحقائق. وَلاَ يكون هذا إلاَّ له عليه الصلاة والسلام، أوْ لِمَن كَان على قَدَمِهِ ﷺ، ممَّن أهَّلَهُ الله للاقْتِداء بِهِ. ويكون هذَا بَعْد التمكين، ولقد سمعْت شيخ شيْخنا مولاي العربي رضي الله عنه يقول: لاَ تجتمع مجاهدة ومشاهدة، إلاَّ في رَجُلٍ واحدٍ، على قَدمِهِ ﷺ، واعترض قول الشيخ اليوسي في بعض أدعيته: وزيّن الظاهر بالمجاهدة، وزيّن الباطن بالمشاهدة. إذ لا مُجاهدة في الظَّاهِرِ، قبل مشاهدة الباطِنِ، كما تقدَّم. وقال شيخ شيوخنا سيدي علي الجمل رضي الله عنهُ: الوليُّ الكامل؛ هو الذي يكون ظاهره معموراً بالشَّرائِعِ، وباطنهُ معموراً بالحقائق. قُلْتُ: وهذا قليلٌ. وعلى تقدير وُقوعِهِ: تكون عِبَادة الله معمولاً فيها بالقدرةِ، فلا مجاهدة له فيها البتَّة. والغالب على أهْل الباطِنِ خفاء أعْمَالِهِمْ؛ لأنَّها قَلْبيَّة: بيْن فِكْرةٍ ونَظْرةٍ، وشهودٍ وعِبْرةٍ، لا يزيدون على الفرائض إلاَّ ما تَيسَّرَ. ثم يسْتغرقون في الفِكرة والنظرة التي هي أفضل العبادات. ساعة منها تَفْضل عبادة سَنَةٍ، كما في الحديث. وفي رواية سَبْعين سَنَة. والجمع بَيْنهما، أنَّ الأول في فِكْرَة أهل الحجابِ، والثاني في فِكرة أهْل العِرْفان. وفيه قَال الشاعِرُ:

كُلُّ وقْتٍ مِنْ حَبِيبي قدرُهُ كألْفِ حجَّةِ

أي: سنة. وقال أبو العبَّاس المُرْسي، رضي الله عنه: قَوْمٌ أقامَهُمُ الله لِخِدْمَتِهِ، وقَوْمٌ اخْتَصَّهُمْ لِمَحَبَّتِهِ. «كُلاً نَمِدُ، هؤلاءِ وهؤلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ، وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّك مَحْظوراً». فأهْلُ المَحَبَّة، هم أهْلُ الفِكْرَة، وأهْلُ الخِدْمَة، هم أهْلُ العبادة الظَّاهرةِ. أوْ تقول: أهْلُ المحبَّة هُمْ أهْل العِبَادة القلبية. وأهْلُ الخِدْمَةِ؛ هم أهْلِ العِبَادَةِ الخارجية. أوْ تقول: أهْلُ المحبَّة، هم أهْل العِبَادَةِ المَعْنَوِيَّة، وأهْل الخِدمَة هم أهْل العِبَادةِ الحِسِّيَّة. والحاصلُ: أنَّ عمل الشريعة، لا بُدَّ لهُ أنْ يعْتبرَ الحقيقة. والحقيقة لا بُدَّ أنْ تعْتبِرَ الشريعة. إلاَّ مَا لا بُدَّ مِنْهُ. وَمَنْ قال خِلاَفَ هذا؛ فهو جَاهِل بِعِلْم الباطِنِ. وقد رأيْت فِي قوتِ القلوب؛ لأبي طالب المكِّي، رضي الله عَنْهُ. أنَّ بعض العَارفينَ قال لَهُ المَلَكُ الَّذي يكْتُبُ أعْمَالَهُ: يَا سيِّدي، فَرِّحْنَا بشَيْءٍ مِنْ أعْمَالِكَ، أي ظهِّرْهُ لَنَا، نتقرَّب بِهِ إلى رَبِّنا. فَقَالَ له: أمَا يكفيك الصلوات الخَمْسُ. وانظر قول الشاعر؛ وهو الحَلاَّج:

قلوبُ العارفينَ لهَا عُيُونٌ ... تَرَى مَا لاَ يُرَى للنَّاظِرِينَ

وألْسِنَةٌ بِأسْرَارٍ تُنَاجِي ... تَغِيبُ عَنِ الكِرَامِ الكَاتِبِينَ

وأجْنِحَةٌ تَطِيرُ بِغَيْرِ رِيشٍ ... إلَى مَلَكُوتِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

وقد ذَيَّلْناهُ بِبَيْتَيْنِ آخَرَيْنِ فقلْت:

وأفْئِدةٌ تَهِيمُ بِعشقِ وُجْدِ ... إلَى جَبَرُوتِ ذِي حقٍّ يقينا

فَإنْ أرَدت دَرْكَ ذي الْمَعَانِي ... فَبَدِّلْ رُوحكَ قليلاً فِينَا

فهذه عبادة العارفينَ المحققينَ، باطنية خفية. ولذلكَ اخْتَفَوا عن كَثير مِنَ النَّاسِ. فَلاَ يَعْرفهُمْ إلاَّ مَنْ أرَادَ الله أن يُعَرِّفَهُمْ بِهِمْ، ثُمَّ أشَارَ رَضِيَ الله عَنْهُ إلى الْعِلْم الظَّاهِرِ؛ الذي علمه عليه السلام فقال: «وتَنَزَّلَتْ» فِي قَلبِهِ عليه السَّلام، بالوحي والإلهام «عُلُومُ آدَمَ» عليه السلام. قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ أيْ ألهَمَه الله، وألقى في فِطرتِهِ مَعْرِفةَ الأشياءِ كُلِّها، ولغات الألسُن كُلّها، مِنْ عَرَبيَّة وسِرْيانية وغيرهما، مما تكلم به أوْلاَدهُ، وكَذَلِك نَبِيُّنَا عليه الصلاة والسلام، علمَهُ الله أسْمَاءَ الأشياءِ ومسمياتها وزَادَ معرفة خواصّها ومَنَافعها. وكان عليه السَّلامُ، يَعْرف لغات العرب والْعَجَم وغيْرِهما، فَكَانَ يُخَاطِب كل قَوْم بِلُغَتِهِم، ويكْتُبُ إلَيْهم بعُرْفِ كَلامِهِمْ. وقد أطلعه الله تعالى، على عُلوم المتقدمين، وشرائعهم الدَّارسة، وأخبارهم الماضية، وعَلِمَ ما يكونُ في أُمَّتِهِ مِنَ الأحْدَاثِ والوقائِع. وما

يَلْقَوْنَ من المصائِبِ والفَجَائِعِ، وخَصَّهُ الله بِأسْرارٍ، لَمْ يطَّلعْ عليها أحَدٌ مِن خلقِ الله. وَكَانَ عَلَيْه الصَّلاةُ والسلامُ، يخصّ قوماً بأسْرَارٍ لَمْ يَفْشِهَا لغَيْرِهِمْ. حتَّى قال الفَارُوقُ رضيَ الله عَنهُ: كُنْت أدْخُلُ على النبيّ ﷺ، ومَعَهُ الصدّيق رضي الله عنه، وهما يتكلمَانِ في عِلْم السّرّ، وفي عِلم التوحيد، فأكون بيْنهما كالزّنجي، لا أعرف ما يقولاَنِ. قال سيّدي عبد الوارث، في شَرْح المَبَاحثِ: كَانَا أوّل مرَّةٍ يتكلمَانِ في عِلْم السّرّ، فإذا دَخَلَ عُمَرُ رضِيَ الله عَنهُ، أمَسَكَا. ثم أشرَكَاهُ في المذاكرةِ. فإذا دَخَلَ عثمان رضي الله عنهُ، أمسَكُوا، ثم أشركوهُ في المُذَاكرةِ، فإذَا دَخَلَ عليٌّ رضِي الله عَنهُ، أمسَكُوا، ثم أشركُوهُ في المُذَاكَرَةِ. وقال غيرهُ: كَان عليٌّ رضي الله عنه، يَفْهَم تِلك الأسرار، قبل أن يشركوه فِي المُذَاكَرَةِ. والله أعْلَمُ. وهذه الأسرار لَيْست من علم الظَّاهر، وإنَّما هِيَ من عِلْم الباطِنِ، فحقها أن تُذْكر عِنْدَ قَوْله: «وَفِيهِ ارْتَقَتِ الْحَقَائِقُ». لكن انْجَرَّ الكَلاَم إلَيْهاَ فِي هذَا الْمَوضُوع. فالأمْرُ قَرِيبٌ، إذ إنَّ عِلْمَ الباطِنِ، لاَ يتحقق إلاَّ بعد الْعِلم الظَّاهر؛ وهو ما يتعلّق بإصْلاَحِ الجوارحِ الظَّاهرة. فالعلومُ ثلاثة: علمٌ يتعلق بإصلاح الظَّاهِرِ، ويُسَمَّى علمَ الشريعة، وعِلْمُ الحِكْمَة، وعِلْمٌ يتعلق بإصْلاَحِ الْبَاطِنِ؛ ويُسمَّى عِلمَ التَّصوُّفِ، وعِلْمَ الطريقةِ. وهما كَسْبِيَانِ، وعِلْمٌ مَوْهُوبٌ، ويُسمَّى علم الحقيقة؛ وهو الثمرَة والغاية. فكُلّ علم لا يُبَلِّغُ صاحِبَهُ لِعِلْم الحقيقةِ؛ فَهُوَ ناقِصٌ. إذْ ثَمرَةُ العِلم العمل. وثمرَة العمل الحال. وثمرة الحال الذّوق والوُجْدَان؛ وَهُوَ نِهَايَةُ الْعِرْفَانِ. وَلاَ بُدَّ مِنْ شيخٍ مُربٍ، ينقل المُريد من عِلْم الشريعة، إلى عِلْم الطَّريقة، مع تحقيق الشريعة. وإلاَّ بَقِيَ في أحدهما عَلَى الدَّوام. والشريعة: تصْلِحُ الظَّواهر، والطريقة تصلحُ الضَّمائر. والحقيقة تصلح السَّرائر. أوْ تقول: الشريعة أن تَعْبُدَهُ. والطريقة أن تقصدهُ. والحقيقة أنْ تشهدَهُ. أوْ تقول: الشريعة للطالِبينَ. والطريقة للسَّائرينَ. والحقيقة للواصلينَ. أوْ تقول: الشريعة لطالبِ الأجُورِ. والطريقة لطالبِ الحُضُورِ. والحقيقة لِرَفْع السُّتُورِ. أوْ تقول: الشريعة للعوامّ. والطريقة للخَواصّ. والحقيقة لخواصّ الخواصّ. ومَرْجع الشريعة إلى امتثالِ الأمرِ، واجتنابِ النَّهْي. ومَرْجع الطريقة، إلى تخلِّية وتحلِّية. فالتخلِّي: التطهير من الرَّذائِلِ. والتَّحْلية: الاتصافُ بالفضائلِ. وإنْ شئت قلت التخلية: هِيَ التَّنَزُّهُ عَن أخْلاَقِ البَهَائِم والشياطين. والتحلية: التخلّق بأخْلاَقِ الرُّوحانيينَ. فأخلاق البَهَائِم: الإهتمامُ بالأكْلِ والشرْبِ والنكاح، وأخلاق الشياطين: الحسَدُ والمَكْرُ، والخديعة، والغِشُّ، والكِبْرُ، والْغَضَبُ، والحدةُ، والقلَق، والشُّحُ. والفظاظة والقسْوَة، وحبّ الجاه، والمال، والرياسة

وغيْرُ ذلِكَ مما لاَ يُحْصَى. حتَّى قال بَعْضهُمْ: «للنَّفْس مِنَ النَّقَائِص، مَا لله مِنَ الكَمَالاتِ». والله أعْلَمْ. وأخلاق الرُّوحانيين: سلامةُ الصَّدْرِ، وسخاوة النَّفس، وحُسْنُ الخُلُق، والتواضعُ، والحِلْمُ، والتَّأنِّي، والسكينةَ، والطمأنينة، والشفقة والرَّحْمة، والسُّهولة والليُونة، وغَيْر ذلِكَ من الكَمَالاَتِ. فَمَن جَمَعَ هذِهِ العلوم؛ فَهُوَ النَّجم الثَّاقِبُ. وَمَنِ اكْتَفَى بِأحَدِهَا فَهُوَ ناقِصٌ وسَاقِطٌ. فَمَنْ تَشَرَّعَ وَلَمْ يتحَقَّقْ فَهُوَ فَاسِقٌ. إذْ لاَ يَخْلُو مِنْ مُنَازَعة المقادير. واعتراضه على الواحد القادِر. ومَن تحقق ولَمْ يتشرَّعْ، فَهُو زنْدِيق، بإبطالِهِ الأحكام، وتعطيل الحِكمة، وَمَنْ جَمَعَ بَيْنَهُمَا فَقَدْ تحقق، لقيامه بالقدرة مع الأدب والحِكمة. وفي التحقيق: ما ثَمَّ إلاَّ الحقيقة. إذْ لاَ فَاعِلَ إلاَّ الله، وَلاَ مَوْجُود سِواهُ. غَيْرَ أنَّ مَا يَبْرُزُ مِنْ عُنْصُرِ القدرة، إن كَان موافقاً للحكمة، سُمِّي شريعة وطاعةً، ويسمَّى أيْضاً حقيقة نُورَانية، وإن كَان مخالفاً، سُمّي معصيةً. ويُسَمَّى أيْضاً حقيقة ظلمانية، فالكُلّ مِنْهُ وإلَيْهِ. قال تعالى وهو أصْدَق القائلينَ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ﴾. وقَالَ تَعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ﴾. وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُۗ﴾. وقال سُبْحَانَهُ وتَعالَى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾. فالحقيقة عين الشريعة، والشريعة عين الحقيقة. إذ كُلاًّ مِنْهُمَا مَأمُور بِهِمَا، ولله درّ القائل في مَدْحِ النبيّ ﷺ حيْث قال:

يَا زَيْنَ الخَلاَئِقِ يَا عَيْنَ الحقيقةْ حققت الحقائق وَكَانَتْ وثيقةْ

فالإنسان كلّه، باطِنهُ قدرة، وظاهره حكْمة، فإن بَرَزَ مِنَ القدْرةِ ما يُوافق الحِكمة كَان حقيقة نورانية، وكَانَتْ علامة على سعادة العَبْدِ، وإنْ بَرَزَ مِن القدرة ما يخالف الحِكْمَة كَان حقيقة ظلمانية، وكان علامَة على عقوبة العَبْدِ، إلاَّ أن يَظْهر حِلْمُهُ، وبالله التوفيق. وحَيْث اجْتَمَع في نبينا عليه الصَّلاة والسَّلامُ الحقائق، وعلم التشريع، وعلوم الأولين، والآخِرين، عَجزَ النَّاس عن معرفته، ولذلكَ قال: **«فَأَعْجَزَ الْخَلاَئِقَ»** أي: صَيَّرَهُم عاجزين عَنْ فَهْمِهِ. فَوَجَب الإذعَانُ والإنْقِيَاد لِحكْمِهِ. كَمَا انقادَتِ الملائكة بالسجودِ، حيْث عجزَتْ عَنْ إدْرَاكِ عِلْمِهِ. وقد قالت الصحابة رضي اللّهُ عَنهُم، لمَّا رأوا الغَنَم سَجدَتْ له في قِصَّة البُسْتَانِ: يا رسُول الله، نَحْن أحَقّ بالسُّجُودِ لكَ مِنْهَا. فقال ﷺ: **«لو كَان أحد سَجَدَ لأحد أو لَوْ أمَرْتُ أحداً أن يَسْجُد لأحَدٍ، لأمَرْتُ الْمَرْأة أن تَسْجد لِزَوْجِهَا»**. فالسُّجُود إنَّما يكُونُ لله. وأمَّا آدَمُ، فَكَانَ قِبْلَةً. والمقصود بالسجودِ هو الله الّذي أمَرَ بِهِ. ثم قرَّر العَجْزَ

المتقدم وبيَّنَهُ بِقولِهِ «وَلَهُ» أي وَعَنْهُ «تَضاءَلَت» أي تقاصَرَتْ وتَصَاغرَتْ، أو تلاشَتْ واضمحَلَّتْ «الْفُهُومُ»: جمع فَهْم. أيْ فُهُوم العِبَادِ، فَلَمْ يَقْدِرْ أحَدٌ أن يَفْهَمَ ما خَصَّهُ الله بِهِ مِنَ الأسْرَارِ الإلَهيَّة، والمواهب الباطنية؛ لأنهم لَمْ يَرَوْا إلاَّ خَيَالهُ الظَّاهِرِ. وأمَّا الباطن فلَمْ يَعْلمه إلاَّ خالقهُ الَّذي خصَّه الله بِهِ. وفي بَعْضِ الأحاديث: **«والله ما عَرَفَنِي حقًّا غَيْر رَبِّي»**. ولله در البوصيري حيْث قال:

وكَيْفَ يُدْرِكُ فِي الدُّنْيَا حَقِيقَتَهُ قَوْمٌ نِيَامٌ تَسَلَّوْا عَنْهُ بِالْحُلُمِ

ولذلِكَ قال الشَّيخ رضيَ الله عَنهُ: «فَلَمْ يُدْرِكْهُ مِنَّا» مَعْشر الخلائق. «سَابِقٌ». عَلَيْهِ في مظهرِهِ الشخصي. «وَلاَ لاَحِقٌ» بَعْد وجودهِ الحِسِّي. بل كلهم كلَّتْ فُهُومُهُمْ، وتَقَاصَرَتْ عُلُومُهُمْ عَنِ الإحاطَة بالحقيقة المحمديَّة. ويحتمل بالسباق: مَن سَبَق في زمانه عليه الصَّلاة والسلامُ. كالصحابة رضي الله عَنهُمْ. وباللاَّحق. مَنْ أتَى بَعْدهُمْ. إذ كلهم سواء في العَجْز عن إدراكِهِ ﷺ. ولذلكَ قال أويس القرْنِي: «والله ما رأى أصحاب محمد من محمد ﷺ، إلاَّ قشرة الظَّاهِرِ، وأما الباطِنُ فلم يعرفْهُ أحَدٌ. فقيل لهُ: وَلَوْ ابن أبي قحافة. قال: ولو ابن أبي قحافة. والمرادُ: نَفْيُ الإحَاطَةِ بمعرفة سرِّهِ عليه الصَّلاة والسلامُ. وأمَّا إدراك البَعْضِ، فَلَهُمْ فِي ذلِك نَصِيبٌ، على قدر تَفَاوُتهم في معرفَةِ الله. وكذلك الأولياء رضيَ الله عَنهُمْ، فمنهم مَن يُدْرك شيئاً مِنْ سِرِّه عليه السلامُ، ومنهم مَن يُدْرك رُوحَهُ. ومِنْهُمْ مَن يُدْرك عَقْلَهُ، ومِنهُمْ مَنْ يُدْرك نَفْسه عليه الصلاة والسلامُ. فأهْل الرسُوخ والتمكين، يُدْركون سرَّه عليه الصَّلاة والسلامُ. وَلاَ يغيب عنهم طرفة عيْنٍ. كالْمُرْسِي وأمثالِهِ. وأهْلُ الشُّهُودِ والعِيَانِ مِنَ السَّائرينَ، يدْركون روحَهُ عليه الصلاة والسلامُ. وأهْل المُرَاقبة مِنْ أهل الإستشراق، يُدْركُون عَقْلهُ عليه الصلاة والسلامُ. وأهْل الحجاب من أهْل الدَّليل والبُرْهان، إنَّما يُدْركُونَ نَفْسَهُ ومَظْهَرَهُ الشخصي. فيرونه مُحَيَّزاً في صُورتِهِ التي كَانَ عليها ﷺ في الدُّنْيا، مناماً أو يقظةً، على قَدْرِ فَنَائهم فيه ﷺ؛ وهُمْ على مراتب: وأما تمثيل بَعْضهم له، كالخروبي، ومن تبعهُ لهذا الحديث، بالصحابة رضي الله عَنهُم. فلعَلَّ ذَلِك كان في زمانِهِ عليه الصَّلاة والسلام. والله أعْلَمُ.

وقَدْ سَمِعْت شيخ شيخنا مَوْلاَي العربي يقول: لقِيَنِي عالِمَانِ من علمَاءِ فاس بِمَسْجِدِ الْقَرَويين. فَقَالاَ لي: كَيْف يقول أبُو العباس المُرْسِي: «مَا غَابَ عَنِّي رسُولُ الله ﷺ طرفَة عَيْنٍ». كَيْف يكون ذلِكَ؟ فقال رضي الله عَنْهُ: قلتُ لَهُمْ: «يَا هؤلاءِ،

أُولَئِكَ السادة، كَانَتْ أفكَارُهم فِي عَالَمِ الملكوت، وهو عالَمُ الأرواح، وفيه أرْواح الأنبياء وغَيْرهم، ولَمْ تَكُنْ أفكَارُهُمْ فِي عَالَم الأشْبَاحِ، وهُوَ عَالَمُ المُلْك. قال: ثم قلتُ لهُمْ: وهَلْ تَدْرُونَ أيْن هو عَالَم الأرواح؟ عَالم الأرْواح هو حَيْث عالم الأشباح، ثم قمتُ عَنْهُمْ» اهـ. قُلْتُ: الآن المحلّ واحد، وإنما تختلف النَّظرة، فأهل البصيرة لاَ يَرَوْن إلاَّ الملكوت؛ وهو عَالَمُ الأرواحِ، وأهْل البَصَرِ، لاَ يَرَوْنَ إلاَّ المُلكَ؛ وهو عَالَمُ الأشباح. وقد أشار إلى ذلِكَ الشيخ بِقولِهِ: «فرِيَاضُ» جَمع رَوضٍ؛ وهو محلّ التنزهة، لاشتمالِهِ على نُوَّارِ وأزْهار، ومياه وخضرة. «المَلَكُوتِ» هو في اصْطلاحِ الصُّوفية، ما يُدرَكُ بِالبَصِيرَةِ والعلم. كما أنَّ المُلْكَ ما يُدْرِكُ بالبَصَر والوَهْم. أوْ تقولُ الملكوتُ: مَدْرِكُ أهْل الجَمْع. والمُلْكُ: مَدْرِكُ أهْلِ الْفَرْقِ. أوْ تقولَ: المُلكُ مَا ظَهَرَ. والمَلَكُوتُ مَا بَطَنَ. فَالْمَلَكُوت: مَدْرِك أهْل الشهود والعيان. والمُلْكُ: مَدْركُ أهْل الدَّليل والبُرْهَانِ. «بِزَهْرِ» جَمْع زهرة؛ وهي النّوار التي تُفْتحُ فِي زَمانِ الرَّبيع. «جَمَالِهِ» ﷺ «مُونِقَةٌ» أيْ معجبَة، ورياض الملكوت، مِن إضَافَة المشبَّه بِهِ لِلْمُشَبَّهِ. شَبَّهَ الملكوت الَّذي هو محلّ نزهةِ العارفين بِرِياضٍ مشتملةٍ على أزْهارٍ ونُوَّارٍ وخُضْرَة وجَمَال، لا يَتِمُّ جَمَالُهَا، وَلاَ يظهرُ نوارها إلاَّ باتباع الشريعة المحمَّدية. وإلاَّ كَانَتْ حقيقة ظلمانية، فالكَوْن الَّذي هو المُلك كُلُّه ظلمة. وإنما أناره ظهور الحقّ فيه. فَصَارَ كُلُّهُ نوراً. وَمَنْ لَمْ يَدْرك نُورَ الحقِّ فِيه، صار في حقِّهِ ظُلْمَةً. وكَانَ مُلْكاً. وَلاَ يُمْكِن أنْ يَظهر الحق فيه إلاَّ بالسلوكِ على الشريعة المُحَمَّدية. على يَدِ شَيْخ عَارِفٍ بدقائقها وأسرارها وحقائقها الظَّاهرة والباطنة. وإلاَّ بقي مَعَ ظُلْمَة الأكْوَانِ، وسِجْن الأوْهَام. «وَحِيَاضُ» جَمْع حَوْضٍ؛ وهو محلُّ اجتماعِ الْمَاءِ كَالصَّهْرِيج. «الْجَبَرُوتِ»: وهو ما يُدْركُ بِالْعَقْلِ والفَهْمِ، أو بالبَصيرة والْعِلْم. لكن في ثاني حَالٍ، أيْ بَعْدَ مَعْرفة المَلَكوتِ.

والحاصِلُ: أنَّ المُلْكَ والمَلَكُوتَ والجَبَرُوتَ مَحَلُّهَا واحِدٌ؛ وهو الوجود الأصْلِي؛ والْفَرْعِي، لكن تختلِف التسْمية، باختلافِ النظرةِ. وتختلف النَّظْرة، باختلاف التَّرَقي في المَعْرِفة. فمَن نَظر الكَوْنَ وَرَآه كَوْناً مُسْتَقِلاً بِنَفْسِهِ قَائِماً بِقدرةِ الله. ولم يُكْشَفْ لَهُ عَنْ رُؤْيَةِ صَانِعِهِ فيهِ، سُمِّيَ فِي حَقِّهِ مُلْكاً؛ لظُهُورِ تَصَرُّفِ الْقُدْرَةِ فِيهِ، ووجُودِهِ؛ وهما لاَ حقيقة لَهُمَا عِنْدَ المحققينَ. ولذلكَ لَمْ يُذْرِكْهُ الشيخ رضي الله عَنْهُ. وَكَانَ صَاحِبُ هذِهِ الرُّؤْيَةِ مَحْجُوباً لِوُقُوفِهِ مَعَ الْوَهْم، وَمَنْ فَتَحَ الله بصيرتَهُ، ونفَذَ إلى شهُودِ المُكَوِّنِ فِي الْكَوْنِ، أوْ قَبْلهُ، سُمِّيَ فِي حَقِّهِ مَلَكُوتاً. وَكَانَ صاحِبُ هذِهِ الرُّؤْيَةِ عَارِفاً مفتوحاً عَلَيْهِ. فَإن نَفَذَتْ بصيرتُهُ، إلى شهود أصْل الأُصُولِ والْفُرُوعِ؛ وهي

العظمَة الأزلية اللطيفية، قَبْلَ أن تتجلَّى وتُعْرف. وقد أشار إلَيْهَا ابن الفارض بقولِهِ:

صَـفَـاءٌ وَلاَ مَـاءٌ وَلُـطْـفٌ وَلاَ هَـوَى ... ونُـورٌ وَلاَ نَـارٌ، وَرُوحٌ وَلاَ جِـسْـمُ

تَـقَـدَّمَ كُـلَّ الْـكَـائِـنَـاتِ حَـدِيـثُـهَـا ... قَـدِيـمـاً وَلاَ شَـكْـلٌ هُـنَـاكَ وَلاَ رَسْـمُ

وقَـامَـتْ بِـهَـا الأشْـيَـاءُ ثـمَّ لِـحِـكْـمَـةٍ ... بِـهَـا احْـتـجِـبَـتْ عَـنْ كُـلِّ مَـنْ لاَ لَـهُ فَـهْـمُ

سُمِّيَ ذلِكَ جَبَرُوتاً، وَمَنْ نظر إلى نفوذ الرَّحْمَةِ السَّابِقة، فِي الأشياءِ كلّها، وهي نِعْمة الإتّحاد ونعمة الإمداد. سُمِّيَ ذلِكَ رحموتاً. فصارت العوالم أربعةً: مُلْكاً ومَلَكُوتاً، وجَبَرُوتاً، وَرَحَمُوتاً. وقَدْ نَظمْتُ قَصيدة تليق هُنَا، وهذا بَعْضٌ مِنْهَا، فَقُلْتُ:

إذَا حبست نَفسٌ فِي سِجْنِ الْهَوَى الَّذي ... تَـقَـيَّـدَ بِـهِ الْـعَـقْـلُ فِـي قَـهْـرِ قَـبْـضَـةٍ

وأشْـغَـلَـهَـا عِـلْـمُ الـصَّـوَانِ لـحِـكْـمَـةٍ ... فَـلَـمْ تَـرَ إلاَّ الْـكَـوْنَ فِـي كُـلِّ وِجْـهَـةِ

فَـذَلِـكَ عَـيْـنُ الْـمُـلْـكِ وَهُـمْ ثُـبُـوتُـهَـا ... وَنَـاظِـرُهُ الـمَـحْـجُـوبُ فِـي سِجْـنِ ظُـلْـمَـةِ

وَإنْ نَـفَـذَتْ رُوحُ الْـمُـقَـدَّسِ سِـرُّهُ ... إلَـى دَرْكِ سِـرِّ الـذَّاتِ خَـلْـفَ الأَنِـيَّـةِ

وَنَـغْـنِـي بِـهَـا سِـرَّ الْـمَـعَـانِـي الَّـذِي سَـرَى ... فِـي كُـلِّ الأَوَانِـي عِـنْـدَ أهْـلِ الـحـقـيـقـةِ

فَـذَا مَـلَـكُـوتُ الله يُـسْـمَـى لِـوَسْـعِـهِ ... وعَـارِفُـهُ يَـحْـظَـى بِـفَـتْـحِ بَـصِـيـرَةِ

وَإنْ سَـبَـحَـتْ بَـحْـرَ الـلَّـطَـافَـة والْـهَـنَـا ... وأضَـلَ الأصـول والـفـروع بـفـكـرةِ

فَـذَا بَـحْـرٌ مَـا لاَ يـحـيـطُ بِـهِ الْـفَـتَـى ... ولَـكِـنْ يـخـوفُ مِـنْـهُ فِـي ظَـرْفِ لُـجَّـةِ

والعَوَالِمُ[1] إنْ حققتها خمسة: ملكاً وملكوتاً، وجبروتاً، ولاهوتاً، ورَحمُوتاً. بإضافةِ الْفُرُوعِ إلى الأصول وفي ذلك يقول القائل:

وَإنْ أُلْـحِـقَـتْ كُـلُّ الْـفُـرُوعِ بِـأصْـلِـهَـا ... وَخَـاضَـتْ بِـحَارَ الْـجَـمْـعِ فِـي كُـلِّ لَـحْـظَـةِ

فَـذَاكَ الَّـذِي يُـسْـمَـى بِـلاَ هُـوتِ سِـرِّه ... وَعَـارِفُـهُ حَـقًّـا يُـهَـنَّـأُ بِـمِـكْـنَـةِ

وَإنْ نَـظَـرَتْ أهْـلَ الإلْـحَـادِ بِـرَحْـمَـةٍ ... وَجَـرْيَـهَـا فِـي الأَشْـيَـاءِ طُـرًّا بِـنِـعْـمَـةِ

فَـذَاكَ رَحـمـوتـاً فـيـه يَـدْرِيـه عَـارِفٌ ... تَـخَـلَّـقَ بِـاسْـمِ الْـحَـقِّ فِـي كـل نِـسْـبَـةِ

والتَّحقيق: أنَّ مَن دَخَلَ عَالَمَ التكوين؛ ما ظَهَرَ مِنْ حِسِّهِ، يُسَمَّى مُلْكاً، وَمَا

---

(1) والعوالمُ إنْ حَققتها، إلى يقول القائل: كَلاَمُ النَّاسخ عبد ربِّه: العمراني الخالدي عبد السلام، لربط الكَلاَمِ مَعَ بَعْضِهِ، لأني وَجدتُهُ، خَطَأً مِنَ النُّسَّاخِ، لاَ مِنْ صاحِبِ الشَّرْحِ اهـ.

بَطَنَ مِنْ أَسْرَارِ الْمَعَانِي يُسَمَّى مَلَكُوتاً. وما لم يَدْخُلْ عَالَمَ التكوينِ مِنَ الأَسْرَارِ الباقية على أصْلِهَا يسمَّى جَبَرُوتاً، وَلاَ يَفْهَم هذَا، إلاَّ من دَخَلَ مَقَامَ الإحْسَانِ، وخاضَ بَحْرَ الْمَعَانِي، وإلاَّ فحسبُهُ التَّسْلِيم لأَرْبَابِهِ. واعْلَمْ أنَّ شهودَ عَالَمِ المَلَكُوتِ يحجبِ عن شهودِ عَالَمِ المُلْكِ، وشهود عالم الجَبَروت يحجب عن شهود عَالَم الملكوتِ. وكل من ترقَى إلى مقام، غابَ عَمَّا قَبْلَهُ، إلاَّ الرَّحموتُ، فيمكن شهوده مع العَوَالم كُلِّهَا. والله تعالى أعْلَمُ.

والحاصل: أنَّ بَحْرَ الجَبَروت، فَيَّاضٌ بِأنوارِ الملكوتِ. وأنوار الملكوت، أصْلُها القَبْضة النورانية المحمدية. فكل من بَرَزَ مِنَ الجَبَروتِ، فالنور المحمدي واسطة فيهِ، وأصْلٍ فيه. وهذَا مَعْنَى قَوْلِهِ: «وَحِيَّاضُ الْجَبَرُوتِ بِفَيْضِ أَنْوَارِهِ ﷺ «مُتَدَفِّقَةٌ»: أيْ مُنْصَبَّةٌ بِقُوَّةٍ. فالتدفّق: هو الإِنْصِبابُ بِشِدَّةٍ، شَيْئاً فشيئاً، إنَّه شَبَّهَ بَحْرَ الجَبَرُوت بحياضٍ مملوءة بِمَاءِ الْغَيْبِ. تنصَبُّ إلى عَالَم الشَّهَادَةِ، شَيْئاً فشيئاً، على حَسَبِ الإرادة والمشيئة. ولمَّا كان نبيُّنا ﷺ، هُوَ سَبَبٌ فِي إبرازِ تِلْكَ الأنْوارِ، أُضِيفَتْ إليه ﷺ، إضافَةَ المُسَبِّبِ إلى السَّبَبِ. وإن كان الكل جبروتياً لاهوتياً؛ لأنَّ مَنْ لَمْ يشكرِ الواسطة، لم يشكرِ الموسوط. وَمَنْ لَمْ يشكرِ النَّاس، لَمْ يَشْكُرِ الله. فأهل الجَذْبِ والفَنَاءِ يَغيبُونَ عَنِ الواسطةِ. فَلاَ يَشْهَدُونَ إلاَّ الجَبروت. وأهْل البقاء لكمالهم، يشْهَدُونَ الواسطة والموسوط. وَيُعطون كلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، وَلاَ يحجبهم فَرْقُهُمْ عَنْ جَمْعِهِمْ، وَلاَ جَمْعهم عَنْ فَرْقِهِمْ. نَفَعَنَا الله بِهِمْ، وخَرَطَنَا فِي سِلكهم آمين. وإنما اختارَ التشبُّهَ بالحياضِ، ولم يشبه بالبحارِ، مُنَاسَبة لِلرّياضِ؛ لأنَّه لَمَّا شَبَّه الملكوت بالرياضِ، نَاسَبَ أن يشبِّهَ الجَبَرُوت بالحيَاضِ، إذ لاَ يقوم الرياض إلاَّ بالحيَاضِ. كَمَا لاَ يقوم الملكوت، إلاَّ بالجبروت، بل هو عنه كما تقدَّم، لكنَّ السالك يترقَّى بِهِ إلى الجبروت. فَوَجب إثباتهُ ثمَّ مَحْوُهُ. الأَكْوَان ثابتة بإثباتِهِ، مَمْحوَّة بِأَحَدية ذَاتِهِ، وإلَى إثبات واسطَتِهِ ﷺ، أشَارَ بِقَوْلِهِ: «وَلاَ شَيْءَ» مِنَ الكَائِنَاتِ «إلاَّ وَهُوَ بِهِ مَنُوطٌ» أي متعلق وَمُتَّصِل اتصال الْمَوْسُوطِ بِالْوَاسِطَةِ، فكُلُّ مَن بَرَزَ من عَالَم الْغَيْبِ، فَنبيُّنَا وَمَوْلاَنَا محمَّد ﷺ واسطة فِيهِ. كما وَرَدَ في بعض الأخبار: «لَوْلاَ محمَّدٌ مَا خَلَقْتَ عَرْشاً وَلاَ كُرْسِيًا، وَلاَ سَمَاءً وَلاَ أَرْضاً، وَلاَ جَنَّةً وَلاَ نَاراً». وفي بُرْدَةِ البوصيري: لَوْلاَهُ لَمْ تُخْرَجِ الدُّنيا مِنَ العَدَمِ. ثم ذكر علة تعلق الأشياءِ بِهِ ﷺ فَقَالَ: «إذْ لَوْلاَ الْوَاسِطَةُ» الَّذِي هو نبيُّنا ﷺ. «لَذَهَبَ كَمَا قِيلَ الْمَوْسُوطُ»: أي لَوْلاَ تَوَسُّطهُ ﷺ، بيْنَ الله وخلْقِهِ؛ لَذَهَبَ المَوْسوطُ الذي هُوَ الكَوْنُ. أي لَبَقِيَ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْه مِنَ العَدَمِ. فإذ تعليلة، والموسوطة فاعل

لَذَهَبَ. والجملة: كما قيل معترضة بيْن الفِعل والفاعِلِ، لأجْل القافية. إذ لَوْ قدّم على المجرور، لاخْتَلّ الوَزْنُ بالطاءِ. والتقدير: إنما تعلقت الأشياء بهﷺ؛ لأنّه واسطة. ولولاَ الواسطة لذَهَبَ المَوْسُوطُ. كما هو قول مشهورٌ. ثم ذكَرَ معمول قوْله ﷺ، وهو المصدر النّوْعي فقال: «صَلاَةً» أي صَلِّ صلاةً عظيمة كاملةً «تَلِيقُ» أي بعظمتِكَ وكمالكَ؛ وهذه الصّلاة لاَ يعلم قدرَهَا إلاَّ الله سبحانهُ وتعالى، وتكونُ هذه الصّلاةُ واصلة «بِكَ مِنْكَ إليْهِ» بِلاَ واسِطةِ أحَدٍ مِنْ خَلْقِكَ وَلاَ شكَّ أنَّ الهدايا والتُّحَف الّتي تَصِلُ إلى الوُزَراءِ بِلاَ واسطةٍ، بل مِن يَدِ المَلِكِ إلى الوَزِير، أعْظَمُ وأتَمُّ مِمَّنْ تَصِل على يَدِ الوَسَائِطِ. ثم ذكر عِلَّةَ تعظيم هذه الصّلاة فَقَالَ: «كما هُوَ أهْلُهُ»: أيْ لأجْلِ ما هو مستحقه ﷺ مِنَ التعظيم والإجْلاَلِ فَالْكَافُ تعليلية، كقوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ﴾. ثم ذكَرَ وجْهَ اسْتحقاقِهِ ﷺ، لهذه الكرامة فقال: «اللّٰهُمّ»، لَيْسَت هيَ للدّعاءِ، وإنّما هي مُبَالغة فِي الإقرارِ. كقوله في الجواب: اللّٰهُمَّ نَعَمْ. مبالغة في تمكين الجواب في ذِهْنِ السَّامِعِ. فكأنه قال: أُقِرُّ وأتحقق، أنه ﷺ «سِرُّكَ» الخفِي الذي اختصَصْتَ بِمَعْرِفتِهِ، أوْ سِرّكَ الّذِي أوْدَعْتَهُ فِي هذَا الكَوْنِ، إذ هو عليه الصّلاة والسّلامُ، سرُّ الأسرار، وَمَنْبَع الأنْوارِ؛ ومنه انشقت الأسْرَار، وانفلقت الأنوار. «الجامِعُ» لِما افترق في غيره. فكَانَتْ روحانيته ﷺ، جامعةً لأوصافِ الكَمَالاَتِ، وبشريتُه جامعةٌ لأنواع المحاسِنِ، وشريعتُهُ جامعةً لجَميعِ الشَّرائِعِ. وكتابُهُ جامعاً لسائر الكتب؛ وهو أيْضاً: يجمع النَّاس على الله، ويَدُلُّهُمْ على الجمعِ، ويحذِّرهُمْ منَ الفَرْقِ؛ «الدَّالُّ عَلَيْكَ» بأقوالِهِ وأفْعَالِهِ وأحْوالِهِ ﷺ؛ فكانَتْ خُطبُهُ ومَوَاعِظهُ تَرِقُّ مِنْهَا القُلُوبُ، وتَذْرِفُ مِنْهَا العُيُونُ. وَمَا بُعِثَ عَلَيْهِ السَّلامُ إلاَّ دالاً على الله. ومُعَرِّفاً بِهِ تَعَالى. فَمَا تَرَكَ شيئاً يجمع العباد على الله، إلاَّ دَالَّهُمْ عَلَيْهِ، وعَرَّفهم بِهِ. وَلاَ رَأَى شيئاً يقطع عَنِ الله، إلاَّ حَذَّرَ العِبَادَ مِنْهُ. لَمْ يَألُ جُهْداً فِي نصح العِبادِ. وهَدْيهم إلى طريق الرَّشادِ، فَجزاهُ الله عَنْه أحْسَنَ مَا جَزَى رَسُولاً عن قوْمِهِ، ونبيًا عن أُمَّتِهِ، وبعد أن كَان عليه الصلاة والسلام دالاً على الله، كَانَ حَاجِباً من حُجُوبِ الحَضْرَةِ، لاَ يدخُلُهَا أحَد إلاَّ عَلَى يَدَيْهِ. فلذلِكَ قَالَ: «وَحِجَابُكَ» الذي يتوسَّطُ بَيْنكَ وبَيْنَ الدَّاخِلِينَ إلى حضرتِكَ. فكلُّ مَن دَخَلَ عَلَى يَدَيْه عليه السّلامُ، وعظَّمَهُ، واتَّبَعَ سُنَّتَهُ. أدْخَلَهُ الحَضْرَة عَلَى نَعْتِ الْهَيْبَةِ والْوَقَارِ والأدَبِ، فاسْتَقَرَّ فِي الحَضْرَة عَلَى الدَّوامِ، وكُلُّ مَنْ دَخَلَ مِنْ غَيْرِ بَابِهِ ﷺ، طُرِد، وعُوقِبَ، وفي ذلك يقول القائل:

وأنْــــتَ بَـــابُ الله أيُّ امْـــــرِئٍ ... وَافَــى مِــنْ غَــيْــرِ بَـابِـكَ لاَ يَـدْخُـلُ

وأيْضاً: هو ﷺ، حجاب الأرواحِ عَنِ الهَلاَكِ، إذ مِنْ شَأْنِ الرُّوحِ أن تتطلع الخوض فِيمَا لا تقْدِرُ عليه مِن بَحْرِ الجَبَرُوتِ، فَكُلَّمَا هَمَّتْ بالخوض فيهِ، زَاجَرها عليه السلامُ، وعَاقَلَهَا بعِقَالِ الشَّرَائِعِ، ولذلكَ قال عليه الصَّلاة والسَّلام: «**تَفَكَّرُوا فِي آيَاتِهِ، وَلاَ تَتَفكَّرُوا فِي مَاهية ذَاتِهِ**». إذْ كُنْه الرّبوبية محجوبٌ عَنِ العقولِ. فَلاَ سَبيلَ إلى إدْراكِهِ، وَلاَ شَكَّ أنَّ الرُّسُلَ عليهم الصلاة والسلامُ، حُجُبٌ لقَوْمِهِمْ، ولكن المصطفى ﷺ، هو أعْظم منهُمْ، كَمَا قال الشيخ رضي الله عَنْهُ، ثم وصَفه بشدَّةِ القرْبِ والأدبِ فقال: «الأَعْظَمُ الْقَائِم، لَكَ بَيْنَ يَدَيْكَ» أدَباً وتعْظيماً، وَوَاسِطةَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ خَلْقِكَ، وتَرْجُمَاناً فِي تبليغ أحْكامك. ثم شَرَعَ فِي الدُّعَاءِ باللَّحْقِ بِهِ؛ يكون على قَدَمِهِ، وهو أعْظَمُ الوِلاَيَةِ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ أَلْحِقْنِي بِنَسَبِهِ» الطِّيني والدِّيني، وأرادَ دَوَامه على مُتَابَعتِهِ عليه السلامُ، وإلاَّ، فَلاَ يَنْفَعُ النَّسَبُ، مع عَدَم الأدَبِ، «وَحَقِّقْنِي» أي خَلِّقْنِي «بِحَسَبِهِ» أي بُخُلُقِهِ الحَسَبِ؛ وهُوَ مَا يَفْتَخِرُ بِهِ الإنْسَانُ مِنْ مَكَارِمِ الأَخْلاَقِ، وَأرَاد رضي الله عَنهُ، أنْ يَكُونَ على قَدَمِهِ ﷺ، فإنَّ الأولياءَ رضِيَ الله عَنْهُمْ، منهم من يكون نوحياً، ومنهم من يكون إبراهيمياً، ومنهم من يكون موسوياً، ومِنْهُمْ مَن يكون عِيسَويًا، ومِنْهُمْ من يكون محمَّدياً؛ وهو أعظمهُمْ لِجَمْعِهِ ما افترقَ فِي غَيْرِهِ. وقَدْ حَقَّقَ الله رَجَاءَهُ، وأجَابَ دُعَاءَهُ. فَقَدْ تغلغل رضِيَ الله عَنْهُ فِي عُلوم الْقَوْمِ، التي مَدَارها على التخلق بِأخْلاَقِ الرَّحْمن، ونَالَ من ذَلِكَ الحَظَّ الأوْفَرَ.. وقَدْ تقدَّم فِي تَرْجُمَتهِ مِنْ كَلاَمِهِ مَا يُحَقِّقُ ذلِكَ، نَفَعَنَا الله بِمحبَّتِهِ آمين، وإنما عَبَّرَ بالتحقيقِ، دُونَ التخلُّقِ، لأنَّ التخلق يكون مُجَاهدةً وكَسْباً، والتحقق يكون غَريزةً وتَمَسُّكاً، ثم طَلَبَ مَعْرِفتَهُ عليه السَّلامُ، المعرفة الخاصَّة فَقَالَ: «وَعَرِّفْنِي إيَّاهُ». طَلَبَ معرفَتَهُ عليه السَّلام، قَبْلَ أنْ يطْلُبَ مَعْرِفَةَ الله؛ لأنه الواسطة، فَلاَ يَدْخُلُ على الله إلاَّ مِنْ بَابِهِ؛ لأنَّ مَنْ عَرَفَهُ عليه السَّلامُ، المعرفة الخاصَّة، بادَرَ إلى خِدْمَتِهِ ومَحَبَّتِهِ، فَيُدْخِلَهُ عَلَى رَبِّهِ بِنَفْسِهِ، أو بِشَيْخ يَهْدِيهِ إليه، وأتَى الشَّيخ رضيَ الله عَنْهُ، بضمير النبيّ ﷺ مُنْفَصِلاً، وإنْ كَانَ الاتِّصَالُ أرْجح عِنْدَ النّحَاة، أدباً مَعَ النَّبيّ ﷺ، إذ لَوْ قَالَ: وَعَرِّفْنِيهِ، كما هو الأرجَحُ، لكَان ضَمِيره عليه السَّلامُ، مُتَّصِلاً بِضَمِيرِ الشَّيْخ، فيفوتَهُ الأدَبُ، إذ المصطفى يَنْبَغي أنْ يكون غَيْرُهُ مُتَّصِلاً بِهِ، لاَ هُوَ متصلاً بِغَيْرِهِ. فَمَا أحْسَنَ أدَبَهُ! وأدقَّ نظرَهُ! ثم ذَكَر نتيجة المعرفة بِهِ عليه السَّلام فَقَالَ: «مَعْرِفَةً» كاملة، «أسْلَمُ بِهَا» أي بِسَبَبِهَا «مِنْ مَوَارِدِ الْجَهْلِ»: أي من الوقوع في شَيْءٍ مِنَ الْجَهْلِ. أيُّ جَهْلٍ كَانَ. فَالْوُرُودُ هُوَ الشُّرْبُ، والْمَوْرد هو محلُّ الشرب، ويُجمع على مَوَارد. شبَّه رضيَ الله عَنْهُ الجَهْلَ بِمَاءٍ قبيح، وسَألَ الله

تَعَالَى أن يُسَلِّمَهُ بمعرفَتِهِ عليه الصَّلاة والسَّلامُ، مِنَ الوُقُوعِ فِي مَشْرَبِهِ، أَوْ فِي القُرْبِ مِنْهُ؛ وهو الشُّرْبُ مِنْ مَوَارِدِ الْعِلْمِ النَّافِعِ، ثُمَّ ذَكَرَ ضِدَّه فَقَالَ: «وَأَكْرَعُ»: أي أشْرَبُ على فَمِي مِنْ غَيْرِ وَاسِطَةٍ. فَالْكَرْعُ: هوَ الشُّرْبُ على الْفَم، بفعل المتعطش اللهفان «بِهَا» أيْ بِتِلْكَ المَعْرِفَةِ «مِنْ مَوَارِدِ» جَمع مَوْرِدٍ؛ وَهُوَ مَحَلُّ الشُّرْب. أي بتلك المعرفة مِنْ مَنَاهِل «الْفَضْلِ»؛ الَّتي هي العُلومُ اللدنية، والأَسْرَارُ الرَّبَّانية؛ الَّتي تكونُ بالفَضْلِ والْمِنَّةِ، لاَ بِالكَسْبِ والْخِدْمَةِ، وَلاَ شكَّ أَنَّ مَنْ عَرَفَهُ وَقَامَ بِوَاجِبِ حَقِّهِ، لاَ بُدَّ أَنْ يَنْهَلَ مِنْ مَنَاهِلِهِ؛ وَيَرِدَ مِنْ مَوَارِدِهِ، ويأْخُذ قِسْطهُ من الْعُلوم التي عَلِمَها عليه السَّلامُ، بالْوَحي أوْ بِالإلْهَام «لأَنَّ مَنْ عَمِلَ بِمَا يَعْلَمُ، أَوْرَثَهُ الله عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ».

شبَّه الشَّيخُ رضي الله عَنْهُ الْعِلْمَ اللّدُني بأبْحُرٍ عَذْبةٍ، يَرِد النَّاس مِنْها، وطَلَبَ مِنَ الله أَنْ يَشْرَبَ مِنْهَا بِلاَ وَاسِطَةٍ، غَيْر واسطتِهِ عليه السَّلامُ، حتَّى تمتلىءَ عُرُوقُهُ وأَضْلاَعُهُ وأَوْصَالُهُ. «إذ القَنَاعَةُ مِنَ الله حِرْمانٌ». والْعِلْمُ لاَ حد له حتَّى يُشبَعَ مِنْهُ. «وَقُل رَبِّ زِدْنِي عِلْماً». ثُمَّ طَلَبَ السلوكَ إلى حَضْرَة الْقُدْسِ، ومَحَلِّ الأُنْس فَقَالَ: «وَاحْمِلْنِي عَلَى سَبِيلِهِ»: أي طريقه الأَقْوَم، «إِلَى حَضْرَتِكَ»: أي إلى العُكُوفِ فِي مشاهدة جَمَال حَضْرَتِكَ. أَرَاد رضي الله عَنْهُ، أن يَكُون فِي سَيْرِهِ محمُولاً على كَاهِلِ السُّنَّةِ المحمَّدية، لا حامِلاً مُتْعُوباً؛ لأَنَّ من حَمَلتْه العِنَاية الرَّبَّانية، قَطَعَ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ مَا لاَ يَقْطعُهُ غَيْرُهُ فِي سِنِينَ، وهُوَ لاَ يَشْعُرُ. وَلَيْسَ مَنْ كَانَ مَحْبُوباً، كَمَنْ كَانَ مُحِبًّا، وَلاَ مَنْ كَانَ مَجْذُوباً كَمَنْ كَانَ سَالِكاً. «الله يجتبي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْه مَنْ يُنِيبُ». لَوْ كُنْتَ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ إِلاَّ بَعْدَ مَحْوِ مَسَاوِئِكَ، وقطع دعاويكَ، لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ أَبَداً، ولَكِن إذا أَرَاد أَنْ يُوَصِّلكَ إِلَيْهِ، غَطَّى وَصْفَكَ بِوَصْفِهِ، وَنَعْتَكَ بِنَعْتِهِ، فَوَصَّلَكَ بِمَا مِنْهُ إِلَيْكَ، لاَ بِمَا مِنْكَ إِلَيْهِ، والحَضْرَةُ: هِي حضُورُ القَلْبِ مَعَ الرَّبِّ، أو حُضور الرُّوح أو السِّرِّ مَعَ الحقِّ، فهي إذاً على ثلاثةِ أقْسَام: حَضرة القلب للطالبين، وحَضرَة الرُّوحِ للسَّائرين، وحَضْرة الأَسْرار للواصلينَ. أَوْ تقول: حضرة القلوب لأهل الْمُرَاقبة، وحضرة الأرواح لأهل المشاهدة، وحضرة الأَسْرَارِ لأهلِ الْمُكَالمَةِ. أَوْ تقول: حضرة القلوبِ لأهلَ البُرْهَان، وحَضْرَة الأَرْوَاح لأَهْل الْعِيَانِ، وحضْرَة الأَسْرَارِ لأهل التمكين. والحَاصِلُ: أَنَّ المُرِيدَ ما دَامَ محجوباً على شُهُودِ نَفْسِهِ. وهو يُجاهِد في حُضُور قَلْبِهِ مَعَ رَبِّهِ؛ فَهُوَ في حَضرةِ القُلُوبِ، وإذا افتتح عليْهِ، غابَ بِشُهُودِ رَبِّهِ عن شُهُود نَفْسِهِ. أَوْ تقول: غَابَ بِجمعِهِ في فَرْقِهِ؛ فَهُو فِي حَضْرَة الأرواح. وإذا تمكَّنَ ورَجَعَ إلى البَقَاءِ بحَيْث لا يحجُبُه جمعه عَنْ فرقِهِ، وَلاَ فَرْقهُ عن جَمْعِهِ؛ فهُوَ في حضرةِ الأَسْرَارِ، وحِكْمَةُ ذلِكَ، أنَّ الرُّوحَ مَا دَامَتْ

مُنهمكةً في الْغَفْلَةِ سُمِّيَتْ نَفساً. وَلَمْ تدخل الحضرة قط. فإذَا تَيقظتْ أو اسْتَقَامَتْ، وجَعَلتْ تُجَاهِدُ نفسها في الْحُضُورِ، سُمِّيَتْ قَلْباً، لتقلبها مِنَ الغَفْلَةِ إلى الحضرة، ومِنَ الحَضْرَةِ إلى الْغَفلة، أوْ لتقلبها من الطاعة إلى المعصية، ومِنَ المعصية إلى الطَّاعةِ، وإذا وصَلَتْ إلى مقام الإحْسَانِ، وَفُتِحَ علَيْهَا فِي مَقَامِ الْعِرْفَانِ، سُمِّيَتْ رُوحاً، لراحتها مِنْ تَعَبِ الحجابِ، وَدُخُولِهَا مَعَ الأَحْبَابِ، وإذَا تأدَّبَتْ وتهذَّبَتْ وجُليت عين بصيرتها، مِن غَبَشِ الحسِّ، سُمِّيَتْ سِرًّا لخَفَائِهَا عن مدارِكِ العُقُولِ، أوْ لخفاءِ صَاحِبِهَا عن فَهْمِ النَّاسِ. إذْ لا يعرف حقِيقَةَ الوليّ، إلاَّ مَوْلاَه الكَبير العليّ. أوْ مَنْ دَخَلَ مَعَهُ فِي الوِلاَيَةِ، فأُضِيفَتْ الحَضْرَةِ إلى الرُّوح، مَعَ اخْتِلافِ تَسْميتها، باختلافِ تطوّرها وتَرَقِّيها. فقيلَ حَضْرة القلوب ما دامَتْ قَلْباً، ثم حَضرة الأرواح، ما دَامَتْ روحاً، ثم حَضَرَة الأَسْرَار، ما دَامَتْ سِرًّا. ولمَّا كَانَ الْحَمْلُ إلى الحَضْرَةِ لاَ يكْمُلُ إلاَّ إذا صحبَتْهُ النُّصْرَةُ، سأل ذلكَ الشَّيخُ فَقَالَ: «حَمْلاً مَحْفُوفاً بِنُصْرَتِكَ»: أيْ يكون ذلِك الحملُ مُدَوَّراً بنُصْرَتِكَ. أي حُفَّتْ بِهِ النُّصْرَة مِن كل جَانِبٍ، وَلاَ شَكَّ أنَّ الْعَبْدَ إذَا صحبتْهُ النَّصْرَةُ والمعرفة فِي سَيْرِهِ، بَلَغَ القصد والمَأمُولَ، ورَتَعَ في أقرب سَاعَةٍ فِي حَضْرة الْوُصُولِ. ولله دَرُّ القائِلِ:

إذَا كَانَ عَوْنُ اللَّهِ لِلْمَرْءِ قَاصِراً ... تَيَسَّرَ لَهُ مِنْ كُلِّ عَوْنٍ مُرَادُهُ
وإنْ لَمْ يَكُنْ عَوْنٌ مِنَ الله لِلْفَتَى ... فأكْثَرُ مَا يَجْنِي عَلَيْهِ اجْتِهَادُهُ

ثُمَّ ذَكَرَ ثمرة الْوُصُولِ؛ وهِيَ الْغَيْبَةُ عَنِ السِّوَى، فَقَالَ: «وَاقْذِفْ»: أي ارْمِ «بي عَلَى الْبَاطِلِ»؛ وهو ما سوى الحق تعالى. وفي الحديث: «أصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا الشَّاعِرُ، كَلِمَة لَبِيدٍ:

ألاَ كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلاَ الله بَاطِلُ ... وَكُلُّ نَعِيمٍ لاَ مَحَالَةَ زَائِلُ»

شَبَّهَ السِّوى الذي هو الباطِل، بحيوانٍ له دمَاغٌ، فإذَا أُصيبَ دِمَاغُهُ ماتَ. ولذلكَ قَالَ: «فَأَدْمَغُهُ»: أي فأصيب دمَاغَهُ. فَيَتَشَتَّتُ ويَضْمَحِلُّ. وإذَا زَهَقَ الباطِلُ جَاءَ الحقُّ. «وقُلْ جَاء الْحَقُّ وزَهَقَ الباطِلُ، إنَّ الباطِلَ كَانَ زَهُوقاً». «فَذَلِكُمُ الله رَبُّكُمُ الحقُّ، فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إلاَّ الضَّلاَلُ». ولاَ شَكَّ أنَّ مَا سِوَى الله تَعَالَى مفقود عِنْدَ المحققينَ. أَبَى المحققونَ أن يشهدوا مَعَ الله غَيْرَهُ. إذْ مُحَالٌ أنْ تَشْهَدَهُ وتَشْهَدَ مَعَهُ غَيْرَهُ. مَا حَجَبَكَ عَنِ الحقِّ وجود مَوْجودٍ مَعَهُ، إذْ لاَ شَيْءَ مَعَهُ، وإنَّما حَجَبَكَ تَوَهُّمُ مَوْجُودٍ مَعَهُ. مُذْ عَرَفْتُ الإلَهَ لَمْ أرَ غَيْره. وكَذَا الْغَيْرُ عِنْدَنَا مَمْنُوعُ. مُذ

تَجَمَّعتُ مَا خَشيتُ افْتِرَاقاً، فأنَا الْيَوْمَ واصلٌ مَجْمُوعُ. وإذا ذَهَبَ عن القَلْبِ شُهُود السِّوَى، غَرِقَ في بِحَارِ الوحدة. ولذلِكَ قال: «وَزُجَّ بِي»: أي أدْخِلْنِي. «فِي بِحَارِ الأحَدِيَّةِ»، فَالزَّجُّ فِي اللُّغَةِ: هُوَ الإدخالُ، قالَ الشَّاعِر:

أنْحَلَنِي الْحُبُّ فَلَوْ زُجَّ بِي ... فِي مُقْلَةِ النَّائِمِ لَمْ يَنْتَبِهْ

كَانَ لِي فِيمَا مَضَى خَتْمٌ ... والآنَ لَوْ شِئْتُ تَمَنْطَقْتُ بِهْ

والأحَدِية مُبَالغة في الوحدةِ، أي أدْخِلْنِي في بِحَارِ أحَدية ذَاتِكَ وصفاتك وأفْعَالِكَ، ولذلِكَ عَبَّرَ بالجَمْعِ، إذ كلّ بَحْرٍ مستقلٌ بِنَفْسِهِ، فَمَنْ غَرِقَ فِي بَحْرِ توحيد الذَّاتِ، غَابَ عَنْ نَفْسِهِ وعن شُهُود السِّوَى، وبقي بوجودِ رَبِّهِ، ومَنْ غَرِقَ في بَحْر تَوْحِيدِ الصِّفَاتِ، غَابَ عن صفة نفسِهِ، وصفة غيْرِهِ، وبقي بصفات ربه. ومن غرق في بحر وحدة الأفعال غاب عن فعله وفعلَ غيره، وخرجَ من تدبيرِهِ واختيارِهِ. إذْ لاَ يدبّر الإنسان مَا يَفْعَل غَيْرَهُ. وإنَّما عَبَّرَ بالأحدية التي هي أبلغ من الوحدانية؛ لأنَّ المراد هنا مِنَ التوحيد، ما كان ذوقاً وحالاً ومقاماً، لاَ مَا كَانَ علماً واعتقاداً، إذْ ذلِكَ من شأنِ أهْل الحِجَابِ: أهْل الدَّليل والبُرْهانِ. وفي هٰذَا المقام، قال شيخ شيوخنا، سيِّدي عبد الرحمٰن المجذوب رضي الله عنه:

يَا قَارِئِينْ عِلْم التَّوْحِيدْ ... هُنَا الْبُحُورْ إلِي تِغْبِي

هٰذَا مَقَامْ أهْل التَّجْرِيدْ ... الْوَاقِفِينْ مَعَ رَبِّي

إذْ لا يخوف هٰذِهِ البُحُورَ، إلاَّ أهْل التَّجريد والحُضُور. وأمَّا مَن تنشب ظاهره بكثرة الأسْبَابِ، فَلاَ يَطْمَع أن يُفْتَحَ لهُ هذِهِ الأبواب. وقد سَمِعْتُ شَيْخَنَا البُوزَيْدِي رضي الله عَنهُ يقولُ: معرفة المتَسبِّب، لا تَقْرُبُ من مَعْرِفَةِ الْمُتجرِّد. وقال أيْضاً: المتجرِّد النَّاقِصُ، أفضل من المتسبِّب الكامل يغني المتهذِّب. إذِ المتَسَبِّبُ لاَ يَخْلُو بَاطِنُهُ مِنْ تَكْدير. وسَمِعْتُ شيخ شيخنا مولاَي العربي الدِّرقاوي رضي الله عنه يقول: فكرة المتجرِّد، أمْنَعُ مِنْ فِكْرَةِ المتسبِّب. أيْ أصْفَىٰ وأبْلَغُ؛ لأنَّها ناشئة عن الصَّفَاءِ، إذ صَفَاءُ الباطِنِ، من صَفَاءِ الظَّاهِرِ، وتكْدِيرُ الباطن، من تكديرِ الظَّاهِرِ. وهَذَا كُلّهُ في حقّ السَّائرينَ. وأمَّا الواصلونَ المتمكِّنُونَ فَلاَ كَلاَمَ عَلَيْهم. إذْ أمرهم كُلّه بالله. وعليه يُحْمَل حَالُ الصحابة رضيَ الله عَنْهُمْ. إذْ كَانَ فيهم المتسبِّبونَ، كالصِّديق، والفاروق، وغيْرهما. والإجماع على تفضيلهما، فَيُحْتَمَلُ ذَلِكَ، على أنَّهُ كَانَ بَعْدَ كَمَالِ حَالِهِمْ. وأيْضاً: مُشاهدَتُهُمْ لنور النبوءة، مَنَعَتْهُمْ مِنَ الرُّكونِ إلى

شَيْءٍ سِوَاهُ. فنظرة واحدة مِنَ الرَّسول ﷺ، تخرجُهُ مِن عَوَالِمِهِ وعَوَائِدِهِ في سَاعَةٍ واحِدَةٍ، والله ذو الفضل العظيم، ولمَّا كَان راكب البحر على خَطَرٍ، إمَّا أن يَسْلَمَ، وإمَّا أنْ يغرقَ، طلبَ النجاة من الغَرَقِ في بَحْرِ الأوْهَام، أو فِي بَحْرِ الشكُوكِ والخواطِرِ، أو في بَحْر الزَّنْدَقةِ والإلْحَادِ فَقَالَ: «وَانشُلْنِي»: أيْ خَلِّصْنِي وأنْقِذْنِي «مِنْ أوْحَالِ» جَمْع وَحْلٍ؛ وَهُوَ الخَضْخَاضُ. أي سلمني من وغيض «التَّوْحِيدِ». من إضافة المشبه به إلى المشبَّه. أي أنقِذْني من توحيدٍ كَالْخَضْخَاضِ، بأن يَصْحبه تكدير وتخليط، إمَّا برُؤْية السِّوَى مَعَهُ؛ وهو توحيد العوامِّ؛ وهو مكدَّرٌ بالأوْهَام والشكوكِ والخواطِرِ، وإمَّا بِاْعتِقَادِ الحلولِ والاتحادِ. فإنَّ بَعْضَ الجَهَلة، اعتقدوا السِّوَى، وادَّعَوْا حلول الألوهية فيه. وهو مَذْهب النَّصَارى، وبَعْضهم ادَّعَىٰ وجود السِّوَى، لكنَّه اتُّحِدَ وامتزج مَعَ الألوهية. وهو كفر حَرَامٌ. يا عجباً كَيْف يظهر الوجود في الْعَدَمِ؟ أمْ كَيْفَ يثبُت الحادِث مَعَ مَنْ لَهُ وصْفُ القِدَمِ؟

وأهْلِ التحقيق لم يثبتُوا مَعَ الحقِّ سِوَاهُ، ورَأوا الكُلَّ مِنْهُ وإلَيْهِ، فالكُلُّ دُونَ الله، إنْ حَقَّقْتَهُ عدمٌ على التفصيل والإجمالِ. وإلى ذَلِكَ أشَارَ القائِلُ بقولِهِ:

مَنْ لاَ وُجُودَ لِذَاتِهِ مِنْ ذَاتِهِ ... فَوُجُودُهُ لَوْلاَهُ عَيْنُ مُحَالِ

فإنْ لَمْ تَذُقْ مَا ذَاقَهُ الرِّجَالُ ... فَحُطَّ رَأسَكَ لأقْدَامِ الرِّجَالِ

حَتَّى يسقوكَ مِنَ التوحِيدِ خَمْرة صافِيةً زُلَلِ ... وإلاَّ فَسَلِّمْ لأهْلِ الكَمَالِ

وقَدْ شَبَّهُوا رَاكِبَ بَحْرِ التوحيدِ، بِرَاكِبِ البَحْرِ الحسِّي، فإن كان صاحبُ السَّفينةِ رئيساً مَاهِراً آوى بِهِ إلى جَبَلِ السنة المحمَّدية، فَكَانَ من الناجحينَ النَّاجِينَ، وإن كَانَ صَاحِبُ السَّفينة جَاهِلاً بالبَحْرِ، آوَىٰ بِهِ إلى جَبَلِ عَقْلِهِ وَحَدْسِهِ، فَالْتَطَمَتْ بِهِ الأمْوَاجُ فكان مِنَ المُغْرَقِينَ. ولمَّا طَلَبَ النَّجاة مِنَ الغَرَقِ فِي بَحْرِ التخليطِ، طَلَبَ الغَرَقَ في بَحْرِ الصَّفاءِ؛ وهي الوحدة الحقيقية. فقال: «وأغْرِقْنِي فِي عَيْنِ»: أيْ في حقيقة «بَحْرِ الْوَحْدَةِ»: أيْ في وسَطِ بَحْر الوحدةِ. والمراد أن يَغيبَ في شهودِ الذَّات وحدهَا. فيكون مُنْهمكاً في الحقيقة، غائباً في وُجوده بوجودِ مشهودِهِ، كَمَا قَالَ الجُنَيْد، رضي الله عَنْهُ:

وُجُودِي أنْ أغيبَ عَنِ الوجودِ ... بِمَا يَبْدو عَلَيَّ مِنَ الشهودِ

وإن غاب في الحقّ، كان أمره كله به لا بنفسه، ولذلك قال: «حتى لا أرى» إلا بالذاتِ العلية، «ولا أسمع» إلاَّ بها ومنها. كما قال الششتري:

أنَا بِاللَّهِ أنْطِقُ ... ومِنَ اللَّهِ أسْمَعُ

وكما قَالَ في الحديثِ الْقُدْسِي: «**فَإِذَا أَحْبَبْتهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، ويَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا**» الحديث. وفي رِوَايَةٍ أُخْرَىٰ: «فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُهُ». وإلى تَمَامِهِ أَشَارَ الشَّيْخ بِقَوْلِهِ: «وَلاَ أَجِدَ» فِي بَاطِنِي، مِنْ فَرَحٍ أَوْ حُزْنٍ أو قَبْضٍ أَوْ بَسْطٍ، أَوْ غَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْوُجْدَانِيَّاتِ الْبَاطِنِية. «وَلاَ أُحِسّ» مِنْ حَرٍّ أَوْ بَرْدٍ، أَوْ لِيُونَةٍ أَوْ حرُوشَةٍ أَوْ غَيْر ذَلِكَ، مِنَ المَحْسُوسَاتِ الظَّاهِرة. «إلاَّ بِهَا»: أي بِعَيْنِ بَحْر الْوَحْدة، وعَبَّرَ بِهَا عَنِ الذَّاتِ الْعَالِيَة، فيَكُون فِعْله كُلّه بالله، ومِنَ الله، وإلى الله. وهٰذَا هُوَ المُعَبَّر عَنْهُ بِمَقَامِ الْفَنَاءِ. ويُمْكِنُ أَنْ يُريد بِعَيْنِ بَحْرِ الْوَحْدَةِ، مَظهر الإنسَان. فَبَحْرِ الوَحْدةِ؛ هو البَحْرُ المحيط. كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ﴾. وَعَيْنُ ذَلِكَ البَحْر هُوَ وجود الإنسانِ، لأنَّه جَوْهَرة الصَّدَفِ، ولبّ الكائناتِ، فإِذَا عَرَفَ الله فيه، وغَرِقَ في بَحْرِهِ، فقد عَرَفَ الله في غَيْرِهِ، مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ، عَرَفَ رَبَّهُ، فتأمَّلْ. ثم رَجَع إلى مَقام الفناءِ فقال: «وَاجْعَلِ الْحِجَابَ الأَعْظَمَ». وهو النبيُّ ﷺ. وقد تقدَّمَ مِنْ قولِهِ: «وَحِجَابُك الأعظم»: أيْ واجعل شهودكَ الحجاب الأعْظم. «حَيَاةَ رُوحِي». أي سبب حياتها؛ لأنَّ مَنْ غَرَق في بَحْرِ الوحدة، وأنكَرَ الواسطة، وأثبتَ الحِكْمَةَ، وأبطَل الشريعة، فتَزندَقَ وألْحدَ، وماتتْ رُوحُهُ. ومَن أقرَّ الواسطة، وأثبت الحِكْمَةَ، حيَتْ روحهُ، وبقيَتْ منعَّمةً فِي حضرة الشهودِ، على نَعْت الهِبَةِ والأدَب، مَعَ المَالِك المعبود، فيكون باطنه يشاهد القدرة، وظاهرهُ يشاهِد الحِكمة. أوْ تقول: باطنهُ حُرية، وظاهرُه عبودية. أوْ تقول: باطنهُ جَذْبٌ، وظاهرُهُ سُلُوكٌ. أوْ تَقُولُ: باطِنُهُ حقيقة. وظَاهره شريعة. فهو الَّذِي تكون رُوحُه حية باقية، لا تفتر ولا تَبيدُ. حَتَّى ترد يوم المزيد، واعْلَمْ أنَّ إنكارَ الواسِطَة، قَدْ يطرق بعضِ المريدين عِنْدَ اسْتشرافهمْ على الفَنَاءِ في الذَّاتِ، وعند الجذبة الأولى، لكن لاَ يَدُومُ ذلِكَ، إلاَّ لِمَنْ لَيْسَ لَهُ شيْخ، أوْ خرج عنه قبل التَّرشيد. وأمَّا ما دَامَ في حضَانَةِ الشيخ، فلا بُدَّ أن يُخرجَهُ إِلَى البقاءِ، كما يُخْرِجُ فصل الشتاءِ بدخول فَصل الرَّبيع، وفَصْل الرَّبيع، بِدُخُولِ فَصْل الصَّيْف، وهٰكَذَا. والمُرَاد بالواسِطَةِ: القَبْضَة النُّورانية التي تكشفَتْ وبَرَزَتْ مِنَ الجَبَرُوت، وسُمِّيَتْ محمَّداً ﷺ. فَمَنْ أَلْحَقَها بأصْلِهَا، ولم ينظر إلى حِكْمَةِ إظهارها، أنكَرَ الواسطة، وكَانَ ناقصاً أو ساقطاً، ومن نَظَرَ إلى حكمة إظهارها، وأنها ثابتة بإثباتِهِ، مَمْحوَّة بأحدية ذَاتِهِ، أقرَّها بالله، وأقَامَ بحقوقها، وهي أحكام الشريعة، فلا بُدَّ مِنْ إثباتِهَا وُجُوداً، والغَيْبَة عَنْهَا شهوداً. والواسطة مِنْ عَيْنِ المَوسُوط. فَمَنْ وَقَفَ مَعَ الواسطة، وحُجب عن الموسوط،

كَان جاهِلاً بالله، غَيْر عارف بِهِ، وَمَن حُجِبَ بالواسِطةِ عَنِ المَوسُوطِ، فإنْ كَانَ مَجْذوباً غائباً، كَان ناقصاً، وإن كان صَاحياً كَانَ سَاقطاً. ومَنْ جَمعَ بَيْنَهُمَا كَان محققاً كَامِلاً، وبالله التوفيق. ولمَّا طَلَبَ حياة رُوحِهِ، بِشهودِ ظاهِرِ الحجابِ الأعْظَمِ؛ وهو النَّبيّ ﷺ؛ طَلَبَ تصفيتها، حتَّى تنقلِبَ سِرًّا بشهودِ باطِنِهِ عليه السَّلامُ. وهو روحه فقال: «وَرُوحَهُ سِرَّ حَقِيقَتي»: أيْ واجْعل شهود روحِهِ، سبَبَ سِرِّ حقيقتي، أي سَبَبَ انقلابِ روحي سِرًّا، فَحَقيقة الإنسان هِيَ رُوحُهُ. والحاصلُ: أن النظر إلى ظَاهِرِهِ عليه الصَّلاة والسَّلامُ يُفيد تحقيق الشريعة؛ وهو سبب حياة الرُّوحِ. والنَّظر إلى باطِنِهِ عليه السلام، يُفيد تحقيقَ الطريقة، وبها تكون تصفية الرُّوح، حتَّى تكون سِرًّا، بعد أن كَانَتْ نَفْساً، ثم عقْلاً، ثم قلْباً، ثم رُوحاً، فإذا تَهَذَّبَتْ صارت سِرًّا، وأما النظر إلى جُمْلَتِهِ عَلَيْهِ الصَّلاة والسَّلامُ يَعْنِي ظاهره وباطِنِهِ، فَيُفِيدُ تحقيق الحقيقة، وبِهَا يكون تصفية السِّرِّ، وإليه أشار بقولِهِ: «وَحَقِيقَتَهُ وجامعَ عَوَالِمِي»: أيْ واجْعَل شُهُود حقيقتِهِ كلها، بِظاهِرِهَا وبَاطِنِهَا، بجمع عَوَالمي الباطنية؛ وهو العلم والفَهْمُ، والفِكْر والعَقْلُ، والنظر والاعْتِبار، فتكون عوالمي كلها مُنحصِرَةً في الحقيقة المحمَّدية؛ وَهِيَ القَبْضة الجَبَروتية، أو المظهر الجَبَرُوتي، مَعَ النظر إلى الجَبَروت الأصلي، كما يأتي بَعْدَهَا. والحاصل: أنَّ ظاهرهُ عليه السلامُ مُلكٌ، وباطنَهُ مَلَكُوتٌ والجمع بَيْنَهُما جَبَروتٌ. فطلب أولاً النظر إلى مُلْكِ ظاهِرِهِ عليه السَّلامُ، لتحقيق شريعته. وطلبَ ثانياً النَّظَرَ إلى مَلَكُوتِ باطِنِهِ عليه السَّلامُ؛ لتحقيق طَريقتِهِ، فتكون سُلَّماً لإشراق نُور حقيقته، وطَلَبَ ثالثاً النَّظَرَ إلى جَبَرُوتِ جُمْلته عليه السَّلامُ، لتكمل حقيقتهُ. وإنْ شِئْتَ قُلْتَ: طَلَبَ أوَّلاً بقولِهِ: واجْعَلِ الحِجَابَ الأعْظَمَ، حَيَاة رُوحِي ـ الاقْتِدَاءَ بِظَاهِرِهِ. إذْ هُوَ سَبَبٌ لِحَيَاةِ الرُّوح حسًّا ومَعْنًى؛ وهو محلّ التشريع، فيكونُ كَلامُ الشيخ حينئذٍ على حَذْفِ مُضَافَيْنِ. أيْ واجْعَل شُهُودَ ظَاهِرِ الْحِجَاب الأعْظَم، لكِن إذا أُطلِقَ الكَلامُ، إنَّما يَنْصَرِف إلى الظَّاهِرِ، فلا يحتاج إلى تقدير المُضاف الثاني، وطَلَبَ ثالثاً بِقَوْلِهِ: وروحه سِرَّ حقيقتي الاقتداء ببَاطِنِه عليه السَّلامُ. وَهُوَ مَحَلُّ تصفية الرُّوح. إذ كُلُّ مَن نَظَرَ إلى بَاطِنِهِ عليه السَّلامُ ورَأى ما كَان عليه من كَمَالِ الأخلاق، انجَرَّ إلى الاقتداءِ بِهِ عليه السلامُ. وهو عَمَل الطريقة. وطلَبَ ثالثاً بقوْلِهِ: «وحقيقته جَامعَ عَوَالِمِي». الجمعُ بَيْن الاقتداءِ بالظَّاهر والباطِنِ، وبذلكَ تَتَنَوَّرُ الحقيقة، ويظهر سِرّها. أو تقول: طلبَ أوَّلاً تحقيق مقام الإسلام، بشهودِ ظَاهِرِهِ عليه السَّلامُ، وطَلَبَ ثانياً بتحقيق مَقام الإيمانِ، شهود باطنه عليه السلامُ. وطلب ثالثاً تحقيق

مقام الإحْسَانِ، بشهودِ حَقيقته عليه السَّلامُ. أو تقولُ: طلبَ أوَّلاً شهوده عليه السلامُ مِن جِهَة مُلْكِهِ. وثانياً: شهودهُ مِن جهَة ملكوتِهِ. ثالثاً: شهوده من جِهَة جَبَروتِهِ، وهذا أحسن من ذلك إن شاء الله، لأنَّ الشيخ رضي الله عَنْهُ، لمَّا طَلَبَ الرّجوع إلى البقاءِ، بِشهودِ الواسطة، طلب أن يكون جوعه إلَيْهَا بِشهود مُلْكها ومَلَكُوتها وجَبَروتها، ولذلك ضَمَّ جَبَرُوت الواسطة، إلى جَبَروت المَوْسُوطِ، فقال: «بِتَحْقِيقِ الْحَقِّ الأوَّلِ» الباء للتَّعْدية، والحق الأول: الشهود السَّابق في عَالَم الأرواح يَوْمَ «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ»: أيْ حَقِّقْهُ الآنَ حتى أستحضرهُ، وأسْتَعِينُ بِهِ على دَوَام الشهودِ، أو الباء للمعية. والحق الأولُ: هو شهود الرُّبوبية. والاستغراق في الوحدانية. أو البَاءُ للقسَم، والحق الأول هو الله تَعَالَىٰ، إذ هو السَّابق على كل حقٍّ، ومنه كان كل حقٍّ وأَعودُ إلى الْمَعْنَىٰ: بتحقيق، أي مع تحقيق الحقِّ الأوَّلِ؛ وهو الجَبَروت الأصْلِي، فالبَاءُ بِمَعْنَىٰ مَعَ كقوله تَعَالَىٰ: ﴿وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ﴾ أي مَعَهُ. فَطَلَبَ أن تكونَ عوالمهُ مُنصرفةً إلى جَبَروتِ الواسطةِ. مع النظر إلى جَبَرُوتِ الموسوطِ؛ الَّذي هو الأصل؛ وهو الحقّ الأولُ. والفَرْق بَيْن جَبَرُوتِ الواسطة، وجَبَرُوت الأصْل أنَّ جَبَرُوت الواسطة، محجوب بالحِكمة، مُغَطًّى برداءِ العِزِّ والقهرية، فظاهره حِكمة، وباطنه قدرة، فَمَنْ ضَمَّ جَبرُوتِ الفرْع، إلى جبروتِ الأَصْلِ مطلقاً، من غَيْر مُرَاعاةِ الحكمة، ورداءِ القهْرِية، وقَعَ في الزَّنْدَقَةِ؛ لإبطالِهِ الأحكَام والحِكْمَةِ، وخَرْقه رداء العِزَّة القهرية. ومَن ضَمَّها مَعَ مُرَاعَاةِ الحِكْمة، ورداء الكِبْرياءِ والعِزَّةِ، كَانَ إماماً كَامِلاً جَامِعاً، يَصْلح للتربية والترقية، جعلنا الله منهم، بِمنِّهِ «يَا أَوَّلُ» قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ. «يَا آخِرُ» بَعْدَ كُلِّ شَيْءٍ. «يَا ظَاهِرُ» فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ. «يَا بَاطِنُ» دُونَ كلِّ شَيْءٍ. هٰكذا فَسَّره النَّبيّ ﷺ في حديث أخرجَهُ مَالِكٌ في المُوَطَّأ. ولَفْظهُ: «**اللَّهُمَّ أنْتَ الأوَّلُ، فلَيسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وأنْتَ الآخِرُ فَلَيس بَعْدَكَ شَيْءٌ، وأنْتَ الظَّاهِر فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وأنْتَ الباطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ. اقْضِ عَنِّي الدَّيْنَ**» فَعَبَّرَ بالأوَّلية عَنِ الْقِدَمِ، وبالآخِرية عَنِ البَقَاءِ، وبالظهورِ عن التجلّي، وبالبطونِ عَنِ الحجاب بالحِكمَةِ وَرَاء القهرية؛ فهو ظَاهرٌ في بطونِهِ، باطِنٌ في ظُهورِهِ، فاسْمُه الظَّاهر يَمْحُو ظُهُورَ السِّوَى ويبطنهُ. إذ لاَ ظَاهِر مَعَهُ سُبْحَانَهُ وتَعَالَىٰ، واسمه الباطِن، يقتضي ظهور تجلياته، ليكُونَ بَاطِناً بالنِّسْبَة إلى حِسِّهَا الظَّاهِر. فَلَوْ بَقِيَ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِن البُطُونِ، مَا عُرِف وَلاَ عُبِدَ. وفي الحِكَم: أَظْهَرَ كُلَّ شَيْءٍ بأنه الباطن، وَطَوَىٰ كُلَّ شَيْءٍ بأنه الظَّاهر. وقال في آخِر المُنَاجَاة: كَيْفَ تخفَى وأنْتَ الظَّاهر، أمْ كَيْفَ تغيبُ وأنت الرقيب الحَاضِرُ. والحاصل: أنَّ

الْحَصْرَ فِي قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ يقتضي انفراده بالظهورِ دُونَ غَيْرِه، لأنَّ التَّقْدِير: هو الأوَّلُ، هو الآخِر، هو الظَّاهر، هو الباطِن دون غَيْرِه. فكُلُّ مَا ظَهَرَ فَهُوَ هُوَ، وكل ما بطن فَهُو هُوَ. أوْ تقول: هو ظَاهر كل ما بطن، وباطن كل ما ظَهَرَ من الألوهية، إذ لا شَيْءَ مَعَهُ، أوْ تقول: هو الظَّاهِرُ مِنْ جِهةِ التعريف، والباطن من جِهَةِ التكثيف. إذ إن كُنْه الرُّبوبية لا يُكَيَّفُ. أوْ تقول: ظاهرٌ بقدرتِهِ، باطِنٌ بحكمتِهِ. أي سبب حِكمتِهِ، فَقَدْ أظهر الحكمة، وأبْطَن القدرةَ، وإليه أشار بعض العارفين بقولِهِ:

لَقَدْ ظَهَرَتْ فَلاَ تَخْفَىٰ عَلَى أَحَدٍ ... إلاَّ عَلَىٰ أَكْمَهٍ لا يُبْصِرُ الْقَمَرَا

لَكِنْ بَطَنْتَ بِمَا أظْهَرْتَ مُحْتَجِباً ... وَكَيْفَ يُبْصِرُ مَنْ بِالْعِزَّةِ اسْتَتَرَا

واعْلَمْ أنَّ الحِكْمة عَيْن القُدْرةِ، والقُدْرَة عَيْن الحِكْمَةِ، إذِ الفاعِل واحِدٌ. وسأذكر لكَ شيئاً من بَحْر القُدْرة، وشيئاً من بَحْر الحِكْمَة، ليَظهر لكَ الْفَرْق بَيْنَهُمَا، مع اتّحادِهما مَحَلاً، فنقول: وبالله التوفيق:

بَحْرُ الْقُدْرَةِ، بَحْر زَاخِرٌ، وأمْرهُ قاهِرٌ، لَيْسَ له أوَّلٌ وَلاَ آخِرٌ، يُظهر ويبطن، ويحرك ويسْكن، ويقبض ويدفع، ويعطي ويمنع، ويَخْفَظُ ويَرْفَعُ، بِيَدِهِ مَقَادِير الأمور، وعلى قُطْبِ دائرته الأفلاك تدور، أصْل الفروع، وفروع الأصول، وإليه ينتهي الوصول. تطير إليه قلوب المشتاقين، وتعوم في طرف لجَّتِهِ أرواح السائرين، وتخوض في بَحْرِ لُجته أسْرَارُ الواصلينَ، وَلاَ تعرف كُنْهَ عظمته قلوبُ العارفين؛ غَايَةُ مُنْتَهَاهَا الدَّهش والحَيْرَة، ثم العكوف فهي الحَضْرَة.

وأمَّا بَحْرُ الحِكْمَةِ؛ فَهُو أيْضاً: بَحْرٌ زَاخِرٌ، وأمْره ظَاهِرٌ، يُظْهِرُ الأسْبَابَ، ويُسْدلُ الحجابَ، يَرْبط الأحكام بالْعِلَلِ، ويُقرِّرُ الشَّرَائر والمِلَلَ، يُغَطِّي مَا يَبْرُزُ مِنْ عُنْصُرِ الْقُدْرَةِ بِرِدَائِهِ، ويستر ما يَبْدُو مِن أسْرَار الرّبوبية بِعِزِّ كِبْرِيَائِهِ، يُنَوِّرُ الطَّرِيقةَ، ويصونُ الحقيقة، يُظهر العبودية، ويبطن الحرية، مَنْ وَقفَ معه كَانَ مَحْجُوباً، ومَنْ نَفَذَ مِنْهُ إلى بَحْرِ الْقُدْرَةِ، كَانَ وَاصِلاً مجذوباً، ومَنْ نَظَرَ إلَيْهما معاً، كَانَ كَامِلاً محبوباً، وبالعناية مصحوباً، واعلم أنَّ القُدْرَة والحِكْمَة، كل واحدة تنادي على صَاحِبَتِهَا، بِلِسَانِ حَالِهَا. أمَّا القدرة فتقول للحِكمَة: أنْتِ تَحْتَ قَهْرِي ومشيئتي، لاَ تَفْعَلِي إلاَّ مَا أشاءُ، وَلاَ يَصدُر مِنْكِ إلاَّ مَا أُرِيدُ، فإن أردت خِلافِي رددتك، وإن سَبَقتني أدركْتُكِ. وتقول الحكمة للقدرَةِ: أنْتِ تحت حُكْمِي، وعِنْدَ أمْرِي ونَهْيِي، فإنْ عَصَيْتِنِي أدَّبتُكِ، ورُبَّما قتلتُكِ، فإن بَرَزَتِ الْقُدْرَةُ مُوَافِقَة لِلْحِكْمَةِ، كَانَ ذَلِكَ

علامة الجمالِ عاجِلاً أوْ آجِلاً، وإن بَرزَتِ القدرة مخالفة للحِكمةِ، كَانَ عَلاَمة الجلالِ عاجِلاً أوْ آجِلاً؛ لأنَّ الحِكمَة منوطُ الشريعة، والقدرة محلُّ الحقيقة. فإذا خَلَفَتِ الحقيقةُ الشريعة، كَانَ معصية؛ وهي سبب الجمال، والإنسان دائر بين قُدْرَةٍ وحِكمةٍ، كَمَا هو دائر بيْن حقيقة وشريعة، والله تعالى أعْلَمُ. ثمّ ذكر الشيخ مطلوبَهُ بالنِّدَاءِ فَقَالَ: «اسْمَعْ نِدَائِي» سَمَاع قبول، أي أجِبْ دعائي. «بِمَا سَمِعْتَ»: أي بِالْوَجْه الَّذِي سَمِعْتَ «بِهِ نِدَاءَ عَبْدِكَ زَكَرِيَّاءَ»؛ وهو سُرْعَة الإجابة، على وَجْهِ خَرْقِ الْعَادَةِ، فَقَدْ وَهَبَ لَهُ وَلَداً مِنْ صُلْبِهِ، مَعَ يَأْسِ أهْلِهِ، وَكِبَرِ سِنِّهِ، وفيه إشارة لطلب الوارث الرُّوحَاني، فكَأنَّ الشيخ خَافَ أنْ يَنْقَطِعَ الانتفاع بِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ، حَيْث لَمْ يترك وارثاً لِسِّرهِ، فأجَابَ الله دُعَاءَهُ، بأبي الحسَن الشاذلي، فأخَذَ سِرَّهُ، ونشَرَه فِي المشرقِ والمَغْرِب، فقد انتشرتِ الطَّريقة الشاذلية، انتشار الشَّمْسِ في أُفُقِ السَّمَاءِ، وكثر أتباعها شرقاً وغَرْباً، كل ذلِكَ في صَحِيفَةِ الشيخ رضي الله عَنْهُ، والمَرْءُ فِي مِيزَانِهِ أتباعُهُ. فَاقْدُرْ بِذَلِكَ قَدْرَ النبيّ محمَّد ﷺ، ثم كَمَّلَ مطلوبَهُ فَقَالَ: «وانْصُرْنِي»: أيْ قَوِّنِي وأعِنِّي في الظَّاهر بِكَ، لا بِوَاسِطة شَيْءٍ، لأكون عَبْداً خالصاً لكَ؛ لأنَّ النَّصْرَ إذا كَانَ بوَاسِطَةٍ، رُبَّمَا تميلُ النَّفْسُ إلى مَحبَّةِ الْوَاسِطَةِ، فَتُحْجَبُ عَنِ الْمَوْسُوطِ، بِخلافِ ما إذا كانَ بِلاَ واسِطة، أوْ غَائِباً عَنْهَا، كَانَ عَبْداً حقيقياً، لانحصار المحبَّة في النَّاصر الحقيقي. «وأيِّدْنِي» أيْ قوِّني في الْبَاطِنِ «بِكَ» لاَ بِرُؤية غَيْرِكَ «لكَ»: أيْ لأكُون عَبْداً خَالِصاً لكَ، فتقرر، أنَّ النَّصْرَ في الظَّاهِرِ، بموافقة الأسْباب، والتَّأييدَ في الباطِنِ، بِرَفْعِ الْحِجَابِ، وَمُوَافقة الصَّوَابِ. وقيل: النَّصْر والتأييد مُتَرَادِفَانِ، والجَمْع بَيْنَهُمَا تَفَنُّن فِي العِبَارَةِ. والتحقيق: الأولُ. ويُوافق النَّصْر: الهِدَاية ويُوافق التأييد: التوفيق. والحاصل: أنَّ النَّصْرَ والهداية والتأييد والتوفيق محلّها القلوب. لكن النصر والهداية، يظهر أكثرهما على الجوارحِ الظَّاهرة. فتهدي إلى الطهارة والاستقامة، وتقوّي على المُوَاظبة على العبادة. والتأييدُ والتوفيق: يظهر أثرهما على الْعَوَالم الباطنية، فتتخلّى عن الرَّذائِلِ، وتتحلّى بأنواعِ الفَضَائِلِ؛ التي هِيَ مَكَارِم الأخْلاَقِ، والرِّضى والتسليم، والمحبَّة والمعرفة. وغَيْرَ ذلِكَ مِمَّا تقدَّم ذِكْرهُ. والله تعالى أعْلَمُ. ثم ذكر ثمرةَ النَّصْرِ، والتأييد؛ وهو الجمع على الله، والغَيْبَةُ عَمَّا سواهُ، على سبيل الاستغراقِ والدَّوام فقال: «واجْمَعْ بَيْنِي وبَيْنَكَ» طلبَ دوامَهُ واتِّصالَهُ، وإلاَّ فالجمع حاصِلٌ لهُ، فَهُو كقَوْلِهِ تَعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ والجمع: شهود الرَّبوبية متصلةً على الدَّوام. والفَرْقُ: شهود العبودية مُنفصِلةً على الدَّوامِ. أو تقول: الجمْعُ، شهود القدرة وحدها. والفَرْقُ:

شهود الحِكْمَة وحدَهَا. فأهْلُ الجَذْبِ والفَنَاءِ: لا يشهدون إلاَّ الجمعَ، وأهْل السلوك قبل رفع الحجاب، لا يشهدونَ إلاَّ الفَرْقَ، وأهْلُ البقاء يشهدون الجمع فِي عَيْنِ الفَرْقِ. والفَرْق في عَيْنِ الجَمْعِ، فَهُمْ مَجْمُوعُونَ فِي فَرْقِهِمْ. مَفْرُوقون في جمعهم، لا يحجبُهُمْ جَمْعهم عَن فَرْقِهِمْ، وَلاَ فَرْقهم عن جَمْعِهِمْ، رضي الله عَنْهُمْ.

ولمَّا طلبَ الجمع على الدَّوامِ، طلبَ نَفْيَ ضِدِّهُ؛ وهو الفَرْق فَقَالَ: «وَحُلْ بَيْنِي وبَيْنَ غَيْرِكَ». شهود غيرك: هو الغفلة عَنِ المعرفة. وإلاَّ فَلاَ غَيْرَ. فكأنه طلب الحيلولَة بَيْنَهُ وبَيْنَ الْغَفْلَة؛ التي تُثْبتُ الغَيرية، أو الحيلولة بَيْنَهُ وبَيْن الْوَهْم، إذْ هو الَّذِي يثبت الغيرية، ولقد سمعت شيْخَنَا البُوزيدي رضي الله عنه كثيراً مَا يقول: «والله مَا حَجَبَ النَّاسَ عَنِ الله إلاَّ الْوَهْمُ، والْوَهْمُ: أمْرٌ عَدَمِيٌّ لَهُ لاَ حَقِيقَةَ لَهُ». يَعْنِي أنَّهم تَوَهَّمُوا وُجُود السِّوَى، وَلاَ وُجُود لِلسِّوى. «الله» هذا التحقيق للجمع الذي طلبَ. وحذف النداء لدلالته على البُعْد، وَلاَ بُعْد مع الجَمْع. وكرَّرَ (الله) ثلاثة، على عَدَدِ الْعَوَالِم الثلاثة، «المُلْكُ، والمَلَكُوتُ، والْجَبَرُوتُ». فكُلُّ مَرَّةٍ يَفْنَى بِهَا عَالَمَاً، ويَرْتَقِي إلَى آخَرَ. حَتَّى يَسْتَقِرَّ بالثَّالِثَةِ: فِي عَالَم الجَبَرُوت. فإذَا قَالَ: الله أوَّلاً، أفْنَىٰ عَالَم المُلكِ، وإذا قالَها ثانياً، أفْنَىٰ عالَمَ المَلَكُوتِ، وإذا قَالَها ثالثاً، خَافَ الجَبرُوت، واسْتَقَرَّ فِيهِ، وسَمِعْت شَيْخَنَا رضِيَ الله عَنْهُ يَقُول: إذا قال الإنسان: الله، قصَم به الكَوْن كلَّهُ إذا تلقَّاهُ مِنَ الشيْخ. والقَصَمُ: الهَلاَكُ والذَّهابُ. وكَان شيخ شيوخنا سيِّدي علي يقول: ما ظَن أحد، أن الكَوْن يذوب إذا ذكر اسْم الله عليه. قلت: وما قاله الشيْخان رضي الله عَنْهُمَا صحيحٌ، فإذا قُلْتَ: الله، وتوجَّهتَ بقلبك إلى الكَوْنِ، من العَرْش إلى الفَرْشِ، ذابَ وتلاشى، ولم يَبْقَ لَهُ أثَرٌ، فَجَزاهما الله عنَّا خَيْراً، ويؤخذ من تِكرار الشيخ لهذا الاسم العظيم، جواز تكرار هذا اللفظ، والاقتصار عَلَيْه في الذِّكر؛ وهو التحقيق، خِلافَ ما ذكر الحطاب، عن عزِّ الدِّين بن عبد السَّلام، ولعَلَّهُ قبل أن يلتقي بالشيخ، وفي المسألة ثلاثة مذاهب: الجواز مطلقاً في البِدَاية والنهاية. والمنع مطلقاً. والتفصيل يجوز في النهاية، ولا يجوز في البداية. والمشهور الأول قال في لطائف المِنَنِ: وكَان الشيخ أبُو العبَّاس المِرْسِي رضي الله عَنْهُ يَحُضُّ عليه كثيراً، ويقول: هو سلطان الأسماء. وقال اليوسي: ثمرة هذا الاسم، معرفة الذَّات، وقد تولاَّه أبو الحسَن النّوري، فبقي أياماً يقول: الله. الله. لا يفتر. ولا يأكل، ولاَ يشربُ، فَذَكَرَ ذَلِكَ للجُنَيْد، فَقال لَهُ: إن كنت تقوله بنفسكَ فأنت مُشْرِكٌ، وإن كنت تقوله بالله

فلَسْتَ أنْتَ الْقَائِلَ. فَمَا هٰذا التَّوَلُّهُ؟ فَسَكَتَ. وقال: نِعْمَ الطبيبُ أنْتَ. ولمَّا كَان الجمع الحقيقي، الذي تَصحبُهُ النُضرَة والسُّرور، وَلاَ تَعْتريه غفلةٌ وَلاَ فتورٌ، إنَّما تَكُونُ بعد البَعْثِ والنُّشُورِ، تَلاَ عَلَىٰ رُوحِهِ هٰذِهِ الآية، على مَذْهَب تَفْسِير أهْل الإشارة، تسْلية لَهَا فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أيْ إنَّ الَّذِي فَرَضَ علَيْكَ أحْكَام القرآن، والعمل بِهِ لرَادّكَ إلى مَعَادٍ عَظِيم، فتتصل بمحبوبكَ على الدَّوَام، وأمَّا دار الدُّنيَا فَهِي دَارُ أهْوَالٍ ومَنزِل فرْقةٍ وانتقالٍ، لاَ تَسْتَغرِبْ وُقُوع الأكْدَار، ما دُمْتَ في هٰذه الدَّار. فإنما أبْرَزَتْ ما هو مُسْتحِقٌّ وَصْفَهَا، وواجب نَعْتها، ثم ذكر دعاء أهْل الكَهْف، تشبيهاً بِهِم في التَّبَتُّلِ والانْقِطَاع إلى الله، والفِرار مما سواهُ، فقال: «ربَّنَا آتِنَا»: أي أعْطِنَا وامْنَحْنَا «مِنْ لَدُنْكَ»: أي من مسْتبْطِن أُمُوركَ؛ لأنَّ لَدُنْ، تدلُّ على الاتّصال والقُرْبِ أكْثَرَ مِن عِنْدَ. أيْ هَبْ لَنَا من خَزَائِنِ فَيْضكَ «رَحْمَةً» عظيمة تضمُّنا وتوحّشنا مِنْ غيركَ. «وَهَيِّىءْ» أي واجْعَل؛ «لَنَا مِن أمْرِنَا» كُلِّهِ «رَشداً»: أي صواباً. والمعْنَى، واجْعَلْ أمْرنَا كُلَّه رشداً، وصَوَاباً لمُوَافقتِهِ لمحابّكَ ومَرْضَاتِكَ؛ وهٰذَا يسمَّى عِنْدَ أهْل البَيَان: التَّجريد. ومعْنَاهُ: أنَّهم إذا بالغُوا في الشيءِ، جَرَّدُوا مِنْهُ نوعاً آخَرَ مِنْ جِنْسِهِ. كقولك: لقِيتُ من زَيْدٍ أسَداً. مُبالغةً في شجاعَتِهِ. وقولكَ: لي من فُلاَنٍ صديق حميم. ومنه قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾. وكأنّه أراد أن يكون أمره كلهُ رشداً. حتى كأنه جرَّد مِنْهُ رشداً آخَرَ. والله تعالى أعْلَمُ. وهٰذَا آخرُ التَّصْلية في النُّسَخ العتيقة، وزَادَ بَعْضُهُمْ: «**إنَّ الله ومَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النبيِّ، يا أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْه وسَلِّمُوا تَسْلِيماً**». وفي الآية ما يَدُلُّ عَلَىٰ تَعْظِيم أمْرِ الصَّلاَةِ على رسول الله ﷺ. حَيْث بدأ الحق سُبْحَانَهُ وتَعَالَىٰ بنَفْسِهِ. وثَنَّى بِمَلاَئِكَةِ قُدْسِهِ. وثلَّثَ بالمؤمنين من جِنِّهِ وإنْسِهِ، فَهُوَ أعْظم مِنَ الأمْرِ بالسُّجُودِ لآدَمَ عَلَيْه السَّلام. «إنَّ الله يرحم آدم فاسْجِدُوا لَهُ». وفي الصلاة عليه، عليه الصلاة والسلام، فوائد كثيرة، ولها ثمرات عديدة، ذكرها ابن فرحون وغيره، فلا نطيل، بذكرها. فلا يَنْبَغِي لِلفقير أن يُهمل نَفْسه مِنْهَا. فإن كَانَ سَائِراً خَتَمَ ذِكرهُ بِهَا، وبدأ بِهَا، وإن كَان متمكِّناً اسْتغرقَ أوْقاتهُ فيها بالفِكْرَةِ، ثم امتثل أمْر الخالق فقال: «صَلَّىٰ الله عليه وعلى آلِهِ وصحْبِهِ وسلَّم تَسْلِيماً». وفي وجوب الصَّلاة على النبيّ ﷺ ونَدْبِهَا خِلاف المشهور. والمشهور أنَّها واجبة مرَّة في الْعُمُرِ، ثم يبقى الاستحباب، فلا يهمل نفسه منها إلاّ محروم، ثم خَتَمَ بذكرٍ وَرَدَ عن سيِّدنا عليّ رضي الله عَنْهُ أنه قال: «مَنْ أرَادَ أن يَكْتَالَ بالْمِكيالِ الأوْفَىٰ، فَليكُنْ آخِر دعائِهِ: سُبْحَانَ رَبِّكَ ربّ

الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُون، وسَلاَمٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ، والْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِين» . أي تنزيهاً لِرَبِّكَ، رب العِزَّة عمَّا يصفه بِهِ الكَفرة، مِنَ الشريكِ والْوَلدِ. وفيه إشارة إلى عِزِّه ونَصْرِهِ عليه السلامُ، لأنَّ ربَّ العِزَّة، لا بُدّ أن يُعِزَّ عَبْدهُ المختصّ بِهِ. وسلامٌ، أي طيب وتحية، وإكرام على المرسلين المختارين لسِرّ وحْيهِ، والحَمْدُ لله ربّ العالمين، على نَصْرِ أحبَّائِهِ وجنودِهِ، جَعَلْنا الله من جُنْده المنصور؛ أهْل الخبرة والسرور آمين، وسلام على الْمُرْسَلين، والحمْدُ لله رب العالمين، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد خاتم النبيين، وإمام المُرْسلين، وعلى آلِهِ وصحبِهِ وسلَّم.

شرح صلاة ابن العربي الحاتمي
رضي الله عنه

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآلِهِ وصَحْبِهِ وسلَّم تَسْليماً

شَرْحُ التَّصْلِيَةِ عَلَى النَّبِي، لابْنِ الْعَرَبِي الْحَاتِمِي

يقول الْعَبْدُ الفقير، إلى مَوْلاه الْغَنِي عَمَّا سِوَاهُ: أحمد بن محمَّد بنعجيبة الحَسَنِي رضي الله عَنْهُ، ونَفَعَنا بِبَرَكَاتِهِ آمين.

الْحَمْدُ لله المتجلِّي بِكَمَالِهِ؛ الواحِد فِي ذَاتِهِ وصِفَاتِهِ وأفْعَالِهِ، والصَّلاة والسَّلاَمُ عَلَى قُطْبِ دائِرَة الْوُجودِ، وبَذْرة التجلِّي لِكُلِّ مَوْجُودٍ، ورَضِيَ الله تَعَالَى عَنْ أصْحَابِهِ الْكِرَام، وآلِ بَيْتِهِ ذَوِي النَّزَاهَةِ والاحْتِرامِ، وَبَعْدُ:

فَقَدْ سَألَنِي بعض الإخوان، أن أضع تقييداً على صلاة النبي ﷺ، لابْن العربي الحاتِمِي، نُبَيِّنُ ما انْفَلَقَ مِنْ مَعَانِيهَا، وَمَا أُشْكِلَ مِنْ مَبَانِيهَا، فأجَبْتُ سُؤالَهُمْ، بَعْد أنِ اسْتَأْذَنْتُ شَيْخَنا الْعَارِف الرَّبَّانِي البُوزيدي الحسَنِي؛ لأنَّ سِرَّ الإِذْنِ أمْر كبيرٌ. واعْلَمْ أنَّ النَّاسَ فِي مَدْحِهِ ﷺ على قِسْمَيْن: قِسْمٌ مَدَحُوا شَخْصَهُ الظَّاهِر، فَذَكَرُوا ما يتعلَّق بِجَمَالِهِ الحِسِّي، وَمَا يتبَعُ ذلِكَ مِنَ الْكَمالاَتِ الظَّاهِرَة والباطنة، وما يلتحق بِهِ من المعجزاتِ والخوارقِ؛ وهم أهْلُ الظَّاهِرِ. وقِسْمٌ مَدَحُوا سِرَّهُ الْبَاطِنِي، ونُورَهُ الأَصْلِي، فَذَكَرُوا نُورَهُ المتقدِّم، وَمَا تَفَرَّعَ عَنْهُ مِنَ التجليات الحِسِّيَّة، كالقطب ابن مشيش وأضْرَابه، ومنْهُمْ العارف الرَّبَّانِي، والقطب الصَّمَدانِي، بحري زمانه، وفريد عصره وأوانه، محيي الدِّين ابن العربي الحاتِمِي، المتوفَّى في حُدُودِ القَرْن السَّادِس حيث قال: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى الذَّاتِ الْمُطَلْسَم» أيْ عَلَى الْكَنْزِ المَكْنُونِ. فالْمُطَلْسَمُ: هو السَّاتر للشيءِ، والصَّوَّان له. وذلِكَ أنَّ الحقَّ جلَّ جَلاَلُهُ؛ كَانَ كَنْزاً لَمْ يُعْرَفْ، أي سِرًّا خَفِيًّا غَيْبِيًّا، فَلَمَّا أرَادَ أن يُعْرَفَ، ظَهَرَ قَبْضَةً مِنْ نُورِ ذَاتِهِ، سَمَّاهَا مُحمَّداً ﷺ، فَلَمَّا تجلَّتِ الْقَبْضَة مِنْ بَحْرِ الْجَبَرُوتِ، كَسَاهَا رِدَاءَ الْكِبْرِيَاءِ؛

وهُوَ حِجَابُ الْحُسْنِ، إذْ لاَ بُدَّ لِلْحَسْنَاءِ مِنْ نِقَاب، وَلِلشَّمْسِ مِنْ سَحَاب، لِيَبْقَى الكَنْزُ مَدْفُوناً، والسِّرُّ مَصُوناً، فَحِجَابُ الْحُسْنِ الَّذِي احْتَجَبَتْ بِهِ أسْرَارُ الذَّاتِ هو الطِّلَّسْمُ. وَالْمَعَانِي الَّتِي هِيَ بَاطِنِ القَبْضَة وكليتها هو الكَنْزُ، وهو عَيْن الذَّاتِ فِي مَقَامِ الْجَمْعِ، فالقَبْضَةُ المُحَمَّدِية لمَّا كَانَتْ مِنْ عَيْنِ الذَّاتِ، أُطلق عليها الذَّاتُ، ولذلَكَ قالَ: على الذَّاتِ المُطَلْسَم. وَمِنْ هذِهِ القَبْضَةِ تَفَرَّعَتِ الكَائِنَاتُ كُلُّهَا. مِنْ عَرْشِهَا إلى فَرْشِهَا، بِذَوَاتِهَا وأرْواحِهَا. فنوره ﷺ؛ هو بَذْرَة الْوُجُودِ، والسَّبَبُ فِي كُلِّ مَوْجُودٍ، فَمِنْ سِرِّهِ ﷺ، انشقَّتْ أسْرار الذَّات، وانفلَقَتْ أنْوَارُ الصِفاتِ، فكُلُّ تَجَلٍّ مِنْ تجلياتِ الحقّ، إنما يَبْرزُ من نورِهِ ﷺ، فحياض الجبروت بِفَيْضِ أنواره متدفقة، مُنْذُ ظَهَرتِ القبْضَةُ، إلى مَا لاَ نِهَايَةَ لَهُ، حتَّى إنَّ أنفاسَ الجِنَان ونعيمَهَا، بارزَة من هذَا النُّور المحمَّدِي؛ لأنها حسِّية، والحسُّ من حيْث هو، كلهُ مضاف لنبينا ﷺ ومَنْسُوبٌ إلَيْهِ، وإن كَانَ من عيْن الذَّاتِ؛ لأنَّ الإضافة لاَ تُخرجه عَنْ أصْلِهِ، ففي التحقيق: ما ثَمَّ إلاَّ الله، وَلاَ شَيْءَ سِوَاهُ.

تنبيهٌ: اعْلَمْ أنَّ الفُرُوعَ النَّاشِئَة مِنَ القبضَةِ، والمتفَرِّعة عنها، كُلَّها كُنُوزٌ مطَلْسَمَةٌ أيضاً؛ لأنَّ حكْمَ البَعْضِ، حُكْمُ الكُلِّ، فالأوانِي طَلاَسِمُ للمَعَانِي، فكُلُّ شَخْصٍ عِنْدَهُ كَنْز بين جَنْبَيْهِ، حَجَبَتْهُ عَنِ الغَفْلةِ والوقوف مَعَ الحسِّ، والنَّظَرِ إلى وُجُودِهِ، والإنْهِمَاكِ فِي حُظُوظِ نَفْسِهِ، وفي ذلك يقول الشِشتري رضي الله عَنْهُ:

يَا قَاصِداً عَيْنَ الخَبَرْ غِطَاهُ أيْنَكْ
الْخَمْرُ مِنْكَ والْخَبَرْ والسِّرُّ عِنْدَكْ
ارْجِعْ لِذَاتِكَ وَاعْتَبِرْ مَا ثَمَّ غَيْرَكْ

فَمَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ، وَرَيَّضَهَا وأدَّبَهَا، حتَّى إذَا مَاتَتْ، وحَيِيَتْ رُوحُهُ، ظَهَرَ لَهُ كَنْزُهُ، وبَدَا لَهُ سِرُّهُ. وَلِذَلِكَ قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ:

وَاتَّهِمْ إن كُنْتَ تَفْهَمْ لأنَّ كَنْزَكَ قَدْ عَدِمَ عَن كل طَلْسَم

وقال ابن العريف رضي الله عَنْهُ:

بَدَا لَكَ سِرٌّ طَالَ عَنْكَ اكْتِتَامُهُ وَلاَحَ صَبَاحٌ كُنْتَ أنتَ ظَلاَمُهُ
فأنْتَ حِجَابُ الْقَلْبِ عَنْ سِرِّ غَيْبِهِ وَلَوْلاَكَ لَمْ يُطْبَعْ عَلَيْهِ خِتَامُهُ
فإنْ غِبْتَ عَنْهُ حَلَّ فِيكَ وطُفْتَ على مَوْكب الكشفِ المصونِ خيامُهُ
وَجَاءَ حَدِيثٌ لاَ يُمَلُّ سَمَاعُهُ شَهِيٌّ إلَيْنَا نَشْرُهُ ونِظَامُهُ

إِذَا سَمِعَتْهُ النَّفْسُ طَابَ نَعِيمُهَا وَزَالَ عَنِ الْقَلْبِ الْمُعَنَّى غَرَامُهُ

وَلاَ بُدَّ مِنْ صُحْبَةِ شَيْخٍ عَارِفٍ كَامِلٍ، يُعرِّفك كيْفية الحَفْرِ على هذَا الكَنْزِ. وأيْنَ مَوْضِعه لتحفَرَ عليه. وإلاَّ بقيتَ جَاهِلاً بِهِ، فقيراً على الدَّوَام، مع كَوْن الكَنْزِ بَيْن جَنْبَيْكَ؛ وهو رُوحكَ وسِرُّكَ، فإذَا اسْتَوْلَتْ روحانيتكَ على بشريتكَ، ومعناكَ على حسّكَ، ظَهَرَ كَنْزُكَ، وصِرْتَ غَنِيًّا كَبِيراً، تُتيهُ على الكَوْنِ بِأسْرِهِ، وتَتَعَرَّفُ فِيهِ بِهِمَّتِكَ، وبالله التَّوْفِيق، ثمَّ قَالَ رضيَ الله عَنْهُ: «وَالْغَيْبِ الْمُضَمْضَمِ» أي المحجَّبُ المَسْتُور. يُقال: ضَمْضَمَ كَذَا، إذَا سَتَرَهُ واحتوى عليه، فَهُوَ مُضَمْضَمٌ؛ أي مَسْتُورٌ، وانظر القاموس، فهو بضَادَيْن مُعجمَيْنِ، لاَ بِطَاءَيْنِ، وَلاَ شَكَّ أنهُ ﷺ، غَيْبٌ مِن غُيُوبِ الله. وسِرٌّ مِنْ أسْرَارِهِ، لاَ يَطلعُ عَلَيْهِ، وَلاَ يُحِيطُ بِهِ إلاَّ رَبُّهُ؛ الَّذي خَلَقَهُ وأظْهَرَهُ، وَعَنْهُ ﷺ: «والله مَا عَرَفَنِي حَقِيقَةً غَيْرُ رَبِّي».

وَفي تصلية القطب ابن مشيش، أيْ عنهُ «تَضَاءَلَتِ الْفُهُومُ، فَلَمْ يُدْرِكْهُ مِنَّا سَابِقٌ وَلاَ لاَحِقٌ». وقال أوْس القَرْنِي رضي الله عَنهُ: «والله مَا رأى أصْحَابُ محمَّدٍ، مِن محمدٍ إلاَّ قشرة الظَّاهِرِ. وأمَّا الباطِنُ فَلَمْ يعرفْهُ أحَدٌ». فقيل: وَلاَ ابْن أبي قحافة. والمرادُ: نَفْيُ الإحَاطةِ بسرِّهِ عليه السَّلام، ومِنْهُمْ مَنْ يُدْرِكُ روحهُ. وأمَّا إدْرَاكُ البَعْضِ، فَلَهُمْ فِي ذَلِكَ نَصِيبٌ، عَلَى قدْرِ التَّوجُّهِ والمعرفة، وكذلكَ الأولياء رضيَ الله عنهم، يتفاوتون في إدراكِ باطِنِهِ عليه السلام، على قَدْرِ معرفتهم بالله، فمنهم مَنْ يُدْرك شيئاً مِن سِرِّه ﷺ، ومنهُمْ مَنْ يُدْرِكُ رُوحَهُ، ومنهم مَن يُدْرِكُ قَلْبَهُ، ومنهُمْ مَنْ يُدْرِكُ عَقْلَهُ، ومنهم مَن يُدْرِك نفسَهُ، فأهْل الرُّسُوخ والتمكين، يدركون سِرَّهُ ﷺ؛ الذي هو سارٍ في كل شيْءٍ؛ فلذلك لا يغيبُون عنهُ طرفَةَ عَيْنٍ، وأهْل التلوين قَبْلَ التمكينِ، يدركونَ روحَهُ، فَيُشاهِدونَهُ فِي غَالِبِ الأوقَاتِ، وأهْل السَّيْرِ من المريدين، يُدْركونَ قَلْبَهُ، فيحصل لهم كَمَال الإيقانِ، وتقل رُؤْيتهم لهُ عليه السلام، وأهْل الحِجابِ من عامَّةِ الصَّالحين، يُدْركونَ عقلهُ، أوْ نفْسَهُ، فَيَرَوْنَ فِي المَنَام، وفي اليقظة، شخصه الحسّي، عَلَى قَدْرِ فَنَائهم فيهِ، وأهْلُ هذَا المَقَام، هم أهْل حضرة الأشباحِ، كما أنَّ السَّابقينَ قبله، هم أهل حضرة الأرواح والأسرار، والله تعالى أعلم، ثم قال رضيَ الله عَنْهُ: «وَالْكَمَالِ الْمُكْتَتَم». وَلاَ شَكَّ أنه ﷺ، جمعَ الكَمَالاَتِ كُلَّهَا. فَكَانَت صورته الشريفة في غَايَة الجمالِ، وروحَهُ المُطَهَّرة، في غاية الكَمَالِ. وسِرُّهُ البَاهِر، في غاية التَّمام. وقدِ اجْتَمَعَ فيهِ مِنَ الكَمَالاَتِ والمحاسِنِ، ما لم يجتمعْ فِي مخلوقٍ قطُّ، وكل كمالٍ ظَهَرَ في غَيْرِهِ، فإنَّما هو

مُعارٌ منهُ. وَرَشْحَةٌ مِنْ رشَحَاتِهِ، وكل نُورٍ أو سِرٍّ نَالَهُ غَيْرُهُ، فإنَّما هو مُقْتَبسٌ من نُورِهِ، كما قال البوصيري رضي الله عَنْهُ:

فَكُلُّهُمْ مِن رسُولِ الله ملتمس غَرْفاً مِنَ الْبَحْرِ أوْ رَشْفاً مِنَ الدِّيَمِ

وَوَاقِفُونَ لَدَيْه عِنْدَ حَدِّهِمُ مِنْ نُقْطةِ الْعِلم أوْ مِنْ شكلَةِ الحِكَمِ

فَإنَّهُ شَمْسُ فَضْلٍ هُمْ كَوَاكِبُهَا يُظْهِرْنَ أنْوَارَهَا لِلنَّاسِ فِي الظُّلَمِ

إلاَّ أنَّ الحق جلَّ جلالهُ كَتَمَ ذلِكَ الكَمَال، وحجَبَهُ، ولَوْ أظْهَرَهُ، لَعُبِدَ مِنْ دُون الله، كَمَا عُبِد عِيَسى، فكَان كَمَالُهُ وجماله مُكْتَتَماً، لاَ يَطَّلعُ عليه، إلاَّ مَنْ صَقُلَتْ مِرْآةُ قَلْبِهِ. فنظَرَ إلى بَاطِنِهِ دُونَ ظَاهِرِهِ، كَالصِّدِّيق، وَمَنْ كَانَ على قَدَمِهِ، والله تَعَالَى أعْلَمُ، ثمَّ قَالَ: «لاَهُوتُ الْجَمَالِ، وَنَاسُوتُ الْوِصَالِ» قلتُ: اللاَّهوتُ عبارة عن أسْرار المعانِي الباطنية القائمة بالأشياءِ؛ وهي أسْرار الذَّاتِ. والنَّاسُوتُ عبارة عن حسِّ الأوانِي الظَّاهِرَة. والحاصل: اللاَّهوت: ما بَطن. والنَّاسوت: ما ظَهر. ومعْنَى كَلامِهِ: أنَّ كل جَمَالٍ في عالَم الملكوتِ، فالمصطفى عليه السلاَّمُ، أصْلُهُ ومَعْدنهُ وسِرُّهُ ولُبُّهُ؛ فَهُوَ مَعْدِنُ الجمَالِ، وأصْلُ الكَمَالِ. فما تبهَّجَ رياض الملكوتِ، إلاَّ بِزَهْرِ جَمَالِهِ، ما ظَهرتْ بَهْجَة المُلْكِ إلاَّ بحسْنِ كَمالِهِ؛ وهو معنى قولِهِ: لاَهوتُ الجمالِ، أي أصْله ومعدنُهُ، وباطنهُ ولُبُّهُ. فَمِنْ مَعْدِنِ سِرِّهِ ﷺ، تَفَرَّعَتْ أنواع الجمال، وكأنه يشير إلى جمال المعاني؛ الذي يسْبي الأرواحَ، ويغيب العقول، كما قال الشاعر:

تَرَانِي غائِباً عَنْ كل أيْنِ كَأسُ المعانِي حُلْوُ المَذَاقِ

وَبِالْجُمْلَةِ: فجمال المعاني؛ هو من جمال سِرِّهِ ﷺ. فيه عُرِفَ، وفيه ظَهَرَ، وما ذاق أحد شيئاً من حَلاَوة المعانِي، ولذَّة الشهودِ، إلاَّ باتباعِهِ، والتخلق بأخلاقه ﷺ، فهو لاَهُوت جمال المعانِي ومَعْدنها، فالمعاني الباطنية تُسَمَّى ملكُوتاً، والحسّ الظَّاهر، يُسَمَّى مُلْكاً، والبَحْرُ المحيط: مِنَ الأسْرَارِ اللطيفة الباقية على أصْلها؛ الذي تَتَدفَّقُ أنْوَارُ الكَائِناتِ مِنْهُ، يُسَمَّى جَبَرُوتاً، فجمال المَعَانِي، إنَّما عُرِف وظَهَر بِهِ ﷺ. وجمال الحِسِّ إنما تَبَهَّجَ بنورهِ ﷺ؛ وإلى هذا أشار القطب ابن مشيش رضي الله عنه بقولِهِ: «فَرِياضُ الملكوتِ بِزَهْر جَمَالِهِ مُونقة، وحِيَاضُ الجَبَروت بِفَيْضِ أنوارِهِ مُتَدَفِقة». وقوله: نَاسُوتُ الوِصَالِ: يُشير إلى ظاهرِهِ ﷺ. كَانَ في مَحَلِّ الوصال والاتِّصَالِ، ولم يَكُن في محل الفرْق والإنفِصَالِ. فكما أنَّ

باطنهُ كان مَعْدِنَ الأسْرَار، كذلك ظاهره محلّ الأنوار، فكَان مستغرقاً في البَحْرِ الأحدية، بِظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ، والله تَعَالَى أعْلَمُ. ثم قال رضيَ الله عَنْهُ: «طَلْعَةُ الْحَقِّ»: أي أوَّل تجلّيهِ؛ وظهورِهِ فِي عَالَم الْغَيْبِ، فأوَّلُ مَا طَلَعَ مِن أسْرار الذَّاتِ الكَنْزِيةِ. القَبْضةُ المُحَمَّدِيَّةُ، فمنها انشقتَ أسْرار الذَّاتِ، وظَهَرتْ أنوارُ الصفاتِ. فَلَوْلاَه عَلَيْه السَّلامُ، مَا ظَهَرَ الْوُجُود، وَلاَ عرف المَلِك المَعْبُود؛ فهو الواسطة بيْن الله ومخلوقاتِهِ، فَلَوْلاَ الواسطة لذهَبَ الْمَوْسُوط.

ثم إنَّ القبضَة المُحَمَّدية هِيَ عَيْن الذَّاتِ، بَرَزَتْ مِنْ عَيْن الذَّاتِ، لَكِنْ تُسَمَّى مَا تَكَشَّف مِنْهَا وتحسَّسَ: محمَّداً ﷺ، وأمَّا ما بَطَنَ، فَبَاقٍ عَلَى أصْلِهِ؛ مِنَ اللاَّهُوتية، فالقدرُ الَّذي سَمَّاهُ مِنْهَا محمَّداً ﷺ. إنَّما هو حِسُّهَا، وَجَوْهَرِيتها الظاهر. وأمَّا ما بطن من المعاني؛ فَهُو لاَهُوتِي؛ ولَيْسَ هو بِحُلُولٍ؛ لنَفي الْغَيْرِيةِ ومَحْوِهَا عَنْ نَظَرِ العارفينَ. ولمَّا كَانَتْ تلك القبضةُ بِهَا ظهرَ الكنْزُ المَدْفُونُ، وَبِهَا انكشَفَ السِّرُ المَصُونُ، شَبَّهَهَا بِثَوْبِ النِّقَابِ؛ الَّذي يُغَطَّى بِهِ الوَجْهُ الحسَنُ، فقال رَضِيَ الله عَنْهُ: «كَثَوْبِ عَيْن إنْسَانِ الأزَلِ، فِي نَشْرِ مَنْ لَمْ يَزَلْ»: فشَبَّهَ الأزَلَ، بإنسَانٍ لَهُ عيْن حسنى، كَانَتْ محجوبةً مصونةٍ، مستُورة بثوْبٍ، فلمَّا أرَاد أن يُظهِرَهَا، كَشَف ثَوْبَ نِقَابِهَا، وظهَرَتْ محاسِنُهَا، وبَاهرُ جمالها، كذلكَ الخمرةُ الأزلية، كَانَتْ لطيفة خفية، فلمَّا أرادتْ أن تظهر، كشَفَتْ عن وَجْهِ سِرِّهَا، فأظهرتْ مِن جَمَالِهَا نُور القبضة المحمدية، ثم انتشَرَ من الْقَبْضَةِ سائرُ الفُرُوع الكَوْنِية، وهذَا معْنَى قَوْلِهِ: نَشْرُ مَنْ لَمْ يَزَلْ؛ أيْ هُوَ عليه السَّلامُ، كَثَوْبِ عَيْنِ إنَسانِ الأزَلِ، ويَرْجع الكَلاَمُ إلى قولِهِ: هو كَثَوْبِ عَيْن الأزلِ، المنشور عليه، فكشفه في إرادة نَشْرِ مَنْ لَمْ يَزَلْ؛ أي عِنْدَ إرادة إظهار من لم يَزَلْ من الفروع الكَوْنية الْحَدِيثة، وهذَا مُجرَّد اصْطِلاَح: يقولونَ فِي السِّرّ الأزلي في حَال الكَنْزِية أزل. وفيما تفرَّعَ مِنْهُ لَمْ يَزَلْ. والكلّ واحِدٌ. الفَرْعُ عيْن الأصل. والأصل عَيْن الفَرْع. ما تجلَّى بِهِ فِيما لَمْ يَزَلْ، كَان الله وَلاَ شيء مَعَهُ، وهو الآنَ على ما عليه كَانَ، ولله دَرُّ الْقَائِلِ:

فَلَمْ يَبْقَ إلاَّ الله لَمْ يَبْقَ كَائِنُ ... فَمَا ثَمَّ مَوْصُولٌ وَلاَ ثَمَّ بَائِنُ
بِذَا جَاءَ بُرْهَانُ الْعِيَانِ فَمَا أَرَى ... بِعَيْنِي إلاَّ عَيْنَهُ إذْ أُعَايِنُ

ثمَّ قال رضِيَ الله عنهُ: «مَنْ أقَامَتْ بِهِ نَوَاسِيتُ الْفَرْقِ، فِي قَابِ نَاسُوتِ الْوِصَالِ»: مَن بَدَا من الذَّاتِ، ونَوَاسيتُ جمع نَاسُوتٍ: وهو ما ظَهَرَ مِن الحسِّ.

كَمَّا أنَّ اللاَّهوت ما بَطَنَ مِنَ الْمَعْنَى، وقابُ القوْس: ما بيْن مَحَلِّ وتره وطَرفِهِ.
والمَعْنَى: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى الذَّاتِ الْمُطَلْسَمِ، الَّذِي أقَامَتْ، أي دَامَتْ بِهِ، أي بِبَركَ اتِّبَاعِهِ، أشْبَاحُ أهْلِ الفَرْقِ، فِي مَقَامِ الْقُرْبِ، فَكَانُوا مِنْ حَضْرَةِ الْوِصَالِ، مقدار قَابَ قَوْسَيْنِ أوْ أدْنَى، فأقَامُوا فِي الْقُرْبِ مِنَ الله بِهِ ﷺ، وَلَوْ أعْرَضُوا عَنْهُ لَطُرِدُوا وأُبْعِدُوا، وإنَّما عَبَّرَ بِالنَّواسِيتِ، دونَ القلوب والأرْواح؛ لأنَّ القُلُوبَ والأرواحَ مَحَلُّهُمَا الجَمْعُ بناسوتِ الوِصَالِ كِنَايةٌ عَنْ حَضْرَةِ الوِصَالِ. وَلاَ شَكَّ أنَّ مَنْ تَبِعَهُ ﷺ، وتَمَسَّكَ بِسُنَّتِهِ، وتخلَّقَ بِأخْلاقِهِ، نَالَ القُرْبَ بَعْدَ البُعْد، والوِصَال بَعْد الفِرَاق، فإنه ﷺ، باب الله وحجابه الأعْظَم؛ فَمَنْ رَامَ الدُّخُولَ على الله مِن غَيْر بَابِهِ، طُرِدَ وَأُبْعِدَ، كَمَا قَال القَائِلُ:

وأنْـــــتَ بَــــــابُ الله أي امْــــرِئٍ وَافَــــاهُ مِــــنْ غَــيْــــرِكَ لاَ يَـــدْخُـــلُ

كَمَا أنَّ مَنْ أرَادَ الوصولَ إلى المُلُوكِ، لا بُدَّ أن يتحبَّبَ إلى وُزَرَائِهِمْ، ويَهْدِي لَهُمْ، ويخدُمَهُم، فَحينئذٍ يُوصلونَهُ إلى المَلِكِ. فَكَذَلِكَ مَن أراد الدُّخول إلى الله. لاَ بُدَّ أنْ يخدُمَ رسول الله ﷺ بِكَثْرةِ الصَّلاَةِ عَلَيْهِ، ويُعَظِّمَهُ، ويُعظم ما انتَسَب إلَيْهِ، ويُعَظِّمَ خلفاءَهُ؛ وهم الأولياء، ويُقبِّل التراب مِن تَحْتِ أقْدَامِهِمْ، فحينئذٍ يُوَصلُونه إلى الحضْرَةِ، وإلاَّ بقي بعيداً مِنْ حَيْثُ يَظنّ الْقُرْب، وبَالله التوفيق، ثم قال: «الأقْرَبِ إلَى طَرِيقِ الْحَقِّ»: أي الأقرب من غَيْرِهِ، من سَائر الرُّسُلِ إلى طُرُقِ الحقِّ، فَكَانَتِ الرسل كُلُّها تدعو إلى الله، وتبيِّنُ الطُّرُق إلى الوصولِ إلَيْهِ، ونَبِيُّنا محمَّدٌ ﷺ؛ هو أقْربُ مِنْهُمْ إلَى طُرُقِ الْحَقِّ. فَبَيَّنَ من اسم الطريق، ومعالم التحقيق، في أقْرَبِ وَقْتٍ، فَهَدى الله على يَدَيْهِ من الخلق فِي زَمَانٍ يَسيرٍ، ما لهم يَهْدِ على يَدِ غَيْرِهِ، في الأزمِنَة المتطاولة، وكذلكَ مَن كَان على قَدَمِهِ من الأوْلِيَاءِ الجامعينَ بَيْن الشريعة والحقيقة يَهْدي الله على أيْدِيهم الجَمَّ الْغَفِيرَ، فِي زَمَانٍ يسير؛ لأنَّهم على بصيرَةٍ. قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾. أي وَمَنِ اتَّبَعَنِي يَدْعُو إلَى الله على بَصيرة؛ وهي بصيرة العِيَانِ، والذَّوْق والوُجْدَانِ، لاَ بَصِيرة التَّقْليد؛ التي هِيَ ناشئة عَنِ الدَّليل والبُرْهَانِ، ثمَّ قَالَ: «فَصَلِّ اللَّهُمَّ بِهِ فِيهِ مِنْهُ عَلَيْهِ وَسَلِّمْ»: قلتُ: إذَا فَنَى الْعَبْدُ عَنْ نَفْسِهِ وحِسِّهِ، لَمْ يَرَ إلاَّ أنْوَارَ النُّبُوءَة ظَاهِرةً، وأسْرَار الرُّبُوبية بَاطِنَةً، فإذَا صَلَّى على رسول الله ﷺ، رَأَى نُورَهُ ﷺ، لاَ هُوَ، وإذا سَبَّحَ نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ، وَوَحَّدَ نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ، وإلى هذا، أشار الهروي، حينَ سُئِلَ عَن التوحيد الخاصّ بِقَوْلِهِ:

مَا وَحَّدَ الْوَاحِدُ مِنْ وَاحِدٍ ... فَكُلُّ مَنْ وَحَّدَهُ جَاحِدُ
وَتَوْحِيدُ مَنْ يَنْطِقُ عَنْ نَفْسِهِ ... تَثْنِيَةٌ أَبْطَلَهَا الْوَاحِدُ
تَوْحِيدُهُ إِيَّاهُ تَوْحِيدُهُ ... وتَوْحِيدُ غَيْرِهِ لاَحِدُ

وإلى هذَا المَعْنَى، أشَار الشُشتري بِقولِهِ:

إنَّا بِاللَّهِ نَنْطِقُ ... وَمِنَ اللَّهِ نَسْمَعُ

وهذه نتيجة محبَّة الحقّ للعَبْدِ، لقولِهِ: «فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُهُ». وَمَعْنَى كَلاَم الشَّيْخ: فَصَلِّ اللَّهُمَّ بِهِ، لاَ بِنَفْسِي فِيهِ، أيْ فِي حَضْرَتِهِ، بِحَيْثُ يَسْمَعُهَا مِنِّي بِلاَ وَاسِطَةٍ، لاَ فِي حَضْرَةِ نَفْسِي، وَفِي الْحَدِيثِ عَنْهُ ﷺ، قِيلَ لَهُ: أرَأَيْتَ صلاة المصلينَ عليكَ فَمَنْ يأتي بعدكَ، ما حَالَتُهُمْ عِنْدَكَ؟ فَقَالَ: «أمَّا أهْلُ المَحَبَّةِ فأسْمَعُ صَلاَتَهُمْ، وأعْرِفُهُم، تعرض عَلَيَّ صَلاَةُ غَيْرِهِمْ عَرْضاً». وأهْلُ المحبَّة؛ هم أهْل الفَنَاءِ، الَّذِينَ يُصَلُّونَ عَلَى سِرِّهِ، ويُشَاهِدُونَهُ فِي كُلِّ سَاعَةٍ، كما قال الْمُرْسِي وغَيْرهُ؛ وهم أهْلُ الجمع. وأمَّا أهْلُ الفَرْقِ، فتعرض صَلاَتُهُمْ عَلَيْهِ عرضاً. وقولُهُ: مِنهُ عَلَيْهِ؛ أيْ وتكون تلك الصَّلاة صادرةً مِنْهُ، وَارِدَةً عَلَيْهِ، بِلاَ وَاسِطَةِ أحَدٍ، فَالْعَارِفُ لَمْ تَبْقَ لَهُ وَاسِطَةٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الله، وَلاَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رسول الله ﷺ، بل يأخُذُ الأشْيَاءَ مِنْ مَعَادِنِهَا، فالحقيقة يأخُذُهَا مِن مَعَادِنِهَا؛ وهو شُهُود الذَّات الأقدَس، بِلاَ واسِطَة حِسّ الأكْوَانِ، بَلْ تُمْتَحَى الأكْوَانُ، وَتُمْحَقُ مِنْ نَظَرِهِ، فَلاَ يَرَى إلاَّ المُكَوِّنَ، ويأخُذُ الشريعة مِن مَعَادِنِهَا؛ وهي الكِتَابُ والسُّنَّةُ؛ إنْ كَانَ أهْلاً، وإلاَّ اسْتَفْتَى قَلْبَهُ، ولذَلِكَ قيلَ: الصُّوفِي لاَ مَذْهَبَ لَهُ: أيْ لا يُقَلِّد أحَداً مِنْ أهْل الْمَذَاهِب. والسَّلامُ: هُوَ التَّأمِينُ، أيْ أمَّنَهُ الله مِنْ كُلِّ مَا يَخَافُهُ عَلَى أُمَّتِهِ، والله تَعَالَى أعْلَمُ، وصلَّى الله على سيِّدنَا محمَّد الحبيب المحبوب، والشفيع المُقَرَّب، وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ وسَلَّمَ تَسْلِيماً، وَآخِرُ دَعْوَانَا أنِ الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمينَ اهـ.

سلك الدرر في ذكر القضاء والقدر

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآلِهِ وصحبِهِ وسلَّم تسليماً

قَالَ الشَّيْخ الإمام، العالم العارف بربِّه، الكامل الصوفي، الولي الصالح الواصل: أَبُو العبَّاس، سيِّدي أحْمد بن محمد بنعجيبة الحسَنِي، رضي الله عَنْهُ، ونَفَعَنَا بِبَرَكَاتِهِ آمين:

الْحَمْدُ لِلَّهِ، الْمَلِك الْقَدِير، الْمُنْفَرِد بالإيجاد والتَّدْبِير؛ الذي أَبْدَعَ الأشيَاء وأتقنها على ما سبق في علم التقدير، والصلاةُ والسَّلام على سيِّدنا ومَوْلاَنَا محمَّد البشير النَّذير، السِّراج المنير، ورضي الله تَعَالَى عن أصحابه الكِرَامِ، الذين قَرَّرُوا شَرِيعته المطهرة أيَّ تقرير.

وبَعْد: فَبَحْرُ القَدَرِ والقضاء، بحرٌ عميق، لا يخوضه إلاَّ أهل التحقيق، ولا يقوده إلاَّ ذو الهداية والتوفيق. وهذه نُبْذة يسيرة، تعين على الخوْضِ فيه، وتسكن القلوب للرضى بمجاريهِ. حَمَلَني عليه، أنّي رأيْت كثيراً ممَّن يُشار إليه بالعلم والعَمَل. قد ضلَّ عنهُ وأضَلَّ، وجعل يدافع المقادير بما يقدر عليه من الأسباب والحِيَلِ، وقَدْ قيلَ: زَلَّة عالِم يضلُّ بها عالَمٌ. فقد رأيت كثيراً من العلماءِ زَمَن الوَبَاءِ، يأمرون بغلقِ أبواب المدينة ويفرون من الدُّخول على المَرْضَى خوفاً من المَوْتِ، وهذا الذي حملني على تقييد هذا التأليف، فلا عِبْرَة بعلم الأوراق، إذا لم يؤيِّده الْوُجْدَان والأذواق. فالعلم النافع الذي ينكشف به عن القلب قناعهُ، وينْبسط في الصدور أنوار اليقينِ وشعاعهُ، ويدور عن القلب الشكّ والإضطراب، وتحصل له الطمأنينة بشهودِ الأرْباب، فَمَن لا يقين عنْدَهُ ولاَ تحقيق، فَلاَ علم لَهُ وَلاَ هِداية ولاَ توفيق، فشاهِد الْعِلم العمل. وشاهد العمل الصحيح هو الحال. وشاهد الحال هو الذُّوق، وغاية الذَّوْقِ الشُّكْرُ؛ وهو الغَيْبَة عمَّا سوى الحقّ، وغاية الشُّكر الصحو؛ وهو شهود الآثار بالحق، وميزان هذا هو اليقين، والسُّكون عند ربِّ العالمينَ؛ وهو السكون عند مجار الأقْدار، وترْك الخوض بالتدبير، والإختيار،

والرِّضى بِمَا يبرز من عُنْصُر الأقدارِ، والتسليم لأحكام الواحِدِ القهَّار. وينحصر المقصود من هذا التأليف في خمسة أبْوابٍ:

الباب الأول: في حقيقة القدرِ، وما يتعلق به. الباب الثاني: في الاسْتدْلالِ عليه من الكتاب والسنَّة. وكلام السَّلَف الصالح، ومن طريق الكشْفِ. الباب الثالث: في بَيانِ الحِكمة التي هي كالرِدَاءِ للقدرِ والقضاءِ، وبَيَان القدْرَةِ التي بها يقع الإظهار والإضمار. الباب الرَّابع: في إبطال العَدْوَى والطِّيَرَة. البابُ الخامِسُ: فِي اكتسابِ اليقين، وذكر موادِه ومواطِنِه.

وسَمَّيْتُهُ سِلْك الدُّرَرِ، فِي ذِكْرِ الْقَضَاءِ والْقَدَرِ: نسْأل الله تعالى ربَّنَا، أن ينفَعَ بِهِ مَنْ كتبَهُ، أوْ كَسَبَهُ، أو سمعه، أو طالعهُ، بِمَنِّهِ وكَرَمِهِ، وأن يلقح في قلبِنا وقلبِهِ أنوار اليقين، ويشرق في سَمَاءِ أسْرَارنا شموسُ العارفين، بجاهِ خَاتم النبيين، وإمام المُرْسَلينَ، وقُدْوة المُربّين، سيِّدنا ومَوْلانَا محمَّد الصادق الأمين، صلَّى الله عليه وعلى آلهِ، وأهْل بيْته الأطهرين.

البَابُ الأَوَّلُ

فِي تَفْسِير الْقَدَرِ وَالْقَضَاءِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِذَلِكَ

الْقَدَرُ بتحريك الدَّالِ المهملةِ وسكُونها، مصدر، قدَّرت الشيْء إذا أحَطت بمقدارِه؛ وهو عبارة عن تعلقِ عيْن علم الله بالكَائِنَاتِ قبل وجودِهَا؛ فلا يظهر في عالم الشَّهادة شيء من الخلائقِ، إلاَّ وقد سَبَق في عِلْمِهِ وقدَرِهِ السَّابق، وَلاَ يصدر من خلقِهِ قول ولا فِعل، وَلاَ حَركة ولاَ سكونٌ، إلاَّ وقد سبَق في علمِهِ وقدرهِ كيْف يكون، فأيَام العَبْد محصورة، وأنفاسه معدودة، وخطواته مكتوبة، وفي ذلك يقول الشاعر:

مَشَيْنَاهَا خطًى كتِبَتْ عَلَيْنَا ... وَمَن كتبت عليه خطًى مَشَاهَا
وَمَن قسَمَتْ منيتُهُ بِأرْضٍ ... فَلَيْسَ يموت بأرضٍ سِوَاهَا

وما مثَل العَبْد مع القَدَر السابق، إلاَّ كالصَّبِيّ الذي يتبع التحنيش، الَّذي حَنَّشَه له الفقيهُ، فإذا كَمُل التَّحْنيش الذي حَنَّشه له الْعِلم الأزلي، على ما سبق به القدر والقضاء، رحل إلى مَوْلاهُ. فالواجب على الْعَبْد أن يسْكن تحت مجار الأقدار، وينظر إلى ما يفعل الواحد القهار، فالقدر والقضاء والإرادة والمشيئة، شيْء واحد عند أهْل السُّنَّة، ومَرْجعها إلى سبْق العلم الأزَلي بالأشياءِ قبل ظهورها.

ويستمِرّ العلم بها بعد ظهورها. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾. فتقول على هذا، قدَّرَ الله كَذَا، وقضاه وأراده، وشاءهُ بمعنى واحد. وأمّا الرِّضى والمحبّة في حقّه تعالى، فَهُمَا أَخصُّ مِن الإرادة والمشيئة؛ لاختصاص الرِّضى والمحبّة بالطاعة دون المعصية، فالطّاعة قدَّرها وأرادها ورضيَهَا. والمعصية قدَّرها وأرَادَهَا ولَمْ يَرْضَهَا، ولم يحبها شرْعاً، هذا مقتضى الأدَب، والله تعالى أعْلَمُ.

البَابُ الثَّاني

في الاسْتِدْلاَلِ عَلَيْهِ مِن الكتابِ والسُّنَّة، وكَلاَمِ السَّلَفِ الصَّالح.

أمَّا الإسْتِدْلاَل عليه من الكتاب العزيز، فقال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ أي كل شيءٍ أبرزناهُ هو بقدَرٍ سَابِقٍ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾. وهو اللَّوْحُ المحفوظ. وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾. وقال تَعَالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ وقال تَعَالى: ﴿لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾. وقال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾. أيْ مَا أَصابَ النَّاسَ من مصيبة من شرٍّ أو خيْرٍ في الأرضِ بالجدبِ والقحْطِ، أو الْغرَقِ، وَلاَ فِي أنفسكم بالمَوْتِ أو الْقتْلِ، إلاَّ في كتابٍ؛ وهو اللَّوْح المحفوظ، من قَبْلِ أن نَبْرأها، أي نُظْهِرَها، ثم قال تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾. لأنه أمْرٌ قدِّر في أزلِهِ، أنه لا يكون، أو لا يدُومُ، فَلاَ تَحزَنْ عَلَى شَيْءٍ لَمْ يَكُنْ لَكَ، أو انقضى أجَله عنْدكَ. ﴿وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ لأنه سَبَق قَبْلَ ظهورهِ أنَّهُ لَكُمْ، وأنه واجب إتْيَانُهُ إلَيْكُمْ، والمطلوب هو الإعْتِدال في المَنْعِ والعَطَاءِ، والقَبْضِ والبَسْطِ، والفقْد والوُجْد، والذلّ والعزّ، والفَقر والغِنى، والصحّة والمَرَض، وغَيْر ذلِكَ من اختلافِ الأحْوَالِ، وانتقالاَت الأطوار، إذ جميع ذلِكَ، قد جَرَتْ بِهِ الأقدارُ، فَلاَ يُظْهر الحُزْن على شيءٍ فَاتَ وَلاَ يُظهِر الفرَحَ بشيءٍ آتٍ، قال تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ أي أجَلاً معلوماً، ووقتاً محدوداً. لا يتقدَّمُ عليه لحظة، ولا يتأخَّرُ عَنْهُ ساعة، وقال تعالى في شأنِ أجَلِ المَوْتِ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾. أي مُقَدَّراً مَحْدُوداً قَبْلَ أنْ يخلقَهَا. وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾. فالأوّل للمَوْتِ. والثاني للبَعْثِ. وقَالَ تَعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى

يَتَوَفَّنكُم بِالَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أيْ ليَبْلغ المتيقظ آخر أجَله المُسمَّى عِنْد الله فِي أزلِهِ. ثم يَرْجع إلى ربّه. ثم قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ أيْ لاَ يَتَجاوزُون ما حُدَّ لَهُمْ مِنَ الأجَلِ. بزيادة أوْ نُقْصانٍ. وقال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ أي إذا جَاءَ مَوْتُهُمْ، بِالعَذَابِ أو بِغَيْرِهِ لاَ يستأخِرونَ سَاعَة، ولاَ يسْتقدمُونَ. وقال تَعالَى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ ومَعْنَى الآية، وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ أحَدٍ. أيْ يُجْعَلُ عمره طويلاً، وَلاَ ينقصُ مِنْ عُمُرِهِ: أي يجعل عُمُرهُ قصيراً إلا في كتاب، دأي في اللوح المحفوظِ، فتضَمَّنَتِ الآية شَخْصَيْن، أحَدُهما عُمِّر طويلاً، والآخر نقصَ من عُمُرِهِ في أجَلِهِ. فكَانَ عُمُره قصيراً. كل ذلك في كتاب مُبِينٍ. وقيل النقص من العُمُر، باعتبار عِلْم الملائكة فإذا وَصَلَ رَحِمَه مثلاً، ظهرتِ الزيادة التي عند الله، وليْسَ للعَبْدِ عِند الله إلاَّ عُمُرٌ واحِدٌ، لاَ يزيد وَلاَ يَنقُصُ. وأمّا قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾. فَمَعْنَاهُ: يَمْحُو مَا عِندَ الملائِكَة، ويثبتُ مَا عِندَهُ، وهُوَ أمُّ الكِتاب. وقَالَ تَعالَى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوٓا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ و هُوَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ الآية، أي ومِنكُمْ مَنْ يُتوَفَّى مِنْ قَبْلِ الشيخوخةِ، ويؤخّركم لتبلغوا أجَلاً مُسَمًّى، سبَق به العلم القديمُ. وسَطَّرَتْهُ المَلائِكة وقت نَفْخ الرّوح، ولعلَّكم تعقلونَ. فتعرفُونَ أنَّ المَوْتَ والحياة بِيَدِ الله. أي لاَ تأثير لشيءٍ من الأسْباب في المَوْتِ. كالوباء وغَيرها. بل الأمر كله لله، ولذلكَ قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي لاَ غيرهُ، ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾ من مَوْتٍ أوْ غَيْرهِ ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾. وَقَالَ: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فهذه الآيات صريحة في تحديد الأجَلِ. وتقديره في الأزلِ. فَلاَ يتأخّرُ وَلاَ يتعجَّلُ، لاَ بوبَاءٍ وَلاَ بِغَيْرهَا. فَلْيَسْكُن الإنْسَان عِنْدَ رَبِّهِ، ويَنْظُر ما يفعل ربُّهُ بِهِ، فَلاَ يخاف وَلاَ يحْذَرُ، إذْ لاَ يَنْفَعُ حَذَر مِن قَدَرٍ.

وأمَّا الاسْتِدْلاَل بالسُّنَّةِ: فقال ﷺ لابْنِ عبَّاسٍ رضِيَ الله عَنْهُ: «**يا ابْنَ عبَّاسٍ أُعلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ الله يَحْفَظْكَ، احْفَظِ الله تَجِدْهُ أمَامَكَ، تَعَرَّفْ إلى الله فِي الرَّخَاءِ، يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ، واعْلَمْ أنَّ مَا أخطأكَ لم يَكُن ليصيبكَ، وَمَا أصَابكَ لَمْ يَكُنْ ليُخطئَكَ**». زَادَ فِي رِوايةٍ، رُفعت الأقلام، وطويت الصحف، أي ما أخطأكَ في الأزَلِ، بحيْثُ لم يكتبُ لكَ، لم يَكُنْ ليصيبكَ أبَداً، خَيْراً كَانَ أوْ شرّاً: حياةً أوْ

مَوْتاً، وقال عليه الصَّلاة والسَّلام لأبي هُرَيْرَة رضيَ الله عَنهُ: «**جَفَّ القَلَمُ بِمَا أنْتَ لاَقٍ يَا أبَا هُرَيْرَةَ**» الحديث. وقال ﷺ: «**كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ، حتَّى العَجْزُ والكَيْسُ**». رواه مالك في الموطأ. وقال ﷺ: «**إنَّ الرَّجُلَ لَيعمل بِعمل أهْلِ الجَنَّةِ، حتَّى مَا يكون بَيْنَهُ وبَيْنها إلاَّ ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيَعْمَل بعمل أهْل النَّار فيدخلها، وإنَّ الرجل ليعمل بعمل أهل النَّار، حتى ما يكون بينه وبَيْنَها إلاَّ ذِراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهْل الجنَّةِ فيَدْخلها**» رواه البخاري وغيره. وقال ﷺ: «إنَّ الرِّزْقَ ليطلب الرَّجُل كما يَطْلُبُهُ أجَلُهُ» الحديث. وقال ﷺ: «**إنَّ الله وَكَّلَ بالرَّحِم مَلَكاً يقول: يَا ربِّ نطْفَةٍ، يا رَبِّ عَلَقة، يا ربِّ مضغة**» فإذا نفخ فيه الرُّوح. قال: يا رب ما الرِّزق. وما الأزل؟ شقيّ أمْ سعيد. فيكتب ذلك في بطن أُمّه كله. أوْ كما قال عليه السلام، رواه البُخاري ومُسْلِمٌ، وقال ﷺ في تفسير حقيقة الإيمانِ: «**أنْ تُؤمِن بالله ومَلائِكته وكُتُبه ورُسُلِهِ، واليوم الآخِرِ. وأن تُؤمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِه وشرّه**». زَادَ فِي بَعْضِ الرِّوايات: حُلْوِهِ ومُرِّهِ، فالخَيْر هو الطَّاعَة والإحْسَانُ. والشرُّ: هو الكُفْرُ. والحُلْوُ: ما يُلائِمُ الإنْسَان، كالصحَّةِ والعافية. وأنواع الجمال. والمُرّ: كل ما يُؤْلِمُ الإنْسَان كالْمَرَضِ والفَقْر، والذُّلّ وسائر أنواع الجَلاَل. فكل هذَا سبَق به القَضَاءُ والقَدَرُ، فَمَن شكَّ فِي هذا، فهو كَافِر إجْماعاً، ومَنِ اعْتقده عِلْماً، ولَمْ يَرْضَ بِهِ عِنْدَ نُزُولِهِ ذَوْقاً فَهُوَ فَاسِق إجماعاً. ولذلك قال مالِكٌ رضيَ الله عَنْهُ: مَنْ تَشَرَّعَ وَلَمْ يتصوَّفْ، فقد تَفَسَّقَ. وقال الشَّيخ أبُو الحَسَن رضي الله عَنْهُ: «مَنْ لَمْ يَتَغَلْغَلْ فِي عِلْمِنا هٰذَا مات مُصِرّاً عَلَىٰ الكَبَائِرِ، وَهُوَ لاَ يَشْعُر، فكل مَنْ لَمْ يَعْجَبْ أهْل الصَّفا، لا يطمع أنْ يَتَّصِفَ بالصَّفَا. والصَّفَا هو الرِّضىٰ والتَّسْليمُ بِكُلِّ مَا يَبْرُزُ من عِنْد الحكيم العليم» وقال عليه السَّلام: «**إنَّ رُوحَ القُدُس، نفَثَ فِي رُوحِي، إنَّ نفساً لَنْ تَمُوتَ حتَّى تستكمِلَ رِزْقها، فاتَّقوا الله، وأجْمِلُوا فِي الطلب**». وقال عليه السَّلامُ: «**فَرَغَ رَبُّكَ مِنْ أرْبَ: خَلْقٍ، وخُلُق، ورِزْق، وأجَل**» رواه الطَّبراني في الأوْسَطِ. وفي رواية أحمد: «**فَرَغَ الله عَزَّ وجَلَّ إلى كل عَبْدٍ مِنْ خَمْسٍ: مِنْ أجَلِهِ، وَرِزْقِهِ، وأثره، ومَضْجعه، وشقي أو سعيد**» والْمُرَاد بالأثَرِ: الخطوات التي يَمْشِيهَا، فإنَّها مكتوبة كما قدمنا. فقد قُسِّمَتِ الأرْزَاق فِي الأزَلِ: الحِسِّيَّة والمَعْنَوِيَّة، كما قسمتِ الآجَالُ والخَطَوات، وكذلكَ المَرَاتب والمقاماتُ، كل ذلِكَ جَفَّ بِهِ الْقَلَمُ، قَالُوا: يا رسول الله ﷺ فَفِيمَ العمل؟ قال ﷺ: «**اعْمَلُوا، فكُلٌّ ميَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، فأمَّا إن كَانَ مِن أهْل السَّعادة، فَسَيُيَسَّرُ لعملِ أهْل السَّعادة، وأمَّا مَنْ كَان مِنْ أهْلِ الشَّقاوة فَسَيُيسَّرُ لعمل أهْل الشقاوة**»، ثم قرأ عليه الصَّلاة

والسَّلامُ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ فإن قلْتَ: إذَا كَانَ القدر جَرَىٰ بِمَا يكونُ، وَلاَ محيد للعَبْد عَنْهُ، فَعَلَىٰ ما يحاسب العَبْد ويُعَذِّبُ؟ قُلْتُ: قد جَعَلَ الله بِحكمته الباهرة في العَبْدِ كسْباً فيما يظهر لهُ، يُقصد به الخَيْرُ والشَّرُّ، وفي الحقيقة: هُوَ مَجْرُور بسِلسلة، لكن الشَّريعة تنسب الفعل إلَيْه، بِسَبَبِ ذلِكَ الكَسْبِ، فتقوم الحجَّةُ عليه. قال تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾. فَالْمُلك ملكهُ، والعبيد عبيدهُ، ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾. وكذلك أمْرُ الرِّزقِ، هو مُقَسَّمٌ فِي الأزَلِ، مضمُون بكفالةِ الله تَعَالىٰ، لكن اقتضَتْ حِكْمتُهُ، تغطية أسْرَار الرُّبُوبيَّة، فقرَنَته بوجودِ السبب عِنْدَهُ، لا بِهِ. فَلاَ بُدَّ مِنْهُ وُجوداً، والغَيْبَة عنه شُهُوداً. نَعَمْ مَنْ تحقق بالتَّقْوَىٰ، وانقطع إلى الله، رزقه بِلاَ سَبَبٍ. قالَ تَعالَىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ وقال الشَّيخ أبُو العبَّاس رضي الله عَنْهُ: للنَّاس أسْبَابٌ، وسَبَبُنَا الإيمَانُ والتَّقوىٰ، ثم قرأ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية. وسَيَأتي زيادة بيانٍ، في الكلام على الحِكْمَة والقدرة إن شاءَ الله تعالى، وبالله التوفيق.

وأمَّا كَلاَمُ السَّلفِ الصَّالِحِ فِي الْقَدَرِ: فَمِمَّا اشتهَرَ على ألْسنتهم: ما شَاءَ الله كَانَ. ومَنْ لَمْ يَشَأْ رَبُّنَا لَمْ يَكُنْ. وقيلَ: إنه حديث. وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عَنْهُ: أصْبَحْتُ وَمَا لِي سُرُور إلاَّ في مواقع الْقَدَرِ. وقيل لبعضهم: ما تشتهي؟ قال: مَا يَقْضِي الله. وقال ابن عطاءِ الله فِي الحِكَم: مَا مِنْ نَفَسٍ تُبْديهِ، إلاَّ وله قَدرٌ فيك يمضيه. وقال أيْضاً: «كَيْفَ يَكُونُ طلبك اللاَّحِق، سَبباً في عَطَائِهِ السَّابِقِ؟ جَلَّ حُكْمُ الأزَلِ، أنْ يُضَافَ إلى الْعِلَلِ عنايتهُ فيكَ، لاَ لشَيْءٍ مِنكَ، وأين كُنت؟ واجهتك عِنَايته وقابلتكَ رِعَايتهُ. لَمْ يَكُنْ فِي أَزَلِهِ إخلاصُ أعْمَالٍ، وَلاَ وجود أحْوَالٍ، بل لَمْ يكُن هُنَاك إلاَّ مَحْضُ الإفْضَالِ، ووجود النَّوَال»، يَعْنِي أنَّ قَضَاءَهُ لكَ، السَّابِق فِي عالِمَ الْغَيْبِ، هو الَّذِي ظَهَرَ لكَ فِي عَالَم الشَّهَادةِ، ولم يَكُنْ مِنْكَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ عمل تَستحق بِهِ العَطَاءَ، وَلاَ حَالٌ، تَستحق بِهِ التقريبَ، أو الْوُصُولَ، وإنَّما أعطاكَ فضلاً مِنْهُ وجُوداً، والله ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيم. واعْلَمْ أنَّ النَّاسَ فِي النَّظَرِ إلَى الْقَضَاءِ السَّابِقِ، والحكم اللاَّحِق أرْبَعَةُ أقسام: قِسْمٌ نَظَرُوا إلَى الْعَوَاقِبِ، لعلمهم بأنَّ الأعمال بخواتمِها. وَقِسْمٌ نَظَرُوا لِلْوَقْتِ، لَمْ يشتغِلُوا بالسوابق، وَلاَ بِالْعَوَاقب، غَيْر أداء ما كلفُوا به من حُكْم الوقتِ، عالمينَ بأنَّ الفَقير

ابن وقتِهِ، لاَ يَرَىٰ غَيْر الوقت الَّذِي هُوَ فِيهِ، وقِسْمٌ نَظَرُوا لِلَّهِ وَحْدَهُ، لعلمهم أنَّ الماضي والمُسْتَقبل والحال، متقلِّبون في قبضة الحقّ، متصرِّفُونَ بِحُكْمِهِ، والأوقات كلها قابِلَة للتَّغيُّرِ، وتبديل الحالِ، فَلاَ يَرَوْنَهَا، وإنَّما يشاهدون كل شيْءٍ بيدهِ؛ وهذا القسْمُ قَد اسْتَرَاح من كدَرِ التَّدْبِيرِ، لغيبَتِهِ عَن شهود المُدَبِّر، عن سَابق التقدير، بخلافِ الثلاثِ الأوَلِ قد غَلَبَ عليهم شهود الفَرْقِ. فالأَوَّلُ: أذهله خَوْف السوابق. والثَّاني: أذهَشَهُ خَوْف العواقب والخواتم. والثالث: غَيَّبَه حكمُ الوقتِ، وشُهودُ أحْكَامِهِ، عن شُهُودِ الموقتِ. والرَّابعُ: لمَّا كُشف عَنْهُ الحِجَابُ، وشَاهَدَ رَبَّ الأرْبابِ، شَغَلَهُ شهُودٌ واحِدٌ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ، ولَمْ يُشغِلْهُ عَنِ الله شَيْءٌ، ولذلِكَ قَالُوا: الصُّوفِي مَنْ لاَ يَرَىٰ فِي الدَّارَيْنِ غَيْرَ الله؛ وَلاَ يُشاهِد مَعَ الله سِوَاهُ. قَدْ سُخِّرَ لَهُ كلّ شَيْءٍ، ولَمْ يُسَخَّر هو لشيْءٍ، يَصْفُو بِهِ كَدَرُ كل شَيْءٍ، ولَمْ يكدِّرْ صفوَهُ شيْءٌ، شَغَلَه واحد عن كل شيْءٍ، ولم يُشْغِله عن الواحِدِ شَيْءٌ.

والحَاصِلُ: أنَّ مَنْ أَرَاد الرَّاحَةَ الدَّائِمة، فَلْيَنْطَرِحْ بيْنَ يَدَي الله، ويَنْظُر في كل وَقْتٍ ما يَبْرُزُ من عِنْدِ الله، ويسْكن تحت مَجَارِ الأقدارِ لهُ، ولْيَنْعَزِل عَن تدبِيرهِ واخْتِيَارِهِ، ويتأمَّل ما قَالَهُ القُطْبُ سيدي يقوت العرشي:

مَا ثَمَّ إلاَّ ما أَرَادَ فاتْرُكْ هُمومَكَ وَانْطَرِحْ ... وَاتْرُكْ شَوَاغِلَكَ الَّتِي اشْتَغَلْتَ بِهَا عَنْهُ تَسْتَرِحْ

وأمَّا دَلِيلُهُ مِنْ طَرِيقِ الكَشْفِ والْوُجْدَانِ: إنَّ مَن رَقَّ حجابُهُ، وتَلَطَّفَتْ بَشَرِيتهُ، يُطْلِعُهُ الله تَعَالَى، على مَوَاقع الأقْدَارِ، قَبْلَ أنْ تَنزِلَ، إمَّا أنْ يُخَاطَبَ بِهَا فِي الْيَقَظَةِ، وإمَّا أنْ يَرَاهَا فِي النَّوْمِ. وقال عليه الصَّلاة والسَّلامُ: «**رؤيا المُؤْمِنِ جُزْءٌ مِنْ ستَّة وأرْبَعِينَ جُزءً مِنَ النُّبُوءَةِ، إذَا تَقَارَبَ الزَّمان، لاَ تَكَاد رُؤْيَا المُؤْمِن تُخْطِىءُ**». وقد تحققنا هٰذا الأمر مِنْ أنْفُسِنَا والْحَمْدُ لِلَّهِ، فقبل أن ينزل بنا أمْرٌ جَلاَلي، أوْ جَمَالِي، إلاَّ نَرَاهُ قَبْلَ نُزُولِهِ بمدَّةٍ. مِنْهُ ما تطول مُدَّتهُ، ومنهُ ما تقربُ، فَنَنْتَظِر وُقُوعهُ، كما ينْتَظِرُ الغَائِبُ الْقَادِمُ مِنْ سَفَرِهِ، فَإذَا نَزَلَ، وجَدَ الْقَلْبَ قَدِ اسْتَعَدَّ لِنُزُولِهِ، وتوطَّنَ لهجُومِهِ، فَلاَ تحرّكه صَدَمَاتُهُ، وَلاَ تُذْهِشُهُ وِرَادتهُ، فتحققنا ذَوْقاً وكشفاً؛ أن المقادير جَرَتْ فِي الأزَلِ، وتعَيَّنَتْ أوْقاتُهَا ومقاديرُهَا، لاَ تتقدَّمُ وَلاَ تتأخَّرُ، لكِن من حِكْمَةِ الحكيم، أنْ غَطَّى هٰذَا السِّرَّ بِرِدَاءِ الحِكْمَةِ، فَجَعَلَ لكل شَيْءٍ سَبباً، فَيُنْزِل الْقَدَرَ فِي وَقْتِهِ الَّذِي تَعَيَّنَ لهُ فِي الأزَلِ، ويُغَطِّيه بِوجُودِ سَبَبِهِ، فَيُقال: فُلاَن فَعَلَ كَذا، فَجَرَىٰ لهُ كَذا، وفُلاَن مَشَىٰ إلَى مَوْضِعِ الْوَبَاءِ مثلاً، فَمَاتَ بِهَا، أوْ نَقَلَهَا إلى غَيْر مَوْضِعهَا، والوقوف مع هٰذَا، دونَ النَّظَر إلَى بَاطِنِ الأمْرِ

وتَصْرِيف الْقُدْرَةِ، حجاب غَلِيظٌ، وجَهْل قَبِيحٌ، رُبَّما يؤدِّي إلى الكُفْرِ إن اعتَقَدَ التَّأْثِير، وأنكَرَ الْقَدَرَ، وَهُنَا زَلَّتْ أَقْدَامُ كثيرٍ مِمَّنْ يَدَّعِي الْعِلْمَ، ولَيْسَ عِنْدَهُ إلاَّ رَسْمُهُ، والإخْبَارِ بِالأُمُور قَبْلَ أَنْ تَقَعَ، أمْرٌ مُتَوَاتِرٌ، منها ما كَانَ مِنْ طَرِيقِ الْوَحْي، كقولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾. وقد مكَّنَ الله الصَّحَابة، مِنْ مشارق الأرضِ ومَغَاربها، وكقولِهِ تعالى: ﴿الٓمٓ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ وَقَدْ غلبُوا فارِسَ زَمَان الحُدَيْبِيَّة، وقوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾. وَقَدْ وَقَعَ يَوْمَ الْفَتْحِ، وأمَّا إخْبَارهُ عليه الصَّلاة والسَّلام بِالْمُغَيَّبَاتِ الْمُسْتَقْبَلَةِ، فَلاَ تَكَادُ تُحْصَىٰ، وقَدْ حَذَّرَ ﷺ، مِنَ الْفِتَنِ الَّتِي تأتِي بَعْدَهُ، كأنَّه يُشَاهِدهَا، فَوَقَعَ ذلِكَ كُلّهُ، وقد وُجِدَ مكتوباً بِقَلَمِ الْقُدْرَةِ عَلَى جِدَارِ قُصْرٍ دَارِسٍ مَا نَصُّهُ:

مَا لاَ يُقَدَّرُ لاَ يَكُون بِحِيلَةٍ … أَبداً وَمَا هُوَ كَائِنٌ سَيَكُونُ
سَيَكُونُ مَا هُوَ كَائِنٌ فِي وَقْتِهِ … وأخُو الْجَهَالَةِ مُتْعَبٌ مَحْزُونُ
هَوِّنْ عَلَيْكَ وَكُنْ بِرَبِّكَ وَاثِقاً … فأخُو الْحَقِيقَةِ شَأْنُهُ التَّهْوِينُ

فَلَوْ كَانَتِ الأُمُور تَبْرُزُ اتفاقيةً، كَمَا تقول الرَّوَافِض والقَدَرِيةُ مَجُوسُ هذه الأمَّةِ، لَمْ يَقَع الإخْبَار بها قَبْلَ أن تكُونَ، ثم يَقَعُ كَذَلِكَ، فإنْ قُلْتَ: ما ذَكَرْتُهُ إخبار بمَعْلوم، إذ المسلمون كُلُّهم يقرؤونَ هٰذَا، قلْتُ: ليْسَ مُرَادُنَا الاكْتِفاء بمجَرَّدِ الْعِلْم، بل مُرَادُنا تَرْبِيَة اليقينِ، وَلاَ شكَّ أنَّ ذِكْرِ ما يُقَوِّيه مطلوب، وهو جُنْد مِن جنودِ الأنْوَارِ؛ وهو التوفيقُ؛ وهو الهادي إلى سواءِ الطريق.

البَابُ الثَّالِثُ

فِي بَيَانِ الحِكْمَةِ والْقُدْرَةِ

اعْلَمْ فَهَّمَكَ الله سَبِيل رُشْدِهِ، وَجَعَلكَ من أهل مَحبَّتِهِ وَوُدِّهِ، أنَّ بَحْرَ الحِكْمَة بَحْرٌ زَاخِرٌ، وأمْرٌ ظَاهِرٌ، يُظهِرُ الأسبابَ، ويُسْدِل الحجابَ، ويصونُ السِّرَّ الْمَصُونَ، ويَسْتُرُ الكَنْزَ الْمَدْفُونَ، يَرْبِط الأحْكَامَ بِالْعِلَلِ، ويُقرر الشرائع والمِلَلَ، يُغَطِّي مَا يَبْرُزُ من عُنْصُرِ الْقُدْرَةِ بِرِدَائِهِ، وَيَسْتُرُ مَا يَبْدُو مِنْ أسْرَار الرُّبوبية، بِعِزِّ كِبْرِيَائِهِ، يصُون الحقيقة، ويُظهِرُ الطريقة، يُظهر العبودية، ويُبْطِن أسْرَار الرّبوبية، من وقفَ مَعَهُ كَان محجوباً، ومَنْ نفَذَ مِنْهُ إلى شُهُودِ الْقُدْرَة كَانَ مَحْبُوباً، وبالغَاية

مصحوباً، وبَحْرُ القُدْرة أيْضاً بَحْرٌ زَاخِرٌ، وأمْرُه قَاهِرٌ، لَيْسَ لَهُ أوَّلٌ وَلاَ آخِرٌ، يَظْهَرُ وَيَبْطُنُ، ويتحرك ويسكنُ، يُعطي ويَمْنعُ، ويُخْفِض ويَرْفع، بيده مَقَادِير الأُمُورِ؛ وعلى قُطْبِ دَائِرتِهِ أفْلاَكُ التصاريفِ تدورُ، فإذا أرادتِ القُدْرة أن تُظهِرَ شيئاً من بَحْرِ القَدَر؛ الذي سبَقَ فِي الأزلِ، غَطَّتْهُ الحِكْمة برداءِ الأسباب والْعِلَلِ؛ لِيَبْقَى الكَنْزُ مَدْفُوناً، وسِرّ الرُّبوبية مَصُوناً، وتَظْهر مَزِية الْعَارِف على الجَاهِلِ، ويتميَّزُ الباعِدُ من الواصل، والمؤمن من الكافِرِ، الْعارِف الَّذِي لاَ يرى إلاَّ تصرِيف القُدْرة، ويعرف سِرّ الحِكْمة، فلا يحجب بِهَا عن شهُود الْقُدْرَةِ، والجاهل يقف مع شهود الحِكمة، ويحجب بِهَا عن القُدْرة، العارف نَفَذ إلى شهود اللُّبِّ الخالص، والْجَاهل وقَفَ مَعَ القِشْر الظَّاهِر الْيَابِسِ ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾. الْعَارِف نَظَرَ إلى مُسَبِّب الأسْباب، فَزَال عَنْهُ الحِجَاب، ودَخَلَ مَعَ الأحْبَابِ، والْجَاهِل وقَفَ مَعَ قِشْرِ الأَسْبَابِ، وقَنَعَ بالْوُقُوفِ مِنْ وَرَاءِ الْبَابِ، العارفُ مَوْصُوفٌ بالإقرار فيما يَبْدُو مِنْ نَوَازل الأقْدَارِ، والْجَاهِلُ مرسومٌ بالإنكارِ لما يظهَرُ من حَضْرَةِ القهَّارِ، العَارِفُ يَتَلقَّى مَا يَبْرُزُ من عُنْصُرِ القُدْرَةِ، بالفَرَح والسُّرُورِ، لشهودِهِ ما بيده قدرتِهِ تصاريفُ الأمور، والجاهل من خُصَّام الحَقِّ دَائماً وهو لاَ يشْعُرُ، ولذلك قال بَعْضهم: «مَنْ عَامَلَ النَّاس بالشريعةِ، طال خصامهُ مَعَهُمْ، ومَنْ عَامَلَهُمْ بِالْحَقِيقَة عَذَرَهُمْ، فالواجب أن يعامِلهم في الظَّاهر بالشريعة؛ فيُذَكِّرَهُمْ، وفي الباطِنِ بالحقيقةِ فَيَعْذرَهُمْ، فتحصَّلَ من هذا، أنَّ القدرَة تُبرِزُ وتُظْهِرُ، والحِكْمَة تغطي وتستر، والحِكْمة عَيْن القدرة، والقدرة عَيْن الحِكْمَة، إذ الْفَاعِل واحِدٌ، فاعِل السَّبَب؛ هو فاعل المُسَبِّبِ، لكن لاَ بُدَّ للشَّمس من سَحَابٍ، وللحَسْناءِ من نِقابٍ، فَمَا أظْهَرَتْهُ القُدْرَة من الأسْبَابِ والْعِلَلِ، سُمِّيَ حِكْمَة، وما أبطَنته مِنَ الإيجاد والاختراع، سُمِّيَ قُدْرة، والفَاعل واحِدٌ، فإذا سَبَق للعَبْدِ شيء من مقدورات الحقِّ، جلالية أو جمالية، ووصَلَ وقت نزول ذلِكَ، حرَّكه الله إلى سبَب في الغَالِبِ، فينفذ ذلِكَ المَقدورُ بتصريفِ الْقُدْرَة الأزليةِ، مسْتتراً بِرداءِ الحِكْمَة الإلَهية، فالجاهل يقف مَعَ قِشْرِ السَّبَب، والعارف يَنفذ إلى شهودِ مُسَبِّبِ ذَلِكَ السَّبَب، وكذلك إذا سَبَق في الأزلِ، نزول بَلاَءٍ في بلْدَةٍ، حرَّكهُمْ إلى سَبَبِ ذلكَ، رغماً على أنْفِهِم، حتى يَمْضِي أمْرُ الله فِيهِمْ. قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾. ومن ذلِكَ أمْرُ الوَباء إذا سَبَقَ في قَدَر الله وقضائِهِ، أنْ يَنزلَ فِي مَدِينةٍ أوْ قَرْيَةٍ، في وقْتٍ مُعَيَّنٍ، جعل لذلِكَ الحقُّ بحكمَتِهِ تَعَالَى سبباً وعِلَّةً، فَتُنْزِلُهُ القدرةُ الأزلية، في الوقتِ الَّذِي سَبَق به العلم القديمُ، مسَوراً بِرِدَاءِ

الحِكْمَةِ، وهو ذلك السَّبب، لتظهر مزية الإيمانِ بِٱلْغَيْبِ؛ لأنَّ الدُّنيا دَارُ التكليف، لا دار التعريف، بخلاف الآخرة. فيقول الجاهل: لوْلاَ فُلاَن نقلَهُ ما انْتَقَلَ. ويقول العارفُ: هٰذَا ما سَبَق في حُكْم الأزَلِ، وكذلك إذا نَقلَتْهُ القُدْرَة إلى مَوْضعها ومات. يقول الجاهل: لَوْ لَمْ ينتقلْ مَا ماتَ، وهٰذَا اعتقاد من طبع الله على قَلْبِهِ مِنَ الكُفَّارِ. وقد نَهَى الله تَعَالَىٰ المؤمنينَ عن التشبُّه بِهِمْ، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾. وقال الله أيضاً: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ الخ. وسَيأتي الكلاَم على الْوَبَاءِ فِي مَحَلِّهِ إن شاء الله. هٰذَا مَا يَتَعَلَّق بالحِكْمَةِ والْقُدْرَةِ، لِمَنْ فَتَحَ الله بَصِيرَتَهُ، وبالله التَّوفيق، وهُوَ الْهَادِي إلى سواءِ الطَّرِيقِ.

الْبَابُ الرَّابعُ

فِي إبْطَالِ الْعَدْوَىٰ والطِّيرة

أمَّا العَدْوى: فهو انتقال المَرَضِ مِنْ محلٍّ لآخَرَ، كما يَزْعمُهُ الفَلاَسفة، والطَّبَّائعُونَ؛ وهو باطِلٌ عند أهْل التوحيد. قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ وقال في شَأنِ السِّحْرِ: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾. وقال تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ وهو حكمةُ ومشيئتُهُ، أوْ قَدَرهُ وقضاؤهُ. وقال ﷺ: **«لاَ عَدْوَىٰ وَلاَ طِيَرَة، وَلاَ سفر ولا هامَ»**. فمن اعْتَقَدَ أنَّها تَعْدُو بِطَبْعِهَا؛ فهو كَافِرٌ إجماعاً، ومَن اعتقد أنَّها تَعْدُو وبقوَّةٍ فيها فهو عَاصٍ. وفي كُفرِهِ قَوْلاَنِ. ومَنِ اعْتقد أنها تَعْدُو بِقُدْرَةِ الله وقَدَرِهِ على وَجْهِ الحِكْمَةِ، وسَتْرِ القُدْرَةِ فَهُوَ مُؤمِنٌ.

والأمْرَاضُ الَّتي تَعْدُو عِندهُمْ، هي: الْجَرَبُ، والْوَبَاءُ، والجُذامُ.

أمَّا الجَرَبُ فيكون في الإبِلِ، والْغَنَم، والكِلاَب والآدَمِي، وكل ذلكَ بِقُدْرَةِ الله وقَدَرِهِ. قَدْ سَبَق فِي الأزَلِ أنْ يَنْزِل بذلكَ الشخص فِي وَقْتٍ مخصوصٍ مَحْدُودٍ، لا يتقدَّمه ولا يتأخَّرُ عَنْهُ، لكن من حِكْمة الحَكِيم، أن قَرَنَ الأشْيَاءَ بأسْبَابِهَا عندها، لا بِهَا، فإذَا وَصَلَ الْوَقْتُ الَّذِي سَبَق أنه يَنْزل به ذَلِكَ الْمَرَض حَرَّكهُ، بِسَبَب تغطيته لسِرِّ قَدَرِهِ، فيختلط مع من فيه، وقَدْ يَنْزِلُ بِلاَ سَبَبٍ، وفي الحديث؛ أنه لمَّا قال

عليه السلام: «لاَ عَدْوَىٰ وَلاَ طِيَرَة». قَالُوا: يا رَسُولَ الله مَا لِلإِبِلِ تكُون كالضبا، فإذا نَزَلَ بِهَا جَمَلٌ أجْرَبُ، أجْرَبها كُلَّهَا. قال عليه السلام: «ومَنْ أَعْدَىٰ الأوَّل؟» أيْ ومَنْ أنْزَلَ ذلِكَ الدَّاءَ بالأوَّلِ، فأعلمَهُمْ أنَّ كُلَّ شَيْءٍ بِقَدَر الله وقُدْرَتِهِ، وكما غطَّى سِرّ إنْزَالِهِ بالأسْبَابِ؛ كذلكَ غطَّى سِرَّ رَفْعِهِ بِالتَّداوي. وفي الحَدِيثِ: «مَا نَزَّلَ الله دَاءَ، إلاَّ أنْزَلَ لَهُ دَوَاءَ» فالتَّدَاوِي لا يُنَافِي التوكل، إن كَانَ يَرَىٰ الشفاءَ مِنَ الله، والدَّواء حِكْمَةٌ سَمَّرَتِ القُدْرَة، فَلاَ تأثير له البتَّة، فَمَن اعْتَقَدَ أنَّ لَهُ التَّأثير، فَهُوَ مُشركٌ مَعَ الله. قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾. فالدُّعَاءُ والتَّدَاوِي كِلاَهما سَبَبٌ، فإذا وَقَعَ الفرَجُ على يَدِ أحَدٍ بِدَوَاءٍ أوْ غَيْرِهِ، فَاعْتَقَدَ أنَّهُ هو الَّذِي نَجَّاه مِن ذَلِكَ، فَقَدْ أشْرَكَ مَعَ الله، إمَّا شِرْكُ اعْتِقَادٍ، أوْ شِرْكُ اسْتِنادٍ؛ وَهُو مَيْلُ القَلْبِ وَرُكُونهُ إلى تلكَ الوَاسِطَةِ؛ وهو قَدْحٌ فِي التوحيد عِنْدَ الخواصّ. ولذلك قال القطب ابْن مشيش رضي الله عنهُ، لأبِي الحسَن: «اهْربْ من خَيْر النّاس، أكْثَر من أن تَهْربَ مِنْ شَرّهم يا أبَا الحسَن، فإنَّ خَيْرهم يصيبكَ في قَلْبِكَ، وشرَّهم يصيبُكَ في بدنِك، ولأن تصابَ في بدنِك، خيرٌ من أن تصاب في قلبك، وشرَّهم يصيبك في بدنِك، ولأن تُصابَ في بدنِك خيرٌ من تَصابَ في قلبك، ولَعَدُوٌّ تَصِلُ بِهِ إلى رَبِّكَ، خَيْرٌ مِن حَبيبٍ يقطعكَ عنْ ربكَ». فالخلق مخذُوفُونَ من نَظَرِ أهْلِ التحقيق، يشكرونهم بِاللّسَانِ، ويغيبون عنهم بِالْجِنَانِ، لقوله عليه السَّلام: «مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يشكُرِ الله». فلا بُدَّ من السَّبَب وُجُوداً والغَيْبَة عنه شُهُوداً، فالسَّببُ قياماً بِحَقِّ الحِكْمَة، والغَيْبَة عَنْهُ قياماً بِشُهُودِ القُدْرةِ. فَمَنْ أنْكَرَ الأسْبَاب فَهُوَ جَاهِلٌ بِقُدْرَةِ الله وحِكْمَتِهِ، والقُدْرَة والحِكْمَة كِلاَهُمَا مِن أوْصَاف الحقّ. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ والله تَعَالَىٰ أعْلَمْ.

وأمَّا الْوَبَاءُ فَهُوَ عِنْدَ الأطِبَّاء فَسَاد الهوى والوَخم، وعِنْدَ أهْلِ السُّنَّةِ، وخزُ الجِنِّ، أي طعنُهُ؛ وهو صريحُ الحديث. فَفِي الجامع الصَّغير: «الطَّاعُون وَخْزُ أعْدَائِكُمْ مِنَ الجِنِّ؛ وهُوَ لَكُمْ شَهَادَة» رواه الحاكِمُ. وفيه أيضاً: «الطَّاعُونَ رِجْزٌ وعَذَابٌ، أُرْسِل على طائفة مِن بَنِي إسْرَائيل، فإذا وقَعَ بأرضٍ وأنْتُمْ بِهَا، فَلاَ تَخرُجوا مِنْهَا فِرَاراً مِنْهُ، وإذَا وَقَعَ بِأرْضٍ ولَسْتُمْ بِهَا، فَلاَ تَهْبِطُوا عليْهَا» رواه الشيخان والترمذي. هكذا رمَز لهُ. وفيه أيْضاً: «الطاعونُ شهادة لكلِّ مُسْلم» رواه الحاكم والشيخان. وفيه أيْضاً: «كَانَ عذاباً يَبْعَثهُ الله على مَنْ يَشَاءُ، وإنَّ الله جَعَلَهُ رحمةً للمؤمنين، فَلَيْس من أحَدٍ يَقَع الطاعُونُ، فيمكُث في بَلَدِه صَابِراً، مُحْتَسِباً، أنه لا يُصيبُهُ، إلاَّ ما كَتَبَ الله لَهُ، كَانَ لَهُ مثل أجْرِ شَهِيدٍ» رَوَاه الحاكمُ والبخاري.

وفيه أيضاً «الطَّاعُون غدة كغدة البَعِير المقيمُ بِهَا كالشهيد، والفارُّ منها كالْفَارِّ مِن الزَّحْفِ». رواه الحاكم. وَقَدْ يُجْمَع بَيْن الحديث وقول الأطباء، بأنَّ الحق تعالى، إذا أراد أنْ يَبْعَثه على عِبَادِهِ، غَيَّرَ الهَوَاء، وأرسل فيه الجِنّ، فَيَهيج الجِن بإذْنِ الله، في وقت فَسَادِ الهوى بقدرة الله. أمَّا هيجَان الجِن، فَمُحَقق بِالْمشاهدة، فقد رآه كثير من النَّاسِ، يقظة ومَنَاماً، على صُورة الآدمي، رَجُلاً أو امرأة، وقد يجتمع منه عَسْكراً في مَوْضع وَاحِدٍ، فَيَرَاهُمُ الآدمي يقظةً أوْ مَناماً، وقد سمعت الطبل في قبيلة أنجرة، بَيْن السَّماء والأرضِ، زَمَن الوباءِ، وقوله عليه السَّلامُ: «**إذَا وَقَعَ بِأرْضٍ وأنتم بِهَا، فَلاَ تَخْرجُوا مِنْهَا**» المشهورُ في الخروج أنَّهُ حَرَامٌ. والمشهور في الإقدام أنه مكروهٌ. ولذلك قال ابْن رُشْدٍ في القدوم علَيْهَا: لاَ يأثَمُ إجماعاً. ووجه النَّهْي، أنَّ الإنسان إذا قَدِمَ عَلَيْهَا، ووافق تمام أجَلِهِ، فَمَاتَ بِهَا، فَرُبَّما يقَعُ فِي وَهْمِهِ، أوْ وَهْم غَيْرِهِ، أنَّه لَوْ لَمْ يقْدِمْ لما مَاتَ، فيقع في الإشْرَاكِ. وأمَّا أهْلُ الْيَقِين التَّامِّ فَلاَ كَرَاهِية فِي حَقِّهِمْ، لانْتِفَاءِ العِلَّةِ مِنهُمْ، فَالْنَّهي إنَّما هو في حَقِّ الضعفاءِ. وأمَّا الأقْوِياءُ فَلاَ يشملَهُمْ، وهٰذَا كقَوْلِهِ عليه الصَّلاة والسَّلاَم: «**فِرَّ مِنَ المجذوم فِرَارك من الأسَدِ**» وثبت أنَّهُ أكَلَ معَهُ. وقال: «**لاَ عَدْوَىٰ وَلاَ طِيَرَة**». فَلِلأقْوِيَاءِ حُكْمٌ غَيْر مَا للضعفاءِ. وأما رجوع سيِّدنا عمر رضيَ الله عَنْهُ عَنِ الشَّامِ، ما بَلَغه أنَّ فِيهِ الْوَبَاء، فإنَّ الجيش مختلط، فيه الأقوياء وغيرهم، فأشفق رضي الله عنه على الضعفاءِ؛ أن يختلِجَ فِي قلوبهم شَيْءٌ، وقد كَانَ فِيهِمْ من لاَ صُحْبَة لَهُ، لكَوْنه حديث عهدٍ بالإسلامِ. قُلْتُ: وقد رأيْتُ كثيراً مِن أصْحَابِنا، تقدَّمُوا لغَسْلِ الموتَى، ومُبَاشَرة المَرْضَىٰ فِي مَدِينَة تطوان، وطنجة، وسَلاَ والرباط، ومداشير القبائل، لم يتقَدَّمْ إلى ذلكَ غيْرهم، فَغَسَّلُوا وكَفَّنُوا، وباشَرُوا المَرْضَى، فَلَمْ يُصبهم شيء، بل بعضهم باقٍ على قيد الحياة، وقد رأيت بعضهم أُعْطِيَ قشابة مات صاحبها بالوبَاءِ، فلبسها في الحينِ، فلم يُصْبهُ شَيْءٌ، فَعَاشَ بعد الوَبَاءِ زَمَناً طَوِيلاً، ورأيت بعض أصحابنا من أهْلِ أنْجرَة، قدم على البلاد التي فيها الطَّاعون، فبقي أكْثَر من شَهْرٍ، يَغْسِل ويكَفِّنُ، ويُبَاشر المَرْضَى بِهَا، ثم قَدِمَ سالماً، فعاش بعد الوَبَاءِ زَمَناً طَوِيلاً، فبطل القول بالْعَدْوى والانتقالِ، وكنا نقول لأصحابِنا: مَنْ أرَاد تَرْبِيَة اليقينِ، وتعلُّم القوة والشَّجاعة، فَلْيَذْهَبْ إلى مَحلِّهَا، مُتَوكِّلاً على الله، معتمداً فِي ذلِكَ على قول ابن رُشْدٍ، مع ما قدَّمناهُ مِنَ التفصِيلِ. وأمَّا التَّحَصُّنُ مِنْهُ بِحَرْسِ الأبْوَابِ وغَلْقِهَا، فَلاَ فَائِدَةَ فِيهِ. قَالَ تَعالَىٰ: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ وقد يتأخَّرُ الوقتُ في الأزَلِ، فَيَظُنُّ الْجَاهِل أن تأخِيرَهَا إنَّما هُوَ مِنْ حِرْصِهِ وتَحَفُّظِهِ،

ولَيْسَ كذلك، إذْ لاَ يَنْفَعُ حَذَرٌ مِنْ قَدَرٍ، وإنَّما الوقت اقْتَضَىٰ التَّأخِير. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾، ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾.

حكاية مستظرفة: بَلَغَني أنَّ صاحِبَنَا الفقيه المفرج، لما دخَلَتِ الوباءُ طَنْجَة، وقد كانُوا أغلَقُوا الأبْوَابَ، ومَنَعُوا من أتى من بَلَد الْوَبَاءِ من الدُّخُول، أتى إلى البَوَّابِينَ؛ لمَّا تحقق ظهورها في البَلَدِ فقال لَهُمْ: بَيْنِي وبيْنَكُم القائِد، لِمَ تَرَكْتُمْ الوبَاءَ تَدْخُلُ؛ رداً لِزَعْمِهِمْ، فإن قلتَ: قَدْ وُجِدَ مَن سَدَّ بَابَهُ في زَمَنِهَا، فَسَلِمَ مِنْهَا، قُلْتُ: الحِكْمَة حقٌّ مَنْ تَمَسَّك بها، لاَ تُخْرَق في حَقِّهِ، لَكِنَّهُ يكون محجوباً بِهَا عَنْ رَبِّهِ، مَعَ التحقق، أنَّ القَضَاءَ والْقَدَر هكذا جَرَى فِي حَقِّهِ، فَمَا تَعَاطَىٰ إلاَّ مَا جَرَىٰ بِهِ القَلَمُ، لكنَّهُ محسوبٌ مِنَ الضُّعَفَاءِ، لاَ نَصِيبَ لَهُ فِي مَقَام الأَقْوِيَاءِ. ويَدْخل فِي قوله عليه السَّلام: **«الفَارُّ مِنْهَا، كَٱلفَارِّ من الزَّحْفِ»** وأمَّا التَّحصُّنُ بِٱلدُّعَاءِ فَلاَ بَأسَ بِهِ عُبُودِيَة، مَعَ اعْتِقَادِهِ أنَّهُ لاَ يزيد في الْعُمُر شَيْئاً. وفائدته: التأييدُ واللطف، ونزول الصَّبْرِ، والرِّضَى عند أوْقَات الشِّدَّةِ، وقد ذكر القسطلانِي دعاءً مخصوصاً، يُقال عِنْدَ هَيَجَانِهَا، أوْ يُعَلَّق تميمَة، فإن الله يحفظه بِبَرَكَتِهِ؛ وَهُوَ هٰذَا: اللَّهُمَّ سَكِّنْ فِتْنَةَ صَدْمة قَهْرمان الجَبَرُوت، بِألْطَافِكَ الخفية، الواردة، النازلة من باب الملَكُوتِ، حَتَّى نَتَشَبَّث بِأذْيَالِ لُطْفِكَ، وَنَعْتَصِم بِكَ مِنْ إنْزَالِ قُدْرَتِكَ، يَا ذَا الْقُدْرَة الْكَامِلَةِ، والرَّحْمَة الشَّامِلة، يَا ذَا الْجَلاَلِ والإِكْرَامِ اهـ.

وينفع فِي ذلِك أيْضاً حِزْبُ النَّوَوِي، صباحاً ومساء بعد العشاء، فقد قِيلَ: إنَّ قارئَهُ لاَ يتسلَّطُ عليه برٌّ وَلاَ فَاجِرٌ، بِحَيْث لاَ يَتَصَرَّف فِيهِ أحَدٌ، لاَ مِنْ جِهَة الْهِمَّة كَٱلأوْلِياءِ، وَلاَ مِن جِهَة الفعل الحسِّي، كالجَبَابِرة من الإنسان والجِنِّ، وكذلك وظيفة الشيخ زروق رضي الله عَنْهُ، صباحاً ومَسَاءً، ومثل ذلكَ، آية الحِرصِ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ﴾ إلى آخر السورة يكَرِّرُهَا سَبْعاً، ومثل ذلك، الإكْثار من الصلاة على رسول الله ﷺ، فإنَّها تكشف الكروبَ والهمومَ والغمُوم، ومما كَتَب بِهِ إلينا شَيْخ شَيْخنا، مولاي العربي الدّرقاوي رضي الله عَنْهُ، ما نَصّه بعد كلام طويلٍ: **«وَمَهمَا تروَّعْتَ من شَيْءٍ، فبادِر إلى الطهارة إن كنت على غَيرها، وصَلِّ ركْعَتَيْنِ، واتلُ سورتَين قصيرتَين، أوْ صَلِّ على رسول الله ﷺ ولَوْ عَشْرَ مَرَّاتٍ، أو ثلاث مرَّات، وقل: حسْبنا الله ونِعمَ الوكيل، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قوَّة إلاَّ بالله الْعَلِيِّ الْعَظِيم، مثل ذلكَ، وكُن لِرَبِّك هٰكَذا دَائِماً، تَرَىٰ عَجَباً، وإياكَ أن تكون على غَير هٰذَا. إذ لاَ**

يفيدنا إلاَّ الرُّجُوعُ إلى ربّنا، والسكون إليه عند الرَّخاءِ والشِّدَّة، وَلاَ يفيدنا غَيره قطُّ». وقولنا: تطهر إن كنت على غَيْرِها، وجدّ كَذَا، واتْلُ كَذَا، أو افعل الجميع.

قُلْتُ: «وهو الَّذِي نَفْعَلُ، نُصَلِّي ركعتَيْنِ، ونَتْلُو سورَتَيْن قَصِيرَتَيْنِ، كألم نَشْرَحْ، ولإيلاَف قُرَيْشٍ، ونُصَلِّي على رسول الله ﷺ عَشراً، ونقول: حسبُنَا الله ونِعْم الوكيل عشراً، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إلاَّ بالله عَشراً، ثُمَّ قال رضيَ الله عَنْهُ: فإنَّ الشَّرَّ يَذهبُ، والخَيْرَ يأتي، إذ في الرُّجُوع إلى الله والسكون إلَيْه من الفوائد وخَرْقِ العَوائِدِ، والله إن كُنَّا على ما قُلْنَا، حتى تكون لَنَا الطريق في السَّماءِ، كما هِيَ لَنَا فِي الأرْضِ، وأكثر من ذَلِكَ وأقْرَبُ، ولَعْنَةُ الله على مَنْ كَذَّبَ، والله إن اعْتَصَمْنَا بِرَبِّنَا لما قرَّرنا، حتى تصحبنا نيابته في جميع أوْقاتِنَا، ويَصْحَبُنَا عَوْنُهُ وَفَضْلُهُ، وكَرَمُهُ وحِلْمُهُ، وجُودُهُ وعطفُهُ، ونَوَالهُ فِي حَرَكَاتِنَا وسَكَنَاتِنَا، والله يأخذ بِيَدِنا» انْتَهَى كَلامه رضيَ الله عَنْهُ.

ومِمَّا يتأكَّدُ على الإنْسَان في زَمَنِ الْوَبَاءِ، الرِّضَىٰ والتَّسْلِيم، والصَّبْر على مفارقة الأحْبَابِ، إنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأولَى، فَفِي الله خَلَفٌ مِن كلِّ تَلَفٍ، لاَسَيَّما فِي هٰذَا الزَّمان الصَّعْبِ، فَيَنْبَغِي ألاَّ يُفْرَح بِمَوْلُودٍ، وَلاَ يُحْزنَ على مفقود، فما بقي إلاَّ غورة النَّصَارىٰ، وخروج الدَّجَّال، ويَأجوج ومَأجُوج، فَمَن أخَذَهُ الله إليه، فَقَد خلَّصَهُ الله من هٰذه الأهْوَالِ، ومَن بَقِيَ، فليتحَصَّنْ بالكَبِير المتعال، وقد تقدم قوله عليه السَّلامُ، لابْن عَبَّاس رضيَ الله عَنْهُ: «**احْفَظِ الله يحفَظْكَ، احْفَظه تجِده أمَامَكَ، تَعَرَّف إلى اللَّهِ فِي الرَّخَاءِ، يعرفكَ فِي الشِّدَّةِ**» الحديث. وَقَدْ حَدَّثَنِي مَنْ أثِقُ بِهِ مِن أصْحَابِنَا، وهو الفقيه العالِم، الولي الصَّالح، سيِّدي محمَّد بن معروف الصحراوي، أنَّهُ قال لي: رأيْتُ فِي كتاب البوني، شمس المعارف. قال فيه: «**إذَا دخَلَت النَّصَارىٰ مصر، وظَهَرَ الْوَبَاء بِٱلْمَغْرِبِ**، وخَرَجت النَّصارى بالسواحِلِ، ظَهَرَ الإمام المهدي، ونَزَل عِيسَىٰ ابن مَرْيَمَ عليه السَّلام، فَمَنْ مَات حَبِيبُهُ فِي هٰذَا الزَّمَانِ، فَلاَ يتأسَّف عَلَيْهِ، ومَن أحَسَّ بانتقال روحِهِ إلى الله، فليَفْرَحْ بِلِقَاءِ الله، ومُلاَقَاة رسول الله ﷺ، ومَن تقدَّمه من أوْلِياء الله، وكَانَ بِلاَل يقول عند مَوْتِهِ: واطَرَبَاهُ، غَداً ألْقَى الأحِبَّة: محمَّداً وحِزْبَهُ، فإنَّ الرُّوح إذا خَرَجَتْ مِنْ سِجْن البَدَنِ، تَصَوَّرَتْ عَلَىٰ هَيْأةِ صَاحِبِهَا، شَكْلاً كَامِلَ الأعْضَاءِ، لَطِيفاً روحانياً، كالملائكة، يَرَىٰ ويسمع ويعرف، فإذا خَرَجَتْ مِنَ الْبَدَنِ، كَسَتها المَلاَئِكَة ثياباً أتَتْ بِهِ مِنَ الجَنَّةِ، مع حنوطٍ وَطِيبٍ، فتصعد بِهَا إلى السَّمَاءِ، ولها رائحة طيبة، فَتَقُول الملائكة: هٰذه روح فُلاَنِ ابن فُلان، رَحِمَهُ الله، فَيُصَلُّونَ عَلَيْهِ، ويُشَيِّعُونَهُ مِن سَمَاءِ

إلى سَمَاءٍ حتى يَفْضِيَ إلى سِدْرَةِ المُنْتَهَىٰ، فتقول المَلاَئِكَة: هٰذَا عَبْدُكَ فُلان قَدْ أَتَيْنَاكَ بِهِ، فَيَقُول: «اُكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي علِّيِّينَ، وأروهُ مقْعَده مِن الجِنَانِ، فيَذْهَبُونَ بِهِ إلى الجنَّةِ، فيرى ما أَعَدَّ الله مِنَ الإِحْسَانِ، ثم يُرَدُّ إلى السُّؤَالِ، فإذا وُضِع الجَسَدُ عَلَىٰ النَّعْشِ كَانَتْ فَوْقَهُ بِذِرَاعٍ، تقول: قَدِّمُونِي قَدِّمُونِي، وإذا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ، وأُلْقِيَ عَلَيْه التُّرابُ، دَخَلَتْ فِي القَبْرِ، وحَيِيَ البَدَنُ حَيَاةً خَارقة لِلْعَادَةِ، أَشْبَهُ شَيْءٍ بِحَالَةِ النَّائِمِ، فَإِذَا سُئِلَ فِي قَبْرِهِ، وثَبَّتَهُ الله بِٱلْقَوْلِ الثَّابِتِ، حَتَّى أجَابَ رُسُلَ رَبِّهِ، صَعِدَتْ رُوحُهُ إلى المَقَامِ الَّذِي أَعَدَّهُ الله لَهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾. قال بَعْضُ العارِفِين: رَوْحُ الوِصَالِ، وَرَيْحَان الجَمَالِ، فإذا انْفَصلَت الرُوحُ من هٰذَا الْبَدَنِ، اتَّصلَتْ بِٱلْحَضْرَةِ الْقُدْسِيَّة؛ وهو الرُّوح، ولم تَرَ إلاَّ الْفَضَاء وسَعَةَ الْجَمَالِ؛ وهو الرَّيْحَانُ، ثمَّ تَدْخُلُ الجَنَّة، فَتَتَنَعَّمُ فِيهَا بأنواع الخَيْرَاتِ، وَلاَ تُحْصَرُ في الجَنَّةِ، بَلْ تَذْهَبُ حَيْث شَاءَتْ، وَفِي بَعْضِ الأثرِ، إذَا مَاتَ العارِفُ: قِيلَ لِرُوحِهِ: اذْهَبْ حَيْث شِئْتَ. وقيل الروح: الاسْتِرَاحة من تَعَبِ الدُّنْيَا وأَهْوَالِهَا، والرَّيْحَان: الرزق الَّذِي يليق بِحَالِهَا، فإنَّ رُوحَ الشهداءِ، تأكل من ثِمَارِ الجَنَّةِ، وتَشْرَبُ مِن أَنْهَارِهَا، وَرُوح الصدِّيقينَ تأكُلُ من ثمارِ المعارف، وتشرب من نَسِيمِ لذَّة الشهودِ والمعَاينَة.

وقال التِّرْمِذي: الرَّوْحُ الرَّاحَة فِي القَبْرِ، والرَّيْحَان دُخُول الجنَّةِ: وقال بَسَّام بن عبد اللّٰهِ: الرَّوْحُ السَّلاَمَةُ. والرَّيْحانُ الكرامة. وقال سَعْدُ: الرَّوْحُ معانقة الأبكار. والرَّيحانُ مُرَافقة الأبْرَار.

فالمُقَرَّبُونَ يَتَنَعَّمُونَ بِنِكَاح الأَبْكَارِ، ويَجْرِي عَلَيْهم رزقهم قبل قيام السَّاعة؛ لظَاهِرِ الآيَة. وقال الخرَّاز: الرَّوْحُ كشف الغِطاءِ. والرَّيحان الرُّؤْية واللقاء. وقيل الرَّوْحُ: الرأفَةُ، والرَّيحانُ: النَّجاة من الآفَةِ. وقيل الرَّوْحُ: المَوْتُ على الشَّهَادَةِ. والريحانُ: بَدْءُ السَّعادة. وقيل الرَّوْحُ: كشف الكُرُوبِ. والرَّيحانُ: غُفْران الذُّنوبِ. وقيل الرَّوحُ: الثبات على الإيمانِ. والرَّيحانُ: نَيْل الأمْنِ والأَمَان. وقيل الرَّوْحُ: فَضْلُهُ. والريْحانُ: وَصْلُهُ. وقيل الرَّوْحُ: عفوٌ بِلاَ عِتَابٍ، والريحانُ: رزق بِلاَ حِسَابٍ، وقيل الرَّوحُ للسابقين، والرَّيحان للمقتصدينَ، والجنَّة للظالمينَ. وقيل الرَّوْحُ لأرْوَاحِهِمْ. والرَّيحانُ لِقُلُوبِهِمْ، والجنَّة لِأَبْدَانِهِمْ، والحقُّ لِأَسْرَارهِمْ.

والمُقَرَّبُونَ: هم السابقونَ. والسَّابقون: هُمْ أَهْل الْهِمَم العالية؛ الَّذِين سَبَقَتْ أرْوَاحهم إلى الحضرة القُدْسِية؛ وهم أهْل الفَنَاءِ والبَقَاءِ. فالْمَوْتُ فِي حَقِّ هٰؤُلاَءِ،

انتقال مِنْ وَطَنٍ إلى وَطَنٍ، ومن دَارٍ إلى دَارٍ، وفي ذلك يقول الغزالي، بَعْدَ مَوْتِهِ، وُجِدَتْ تحتَ عِمَامَتِهِ:

لاَ تَظُنُّوا الْمَوْتَ مَوْتٌ إنَّهُ ... لَحَيَاةٌ وَهُوَ غَايَةُ الْمُنَا

لاَ تُرَوِّعكُمْ هَجْمَةُ الْمَوْتِ فَمَا ... هُوَ إلاَّ انْتِقَالٌ مِنْ هُنَا

فَاخْلَعُوا الأجْسَادَ مِنْ أنفُسِكُمْ ... تُبْصِرُوا الحقَّ عياناً بَيِّنَا

وإلى آخِرِ قَصِيدتِهِ. وأمَّا إن كَانَ مِن أصْحَابِ اليَمِين، فَتَصْعَد المَلائِكَة بِرُوحِهِ كَمَا تَقَدَّمَ، ثم ترجع للسؤال، فإن سُئِلتْ انتقَلَتْ بأهْلِهَا في عَالَم البَرْزَخ، فَيُسَلِّمُونَ علَيْهَا، ويَسْألُونَهَا عن أحْوَالِ الأحْيَاءِ، ثمَّ تَبْقَىٰ مَخْصُورَةً فِي عَالَم البَرْزَخ إلى يَوْمِ البَعْثِ، بخلاف أرْوَاح المُقَرَّبينَ، فإنَّها مطلقة تذهَبُ حَيْثُ تَشَاءُ، وتَتَصرَّف تَصَرُّف الأحْيَاءِ. والمُرَاد بأصْحَابِ اليمين: أهْل الدَّليل والبُرْهَان، الذين حَصَرَتْهُمُ الأكْوَان، ولم يُفْضوا إلى فَضَاءِ الشهودِ والعِيَانِ، سواء كانُوا عُلَمَاء أوْ صَالِحِينَ، أوْ عُبَّاداً أوْ زُهَّاداً.

والحاصِلُ: أنَّ مَنْ خَرَجَتْ فِكْرَتُهُ عَنِ الأكْوَانِ، واتَّصَلَتْ بِشُهُودِ المَكَوِّنِ؛ فهو مِنَ المقَرَّبينَ، ومن بَقِيَتْ مسجونة فِي الأكْوَانِ، لم تُفْتَحْ لها مَيَادِين الغُيُوب؛ فهو مِنْ أهْلِ اليَمِينِ، وبالله التَّوفيق. وبقي عندهم من الأمراض العادية، عندهم الجذامُ؛ وهو قليل في قطرنا هٰذَا، فلا نتكَلَّمُ عليه والسَّلامُ.

الْبَابُ الْخَامِسُ

فِي اكْتِسَابِ الْيَقِينِ، وَذِكْرِ مَوَادِّهِ وَمَوَاطِنِهِ

اليَقِينُ: هو سكونُ القَلْبِ واطْمئنانُهُ بزَوَالِ التَّرَدُّدِ والاضطرابِ، من قولهم: يَقِنَ الماء في الحَوْضِ، إذا سكن واسْتَقَرَّ فِيه. ثم يتفاوتُ اليقين بِتَفاوُتِ مَوَادِّهِ وأنواره، فإذَا سكَنَ إلى الله تَعَالىٰ سكوناً تاماً، لَكِنَّهُ مِن وَرَاءِ حِجَاب الأكْوَانِ، يستدلّ بالأثَرِ على المُؤثِّر، سُمّيَ هٰذَا المقام، علم اليقين. ومَوَادّه التَّفَكُّرُ والاعتبار، فكلما قَوي التفكُّر والاعْتِبار، قَوِيَ نُورُ الْيَقِينِ، فإذا نَظَرَ إلى هذه المَصْنوعاتِ العلوية والسُّفلية، وتفكَّرَ في عجائب صُنْعِهَا، واختلاف أشخاصها وأنْوَارِهَا؛ وتعَدُّدِ أفرادِهَا، وكُلُّهَا فِي قَبْضَتِهِ تَعَالَىٰ، وتَحْت قُدْرَتِهِ وإرَادَتِهِ، أحَاطَ بِهَا عِلْماً، وسمعاً وبصراً، لا يَعْزُبُ عنه مثقال ذرَّة فِي الأرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ، عَلِمَ عِلْمَ يَقِينٍ عظمة خَالِقِهَا، وبَاهِرَ قُدْرَتِهِ، وسَعَةَ عِلْمِهِ، فإذا تعَطَّشَت الرُّوح إلى مَعْرِفَة ذَاتِهِ، واشتاقَتْ إلى الْوُصُول إلى حَضْرَتِهِ، رزقَهَا الحقُّ تَعالَىٰ الإنَابَة إلَيْهِ، فأوحَشَهَا مِنْ خَلْقِهِ،

وأنَّسَهَا بِهِ، وأشغَلَهَا بذكره، وقيَّض لها ولياً مِنْ أوْلِيَائِهِ، فلا يَزَال يسيرُ بِهَا مِنْ مَرْحلٍ إلى مرحلٍ، ومِنْ مَنْهَلٍ إلَى مَنْهَلٍ، حَتَّى يَقُولَ لَهَا: هَا أنتَ وَرَبُّكَ، وذلِكَ حتَّى تنقشع ظُلْمَةَ الأكْوَانِ عَنِ الْقَلْبِ، فَيُشَاهِد أنْوَارَ الْغَيْبِ حَاضِرَةً، وأسْرَار الذَّاتِ لائِحَةً، فَيَغْرقُ فِي الأنْوَارِ، ويَغِيبُ عَن شُهُودِ الآثَارِ، ويُسَمَّى هٰذَا الْمَقَامُ، عَيْنَ الْيَقِينِ، وهو مقام الفناءِ ومَوَادُّهُ: الذِّكْرُ القَلْبِي، وجَوَلاَن الفِكْرَة فِي مَيَادِين الغيُوبِ، مع دَوَام صُحْبَةِ الْعَارِفينَ، وخِدْمَةِ الْوَاصِلِينَ، وإذَا تَمَكَّنَ مِن شُهُودِ الأنْوَارِ، ورجَعَ إلى شُهُودِ الآثَارِ يَرَاهَا قَائِمَةً بِالله، لاَ وجودَ لَهَا مَع الله، سُمِّيَ هٰذَا الْمَقَامُ: حَقَّ اليقينِ. ومَوَادُّهُ: الْفِكْرَة والنَّظْرَة، ولُزُوم الصُّحْبَةِ والخِدْمَةِ. ولم يَبْقَ بَعْدَ هٰذَا، إلاَّ التَّرَقِّي فِي الْمَعْرِفَةِ أبَداً سَرْمَداً فِي هٰذِهِ الدَّار، وَفِي تِلْك الدَّار، إذْ عَظَمَةُ الحقِّ لاَ نِهَايَة لَهَا، فالترقِّي لاَ نِهَايَة لَهُ. وقد تَكَلَّم أبُو الْقَاسِم القشيري رضيَ الله عَنْهُ، عَلَىٰ هٰذِهِ الْمَقَامَات الثلاث؛ أعْنِي عِلْم اليَقِين، وعَيْن الْيَقِين، وحقّ اليَقِين فقال: «علمُ اليقينِ ما كَانَ بِشَرْطِ البُرْهَان. وعَيْنُ اليقين مَا كَان بِحُكْم الْبَيَانِ، وحقُّ اليقين مَا كَانَ بنَعْتِ البَيَانِ، فَعِلْمُ اليقين: لأربابِ العُقُولِ. وعَيْنُ اليَقِين: لأرْبَابِ العُلُومِ. وحقُّ اليقينِ: لأصحاب المعارف». وأحْسَنُ مِنْهُ، ما قال أبُو سَعِيدِ الفَرْغانِي رضيَ الله عَنْهُ، قال: «اليقينُ: هُوَ سُكُون الْقَلْبِ واسْتِقْرَارهُ، فإذَا أُضيف هٰذَا السكون إلى النَّفْس والْعَقْلِ بِنَاءً عَلَىٰ حجَّةٍ ودَلِيلٍ يدلهما عَلَى الأمْرِ المطلوبِ، سُمِّي علم اليقين، وإذا أُضيف إلى الرُّوحِ الرَّوحانية، بطريق زوال الحُجُب الحَائِلَة بَيْنَها وبَيْن ذلِكَ الأمْر المطلوبِ، فتُعَايِنُهُ وتُشَاهِدُهُ كَما هُو في مَعْدنِهِ، يُقَال لَهُ: عَيْنُ اليَقِين. وإذا أُضيفَ ذلِكَ السكون إلى السِّرِّ، يُسَمَّىٰ حقّ اليقين». انتهى مختصراً.

ومثال ذلكَ في الشَّاهد: عِلْمُنَا بِوُجود مكَّة مثلاً، فَمَا دَامَ الإنْسَان لَمْ يَصل إلَيْهَا، عِنْدَهُ مِنهَا عِلْمُ اليقين، فإذا استشرفَ عَلَيْهَا ورَآهَا، حَصَلَ لَهُ عَيْن اليقين، فإذا دَخَلَهَا، وعَرَفَ طُرُقَها حَصَلَ لَهُ حقُّ اليقين، وكَذَلِكَ مَعْرِفَة الذَّاتِ العالية، فما دَامَ العَبْدُ مؤمناً بالغَيْبِ، يشاهد الأكْوَان، ويستدلّ بها على المُكَوّنِ، فهذا العلمُ الَّذي عِنده بالله، يُسَمَّى علم اليقين، فإذا انقطع إلى الله، واتَّصل بشيخ التربية، فسار بِهِ حتَّى غَيَّبَهُ عَن شُهُودِ الأكْوَانِ، بشهودِ المُكَوّنِ، بِحَيْث فَاضَتْ أنوار المعاني عَلَيْهِ، فغَيَّبَتْهُ عَنْ شُهُودِ الأوَانِي، فَهٰذَا يُسَمَّىٰ عَيْنُ اليقين، فإذَا تَمكَّنَ مِنَ الشُّهُودِ، ورسَخَ قَدمه في شهودِ المَلِك المَعْبُودِ، فَرَأَى المَعَانِي قائِمَة بالأوَانِي؛ فَهٰذا يُسَمَّى حقُّ اليقين، وإلى هذه المقاماتِ الثلاثِ، أشَارَ ابْنُ عطاءِ الله في الحِكَم بِقَوْلِهِ: «شُعَاعُ الْبَصِيرَةِ يُشهِدُكَ قربَ الحَقِّ مِنْكَ، وعَيْن البصيرةِ يُشهدكَ عَدَمَكَ لِوُجُودِهِ،

وحقُّ الْبَصِيرَة، يُشهدك وجود الحق لاَ عَدَمَكَ، وَلاَ وُجُودكَ، كَانَ الله وَلاَ شَيْءَ مَعَهُ، وهُوَ الآن عَلَىٰ مَا عَلَيْهِ كَان». وهذه المَقَامات الثلاث: أعْنِي عِلْمَ اليقِين، وعيْن اليقين، وحقّ اليقين، تَجْرِي فِي كل ما يُطْلَبُ فِيهِ تَزْبِيَة اليقين، كَضَمَانِ الرِّزقِ، وعَدم الخَوْفِ مِن الخَلْقِ، وتَحْدِيد الأجَل، وجَرَيان مَواقع القَدرِ، كَالبَعْثِ وَمَا بَعْدَهُ، فأمَّا ضَمَانُ الرِّزْقِ، فيحصل فيه علم اليقين، بالتفكُّر في الآيات الّتِي وَرَدَتْ فِيه، فكثيرة فِي كَلاَم الله فِي شَأنِه، وكالأحاديث التي وَرَدَتْ عن الصادقِ المَصْدُوقِ فِي ضَمَانِهِ.

فأمَّا الآيَاتُ الَّتِي وَرَدَتْ، فَكَثِيرَةٌ جداً، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَاۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾. وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَاۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًاۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾. وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾. وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾. فوسطه بَيْن الخلق والإماتة. فَكَمَا لاَ تَشكُّ أنَّ الله الَّذِي خَلَقَكَ؛ وهو الَّذِي يميتكَ، ثم يحييكَ، فكَمَا لاَ تَشُكُّ أنَّ الله يَرْزقكَ، إذ كلها سَوَاء. وقَالَ تَعالَىٰ: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾. وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ﴾. وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾. وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾. وأمَّا الأحَادِيثُ النَّبويَّةُ، فَقَدْ قَالَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**لَوْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَىٰ الله حَقَّ تَوَكُّلِهِ، لَرُزِقْتُمْ كَمَا تُرْزَقُ الطَّيْرُ، تَغْدُو خِمَاصاً، وتَرُوحُ بِطَاناً**». وقال ﷺ: «**إنَّ رُوحَ القُدُس نفثَ في روعي، أنَّ نَفْساً لَنْ تَمُوتَ، حتَّى تَستَكْمِل رِزْقَهَا، فاتَّقُوا الله، وأجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ**». وقال ﷺ: «**إنَّ الرِّزْقَ يطلبُ الرَّجُلَ، كما يطلبهُ أجَلُهُ**». إلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الأحَادِيث الَّتِي لَمْ نستحضرْها. وأمَّا قوله عليه السَّلامُ: «**إنَّ الله تَكفَّلَ برزقِ طَالِبِ عِلْم**». فَالْمُراد بِهِ تَكَلّلٌ خاصٌّ؛ وهو إتيانُهُ بِغَيْرِ سَبَبٍ، وَلاَ تَعَبٍ، وأنَّ الله قَدْ تَكفَّلَ بِرِزْقِ جَمِيع عِبَادِهِ، لكنّه سُبْحَانَهُ سَتَرَ ذَلِكَ بِرِدَاءِ الحِكْمَةِ؛ وهو وجود الأسْباب العَادِيَة.

وَمَنِ اشْتَغَلَ بِطَلَبِ الْعِلْمِ النَّافِع مُخْلِصاً فِيهِ، أتَاهُ رِزْقُهُ مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ، وإنَّمَا سَتَرَ الحقّ سُبْحَانَهُ هٰذَا الضَّمَان بِرِدَاءِ الحِكْمَةِ؛ وَهُوَ وُجُود الأسْبَابِ؛ لأنَّ إبْرَازَ

الرِّزْقِ، مِنْ عَيْنِ المِنَّةِ ظَاهِراً من غَيْرِ سَبَبٍ كَشْفٌ لِأَسْرَارِ الرُّبُوبية، وهَتْكٌ لِأَسْتَارِ عظَمة الألوهية. في هذه الدَّار التي هِيَ دَارُ التكليفِ، لا دارِ التعريفِ لِتَظْهَر مَزِيَّةُ الإيمَانِ بِالْغَيْبِ، فَلاَ بُدَّ مِن رِدَاءِ الحِكْمَة أن يُنْشَرَ عَلَىٰ تَصَرّف القُدْرَةِ، فَيَبْقَىٰ السِّرُّ مَصُوناً، والكَنْزُ مَدْفُوناً، فإذَا كَانَ يَوْم الْقِيَامَة، ظَهَرَتِ القُدْرَة، وبطنتِ الحِكْمَة، فَظَهَرتِ الأسْرَارُ بَادِية الأنْوَارِ، فَتبْرُز حِينَئِذٍ الأرزَاقُ مِنْ عَيْنِ المِنَّةِ، بَادِية ظَاهِرَةً مِن غَيْر رِدَاءٍ وَلاَ سِتْرٍ؛ لأنَّها دَارُ التعريفِ، لا دارِ التكليفِ، فحينئِذٍ تَظْهر ثَمَرَة الإيمانِ، ويتميَّزُ الرِّبْحُ مِن الْخُسْرَانِ، باعْتِبَار مَا غَرَسُوا هُنَا.

فَعِلْمُ الْعَبْدِ بِهٰذَا الضَّمَان، مِنَ الآيات التي قَدَّمْنَا، والأحاديث النَّبوية، يُسَمَّى عِلْم اليقين، فإذا أرَاد تحصيلَ عَيْنِ اليقين، فَلْيَنْقَطِعْ إلى الله انقطاعاً كُلِيّاً، ويَتَجرَّد عَنِ الأسْبَاب قَلْباً وقَالَباً، فإنَّ الله يأتيه بِرِزقِهِ مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾. وقَوْلِهِ عليه السَّلامُ: **«مَن انْقَطَعَ إلى الله، كَفَاهُ الله تَعَالَىٰ كُلَّ مُؤُونَةٍ، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيث لاَ يَحْتَسِبُ، ولْيَسْكُنْ تَحْتَ قَهْرِيةِ الْفَاقَةِ، حتَّى يذوق أسْرَارها، ويحصل له علم ضروري»**. إنَّ الله يرزق بالسَّبَبِ، وبِلاَ سَبَبٍ، فإذَا رسَخَ فيه هٰذَا الْعِلْمُ، وَلَمْ يَبْق فِيهِ خَصْمٌ وَلاَ وَهْمٌ، سُمِّيَ ذٰلِكَ حقَّ اليقين.

وأمَّا عَدَمُ الْخَوفِ مِنَ الخَلْقِ، فيحصل فيه علم اليقين، في التفكُّر في الآيات الدَّالة على توحيد الأفعَالِ، وأنَّهُ لاَ فَاعِلَ إلاَّ الله، كقولِهِ تَعالىٰ: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾. وكَقَوْلِهِ تَعالَىٰ: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾. وكَقَوْلِهِ تَعَالى حِكاية عَنْ سيِّدنا إبْرَاهيم: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۗ﴾. وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾.

وفي الحديث عنه ﷺ، قال لابْنِ عبَّاسٍ رضي الله عَنهُ: **«واعْلَمْ أنَّهُ لَوِ اجْتَمَعَ الْخَلْقُ على أن يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَم يُقَدِّرْهُ الله عَلَيكَ، لَمْ يَقْدِرُوا عَلَىٰ ذٰلِكَ، جُفَّتِ الأقلامُ، وطُوِيت الصحف»** إلى آخر الحديث المشهور، فإذا أرَاد تَحْصِيل عَيْنِ اليَقِين، فليورد مواطِن الحُتُوفِ والأماكن التي خاف بها النَّاس من غَيْر تقرير. حتى يكتسب عَيْن اليقين. فإذا دَامَ عَلَىٰ هٰذَا الْعَمَل، تمَكَّنَ فِيهِ حَقُّ اليقين. وتحقق حينئذٍ ذوقاً وكشفاً، ألاَّ فَاعِلَ إلاَّ الله، وَلاَ فَاعِل سِوَاهُ، ثم إذا وجد من يسير به إلى الله،

حَصَلَ له توحيد الذَّاتِ، وأنَّهُ لاَ مَوْجُود إلاَّ الله، وهو النِّهاية. قال تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾.

وأمَّا تَحْدِيدُ الأجَلِ، وجَرَيَانُ مَوَاقِعِ الْقَدَرِ؛ فَقَد تَقَدَّمَتِ الآيات الدَّالة على ذَلِكَ. فإذَا تأمَّلَ فِيهَا مُفرِغاً قَلْبَهُ، حَصَلَ لَهُ عِلْمُ اليقينِ، فإذا أرَادَ تحصيل عَيْن الْيَقِين، فَلْيَرِدْ أيْضاً مواضِعَ الْخَوْفِ، ومواطن الْحُتُوفِ؛ كَبَلد الْوَبَاءِ، إن كَانَ له يقينٌ فِي التوحيد، أو الصَّبْر في بَلَدِهِ، حتى يحصل له عيْنُ اليقين. إنَّ الأجل مَحْدُود، وقد يحصل عَيْن اليقين، بالنَّظَرِ لِمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ، وبَاشَرَ الحتوفَ، وسَكَنَ مواطِنَ الهلكةِ؛ وهو سَالِمٌ. فإذا دَامَ فِي مواطِنِ الخَوْفِ، حتى تمكَّنَ مِنْ قَلْبِهِ العِلْمُ اليَقِينيّ، حَصَلَ له حق اليقين.

وأمَّا الْبَعْثُ وَمَا بَعْدَهُ، فأمْرٌ شَهِيرٌ، وآياته فِي الْقُرْآن كثيرة جدّاً، وجُلُّ النَّاس حَصَلَ لهم فيه عِلْمُ الْيَقِين، وَلاَ يَحْصَل عَيْن اليقين، وحقّ اليقينِ، حتى تقوم السَّاعة، ويراها النَّاسُ عِيَاناً، فحينئذٍ يحصل لَهُمْ عَيْن اليقينِ، وحقّ اليَقينِ، نَعَمْ، قد تَتَوارَدُ الأنْوَارُ عَلَىٰ الْقَلْبِ فَيَصِير الغَيْبُ فِي مَعَدِّ العِيانِ، والأجَلُ فِي مَعَدِّ الْعَاجِلِ. وكُلُّ آتٍ قريبٌ، وانْظر إلى قولِ حَارِثة رضي الله عَنْهُ: «**كأنّي أنظر إلَى أهْلِ الجنَّةِ يَتَزَاوَرُونَ بَيْنَهُمْ، وكأنِّي أنْظُرُ إلى أهْلِ النَّارِ يَتَعَاوَوْنَ فِيهَا**» الحديث. أو كما قال ذلك رضي الله عنه، فانْظرهُ كَيْف جَعَلَ الآتي وَاقِعاً، والغائِبَ شَاهِداً؛ ولذلكَ قال ﷺ: «**الْزَمْ قَدْ عَرَفْتَ عَبْدٌ دَخَلَ نُور الله قَلْبَهُ**» أو كما قال عليه السَّلامُ.

وطريق اكتساب اليقين، هو صُحْبَة أهْل اليقين، والله ما أفْلَحَ مَنْ أفْلَحَ، إلاَّ بِصُحْبَةِ مَنْ أفْلَحَ، ومن تحقق بِحَالة، لا يَخْلُو حَاضِرُوه مِنْهَا. وَفِي بَعْضِ الأحَاديث: «**تَعَلَّمُوا الْيَقِين، فإنِّي أتَعَلَّمُهُ**». وفِي بَعْضِ رِواية أُخْرَىٰ: «**تَعَلَّمُوا الْيَقِين بِمُجَالَسَةِ أهْلِ الْيَقِينِ**». وقال بَعْضُ الْعَارفين: «إنَّ لله رِجَالاً إذَا نَظَرُوا أغْنوا» وكَانَ الشَّيْخ الشاذِلِي رضي الله عَنْهُ يَقُولُ فِي شَأنِ تِلمِيذِهِ، أبي العَبَّاس الْمُرْسِي رضي الله عَنْهُ: «نِعْمَ الرَّجُلُ أبُو الْعَبَّاس، يأتِيهِ الرَّجل الْبَدَوِيُّ يَبُولُ عَلَىٰ سَاقِهِ، فَلاَ يُمْسِي إلاَّ وَهُوَ وَلِيٌّ مِنْ أوْلِيَاءِ الله». وقال أبو العَبَّاس الْمُرْسِي نَفْسُهُ: «والله ما بَيْنِي وَبَيْنَ الرَّجُلِ، إلاَّ أنْ أنْظُرَ إليه، وقَدْ أغْنَيْتُهُ». قُلْتُ: وَكُلّ زمَان له رِجَالٌ يغْنُونَ بالنَّظَرِ، وقد أدْرَكْنَاهُمْ والحمد للَّهِ، وصحبْناهُمْ، أظْهَرَهُمْ الله ظُهُورَ نَارِ الْقِرَىٰ عَلَىٰ عَلَم، بل ظهور الشَّمْسِ في أُفُقِ السَّمَاء، لكن لاَ بُدَّ للشَّمس من سَحَابٍ، وللحَسْنَاءِ من نِقَابٍ:

وَكَمْ مِنْ عاذل لَيْلَىٰ وَلَمْ يَرَ وَجْهَهَا ... فقال لَهُ الْحِرْمَانُ حَسْبُكَ مَا فَاتَ

معراج التشوّف إلى حقائق التصوف

للعارف بالله أبي العباس سيدي أحمد بنعجيبة

بسم الله الرحمن الرحيم

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمْ تَسْلِيماً

1 - الشرح الأول: مِعْرَاجُ التَّشَوّفِ إلَى حَقَائِقِ التَّصَوُّفِ.

قال الشيخ الإمام، البحر الهُمَام. الصوفِي الكَامِل، والعارف الواصل بحر الحقائق العِرْفَانِية. وشمس المعارف العِيَانية. أَبُو العباس سيدي أحمد بن محمد بنعجيبَة الحسَنِي رضي الله عنه وأرْضاهُ. وجَعَل في حضرةِ القُدْس مُتَقلبه ومثواهُ.

الحمْدُ للّهِ الذي حَقَّقَ الْحَقائِق، وأَوْضَحَ الطرائق. والصَّلاَة والسلام على مَوْلاَنَا مُحَمَّدٍ سيّد الخلائق. المخصوص بتواتر المُعْجِزاتِ. وتظاهر الخوَارق، ورضي الله تعالى عن أَصْحابه الأَعْلاَم. الذين أَظهر الله بهم دينه القويم، في أقصى المغارب والمشارق.

وَبَعْدُ: فَعِلْمُ التَّصَوُّفِ: هو سَيّدُ العلوم ورئيسُهَا، ولُبَاب الشَّرِيعَةِ وأَسَاسُهَا. وكيْف لاَ وهو تفْسيرٌ لمقام الإِحسانِ. الذي هُوَ مقام الشهود والْعِيَان. كَما أن علم الكلام، تفسير لمقام الإِيمانِ. وعلْمُ الفِقْهِ تفسير لمقامِ الإِسْلاَم. وقد اشتمل حديث جبريل عليه السلام، على تفسير الجميع. فإذا تقرر أَنه أَفضل العلوم، تَبَيَّنَ أَنَّ الإِشتِغالِ بِهِ أَفضلُ ما يُتَقَرَّبُ به إلى الله تعالى، لِكَوْنِهِ سبباً لِلْمَعْرِفَةِ الخَاصَّةِ، التي هي مَعْرِفة العَيانِ. وقد اشتمل على حقائق غريقة. وعبارات دقيقة، اصطلح القوْمُ على استِعْمالِهَا. فينبغي الوُقوف على مَعَانيهَا. لمَن أَرَادَ الخَوْضَ فيهِ. والوقوف على مَعَانيهِ. وقد أَردت بحول اللّهِ وقوّته أَنْ أجمع نبذَة صالحة من حقائق هذَا الفَنّ واصْطِلاَحَاتِهِ. لعلَّ الله ينفع من يريد الوقوف على هَذَا العلم. وسَمَّيته: مِعْراجَ التشوفِ، إلى حقائق التصَوُّفِ. وبالله التوفيق؛ وهو الهادي إلى سواء الطريق. وسَأَذكر لكُلِّ حقيقة ما يَتَّصِلُ بهَا بداية ووسطاً، ونهاية.

التَّصَوُّفُ: علمٌ يعرف به كيفية السلوكِ؛ إلى حَضرَةِ مَلِكِ الْمُلُوكِ. أَوْ تصفية البواطِنِ مِنَ الرَّذائِلِ وتَحْلِيتها بأنواع الفضائِلِ أَوْ غَيْبَة الخَلقِ في شهود الحقِّ، أو مع الرجوعِ إلى الأثَرِ فِي أَوَّلِهِ عِلمٌ. وفي وَسَطِهِ عَمَلٌ. وَآخِره مَوْهبة. واشْتِقَاقه، إِمَّا من الصَّفَاءِ؛ لأنَّ مَدَاره عَلَى التصفية، أَو مِنَ الصّفَةِ؛ لأنَّه اتصافٌ بِالْكَمَالاتِ. أَوْ من صُفَّةِ المَسْجِدِ النَّبَوِي؛ لأَنَّهُمْ مُشَبَّهُونَ بِأَهْلِ الصّفَّة في التوجّهِ والإنقطاعِ. أَوْ من الصّوفِ. لأَنَّ جُلَّ لباسهم الصّوف. تقللا من الدُّنيا وَزُهداً فيهَا. إختَارُوا ذلِكَ: لأنه كان لباس الأنبياءِ عليهم السَّلاَمُ. وهذا الاشتقاق أَنْسَبُ إليه لغة، وأظهر نِسْبَة؛ لأنَّ لبَاسَ الصُّوفِ. حكمٌ ظاهِرٌ على الظَّاهِرِ. ونسْبتهم إليه أمْرٌ باطِنٌ. والحكم بالظاهر أوفق وأقرَبُ. ويُقال: تصَوَّف، إذا لبِسَ الصوف. كما يُقال: تَقَمَّصَ إذا لبِسَ القميصَ. والنسبة إليه صُوفِي. قال سَهْلٌ:

الصُّوفِي: مَن صَفَا منَ الكَدَرِ. وامْتَلأَ مِنَ الفِكَرِ. وانقطع إلى اللَّهِ من التبشر، واستوى عنده الذَّهَبُ والمَدَرُ. أَيْ لاَ رَغْبَةَ لهُ في شيءٍ دُونَ مَوْلاَهُ. الْجُنَيْدُ: الصوفي كالأرْضِ، يطأُها البَرُّ والفَاجِر. وكَالسَّماءِ يُظِلُّ كلَّ شيءٍ، وكَالمطَرِ، يسْقي كل شيْءٍ.

التَّوْبَةُ: الرجوع عَنْ كُلِّ فعْلٍ قبيحٍ، إلى كل فعْلٍ مَليحٍ. أَوْ وصْفٍ ذَنِيٍّ، إلَى التحقق بكلِ وصف سنِيٍّ. أَوْ عن شهودِ الخلق، إلى الإستغراق في شُهودِ الحقِّ.

وَشُرُوطِها: النَّدَمُ، والإنقطاعُ ونفي الإصرار. وأَمَّا رد المظالم، فَفَرْض مُسْتَقِلٌّ تصِحُّ بدُونِهِ. كَما تَصِحُّ من ذَنْبٍ مَعَ الإصْرَارِ على آخَرَ من غَيْرِ نَوْعِهِ.

فَتَوْبَةُ العَامَّةِ من الذُّنوبِ. وتَوْبة الخَاصَّةِ مِنَ الْعُيُوبِ، وتوْبة خَاصَّة الْخَاصَّةِ مِن كُلِّ ما يشغل السِّرَّ عن عَلاَّمِ الغيوبِ. وكُلّ المَقَامَات يفتقِر إِلى التَّوْبَةِ. فَالتوبة تفتقِر إلى توبَةٍ أُخرى بِعَدَمِ نصوحِهَا. والخوف يفتقِر إِلَيْهَا، بِحُصولِ الأَمْنِ وَالإغْتِرَارِ. والرَّجَى بِحصولِ القنوطِ والإياس. والصَّبر بحصول الجزَع. والزُّهْد، بخواطر الرَّغْبَة. والوَرَع، بتتبع الرُّخَصِ. بخواطِر الطمع. والتوكل؛ بخواطِرِ التَّدْبِيرِ وَالإختيارِ، والإهتمام بِالرِّزْقِ، والرِّضى، والتسْليم بالكرَاهية. والتبرّي عند نزول الأقدار. والمراقبة بسُوءِ الأدَبِ في الظَّاهِر. وخواطر السّوءِ في الباطِنِ والمحاسَبَة بتضييع الأوقات، فِي غَيْر ما يقرّب إلى الحقِ. والمحبّة بمَيْل القلْبِ، إلى غَيْر المحبوب. والمشاهدة بالتفاتِ السِّرّ إلى غيْرِ المشهود. أَوِ باشتغالِهِ بالوُقوفِ مَعَ شيْءٍ مِنَ الحسِّ وَعَدم زيادة التَّرَقي في مَعَارِجِ الأسْرار. ولذلك كَان عليه الصلاة

والسلام، يستغفِرُ في المجلس الواحِدِ سبْعين مرَّة أوْ مِئة. والتوبة النَّصُوح يجمعُهَا أَرْبعة أَشياء:

الإستغْفَارُ بِاللسانِ، والإقلاع بالأبْدَانِ. وعَدَم الإصرارِ بالجنانِ، ومُهَاجرة سيِّىء الخِلاَّنِ.

وقال سُفيَان الثَّوْرِي: علامة التوبة النصوح أَرْبعَة:

القِلَّة، والعِلَّة، والذِّلّة، والغرْبة.

الإِنَابَةُ: وهي أَخَفّ من التوبة: لأَنه رُجُوع يَصحبه إنكسارٌ، ونُهُوضٌ إِلَى السَّيْرِ. وهي ثَلاَث مَرَاتب: رُجُوع من الذَّنْبِ إلى التَّوْبَةِ. ومِنَ الغفْلةِ إلى اليَقظَةِ. ومِنَ الفَرْقِ إلى الجمع على اللَّهِ.

الْخَوْفُ: انْزِعَاجُ القلْبِ من لحوقِ مكْروهٍ، أَوْ فَوَاتِ مَرْغُوبٍ، وثَمَرَته: النُّهُوض إلى الطاعةِ. والْهُرُوب من المعصية. فإظهارُ الخوْفِ مَعَ التقصير دَعْوَة. فخوْفُ العَامَّة من العِقاب، وفَوْت الثّوابِ، وخَوْف الخاصَّة من العِقَابِ، وفوْت الاقتراب. وخَوْف خَاصَّة الخَاصَّة، من الإحتجابِ بعروض سوءِ الأدَبِ.

الرَّجَاءُ: سكون القلْبِ إلى انتظَار محْبُوبٍ، بشرطِ السَّعْي في أَسْبَابِهِ. وَإلاَّ فَأُمْنِيَةٌ وغُرُورٌ. فَرَجاء العامَّة حسْن المَآبِ بِحصول الثواب، ورجاء الخاصَّة: حُصُول الرضوان والإقتراب. وَرجَاء خاصّة الخاصة، التمكّن من الشهُودِ، وزيادة الترقي في أَسْرار المَلِك المَعْبُودِ. والخوْف والرجاء للقَلْبِ، كَجَناحَي الطَّائر. لاَ يطير إلاّ بِهِمَا. ورُبَّمَا يُرجِّح الرجاء عند العارفين. والخوف عن الصالحينَ.

الصَّبْرُ: حبْسُ القلب عَنْ حُكم الرَّبِّ. فَصَبْرُ القَلْبِ على مشاقِّ الطاعاتِ. وَرَفض المخالفات. وصَبْر الخاصَّة: حبْس النفس عن الرياضيات والمجاهرَاتِ. وارْتكاب الأهوالِ، في سلوكِ طريق الأحوالِ. مع مراقبة القلبِ في دوام الحُضُور، وطلب رفع الستور. وصَبْر خاصَّة الخاصَّة: حبْس الرُّوحِ والسِّرّ في حضرة المشاهداتِ والمُعَايناتِ، أَو دوام النَّظْرَةِ، والعكُوفِ في الحَضْرَةِ.

الشُّكْرُ: فَرَحُ القَلْبِ بِحصول النِّعمَةِ، مَعَ صَرْف الجوارحِ في طَاعَةِ المُنْعِمِ، والإعتراف بنعمة المُنعِم على وجه الخضوع، ومَرْجِعه لثلاثٍ:

شُكْر باللِّسَانِ: وهو إعترافه بِالنِّعْمَةِ بِنَعْتِ الإسْتِكَانَةِ، وشكر بالبَدَنِ. وهو اتصافه بالخِدْمَةِ. وشكْر بِالقَلْبِ، وهو شهُود الْمُنْعِمِ عند حُصُولِ النِّعْمَةِ.

الْوَرَعُ: كفّ النَّفس عنِ ارْتِكابِ مَا تُكْرَهُ عاقِبَتُهُ. فَوَرَعُ العَامَّةِ: تَرْكُ الْحَرَامِ والمُتَشَابِهِ، وَوَرَعُ الخَاصَّةِ: تَرْكُ كلِّ مَا يكَدِّر الْقَلْبَ. ويَجد مِنْه كزَازة وظُلْمَة. ويجمعُهُ قولهُ عليه الصلاة والسلام: «**دَعْ مَا يُرِيبُكَ إِلَى مَا لاَ يُرِيبُكَ**». وَوَرَع خاصَّة الخاصَّة: رفْض التعلق بِغَيْرِ اللَّهِ. وسَدّ بابِ الطَمَعِ فِي غَيْرِ اللَّهِ. وعكوفُ الْهَمِّ على اللَّهِ. وعَدَمُ الرّكُونِ إلى شَيْءٍ سِوَاهُ. وهَذَا هو الْوَرَع الذي هو ملاك الدين. كَمَا قال الحسن البصري حين سُئِلَ. ما ملاك الدّين؟ فقال: الوَرَع. فقيل له: وما فسَاد الدّين؟ فَقَال: الطَّمَعُ. فالوَرَعُ الذي يقابل الطمع، كل المُقَابَلة. هو وَرَع خاصَّة الخاصَّة. وجزء منه يَعْدِل آلافاً من الصَّلاة والصيام. ولذلك قال في التنوير: «ولَيْس يدلّ على فَهْمِ العَبْد كَثْرَةُ عِلمِهِ. وَلاَ مُدَاوَمَتُهُ على وِرْدِهِ. وإنما يدلُّ على نورِهِ وفَهْمِهِ غِنَاه برَبِّهِ. الحياشة إليهِ بِقلبِهِ. والتحرر من رِقِّ الطَّمَعِ. والتحلّي بحلية الورع. يعْني ورع الخاصَّة أو خاصَّة الخاصَّة، والله تعالى أعْلَمُ.

الزُّهْدُ: خُلُوُّ الْقَلْبِ مِنَ التعلقِ بِغَيْرِ الرَّبِّ. أَو بُرُودةُ الدُّنيا مِنَ الْقَلْبِ، وعزوف النفس عَنْهَا. فَزُهْد الْعَامَّة: تَرْكُ ما فَضُل عن الحاجَةِ في كل شَيْءٍ، وَزُهْدُ الخَاصَّةِ: ترْكُ مَا يشغل عن التقرب إلى اللَّهِ في جميعَ الأوقاتِ. وحاصل الجميع: بُرُودة القَلْبِ عن السّوي، وعن الرَّغْبَةِ في غَيْرِ الحبيبِ؛ وهو سبَب المحبة. كما قال عليهِ الصلاة والسلامُ: «**إِزْهَدْ فِي الدّنْيَا يُحِبّكَ اللّهُ**». الحديث؛ وهو سَبَبُ السَّيْر والوصول. إِذْ لاَ سَيْرَ لِلقَلْبِ إذا تَعَلَّقَ بشيءٍ سِوَى المحبوبِ.

التَّوكُّلُ: ثِقة القَلْبِ بِاللّهِ، حتى لاَ يَعْتَمد على شيءٍ سواهُ. أَو التعلق باللَّهِ، والتعويلِ عليهِ في كلِّ شيْءٍ، علماً بأنه عالمٌ بكِلِّ شيْءٍ. وأَن تكون في يَدِ اللَّهِ، أَوْثَقُ مِنْكَ بِمَا في يَدكَ. فأَدْناهُ أَنْ تكون مَعَ اللَّهِ. كالمُوَكّل مَعَ الوكِيلِ الشفيق الملاطِف. ووسطهُ كالطفلِ مَعَ أُمّهِ، لاَ يَرْجع في جميع أُموره إلاَّ إِلَيْهَا. وأَعْلاهُ أنْ تكون كَالْمَيِّتِ مع الغَاسِلِ. فالأول للعامَّة. والثاني للخاصَّة. والثالث لخاصَّة الخاصَّةِ. فالأول قَدْ يَخطُرُ بِبَالِهِ تُهمَة. والثاني لاَ إِتِّهامَ لهُ. لكن يتعلّق بِأُمّهِ عِنْدَ الحاجَةِ، والثالث: لاَ إِتِّهامَ، وَلا تعلق لهُ. لأنه فانٍ عن نفسِهِ. ينظر كل سَاعة ما يَفْعل اللّهُ بِهِ.

الرِّضَى وَالتَّسْلِيمُ: الرِّضى تلَقِّي التَمالِكِ بِوَجْهِ ضَاحِكٍ. أَو سُرُورٍ يجده القلبُ عند حلول القَضَاءِ، أَو تركِ الإِخْتِيَارِ مَعَ اللَّهِ، فيمَا دَبَّرَ وَأَمْضَى. أَوْ شرْح الصَّدْرِ وَرَفْع الإِنْكَارِ، لمَا يَرِد من الواحِد القهَّارِ.

والتسليم: ترْكُ التَّدْبيرِ والإختيار، بالسكونِ تَحْتَ مجاري الأَقْدَارِ. فيرادِف الرِّضَا عَلَى الحدِّ الأخيرِ، والرِّضى أَعَمُّ عنه على الأوَّلين. وقيل الرِّضَى يكون عند النُّزُولِ؛ وهو التفويض بعينِهِ. فبِدايتهما بالصَّبْرِ والمجاهدةِ. وَوسطهما بالسكونِ مع خواطر التبرّم والكراهية. ونهايتهما بفرَحٍ وسكونٍ مَعَ عَدَم التبرُّمِ.

فالأولُ للعامَّةِ، والثاني للخاصَّة، والثالث لخاصَّة الخاصَّةِ. ويُغْتَفَرُ الخاطر الأوَّلُ عِنْدَ الجميعِ لضعفِ البشرية، إذ لاَ يَخْلُو منهُ بَشَرٌ.

الْمُرَاقَبَةُ: إِدَامَة عِلم العَبْدِ باطّلاعِ الرّبّ. أَوِ القيام بحقوقِ اللَّهِ سِرًا وَجَهْراً. خالصاً مِنَ الأَوْهَام. صادقاً في الإحْتِرام؛ وهِيَ أَصْل كلِّ خَيْرٍ، وبِقَدْرِهَا تكون المشاهدة. فَمَنْ عَظُمَتْ مُرَاقبَتهُ، عَظُمَت بعد ذلِكَ مشاهدتهُ.

فَمُرَاقبةُ أَهْلِ الظَّاهِرِ: حِفظ الجوارحِ من الْهَفَوَاتِ. ومُرَاقبة أَهلِ الْبَاطِنِ، حفظ القُلُوب من الإسْتِرسَالِ مع الخواطر والغفلاتِ. ومُراقبة أَهْلِ باطنِ الباطِنِ، حفظ السِّرّ من المساكنَة، إلى غَيْر ذلِكَ.

الْمُحَاسَبَةُ: عتابُ النفسِ على تضييع الأنْفاسِ والأوقَاتِ، من غَيْر أَنْوَاع الطَّاعَاتِ. وتكون آخر النَّهارِ كمَا أَنَّ المشارطة، تكون أَوَّلَ النَّهَار. يقول لنفسهِ في أَوَّل نهارهِ. هَذَا يوم جَديدٌ؛ وهو عليك شَهيدٌ. فاجتهدِي في تعمير أَوْقاتِهِ، بما يقرّبكَ إلى اللَّهِ، ولو مِتّ بالأمسِ لفَاتَكِ الخَيْر الَّذِي تَفُوزينَ بِهِ فِيهِ. وكذلكَ يقول لها عند إقبالِ اللَّيْل، ويُحَاسبها عند إِدْبَارِهِ. هكذا يدوم عليها معها. حتَّى تتمكَّنَ مِنَ الحَضرَةِ. فحينئذٍ يتحدّ الوقت؛ وهو الإسْتِغْرَاق في الشهودِ. فَلاَ يَبْقى مَن يُحاسب، وَلاَ مَنْ يُعاقب. فتحصَّلَ أَنَّ المُشَارطَة أَوَّلاً، والمحاسبة أخيراً. والمراقبة دائماً، ما دَامَ في السَّيرِ. فإذا حَصَلَ الوُصُول، فَلاَ محاسَبَة وَلاَ مُشارطة.

الْمَحَبَّةُ: مَيْلٌ دَائِمٌ بِقلبٍ هَائم، وَيَظهر هَذَا الْمَيْلُ أَوَّلاً على الْجَوَارِحِ الظَّاهرة بالخدمةِ؛ وهو مقام الأبْرارِ. وثانياً على القلوب الشائقة بالتصفية والتحلِية. وهو مقدم المريد مِنَ السَّالكين. وثالثاً على الأرواح والأسْرَار الصافية. بالتمكين من شهود المحبوب؛ وهو مقدم العارفينَ. فبداية المحبَّة، ظهور أثرها بالخِدمَةِ. وَوَسَطها ظهور أثرها بِالسكْرِ والهيَام. ونهايتها ظهوره بالسكون والصَّحْوِ في مقام العرفَانِ. فلهذَا انقَسم النَّاس على ثلاث مَرَاتبَ:

أَرْبَابُ الخِدْمَةِ، وأَرباب الأحْوال، وأَرْبابِ المقامات. فَبِدَايَتهَا سُلوكٌ، وخِدمة، وَوَسَطُهَا جَذْبٌ وَفناءٌ، وَنِهَايَتُهَا صَحْوٌ وَبَقَاءٌ.

الْمُشَاهَدَةُ وَالْمُعَايَنَةُ: المُشاهدة: رؤية الذَّات اللطيفة، في مَظَاهِرِ تجلّيَاتها الكَثِيفة. فترجع إلى تكثِيفِ اللطيفِ، فَإِذَا ترَقّق الوِدَادُ، وَرجعتِ الأنوار الكثيفة لطيفة؛ فهِيَ المُعَايَنَةُ، فترجع إلى تلطيفِ الكثيف. فالمعايَنَة أَرَقّ منَ المُشَاهدةِ وَأَتَمّ.

والحاصِلُ، أَنَّ شهود الذَّات، لاَ يُمْكِنُ إِلاَّ بِوَاسِطةِ تكثِيفِ أَسْرَارِهَا اللطيفة في مظَاهر التجليَاتِ. إذ لاَ يمكِنُ إدْرَاكُ اللَّطيف، ما دَامَ لطيفاً. فرؤية التجليات كثيفة مشاهدة. وَرَدّها إلى أَصْلِها بِانطِبَاقِ بَحْرِ الأحَدِية عليْها مَعَايَنَة، وقيل هما سواء.

الْمَعْرِفَةُ: وهي التَّمكين من المشاهدة واتصالهَا؛ فهي شهود دَائم، بِقلبٍ هَائِم. فَلاَ يشهد إِلاَّ مَوْلاَهُ. وَلاَ يَعْرج على أَحَدٍ سواهُ. معَ إِقامَة العدلِ وحفظ مَراسِم الشريعة. فهَذه حدود المقامات قد انتهَتْ في المعرفة.

التَّقْوَى: وهي إِمتثالُ الأوامر، واجتناب المَنَاكر، في الظواهِرِ والسَّرَائر. ومواصلة الطاعات. والإعراض عن المخالفاتِ. فتقوى العامَّة: اجتنَابُ الذنوبِ. وتقوى الخاصَّةِ: التَّخَلّي من العيوبِ. وتقوى خاصَّة الخاصَّةِ: الغَيْبَة عَنِ السّوء به، بالعكوف في حضرة عالَم الغيوبِ.

الإِسْتِقَامَةُ: إستعمال العلم بأَقوال الرسول ﷺ. وأَفعاله وأَقواله وأَحْواله وأَخلاقه، من غَيْر تعمق وَلاَ تأنقٍ. وَلاَ ميْل مع أو هدم الوسواس. أو الخروج عن المَعْهُودَات، ومفارقة الرسوم والعادات. أو القيامِ بيْن يدي الله تعالى، على حقيقة الصِّدْقِ في جميع الحالاَت. وهي في الأقوال بِترك الغِيبَةِ، وفِي الأفعال بتَرْكِ البِدْعَةِ، وفي الأحْوَال بعدَم الخروج عن سنَنِ الشريعة.

فَاسْتِقَامَةِ العامّة بموافقة السُّنّة. واسْتقامَة الخاصَّة، بالتخلق بالأَخْلاَقِ النّبوية. واسْتقامة خاصَّة الخاصَّة بالتخلق بِأَخلاقِ الرحْمَن، مع الإِسْتغراق في حضرة العِيَانِ.

الإِخْلاَصُ: إخراج الخلق مع معاملة الحقّ. وإفراد الحق تعالى في الطاعة بالقَصْدِ. أو غَيْبَة القلبِ عن غَيْرِ الرَّبِّ. فَإِخْلاَصُ العامَّةِ، تصفية الأعمال عن ملاحظَةِ المَخْلُوقينَ. وإِخلاص الخاصَّة: تصفيتها عَنْ طَلَبِ الْعِوضِ في الدَّارَيْنِ. وإِخْلاصُ خاصَّة الخاصَّة: التبرّي من الْحَوْلِ والقوةِ، ومِن رؤيةِ الغيْر في القصْد والحركة حَتَّى يكونَ الْعَمَل بِاللَّهِ، ومِنَ الله، وإلى اللَّهِ، غائباً عَمَّا سِوَاهُ.

الصِّدْقُ: إسْقاط حظوظ النَّفْسِ، في الوِجْهَة إلى الله تعالى. تعويلاً على ثَلَج اليَقينِ. أَو استواء الظَّاهرِ والباطنِ في الأقوال والأفعال والأَحْوَالِ أَو ملاَزَمَة الكتمَانِ، غيْرة عن أَسْرار الرحمن. وَحَاصله: تصفية الباطِنِ من الإلتِفَاتِ إلَى الغَيْرِ بالكلية. والفَرْق بيْنهُ وبيْن الإخلاصِ، أنَّ الإخلاصَ يُنفِي الشِّرْكَ الجلِي والخَفي. والصِّدْق يُنفِي النفاق والمداهنة بالكلية. فمثال الصِّدق مع الإخلاصِ، كالتَّشْحِرَةِ للذَّهَبِ. فهُو يُنفِي عنه عوارض النفاق. ويصفيه من كدورة الأوهام. وذلِك أن صَاحِبَ الإخْلاَصِ، لاَ يَخْلُو من مُدَاهَنةِ النَّفْسِ، وَمُسَامحة الهَوَى، بخلاَفِ صاحب الصدقِ، فإِنهُ يُذهب المُداهنات، ويرفع المسامحات. إذ لاَ يَشَمّ رائحة الصِّدْقِ من دَاهَن نَفْسَهُ أَوْ غَيْرَهُ فيما دُق أو جُلَّ. وعلاقة الصدق: اسْتواءُ السِّرِّ والعَلانيةِ. فلا يُبالِي صاحب الصِّدْقِ بكشف ما يَكرهُ إطْلاع النَّاس عليه، وَلاَ يسْتحيي مِن ظهوره لغَيْرِهِ إكْتِفاءً بعلمِ اللّهِ بِهِ. فصِدْق العامَّةِ، تصفية الأَعمال، من طلب الإعراضِ. وصدق الخاصَّة، تصفية الأحْوَال، من قصْد غَيْر اللَّهِ. وصِدق خاصّة الخاصَّةِ: تصْفية مشْرَبِ التوحيد، من الإلْتفَاتَاتِ إلَى ما سِوَى الله. وَيقالُ لصاحب المقام الأول صادقٌ. والثاني والثالث صِدِّيق. وأما التصديق بوجودِ الحق أو بوجودِ الخصوصية عند الأولياءِ، وتعظيمهم لأجلهَا. فَهُوَ تصديق لاَ صِدق. خلاف ما تعتقده بعض فقراءِ زماننا هذا. ويُقال لمَن عظم تصديقه: صديق أيْضاً. فالصّدّيق يطلق على من عظم صدقه وتصديقهُ.

الطُّمأْنِينَةُ: وهي سكون القلب إلى الله، عارياً عن التقلب والإضطراب. ثقةً بضمانِه أَو اكتفاءً بِعِلْمِهِ. أو رسوخاً في معرفته. وتكون من وراء الحجابِ، بتواتُر الأدِلَّةِ. واستعْمال الِفكرةِ، أو بتوالي الطَّاعةِ، ومجاهدة الرياضة. وتكون بعد زوال الحجَاب، بتمكينِ النظرةِ، ورسوخ المعرفة. فقوم اطمأنُّوا بوُجودِ اللَّهِ من طريق البُرْهان أَوِ البَيَان. وقوم اطمأَنُّوا بشهودِ اللَّهِ بعد ظهورِهِ من طريق العِيَانِ. فالأول للعلماءِ، والثاني للعُبَّادِ والزُّهَادِ والصالحينَ. والثالث للعارفين المتقرّبينَ.

الشَّوْقُ وَالإشْتِيَاقُ: الشوق: إفْرَاغ القلبِ إلى لقاءِ الحبيبِ.

والإشتياق: إرتياح القلب إلَى دوام الإتصَالِ بِهِ. فالشوق يزول برُؤيَةِ الحَبيبِ ولقائِهِ. والإشتياق لاَ يزول أبَداً بطلب الروح الزيادة في كشف الأسْرَار. والقرْب إلى الأبَد. فشوق العامَّة إلى زخَارِف جنَانِهِ. وشوق الخاصَّة إلى نَيْل رضوانِهِ. وشوْق خاصَّة الخاصَّة، إلى حَضرةِ عِيَانِهِ،

الْغَيْرَةُ: كراهية رؤية حبيبكَ عنْدَ غَيْركَ. فيهيج التنافس في حيَازته. قال

الشبلي: الغَيْرَة غَيْرَتانِ: غَيْرة البشرية على النفوس، وغيْرة الألوهية على القلوب. ومعناه: أَنَّ الطبع البشريّ يكْرَه أن يَرَى مَحْبَوبَهُ عند غَيْره. كَالزوجَةِ مثلاً. والحق تعالى يكْرَهُ أَن يَرَى قلوب أَوْليائِهِ متعلقة بِغَيْرِهِ. وفي الحديث النبوي، الذي رَوَاهُ ابْن مسعود، وخرَّجه البخاري، وأحمد والترمذي، قوله ﷺ: «**لاَ أَحَدَ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ**». ولذلك حرَّمَ الفواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ. وما في الوجود إلاَّ الْغَيْرَةُ الإِلَهية، سَرَتْ في مَظَاهر تجلياته. فَغَيْرة النفوس للعامَّةِ؛ وهي غيْرتهم على هتْكِ حرْمةِ حَريمهم. وغيْرة القلوب للخاصَّة؛ وهي غيْرتهم على قلوبهم، أن تميل لغَيْر محبوبهم. وغيْرة الأرواح والأسرار، لخَاصَّة الخاصَّةِ؛ وهي غَيْرتهم على أرْوَاحِهِم، أنْ تلْتفت إلى شيءٍ دون مَحْبُوبِهِم. وغيْرتهم على حَبيبهم، أَنْ يميل إلى غَيْرهم. وعلى هذا الأمر العظيم، حُق للعبد أن يَغَار كما قول الشاعر:

إذَا لَـمْ أُنَـافِـسْ فِـي هَـوَاهُ وَلَـمْ أَغَـرْ ... عَـلَـيْكَ فـفيـمَـن ليْـتَ شـعـري أُنَـافِـسُ
فَـلاَ تَـمْـقُـتَـنْ نَـفْـسِـي فَـأَنْـتَ حَـبـيـبُـهَـا ... فَـكُـلّ امْـرِىءٍ يَـصْـبُـو إلَـى مَـنْ يُـجَـانِـسُ

وقد يغارُ الحق تعالى على أوليائِهِ. فينتقم من أعدائهم إذا آذَوْهُمْ. ومن غَيْرته أَيْضاً عليهم: أَلاَّ يُظهرهم لجملة الخلقِ. فَيَضِنّ بهم على خلقِهِ، حتى يلقوْه تحْت أَسْتارِ الخمولِ، وهم عرائسُ حضرتِهِ.

الْفُتُوَّةُ: وهي الإيثار على النَّفس بِمَا تحِبُّ. والإِحْسانُ إلى الخلق بِما يحِبُّ. ولِذَا قيل: لَمْ تكْمُل الفُتُوّة إلاَّ لرسولِ اللَّهِ ﷺ، حيْثُ يقول في مَوْضع: لاَ يذكر فيه أَحداً حتى نفسه: «**أُمَّتِي أُمَّتِي**». وقيل: أَلاَ ترى لنفسِكَ فضلاً على غَيْرِكَ. والفتَى من لاَ خَصْم لَهُ، ومرجعها إِلَى السَّمَاءِ والتواضع، والشجاعة في مَوْطِنِ الإِضْطِرابِ. ففتوَّة العامّة بالأموالِ، وفتوّة الخاصَّةِ بِالنُّفُوسِ. وفتوة خاصَّة الخاصَّة، بالأرواحِ وَبَذْل المُهَجِ في جَانِبِ المَحْبُوبِ.

الإِرَادَةُ: هي قَصْد الوصول إلى المحبوب بِنَعْت المجاهدة. أو التحبّبِ إِلَى الله بِمَا يَرْضَى. والخلوص فِي نَصيحَة الأمَّةِ، والأنس بالخلوةِ، والصَّبْر على مقاسات الأَهْوَالِ، ومُنَازلاَت الأَحْوَالِ، والإِثار لأَمْرِهِ. والحياء من نظرِهِ. وَبَذْل المجهودِ في محبوبِهِ. والتعرّض لكل سَبب يوصل إليه. ومحبَّة من يَدرّ علَيْه، والقناعة بالخمولِ، وعدم سكون القلْبِ إلى شيء دون الْوُصول؛ وهي أول منزلة القادمين طريق السَّالِكِينَ.

الْمُرِيدُ: من لاَ إِرادةَ له دون مَوْلاَهُ؛ وهي ثلاثة مراتب: إِرادة التبرك

والحُرْمة؛ وهي لمَن ضعفتْ هِمَّتُهُ، أَوْ كثرتْ عَلاَئقهُ. وإرادة الوصول إلى الحَرَة؛ وهي لأهْل التجريد وقوّة العَزْم. وإِرادة الخِلاَفَة وكَمال المعرفة؛ وهي لِمَنْ ظَهَرتْ نَجَابَتهُ. وكَملت أَهليته. وصرّحَ له بالخلافة من شيْخ كَاملٍ. أو هاتف صادِقٍ.

الْمُجَاهَدَةُ: وهي فَطْمُ النَّفس عن المأْلُوفاتِ، وحملها على مخالفة هواهَا في عموم الأوقات. وخرق عوائدها في جميع الحالات. قال بَعْضُهُم؛ مَرْجعها إلى ثلاث: لاَ تأْكُلْ إلاَّ عند الفاقة، وَلاَ تَنَمْ إلاَّ عند الغَلَبَةِ. ولاَ تتكلَّمْ إلاَّ عنْدَ الضرورة. ونهايتها المشاهدة، فَلاَ مجاهدة بَعْدَهَا. فلاَ تجمع مجاهدة ومشاهدة. إذ نهاية التَّعَبِ، تمام السَّفَرِ. فَإذا حَصَلَ الوصول، فما بَقِي إلاَّ الرَّاحة. ومُشاهدة الحبيب مع حِفْظِ الأدَبِ، وهي ثلاث: مجاهدة الظَّوَاهر بدوام الطاعاتِ وكفّ المَنهيات. ومجاهدة البواطن، بنفي الخواطر الرديئة، ودوام الحضور في الحضْرَةِ القدسية. ومجاهدة السَّرائِرِ باستدامة الشهودِ. وعدم الإلتفات إلى غَيْر المعبودِ.

الوِلاَيَةُ: وهي حُصُول الأنْسِ بعد المكَابدة. واعْتناق الرُّوح بعد المجاهَدَةِ. وحاصلها: تحقيق الفناء في الذَّات، بعد ذَهاب حسّ الكَائنات. فيفنَى ما لم يكُنْ ويَبْقى ما لم يزلْ. فأَوَّلها التمكين من الفناءِ، ونهايتها التحقيق بالبقاءِ، وبقاء البقاءِ. ويَبْقى التَّراقي والإتساع فيها أبداً سَرْمداً إلى مَا لاَ نهاية له. قال إبراهيم بن أدْهَم لرَجلٍ: أَتُحبُّ أَنْ تكون لله وليًا؟ قال نَعَمْ. قالَ لاَ تَرْغب في شيْءٍ من الدّنيا والآخرة. وفرّغ نفسكَ لله عزّ وجلّ. وأَقبِلْ بِوَجهكَ عليه. يرق عليك ويواليكَ. وقال غيْرُهُ: الوليّ من كان همُّهُ اللَّهُ، وشغله اللَّهُ. وفناؤه دائماً في اللَّهِ. وتطلق على ثلاث مَرَاتب: وِلاَية عامَّة؛ وهي لأَهْلِ الإيمَانِ والتقوى. كما في الآية؛ وهي قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾. وَوِلاية خاصّة: وهي لأَهل الإسْتِشراف على العلم باللَّهِ. وَوِلاية خاصَّة الخاصَّةِ؛ وهي لأهل التمكن في معرفة اللَّهِ. على نَعْتِ العِيَانِ. قيل: مَنْ أوْلياء اللَّهِ يا رسول اللَّهِ؟ قال: المتحابُّونَ في اللَّهِ. وفي رواية: «**الذين نَظَرُوا إلى باطِن الدّنيا، حينَ نَظَرَ النَّاس إلى ظَاهِرهَا**». الحديث. فشمل الحديث وِلاَية الخاصّة، وَخَاصّة الخاصّة. والله تعالى أَعْلَمُ.

الحُرِّيَّةُ: وهي تصفية الباطِنِ، من حُبّ غَيْر الحقّ، حتى لاَ تبقى فيه بقية لغَيْر اللَّهِ؛ وهذه الحرية الكَسْبية؛ وهي سبَب الظَّفر بالحرية الْوهبية؛ وهي غيبة العَبْد في مظَاهر الرَّبّ. فتَنْتَفِي ظلمة الحدوث في نورِ الْقِدَمِ. وتختفي قَوَالِبُ العبودية، فهي

تجلّي مظاهر الرّبوبية. فيبقى الخلق بِلاَ خلْق. فحينئذٍ يكتب للعَبْد عقد الحرية، فتكون عبادة وعبودية. شكراً لاَ قهراً. كما قال سيّد العارفينَ ﷺ: «**أَفَلاَ أكون عبداً شكوراً**»، وقال إِمَامُ هذِه الطائفة: الجُنَيْد: «عبادة العارف تَاجٌ على الرُّؤوس». يَعْنِي كمال الكَمَال.

الْعُبُودِيَّةُ: وهي القيام بِآدَابِ الرّبوبية، مع شُهودِ ضعف البشرية. وقال بَعْضهم: هي القيام بحق الطاعات، بشرْط التوقير، والنظر إلى ما فيكَ بِعَيْن التقصير. أو تركِ الاختيَارِ. فيما يَبْدو من الأقدار. أو التبرّي من الحول والقوة. والإقرار بما يوليك ويعطيك من المِنَّة. وأجمعُ العبارات فيها، ما قال ابن عطاء الله: حفظ الحدود، والوفاء بالعهودِ، والرضَى بالموجودِ. والصبر على المفقود. قلت: وأَحْسَن ما في تفسير العبودية، أَنْ تقدّرَ أَنَّ لكَ عبداً اشتريتَهُ بمالِكَ. فكما تحب أَن يكون عَبْدُكَ معَك، فكُن أَنْتَ مع مَوْلاَكَ. فالعَبْد لاَ يملك مع سيده شيئاً من نفسِهِ وَلاَ من مالِهِ، وَلاَ يمكنهُ مع قَهْرية سيّده تدبيرٌ وَلاَ اختيارٌ. وَلاَ يتزَيَّن إلاَّ بِزَيّ العَبِيدِ أَهْل الخِدمة، ويكون عند أمر سيدِهِ ونَهْيِهِ. وإذا كَان حاذقاً فَاهماً عمل ما يُرضي سيدَهُ، قبل أَن يأمره، ويفهم عن سيده بأدنى إشارة، إلى غيْر ذلك من الآداب المرضية في العبيد المؤدّبينَ. وقال أَبو علي الدّقاق رضي اللّٰهُ عنْهُ: «العبودية أَتَمُّ مِنَ العبادةِ» فَأَول المراتب عبَادة. ثم عبُودية، ثم عُبُودة. فَالْعِبادة للعوام، والعبودية للخواصّ. والعبودة لخواصّ الخواصّ. قلت: والعبودة هي الحرية الْوهْبية. والله تعالى أعلمُ.

الْقَنَاعَةُ: الإكتفاء بالقسْمَة وعدَمُ التشوق للزيادة. والإسْتِغْنَاءِ بالْمَوْجودِ. وترك التشوق إلى المفقودِ؛ وهي الحياة الطيبة، والرزق الحسن في قوله تعالى: ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾. أي والذين هاجروا في سبيل الله، ثم قتل بعضهم أو ماتَ. ليَرْزقنَّ اللّٰهُ من بَقِيَ مِنْهُمْ رزقاً حسناً، وهي من ثمَرَة الغِنَا باللّٰهِ. قال وَهْبُ بنُ مَنْبَهٍ: «إنَّ العِزَّ والغِنَا، خرجا يجولاَنِ، فلَقِيَا القَنَاعة، فاسْتقَرّا فيها». ومرجعها إلى سَدِّ باب الطمع، وفتح باب الوَرَعِ. وهي مَطْلُوبَةٌ في أُمُور الدّنيا فقط. وأمّا فِي أمُور الآخِرَةِ، أوْ في زيادة العلم. والترقية في المعرفة فَمَذْمُومَة؛ ولذا قيل: «القَنَاعة مِنَ اللّٰهِ حِرْمَانٌ».

الْعَافِيَةُ: وهي سكونُ القلْب وخُلُوُّهُ مِنَ الإنزعاج والإضطرابِ والتَّقلُّب. ثُمَّ إِنْ كَانَ بالسكونِ إلى الله، والرّضَى عنهُ؛ فهي العافيةُ الكاملة. وإِنْ كَان بِجَرَيَانِ

الأسْبَابِ الواقفة، فهي العافية العادية، وفي الحديث: «مَا أُعْطِيَ أَحَدٌ بَعْدَ اليقين خَيْراً مِن الْعَافيةِ» فعافية الْعامَّة: سكونُهُمْ إلى الأسْبَابِ. فإذا انحرمَتْ إضْطَرَبَتْ قلوبهم وتَزَلْزلَتْ لِخَرابِهَا من نور اليقين. كما قال بعضهم: «نَحْنُ كَالنُّجوم، كُلَّمَا اشتَدَّتِ الظلمَة، قَوِي نُورُنَا». وقال ذُو النُّون المِصْري رضِي اللَّهُ عنهُ: «لَوْ كَانَتِ السماء من أُجاج، والأرض من نحاسٍ، ومِصْرُ كلها عيالي. ما اهتمَمْت لهُمْ برزقٍ». وعافية خاصَّة الخاصَّة: سكونهم إلى شهود الحقّ. غائبينَ عن الأسْبَابِ وَعَدَمِها. غرْقَى في بَحْر التوحيدِ؛ وأَسْرَار التفريد. لاَ تنزِل الهموم بساحَتهم. وَلاَ تكَدّر صفَاء شربهم. جعلنا الله منهم.

الْيَقِينُ: وهو سكُون القَلْب إلى اللّهِ بِعلم لاَ يَتَغَيّرُ، وَلاَ يُحَوّلُ وَلاَ يتقَلّبُ، وَلاَ يَزُولُ عِنْدَ هيجَانِ المحرّكَاتِ، وارْتِفَاع الرَّيْب، في مُشاهدة الغَيْبِ. وعلامته ثلاثة:

رفع الهمة عن الخلق عند الحاجَةِ. وترْكُ المَدْح لهم عند العطية. والتنزّه عن ذَمهم عند المنعة. فيقين العامَّة بتوحيد أَفْعَالِهِ. فسكَنوا إليه في المنع والعطاءِ. ويقينِ الخاصَّة بتوحيد صفاتِهِ. فرأَوُا الخلْق مَوْتَى، ليْس بيَدهم حركة وَلاَ سكونٌ. يقين خاصَّة الخاصَّة، بتوحيد ذاتِهِ، فَشَاهدُوهُ في كل شيءٍ، وعَرَفُوه عند كلِّ شيءٍ. ولم يشهدُوا معه شيئاً.

عِلْمُ الْيَقِينِ: وَعَيْنُ الْيَقِينِ، وَحَقُّ الْيَقِينِ: عِلْم اليقين ما كَان ناشئاً عن البُرْهانِ. وعيْن اليقين، ما نشأ عن الكشف والبيَان. وحق اليقين: ما نشأ عَنِ الشهودِ والعَيانِ. فعلم اليقين لأرْباب العقول من أَهْلِ الإِيمَانِ. وعيْن اليقين لأرْباب الوُجْدَانِ، من أَهْلِ الإسْتِشْرافِ على العيانِ. وحق اليقين، لأهْل الرّسوخ والتمكين في مقام الإحسان. ومِثال ذلِكَ: كمَن سَمِع بِمكَّة مثلاً ولم يرَهَا. فعنده علم اليَقِينِ بِوُجُودِهَا، فإذا اسْتشرف عليْهَا وَرَآهَا ولم يَدْخلها، فعندهُ عيْن اليَقِين. فإذا دَخلَها وعَرَف طُرُقها وأَمَاكنها، فهذا عنده حق اليقين. وكذلك النَّاسُ في معرفة الحق تعالى. فَأَهل الحجاب، اسْتَدَلُّوا حتى حصل لهم العلم اليقينُ بوجودِ الحقّ. وأَهل السَّيْر مِن الْمُريدِينَ المُشرفين على الفناءِ في الذاتِ، حصل لهم عيْن اليقينِ، حين أَشرقت عليهم أَنوار المَعانِي. وغابَتْ عنهم ظلال الأوانِي. غيْر أنهم باقونَ في دَهْشة الفناءِ، لَمْ يتمكّنوا من دوام شهودِ الحقّ. فَإذا تمكّنُوا من دوام شهودِهِ، ورَسَخَتْ أَقدامُهُمْ فِي معرفَتِهِ. حصل لهم حقّ اليقين. وهذه نِهاية النّعْمَة، وغاية السَّعَادَةِ جعلنَا اللَّهُ منهم بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ آمين.

النِّعْمَةُ: هي مُلاَزمة الأفراح، ومُبَاعدة الأتراح، وإصَابة الأغراض، ونَزَاهة الأعراض؛ وهي على قسْميْن: نعمة ظاهرة: كالصحة والعافية. والكِفَايَة من الحَلالِ. ونعمة باطنة، كالإيمان والهداية والمعرفة. والنَّاس في النعمة الظَّاهرة على ثلاثة أقسام: قوم فرِحُوا بالنعمة لِمَا لهُمْ فيها مِنَ المُتْعَةِ، فحُجبُوا بِهَا عن المُنْعِم. وقوم فرحوا بالنعمة: لإقبال المُنعم عليهم. حيْث ذكَّرهم بِهَا. وقوم فرحُوا بِالمنعِم دون شيءٍ سواهُ. قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾. فشكر الأوَّليْن، يزيد بِزيادتها، ويزول بزوالها. وشكر الثالث دائم في السَّرَّاء والضَّراءِ؛ وهذا هو شكر الخواصّ.

الْفِرَاسَةُ: وهي خاطِرٌ يهجم على القَلْبِ. أَو وارد يتجلَّى فيه، لاَ يُخْطِىء غَالباً إِذا صَفَا القلبُ. وفي الحديث: «إتقُوا فِرَاسةَ المُؤمِن. فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ». وهو على حسَبِ قوة القرْب والمعرفةِ. فكلما قوِيَ القرْب، وتمكَّنتِ المعرفة؛ صَدُقت الفِرَاسَة؛ لأَنَّ الروح إذا قرُبت من حضْرَة الحقّ، لاَ يتجلَّى فيها غالباً إلاَّ الحق؛ وهي على ثلاث مراتب: فِراسة العامَّة: وهي كشف ما في ضمائر النَّاس، وما غاب من أَحْوالِهم؛ وهي فتنة في حقّ من لَمْ يتخلق بِأَخْلاقِ الرحمن. وفراسة الخاصَّة: وهِيَ كشف أَسْرَارِ المقاماتِ والمُنَازَلاَت. والإطلاع على أنوار الملكوتِ. وَفَرَاسَةُ خَاصَّة الخَاصَّة: وهي كشف أَسْرَارِ الذَّاتِ، وأَنوار الصِّفَات. والغرَق في بَحْرِ أَسْرَار الجبروت. وقال الكتَّانِي: هي مكاشفة الحق، ومُعَاينة الْغَيْب. وقال الواسِطي: هي سواطع أَنوار الذَّاتِ، وتمكين جملة السَّرَائِرِ في الغيوب من غَيْبِ إلى غَيْبِ. حتى يشهد الأشياء، من حيث أشهده الحق إيَّاهَا. فيتكلم على ضمائر الخلق. قلت: قوله: فيتكَلَّمُ، ليس بشرط في فِرَاسَة الخاصَّة. والله تعالى أَعْلَمُ.

الْخُلُقُ: وهيَ ملكة تصدر عنه الأفعال بِسُهولةَ. ثم إِن كَانَتِ الأفعَالُ حسَنَة، كالحِلْم والعفوِ والجودِ ونحوهَا، سُمّي خُلُقاً حسَناً. وإن كانَت سيئة، كالغَضَب والعجلةِ، والبُخلِ، سُمّي خُلُقاً سَيّئاً. قال وهب: ما تَخلَّق عَبْدٌ بِخُلُقٍ أَرْبَعينَ صَبَاحاً، إِلاَّ جعل اللَّهُ له ذلِكَ طبيعةً فيه. فَالْخُلُق الْحسَنُ يكتَسَبُ. والسَّيىء يُجَاهد حتى يَزُولَ. وَالخُلُقُ الحَسَنُ يعدل الصيام والقيام؛ وهو ثمرة التصوف. فَمَنْ لَمْ يُحَسِّنْ خُلُقَهُ فتصوّفه أَشجارٌ بلاَ ثِمَارِ. وَمَرْجعُ حُسْنِ الْخُلُقِ، أَلاَّ تَغْضَبُ، وَلاَ تبخَل، وَلاَ تحقِدَ. وبالله التوفيق.

الْجُودُ وَالسَّخَاءُ وَالإِيثَارُ: فالجود: أَلاَّ يصعبَ عليه الْبَذْل. فَمَنْ أَعْطى الْبَعْضَ

وأَبقى الأَكْثَرَ؛ فصاحِبُ سَخَاءٍ. وَمَنْ بَذَلَ الأَكْثَرَ، فصاحب جُودٍ. ومن قَاسَى الضَّرَّاء وآثر غيْره، فَصَاحب إِيثَارٍ. فجود العَامَّة بِالأَمْوَالِ، وجودِ الخاصَّة بِالنفوسِ وجود خاصَّة الخاصَّة بالأرواحِ يَبْذلونها للمَوْتِ بالمجاهدةِ. ثم تحيا الحياة الأبدية بالمشاهدة.

الفَقرُ: هو نَفْض اليد من الدنيا، وصيانَة القَلْبِ مِن إظهار الشَّكْوى. ونعت الفقير ثلاثة أشياءٍ: صِيَانة فقرهِ، وحِفظُ سِرِّهِ، وإقامة دينه. قال جعفر الخُلْدِي[1] ما غَمُضَ على النَّاس: خَدمْت ستمائة شيْخ... فما وجدت مَنْ شَفَا قَلْبِي مِن أَرْبَع مَسَائِل حتى رأيْتُ رسول الله ﷺ في النَّوْمِ، فَقَالَ لي: «**سَلْ عَنْ مَسَائِلِكَ**». فقلت يا رسول الله: ما العَقلُ؟ فَقَال: «**أَدْنَاهُ تَرْكُ الدُّنْيَا، وَأَعْلاَهُ تَرْكُ التفكر في ذَاتِ اللَّهِ**». قلت: وَمَا التَّوْحيد؟ فقال: «**كُلّ مَا أَتى بِهِ الْوَهْمُ، أَوْ جَلاَهُ الْفَهْمُ، فَرَبُّنَا عَزَّ وَجَلَّ مُخَالِف لِذَلِكَ**». فقلْتُ: وما التصوُّف؟ فقال: «**تَرْكُ الدَّعاوِي، وكتمان المَعَانِي**». فقلْتُ: وما الفَقْرُ؟ فَقَالَ: «**سِرٌّ من أَسْرَارِ اللَّهِ. يُودِعُهُ فِيمنْ شَاءَ مِن عِبَادِهِ. فَمَنْ كَتَمَهُ فَهُوَ مِن أَهْلِهِ. وزاد اللَّهُ مِنْهُ. ومن بَاحَ بِهِ، نَفَاهُ اللَّهُ عَنْهُ**». قلت: جواب كل إنسانٍ على قدْرِ مقامِهِ. كما قال عليه الصَّلاةُ والسَّلاَمُ: «**خَاطِبُوا النَّاسَ بِقَدْرِ مَا يَفْهَمُونَ**». فقوله عليه الصلاة والسلام في العقل: أَعْلاه ترْك التفكّر في ذاتِ اللَّهِ. أما التفكر في كنه الرّبوبية، فنهى عَنْهُ. إذ لاَ يُدْرك. وأَما التفكر في أَسْرَارِ الرُّبوبية، وأَنوارِ صفاتها، فلا عبادة أَعْظَم مِنْهَا. وقوله أيْضاً عليه الصلاة والسلام في التوحيد، كل ما أتى به الْوَهْمُ الخ: الوهم لاَ يُدرك إلاَّ حسّ الكَائناتِ فهو قَصيرٌ والفَهْمُ بِلاَ ذوْق، لا يدرك أَسْرَار التوحيد لأنها خارجة عن الْوَهْمِ وَدَرْكِ العقل. فظهر قوله ﷺ: «كل ما أتى بِهِ الوهم الخ... وقوله عليه الصلاة والسلام، في شأن الفقر، من كَتَمَهُ فهو من أَهلِه. أي فيكون من السَّابِقِينَ. وَيَزيده تعالى من أَسْرَارِهِ وأَنْواره. وهي حَلاَوَة المعاملة والمعرفة. يحكى عن أَبِي علي الدقاق، أنه جلس يوماً مع بَعْضِ أَصْحابه، فَكَانَتْ منه غَفْلة، حتى شكا ضيقَ حالِهِ. فلما تفرَّقَ أَصْحَابُهُ، نَامَ بَعْضُهُمْ، فهتف به هاتف وقال: بِاللَّهِ أَبْلَغ أَبَا عبد اللَّهِ الدّقاق، ما أَقول لَكَ. ثم أَنْشَدَ:

قُلْ لِلرُّوَيْجِلِ مِنْ ذَوِي الأَقْدَارِ ... الْفَقْرُ أَفْضَلُ شِيمَةِ الأَحْرَارِ

يَا مَنْ شَكَا لِلْخَلْقِ فِعْلَةَ رَبِّهِ ... هَلاَّ شَكَوْتَ تَحَمُّلَ الأَوْزَارِ

---

(1) وفي القاموس: الخُلابي بضمّ الخلاءِ وسكون اللاّم، غير منسُوب لَهُ بَلْ لقَبٌ.

إِلاَّ الَّذِي أُلْبِسْتَ مِنْ حُلَلِ التُّقَى ... لَوْ شَاءَ رَبُّكَ كُنْتَ عَنْهَا عَارِ

الذِّكْرُ: وَهُوَ إذا أُطلِقَ يَنصرِفُ لِذِكْرِ اللِّسَانِ؛ وهو رُكْنٌ قَوِيٌّ فِي طريق الوُصولِ. وهو مَنْشورُ الوِلاَيَةِ. فَمَنْ أُلْهِمَ الذِّكْرَ، فقد أُعْطِيَ المَنْشُورَ. وَمَن سُلِبَ الذِّكْرَ فَقَدْ عُزِلَ. فذِكر العَامَّةِ بِاللِّسَانِ. وذِكر الخاصَّة بالجنان. وذِكر خاصَّةِ الخاصَّةِ بالرُّوحِ والسِّرِّ؛ وهو الشهود والعيان. فيذكُرُ اللَّهَ عِنْدَ كُلِّ شيءٍ. وعلى كل شَيْءٍ. أَيْ يعرف الله فيه. وهنا يخرس اللسان. ويَبْقَى كالمبهوتِ في محلِّ العيَانِ. ويُعدّ ذِكرُ اللسَانِ في هذا المقام ضعفاً وبطالةً، كما قال القائل:

مَا إِنْ ذَكَرْتُكَ إِلاَّ هَمَّ يَلْعَنُنِي ... سِرِّي وَقَلْبِي وَرُوحِي عِنْدَ ذِكْرَاكَ

حَتَّى كَأَنَّ رَقِيباً مِنْكَ يَهْتِفُ بِي ... إِيَّاكَ وَيْحَكَ والتُّكْرَارَ إِيَّاكَ

أَمَا تَرَى الْحَقَّ قَدْ لاَحَتْ شَواهِدُهُ ... وَوَاصِلِ الْكُلَّ مِنْ مَعْنَاهُ مَعْنَاكَ

وقال السيوطي مشيراً لهذا المقام: الذَّاكِرُون في ذِكره، أَشَدُّ غَفْلَةً مِنَ النَّاسِ لِذِكْرِهِ؛ لأنَّ ذِكرهُ سِواهُ.

الْوَقْتُ: قد يطلقُونه على ما يَكُونُ العبد عليه في الحالِ. من قَبْضٍ أو بَسْطٍ، أَوْ حُزْنٍ أَوْ سُرُورٍ. قال أَبُو علي الدَّقاق: الوقت مَا أَنتَ فيه فِي الحَالِ. فإن كنت بالدّنيا، فَوقتكَ الدّنيا. وإن كُنتَ بالْعُقْبَى، فَوقتَكَ الْعُقْبَى. يُرِيدُ أَنَّ الوقت مَا كَان الغالب على الإنسان. وقد يَعْنُونَ به الزَّمانَ، الذي بيْن المَاضِي والمُسْتقبلِ. يقولون، الصوفي ابن وقتِهِ. يريدون أَنَّهُ مشتغِلٌ بما هو أولى بِهِ في الوقتِ، لا يُدَبِّرُ في مستقبلٍ وَلاَ ماضٍ. بل يهُمُّهُ ما هو فيه. وكل وقت له آداب تطلبُ فيه. فَمَن أَخَلَّ بأَدَبِهِ مقتَهُ. ولذلك قيل: الوقتُ كَالسَّيْفِ، فَمَنْ لاَيَنَهُ سَلِمَ، ومن خاشنهُ قَصَمَ. وَمُلاَيَنَتُهُ، القيام بِأَدَبِهِ. فوقت القهرية، آدابه الرضى والتسليم تحت مجاري الأقدار. ووقت النِّعْمَةِ، آدابُهُ الشكر، وَوَقت الطَّاعة: آدابه شهود المِنَّةِ من اللَّهِ. ووقت المعصية: آدابه التوبة والإنابة.

الْحَالُ وَالْمَقَامُ: الحال مَعْنَى يَرِد على القلبِ من غَيْرِ تَعَمُّدٍ وَلاَ اجتلابٍ؛ وَلاَ تَسَبُّب وَلاَ اكتسَابٍ. مِن بَسْطٍ أَوْ قَبْضٍ، أو شَوْقٍ أو انزِعَاجٍ، أو هيبة أو اهتياج. وظهر أثره على الجوارحِ قبل التمكن، من شطح وَرقص وسَير وهيام؛ وهو أثر المَحبَّةِ؛ لأنها تحرِّكُ السَّاكِن أولاً، ثم تسْكن وتطمئنُّ. ولذا قيل فيها: أَوَّلها جُنُونٌ، وَوَسَطها فنون، وآخِرها سكُونٌ. وقَدْ يُكْتَسَبُ الحال بنوع تَعَمُّلٍ، كَحُضور

حلقِ الذِّكْرِ، واستعمال السَّمَاع. وقد يطلب اكتسابه بِخَرْقِ عَوَائد النَّفْسِ، حين يعتريها برودة وفتور. وفرْق وكَسَل. فينبغي أن يتحرَّكَ في تسْخينها. مما يثقل عليها من خرْق العوائِدِ. وقد يطلق الحال على المَقام. فيُقَالُ: فلان صار عنده الشهود مئة حالاً. ومنه قول المجذوب:

حـقـقـتُ مـا وجـدت غـيـرهُ وَأَمْـسَـيْـتُ فـي الـحـالِ هَـانِـي

وأما المقام: فهو ما يتحققه العبد بمنازلة واجتهادٍ؛ مِنَ الأدَبِ، وَمَا يتمكّن فيه من مقامات اليقين. بتكسُّب وتطلُّبِ. فمقام كل واحدٍ مَوْضِعُ إقامَتِهِ. فالمقامات تكون أوّلاً أَحْوَالاً حيْث لم يتمكّن المريد منْهَا؛ لأنها تتحوَّل، ثم تصير مقامات بعد التمكين. كالتوبة مثلاً. تَحْصُل ثم تُنْقَصُ؛ حتى تصير مقاماً؛ وهي التوبة النَّصُوحُ؛ وهكَذا بقية المقامات. وشرطهُ: أَنْ لاَ يَرْتَقيَ مقاماً حتى يسْتوفيَ أَحْكامهُ. فَمَن لا توْبةَ لَهُ، لا تصحّ له إنابَة: رجوعٌ. ومن لاَ إنابَةَ لَهُ، لا تصحُّ له اسْتقَامة. ومن لا وَرَعَ لَهُ، لا يصحُّ له زُهْدٌ. وهكَذا. وقد يتحقق المقامُ الأول بالثاني، إذا ترَقّى عَنْهُ قبل إِحْكَامِهِ؛ إنْ كَانَ له شيْخ كاملٌ. وقد يطوي عنه المقامات، ويُدسُّه إلى الفَنَاءِ إن رآه أهلاً بتوقُدِ قريحتِهِ. ورقَّةِ فِطْنَتِهِ. فَالأحْوال مواهب، والمقامات مكاسب. هَذَا معْنَى المَقَام بفتح الميم. وأمَّا المُقَام بِالضَّمِّ، فَمَعْنَاهُ الإقامَة. وَلاَ يكمُل لأحدٍ مُنازلة مَقَام، إلاَّ بشهودِ إقامَة الحقّ تَعَالى فِيهِ. وفي الحِكَم، من عَلاَماتِ النُّجحِ فِي النهاية، الرجوع إلى الله في البِدَايَةِ. وقال أيْضاً: مَنْ كَانت بِاللَّهِ بدايتهُ، كَانَت إليهِ نهايتهُ.

الْقَبْضُ وَالْبَسْطُ: وَهُمَا حَالاَنِ بَعْدَ الترقّي من حال الخوْف والرَّجَاء. فالقبْض للعارفِ، بِمنزلة الخوْف للطَّالِبِ. والبَسْط للعارف بمنزلة الرجَاء للمريد. والفرْق بيْنَ الْقَبْضِ والخَوْفِ. وَبَيْنَ الرَّجَاءِ والبَسْطِ. إنَّ الخوف متعلقه مسْتَقِل. إمَّا فوات مَحْبُوب، أَوْ هُجُوم مخذورٍ. بِخلافِ القَبْضِ. فإنه مَعنى يَحْصلُ في القَلْبِ. إمَّا بِسَبب أَوْ لاَ. وكَذَلِكَ الرجاءُ يكون لإنتظار محبُوبٍ في المُسْتَقْبَلِ. والبَسْط شيء موهوب يحصل في الوقت. فحقيقة القبْضِ: إنكماش وضيق يحصل في الْقَلْبِ، يُوجبُ التحرُّكَ والإنبسَاطَ. ولكلِّ واحد آداب مذكورة في المطوّلات.

الْخَوَاطِرُ وَالْوَارِدَاتُ: الخواطِرُ خطابات ترد على القلوبِ، تكون بِإلْقَاءِ مَلَكٍ أَوْ شيطان. أَوْ حديث نَفْسَ. فإذا كان مِنَ المَلَكِ فَإِلْهَامٌ. أَوْ من الشيطانِ فوسْوَاسٌ. أَوْ من النَّفْس فهواجسٌ فما وافق الحق، ودعا إلى اتباعِهِ فَمِنَ المَلَكِ. وما وافق

الباطل. أَوْ دَعَا إِلى معصية، غالباً فَمِنَ الشيطان، وَقَدْ يَدْعُو إلى الطاعة حيث يَتَرتَّبُ عليها معصية. كالرياء وحبّ المَدْح وما دَعَا إلى اتباع الشهوة والدَّعة، أي الراحة، فمِنَ النَّفسِ. قال أَبُو عَلِيِّ الدَّقاق: مَنْ أَكَلَ الْحَرَامَ، لم يفرِّق بيْن الإلهام والوسْواس. وكذلكَ مَنْ كَانَ قوتهُ معْلُوماً. وفرَّق الجنيْد بيْن هواجس النَّفس، وَوسواس الشيطان. بأَن مَا دعَتْ إليهِ النَّفْس لاَ تنتقل عَنْهُ. بلا تعاوده مرَّة بعد مَرَّة. إلاَّ بعد مجاهدة كبيرة. ووسواس الشيطان ينتقل عنهَا، فإذا خالفته في معصية. انتقل لأخْرَى. وَرُبَّمَا ذهب بِالتعوذِ ونحوهِ. ولذلكَ كَانتِ النفسُ أَخبث من سبعين شيطاناً. وأمَّا الواردات: فهي مَا يَرِدُ على القلوب من التجليات القوية. أو الخواطر المحمودة. بما لاَ يكون للعبْدِ فيه تكسُّبٌ. والفرْق بيْن الوارداتِ والخواطِر: أنَّ الوارداتِ أَعَمُّ مِنَ الخواطِرِ، لأنَّ الخواطِرَ تختَصُّ بنَوْعٍ، أوْ ما يَتَضَمَّنُ مَعْنَاهُ. والوارداتُ تكون واردَ سُرُورٍ، ووارد حُزْنٍ، ووارِدَ قَبْضٍ، ووارد بسْطٍ، وواردَ شَوْقٍ، وواردَ خَوْفٍ، إلى غير ذلكَ من المعاني. وقد يختطفهُ شاهد حسِّي؛ وهو قريب من الحالِ. وقد يأتِي الواردُ بكشف غيْبٍ، فيجب تصديقهُ. إن صَفَا القلْبُ من كدورة الخواطِرِ. والله تعالى أَعْلَمُ.

النَّفْسُ وَالرُّوحُ وَالسِّرُّ: النَّفْسُ عند القوم، عبارة عما يُذَمّ من أَفْعَال الْعَبْدِ وأَخلاقه. فالأول ما كانَ من كَسْبِ العَبْدِ كمعاصيه ومخالفتِهِ. والثاني من كانَ من جبلّتِهِ وطبيعتهِ. كالكِبْر والحَسَدِ والغَضَبِ وسوُء الخُلُق. وقلة الإِحْتِمَالِ وغير ذلكَ من الأخلاق الذَّميمة؛ يُنْسب لِلنَّفْسِ أَدَباً مع الحق. والرُّوحُ عبارة عن محلِّ التجليات الإلَهية، وكشف الأنوار الملكوتية. والسِّرّ عبارة عن محلِّ تجليات الأسرار الجبروتية. فالنفس للعوام، والروح للخواصّ، والسّرّ لخواصّ الخواصّ. النفس لأهل عَالَم المُلكِ. والرّوح لأهل عَالَم المَلكُوت. وَالسِّرُّ لأَهْلِ عَالَم الْجَبَرُوتِ. وَسَتَأْتِي حَقَائِقُهَا. وهل النَّفس والرّوح والسرُّ متعددات في نفسها. أوَ متحدة. وإنما تختلف التسمية، باختلاف التصفية. قال بَعْضُهُمْ: النفس لطيفة مُوَدعة فِي هَذَا القَالَب، هي محل الأخلاق المحمودة. ومحلها واحدٌ: وهو الإنسَان. فَالنَّفسُ والرُّوحُ من الأجساد اللطيفة، كالملائكة والشّياطين. وهما سَاكنانِ في الإِنسَانِ. فكما أَنَّ الْبَصَر محل الرُّؤيَة. والأذنَ محلُّ السمع والأنف محل الشَّمِّ مِنْ ذاتٍ واحدة. فكذلكَ محلّ الأوصاف الذَّميمة النفس. ومحل الأوصاف الحميدة الرُّوح. وأَما السِّرّ؛ فهي لطيفة مودعة في القلب كالرُّوح، إلاَّ أنه أَشرف من الرُّوحِ، لكمال أوصافِهِ. قال الساحلي: النفس والقلب والرُّوحُ والسِّرّ

والباطِن، أسماء لمسمّىً واحدٍ، وهي اللطيفة الرَّبّانية، التي كان بها الإنسَانُ إنسَاناً. وتختلف أسماؤها باختلافِ أوصافها. فإن مالتْ لجهة النَّقْصِ سميَتْ نفساً. وإن تخلصَتْ من مقام الإسلام إلى مقامِ الإيمانِ سميَتْ قلباً. وإن تخلَّتْ منه إلى مقام الإحسانِ، ولكن بقي بها أثر النقصِ، كأثر الجراحات بعد البُرْءِ سميت روحاً. وإن ذَهَبَتْ تلك الآثار، وصَفَتْ، سمّيَتْ سِرّاً. وإن أشكل الأمر سميَتْ بالباطِن. والاختلاف في الروح شَهيرٌ. قال بَعْضهم: هي الحياة. وقال بعضهم أَعْيَانٌ مودعة في هذه القوالِب، أجْرَى الله العادة بخلق الْحَيَاةِ فِي القوالبِ، ما دامَت الحياة فيه. فالإنسَان حي بالحياة. ولكنَّ الأرواحَ مودعة في القوالبِ. ولها ترَقٍّ في حالِ النَّوْمِ. ومفارقة ورجوع. وهي التي وقع بِهَا النَّفْخُ. وأما النفس فهي مخلوقة في الجنين، قبل نفخ الرّوح بهَا، يقع التحرك. وهي ملازمة للبَدَنِ، لا تفارقه إلاَّ بالموتِ. فتخرج الروح أوّلاً، ثم تنقطع النفس، فتقطع الحياة. فالإنسَان روح وَنفْسٌ وجَسَدٌ، والحشر للجملةِ، وكذلكَ العقاب والثواب. والأرواح، مخلوقة قبل الأبْدانِ. سَارِية فيها سَرَيَان النَّار في الفَحْم، والمَاء في العودِ الرَّطبِ. قلت: هذه الأعيان المودعة في القوالب، هي اللطيفة الرَّبَّانية اللهوتية؛ وهي التي تتطور، وتختلف أَسْماؤها باختلافِ تطورها، كما قال الساحلي، والله أَعْلَمُ. وكوْن الأرواح حادثة، يجري على مَذْهب الفَرْقِ، وأمَّا أَهل الجَمْعِ فَلا حَادِث عِنْدَهُمْ لفناءِ الكَائِناتِ عن نَظرِهم. قال الجُنَيْد: إذا اقترَن الحادثَ بالقديم، تلاشى الحادث وبقي القديمُ. وسألت بعض إخواننا العارفينَ: هل الأرواح حادثة أو قديمة؟ فقال: الرِّجالِ: الأشباح عنْدَهُمْ قديمة. يشير إلى مقدام الفناءِ كَما تقدَّمَ. لكنَّهُ سِرّ مكتومٌ.

النَّصْرُ وَالتَّأْيِيدُ وَالْعِصْمَةُ: النَّصْر تقوية الجوارح على فِعل الْخَيْرِ. والتأييد: تقوية البصيرة من دَاخِلٍ. فالْبَاعِث الباطِني تأييدٌ. والبَطْش ومُسَاعدة الأسْبَاب من خارج نَصْرٌ، وهو جامع للهداية: التي مرجعها للبصيرة العلمية الكَاشفة، لِمَا عليه الشيءُ بحقيقَتِهِ. والرُّشْدُ الذي مرْجَعُهُ إلى الإِرَادة الباعثةِ، إلى جِهَة المسَاعدة. والتَّسْديد: الذي مَرْجعه إلى القدرة على توجيه الحركاتِ إلى نحوِ المطلوبِ، وتيسيرها عليه مِنَ التَّأْييدِ، ويقربُ من التأييدِ الجامع لما ذكِرَ العصمة؛ وهي عبارة عن وجودٍ إلَهي يسبَحُ في الباطِنِ. يقوى به الإنسان على تحرّي الْخَيْرِ. وتجنب الشّرّ، حتى يصير كمانع في باطنِهِ غير محسوس؛ قاله الغَزّالي. فهذه ستُ حقائق. الهداية، والرشد، والعصمة، والتسْديد، والنُّصْرة، والتأييد. وقد علمْت كُلَّها مِن كَلاَمِ الغزّالي رضي اللّهُ عنه. والتحقيق: أنّ الهداية: هي تصويب العبد إلى طريق

توصله إلى الحقّ. وقد تطلق على بيانها فقط. والرّشد: هو توجيه القلْبِ إلى طريق السعادة. والتّسْدِيد: هو القدرة على سلوك طريق الخيْرِ، وتجنب الشّرّ. والعصمة: هو وجود إلهي إلى آخِرِ ما تقدَّمَ.

الحِكْمَةُ: وهي إتْقَان الشيْءِ وإبْدَاعهُ. ففي العلم: تحقيقهُ والعمل به. وفي الْقَولِ: إيجَازُهُ وتَكْثِيرُ معانيه. وفي العمل: إتقانُه وإكمالُهُ. ويُقَالُ: ترتبَتِ الحِكمَة على ثلاثِ فِرَق: على ألْسِنَة العربِ، وأيْدِي الصِّين. وعقول اليُونَان. والله تعالى أَعْلَمُ.

الْعَقْلُ: وهو نُورٌ يُميِّز بِهِ بيْن النَّافعِ والضَّارِّ. ويحجز صاحبه عن ارتكابِ الأوزارِ. أَوْ نُورٌ روحاني: تُدركُ بِه النفسُ العلومَ الضَّرُورِيّة والنظرية. أو قوّة مهيأة لقبولِ العلم؛ سُمّيَ عقْلاً؛ لأنهُ يَعْقل صاحبَهُ عما لاَ ينبغِي؛ وهو على قسْمين: عقل أَكْبَر، وعقل أَصْغَرْ. أما العقل الأكْبَرُ، فهو أَوّل نورِ أظهر الله للوجودِ. ويقال له: الرّوح الأعظم. ويُسَمَّى أيْضاً: بالقَبْضَة المحمدية؛ ومن نوره يَمْتَدُّ الْعَقْلُ الأصْغَر. كَامْتِدادِ القمر مِن نور الشمسِ فلا يزال نورهُ: بالطاعة والرياضة، والتَّطْهير من الهَوَى، حتى يدْخلَ الْعَبْد مقام الإحْسَان. وتشرق عليه شمس العرفانِ: فينطوي نوره في نُورِ الْعَقْلِ الأكْبَرِ. كَانْطِواءِ نورِ القَمَرِ عند طلوعِ الشمسِ فيرى مِنَ الأسْرَار والغيوب، ما لم يكُنْ يَرَهُ قَبْلُ؛ لأنَّ العقل الأصْغَرَ نوره ضعيف لا يدْرك. إلاَّ افتقارَ الصنعة إلى صَانِعِهَا. وَلاَ يَدْرِي مَا وَرَاءَ ذَلِكَ بِخِلاَف العقل الأكْبَر، فإنه يدرك الصَّانع القديم. قبل التجلّي وبعدهُ لصفَاءِ نوره، وشدّة شعاعِهِ. وفي بعض الأخبَار: «أولُ ما خَلَقَ الله الْعَقْل. فقال له: أَقْبِلْ، فَأَقْبَلَ. ثم قالَ لَهُ: أَدْبِرْ، فَأَدْبَرَ. ثم قالَ لهُ: أُقْعُدْ، فَقَعَدَ. ثم قال لهُ: قُمْ، فقامَ. فقال: وعِزّتِي وَجَلالِي، لاَ حَلَلْتَ حَلاَلاً أَجْعَلَك إلاَّ فيمَن أَحْبَبْتُ مِن عِبَادِي، أَوْ كما قال عليه الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ. والحديثُ متكَلَّم فيه. فالْعَقل الأكْبَرُ لا ينالُهُ إلاَّ المحبُّونَ. الّذِينَ اختارهُمُ اللّهُ لمعرفتِهِ الخاصَّة. وأَمّا العقل الأصْغَرُ فيعطيه للخاصّ والعامّ. وهو على قسْمَيْنِ: عَقل مَوْهُوبٌ، وَعَقْل مكْسُوبٌ. فالموهوب: هو الذي جَعَلَهُ اللّهُ فيه غريزة. والمكسُوب: هُو الذي يكتسَبُ بِالتَّجَاريب والرياضات. وارتكاب المِحَنِ. قال بَعْضُهُمْ: عَلاَمَة العقل ثلاث: تقوى الله عَزَّ وَجلَّ، وصدق الحديث، وترْك مَا لاَ يَعْنِي. وقال عليه الصَّلاَة والسلام: «**أَلاَ وَإنَّ من عَلاَمَاتِ الْعَقْل: التجَافِي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلودِ، والتزوّد لسُكْنى القبور، والتأهُّبَ ليوم النشور**».

وقال بعض الحكماء: خير ما أُعطي الإنسان عقل يزجرُهُ. فإن لم يكُنْ فحياء يَمْنَعُهُ. فإن لم يكُنْ فَمَالٌ يسْتُرُهُ. فإن لم يكُن، فصاعقة تحرِقُهُ، يسْتريح منه البِلاد والعباد. وهل الأرْوَاح قبل الأشباح كَان لها عَقْلٌ؟ والتحقيق أَنَّها كَانت لها عقول مقتبسة من العقل الأكْبَر كذلك أَقَرَّت بالرّبوبية. بل كَانت عَلاَمَة درّاكة للأشياءِ. كما قال ابن البنَّا. والمعرفةُ والإدراكُ، إنما يكونَانِ بِالْعَقْلِ. فلما بَرَزَتِ لعالَم الأشباح، أَزَالَ اللَّهُ منها ذلِك العَقْل؛ الذي هو مِنَ العَقْل الأكْبرِ. وأَنْبَتَ فيها العَقل الأصْغَر؛ عند اجتنانِ الوَلَد في البطن. فما زال يَنْمُو إِلى الحُلُم. وقيل: إلى أَرْبَعِينَ سَنَة. فإذا اتَّصَل العبدُ بالطبِيبِ، عالجَهُ حتى يُؤَهِّله إلى الْعَقْلِ الأكْبَرِ، فيكونُ صاحبُه من الأولِيَاءِ، وبالله التوفيق.

التَّوْحِيدُ: وهو على قسْمَيْن: توحيد البُرْهان. وَهُوَ إفراد الحق بالأفعال والصفات والذَّاتِ عن طريق البُرْهَان. وتوحيد العِيَان: وهو إفراد الحقّ بالوجود في الأزَلِ والأبَد. وقال الجُنَيْد رضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هو مَعْنًى تضمَحِلُّ فيه الرسوم. وتندرج فيه العلوم. ويكون الله كما لَمْ يَزَلْ، وأُصُولهُ خَمْسَة أشياء: رفع الحدث، وإفْرَاد القِدَم، وهجران الإخوان، ومفارقة الأوطان. ونسْيان ما علم وَجَهْلَ. قلت: والْمعْنَى الَّذِي تضْمَحِلّ فيه الرُّسُوم؛ هو ظهور أَسْرَارِ الذَّات. فإذَا وقع الكشف عنْهَا بِغَيْبَةِ حِسّ الكَائناتِ، التي هي أَوَانِي لتلك المعانِي، انفرَدَ الحق بالوجودِ. ويكون فيما لم يَزَلْ. كما كَانَ في الأَزَلِ. كَانَ اللَّهُ وَلاَ شيء مَعَهُ، وهو الآن على ما عليه كَانَ. فيرتفع الحدث، وينفرد القِدَمُ. ويهجرُ صاحب هَذَا الذَّوْقِ جميع الإخْوَانِ. إلاَّ مَنْ يستعين بهم على رَبِّهِ. ويفارق الأوطان في طلبِ الحقّ. لأنَّ الهِجْرَةَ سنة. ويَنْسى ما علم وما جهل. أي يغيب عنه في جَنْبِ الكَنْزِ الَّذِي ظفِرَ بِهِ. وسُئِلَ أَيْضاً رضي اللَّهُ عنه عن التوحيد فقال: لوْن التاءِ لوْن إينَائهِ. ومعْنَى كَلامه رضي الله عنه: أنَّ الذَّات الْعَلية، كَانَتْ لطيفة خفية نُورَانية، فَلَمَّا تجلَّتْ بِالرُّسُوم والأشكال، تَكَوَّنَتْ بِتَكَوُّنِهَا، فَافْهَمْ، وَسَلِّم إن لم تَذُقْ. ومقامات التوحيد غيرُ مُتَنَاهِيَة، لأنَّهَا تتزَايد بِتَزَايد الكَشف والتَّرقِّي. فَفوْق التوحيد: **التَّفْرِيدُ**: فإنهُ أَرَقُّ من التوحِيد وأعلى؛ لأنَّ التوحيد يصدق على توحيد أَهْل الْعِلْمِ. والتفريد خَاصّ بِأَهْلِ الذَّوْقِ، وفوْق التفريد.

الأَحَدِيَةُ، والإيحَادُ، والْفَرْدَانيَة والْوَحْدَانِيَةُ، والإِنْفِرَادُ: وهكَذَا رُتْبَتُهُمْ في القوة. فالأحدية مُبَالغةٌ في الْوحْدةِ، والإيحاد مصْدر أَوْحَدَ الشيْء إذا صَارَ واحِداً.

والفرْدانية والوحدانية والإنفراد معناها: إفرادُ الْحقّ بالوجودِ، وَلاَ يكون إلاّ بعد انطباق بحر الأحدية على الكُلّ، بحيْث لم يَبْقَ وجود لغَيْرِه قط؛ وهو يذوق ذلِكَ ذوقاً. ويغرق فيه غرقاً. ويُقال لأهل هذا المقام: الأفراد والآحاد؛ وهم أكمل من القطب في العلم بالله، كما قال الحاتِمِي. وخارجون عن دائرة تصرفه. والله تعالى أعْلَمُ.

حَقِيقَةُ الذَّاتِ الْعَلِيّةِ: هي ذَاتٌ عَلية أزلية، لطيفة خفيفة، متجلّية بالرسوم والأشكال. متصفة بصفاتِ الكَمالِ. واحدة في الأزلِ. وفيما لاَ يزال هذا رَسْمُهَا بِالخواصّ. وأمَّا كُنْه الحقيقة. فلا يحيط بها إلاّ هو تَعَالى.

الْعَمَا: معناه السحاب، وهو عبارة عن صفة الذَّاتِ العلية في الأزل قبل التجلّي. وحقيقتهُ: صَفَاءٌ لَطِيف خفي صافي، لا حدَّ لفوقيته، ولا لتحتيه، وَلاَ لجوانبِهِ الأربع، وَلاَ نهاية لأوليتِهِ، ولاَ لآخريته. خالٍ عن الرسوم والأشكال. متصف بأوصاف الكمال، من القدرة والإرادة والعلم والحيَاة، والسمع والبصر والكَلام. ويجمعهُ قول ابن الفارضِ في خمريتِهِ:

يَقُولُونَ لِي صِفْهَا فأَنْتَ بِوَصْفِهَا ... خَبِيرٌ أَجلْ عِنْدِي بِأَوْصَافِهَا عِلْمُ
صَفَاءٌ وَلاَ مَاءٌ ولُطْفٌ وَلاَ هَوَا ... وَنُورٌ وَلا نَارٌ وَرُوحٌ وَلاَ جِسْمُ
تَقَدَّمُ كُلَّ الكَائِنَاتِ حَدِيثُهَا ... قَدِيماً وَلاَ شَكْلٌ هُنَاكَ وَلاَ رَسْمُ

ثم تجَلَّتْ بِالرسُوم والأشكالِ بِحيْثُ صار اللطيف كثيفاً، والخفيّ ظَاهراً، والغيْبُ شهادة. فما كَان في الأزل، هو عيْن ما تجلّى به في الأبَدِ. كَانَ اللَّهُ وَلاَ شيء معَهُ؛ وهو الآن على مَا عليه كَانَ. وفي حديث الترمذِي، عن ابْن رزيْنٍ الْعُقَيْلِي: قلت يا رسُولَ اللَّهِ: أَيْنَ كَان رَبُّنَا قَبْلَ أنْ يخلق خلقهُ؟ قال: «كَان في عَمَا؛ مَا فوقهُ هواء ومَا تحتَهُ هَوَاء» أَيْ كَان في خَفاءٍ وَلَطَافَةٍ، ليْس فوقَهُ هواء، وَلاَ تحته هواءٌ. بَلْ عظمَة ذاتِهِ أَحَاطَتْ بِكُلِّ فوْق، وبكلّ تحت، وبكل هواء. وقيل لسيّدنا عليّ كَرَّم اللَّهُ وجْهَهُ: يَابْنَ عَمّ رسول الله ﷺ: أَيْنَ كَانَ ربُّنَا؟ وهَلْ لَهُ مَكانٌ؟ فتغَيَّرَ وَجْهُهُ وَسَكَتَ ساعة. ثم قال: قولكم أَيْنَ اللَّهُ سؤال عن مَكانٍ. وَكَانَ اللَّهُ وَلاَ مَكَانَ. ثم خلق الزَّمَانَ والمَكَانَ. وهو الآن كما كَانَ دونَ زمَانٍ وَلاَ مَكانٍ. أيْ كَانَ اللَّهُ وَلاَ شيء مَعَهُ. وهو الآن شيءٌ مَعهُ فافْهَمْ.

الْفَنَاءُ والْبَقَاءُ: إذا أُطلقَ الفناء: إنما يَنْصرف للفَنَاءِ في الذّاتِ. وحقيقته: مَحْو الرّسوم والأشكَال. بِشهودِ الكبيرِ المتعال. واسْتِهلاك الحسّ في شُهُودِ

المَعْنَى. قال أَبُو المواهب. محوٌ واضمِحْلاَلٌ. وذَهابٌ عنكَ وَزَوَالٌ. قال أَبُو سعيد ابن الأعرابي: هُوَ أَنْ تَبْدُوَ العَظَمة والإجلال على الْعَبْدِ. فتنَسِّيهِ الدّنيا والآخرة. والأحوالَ والدَّرَجَاتِ، والمعَاملاتِ والأذكَار. يفنيه عن كل شيْءٍ: وعن عقله وعن نفسه، وفنائه عن الأشياء. وعن فنائِهِ عَنِ الفَنَاءِ؛ لأنه يغرق في التعْظيم. أي تتجلّى لله عظمة الذَّات. فيفنيه عن رؤية الأشياء. ومن جملتها نفسهُ فيصير عيْن العَيْنِ. ويغرق في بحر الأحدية. وقد يُطلق للفناء على الفناء في الأفعَالِ. فلا يرى فاعِلاً إلاَّ اللّهُ. وعلى الفناءِ في الصفاتِ. فلا قديرَ وَلاَ سميع وَلاَ بصيرَ إلاَّ اللّهُ. يعْني، أنّه يرى الخلق مَوْتَى. لاَ قدْرَة لهُمْ، وَلاَ سَمْعَ وَلاَ بَصَرَ إلاَّ بِاللّهِ. وبَعْدَ هَذَا، يَقَعُ الفناءُ في الذَّاتِ. وفي ذلِكَ يقول الشاعِرُ:

فيفْنَى ثُمَّ يَفْنَى ثُمَّ يَفْنَى فَكَانَ فَنَاؤهُ عَيْنَ الْبَقَاءِ

وأمّا البقاء فهو الرّجوع إلى شهود الأثَر، بَعْدَ الغَيْبَة عَنْهُ. أوْ شُهُود الحسِّ بَعْدَ الغَيْبَةِ عَن شُهُود المَعْنَى. لكن يَرَاه دائماً بِاللّهِ. ونوراً من أنوار تجلياتِهِ. إذْ لوْلاَ الحِسُّ مَا ظهرتِ المَعْنَى، ولَوْلاَ الواسطة ما عُرِف المَوْسوط. فالحق تعالى تجلَّى بَيْنَ الضِّدَّيْنِ: بيْنَ الحسّ والمَعْنَى. وبيْنَ القدرة والحِكْمَةِ، وبين الفرْق والجمع. فَالْغَيْبَةُ عَنْ أَحَد الضِّدَّيْنِ فَنَاءٌ. ورُؤْيَتُهما مَعاً بَقاءٌ. فالغيبة عن الحسّ، وعن الحِكمَة، وعن الفَرْقِ فَنَاءٌ. وملاحظتهما معاً بقاءٌ. فالبقاء اتّسَاعٌ في الفناءِ. بحيْث لا يحجبه جمعهُ عن فَرْقِهِ، وَلاَ فناؤه عن بقائِهِ. وَلاَ شهود القدرةِ عن الحِكْمَةِ. بل يُعْطي كلَّ ذي حَقٍّ حَقَّهُ. ويُوفِي كلَّ ذي قِسْطٍ قِسْطَهُ. وقد يطلق الفناء عَلَى التخَلّي والتَحلّي. فيقالُ، فَنَى عَنْ أوصافِهِ المَذْمومَة. وبقي بالأوصاف المحمودة. والله تعالى أعْلَمُ.

الْقدْرَةُ والحِكْمَةُ: القدرة عبارة عن إظهار الأظهار على وفق الإرادَةِ. والحكمة عبارة عن تسَتُّرِهَا، بوجود الأسباب والعِلَلِ. فالقدرة تبرُّزٌ، والحِكْمَةُ تسَتُّرٌ. والقدرَة لا تنفكُّ عَنِ الحكمَةِ إلاَّ نادراً، في مُعْجِزَةٍ أوْ كَرَامَةٍ أو شَعْوَذَةٍ. وقد تطلق القدرة على الذَّاتِ بَعْدَ تجلّيها. مِن إطلاقِ الصِّفَةِ على الْمَوْصُوفِ. والحِكمَة ما يسْترهَا مِنَ الحسّ، وأوْصافِ البشرية. وأحْكام العبودية. فظهُورُه تعالى بمقتضى اسْمه الظاهِر، يُسَمَّى قُدْرةً. وبطونُهُ في ظهورِهِ؛ بمقتضى اسمه الباطِنِ، يُسَمَّى حِكمَة. فَتجَلِّيه تعالى من عَالَم الغَيْبِ إلى عَالَم الشهادَةِ قُدْرَةٌ. وخفاؤهُ في ظهورهِ حكمةٌ. وإليه يشير قول الحِكَم. سُبْحَانَ مَن سَتَرَ سِرّ الخصوصية، بظهور وَصْفِ البَشرية. وظهر بعظمة الرّبوبية، في إظهار العبودية.

الْفَرْقُ والْجَمْعُ: الْفَرْق عبارة عن شهودِ حسّ الكائنات، والقيام بأحكَامِهِ وآدَابِهِ، مِنَ العِبَادَةِ والعبودية. والجمع عبارة عن شهود الْمَعْنَى القائم بِالأَشْيَاءِ، متصلاً بالْبَحْرِ المحيط الجَبرُوتي. أو تقول: الْفَرْق شهود القوالِب. والجمع شهود المظاهِر. فالقوالِبُ محلّ الشرائع، والمظاهر، عيْن الحقائق. وقال أَبُو عليّ الدّقاق: الفَرقُ مَا نُسِبَ إلَيْكَ. والجمعُ ما سُلِبَ عَنْكَ. فالفَرْق بِلاَ جَمْع فسُوق، وجمود وجَهْل باللَّهِ تعالَى. والجمْعُ بِلاَ فَرْقٍ زَنْدَقَةٌ وكُفْرٌ إنْ لَمْ يكُنْ بلا سُكْرٍ؛ لأنه يؤدّي إلى إبطالِ الشرائع التي جَاءَتْ بِهَا الرُّسُلُ عليهم الصَّلاةُ والسَّلاَمُ. وإلى إبطالِ الحِكمَةِ. والقُدْرَةُ لا تنفَكُّ عَنِ الحِكْمَةِ. فالواجبُ أَنْ يكون العَبْدُ مَجْمُوعاً في فَرْقِهِ. مَفروقاً في جَمْعِهِ. الجمع في الباطنِ موجود. والفرْق على الظَّاهرِ مشهودٌ.

الْحِسُّ والْمَعْنَى: الحِسُّ عبارة عن تكثيفِ للأَشْيَاءِ ظَاهراً. والمَعْنَى عِبَارة عَنْ تلطيفها باطِناً. فحِسّ الكائنات أَوَانٍ حاملة للمَعَاني. قال الششتري رضيَ اللَّهُ عنهُ: لاَ تَنظُرْ إلى الأوَاني. وخُضْ بَحْرَ الْمَعَانِي. لَعَلَّكَ تَرَانِي. فمثال الكَوْنِ؛ كالثَّلْجَةِ، ظَاهِرها ثلجٌ، وباطنها ماء. كَذَلِكَ الكَوْنُ، ظَاهِرهُ حِسٌّ. وباطِنُهُ مَعْنًى.

والْمَعْنَى هيَ أَسْرَار الذَّاتِ اللطيفة القائمة بالأشيَاء. فَقد سَرَتِ المعانِي في الأوانِي سَرَيَان الماء في الثلجة. وفي ذلِك يقول قطب الأقطابِ: الشيخ الجيلاني رضيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وَمَا الْكَوْنُ فِي التِّمْثَالِ إلاَّ كَثَلْجَةٍ وأَنْتَ لَهَا الْمَاءُ الَّذِي هُوَ نَابِعُ
فَمَا الثَّلْجُ فِي تحْقِيقِنَا غَيْرُ مَائِهِ وغَيْرَان فِي حُكْمِ دَعَتْهُ الشَّرَائِعُ

فَلاَ قيام للحِسّ إلاَّ بِالْمَعْنَى، وَلاَ ظُهُور لِلْمَعْنَى إلاَّ بالحِسِّ. فالمَعْنَى رقيقة لطِيفةٌ لاَ تُدْرَكُ إلاَّ بِتحسّسها في قَوالِب الكَائنَاتِ. فَظهُور المَعْنَى بِلاَ حِسٍّ مُحَالٌ. وشهود الحِسّ بِلا مَعنى جَهْلٌ وظلمة. ولذلكَ قَالَ في الحِكَم: الكَوْنُ كُلهُ ظُلْمَة. وإنما أناره ظهور الحقُّ فِيهِ الخ. فَلاَ يُرَى الحقُّ تعالى، إلاَّ بِوَاسِطة التجليات في هَذِهِ الدَّار، وفي ذلِك يقول بَعْضُهُمْ «وَلَيْسَتْ تُنَالُ الذَّاتُ مِنْ غَيْرِ مَظْهَرٍ» وَلَوْ هُتِكَ الإنْسَانُ مِنْ شِدَّةِ الحِرصِ.

الْمُلْكُ وَالْمَلَكُوتُ وَالْجَبَرُوتُ: الْمُلْكُ مَا ظَهَرَ مِن حِسِّ الكَائِنَاتِ. والملكوتُ مَا بَطُنَ فيها مِنْ أَسْرَارِ الْمَعَانِي. والجَبَرُوتُ: البَحْرُ المحيط الَّذي تَدَفَّقَ مِنْهُ الحِسُّ والْمَعْنَى. والحاصِلُ: أَنَّ القَبْضَة التي ظَهَرتْ أَوَّلاً مِن فَضَاءِ الْعَمَاءِ. حِسُّهَا الظاهرُ مُلكٌ. ومَعْنَاهَا الباطِن ملكُوتٌ. والبحرُ اللطيف المحيطِ الَّذِي تَدفَّقَتْ مِنهُ:

جَبَرُوتٌ. فأَسْرَارُ المَعَانِي رياض العَارِفينَ. لأنَّهَا محلّ نزهة أَرْواحِهِمْ. وَلا شَكَّ أَنَّ المَعَانِي لطيفة، لا تظهر بَهْجَتُهَا إلاَّ في الحِسّ الَّذِي هُوَ المُلْكُ. والحِسُّ من حيْث هُوَ، مُضَاف إلى نَبِيِّنَا عليه الصَّلاةُ والسَّلاَمُ. لأنَّهُ مَا ظَهَرَ إلاَّ لَهُ. وَمَا انشَقَّتْ أَسْرَار الذَّات إلاَّ مِن نُورِهِ. فلذلكَ قال القطب بن مشيش رضيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَرِياضُ المَلَكُوتِ بِزَهْرِ جَمَالِهِ مُونِقَةٌ. أي مُحْسَنَةٌ معجبة. فقد ذكر المُلْكُ بالإلْتِزام. لأنَّ جمالَ زَهْر المَعَانِي، لا يظهر إلاَّ في حِسّ الكَائِنَاتِ؛ وَهُوَ المُلْكُ. وقوله: وحِيَاضُ الجَبَرُوتِ بِفَيْضِ أَنْوَارِهِ مُتَدَفِّقَة. الأصل أن يقول: وبَحْرُ الجَبَروت بفيْضِ نُورِهِ مُتَدَفِّقٌ. يشير إلى ظهور القبضَة المُحَمَّدِية، من بَحْر نورِه اللطيف، وإنما عَبَّرَ بالحياضِ ليناسب الرياض، وإنما جمع نور القبضَة لِتَفرّعِهِ إلى أنْوار كثيرة. كما جمع العَالَمَيْنِ، مَعَ أَنَّ العالم وَاحِدٌ، لتعدد أنْوَاعِهِ. والله تعالى أَعْلَمُ. فحقيقة المُلْكِ: ما يُدركُ بالحسّ والْوَهْم. وحقيقة المَلكوت. ما يُدْرك بِالعلم والذَّوْقِ. وحقيقة الجَبَرُوتِ: مَا يُدْركُ بِالكَشفِ والْوُجْدَانِ. فالوجود واحِدٌ. وإنما تختلف النِّسْبَة باعتبارِ الرّؤية والتَّرَقية. فَمَنْ وَقَفَ مَعَ حِسّ الكائناتِ. وَحُجِبَ بِهَا عَنِ الْمَعْنَى، سُمّيَ في حَقِّهِ مُلْكاً، وَمَنْ نَفَذَ إلى شهود المعانِي، سُمّيَ في حَقِّهِ مَلَكُوتاً. ومَن نَظَر إلى أَصْلِ الْقَبْضَةِ التي بَرَزَتْ مِنْهُ، سَمَّاهُ جَبَرُوتاً. فإنْ ضَمَّ الفروعَ إلى الأصول، وتلَطَّفَتِ الأَوَانِي. حتى صَارَتْ كلّها مَعانِي. وانطبق بَحْر الأحدية على الكلّ. صارَ الجميع جَبَروتاً، فكل مقام يحجُبُ عما قَبْلَهُ.

فالمَلكوتُ: يحجبُ عن شهودِ المُلكِ. والجَبرُوتُ: يَحْجُبُ عَنِ الْمَلَكُوتِ. إلاَّ بالتَّنَزُّلِ في حَالِ السُّلُوكِ. واللَّهُ تعالى أَعْلَمُ.

النَّاسُوتُ واللاَّهُوتُ والرَّحَمُوتُ: النَّاسوتُ: عِبَارَةٌ عَن حِسّ الأَوَانِي. واللاَّهُوتُ: عبارة عن أَسْرَارِ المعانِي. ومرجع الأول للمُلْكِ. والثاني للملكوتِ. والرَّحمُوتُ: عبارة عن سَرَيَانِ اللطفِ والرَّحمة في جميع الأشياءِ: جلالها وجمالها. مَنْ ظَنَّ انفكَاك لطف اللَّهِ عَنْ قَدَرِه. فَذَلِكَ لقصُور نظرِهِ.

التَّوَاجُدُ والْوِجْدُ والْوِجْدَانُ والْوُجُودُ: التَّوَاجُدُ: تكلفُ الْوُجْدِ. واستعمالُهُ كاستعمال الرَّقصِ والشطح والقيام وغير ذلِكَ؛ وهو غَيْرُ مُسَلّم إلاَّ للفقراءِ المتجرّدِينَ؛ فلا بأسَ بتكلفِ الْوُجد واستعمالِهِ. كما يُطلَبُ الحال دواءً للنفوسِ. وهو مقام الضعفاءِ، وقد تستعملهُ الأقوياء مُساعفةً أو حَلاَوة. قيل لأبي محمد الجريري، ما حالُكَ في السَّمَاع؟ فقال: إذا حَضر هناك مُحْتَشِمٌ أَمسَكْتُ وَجْدِي.

فإذا خَلَوْت أرسَلْتُ وَجْدِي فتواجَدتُ. وأما الجُنَيْد؟ فكان أولاً يتواجدَ، ثمّ سَكَنَ. فقيل لهُ يا سَيِّدِي: أمَا لَكَ في السماع شيْءٌ؟ فقال: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ﴾ قلتُ: وقد حضَرْت سماعاً مع شيخنا البُزَيْدِي رضي اللَّهُ عَنْهُ، فكَانَ يتمايل يميناً وشمالاً وحدّثني من حَضَر سَمَاعاً مع شيخه؛ مولاَي العربي الدّرقاوي. فقال: ما زال قائماً يَرْقُص حتى كمل السَّمَاعُ. وَلاَ يُنكِرُ السَّمَاعَ إلاّ جَاحدٌ خالٍ من أَسْرَارِ الحقيقة. وأمَّا الوُجْدُ: فَهُوَ الَّذِي يَرِدُ على القَلْبِ وَيُصَادِمُهُ بِلاَ تَأملٍ وَلاَ تكلُّفٍ. إمَّا شوق مقلق، أوْ خَوْف مُزعج؛ وهو بَعْد التواجد. ويُقالُ: التواجُد: ثمرات المُنَازَلة، فهي أَسْرَارُ الحقائق. كما أَنَّ حلاوة الطَّاعات: ثمرات المُنَازلة في الطاعة الظاهرة. فكلما اشتدّ التحقق بِأَسْرَارِ الحقائق والتوحيد قَوِيَ الوجْدُ. كَما أَنَّهُ كلما اشتدَّ الدَّوَام على الطَّاعةِ. قوِيَتْ حَلاَوتها. وأَمَا الوُجْدَانُ: فهو دوام حَلاَوة الشُّهُودِ، واتِّصالِهَا مَعَ غَلبَة السّكْر والدَّهشِ، فإنِ اسْتَمَرَّ مَع ذلِكَ، حتى زَالتِ الدَّهْشة والحَيْرَة، وَصَفَتِ الفِكْرَة والنظرة، فهو الوُجود. وَإِلَيْه يشير قول الجُنَيْد رضي اللَّهُ عَنْهُ:

وُجُــودِي أَنْ أغِـيــبَ عَــنِ الــوُجُــودِ ... بِـمَــا يَـبْـدُو عَـلَـيَّ مِـنَ الـشُّـهُـودِ

وقال أَبُو عليّ الدَّقّاق رضي اللَّهُ عَنْهُ:

التَّوَاجُد يُوجب استيعاب العَبْد. والوُجْدُ: اسْتغراق الْعَبْدِ. والوُجُود: يُوجب اسْتهلاَكَ العَبْدِ. فهو البَحْرُ. ثم ركب، ثُم غرق.

وقال القشيري: وترتيب هذا الأمر، قُصُود، ثم وُرُودٌ، ثم شُهُودٌ، ثم وُجُودٌ ثم خمُودٌ. فالمقصودُ للمتواجِدِينَ القاصدينَ. والوُجدُ والورود للواجِدِينَ الشَّاربينَ الخمرة. والشهود لأهْلِ الوُجْدَانِ السُّكَارَى. والوجود والخمودُ لأهل الصَّحْوِ، والله تَعَالَى أَعْلَمُ.

الذَّوقُ والشُّرْبُ والسُّكرُ والصَّحوُ: الذَّوْق يكونُ بَعْدَ الْعِلْم بالحقيقة، وهو عبارة عن بروقِ أنوار الذَّاتِ القديمة على العقل. فيغيبُ عَنْ رُؤْيَةِ الحدوثِ في أَنْوَارِ القِدَمِ. لكِنَّهُ لاَ يَدُومُ ذلِكَ. بَلْ يَلْمَعُ تَارة ويختفي أُخْرَى. فصاحبه يَدْخل ويخرجُ. فإذا لَمَعَ غَابَ عَنْ حِسِّهِ. وإِذَا خَفِيَ، رجَعَ إلى حِسِّهِ، ورؤية نَفْسِهِ؛ فهذا يسمَّى عندهم ذَوْقاً. فإن دَامَ لهُ ذلِكَ النُّورُ سَاعة أَوْ سَاعَتَيْنِ؛ فَهُوَ الشُّرْبُ. وإن اتَّصلَ ودامَ؛ فَهُوَ السّكْرُ. ومَرْجعه إلى فَنَاءِ الرُّسُوم. ويسَمَّى أيضاً الفناء. فإن رجعَ إلى شهودِ الأثرِ وقيامها باللَّهِ، وأنها نور من أنوارِ الله، فَهُوَ الصَّحْوُ. ويسَمّى أيْضاً

بالرّيّ وبالبَقَاءِ. لإبقَاءِ الأشياءِ بِاللّهِ بَعْدَ فَنَائِهَا، ويسَمَّى أَيْضاً: فناء الفناءِ؛ لأنهُ عَلِمَ أنهُ لَمْ يكُنْ ثَمَّ شَيْءٌ بِعَيْنِهِ. غَيْرَ الوَهْم والجَهْلِ؛ وهُمَا لاَ حقيقةَ لهُمَا. قال القشيري: وَاعْلَمْ أَنَّ الصَّحْوَ عُلُوُّ قَدْرِ السُّكْرِ. فكلُّ من كَان سكرهُ بِحَقٍّ، كَان صحوهُ بحقٍّ. ومن كان سكره بحظٍ مشوباً. كان صحوه بِحَظٍّ مصحوباً. ومن كَانَ مُحِقًّا في حالِهِ، كَانَ مَحْظُوظاً في سكرِهِ. ثم قال: فَمَنْ قوي حُبّهُ تَسَرْمَدَ لِشُرْبِهِ. ولِلّهِ دَرُّ القائل:

شَرِبْتُ كأساً بَعْدَ كَأسٍ فَمَا نَفَذَ الشَّرَابُ وَلاَ رَوِيتُ

الْمَحْوُ والإِثْبَاتُ: المَحْوُ: الغيْبَةُ عن الكَائنات فَنَاءً. والإِثْبَاتُ: إثبَاتُهَا بقاءً. ويُطلق على مَحْوِ الأوصَافِ الذَّمِيمَةِ. وإثبات الأوصاف الحميدة؛ وهي ثلاث: مَحْوُ الزَّلَّةِ عَنِ الظَّوَاهِرِ، وَمَحْوُ الغَفْلَةِ عَنِ البَوَاطِنِ. وَمَحْوُ الْعِلَّة عَنِ السَّرَائِرِ. فَفِي مَحْوِ الزَّلَّةِ: إثْبَات التَّوْبَةِ. في مَحْوِ الغَفْلة: إثبات اليَقَظةِ. وفي مَحْوِ الْعِلَّةِ: إثْبَاتُ الصَّفَاءِ.

السّتْرُ والتَّجَلِّي: السّتْرُ عندَهُمْ عِبَارَة عَنْ غَيْبَةِ الْعَبْدِ عَنْ رَبِّهِ، تَرْوِيحاً وتَنَزُّلاً وَشُغْلاً، بِشَأنٍ مِنَ الشُّؤونِ. والتجلّي عِبَارة عَنْ كَشْفِ الْعَبْدِ بعظمةِ رَبِّهِ. وهذا قبلَ الرّسُوخ. وأَمَّا بَعْد الرّسُوخِ، فَلاَ غيْبَة لَهُ. فالعوامُّ فِي غِطَاءِ السّتْر على الدَّوام. والخواصّ بيْن كشفٍ وغطاءٍ. وخواصُّ الخَواصّ في دوامِ التجلّي. فالسّتْرُ للعَوَامِّ عقوبةٌ. وللخواصّ رحمة. إذ لوْلاَ أنهم يُسْتَرُ عَنهُم في بعضِ الأحْيَانِ. لتلاَشَوْا عِنْدَ سُلْطَانِ الحقيقةِ. ولكنه كما يُظهر لهم، يستر عنهُمْ. فَالْخَوَاصّ بيْن عيْشٍ وطَيْشٍ. إذا تجلّى لهُمْ طاشُوا، وإذا ستر عنهم ردّوا إلَيْهِم فَعَاشُوا.

الْمُحَاضَرَةُ والْمُكَاشَفَةُ والْمُسَامَرَةُ: الْمُحَاضَرَةُ: حُضُورُ الْقَلْبِ مَعَ الرَّبِّ. ويَكُون من وَرَاءِ الحِجَابِ، إمَّا بتواتر الْبُرْهَانِ، أَوْ بِفِكْرَةِ الاعْتِبَارِ، أو بِاسْتِيلاَءِ سُلْطَانِ الذِّكرِ على القَلْبِ. ثم بعده المكاشفَةِ: وهي حضور القَلْبِ مَعَ الرَّبِّ. بِنَعْتِ البَيَانِ. غَيْر مفتقر في هذه الحالةِ إلى تأمُّلِ الدَّليل. وتطلّبِ السَّبيل. ويكون أيْضاً مع الحِجَابِ بِنَعْتِ القرْبِ في مَقَام المُرَاقَبَةِ؛ وهُوَ لِلْعُبَّادِ والزُّهَّادِ. ونهاية الأسْرَار. وأَمَّا مكَاشفة ضمائر النَّاسِ، فليْسَت بِمقصُودَة عِنْدَهُمْ. بل يُعطاها مَنْ لم يَبْلُغ هذا المقام. وبعد المحاضرة والمكاشفة. المُسَامرة: وهي ظهور أسْرار الذَّات، فيغيب العبد عن وجوده. ويغرق في بَحْر الأحدية ساعة أَوْ أكثرَ، ثم يخرجُ؛ وهي مِنْ بِدَايَةِ الوُجْدَانِ، ولمعان أَنْوَارِ المشاهدة. ثم بعدها المشاهدة؛

وَهِيَ دَوَام شهُودِ الحقّ بِلاَ تَعَبٍ. أو وُجودِ الحقّ بِلاَ تهمَة. وقال الجُنَيْد رضي الله عَنْهُ: المشاهدة: وجود الحقّ مع فقدانِكَ. وقد تقدَّم تفسيرهَا. وإنما أُعيدتْ هُنَا، لترتبها على ما قبلَها. قال القشيري: فصاحب المحاضرة مَرْبوط بِآيَاتِهِ. وصاحب المُكَاشَفَة، مَبْسُوط بِصفاتِهِ. وصاحب المشاهدة ملقًى بِذَاتِهِ. قلتُ: وصاحب المُسَامَرَة. تارة بتارة. ثم قال القشيري: صاحب المحاضرة، يهديه عقْلُهُ. وصاحب المكَاشفَة، يُدنيه عِلْمُهُ. وصاحب المشاهدة، تَمْحُوهُ مغرفتهُ. وأَجْمع ما قيل في المشاهدة، أنها: تَوالِي أنوارِ التجلِّي على القَلْبِ، مِنْ غَيْر أَنْ يَتَخَلَّلَهَا سِتْرٌ وانقطاعٌ. كما لَوْ قدِّر اتصال البروق، في الليلة الظلماءِ. فإنها تصير في ضوءِ النهار، وكذلك القلب، إذا دَامَ له دَوَام التجلّي. فلا لَيْلَ. وأَنْشَدُوا:

لَيْلِي بِوَجْهِكَ مُشْرِقٌ ... وَظَلاَمُهُ فِي النَّاسِ سَارِ
النَّاس فِي سَدَف الظَّلاَ ... مِ ونَحْنُ فِي ضَوْءِ النَّهَارِ

والسَّدْفُ بِالسِّينِ: الظلمة كما في القاموسِ. وقال النوري: إذا طلع الصباحُ، أَسْتَغْنِي عن المِصْبَاح. وقول الشاعر: ليلي الخ.. ليل وجودي مشرق بوجودِ ذلِكَ فَقَدْ ذهبَتْ ظلمة وجودِهِ، في نَهَارِ وجودِهِ.

اللَّوَائِحُ واللَّوَامِعُ والطَّوَالِعُ: وهي ألفاظ متقاربة؛ وهي أصْل البِدايَاتِ، حينَ تبرق عليهم أَنْوَار الشهود، ثم تستتر. فتكون أولاً لوائحُ ثم لوامع، ثم طوالعُ. فاللوامعُ أَظْهَرُ من اللوائح. والطوالع أظهر من اللوامع. فقد تبقى اللَّوامع سَاعتَيْن أَوْ ثلاث. بخلاف اللوائح. فإنها أخف لِزَوَالِهَا بسُرْعَةٍ. كما قال الشاعرُ:

افْتَرَقْنَا حَوْلاً فَلَمَّا اجْتَمَعْنَا ... كَانَ تَسْلِيمُهُ عَلَيَّ وَدَاعَا

وقال آخر:

يَا ذَا الَّذِي زَارَ وَمَا زَارَ ... كَأَنَّهُ مُقْتَبِسٌ نَارَا
مَرَّ بِبَابِ الدَّارِ مُسْتَعْجِلاً ... مَا ضَرَّهُ لَوْ دَخَلَ الدَّارَا

وأَمَّا الطَّوَالع، فَإنَّهَا أَبْقَى وَقْتاً، وأقوى سلطاناً. وأذهب لِلظلمَةِ. وأنفى للتُّهْمَةِ. لكنَّهَا على خَطَرِ الأفولِ. لم يتمكَّنْ صاحبها من طلوعِ شَمْسِ عِرْفَانِهِ. فأوقَاتُ حُصُولها وشيكة الارتحالِ. وأَحْوَالُ أُفولِهَا طويلة الأذيَالِ. لكن إذا غَرُبَتْ أنوارُها، يعيش في بركَاتِ آثارهَا، إلى أن تعودَ ثانياً. هَكَذَا تطلع شمس نهَاره بتمكّنِهِ. فَلاَ مَغِيبَ لَهَا حينئذٍ. قال الشاعر:

طَلَعَتْ شَمْسُ مَنْ أُحِبُّ بِلَيْلٍ ... واسْتَنَارَتْ فَمَا تَلاَهَا غُرُوبُ
إنَّ شَمْسَ النَّهَارِ تَغْرُبُ لَيْلاً ... وَشُمُوسُ الْقُلُوبِ لَيْسَتْ تَغِيبُ

الْبوادِهُ والْهُجُومُ: الْبَوَادِهُ مَا يَفْجَأُ الْقَلْبَ مِنْ نَاحِيَةِ الْغَيْبِ، على سَبِيلِ البغتة. إما موجب فَرح، أوْ تَرَحٍ. والْهُجُومُ، مَا يَرِدُ على الْقَلْبِ بِفَوْتِ الوقْتِ من غيْر تقنّع وَلاَ تكسُّبٍ. وتختلف أحْوَالُهُمْ على حسَب ضعفهم وقوَّتهم. فمنهم من تغيّره البوادِهُ. وتتصرف فيه الهَوَاجمُ. ومنهم من يكونُ فوْق ما يفجأهُ حالاً وقوة؛ لا تغيره الهواجِمُ. وَلاَ تتصرّف فيه البوادهُ. وَلاَ تُزَعْزِعهُ الهموم. وَلاَ تحرّكه المخاوف. أُولاَئِكَ سَادَةُ الْوقت كما قيل. لاَ تَهْدي نُوب الزَّمانِ إلَيْهِمُ. ولَهُمْ على الخطبِ الجليل لجَامُ. وهؤلاء أَهْلُ الرسُوخ والتمكين. جَعَلَنَا اللَّهُ منهم آمين.

التَّلْوِينُ والتَّمْكِينُ: التلوين هو الانتقال من حالٍ إلى حالٍ. ومن مَقامٍ إلَى مَقّام. وقد يسقط ويقومُ. فإذا وَصَلَ إليه صريح العِرْفَانِ. وتمكَّنَ من الشهود، فَصاحب تمكينٍ. فصاحب التلوين أبَداً في الزيادة. وصاحب التمكين، وصل وتمكَّنَ. فانتهاء سَيْرهم، الظفر بنفوسهم، فإذا ظَفَرُوا بِها فقد وصَلُوا. فانخنَسَتْ أوصاف البشرية. واستولى عليها سلطان الحقيقة. فإذا دَامَ ذلِكَ للعَبْدِ؛ فهو صاحب تمكينٍ. وقد يكون التلوين بعد التمكين. ومعناه: النزول في المقاماتِ، كنزولِ الشمس في بُرُوجِهَا. فَيَتَلَوَّنُ العارفُ مع المقادِيرِ، ويدورُ مَعَها حيث دَارَتْ. ويتلوَّن بِتَلَوُّنِ الْوَقْتِ. فيكون بين قَبْضٍ وبسْطٍ، وقوة وضعفٍ. ومَنْع وعَطَاء وسُرُور وَحُزْنٍ. وغيْر ذلِكَ مِنْ تقلّبات الأحْوَالِ. غيْر أنه مالِك غيْر مملوك. لا يتغيَّر بتغيّر الأحوال. وَلاَ يتأثّر بالزّلازل والأهْوالِ. والله تعالى أَعْلَمْ.

الْقُرْبُ والْبُعْدُ: القرْب كنَاية عن قرْب العبْد من ربِّهِ، بطاعتِهِ وتَوْفِيقِهِ؛ وهو على ثلاثِ مَرَاتبَ: قرْب بالطَّاعَةِ وتَرْكِ الْمُخَالَفَةِ. وقرْب بالرياضة والمجاهدة. وقرْب بالوصولِ والمشاهدة. فقرْب الطالبينَ بالطَّاعَةِ. وقرْب المريدين بالمجاهدةِ. وقرْب الواصلِينَ بِالمشاهدة. فَأَول البُعْد: البُعْد عن التوفيق. ثم البُعْدُ عن سلوك الطريق. ثم البُعد عن التحقيق. وفي الحديث القدسِي عن الله عَزَّ وجَلَّ، يقول: «**مَا تَقَرَّبَ إليَّ الْمُتَقَرِّبُونَ، بِمثل أَدَاءِ مَا افْتَرضته عليهم. وَلا زال العبد يتقرَّبُ إليَّ بالنَّوَافِلِ حتَّى أُحِبَّهُ. فإذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنتُ له سَمْعاً وبَصَراً**». الحديث. وفي حديث آخر: «**فَإذا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُهُ**». فقرب العبد من ربهِ: إنحِيَاشه إليهِ بِقلبِه. وقَرْب الحق من عَبْدِهِ، تغييبهُ عن وجوده الوهمي. وكشف الحجاب عن عَيْن بَصِيرَتِهِ حتى يرى

الحقَ أقربَ إليه من كل شَيْءٍ. ثم يغيب القرْب في القرْبِ. فيتَّحِد الْقَرِيبُ والقرْب والمحبّ والحبيبُ كما قال القائل:

أَنَــا مَــنْ أَهْــوَى، ومَــنْ أَهْــوَى أَنَــا

وكما قال الششتري:

أَنَـا الـمُـحِـبُّ والـحـبِـيـبُ مـا ثَـمَّ ثَـانِـي

الشَّرِيعَةُ والطَّرِيقَةُ والْحَقِيقَةُ: الشريعة: تكليف الظَّوَاهِرِ. والطريقة: تصفية الضمائر. والحقيقة شهود الحق في تجليات المظاهر. فالشريعة أَنْ تعبُدهُ. والطريقة أنْ تقصدهُ. والحقيقة أَنْ تَشْهَدَهُ. فلمَّا تجلَّى الحق بيْن الضِّدّيْن. تجلى بمظاهر عظمة الرُّبوبية. في قوالبِ العبُودية، ظَهَرَت الشريعة والحقيقة. فشهود العظمة من حيْث هي: حقيقة. والقيام بِآدَابِ القوالِبِ عبادة. وعبودية شريعة. وأما الطريقة فهي إِصْلاح الضَّمَائِرِ، لتتهيَّأ لإشراق الحقائق عليْهَا.

فالشريعة لإصلاح الظواهر، والطريقة لإصلاح الضمائر، والحقيقة لتزْيينِ السَّرائر. ويُقَالُ: الشريعة عيْن الحقيقة. من حيْث أنها وَجَبَتْ بِأمرِهِ. والحقيقة عَيْنُ الشريعة مِنْ حيثُ أنها مكلف بِهَا من قبل الشريعة. وقد تطلق عندهم الشريعة، على كل ما يتوصل به إلى شيْءٍ. أو يكون سَبباً في إدراكِهِ. فالأسْبَابُ كُلُّهَا شرائعُ. والمَقاصد كلها حَقائق. فالحِسُّ شريعة المَعْنَى. إذ بِهِ قُبِضَتْ، والمجاهَدَة شريعة المشاهدةَ. والذّلّ: شريعة العِزِّ، والفقر: شريعة الغِنَا. وهكذا. والحرث والغَرْسُ شريعة جَنْي الثمار. ولذلكَ يقولون: مَنْ غَرَسَ الشرائع، أَثمَرَتْ له الحقائق. ومن غَرَس الحقائق، أثمرتْ له الشرائع. أي أَخْرَجَتْهُ إلى الرجوع إلى الشرائع. وفي ذلِك يقول الشاعِرُ:

ثَـمَـارَ مَـا قَـدْ غَـرَسْـتَ تَـجْـنِـي وَهَـذِهِ عَـادَةُ الـزَّمَـانِ

الذَّاتُ والصِّفَاتُ: اعْلمْ أَنَّ الحق جلَّ جلاله، ذات وصفات في الأزلِ وفي الأبَدِ. أَعْنِي قبل التجلِّي وبعدهُ. إذْ صِفَاته قديمة بِقدَم ذاتِهِ. والصفة لاَ تفارق الموصوف. فحيْث تجلَّتِ الذَّات. فالصفاتُ لاَزمة لهَا. فَالذَّات ظاهرةٌ، والصفات باطنَةٌ. والمراد بالصفات: صفات المعاني؛ وسائر أوصاف الكَمَال. فكل ما وقع به التجلِّي والظهور، فهو بيْن ذاتِ وصفات. الذَّات لاَ تُفَارِق الصفات. والصفات لاَ تفارق الذات. وهذا التلازُمُ الذي بيْنهما في الوجود؛ هو الذِي قَصَدَ من قال:

الذَّات عيْن الصفات. أي مظهرهما واحد. كما قالوا: الحِسُّ عيْن المَعْنَى. أي اتَّحَدَ مظهرهما. قال بعض المشارقة، في بعضِ أزجالِهِ:

يـا واردَ الـعَيْـن إنْ حقَّقـتَ زَالَ الـشَـك الذَّاتُ عَيْن الصفاتِ مَا فِي الْمَعَانِي شك

وَلاَ يَصُدَّنك عن شهود الذَّاتِ رداءُ الحِسِّ المنشور على وجه المعاني. فإنَّ هَذَا الأمر من مدارك الأذواق والوِجْدَان. لاَ من طريق دليل العَقل والبُرهان. ولِلَّه دَرُّ ابن الفَارض حين يقول:

فَـثَـمَّ وراءَ الـنَّـقْـلِ عِـلْـمٌ «يَـدقُّ عَـنْ» مَـدَارِكِ غَـايَـاتِ الـعـقـولِ الـسَّـلِـيـمَـةِ

واعلم أنَّ الذَّاتَ لاَ تتجلَّى إلاَّ في مَظَاهِر الصفاتِ. إذْ لَوْ تجلَّتْ بِكَ وَاسطة لاَضْمَحلَّت المُكَوَّنَاتُ وتلاشَتْ. ولذلك يقولون: تجلّي الذات جلالي. وتجلّي الصفات، جَمَالِي؛ لأنَّ تجلِّي الذات بِلا واسطةٍ، يُمْحقُ ويُحْرق. كما في الحديث. وتجلّي الصفات يكون بالأثرِ. فيكون معه الشهود والمعرفة؛ فهو جمالي. ثم تَواسعوا فأطْلقُوا على كلِ ما هو جلالي ذات. وعلى كلِ ما هو جمالي صفاتٌ على سبيل التشبيه. فَقَالُوا: الفقر ذات. والغِنَا صفاتٌ. الذُّلُّ ذات. والعِزّ صفات. الصَّمْتُ ذَاتٌ. والكَلامُ صفاتٌ. وهكذا. وَهَذا الاصطلاح، ذكره شيخ شيوخنا، سيِّدي عَلِي الجَمَل العمراني رضي اللَّهُ عَنْهُ فِي كِتابِهِ: وَلاَ أَدْرِي هَلْ سُبِق به أَمْ لاَ.

الأَنْوَارُ والأَسْرَارُ: الأنوار عبارة عمَّا ظَهَر من كثائف التجليات. والأسْرَارُ: عِبَارة عمَّا بَطِن فيها من المَعَانِي اللطيفة. فالأسرار أرَقّ مِنَ الأنوارِ للذَّاتِ. والأنوار للصفاتِ؛ لأنها أثرُها. فالذَّات بَعْدَ التجلّي، بيْن أَنْوَار ظَاهِرَة، وأَسْرَار باطِنَة. وأما في حال الكَنْزِيَة، فَمَا كَانَ إلاَّ الأسرارِ. فَالْجَبَرُوتُ كُلُّهُ أَسْرَارٌ. والمَلكوتُ أَنْوَارٌ. والمُلْكُ أغيار وأَكْدَارٌ. فالوجود واحِدٌ. فَمَن نظر إلى باطِنِهِ، لم يَرَ إلاَّ الأسرار ومن نظر إلى ظاهره بعَيْن الجمع، لم يَرَ إلاَّ الأنوارِ. ومن نظرهُ بِعَيْنِ الفَرْق، لم يَرَ إلاَّ الأغيار. جَمْع غَيْر بالسكونِ. ومن شغله عن التوجه إلى الله بتشغِيبِهِ وأَهْوَاله، كَان في حقل انجدار. وإنما سمّيت تجليات الحقّ أنواراً على وجه التشبيه. لأنه من شأن النور أنْ يكشف الظلمة ويُذْهبَهَا. وكذلكَ تجلّي الحقّ، يكشف عن ظلمة الجَهْلِ، ويظهر العلْم بِهِ. ولذلكَ قالوا: العلم نورٌ، والجهل ظلمة على وجه الاستعارة. وأما السِّرُّ فهو الأمر الخفي الذي لا يُدرَكُ. فلذلكَ قالوا في حق الخمرية الأزلية. والمعاني القديمة أَسْرَاراً. وسمُّوا الأرواح بعد التصفية أسراراً.

لأنها لمَّا تصفَّتْ رجَعَتْ لأصْلِهَا؛ وهي قطعة مِنَ السِّرِّ الجَبرُوتي القديم. فإذا اسْتَوْلتْ على الأشباحِ، رجعَ الجميع قديماً. والله تعالى أَعْلَمُ.

وأَمَّا الضمائر والأسْرَارُ، فقيل معناهما واحدٌ. وقيل السَّرائر أرق وأَصْفى. كَما أَنَّ الروح أرق من القلبِ؛ لأنَّ الضمائر: كل ما خفي في الباطن. خيراً أو شرّاً. والسَّرَائر كَمن في المحاسن. والتحقيق: أنها شيء واحدٌ. عبارة عَمَّا كَمُنَ فِيهِ البَاطِنِ من العقائد والنيات بدليل الآية: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ والله تعالى أعلم.

النَّفَسُ: بالتحريك: قال القشيري، يعنُون بِهِ ترويح القلوبِ، بلطائف الغيوب. فصاحب الأنفاس أَرفع من صاحب الأحوال، ومن صاحب الوقتِ. فكَأَن صاحبَ الوقتِ مُبْتدىءٌ. وصاحب الأنفاسِ منتهيٌ. وصاحب الأحوال بيْنهما. فالأوقات لصاحب القلوب. والأحوال لصاحب الأرواح. والأنفاس لأهل السَّرَائر. قُلْتُ: النَّفَسُ: أَدَقُّ مِنَ الوَقْتِ. فحِفْظ الأوقاتِ من التَّضْييع لِلْعُبَّادِ والزُّهَادِ. وحفظ الأنفاسِ للعَارفينَ الواصلينَ، واستعمال الأحوال للمريدين. والمراد بحفظِ الوقت: حضور القَلْبِ فيه. وبحفظ النَّفَسِ، حضور السِّرِّ في مشاهدة الحق. يُقال، فلانٌ طابَتْ أنفاسه، إذا صَفَا مشربهُ من عيْن التوحيدِ؛ من كدورة الأغيَارِ. فقوله في حدِّ النَّفَس: ترويح القلوب، أي خروجها من تَعَبِ العِسَّة، ودوام المراقبة؛ إلى راحة المشاهدة. مما يَبْدُو لَهَا من لطائف أَسْرَار التوحيد، وفضاء الشهود. ثم قال القشيري: وقالُوا: أفضل العِبَادة حفظ الأنفاسِ. أي دوام الفكرة والنظرة. كما قال الشاعر:

مِنْ أَحْسَنِ المَذَاهِب سُكْرٌ على الدَّوام
وأكمل الرَّغائب وَصْلٌ بِلاَ انْصِرَامِ

قال أَبو عليّ الدَّقاق: العارفُ لاَ يَسْلَمُ لَهُ النَّفَسُ، أي تضييعه. إذ لاَ مُسَامحة تجْري مَعَهُ. والمُحِبُّ لاَ بُدَّ لَهُ مِنَ النَّفَسِ، إذ لَوْلاَ ذَلِكَ لتلاشَى. لعَدم طاقتِهِ فالْعَارِفُ، لمَّا اتَّسَعَتْ مَعْرِفَتُهُ، سَهُلَ عليه حفظ أَنْفَاسِهِ، لسُهُولة حُضُورِه، وتمَكُّنِ شهودِهِ، بخلافِ المُحِبِّ. فَلِضِيْقِ حالِهِ، لاَ يستطيع دَوَامَ حُضُورِهِ فِي خِدْمَتِهِ. وعلى تقدير سُهُولِها عليها، لفنائه فِيهَا. وقد تخلّ بشريتهُ. ولذلكَ قال عليه الصلاة والسلام: «**رَوِّحُوا قُلُوبَكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْمُبَاحِ**». أوْ كما قال ﷺ لحَنْظلةَ والصّدّيق: «**لَوْ تَدُومُونَ كما تكونُونَ عِنْدِي لَصَافَحَتْكُمُ الملائكة. ولكِن سَاعة بِسَاعَةٍ**».

الْفِكْرَةُ والنَّظْرَةُ: الفِكْرَة جَوَلاَنُ الْقَلْبِ، في تَجَلِّيَات الرَّبِّ. وقال في الحِكَمِ:

هي سَيْر القلب في مَيَادِين الأغيَار. وهذه فِكرة الطَّالِبينَ. وفَكرة السَّائِرينَ. سَيْر القلبِ في مَيَادِينَ الأنوار، وفكرة الواصلينَ: سَيْر الرّوح في ميادِين الأسرار. وترجع إلى فِكْرَتَيْنِ: فِكْرَةٌ تصديق وإيمَانٍ؛ وهي لأهل الاعتبار، من عامَّة أَهْلِ اليمين، وفِكرة شهود وعيَانٍ. وهي لأهلِ الاسْتِبصارِ، من نجبَاءِ المريدينَ، وخاصَّة العارِفينَ المتمكِّنين؛ وهي سِراج القَلْبِ، فإذا ذهبَتْ فلا إضاءة لهُ. وهي سَبَبُ الْغِنَا الأكْبَر؛ وبِها يتحقق السَّيْرُ، ويَحْصُل الوصول. فَمَنْ لاَ فِكْرَةَ لهُ. لاَ سَيْرَ لَهُ. وَمَنْ لاَ سَيْرَ لهُ، لاَ وُصُولَ لَهُ. وكَان شيخنا البُوزَيْدي رضي الله عنه يقولُ: الفقيرُ بِلاَ فِكْرَةٍ، كالخيَّاطِ بِلاَ إبْرَةٍ. وأمَّا النظرة؛ فهي أَرَقُّ مِنَ الفِكْرَةِ وأَرْفَعُ. لأنها مَبْدَأُ الشهودِ. فالجَوَلانُ في الأكوَانِ، وهدمها وتلطيفَها فِكْرَةٌ. والنظر في نفسِهِ أو غيرِهِ من التجليات. وغيبته عنها بشهودِ الحقِّ نظرةٌ. فإن تمَكَّنَ مِنَ الشُّهُودِ ودامَ فيهِ. سُمِّي العكوفُ في الحَضْرَةِ. ولذلك يُقَالُ؛ أوّل المَقَاماتِ ذِكرٌ. ثم فكرة، ثم نظرة، ثم عكوف في الحَضْرَةِ. والله تَعَالَى أَعْلَمُ.

الشَاهِدُ: قال القشيْري: قد يجري في كَلاَمِهِمْ: فلانٌ بِشَاهِدِ العلم. وفُلاَنٌ بِشاهِدِ الْوُجْد، وفلانٌ بِشاهِدِ الحالِ. ويريدون بلفظ الشاهِدِ: ما يكون حاضر قلبِ الإنْسَانِ. وَمَا هُوَ غَالِبُ ذِكرهِ؛ لأنه يراهُ ويُبْصِرُهُ. وإن كَانَ غائباً عَنْهُ. وكل ما يسْتَولي على قَلْبِ الإنسَانِ فهو شاهدهُ. فإن كان الغالب عليه ذِكر الْعِلْم: فهو بشاهِدِ الْعِلْمِ. وإنْ كَانَ الغَالِبُ عليه الْوُجْدُ؛ فَهُو بِشاهِدِ الْوُجْدِ. وَمَعْنَى الشاهد: الحاضر. فكل ما هو حاضِرُ قلبِكَ؛ فهو بشاهِدكَ.

الْخَمْرَةُ والْكَأْسُ والشَّرَابُ: أمَّا الخَمْرَة، فقد يطلقُونَها على الذَّاتِ العَلِية قَبْلَ التجلِّي. وَعَلى الأسْرَارِ القائمة بالأشياءِ بعد التجلّي. فيقولون: الخمْرَة الأزلية تجلَّتْ بِكَذَا. ومِنْ نعتها كَذَا. وقامَتْ بِها الأشياء، تَستراً على سِرِّ الرّبوبية. وعليها غَنَّى ابن الفارضِ في خمريته. وإنما سمَّوها خمرية؛ لأنَّها إذا تجلَّتْ للقلوبِ غابَتْ عَنْ حِسِّهَا، كما تغيب بالخمْرَةِ الحسّية. وقد يطلقونها على نفس السّكْر والوجد والوُجْدَانِ. ويقولونَ: كُنَّا في خَمْرَةٍ عظيمَة، أي في غيْبَة عنِ الإحْسَاسُ كبيرة. وعلى ذَا غَنَّى الشُشتري حيْث قال:

خَمْرُهَا دُونَ خمْرِي ... خَمْرَتِي أزَلِيَّهْ

أيْ سُكر خَمْرَةِ الدّوالِي دون خَمْرَتي. وأمَّا الكَأْسُ الذي تُشربُ منه هذه الخمرَة، فهو كناية عن سُطُوعِ أَنْوَارِ التجلّي على القلوبِ، عِنْدَ هَيَجَانِ المحبَّة،

فَتُدْخِلُ عَلَيْهَا حَلاَوة الْوُجْد حتى تغيبَ. وَذَلك عِنْدَ سَماعٍ أَوْ ذِكْرٍ أَوْ مُذَاكرةٍ. وقيل: الكَأْس هو قَلْبُ الشيخ: فقلوب الشيوخ العارفينَ كؤوس لهذه الخمرة، يسْقونها لمَن صحبَهم وأَحَبَّهُمْ. والشُرْب حضور القَلْب، واستعمال الفكرة والنظرة. حتى تغيب عن وجودكَ في وجودِهِ؛ هو السكر. فالشرب والكأسُ متَّصلانِ في زمن واحد في هذه الخمرَة. بخلافِ خمْرة الدّنيا. وقال القطبُ بن مشيش: المَحَبَّةُ آخِذَةٌ مِن اللَّهِ قَلْبَ مَنْ أَحَبَّ، بما يُكْشف لهُ من نُورِ جمالِهِ، وقدسِ كَمَال جلالِهِ. وشَرَاب المحبّة: مَزْجُ الأوصافِ بِالأوصَافِ، والأخلاق بالأخلاق. والأنوار بالأنوار، والأسماء بالأسماءِ. والنعوتِ بالنعوتِ. والأفعال بالأفعالِ. ويتسعُ النظر لمَن شاءَ الله عَزَّ وَجَلَّ. والشرابُ يسْقي القلوبَ والأوصالَ والعروق من هذا الشربِ. ويكون الشرب بالتدريبِ بعد التدريب، والتهذيب. فيسقى كل على قدرهِ. فمنهم من يُسْقَى بِغَيْرِ واسطةٍ. والله يتولّى ذلكَ منهُ. قلت: وَهَذَا نَادِرٌ. ومنهم من يسْقَى مِن جهة الوسائِطِ، كالملائكة والعلماءِ، والأكابر من المقرَّبينَ. ثم قال: والكأس مغرفة الحق، يُغرف بها من ذلكَ الشراب الطهور المَحْضِ الصَّافِي لمَن شاء من عباده المخصوصينَ، إلى آخر كَلاَمِهِ. وقد فَسَّرْنَاه في شرح الخمرية.

الْمُرِيدُ وَالْفَقِيرُ، وَالْمُلاَمِتِي والْمُقَرَّبُ: أَمَّا المريد: فهو الذي تعلقَتْ إرَادتُه بمعرفَةِ الحقِّ، وَدَخَل تحْتَ تَرْبِيَةِ المشايخ. وقد تَقَدَّمَ. وأَمَّا الفَقِيرُ. فهو الَّذي افتقر مما سِوَى الله، ورفَض كل ما يُشغله عَنِ اللَّهِ. ولذا قالوا: الفقيرَ لا يَمْلِك وَلاَ يُمْلَكُ. أي لاَ يَمْلِك شيئاً، وَلاَ يملكهُ شَيْءٌ. فهوَ أَنْصَفُ من المريدِ وأَخَصُّ؛ لأَنَّ المريدَ قَدْ يكونُ من أَهْلِ الأَسْباب. وقيل: الفقير هو الذي لاَ تُقِلّه الأرْضُ، وَلاَ تُظِلُّهُ السَّمَاءُ. أي لاَ يحصرهُ الكَوْنُ، لرَفع هِمَّته. ونفوذ بصيرته. وقال بَعْضهُمْ: شروط الفقير أَرْبَعَةٌ:

رَفْعُ الهِمَّةِ، وحسْنُ الخِدْمَةِ، وَتَعْظِيمُ الْحُرْمَةِ، ونُفُوذُ الْعَزِيمَةِ. وأَمَّا المُلاَمِتي: فَقَالُوا: هو الَّذِي لاَ يُظهر خيْراً. وَلاَ يُضمِرُ شرٌّ. أي هو الَّذِي يخفِي بيتهُ، ويظهر من الأحوالِ، ما يُنفر النَّاس عنْهُ. والمُقرّبُ، هو المحقق بالفَنَاءِ والبقاءِ. وقال بَعْضُهُمْ: الفقر والمُلاَمة والتقريب، أنواع من التصوف ومُرَاتبُ فِيه. فَإِنَّ الصُوفِي هو العامل في تصفية وقتِهِ، ممَّا سِوَى الحقّ. فإذا سَقط ما سوى الحق من يدهِ فهو الفقيرُ. وإِنْ كَان لاَ يُبَالِي بالنَّاس، وَلاَ يُظهر خَيْراً، وَلاَ يُضْمِرُ شرًا، فَهُوَ المُلاَمِتي. والمقرَّبُ: مَن كَمُلَتْ أَحْوَالُهُ. فَكَان بِرَبِّهِ لِرَبِّهِ، ولَيْسَ لهُ عن سوَى الحقّ أخبَار، وَلاَ مع غَيْرِ اللَّهِ قرارٌ.

الْعُبَّادُ والزُّهَّادُ والْعَارِفُونَ: هذه أَلْفاظ، مَعَانِيهَا متقاربة. يجمعها معْنَى التصوف في الجملةِ؛ الذي هو قصد التوجه إلى الله تعالى. إلاَّ أَنَّ مَنْ غَلَبَ عليه العملُ كَانَ عَابداً، ومَنْ غلَبَ عليه الترك، كَان زاهِداً. ومن وصل إلى شهود الحق ورسَخَ فِيهِ، كَانَ عَارفاً. . فَالْعُبَّاد والزُّهَّاد، شَغَلَهُمْ بِخِدْمَتِهِ. إذْ لَمْ يَصْلُحُوا لصريح معرفتِهِ. والعارفُونَ شَغَلَهُمْ بِمَحَبَّتِهِ. ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾.

الصَّالِحُونَ والأَوْلِيَاءُ، وَالْبُدَلاَءُ، والنُّقَبَاءُ، والنُّجَبَاءُ، والأَوْتَادُ، والْقُطْبُ: أَمَّا الصالحونَ، فَهُمْ مَنْ صَلُحت أَحْوَالُهُمُ الظَّاهِرَةُ، واستقامَتْ أَحْوَالُهُمُ الباطِنة. وأَمَّا الأولياء: فهُم أَهْل العلم بِذلِكَ، على نَعْتِ العِيَانِ مِنَ الْوَلْيِ: وهو القرْبُ، وقيل: مَنْ تَوَالَتْ طَاعَتُهُمْ، وتحقَّقَ قُرْبُهُمْ، وَاتَّصَلَ مَدَدُهُمْ. وأَمَّا الْبُدَلاَءُ: فَهُمُ الذينَ اسْتَبْدَلُوا المَسَاوىء بِالمحَاسِنِ. واسْتَبْدَلُوا صِفَاتِهِمْ بِصِفَاتِ مَحْبُوبِهِمْ. وأَمَّا النقباءُ: فَهُمُ الَّذِينَ نَقَّبُوا الكَوْنَ. وخَرَجُوا إلى فضاءِ شهودِ المكَوِّنِ. وأَمَّا النُّجباء. فهم السَّابِقونَ إلى اللَّهِ، لِنَجَابَتِهِمْ؛ وهم أَهْل الجِدِّ والقَرِيحَة من الْمُرِيدينَ. وأَمَّا الأَوْتَادُ: فَهُمُ الراسِخُونَ فِي مَعْرِفَةِ اللَّهِ. وهم أَرْبعة. كأنهم أَوْتَاد لأَركان الكَوْنِ الأَرْبَعَةِ. وأَمَّا القُطْبُ: فهو القائم بحقِّ الكَوْنِ والمُكَوِّنِ؛ وهو واحد. وَقَدْ يُطْلَق على مَنْ تحقق بمقام. وعلى هَذَا، يتعدد فِي الزَّمانِ الواحد أَقطابٌ في المقاماتِ والأَحْوَالِ والعلوم. يُقال: فلان قطب في العلوم. أو قطب في الأحوال أو قطبٌ فِي المَقَاماتِ. إذا غَلَبَ عليه شَيْءٌ مِنْهَا. فإِذَا أُرِيدَ المقامُ الذي لاَ يتصف به إلاَّ واحد، عُبِّرَ عَنْهُ بِالْغَوْثِ؛ وهو الَّذِي يصل منه المَدَد الرّوحانِي إلى دوائر الأولياءِ من نَجِيبِ ونَقِيبِ، وأوتاد، وأَبْدال. وله الإمامَة والإرْثُ، والخِلاَفة الباطنة، وهو روح الكَوْنِ الَّذِي عليه مَدَارُهُ. كما يسيْرُ إلى ذَلِكَ. كوْنه بمنْزِلَةِ إنسانِ العَيْنِ مِنَ العَيْنِ. وَلاَ يعرف ذلكَ إلاَّ مَن لَهُ قِسْط وَنَصِيبٌ مِنْ سِرِّ البَقَاءِ بِاللَّهِ. وأَمَّا تَسميته بِالغَوْثِ، فمِنْ حيْث إغاثَتُهُ الْعَوَالِمَ بمادَّته وَرُتْبَتِهِ الْخَاصَّة. وله عَلاَمَاتٌ يُعْرَفُ بِهَا. قال القطب الشهير، العَلامة: أَبُو الحَسَن الشَّاذِلِي رضي اللَّهُ عَنْهُ: للقطبِ خَمْسَةَ عَشَرَ عَلاَمَة. فَمَنِ ادَّعَاهَا، أو شيئاً منْهَا، فليبرزْ بمَدَدِ الرَّحْمَةِ وَالْعِصْمَةِ والخلافَةِ والنيابَة، ومدد حَمَلة العرْشِ العَظِيم، ويكشف له عن حقيقة الذَّاتِ، وإحاطةِ الصفاتِ، ويُكْرَم بِالحُكْمِ والفعْلِ بيْنَ الوُجُودَيْنِ، وانفصالِ الأول عن الأوَّلِ. وما انْفَصَل عنه إلى منتهاهُ، وما ثبت فيهِ. وحُكْمُ مَا قَبْلُ، وَحُكْمُ ما بَعْدُ. وعِلم البَدءِ؛ وهو العِلْمُ المحيط بِكلِّ عِلْمٍ، وبكل معلومٍ. وما يعود إليه. فَالْعَلاَمَةُ الأولى:

أن يكونَ متخلقاً بأخلاقِ الرَّحمةِ، على قَدَمه مَوروثِهِﷺ، صاحب حِلْم ورأفَةٍ، وشفقةٍ وعَفوٍ وعقل ورزانة، وجود وشجاعَةٍ. كَمَا كان مَوروثه ﷺ.

والعلامةُ الثانية: أَنْ يُمَدَّ بِمَدَدِ الْعِصْمَةِ؛ وهي الحفظ الإلَهي، والعصْمَة الرَّبَّانية، كَمَا كَان موروثهُ ﷺ. غَيْرَ أَنَّهَا فِي الأنبياءِ واجِبَةٌ وفي الأولياء جائزة. ويُقال له: الحفظ. فلا يتجاوَز حداً، وَلاَ ينقض عَهْداً.

والثالثةُ: الخِلاَفةُ: وَهُوَ أَن يكونَ خليفة الله فِي أَرْضِهِ، أَميناً عَلَى عِبَادِهِ، بِالخلافَة النَّبوِيَّةِ، قد بَايعتْهُ الأَرْوَاحُ، وانقادَتْ إليه الأَشْبَاحُ.

والرَّابِعَةُ: النيابَةُ: وهو أَنْ يكُونَ نائباً عَنِ الحقِّ، في تصريف الأحْكَامِ. حسبَمَا اقتضته الحِكمَة الإلَهيةَ. وفي الحقيقة، مَا ثَمَّ إلاَّ القدْرة الأزليةِ.

والخَامِسَة: أَنْ يُمَدَّ بِمَدَدِ حَمَلَةِ الْعَرْشِ، من القوة والقرْب، فهو حامل عَرْش الأكْوَانِ، كَمَا أَنَّ الملائكة حاملة عَرْش الرحْمَن.

والسَّادِسَة: أَنْ يُكْشَفَ له عن حقيقة الذَّاتِ. فيكون عارفاً باللَّهِ معرفَةَ العِيَانِ. وأَمَّا الجَاهِلَ بِاللَّهِ، فَلاَ نَصِيبَ لَهُ فِي القُطْبَانية.

والسَّابِعَة: أَنْ يُكْشَفَ له عَنْ إحَاطَةِ الصِّفَاتِ بالكَائِنَاتِ. فَلاَ مُكَوِّن، إلاَّ وهو قائم بالصفاتِ، وأَسْرَار الذَّاتِ. ومعرفة القطبِ بإحاطة الصفاتِ، أَتَمُّ مِنْ غَيْرِه لأنها في حقه ذَوْقية لا عِلمية.

والثامِنَةُ: أن يكرم بِالحكْم والفَصْل بيْن الوجودَيْن. أي بيْنَ الوجود الأول قبل التجلّي؛ وهو المعَبَّرُ عنه بالأَزَلِ. وبِالكَنز القديم. وبَيْنَ الثاني؛ وهو الذي وقع فيه التجلّي. والفَصْل بيْنهما أن يُعْلَم، أَنَّ الأول ربوبية بلا عبودية، ومعْنًى بلا حسٍّ، وقدرة بِلاَ حِكْمَة. بخلاف الثاني. فإنه متصفِ بالضدّيْنِ: ربوبية وعبودية، ومعنى وحس، وقدرة وحِكمِة، ليتحقق فيه اسْمُهُ الظَّاهر، واسْمُهُ الباطِن. فالضدَّان خاصَّة بِالقبضة المتجَلِّي فيهَا. وأَمَّا الْعظمة المُحِيطة بِهَا، الباقية على كَنْزيتها؛ فَهِيَ باقية على أَصْلهَا فَافْهَمْ.

والتاسعة والعَاشِرَة: أن يَكْرمَ بالحُكْمِ، بانفِصَال الأولِ عَنِ الأَوَّلِ. والمراد بانفِصَالِ الأولِ، انْفِصَالُ نور القَبْضة، عَن النُّورِ الأزلي الكَنْزِي، وهو بَحْرُ الجَبَرُوتِ. والمراد بما انفَصَل عنهُ: ما تفرَّع من القبضة إلى مُنْتَهَاهُ، مِن فروع التجليات. أي في الحالِ، وأما في المَآلِ فَلا انتهاءَ لهُ؛ لأنَّ تجلياتِ الحقِّ لاَ

تَنقطع أَبَداً. فإِذَا انقضَى هَذَا الوجود الدّنيوي، تجلّى بِوُجُودٍ آخَرَ أُخْرَوِي وَلاَ نِهَايَةَ لَهُ.

والْحَادِيَةَ عَشَرَ: أَنْ يعلم ما ثبت في المنفصلاتِ. مِنَ المَزَايا والكراماتِ. أَو ضِدِّ ذلك: يَعْنِي فِي الجُمْلَةِ. وأَمَّا التفصيل، فَمِنْ خَصَائص الرُّبوبية.

والثانيَة عَشَرَ: أَنْ يَعلم حُكْم ما قبل. أيْ ما قبل التجلّي. وحُكْمُهُ: هو التنزيل المطلقُ؛ لأنه بَاقٍ على كَنْزِيتهِ. لَم تدْخله الضدَّانِ.

والثالثة عَشَرَ: أن يعلم حُكْم ما بَعْدَ: أيْ يَعْلَمُ مَا لاَ قَبْلَ لَهَا وَلاَ بَعْدَ لَهَا؛ وهي الخَمْرَة الأزلية. والذَّاتِ الأصلية. كَمَا قال ابن الفارض:

فَلاَ قَبْلَهَا قَبْلٌ وَلاَ بَعْدَهَا بَعْدٌ وَقَبْلِيَةُ الأبْعَادِ هِيَ لَهَا حَتْمُ

وَالْخَامِسَةَ عَشَرَ: أَنْ يَطَّلِعَ على عِلْم البَدْءِ، والمراد عِلْمُه تعالى الأزلي، السابق للأشيَاءِ قَبْلَ أن تكون؛ وهو المحيطُ بكل علم وبكلِّ معلوم. إذ لاَ يخرج تعالى عن علمه شيْء، وكل علم وكل معلوم يعود إِلَيْهِ؛ وهذا هو سِرُّ القَدَرِ. فقد يكاشف القطبُ على جُزْءٍ مِنْهُ، وَلاَ يشترط إحاطته بكلية الأشياءِ وجُزئياتها؛ لأن ذلك من وظائف الرّبوبية. وإنما يطلعهُ الله تعالى على جُزئياتٍ من نَوْع مَخْصُوصٍ وقد أشار الشيخ أبو العبَّاسِ المِرْسي ـ رحمه الله تَعَالى ـ إلى شيءٍ من ذلك فقال: مَا مِنْ وليٍّ لله كَانَ، أَوْ هو كَائِن، إلاَّ وقد أطلَعنِي اللَّهُ عليه، وعلى اسْمِهِ ونَسَبِهِ، وحظه من الله تعالى. وقال آخرُ: ما مِنْ نطفَةٍ تَقَعُ في الأرْحَام، إلاَّ وقد أَطلعَنِي اللَّهُ عليْهَا؛ وما يكونُ مِنْهَا من ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى. وهذا من جملة الكَرامات التي أتحف الله بِهَا أَولياءَهُ. وَقَدْ يَكُونُ قُطباً وهو لم يطلع على شيءٍ من هذه الأمورِ إلاَّ أنه عارف باللَّهِ، راسخ القدَم في المَعْرِفَةِ. وإذَا أَرَادَ اللَّهُ تعالى أَنْ يُظْهِرَ شَيئاً فِي مَمْلَكَتِهِ أَطلعه عَلَيْهَا. وقد لاَ يُطْلِعُهُ. وقد قال عليه الصلاة والسلامُ: **«والله لاَ أَعْلَمُ إلاَّ مَا عَلَّمَنِي رَبِّي». قال ذلِكَ حينَ ضَلَّتْ ناقَتُهُ. فَلم يَدْرِ أَينَ ذَهَبَتْ، فتكلمَ بعضُ المُنَافِقِينَ فِي ذَلِكَ، ثم أَعْلَمَهُ اللَّهُ تعالى بِهَا. وبالجملة: فالإطّلاعُ على الْمُغَيَّبَاتِ، من جملةِ الكراماتِ؛ وهي لاَ تشترط في الْوَلِيِّ، قطباً كَانَ أَوْ غَيْرَهُ. واللَّهُ تعالى أَعْلَمَ. وصَلَّى اللَّهُ عَلى سيدنا محمد وآلِهِ وصحبه وسلم تسْليماً.**

هَذَا آخِرُ ما جَمَعْنَاهُ من حَقَائِقِ التصوف، وشرح ما يَتَعَلَّقُ بكل حقيقة، جعلهُ الله خالصاً لوجْهِهِ الكريم. وأَدَامَ به النفع العميم. جامعه: أحمد بن محمد بنعجيبة الحسني. لطف الله به في الدارين آمين. وآخر دعوانا أن الحمد

لله رب العالمين. لله در العارف الجليل، والصوفي الشهير، القطب الكامل، سيدي ومولاي أحمد بن محمد بنعجيبة الحسني، رضي الله عنه، وقدس سرّه، وجعلنا على هدْيه آمين. ناقله هنا عبد ربه، وراجي عفوه، عبد السلام بن عبد السلام بن أحمد العمراني الخالدي. وكان الفراغ من نقله هنا، عَشية يوم الثلاثاء خامس شوال عام 1399 هجرية، الموافق الثامن وعشرين غشت سنة 1979م.

شرح خمرية ابن الفارض
رضي الله عنه

شَرحُ خَمْرِيَةِ ابْن الْفَارِض: الحمد لله الَّذي سَقى قلوب أَحِبائه، مِنْ مُدَامَة حُبِّهِ. فأَصبَحُوا من سكر محَبَّته مُتَوَلِّهين. غَيَّبهُمْ عَنْ شُهودِ غَيْرِهِ بدَوَاع شُهُودِ سِرِّه فأَضحوا في رِيَاضِ ملكُوتِهِ متنزِّهينَ. جَذب أَرْواحهُم بحَضْرَةِ قُدْسِهِ. فَصَارُوا في خَلَواتِهِمْ بِهِ متأنسين وهيَّأ أَسْرَارَهُم لحمْلِ أَعْبَاءِ مَعْرفته. فخَاضُوا في بِحارِ جَبَرُوتِهِ بِسُفُنِ أَفكارهم سَابِحِينَ. والصَّلاة والسَّلامُ عَلى مَنِ امْتدَّتْ مِنْ سِرِّ نَاسُوتِهِ الأَكوان. وأشرقَتْ مِنْ نُورِ لاَهُوتِهِ حقائق الْعِرْفان. وَرَضِي اللَّهُ تَعالى عَنْ أَصْحَابِهِ وأَهْلِ بَيْته الكِرَامِ. أما بعد كل شيءٍ وقَبْلَه فَعِلْم التَّوْحِيدِ مِنْ أَجَلِّ العُلُومِ وأَحَقّ ما تنفق فيه نتائج الفُهُوم. وكيْفَ لاَ ومَوْضوعه الذَّات العلية وأوصافها السَّنية وأَسْمَاؤها الزَّكية. وبه يقع الخلود في نَعِيم الجِنَانِ. والفَوْز بالقُرْبِ مِنَ الكَرِيم المَنَّانِ، وهو مُنْقسم على قسْمَيْن: تَوْحِيد الدَّليل والبُرْهان، وهو لعَامَّة أَهْلِ الإِيمانِ، وتوحيد الشهود والعيَان، وهو لخوَاصّ أَهْلِ الإِحْسَانِ مِنْ أَهْل الذَّوْقِ والوجْدان شَربوا كؤوس المحبَّة، فسكرُوا وغابوا عَنِ الوجُودِ. ثم صحوا من سَكْرَتِهِمْ فتمتَّعُوا بحلاَوة النَّظرة والشهودِ. فيَا لَهُ من شرَاب ما أَعْذَبَهُ ومِنْ مَنْهَلٍ مَا أَحْسَنَهُ، بَيْعُ النُّفُوس في إِدْرَاكِهِ حَقيرٌ، وبَذْل الأرواح والمُهج فِي نَيْلهِ نَزرٌ يسيرٌ. ولِلَّهِ دَرُّ القَائِلِ:

إنْ كَانَ سَفْكُ دَمِي أَقْصَى مُرَادُكُمْ فَمَا غَلَتْ نَظْرَةٌ مِنْكُمْ بِسَفْكِ دَمِي

ومِمَّنْ أَحْرَزَ السَّبْق فِي هَذَا المَيْدَانِ وكَانَ لهُ من هَذَا السِّرِّ الحظوة والشأن الأنبياء والرُّسل عليهم الصلاة والسلام. وأَعْظَمُهم في ذلك سيِّد الأنام نبيّنا عليه أفضل الصَّلاةِ وأَزْكَى السَّلام. إذ مِنْ بَحْرِ سِرِّهِ فاضَتْ أَسْرَارُهُمْ، ومِنْ شمس نُوره انفَلَقَتْ أَنْوَارُهُمْ، وكُلُّهُم مِنْ رسول الله مُلْتَمِسٌ غَرْفاً مِنَ البَحْرِ أَوْ رَشْفاً مِنَ الدِّيَم. ثم ورث عَنْهُمْ ذَلِكَ خَوَاصّ أوْليائِهِ، وصفوة أَحبائِهِ. جَاهَدوا نفوسَهُمْ بأنواع الرياضات، وكَابَدُوا فِي طَلَبِ مَحْبُوبِهِم أَقْصَى الغايات. صَدَقوا ربَّهم في المعاملاتِ، ورَفَضُوا الحُظُوظ والشَّهوات فَحَصلَ لهم الميراث العظيم بَعْد تحقيق

نِسْبة القَرَابة المعنوية. بيّنة شهوده عقد المحبَّة. وأَحْكَام رابطة الصّحبَة. وبروز نطفة العناية مِنْ صُلْب الوِلاَية، وعُلُوقها في مَشيمَة الإرادة، وظهور جنين السّعادة، ثم تربيته في عُشّ أَهْلِ المَعْرفة بيْن أَبوي المراقبة والمجاهدَة. ثم تغذيته بلبَن علم اليقين إلى أَوَان فِطامه بِشهُودِ رَبّ العالمينَ. فَهَذَا هو العلم الموروث عن الأنبياء عليهم السلام، لا التوحيد الذي يُنْتجه الدَّليل والبُرْهان ويَعْتَريهِ الزّيادة والنُّقْصَان، إذ قد تعرض له الشكوك والأوهامُ، التي هي محالٌ فِي حق الأنبِياءِ عَلَيْهِم السَّلاَمُ، ومنْ تحقق بهذا الميراث الرفيع، والسّر البديع، سلطان العشاق، وإمام الحذّاق العارف الرَّبَّاني والحبرَ الصمداني شرَف الدّين أبو جعْفَرِ عُمَر بن علي بن المرسف المعروف بابْنِ الفارض السَّعْدي الأصلِ المصري الدَّار والمولود والوفاة. كَان رضي الله عنه أعجوبة زمانِهِ وَفَرِيدَ عَصْرِهِ وأَقرانِهِ وُلِدَ رضي الله عَنْهُ سَنة ستّ وسبْعِين وخمسمائة بالقاهرة، وتوفي بِهَا سنة اثنين وثلاثين وست مائة. ودُفن بِسَفح المقطم خَارِج مِصر، وعليْه قبَّة عَظيمة، ومزارة شهيرة، نَفَعَنا الله ببركَاتِهِ. قال في الدِّيوان ناقلاً عن وَلد الشيخ؛ كانَ الشيخ رضي الله عنه معتدل القامة، جَميل الْوَجْهِ، مشوباً بحُمْرَةٍ، وإذا اسْتَمع وتواجد وغَلَبَ عليه الْحَال، يَزْداد وجْهُه جَمالاً ونوراً، وينحدر العَرق من جَسدهِ حتى يسيل إلى الأرض. وكَان عليه نور وجَلالة وهَيْبة، وكَان إذا حَضَر فِي مَجْلِسٍ يَظْهَرُ على ذَلِكَ المَجْلِس سكينة. وكَانَ يحضر مَجْلسهُ أكابر الدَّوْلَة مِنَ الأُمَرَاءِ، والوزراء، والقضاة، ورُؤساء النَّاسِ، وهُمْ في غاية مَا يَكُون مِنَ الأدَبِ والاتضاع لَهُ، وإذا خاطبوه كأنما يخاطبون مَلِكاً عظيماً. وإذا مَشى في المَدِينَة يَزْدَحِم النَّاس عليْه، يلتسمُونَ مِنْهُ البَرَكة والدُّعاء. ويَقصدُونَ تقبيل يدهِ فلاَ يُمَكّنُ أَحَداً مِنْ ذلِكَ بَلْ يُصَافِحهُ، وكَانت ثيابه حَسَنة، ورَائحته طيبة، وكان ينفق على مَن يرد عليه نفقة مُتَّسِعَة، ويعطي مِنْ يَدِهِ عَطَاءً جزيلاً، ولم يكُنْ يَتَسبَّبُ في شَيْءٍ مِنْ تحصيل الدنيا، وَلاَ يَقْبَلُ من أحدٍ شَيئاً. وَبَعَثَ إلَيه السلطان أَلْفَ دِينارٍ فَرَدَّها إليه. وسأله أن يُجَهِّز لَهُ قَبْراً عند أُمّه، فِي قُبَّة الإمام الشافعي رضِي الله عَنْهُ فَلَمْ يأذن له في ذلك، ثم سَأَلَهُ أَنْ يُجَهِّزَ له مكاناً يكون مَزاراً يُعرف بِهِ، فلم يَنْعَمْ له بذلك.

قال رضِي الله عَنْهُ: كُنتُ في أَوَّل تَجْريدي، أَسْتأذن والدي، وأَطْلع إلى وادِ المسْتَضْعَفِين بالجَبَل الثَّاني من المقطَّم وآوِي فِيهِ، وأُقيم في هَذِهِ السياحة ليْلاً ونهاراً، ثم أَعُود إلى والدي مِنْ أَجْلِ برّه، ومراعات قلْبِهِ، وكَان والدي يَوْمَئذٍ خليفة الْحكم العزيز بالقاهرة ومِصر، وكان من أكابر أَهْل العِلْم والْعَمل فيجد

سُروراً بِرُجوعي إلَيه، وَيُلْزمني الجلوسَ معه في مجالس الحُكْم ومَدَارس الْعِلْم، ثم أشتاق إلى التَّجريد، وأَسْتأذنه، وأَعُود إلى السياحَةِ. وما بَرِحْت أَفْعَل ذلِكَ مَرَّة بَعْد مَرَّةٍ، إلى أن سئل والدي أن يكون قاضي القضاةِ، فامتنع ونزل عن الحُكْم واعْتَزَل النَّاس والسياحَة، وسُلُوك طريق الحقيقة، فَلَمْ يُفتحْ لي شَيْء، فَرجَعْت من السياحَةِ يَوْماً إلى المَدِينة ودخَلْت المدرسة اليوسفية فَوَجدت رَجُلاً شَيْخاً بَقَّالاً على بَابِ المَدْرَسةِ، يتوضّأ وُضوءاً غَيْر مُرَتَّب، غَسَلَ يَدَيْهِ ثم غَسَل رِجْلَيْه، ثم مَسَحَ برأسِهِ، ثم غَسَل وَجْهَهُ. فَقُلْت له يَا شَيخ: أَنْتَ في هَذَا السِّنِّ في دَارِ الإسْلام وَبَيْنَ فقهاءِ المُسْلمين، وأَنْتَ تتوضّأ وضُوءاً خارجاً عَنِ التَّرْتيب الشَّرْعي، فَنَظر إليّ وقال: يَا عُمَر أَنْتَ ما يُفتح عليْكَ بِمِصْر، وإنما يُفْتحُ عَلَيْكَ بِالحِجَازِ، في مكَّة شرَّفها اللَّهُ، فأقْصِدها. فَقَدْ حَانَ لَكَ وقت الفَتْحِ. فَعَلِمْتُ أَنَّ الرَّجُلَ مِنْ أَوْلِياءِ اللَّهِ، وأَنَّه يتَسَتَّرُ بإظهارِ الجهلِ، فَجَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وقُلْتُ: يَا سَيِّدِي أَيْنَ أَنَا وأَيْنَ مكَّةَ؟ لاَ أَجِدُ رَكْباً ولا رُفقة فِي غَيْرِ أَشْهر الْحجّ، فنظر إليّ وأَشار وقَال: هذه مكَّة أَمَامكَ فَنَظَرتُ مَعَهُ فرَأَيْت مكَّة شرَّفها اللَّهُ فتَرَكْتُهُ وطلبْتُهَا فَلَمْ تَبْرَحْ أَمامي إلى أَن دَخَلْتها في ذلِكَ الْوَقْتِ. وجَاءَنِي الفَتح حين دَخَلْتُها، وتَرَادفَ وَلَمْ يَنْقَطِعْ. قال رضي اللَّهُ عنْهُ: ثم شَرَعْتُ فِي السِّياحَة في أَوْديتها وكنت أَسْتأنِس بالوَحْشِ ليْلاً ونَهاراً، فأَقمْت بِوادٍ كان بينه وبين مكَّة عشرَة أيَّام للرَّاكِب المجِدِّ، وكنتُ آتي مِنْهُ كل يوم وليلة، وأُصلّي في الْحَرم الشريف الصَّلوات الخمس ومَعِي سَبُعٌ عظيم، يَصحبني في ذَهابِي وإِيابِي، ويَنخُّ إليّ كَمَا يَنخُّ بجمل ويقول: يَا سيّدي ارْكبْ، فما ركبته قطّ. ثم بعد خَمْسَة عَشر سَنة، سَمِعْتُ الشيخ البَقَّال يُنادي: يا عُمَرُ، تَعَال إِلَى القاهرة، أحضر وَفَاتِي، فَأَتيْتُهُ مُسْرِعاً، فَوَجَدتُّه قَدِ احْتُضِرَ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليَّ، وَنَاوَلَنِي دنَانِير ذَهب. وقال: جَهِّزْ لي بِهذِهِ وافْعَلْ كَذَا وَكَذَا. واعْطِ حَمَلة نَعْشِي إلى القرافة كل واحد ديناراً، واتركْني على الأرض في هذِهِ الْبُقْعَةِ، وأَشَار بيَدِهِ إِلَيْهَا فَلَمْ تَزَلْ بَيْنَ عَيْني أَنظر إِلَيْها وهي القرافة عند مجرى السَّيْل تحت المسجد المعروف بالأرض بِالقُرْب مِنْ مَرَاكِعِ مُوسَى، بِسَفْحِ جَبَل المقطَّم. وانْتَظرْ قُدُوم رجُلٍ يَهْبِطُ إِلَيْكَ مِنَ الجَبَلِ وَصَلِّ أَنْتَ وهُوَ عليّ، وانتظر ما يفْعَلُ اللَّهُ فِي أَمْري. قال رضي اللَّهُ عَنْهُ: فَلَمَّا تُوفِّي جَهَّزْته كما قال، وطَرَحْتهُ في الْبُقْعة المُباركة كَمَا أَمَرنِي، فَهَبَطَ رَجُلٌ من الجَبَلِ كما يَهْبِط الطَّائر المُسْرع لم أَرَه يَمْشِي على رِجْليْه، فَعرفته بشخصِهِ، كنت أَراهُ يُصفع قَفَاهُ بِالأَسْوَاقِ. فقَال: يا عُمَرُ تقدَّم، فَصلِّ بِنَا عَلَى الشَّيْخِ. فتقدَّمْتُ وَصَلَّيْتُ إمَاماً، ورأَيْتُ طيوراً خُضْراً وَبِيضاً صفوفاً بيْن السماء

والأرْض يُصلُّونَ مَعَنَا، وَرَأَيْتُ طائراً مِنْهُمْ أَخْضَر عَظِيم الخلقة، قَدْ هَبَطَ عند رِجْلَيْه وابْتَلعهُ، وارْتفعَ إليهم وطَاروا جَمِيعاً، ولهم زجل بِالتَّسْبيح إلى أَنْ غابُوا عَنَّا. فقال: يَا عُمَرُ، أما سَمعتَ أَنَّ أَرْوَاحَ الشهداء في جوْف طيْر خُضْرٍ تسْرَح في الجنَّةِ حيْث شَاءَتْ؟ هُمْ شهداء السُّيُوفِ. وأمَّا شُهَدَاء الْمَحَبَّةِ، فكلُّهُمْ، أجْسَادُهُمْ وأَرْوَاحُهُمْ في جوْف طيْر خُضْرٍ. وهذا الرَّجُلُ منْهُمْ يَا عُمَرُ. وأَنا كُنْتُ مَعَهُمْ. وإنما وقَعَتْ مِنِّي هَفوة، فطردت عَنْهُمْ. فأَنَا أصفعُ قفايا نَدماً وتأديباً على تِلْكَ الْهَفْوَةِ. ثم ارْتَفَعَ الرَّجُلُ إلى الجَبَلِ كالطَّائِرِ إلى أَنْ غَابَ عَنِّي. قال ولدهُ: وفي هَذِهِ البُقْعَة المباركة، دفن الشيخ حَسَب وصيته. وضريحه بِهَا مَعْرُوفٌ. قلت: وقد تَقَدَّمَ ذَلِكَ. قال حفيدهُ رحمه اللَّهُ: وقد قلتُ في ذَلِكَ أبْيَاتاً:

جُزْ بالقَرافَةِ تَحْتَ ذَيْلِ العَارِفِ ... وَقُلْ السَّلامُ عَلَيْكَ يَا ابْنَ الفَارِضِ

أَبْرَزْتَ فِي نَظْمِ السُّلُوكِ عَجَائِباً ... وَكَشَفْتَ عَنْ سِرٍّ مَصُونٍ غَامِضِ

وَشَرِبْتَ مِنْ بَحْرِ المَحَبَّةِ والْوَفَا ... فَرَوِيتَ من بَحْرٍ مُحِيطٍ غَامِضِ

قال الشيْخ رضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: رأيت رسُولَ الله ﷺ فِي النَّوْم. فقال لي: يَا عُمَرُ، لِمَ تَنْتَسِبُ؟ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إلى بني سَعْدٍ، قبيلة حليمَة السعدية مُرضعتكَ فقال ﷺ: لاَ بُدَّ أَنتَ مِنِّي. ونَسَبُكَ متَّصل بِي. فَقُلْتُ: يا رسول الله. إني أحْفظ نَسَبِي عن أَبِي وجدِّي. إلى بني سَعْدٍ. فقال: لاَ ـ مَادًّا بِهَا صَوْتَهُ ـ بَلْ أَنْتَ مِنِّي. ونسبُك متَّصل بِي. فَقُلْتُ: صَدَقْتَ يا رسول اللَّهِ. مكَرراً لِذلِكَ. وهذه النِّسْبَة، إمَّا أَنْ تكون نِسْبَة الأهلية؛ أَوْ نِسْبة المحبَّة. ونسْبَة المحبَّة أشرف من نِسْبَة الأبوَّة؛ وهي التي قَرَّبَتْ بِلالاً وصُهَيْباً، وَسَلْمَان الفَارسي مِن أَهْلِ البَيْت. وأَبْعَدَتْ أَبَا طالبٍ وأَبَا جَهْلٍ. وإلى هَذَا، أَشَارَ الشيخ في قصيدتِهِ الْيَائية، حَيْثُ قال:

نَسَبٌ أَقْرَبُ فِي شَرْعِ الْهَوَى ... بَيْنَنَا مِنْ نَسَبٍ مِنْ أَبَوَيّ

فَقُلْتُ: وقد رُمِي الشيخ ابن الْفَارِض، بما رُمِيَ بِهِ غَيْرُهُ من المحققينَ. كالششتري، وابن سَبْعينَ، من الحُلُول والاتِّحَادِ. حتى أَنَّ بَعْض أَهْلِ الظَّاهِرِ نَهَى قِرَاءة تائيتِهِ؛ التي سَمَّاها: أنفاس الجنان، ونفائس الجنان. ثم رأى رسول الله ﷺ فَقَالَ لَهُ: سَمِّها نظم السلوك، فَسَمَّاها بذلِكَ. ثم امْتُحِنَ النَّاهِي بِمُصيبَة، فَتَابَ وَرَجَعَ عَنْ ذَلِكَ. فقال حفيدهُ: وكيف يتصَوَّر مِنَ الشيْخ أن يميلَ في قصيدته إلى الْحُلُولِ. وَقَدْ نَزَّهَ عقيدَتَهُ عَنْهُ فِي قَوْلِهِ فِيهَا:

وَهَا دَحْيَةُ وَافَى الأمِينَ نَبِيَّنَا بِصُورَتِهِ فِي بِدْءِ وَحْيِ النُّبُوءَةِ
أَجِبْرِيلُ قُلْ لِي كَانَ دَحْيَةُ إِذْ بَدَا لِمُهْدِي الْهُدَى فِي هَيْأَةٍ بَشَرِيَّةِ
وفِي عِلْمِهِ عَنْ حَاضِرِيهِ مَزِيَّةٌ بِمَاهِيَةِ الْمَرْءِ مِنْ غَيْرِ مِرْيَةِ
يَرَى مَلَكاً يُوحِي إِلَيْهِ وَغَيْرُهُ يَرَى رَجُلاً يُدْعَى إِلَيْهِ بِصُحْبَةِ
وَلِي مِنْ أَتَمِّ الرُّؤْيَتَيْنِ إِشَارَةٌ تُنَزِّهُ عَنْ رَأْيِي الْحُلُولِ عَقِيدَةِ

وَمَعْنَى كَلام الشيخ: أَنَّ الكَوْنَ كُلَّهُ كصُورة جِبْرِيلَ، حينَ تصوَّرَ على صورة دَحْيَة. فظاهره دَحية، وباطنه جِبْرِيلَ. فإذا حققتَ، لَمْ تَجِدْ إلاَّ جِبْرِيلَ. وَلاَ حُلُولَ وَلاَ اتحاد. إذْ لاَ شَيْءَ مَعَهُ. وكذلك الكَوْن مَعَ نُور الحق، اللَّهُ نور السماوات والأرض. فَافْهَمْ. قلتُ: وللشيخ قصائد كثيرة، جَمَعَها حفيده في ديوانٍ مستقل. وأشهرها وأَنْفَسُهَا تائيتُه: نظْم السلوك الذي تقدَّم ذكْرُها. كَان يقول فيها رضيَ اللَّهُ عَنْهُ: هذه القصيدة الغَرَّاء. والفريدة الزَّهراء. لم يُنْسَجْ على مِنْوَالِهَا. وَلاَ يُسْمَحْ خاطر بمثالِهَا. تكَادُ تخرُجُ عن وُسْع طَوْر الْبَشَرِ. وَحَكَى جَمَاعة مِنَ العلماء. ممَّن كَانُوا يصحبُونَ الشيْخَ وَيُبَاطِنُونَهُ: إنَّ الشَّيْخَ لَمْ يَكُنْ نَظَّمَهَا على حَدِّ نَظْمِ الشُّعَرَاءِ. بَلْ كَانَ يَحْصُلُ لَهُ جذبات، يغيبُ فيها عَنْ حَوَاسِهِ الأيَّام، نَحْوَ الأسْبُوعِ والعَشَرَةِ. فإذَا أَفَاقَ أَمْلَى ما يُفْتَحُ عليْه مِنْها مِنَ الثلاثينَ والأربَعينَ والخمسينَ بَيْتاً. ثم يَدَع، حَتَّى يُعَاوِدَهُ ذلِكَ الْحَال. قلت: ويقرب مِنْهَا قصيدتهُ الميمية الخمرية. التي أَرَدْنَا الكَلاَمَ عَلَيْهَا. بَلْ هِيَ أَعْذَبُ مِنْهَا لَفظاً، وأَسْلَسُ مِنْهَا نَظْماً. لاَ يَنْطِقُ بِهَا إلاَّ لِسَانٌ مَلَكُوتِي. وَقَلْبٌ جَبَرُوتِي. بَالَغَ فيها في مَدْحِ الخَمْرَةِ الأزلية. وأَبدَى فيها أَسْرَار الحقيقة الغيْبية، كشف فِيهَا رداء الصَّوْنِ عَنْ أَسْرَارِ جَبَرُوتِهِ. وأَنْوَارِ مَلَكُوتِهِ. فَجَزَاهُ اللَّهُ عَنَّا أَحْسَنَ الجزَاء. لقد قَرَّبَ الْمَدَارِكَ. وبيَّنَ المَسَالِكَ فِي أَوْجَزِ عِبَارَة. وأَرْشَقِ إِشَارَة. فأَرَدْنَا بِعَوْنِ اللَّهِ أَنْ نَضَعَ لَهَا تقييداً مختصراً، يُبَيِّنُ أَلْفَاظَهَا، وَيُحِلُّ مَعْنَاهَا. بَعْدَ الاسْتِخَارَةِ النبويّة، والإشارة المعنوية؛ وَهَذَا أَوَان الشُّرُوعِ فِي التَّقْيِيدِ المَذْكُورِ. مُعْتَمِداً على حَوْلِ اللهِ وقُوَّتِهِ. وَمَا يَفْتَحُ بِهِ الحقّ تَعَالى من مَوَاهِبِ مِنَّتِهِ. فأَقُولُ، وبِهِ أَحُولُ وأَصُولُ. قال الشيخ رضي اللَّهُ عَنْهُ:

شَرِبْنَا عَلَى ذِكْرِ الْحَبِيبِ مُدَامَةً سَكِرْنَا بِهَا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُخْلَقَ الكَرْمُ

قلتُ: المُدَامَةُ والمُدَامُ: اسم للْخَمْرِ؛ لأنَّ العَرَبَ كَانَتْ تحِبُّ دَوَامَهَا عِنْدَهُمْ. فَسَمَّوْهَا بِهِ تَفَاؤُلاً. والكَرْمُ: شَجَرَ الْعِنَبِ. والْعِنَبُ نَفْسُهُ. يَقُولُ رضِيَ اللَّهُ

عَنْهُ: شَرِبْنَا عَلى إثرِ ذِكْرِ الْحَبِيبِ بِالقُلُوبِ والأرْوَاحِ خَمْرَةً صَافيةً في مَقَامِ الصَفا. سَكِرْنَا بِهَا، فَغِبْنَا عَنِ الإحْسَاسِ. وَرَأَيْنَا أَنْوَارَ الحَبيبِ في كل شَيْءٍ، وَمَعَ كل شَيْءٍ. وقبْلَ كل شيْءٍ، وَبَعْدَ كُلِّ شَيْءٍ، فَغَيَّبَنَا السُّكْرَ عَنْ ظُلمة الأكوانِ الْحَادِثَةِ، وأبْصَرْنَا أَنْوَارَ القِدَمِ الباقية. قُلْتُ: وقَدْ أَشَرْتُ إلى هَذَا المَعْنَى فِي عَيْنِيَتِي فَقُلْتُ:

سَكِرْنَا فَهِمْنَا فِي بَهَاءِ جَمَالِهِ ... وَغِبْنَا عَنِ الإحْسَاسِ والنُّورُ سَاطِعُ

تَبَدَّتْ لَنَا شَمْسُ النَّهَارِ وأشْرَقَتْ ... فَلَمْ يَبْقَ ضَوْءُ النَّجْمِ والشَّمْسُ طَالِعُ

يقولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَقَعَ لَنَا هَذَا السكر بِالخَمْرَةِ الأزلية المعنوية. قَبْلَ أَنْ يُوجَد الكَرْمِ؛ التي تكون منه الخمرة الحسّية. وإلى هذا المَعْنَى، أشار الشُشتري رضيَ اللَّهُ عَنْهُ بِقَوْلِهِ:

لاَ شَرَابُ الدَّوَالِي ... إنَّهَا أَرْضِيَّا

خَمْرُهَا دُونَ خَمْرِي ... خَمْرَتِي أَزَلِيَّا

فقوله: سَكِرْنَا بِهَا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُخْلَقَ الكَرْمُ، يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا السُّكْرُ بَعْد ظهُورِ عَالَمِ الأشباحِ. وأنَّ الرّوحَ سَكرتْ على ذكرِ الْحَبِيبِ بخَمْرَةٍ أَزَلية. قبل ظُهُورِ العِنَبِ الذي تكونُ منه الخمرة الحسية الأرضية. والمراد، أنه سكر بخمرَةٍ مَعْنَوِيَّةٍ قَبْلَ ظُهُورِ مَادَّةِ الخَمْر الحسية؛ ويحْتَمَلُ أَنْ يَكُون هَذَا السُّكْرُ لِلرُّوحِ في الأزَلِ، في عَالَمِ الأرْوَاحِ، قَبْلَ ظهور عالم الأشباحِ. فيكون قَوْلهُ: قَبْلَ أَنْ يخلق الكَرْم، على ظَاهِرِهِ. أيْ قَبْلَ أَنْ تَظْهَرَ مَادَّة الخمرة الحسية. ويؤيد قولهُ فيما يأتي: فَعِنْدِيَ مِنْهَا نَشْوَة قَبْلَ نَشأتِي - البيْت -. وسيأتي الكَلاَمُ عليه إن شَاءَ اللَّهُ. والاحْتمال الأول أَظْهَرُ. واللَّهُ أَعْلَمُ. وسُمِّيَتِ الْغَيْبَة في اللَّهِ سُكْراً. لاشْتِرَاكِهَا مَعَ السُّكْرِ الحسِّي فِي الْغَيْبَةِ عَنِ الحسّ. فإنَّ نُور العَقْلِ، كَمَا يُسْتَر بالظلمة الطينية؛ وهي النَّشوة النَّاشئة عن الخَمْرَة الحسِّيَّة. كَذَلِكَ يُسْتَرُ بالأنْوَارِ المَعْنَوِيَّةِ، المفاجِئةِ لَهُ مِنَ الْخَمْرَةِ الأزلية. فيغيب عن الإحْسَاس. فلِذلِكَ سَمَّوْا تلك الغَيْبَة سُكْراً. واللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ. وهَاهُنَا اصْطِلاَحَاتٌ لِلْقَوْمِ. نَذْكُرُ مِنْهَا مَا يتوقَّفُ عَلَيْهِ فهم كَلاَمَ النَّاظِمِ مِنْهَا: الذَّوْقُ، والشُّرْبُ، والسُّكْرُ، والصَّحْوُ، ومِنْها الحسّ والمَعْنَى. ومِنْها القُدْرة والحِكمَة. ومِنْها الْوَجْدُ والْوِجْدَانِ، والْوُجود. ومِنْها الجَمْعُ والتَّفْرِقة. أَمَّا الذَّوْقُ؛ فَهُوَ بُرُوق أَنْوَارِ الذَّاتِ الْقَدِيمَةِ على الْعقْلِ. فيغيبُ عن رُؤْيَةِ الْحُدُوثِ، في أَنْوَارِ القِدَم. لكِنَّهُ لاَ يَدُومُ ذَلِك. بَلْ يَلْمَعُ تارَةً. ويخفى أُخْرَى، فإِذَا لَمَعَ غَابَ عَنْ حِسِّهِ. وإِذَا خَفِيَ

رَجَعَ إلى حِسّهِ؛ وَرُؤْيَةِ نَفْسِهِ. فَهَذَا يُسَمَّى عِنْدَهُمْ ذَوْقاً. فإن دَامَ لَهُ ذَلِكَ النُّورُ سَاعَةً أَوْ سَاعَتَيْنِ فَهُوَ الشُّرْبُ. وإذا اتَّصَلَ وَدَامَ فَهُوَ السُّكْرُ. وَمَرْجِعُهُ إلى فَنَاءِ الرُّسُومِ، فِي شُهُودِ الحيِّ القَيُّوم. والغَيْبَةَ عن الأثَرِ، في شُهُود المُؤَثِّرِ. ويسَمَّى أَيْضاً بِالفَنَاءِ. فإنْ رَجَعَ إلى إثْبَاتِ الأشياءِ بِاللَّهِ، وقيامها بِهِ. وَرَآهَا نُوراً مِنْ أَنْوَارِهِ، لاَ وُجُودَ لَهَا مَعَهُ. فَهُوَ الصَّحْوُ. وَيُسَمَّى أَيْضاً البَقَاء؛ لإبْقَاءِ الأشْيَاءِ بِاللَّهِ بَعْدَ فَنَائِهَا بِنوره البَصِيرَةِ فِي اللَّهِ. وَقَدْ أَشَارَ صاحبِ الحِكَم العَطائية إلَى هَذَا المَعْنَى بِقَوْلِهِ: شُعَاعُ البصِيرَةِ يُشْهِدُكَ قرب الحق مِنكَ. وَعَيْنُ البَصِيرَة يُشْهِدُكَ عَدَمَكَ لوجودِهِ. وحَقُّ البصيرَةِ يشهدكَ وُجُودُ الحقِّ. لاَ عَدمَك وَلاَ وُجودكَ. كَان اللَّهُ وَلاَ شَيْءَ مَعَهُ وَهُوَ الآنَ على ما عَلَيْهِ كَانَ. وقال أَيْضاً فِي بَيَانِ السّكر والصَّحو، وبيان الشريعة والحقيقة. فقال بَعْد كَلاَم: وصاحب حقيقة: غابَ عن الخلق بِشُهُودِ المَلكِ الحَقِّ. وفَنَى عَنِ الأسْباب، بِشُهودِ مسبّب الأسْبَاب. فَهذا عَبْدٌ مواجَه بالحقيقة. ظاهر عليه سَنَاهَا سَالك للطريقةِ. قَدِ اسْتولى على مَدَاها، غَيْرَ أَنَّهُ غَارق الأنوار. مطمُوس الآثار. قَدْ غَلَبَ سكره على صحوه، وَجَمْعه على فَرْقِهِ وغيبته على حضورِه. وأَكْمَلَ مِنْهُ رجُلٌ شَرِبَ فَازْدَادَ صَحْواً. وغاب فازداد حضوراً. فَلاَ جَمْعه يحجبُه عن فَرْقِهِ. وَلاَ فَرْقُهُ يَحْجبُهُ عَنْ جَمْعِهِ. وَلا فناؤهُ يَصُدّهُ عَنْ بَقَائِهِ. وَلا بقاؤه يصرفه عن فنائِهِ. يُعْطي كل ذي قسْط قسْطهُ. ويوفِي كل ذي حق حقَّهُ، وأَمَّا الْوَجْدُ فَهُوَ وَارِدٌ يُحَرّكُ القَلْبَ وَيُزْعِجُهُ. إمَّا شَوْقٌ مقلِق، فيثير بَسْطاً وسُرُوراً. وإمَّا خَوْفٌ مُزْعجٌ فيثير قَبْضاً وحُزْناً. أمَّا الْوُجْدَانُ فَهُوَ: دَوَامُ حَلاَوَةِ الشُّهُودِ، وَاتِّصَالِهَا للواجِدِ. مَعَ غَلَبَةِ السّكْرِ والدَّهَش. . فإنِ اسْتَمَرَّ مَعَ ذَلِكَ، حتى زَالت الدَّهشة والحيْرة. وصَفَتِ الفكرة والنظرة. فهو الوجود، وإلى هَذَا أَشَارَ الجُنَيْدُ رضيَ اللَّهُ عَنْهُ بقولِهِ: وُجُودِي أَنْ أَغِيبَ عَنِ الْوُجُودِ، بِمَا يَبْدُو عَلَيَّ مِنَ الشُّهُودِ. واعْلَمْ أَنَّ مثار الْوُجْد، هو سماع خطاب المحبوبِ. ومَثَار الوُجْدَانِ، هُوَ شُهُود جَمَال المحبوب. وَقَدْ يَغْلب عليهما الْحَال، فتضطر الأشباح، وترْقصُ تبعاً لاضطراب الْقَلْبِ. ومثال ذلِكَ الطفل في الْمَهْدِ، فإنه يسْكن إذا تَحَرَّكَ بِهِ الْمَهْدِ. ويبكِي إذَا سَكَنَ. كذلِكَ الْقَلْبُ يَرْتَاحُ إذَا تَحَرَّكَ الْقَلْبُ. وإلاَّ بقِي يضطربُ. فَرُبَّمَا يخرجُ عَنْ طَوْرِهِ. وأمَّا صَاحِبُ الوُجْد فهو سَاكنٌ متمكّنٌ، قدِ اسْتَأْنَسَ بِالحَضْرَةِ. وَزَالَتْ عَنْهُ الدَّهْشَةُ والحَيْرَةُ؛ فَهُوَ كالْجَبَلِ الرَّاسِي. قيل للجنَيْدِ رضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَا لَكَ؛ كُنْتَ تتواجَدُ عند السَّمَاع. ثم صرت لا يتحرّك منك شيءٌ؟ فَتَلى قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ

ٱلسَّحَابِۚ﴾. وشاهِد ذلِكَ. صواحِبُ يُوسُف عليه السلام، فإنَّه لما فجأَهُنَّ بِبَاهِرِ جَمَالِهِ: غِبْنَ عَنْ إحْسَاسِهِنَّ ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾، وَزُلَيْخَا لمَّا اسْتَمَرَّتْ مَعَهُ، لم تَصْنَع شيئاً مِنْ ذَلِكَ. كذلك أَرْبَابُ الْوُجْدَانِ. لمَّا استشْرَفُوا على نُورِ الحَضْرَةِ، دُهِشُوا وغَابُوا عَنْ إحْسَاسِهِمْ. فَإِذا تَمَكَّنُوا مِنْ شُهُودِهَا، وَأَنِسُوا بهَا، لَمْ يُحَرِّكهم شيْء مِنْ أَنوارِهَا. وقد يَغْلِبُ على العَارِف شهود الْجَمَالِ. فيرقص وَيَطربُ، لكنَّهُ نَادِرٌ. واللَّهُ تَعَالى أَعْلَمُ. وأمَّا الجمعُ والتفرقة: فالجمع عبارة عن تلاشي الحديث في إثباتِ الْقِدَمِ. أَوْ تقول: عبارة عن ضَمّ الفُرُوع إلى أُصُولِهَا فَيَفْنَى مَا لَمْ يَكُنْ. وَيَبْقَى مَا لَمْ يَزَلْ. والتَّفرِقَةُ عِبَارَةٌ عَنْ إثْبَاتِ الأحكَام. والحِكْمَةِ: قياماً بِرَسْم الْعُبُودِيَّةِ، وأَدَباً مَعَ الرُّبُوبِيَّةِ. فالجَمْعُ مَحَلُّهُ البَوَاطن. والفَرْقُ مَحَلُّهُ الظَّوَاهِرُ. إذ الرِّبوبية بِلاَ عُبُودِية نقصانٌ. والْعُبُودية بِلاَ رُبُوبية مُحَالٌ. فلذلِك قالُوا: الجمع بِلاَ فَرْقٍ زَنْدَقَة، لإبطَالِهِ الأحْكَامَ والحكمة. والفَرْقُ بِلاَ جَمْع فسْق؛ لإخْراج صاحبِه عَنْ حَدِّ الكَمَالِ. والجمع بَيْنَهُمَا عَيْن الكَمَالِ. ولقد سَمِعْتُ شَيْخَ شيخنا رضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: قوم تشَرَّعُوا وَلَمْ يَتَصَوَّفُوا، وقوم تَصَوَّفُوا ولم يتشَرَّعُوا. وقَوْمٌ جَعَلُوا الشَّرِيعَةَ باباً. والحقيقة أَبْوَاباً. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾. وَهَذا أَوَّلُ كَلاَم سَمِعْته مِنْهُ عِنْدَ مُلاَقَاتِهِ، وقال لِي: وأَنْتَ مِنَ القسم الثَّالِث. حَقَّقَنا اللَّهُ بِمَحَبَّتِهِمْ، وَرَزَقَنا الأَدَبَ مَعَهُمْ آمين. وأمَّا الحسُّ، فهو عبَارَةٌ عَمَّا تَكَثَّفَ وَظَهَرَ مِنَ الأكْوَانِ. والْمَعْنَى: عِبَارة عن النُّورِ اللطيفِ الْبَاطِنِ فِيهَا. وأمَّا السِّرُّ الَّذي قَامَتْ بِهِ الأشْيَاءُ. فَالحِسُّ ظرفٌ لِلْمَعْنَى. فالأكْوَانُ أَوَانِي، حَامِلة لِلْمَعَانِي. واللَّهُ تَعَالى أَعْلَمُ. والقُدْرَةُ: عِبَارَةٌ عَمَّا يَصْدُرُ عَنِ الذَّاتِ العَلية من الأفعال. أكَانَ عَلَى وِفْقِ الْعَادَةِ أَوْ خَارِقاً لَهَا. والحِكْمَةُ: عِبَارَة عَنْ رَبْطِ الأسْبَابِ بِمُسَبَّبَاتِهَا، والعَوَائِدُ بما تعوَّدَتْ بِهِ؛ فَهِيَ رداءٌ للقُدْرَةِ وسترٌ لَهَا. فَمَنْ وَقَفَ مَعَ رِدَاءِ الحِكْمَةِ، كان محْجُوباً عَنْ شُهُودِ الْقدْرَةِ. وَمَنْ حُجِبَ عَنِ الصِّفَةِ. حُجِبَ عَنِ الْمَوْصوفِ، لمتَلازم وُجُودهما. واللَّهُ تَعَالى أَعْلَمُ. فَمَعْرِفَةُ هَذِهِ الأشْيَاءِ، تُعِينُ عَلَى فَهْمِ الْقَوْمِ. واللَّهُ تَعَالى أَعْلَمُ. ثُمَّ قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

لَهَا الْبَدْرُ كَأْسٌ وَهْيَ شَمْسٌ يُدِيرُهَا ... هِلاَلٌ وَكَمْ يَبْدُو إِذَا مُزِجَتْ نَجْمُ

يقولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لهذِهِ الخَمْرَةُ الأزلية: كَأْسٌ، وهِي قمر التوحيد الخاصّ. فمن كَانَ مشركاً بثنوية السّوي، أو بِرُؤيَةِ الأشياء مَعَ الْمَوْلَى، فَلاَ يَشْرَبُ من خَمْر الْهَوَى. أَوْ نقول: مَن كَانَ قلبهُ مشحوناً بِحبّ الأشياء، أَوْ مفتوناً بِنيْل

الدُّنيا، فَلاَ يذوق شيئاً مِنْ هَذِهِ الحُمَيَّا: «أي الخمر». وهذه الخمرة هي شمس الْعِرْفَان، فَإِذَا أَشْرَقَتْ فِي أُفُقِ سماء الجبان، غطّت وجود الأكْوَان، وَوَقَعَ العيَان على فَقْده الأعْيَانِ. يُدِيرُها عَلَى الشَّاربينَ، هِلاَلَ السَّعَادة، في طالِعِ سَعْدِ الإرَادَةِ. فإذا شَربت صرفاً غابَ النَشْوَان عن الرُّسُوم. ولم يَبْقَ فِي نَظَرِهِ إلاَّ أنوار الحيّ القيُّوم. فَإِذَا مُزجَت بالصَّحْو والسلوك، صار كاملاً مكمّلاً. فَكَمْ يَبْدُو لَهُ حينئذٍ من نَجْم الْعُلُومِ. وَكَمْ يُفْتَحُ له مِنْ مَخَازِنِ الفُهُوم. فَإِذَا أُذِنَ لَهُ في التَّعْبِير، وَقَعَتْ مَسَامِع القلوبِ عبارتُهُ. وجُليت إليهم إشارته. قَال الشيخ أَبُو الحَسَن الشَّاذِلي رضيَ اللَّهُ عَنهُ في بَعْضِ كَلاَمِهِ على المحبَّةِ: الشَّرَاب هو النُّور الساطع مِنْ جَمَال المحبوب. والكَأْسُ هو اللطف الموصّل ذلك، إلى أَفْوَاه القُلُوب. والسَّاقي: هو المتولّي ذَلِكَ لخصوص الكبراء والصَّالِحينَ مِنْ عبادِهِ. وَهُوَ اللَّهُ الْعَالِمُ بالمقادِيرِ. ومَصَالح العبادِ. فَمَنْ كُشِفَ لَهُ عن ذلِكَ الْجَمَالِ. أو حُظِيَ شَيْء مِنْهُ، نَفَساً أَوْ نَفَسَيْنِ، ثم أرخي عليه الحجاب؛ فهو الذَّائق المشتاق. ومَنْ دَامَ لَهُ ذَلِكَ سَاعَةً أَوْ سَاعَتَيْنِ؛ فَهُوَ الشَّارِبُ حَقاً. ومَن تَوَالَى عليْه الأمْرُ، ودَامَ لَهُ الشُّرْبُ، حتى امْتَلأَتْ عُرُوقُهُ ومَفَاصِلُهُ، مِنْ أَنْوَارِ اللَّهِ المخْزُونَةِ، فَذَلِكَ هُوَ الرِّيُّ. وَرُبَّمَا غَابَ عَنِ المَحْسُوسِ والعُقُولِ. فَلاَ يَدْرِي مَا يُقَالُ، وَلاَ مَا يَقُولُ. فَذَلِكَ هُوَ السُّكْرُ. وقد تَدُورُ عليْه الكَاسَات، وتَخْتَلف لديْهم الحالاَت. وَيُرَدُّونَ إلى الذِّكْرِ والطَّاعَاتِ. وَلاَ يُحْجَبُونَ عَن الصِّفَاتِ حتى تُزاحم المقدوراتِ. فَذَلِكَ وقت صَحْوِهِمْ، واتساع نَظَرِهم، ومزيد عِلْمِهِمْ. فَهُمْ بِنُجُوم الْعِلْم، وقمر التوحيد يَهْتَدُونَ في لَيْلِهِمْ، وبشموس المعارف يسْتَضيئُونَ في نَهَارِهِمْ. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾. انتهى كَلاَمُهُ رضي اللَّهُ عَنهُ وأَرْضَاهُ؛ وهو قريب مِنْ كَلاَمِ النَّاظِمِ رضي اللَّهُ عَنهُ. ثم قال:

وَلَوْلاَ شَذَاهَا مَا اهْتَدَيْتُ لِخَانِهَا ... وَلَوْلاَ سَنَاهَا مَا تَصَوَّرَهَا الْوَهْمُ

قلت: الشَّذَا: النَّسيم الطَّيِّبُ. وقال في القاموس: الشذا: قُوَّة ذكَاءِ الرَّائِحة. والخَانُ: دَارٌ يُبَاع فيها الخَمْرُ أَوْ يُشْرَبُ فِيهَا. وقال في القاموس: الخَانُ: الحانوت أَو صاحِبُهُ. وخان: التجار. والسَّنا بالقصر؛ هو: الضَّوْءُ والنُّورُ. والوَهْمُ: الخاطِرُ. أَطْلقَهُ هُنَا عَلَى الْعَقْلِ؛ لأنَّهُ مَحلُّهُ. يَقُولُ رضيَ اللَّهُ عَنهُ: هذه الخَمْرَة الأزلية رفيعَة القَدْرِ، عَالية الشَّأْنِ، لطيفة خفيَّة. لاَ تُنَالُ بحِيلَةٍ وَلاَ سَبَبٍ. فَلَوْلاَ نَسِيمها الطَّيِّبُ الَّذِي يَهُبُّ عَلى القُلُوبِ، فتسْتنشقُهُ الأرْوَاحُ، وتنجذِب إلى حَضْرَةِ

عَلاَّم الْغُيُوبِ. مَا اهْتَدَيْنَا لِمَحلِّهَا، وَلاَ تَوَجَّهْنَا إِلَى طَلَبِهَا. لكِنْ لمَّا لاَحَ لَنَا هِلاَلُ الهِدَايَةِ، في طالِع سابق العِنَايَةِ، هَبَّ على قُلُوبِنَا نَسِيم الخصُوصية مِنْ حَضْرَةِ عَظَمَةِ الرُّبُوبِيَّةِ. فَمَا زِلْنَا نَقْفُوا أَثَرَهَا، وَنَسْتَنْشِقُ نَشْرَهَا، حَتَّى أَفْضَتْ بِنَا إِلى شُهُودِ أَنْوَارِ الحبِيبِ. وَمُنَاجاة الْقَرِيبِ من محلّ المشاهدة والمُكَالَمَةِ، والمُصَالَحة، والْمُوَاجَهَة. فَقُلْنَا فِي ذلِك الْحَال:

لَـكَ الـدَّهْـرُ طَـوْعٌ والأنَـامُ عَـبِـيـدُ فَـعِـشْ كُـلُّ يَـوْمٍ مِـنْ أَيَّـامِـكَ عِـيـدُ

قال الشيْخ أَبُو الحَسَن رضيَ اللَّهُ عَنهُ: مَثَلُ ابْتداءِ المَحَبَّةِ، كمثلِ رَجُلٍ شَمَّ رائحة المِسْكِ على بُعْدٍ، فَلاَ يَزَالُ يتبَعُ تِلكَ الرَّائحَة، وهيَ تتَزَايَدُ عَلَيْهِ، حتى يَدْخُلَ البَيْتَ الَّذِي فيه المِسْك. فإِذَا دَخَلَهُ غَمَرَتْهُ الرَّائحَةُ. فَلاَ يُحِسُّ بِهَا. فَالمَعْنَى كَذلِكَ طَالِبُ الحقّ، لاَ يَزَالُ يَنجَذِبُ قَلْبُهُ إلى الْحَضْرَةِ؛ ويتعَطَّشُ إِلَيْهَا. وَيَتَوَجَّهُ إِلَيْهَا بِأَنْوَارِ التَّوَجُّهِ؛ وهِيَ حَلاَوَةُ الْمُعَامَلَةِ، حتَّى يَغرَقَ في أَنْوَارِ الْمُوَاجَهَةِ؛ وهِي حَضْرَةُ المُشَاهَدَةِ، فَيَسْكُن حالهُ، وَيَزُولُ عطشُهُ بحصول الْوُصُولِ إلى الحبيبِ. فَلَمْ يَبْقَ إلاَّ الأدَب والتَّرَقِّي فِي المَقَامَاتِ. هَذَا مَحَلُّ الشطر الأول. وقولُهُ: وَلَوْلاَ سَنَاهَا مَا تَصوَّرَهَا الْوَهْمُ: يَعْنِي أَنَّ هَذِهِ الخمرة خفيةٌ عَنِ الأوْهَام خَارِجَةٌ عَنْ مَدَارِكِ الْعُقُولِ والأفْهَامِ. فَلَوْلاَ أَنْوَارُهَا الَّتي تشرق على القُلُوبِ، بَعْدَ صَفَائِها مِنَ الأغْيَارِ. وتطهيرهَا مِنَ الأكْدَارِ. ما تَصوَّرَهَا الْعَقْلُ، وَلاَ أَدْرَكَهَا الْفَهْمُ. إِذْ لاَ تُدْرَك بِالْعُقُولِ. وَلاَ بِتَحْصِيلِ النُّقُولِ. وَإِنَّمَا تُدْرَكُ بِصُحْبَةِ الرِّجَالِ. أَهْلِ التحقيق والكَمَالِ؛ لِأَنَّهَا أَذْوَاقٌ فَلاَ تَدْرَك من الأوْرَاق. كما قَال ابن البَنَّا في مَبَاحِثِهِ:

إِيَّـاكَ أَنْ تَـطْـمَـعَ أَنْ تَـحُـوزَهْ مِـنْ دَفْـتَـرٍ أَوْ شِـعْـرٍ أَوْ أُرْجُـوزَةْ

وقال أَيْضاً:

مَـا نَـالَـهـا ذُو الْـعَـيْـنِ والْـفُـلُـوسِ وإِنَّـمَـا تُـبَـاعُ بِـالـنُّـفُـوسِ

فَمَنْ بَاعَ نَفْسَهُ لشَيْخٍ كَامِلٍ حَكَّمَهُ عَلى نَفسِهِ. أَشْرَقَتْ عَلَيْهِ أَنْوَار الْمَعَارِفِ. وَأَدْرَكَ مِنْ مِنَنِ اللَّهِ مَا لا يُحِيطُ بِهِ وَصْفُ واصِفٍ. وإلاَّ أَتْعَبَ نَفْسَهُ وَمَنْ تَعلَّقَ بِهِ. هَذَا هُوَ الْغَالِبُ والنَّادِرُ لاَ حُكْمَ لَهُ. وبالله التوفيق: ثم قَالَ رضي اللَّهُ عَنهُ:

وَلَـمْ يُـبْـقِ مِـنْـهَـا الـدَّهْـرُ غَـيْـرَ حُـشَـاشَـةٍ كَـأَنَّ خَـفَـاهَـا فِـي صُـدُورِ الـنُّـهَـى كَـتْـمُ

قُلْتُ: الحُشَاشَةُ: بقية الرُّوحِ، في المريض في آخِرِ الرَّمق. قاله في القاموس. والنُّهَى بِالضَّمّ جَمْعُ نُهْيَة؛ وهو الْعَقْلُ؛ وهُوَ عَلَى حَذْفِ مُضَافٍ. أَيْ

أَهْلُ النُّهَى يَقُولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ذَهَبَتْ هَذِهِ الخَمْرَة مِنْ قُلُوبِ النَّاسِ. وانْدَرَسَتْ بِذَهَابِ أَهْلِهَا. وَمَاتَتْ بِمَوْتِ أَرْبَابِهَا. وَانسَلَّتْ مِنْ قُلُوبِ النَّاسِ كَانسِلاَلِ الرُّوحِ مِنَ الْجَسَدِ. وَلَمْ يُبْقِ مِنهَا الزَّمَانُ إلاَّ نطفة ضعيفة، كَبَقية الرُّوحِ مِنَ الْمَيِّتِ في آخِرِ رَمَقِهِ؛ وهذه الخمرة التي ذَكَرَ الشَّيْخُ هِيَ: اخْتِمَار القلوب بِأَنْوَارِ المَحْبُوبِ، فَيُخْتَجَبُ عَنِ الأغْيَارِ، بِرُؤْيَةِ الْوَاحِدِ القَهَّارِ. وقد كَانَتْ هذه الخَمْرَة في الصدر الأول، ظَاهِرَة أنوارهَا. بَادية أسْرَارها على أَرْبَابِها. فَيَتَدَاوَلُونَها. بَيْنَهُمْ. ويتكَلَّمُونَ عَلَيْهَا بِأَلْطَافِ العِبَارات. وأنواع الإشَارَاتِ، ثم انْدَرَسَتْ. وقلْت: فخفيَت أنوارهَا، وبطنتْ أَسْرَارُهَا. فَكَأَنَّ خَفَاءَها وَبُطُونَهَا كَتْمٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لَهَا عَنْ غَيْرِ أَهْلِهَا. وَذَلِكَ لاسْتِيلاَءِ الْغَفْلَةِ على النَّاسِ، وانصِرَاف الهِمَّة إلى الدُّنيا. فَلَمَّا رَأى الحقُّ تعالَى النَّاس حَادُوا عَنْ بَابِه. وَلاَذُوا بِغَيْرِ جَنَابِهِ. حَجَب ذلكَ السِّرّ في قُلُوبِ أَوْلِيَائِهِ، وحَجَبَ أَوْلِيَاءَهُ فِي عِبَادِه. وَمَا قالهُ الشَّيْخُ رضي اللَّهُ عَنْهُ، مِنْ قِلَّة وجود هَذَا العلم واندِرَاسِهِ، قَالَه غَيْر واحدٍ قَبْلَهُ وبَعْدَهُ، وَمَا ذلِكَ إلاَّ لغرابته وعِزَّتِهِ. قال الجُنَيْدُ رَضيَ اللَّهُ عَنْهُ: عِلْمُنَا هَذَا الَّذِي نتكَلَّمُ فِيهِ، قَدْ طُوِيَ بِسَاطُهُ مُنْذُ عشرين سَنَةً. وإنما نتكَلَّمُ في حَواشِيهِ. وكَانَ أَيْضاً يقولُ: كُنْتُ أُجَالِسُ قوماً سنينَ، يتحاوَرُونَ في علوم لا أَفْهَمُهَا، وَلا أَدْرِي مَا هِيَ. وَمَا بُلِيتُ بِالإنْكَارِ قطُّ. كنت أتقبلها وأحبها مِنْ غَيْرِ أَنْ أَعْرِفَهَا. وكَان أَيْضاً يقول: كُنَّا نَتَحَاوَرُ مَعَ إِخْوَانِنَا قديماً في علوم كثيرة، ما نَعْرِفُها في وقتِنَا هَذَا. وَلاَ سَأَلَنِي أَحَدٌ عَنْهَا؛ وَهَذَا بَابٌ كَأَنه أُغلِقَ وَرُدِعَ. وقال في القوتِ: قال بعْضُ عُلَمَائِنَا: أَنَا أَعْرِفُ للمُتَقَدِّمِينَ سَبْعينَ علماً، كَانُوا يتجاورونَهَا ويتَعارفُونَهَا في هذا العلم. ولم يَبْقَ منها الْيَوْم عِلْمٌ واحدٌ. وأَعْرِف في زَمَانِنَا هَذَا علوماً كثيرة، مِنَ الأباطيلِ والغُرُورِ، والدَّعاوى ظَهَرَتْ وسُمِّيَتْ عُلُوماً. ثم قالَ: وكَانَ إمَامُنَا سَهْل يَقُولُ: بعد ستة وثلاثمائة: لا يحلُّ أَنْ يُتَكَلَّمُ بعِلْمِنَا هَذَا، يَعْنِي لِقِلَّةِ أَهْلِهِ. لأنَّه يُحدث قوم يستمعون الخلق، ويتزَيَّنُونَ بِالكَلاَمِ. يكُونُ مواجدهم لباسهُمْ ومَغدنِهم بطونُهُمْ. وحيلتهم كَلاَمهُمْ. وقال الأسْتاذ أبُو القاسم القشيْري رضي اللَّهُ عَنْهُ، في صَدْرِ رِسَالَتِهِ: اعلمُوا رحمكُمُ اللَّهُ، أَنَّ المحققينَ مِنْ هذِهِ الطَّائفة، انقَرَضَ أَكْثَرُهُمْ. لم يَبْقَ فِي زَمَانِنَا هَذَا مِنْ هَذِهِ الطَّائِفَةِ إلاَّ أَثَرُهُمْ. وفِي مَعْنَاهُ قِيل:

لاَ والَّذِي حجت قُرَيْشٌ بَيْتَهُ ... مُسْتَقْبِلِينَ الرُّكْنَ مِنْ بَطْحَائِهَا
مَا أَبْصَرَتْ عَيْنِي خِيَامَ قَبِيلَةٍ ... إلاَّ بَكَيْتُ أَحِبَّتِي بِفَنَائِهَا

أَمَّا الْخِيَامُ فَإِنَّهَا كَخِيَامِهِمْ ... وأَرَى نِسَاءَ الحَيِّ غَيْرَ نِسَائِهَا

قال ابن العربي الحاتمي رضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَالَ هَذَا في زَمَانِهِ. حيث أَدْرَكَ مَنْ تَزَيَّنَ بِزَيِّ الْقَوْمِ، وخالفَهُمْ فِي بَاطِنِهم. وأَمَّا الْيَوْمَ فَلاَ خِيَامَ وَلاَ نِسَاء. وقال الشيخ أَبُو مَدْيَنَ فِي قصيدته رضي اللَّهُ عَنْهُ:

وَاعْلَمْ بِأَنَّ طَرِيقَ الْقَوْمِ دَارِسَةٌ ... وَحَال مَنْ يدَّعِيهَا الْيَوْمَ كَيْفَ تَرى

وَقَالَ فِي الْمَبَاحِثِ:

يَا سَائِلاً عَنْ سُنَنِ الْفَقِيرِ ... سَأَلْتَ مَا عَزَّ عَنِ التَّحْرِيرِ

إنَّ الَّذِي سَأَلْتَ عَنْهُ مَاتَ ... وَصَارَ بَعْدُ أَعْظُماً رُفَاتَا

إلاَّ رسُوماً رُبَّمَا لَمْ تعْفُ ... وَذَاكَ مَا نَتْبَعُهُ وَتَقْفُ

وَهَبْكَ أَنْ تَظْفَرَ بِالأَوْطَانِ ... مَا السِّرُّ والمَغْنَى سوى القطَّانِ

وَكَانَ شَيْخُ شيوخنا سيدي علي العمراني رضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقولُ: من شكِّ تُونُس، إلى وَادِي نُون، لاَ تَجِد أَحَداً يَتَكَلَّمُ في هَذَا الْعِلْم، إلاَّ رَجُلاً أَوْ رَجُلَيْنِ. كِنَايَة عن قِلَّةِ وُجُودِ المُحَقِّقِينَ. وَلاَ يَدُلُّ هَذَا على انقطاعِهِمْ. في كلِّ زَمَانٍ رِجَال، يَرْحَمُ اللَّهُ بِهِمْ عِبَادَهُ. فَالْعَدَد المعلوم لا ينقطع، حتى ينقَطع الدِّين. قَالَ فِي لطائِف المِنَنِ: سُئِلَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ عَنْ أَوْلِيَاءِ العدد، أَينقصُونَ فِي زَمَنٍ؟ فَقَالَ: لَوْ نَقَصَ مِنْهُمْ واحِدٌ، مَا أَرْسَلَتِ السَّمَاءُ قَطْرَها. وَلاَ أَبْرَزَتِ الأرض نَبَاتَهَا. وَفَسَاد الوقت لاَ يَكُونُ بِذَهَابِ أَعْدَادِهِمْ. وَلا بِنَقْصِ إِمْدَادِهِمْ. ولكن إِذَا فَسَد الْوَقْتُ. كَان مُرَاد الله وقُوعَ اختفائِهِم. فإِذَا كَانَ أَهْلُ الزَّمانِ مُعْرِضِينَ عَنِ اللَّهِ. مُؤْثِرِينَ لِمَا سِوَى اللَّهِ. لاَ تنجح فيهم المَوْعِظَةُ، وَلاَ تُمِيْلُهُمْ إلى اللَّهِ التَّذْكرة. لَمْ يكُونُوا أَهْلاً لظهُورِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ فِيهِمْ. ولذلكَ قالوا: أولياءُ اللَّهِ عَرائِس. وَلاَ يَرى العَرَائِس المجرمُونَ. ثم قال: وَقَدْ قَال ﷺ: «**إِذَا رَأَيْت شُحّا مُطاعاً، وَهَوىً مُتَّبَعاً، وإِعْجَاب كُلِّ ذي رَأْي بِرَأْيِهِ، فَعَلَيْكَ بِخُوَيْصَةِ نَفْسِكَ**». فسمعُوا قول رسول الله ﷺ فآثروا الخفاء، بل آثرهُ الله لهم مع أنه لأنَّ منهم، أن يكون في الوقت أئمة ظاهرون، قائمون بالحجَّة، لقول رسول الله ﷺ: «**لاَ تَزَالُ طَائفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الحَقِّ، لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ إلى قيام السَّاعة**». وقال سَيِّدنا عَلِيٌّ كَرَّمَ الله وَجْهَهُ: اللَّهُمَّ لا تُخْلِ الأرْض مِن قائم لك بحجَّتِكَ. أَوَلئك الأقلُّونَ عَدَداً. الأعْظَمُون عِنْدَ اللَّهِ قَدْراً. قلوبُهُمْ معلقة بالمحلِّ الأعْلَى. أُولاَئِكَ خُلَفَاءُ اللَّهِ في عِبَادِهِ وَبِلادِهِ. آه. آه. أواشوقاه إلى

رُؤيتهم. قُلْتُ: وقد وُجدت هذه الأئمة في زماننا هَذَا. وظهروا ظُهُورَ الشمس في أُفُق السَّمَاءِ على مَن سَبَقَتْ لَهُ مِنَ اللّهِ الْعِنَاية. ثم مَنَّ اللّهُ علينَا بمعرفتهم وصحبتهم. فوجدناهم من أَهْلِ التربية النَّبَويَّة. سالكين الطريق. عارفين بِعَيْنِ التحقيق. سَلَكُوا بِلاَد التجريد. وخاضوا بِحَار التوحيد. داعين إلى اللّهِ بالهِمَّةِ والحلالِ. عارفين الاصْطِلاَح والمقال. ينهَضُونَ إلى اللّهِ بِالْحَالِ. ويَدُلُّونَ على اللّهِ بِالمقَالِ. سَلَكُوا مقام الجَذْبِ والْفَنَاءِ. وَرَجَعُوا إلى مقام البقاءِ. قَدْ هَدَى اللّهُ على أَيْدِيهِمْ الجَمَّ الغَفيرَ. وتخَرَّجَ عَلى أَيْدِيهِمْ خَلْق كثيرٌ. غَيْرَ أَنَّهُ لا بُدَّ للشَّمْسِ من سَحَابٍ. وللحسناءِ من نِقَابٍ. فَسَتَرَ اللّهُ سِرَّهُمْ ببَعْض ما يُظهر من بَعْض أَصْحَابِهِم من الأحوالِ الظلمَانية، والأفعال الشيطانية؛ وهم مُبَرَّؤُونَ مِنْهَا. يحذرون دائماً مِن فِعْلِهَا. وكَانَ أَمْرُ اللّهِ قَدَراً مقدوراً. وَبِاللّهِ التوفيق. ولا حَوْلَ ولا قوة إلاَّ بِاللّهِ العلي العظيم. ثم قال رضي الله عنهُ:

وَمِنْ بَيْنِ أَحْشَاءِ الدِّنَانِ تَصَاعَدَتْ　　　وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا فِي الْحَقِيقَةِ إلاَّ اسْمُ

قُلْتُ: هَذَا هو الصوابُ في اتِّصَالِ هَذَا البيْتِ بِمَا قَبْلَهُ لِلْمُنَاسَبَةِ. ولَعَلَّ النَّاسخ أَخَّرَهُ عَن مَحَلِّهِ. والأحْشاء، جمع حُشوَة بِالضَّمِّ وهُوَ مَا في البَطْنِ مِنَ الأمْعَاءِ. والدِّنَّان، جمع دَنٌّ، بفتح الدَّال، وشدّ النُّون. وهو فَخَّار كبير، أسفله رقيق، لا يجلس حتى يحفر لَهُ. ويُقَال له الرَّاقُود. يُخْزَن فيه الخمر والخلّ. وأطلقه هُنَا على القلوب، أو الأشباح؛ لأنها أوَانٍ للخمرة الأزلية. وتصاعد الشيء ارتفع. يَقول رضي اللّهُ عَنْهُ: قَدِ ارتفعَتْ هذه الخمرة، وتصاعدت من أَجْوَافِ النَّاسِ، ومن بيْن أحشاء الصُّدُور. ولم يَبْقَ منْهَا في حقيقة الأمْرِ، إلاَّ اسْمٌ بِلا مسمًّى. ورَسْم بِلاَ دَارٍ. وكذلك عِلْمُ التصوّف الحقيقي، لم يَبْق منه إلاَّ التشدق بِاللِّسَانِ، مَعَ خَرَاب الجنان، وفي ذلك يقول القائل:

أَهْلُ التصوّف قَدْ مَضَوا　　　صَارَ التَّصَوُّفُ مخرفَةْ

صَارَ التصوّف رتعة　　　وسَجَّادة مُزَوقَةْ

صَارَ التَّصَوُّفُ سُبْحَة　　　وَتَواجُداً ومِنطَقَةْ

كَذَبتْكَ نَفْسُكَ لَيْس ذِي　　　سنن الطريق المُلْحَقَةْ

وفيما تقَدَّمَ قَبْلَ هَذَا كِفَايَة. والبَرَكَة لاَ تنقطِعُ. وبِاللّهِ التوفيق. ثم قالَ رضيَ اللّهُ عَنْهُ:

فَـإِنْ ذُكِـرَتْ فِـي الْـحَـيِّ أَصْـبَـحَ أَهْـلُـهُ نَـشَـاوَى وَلاَ عَـارٌ عَـلَـيْـهِـمْ وَلاَ إِثْـم

قلت: الحيّ: القبيلة. قالهُ فِي القَامُوس. والنشاوى جمع نشْوَان، كسَكْرَان، وَزناً ومَعْنًى. يَقُولُ رضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إذا ذكرت هذه الخمرة، ذكراً حقيقياً بالعلم والحال في قبيلة أو مَذْشَرٍ، أوْ بلد. أَصبح أهل تلك القبيلة سُكَارَى وَالهينَ مِنْ ذكر الحبيب، غالب عنهم الجذب إلى الحَضْرَةِ الأزَلِيةِ. لكن بِشرط أَنْ يكُونَ ذاكرها غالباً عليه السكر والجذب مَعَ طرف مِنَ الصَّحْوِ وأن يَذْكرها مع أَهْلِها. فَإِنْ كَان كما قلْت، فَلاَ شَكَّ فِي سُكْر أَهْلِ ذلكَ البَلَد. وانجِذَابِهِمْ إلى الحَضْرَةِ. وإشراق أنوارها عَلَيْهِمْ. قلتُ: وقد شهدت هَذَا المعْنَى، حين خَرَجْنَا إلى قبيلة أنجرة والفَحْص، في العامِ الأول من مُلاَقَاةِ الشيْخ، حيْث كَان السكْر غالباً علينَا، فكُنَّا إذَا بتنا فِي مَنْزِلٍ. يُصْبِح أَهله جلهم سكَارى، يلهجون بذكر الله. وقد رَأَيْت الصبْيان، والرُّعَاة والحرَّائين يَتْبَعُونَا، وهم يَبْكُونَ. فَمَا كُنَّا نَرُدّهُمْ إلاَّ بِجُهْدٍ جَهِيدٍ. وقد رأَيْتُ في فَحْص طَنجة، أَصْحاب المخزن، وأَرْباب الدَّولة. علقُوا التسابيح، وتابُوا، وتركُوا مَا كَانُوا عليه. فحققنا هذا الأمر الَّذِي ذكره الشيخ عياناً والحمد لله. وقولهُ: وَلاَ عار عليهم.. الخ. تعريف بالخمرة الحِسِّيَّة. فإنَّها فيها الْعَيْبُ وَالإِثْمُ مِنْ قبل الشَّرْعِ. لتغييب الْعَقْلِ وتلفه في الظلمة. فتشغله عن ذِكر اللَّهِ، وعن الصَّلاَةِ بِخِلاَفِ هذه. فإنَّ العَقل يغيبُ في نورِ الحبيب، وبهائه وحسن جَمَاله. ففي ترْكها الْعَارُ والإِثْمُ، لاَ في تَعَاطيها، كما يأتي عنْدَ قوله:

وقـالـوا شَـرِبْـتَ الإثـم كَـلا وإنـمـا شربْتُ التي في تركها عِنْديَ الإثْمُ

وباللَّهِ التوفيق. ثم قال رضي اللَّهُ عَنْهُ:

وَإِنْ خَطَرَتْ يَوْماً عَلَى خَاطِرِ امْرِىءٍ أَقَـامَـتْ بِـهِ الأَرْوَاحُ وَارْتَـحَـلَ الْـهَـمُّ

يقول رضيَ اللَّهُ عَنْهُ: إذَا خَطَرَتْ هذه الخمرة الأزلية؛ وهِيَ الْمَعرفة الحقيقية؛ على قَلْبِ امرىءٍ موَحِّد مُطَهر من الأغيار، سالم من خيالاَتِ صُوَر الآثار. ودَامَ ذلِكَ الخطور، بحيث لاَ تخَلَّلهُ فتورٌ. أَقَامَتْ: أَيْ سَكَنَتْ في ذلِكَ الْقَلْبِ، بِسبب شهودِ تِلْكَ الْخَمْرَةِ، الأفراح والسّرور. والابتهاج والحُبُور. وارْتفع عنهُ الأحْزَان وَالْهُمُوم. بمُشاهدَة الحيّ القيوم؛ لأنَّ تلك الخمرة، هِيَ مَعْرفة الذات الأزلية. على ما يأتي في تفسيرها إن شاء اللَّهُ. وَجَنَّةُ المعارف، أَحْظَى عند العَارفين مِنْ جَنَّةِ الزَّخارِف؛ لأن من دَخَلَ جَنَّةَ المعارف، لَمْ يشتق إلى جنَّة الزَّخَارف. وقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

أي في الدّارين. وقال تعالى في الحديث القدسي: «أعددتُ لعبادي الصَّالِحينَ. مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلى قَلْبِ بَشَرٍ». ولم يُقيّدْ ذلِكَ في الدّنيا وَلاَ الآخِرَةِ. فهو حاصل لهم في الدَّارَيْنِ. وأيْضاً: إنَّمَا تطرق الهُمُومُ والأحْزَان، بسبب وجود الإنسَان. وأمَّا مَنْ تحقق له الزَّوال. فَلاَ يرى إلاَّ غاية الكَمَال. مَا تجده القلوب من الأحْزَانِ. فلما منعت من الشهود والعيان. كَمَا قَالَ صاحِب الحِكَم: «أوحى اللَّهُ إلى داود عليه السَّلاَمُ: يا داود، قل للصديقين: بي فَلْيَفْرَحُوا. وبِذِكْرِي فَلْيَتَمَتَّعُوا»، أي لاَ يَصْفُو الْفَرَحُ. ولا يكمل النَّعيم. إلاَّ بالنَّظَرِ إلى وجهه الكريم. وَقَالَ تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾. أيْ لا بغيره. ففضل الله معرفته، وَرَحْمَتَهُ: هدايته. وقال الشَّاعر في هَذَا المَعْنَى:

أَنْتُمْ سُرُورِي وأَنْتُمْ مُشْتَكَى أَلَمِي ... وَأَنْتُمْ فِي ظَلامِ اللَّيْلِ أَقْمَارِي

فَإِنْ تَكَلَّمْتُ لَمْ أَنْطِقْ بِغَيْرِكُمْ ... وَإِنْ صَمَمْت فأنتم عِقْدُ إضماري

وقال آخرُ:

إنَّ عِرْفَانَ ذِي الْجَلاَلِ لَعِزٌّ ... وضِيَاء وبَهْجَة وَسُرُورُ

وَعَلَى الْعَارِفِينَ أَيْضاً بَهَاءٌ ... وَعَلَيْهِمْ مِنَ الْمَحَبَّةِ نُورُ

فَهَنِيئاً لِمَنْ عَرَفَكَ إلَهِي ... هُوَ واللَّهِ دَهْرَهُ مَسْرُورُ

وقُلْتُ في تائيتي الْخَمْرِيّةِ:

فَفِي سَكْرَةٍ مِنْهَا سُرُورٌ وَغِبْطَةٌ ... وخَيْرُ حَيَاةٍ فِي نَعِيمٍ وبَهْجَة

وقلت في عيْنيتي:

ولِي لَوْعَةٌ بِالرَّاحِي إذْ فيهِ رَاحَتِي ... وَرُوحِي وَرَيْحَانِي وَخَيْرُهُ وَاسِعُ

وإنما قَيَّدْنَا كَلاَمَ الشيخ بِدَوَام خطور تلك الخمرةِ؛ لأنَّ مطلق الخطور والمرور، لاَ يُوجب دَوَام السّرور، لأن ذلك كبرق سَرَى. فإذَا انْسَدَلَ الحجاب، برفع ذلك النُّور، زال الْفَرَح والسّرور؛ لأن صاحب هَذَا المقام، صاحب تلوُّنٍ. وصاحب التلوين ما زال في السَّيْرِ مَعَ السَّائِرينَ، والسَّفر قطعة من العذاب، فلا يستريح مِنَ التَّعَبِ، وَلاَ يُفَارِقهُ النَّصب، حتى يصِل إلى مَقَام التَّمكِين. فحينئذٍ يسْكن فسيح الجنان. وتضمحلّ عَنْهُ الْهُمُومُ والأحْزَانُ، كما تقدَّمَ. وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.
ثم قالَ رضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وَلَوْ نَظَرَ النُّدْمَانُ خَتْمَ إِنَائِهَا لأَسْكَرَهُمْ مِنْ دُونِهَا ذَلِكَ الْخَتْمُ

قلتُ: النَّدْمَان، يكون مُفرداً ويكونُ جَمْعاً كَمَا فِي الْقَامُوسِ. والْمُرَادُ هُنَا الجمعُ. بِدَليل جَمْعِ الضَّمِير في قوله: لأسكرهم، وهم الجماعةَ التي تتحدَّث على الْخَمْرِ في مَجْلِسِهِ. وَخَتْمُ الإناء: مَا تُسَدّ بِهِ. يقول رضي اللَّهُ عَنْهُ، في تشبيه الخمرةِ الأزلية، بالخمْرَة الحسّية، أو بالرّحيق المختوم في الجنَّة. فإنَّ هذه الخمرة الأزلية، مخزونة في أوانِيها. مختوم عليها بختام الحفظ والصّيَانَة. فلو نَظَرَ القاصدون لشربِها. إلى ذَلِكَ الْخَتْم، لسَكروا قبل الشُّرْبِ. فما بالكَ بالشرْبِ. فما بَالُك بالرّيّ. قلت: وأوَانِي هذه الخمرة؛ هي: بواطن العَارفين. وخَتْمُها هي ظواهر بَشريتهم. فكُلُّ من قَصَدَهُمْ بِالتَّعْظِيم والأدَبِ، ونظر إليه بالخضوع والانكسارِ، والذِّلّة والافتقار. جَازِماً بوجود خصوصيتهم، سَكِرَ لمجَرَّدِ رُؤْيتهم، قبل أَنْ يَأْخُذَ عَنْهُمْ وَيُصْحِبَهُمْ. وقد شهدنَا هَذَا السّرّ من أنفسنَا، ومن أشياخنا. فكثير من الْمُرِيدِينَ، حَصَلَ لهم الجَذْبُ والسّكْرُ، قبل أَنْ يتلقَّوْا الوِرْد، بل لمجرَّدِ الرؤية. وقد رَأَيت بعض النَّصارى بثغر سبته، حين قدِمْنا عَلَيْهَا، لمَّا عَقدنا حلقة الذِّكر. انجذبُوا وتبعونَا إلى منتهَى الحَدّ الّذي بيْننا وبيْنَهُمْ. وبَقوْا مَبْهُوتِين واقفين خَلْفَنَا. لما أَشرقَ عليهم من نورُ الخَمْرَةِ. واللَّهُ تَعَالى أَعْلَمُ. قال القطب مَوْلاَنَا ابن مشيش رضي اللَّهُ عَنْهُ في هذا المعْنَى ـ لمَّا تَكلَّمَ على المحبّة ـ فمِنْهم من يَسْكرُ بشهودِ الكأسِ. ولم يَذق بعد شيئاً. فَمَا ظنُّكَ بَعْدُ بِالذَّوْقِ، وبَعْدُ بالشُّرْبِ. وَبَعْدُ بالرَّيِّ. وَبَعْدُ بِالسُّكْرِ بالمشروب. ثم الصحو بعد ذلِكَ على مقادير شتَّى. كما أسكر أيضاً كذلك. والكَأْسُ: مِعْرفة الحقّ، يُغرف بها ذلك الشراب الطهور الصّافي لمَن يشاء من عبادِهِ المخصوصينَ من خَلْقِهِ. فتارة يشهد الشارب تِلْكَ الكَأس صورة، وتارة يشهدهامعنوية. وتارة يشهدها علميّة. فالصّورة حظّ الأبْدانِ والأنفس. والمعنوية حَظ القلوب والعقول. والعلمية حَظُّ الأرواح والأسْرَار. فَيَا لَهُ من شَرَاب ما أَعْذَبَهُ؛ فطوبَى لمَن شَرِبَ ودَامَ ولم يقطع عَنْهُ. نسْألُ الله من فَضْلِهِ ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾. وقد تجتمع جماعة من المحبِّينَ فَيُسْقَوْن مِنْ كَأْسٍ وَاحِدَةٍ. وقد يُسْقَوْنَ من كؤوس كثيرة. وقد يُسْقى الْوَاحد بِكأس وبِكؤوس. وقد تختلف الأشربة حسَب عدد الأكوَاس. وقد يختلف الشّرب من كَأْسٍ واحِدَةٍ. وإن شَرِبَ منْهُ الجَمُّ الْغَفِيرُ مِنَ الأحِبَّةِ. انتهى كَلاَمه رضيَ اللَّهُ عَنْهُ. وقوله: فتارة يشهد الشارب تلك الكأس صورة، أي يشهدها حسّية. ويشرب مِنْها خَمْراً حسّياً. على وَجْهِ الْعَادَةِ. ويكون هَذَا في حَالِ البِدَايَةِ

في الجذْبِ الأول. وقد أَخبَرَنِي أَخِي، أنه كَان يجد في فَمِهِ طعم الخمر الحسي. وروائحته الحسية، في جذبِهِ الأول. وتارة يَشهدها معنوية. يعْني يشهد حَلاَوة المعاملة. ولذيل الطاعَة. فيغيب قلبه في حالة الذِّكرِ. وإن كَان مَسْدوداً عليه الحجاب. وقوله: تارة يشهدها علمية، أي يشهدها بِالْعِلْم. والمراد بِهِ عِلْمُ الْوَحدة برَفْع الحجاب. فيسكر في شهود أنوار الحبيب، ثم يَصْحُو مِن سُكره. وقوله: فالصّورة حظ الأبْدانِ والأنفسِ؛ لأنَّ هذه الحالة، تكون لأهلِ البدايات، فأبدانهم كثيفة. ونفوسهم قوية. فلا يؤثر فيهاإلاّ الشيء المحسوس. وأَيْضاً. من نَوْع الكَرَامَة الحسية، فيتقوّى بِهَا المبتدىء دون المنتهي. وقوله: والمعنوية حظّ القلوب والعقول. إنما كانت المعنوية حظّ القلوب والعقول؛ لأنَّ هذه الحالة، تكون للمتوسطينَ السَّائرينَ. قَدِ انقلبَتْ مُعَاملتهم البَدَنية. قلبية وعقلية. فلا يسْقَوْن إلاَّ مِنَ المَعَاني اللطيفة، وإن كَانُوا محجوبينَ عن رُؤْيَتهم ولكنَّهم مسْتشرفون عَلَيْهَا، قد لاَحَتْ عَلَيْهِمْ أنوارها. وأشرقت عليهم أسرارها. وقوله: والعلمية حظُّ الأرواح والأسْرَار؛ لأنَّ الرُّوحَ والسّرّ هو محلّ الشهود والعلم بالوحدة. فلا تسْقي إلاَّ مِنْ مَادَّة العِلم. فالوحدة، حتى تغرق في عيْن بَحْر الوحدة. وَلاَ تسمَّى روحاً وَلاَ سِرّاً، حتَّى ينكشف عنها الحجاب. وتدخل مع الأحْبَاب. وإلاَّ فيُقال فيها النَّفس والعَقل، والقَلْب. والموضوع واحدٌ. وقد قُلْتُ في هَذَا المَعْنَى من قصيدتي الرَّائيَة: التي أُنْشِدها في الرُّوحِ، وتقلبات أطوارها. فقلت في بَعْضِهَا:

هِيَ النَّفْسُ ثُمّ العَقْلُ وَالْقَلْبُ تَالِيا ... لَهَا الرُّوحُ ثُمّ السّرُّ في صَفَاءِ التِّبْرِ(1)

فَإنْ أَخْلَدَتْ أَرْضُ الْهَوَى وتَظَلَّمَتْ ... فَنَفْساً تُسَمَّى ذَاكَ فِي أَوَّلِ الأَمْرِ

وَإنْ عقلت أَيْدِي الْهَوَى بِأَزِمَّةٍ ... فَعَقْلٌ بِهِ نيطَ التكَلُّفُ بِالأمْرِ

وإن سَكَنَتْ لِلْخَيْرِ لَكِنْ خَوَاطِرُ ... تُقَلِّبُهَا قَلْبَ السُّفُنِ عَلَى الْبَحْرِ

بِذَاكَ تُسَمَّى الْقَلْبَ مَالِكُ أَمْرَهَا ... بِهِ صَلاَحُ الأعْضَاءِ في السِّرِّ وَالْجَهْرِ

وَإنْ لَحَظَتْ رُوحُ الْوِصَالِ يَؤُمُّهَا ... وَزَالَ تَعَبُ الحِسّ في سَاعَةِ الذِّكْرِ

فَرُوحاً تُسَمَّى في نَشَاءَةِ أَصْلِهَا ... وَلَكِنْ بَقَايَا الحِسّ تَشْرُقُ لِلْبِرِّ

فإنْ صُقِلَ الْمِرْآةَ عَنْ غَبْشِ حِسِّهِ ... فَذَلِكَ سِرُّ اللَّهِ ضُمَّ إلى السِّرِّ

انتهى المقصود مِنْهُ.

---

(1) التّبر: قطعة من الذهب أو الفضة، لا زالت على أصلها.

وقوله: وقَدْ تجتمع جماعة.. الخ يعْني. قد تسْقى جماعَة على يَدِ شَيْخ واحدٍ؛ وهُوَ الْمُرَاد بالكَأسِ. وقولهُ: وقد يُسْقَى من كؤوس كثيرة. أي كل واحد يشرب من واسطة شيْخه. وقوله: وقد يُسْقى الواحد بكأسٍ وبكُؤُوس. يَعْنِي أَنَّهُ يُسْقَى أَوَّلاً من كَأسِ شيْخ. ثم يُسْقَى مِن شيوخ أُخْرَى. إذَا أَذِنَ لَهُ شيْخُه فِي مُلاَقاتهم. وقد يكون للمجذوب نحوُ أَرْبَعِينَ شيْخاً. كلهم غرَف منْهُم. إلاّ أَنَّ هَذا نادِرٌ. أَوْ يَكُونُ بَعْدَ الترْشيد. واللّهُ تَعالى أَعْلَمُ. وقولهُ: وقد تختلف الأشربة، يعني يكون بَعْضها ممزوجاً بالصَّحْوِ؛ وهو الكامل من الشراب، وبعضها يكونِ جَذْباً صِرْفاً ثم يصْحُو. وبعضه الجذب غالبٌ. وبَعْضُها السلوك غالبٌ. إلى غَيْرِ ذَلِكَ. وَذَلِكَ بِحَسَبِ المشروب. وعلى عدد الكؤوس. وقولهُ: وقد يختلفُ الشُّرْبُ من كَأْسٍ واحدة. أي من يَدِ شَيْخ واحدٍ. فيكون الماء واحداً. والزّهر ألواناً. فالخمر واحد، والأواني مختلفة. فبعْضها صَلْبة قوية واسِعَة. لاَ يَغْلبها السُّكْرُ. وبعضها رقيقة لطيفة، أو ضيقة؛ أقل شيء يؤثر فيها. والماء واحدٌ وهو الصحو لكمال السَّاقي. واللّهُ تَعَالى أَعْلَمُ. وباللّهِ التوفيق. وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّة إلاَّ باللّه العليّ العظيم. ثم قال رضيَ اللّهُ عَنْهُ:

وَلَوْ نَضَحُوا مِنْهَا ثَرَى قَبْرِ مَيِّتٍ ... لَعَادَتْ إلَيْهِ الرُّوحُ وانْتَعَش الْجِسْمُ

قُلْتُ: النَّضْحُ: الرّشُّ. والثَّرَى: التراب. وانتعشَ: انتهضَ وارْتفَعَ. يقول رضي اللّهُ عَنه: هذه الخَمْرَة الأزلية؛ وهي الحقيقة الإلَهية لها قوّة عظيمة. وتأثير قوَيٌّ في قَلْبِ الحقائق، وخَرْق العوائد الحسّية والمعنوية. فلو رشَّ أصحابُها منها رشة على قَبْر ميّتٍ، لنَهَضَ وارْتفع من قَبْرِهِ بإذْن رَبِّهِ. ويقوى تأثيرها بقدْر تحقيقها. وحصولها في قَلْب صاحِبِهَا. حتى يكون من تحقق بهَا. أَمْرُهُ بِأَمْرِ اللّهِ. ولذلك كَانَت الأنبياء والرُّسُل، تنفعل لهم الأشياء، وتخرق لهم العوائدُ أكثرَ من غَيْرهم. فكَان سيّدنا عيسى عليه السلامُ، يحيي المَوْتَى، وَيُبْرِىءُ الأكْمَه والأبْرَصَ بإذْنِ اللّهِ. وَكَانَ نَبيُّنَا عليه الصَّلاَة والسلامُ يُطعم الجمَّ الغَفِير من صَاع مِن طعام. ويسْقي الجيش الكثيرَ من بين أصَابِعِه الشَّريفة ﷺ. وقد أَحْيَا الموءُودَة، وخيَّرها في الرجوع أو البقاء، فاختارت الرجوع إلى ربّها. وأَحْيَا أَبَوَيْهِ حتى أَسْلَمَا على قَوْلٍ. وَرَدَّ عَيْن قتادة بعد أن انتثرتْ في يدهِ. فكَانَتْ أَحْسَنَ عيْنيْهِ. إلى غَيْرِ ذلكَ مِمَّا لاَ يَنْحَصِرُ. وكرامةَ الأولياء من هذا المَعْنَى متواترة، لا يمكِن حَصْرها. ويحتمل أَنْ كَلاَم الشيخ، على سبيل المجاز والإشارة. فيُريد بثَرى قَبْرِ الميّت، بشرية الجاهل

أو الغافِل. وبانتعاش روحِهِ: حياتها وارتفاعها بالمعرفة والْعِلْم. أي ولو نَضَحَ العارفون من خَمْرَة هِمَّتِهم على ظاهر من ماتت روحه بِالجَهْلِ والغَفْلَةِ، لحييَتْ وانْتَهَضَتْ إلَى حَضْرَةِ الحقّ. وارتفَعَتْ بالعلم والذِّكْرِ من سَاعتها. وهَذَا الأمر مجرَّب عند أَهْلِ الصِّدقِ. وفي بعض الأثر: «إنَّ لله رجَالاً مَنْ نَظَرَ إليهم سَعِدَ سعادة لا يشقى بَعْدَهَا أبَداً». وكان الشيخ أَبُو العبَّاس المرسي رضي اللَّهُ عَنْهُ يقولُ: «واللَّهِ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ الرَّجُل إلاّ أَنْ أَنظُرَ إِلَيْهِ وَقَدْ أَغْنَيْتُهُ». وقد شهد له بذلك شَيْخُهُ. فقال: نِعْمَ الرجلُ أَبُو العباس؛ يأتيه البَدَويّ يَبُول على سَاقَيْهِ. فَلاَ يُمْسِي إلاَّ وَهُوَ وَلِيّ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ. ولقد سمعتُ شَيْخَنَا البُوزَيْدِي رضيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: إذَا كَانَ الشيخ أَبُو العباس، يُغْنِي بالنَّظْرَةِ. فَلَقَدْ بَقِيَ في زَمَانِنَا هَذَا، مَن يُغْنِي بالنَّظْرَةِ كالشيخ أَوْ أَكْثَرَ. وسمعت شيخه مَوْلاَي العربي رضِي اللَّهُ عَنْهُ يقول: لقد بقي العارفُونَ في زمانِنا هَذَا، كالشَاذلي وأَمْثَالِهِ ـ يُشِير إلى نَفْسه رضي اللَّهُ عَنْهُ ـ وهذا أَمْر شهير عند أَهْلِ الذّوْقِ وأَهْلِ الصّدق. كل مَن قَصَدَهُمْ بالصِّدْقِ ربح مِنْ سَاعتِهِ. وحيي بَعْدَ مَوْتِهِ. وهذا الاحتمال عندي أقربُ، لتحقق هذا الأمر للعارفينَ بخلاف الأول. فإنه مِنْ باب الكرامَة الحسية. وَهُمْ لاَ يلتفتون إلَيْها. وقد لا تَظْهَر لَهُمْ. فكم من عارف كاملٍ، أَحْيَا الله على يده الجمّ الغفير من أموات النُّفُوسِ والقلوب. ولم يظهر على يديه شيء من الكَرَامات الحسّية إلاّ القليل. كإحياء الموتى الّذي ذكره الشيخ. وأيضاً: عِلْمُنَا كُلّه إشارة وأَلْغاز، فَلاَ يُحْمَل على ظاهرِهِ إلاَّ مَن لم يعرف مقصدهم. والله تعالى أَعْلَمُ. ثم قال رضي اللَّهُ عَنْهُ:

وَلَوْ طَرَحُوا في فَيْءِ حَائِطِ كَرْمِهَا ... عَلِيلاً وَقَدْ أَشْفَى لَفَارَقَهُ السَّقَمُ

قلت: الفيْء: ظل الشيء بعد أن كان شَمْساً. والحائط: البسْتان. وأَشْفَى عَلَى الْموْت. أَشرف عليه. يَقُول رضي الله عَنْهُ: هذه الخمرة الأزلية، لقوّة تأثيرها تشفي الأسْقام والْعلل. قبل ظهورها من موادهَا. فَلَو طرح عليل، وقد أَشْرَف على الْهَلاك. في ظل بسْتانِ أشجارها قبل أن تعقَّر بل قبل أن يظهر عنبُها. لشَغَلَهُ اللَّهُ. وَفَارقه السُّقْمُ من سَاعته. وهَذَا يحتمل أَنْ يكون مُبَالغة في مَدْحِهَا. وأَنَّها لو كانت حسّية.

وجُعل ذلك، لكون الأمْر كَمَا قَالَ. ويحتمل أن يريد به العليل سقيم القلْب. وبالحائط، بسْتان العارفينَ. فكل مَنْ دَخَلَ في ظِلّ صحبتهم ومحبّتهم، شفاهُ اللَّهُ مِنْ مَرَضِ قَلْبِهِ، ولو أشرف على الهلاك. بالشكوك والخواطِرِ، والذّنوب

والجرائم. وهذا أيضاً مجرَّب. إذ الْمَرْءُ على دين خليله. ومن تحقق بِجلالةٍ، لا يَخْلُو حَاضِرُوهُ مِنْهَا. وفي الخَبَرِ. «تَعَلَّمُوا اليقين. بمجالسة أهل اليقين». واللَّهِ ما أفلح من أَفْلحَ؛ إلاَّ بصُحْبة مَنْ أَفْلَحَ. وفائدة الصحْبة وثمراتها. أمْر شهير لا يحتاج إلى دليل. وجَرّبْ. ففي التجريب عِلْم الحقائق. ولابْنِ عَبَّادِ رضي اللَّهُ عَنْهُ في نَظْمِ الحِكَمِ.

إِنَّ التَّواخي فَضْلهُ لا يُنْكَرُ، وَإِنْ خَلاَ مِنْ شَرْطِهِ لاَ يُشْكَرُ. والشَّرْط فِيهِ أَنْ تُوَاخِيَ الْعَارِفَ، عن الحُظُوظِ واللُّحُوظِ صَارِفاً.

مقاله وحاله سَيَّانِ مَا دَعونَا إلاَّ ... إلى الرحْمَنِ أَنْوَارُهُ الدَائِمَة السرايَا

فِيكَ وَقَدْ حُفَّتْ بِكَ الرِّعَايَةُ

وقال سيدي إبراهيم التَّازي رضي اللَّهُ عَنْهُ: «زِيَارة أَرْبَابِ التُّقى مَرْهَمٌ يُبْري وَمِفْتَاحُ أَبْواب الهِدَايَةِ والْخَيْرِ. وَتُحَدِثُ فِي قَدْرِ الْخِلِيِّ إِرَادَةٍ».

ونَشْرَحُ صَدْراً فَاقَ مِنْ سعَةِ الْوِزْر ... وَتَنْصُر مظلوماً وتَرْفَعَ خاملا

وتكسب معدوماً وتُجْبَر ذَا كَسْرِ ... فَكَمْ خَلَّصَتْ مِنْ لجَّة الإثْمِ فَاتِكا

فَأَلْقَتْهُ فِي البَحْرِ والبَرّ. إلَى أَنْ قال:

وَلاَ فَرْقَ فِي أَحْكَامِهِ بَيْنَ سَالِكٍ ... مُرِبٌ وَمَجْذُوبٍ وَحَيٌ وَذِي قَبْرِ

وَذِي الزُّهْدِ وَالعُبَّادِ فَالكُلُّ مُنْعَم ... عَلَيْهِ وَلَكِنْ لَيْسَتِ الشَّمْسُ كَالْبَدْرِ

ثم قال رضِي اللَّهُ عَنْهُ:

وَلَوْ قَرَّبُوا مِنْ خَانِهَا مُقْعَداً مَشى ... وَتَنْطِقُ مِنْ ذِكْرِه مَذَاقتَها الْبُكْمُ

قلْتُ: تقدَّمَ أن الْخَان: هو حانُوتُ الْخمَّارِ أَوْ دَارُهُ. يقول رضي اللَّهُ عَنْهُ: ولو قرَّبُوا مَحْبُوساً عَنِ المَشيْ. مِنْ محل هذه الْخَمْرَةِ الأزَلية. لاَنْطَلَقت رِجْلاهُ للمَشي سَريعاً. قَبْلَ الْوصُول إلى مَحِلِّهَا. فَمَا بالُكَ لَوْ دَخَلَ خَدنَهَا أَوْ شَرِبَ مِنْهَا. وكذلك لو ذكرت حَلاَوة مذاقتها عِنْدَ الأبْكَم. لنَطقَ سريعاً مِن بَرَكَةِ ذِكْرِهَا. فَمَا بالُكَ لَوْ ذَاقَها بِلسانِهِ. وهَذَا الَّذي ذَكَر، يَحْتَمِل أَنْ يَكُونَ حقيقةً، فإنَّ في كَراماتِ الأولياء، مثل هذا أو أكثر. كقصَّة الجارية التي كانَتْ مقعدة سِنينَ. فلمَّا بات عند أَهْلها رجل صالح تَوَسَّلَتْ بِهِ. فقامَتْ مِنْ حينها. إلى غَيْر هَذا مما يظهر على يَدِ الأولياء، من الكَراماتِ الحسية. ويحتمل أن يكون مجازاً. فيكون المراد بالمُقْعَد؛

مَن حُبِسَ عن الخَيرَات. وأقعده الكسل على الطَّاعاتِ. وحَبَستْهُ الشهوات، عن النهوض إلى المقاماتِ. فإذا قرب من أَهْل هذه الخمرة؛ وهم العارفُونَ، انطلقَتْ قيودُهُ. ونشط إلى السَّيْر ظاهراً وباطناً. ويكُون المراد به الأبكم: مَنْ أَخْرصته الْغَفْلة، وعقد لسانَهُ الجهْلُ والبِدْعةُ. فَلاَ ينطق إلاَّ بما لاَ يَعْنِي. وَلاَ يتكلَّم إلاَّ فِي الحسّ فإذا صحب العَارفينَ، تَجَوْهَرتْ نَفسهُ. وانطلقَ لِسَانُهُ. فيتكلَّمُ بالحِكَم والْعُلُوم اللَّدُنية. وفي الخَمَارِ: «مَنْ زَهِدَ في الدُّنْيَا أَرْبعينَ يَوْماً. نطق بِالحِكْمَةِ» أَوْ كما قَالَ. وقال أَبُو سليْمَان الدَّاراني رضي اللَّهُ عَنْهُ: إِذَا ابْتَعَدَتِ النُّفُوس على تَرْكِ الآثام. جَالَتْ فِي الملكوتِ. ثم رَجَعتْ إلى صاحِبِهَا بطرائف العلوم. مِنْ غَيْر أَن يُؤَدِّيَ إليها عالمٌ عِلْماً. ثم قال رضي اللَّهُ عَنْهُ:

وَلَوْ عَبِقَتْ فِي الشَّرْقِ أَنْفاسُ طِيبِهَا وَفِي الْغَرْبِ مَزْكُومٌ لعَادَ لَهُ الشَّمُّ

قلت: عبقت الريح: إذا هبَّتْ وقال في القاموس: عَبِقَ عَبْقاً وعباقة: برق. وَلاَ يُنَاسِب هُنَا. والأنفاسُ جمع نَفَسٍ بالتحريكِ وَهُوَ الرِّيحُ. يقول رضي اللَّهُ عَنْهُ: لَوْ هَبَّتْ أَنفَاس طيبِ هذه الخمرةِ الأَزَلية مِنَ المَشرقِ. وفي المغربِ مَزْكُومٌ أي مَريضٌ بِالزُّكامِ. وهو الَّذي لاَ يَشُمُّ شيئاً. ثم وصَلَتْ إليهِ أَنْفَاس تلك الخمرَة؛ أيْ نسميها الطيبَ، لعادَ لَهُ الشَّمُّ. صَارَ صحيحاً من بَرَكَةِ طيبهَا. وقوة ذكَائِهَا. وهذا يحتمل أَيْضاً. أن يكُونَ على ظاهرةِ. مُبَالغَة في مَدْحِ نَسِيم هذه الخمرة. لو ظَهَرَ للحسّ ويحتمل أن يكون المراد بالمزوكوم. مَنْ لا يشمُّ شيئاً من رائحة الخصوصية. مريض بالإنكَار على أَهْلِهَا. فإنَّهُ لو تَوَجَّهَتْ إليه هِمَّتُهُمْ، وَعبقت أنفاس خَمْرتهم نحوه. وَلو كان بعيداً منهمْ فِي المسافات؛ لزَالَ عنهُ الإنْكَارُ. شَمَّ رائحة الوِلاَية عَلَيْهم، وبَادَرَ إلى صحبتهِمْ وخِدْمَتهَمْ، حتى ينخَرِط فِي سِلْكِهِمْ، ويجلس على بِسَاطِ الْقُرْبِ والمؤانسة في مجلسهم. واللَّهُ تعالى أَعْلَمُ. ثم قال رضِي اللَّهُ عَنْهُ:

وَلَوْ خُضِبَتْ مِنْ كَأْسِهَا كَفُّ لامِسٍ لَمَا ضَلَّ فِي لَيْلٍ وَفِي يَدِهِ النَّجْمُ

قلتُ: خُضِبَتْ كفّه: لوَّنها بِالخَضيبِ. ولمسه يلمِسهُ ويلمَسهُ: مسَّهُ بيَدِي. وَضَلَّ يَضِلّ بالكسر والفتح. ضاع وتلف. قال فِي القاموسِ. يقول رضي اللَّهُ عَنْهُ: لَوْ خُضِبتْ مِن كَأْسٍ هذه الخَمْرة الأزلية كفّ. مَن مسَّها لأشرَقت يده، وصَار نَجْماً يُهْتدى بِهَا في ظلمة البَرّ والبَحْرِ. وتصير يده، كيَدِ سَيِّدنَا موسى عليه السلامُ، حينَ ضَمَّها إِلَيْهِ. فإذا سَار في الليل، اهتدى. فلا يضلُّ عن الطريق. كَمَن في يدهِ نَجْم

يُضيء له الطَّريق. وهذا أَيْضاً يحتمل أن يكون على ظاهره، مبالغة في تأثرها فِي خرق العَوائِد الحسّية. ويحتمل أن يريد بخضب الكف منها، مُبَاشرتها للقلبِ. واتصالها بِهِ. فإنها لو توقفت إليه، لأضَاءَ له نُورٌ يهتدي به. في حل مشكلات بَرّ الشرائع. وغوامض تَجرّ الحقائق. فلا يضلّ في سيره إلى عَيْن التحقيق. وفي قلبه هذا النّور العظيمُ. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾. أي نوراً يُفرّق بيْن الحق والباطل. وفي كَلاَمِ الشيخ أَبي الحَسَن الشاذلي رضي اللّهُ عَنْهُ، ما يُوَافق هذا الاحتمال؛ أعني: إطلاقَ الحسّ على وصول علم الحقيقة إلى القلب. فإنه قال: المحبَّةُ: آخذة مِنَ الله، قلْب عبْده، عن كُلّ شيْءٍ سِوَاكَ. فترى النفس ملائكة متحصّنَة بِمَعْرِفَتِهِ. والرّوح آخِذة فِي حضْرَتِهِ. والسرّ مغموراً في مشاهدتِهِ. والعبد يسْتزيد من حُبّه. فيزيد، ويفاتح بما هو عَذْب مِنْ لذيذِ مُنَاجَاتِهِ. فيكسى حلل التقريب. على بِساط القربة. وَيَلْمس أَبْكَار الحقائق، وثيِّبات العلوم. المراد منك. فأطلق المَسّ على وُصُول العِلم إلى الْقَلْبِ وجعل عِلْمَ الحقائق كَالأبْكَار. وعلم الشرائع كَالثّيبات. لصعوبة إدراك الأول دونَ الثاني. إذ قَدْ يُدركه مَنْ لاَ خَلاَقَ لهُ من العصاة، وقُضَاة الجُور. واللّهُ تعالى أَعْلَمُ. ثم قال رضي اللّهُ عَنْهُ:

وَلَوْ جُلِيَتْ سِرّاً عَلَى أَكْمَهٍ غَدَا ... بَصِيراً وَمِنْ رَاوُوقِهَا تَسْمَعُ الصُّمُّ

قلْتُ: جُلِيَ الأمْرُ بالبِنَاءِ لِلْمَفْعُول: كُشف وانجلَى. والأكْمَهُ: الَّذِي وُلِد أَعْمَى. والروْوق: لم يذكره في القاموس بالهَمْزِ. وإنما ذَكَرَهُ بالْوَاوِ فقال: والرَّاووقُ: المُصَفَّات؛ أي الخَمر المُصَفَّات والباطنة. وخمر: الشراب الذي يروق بِهِ والكَأسُ. إلاّ أنَّ قَلْبَ الواو هَمْزَة جَائِزٌ. كَأُقِّتَتْ، ووقّتَتْ. وقال أيضاً: والروق: الإعجاب به لشيء وقدراته: أعجبهُ، والصُّمُّ جَمْع أصَمّ. يقول رضي اللّهُ عَنْهُ: لَوْ كُشِفَتْ هَذه الخَمْرَةِ الأزَلِية، وأظهرت سرّاً على رَجُل خُلِقَ أَعْمَى، لَغَدا، أيْ مَاتَ بصيراً من سَاعَتِهِ. كما كَان ذلِك لسيّدنا عِيسَى عليه السلامُ. ولغيْرِهِ مِنَ الأوْلياءِ. فإن قُلْتَ: كَشْفُهَا يقتضِي الإظهار والجَهْرَ؛ وهو يُنافِي في قوله سِرّاً. قُلْتُ: هذه الخمرة الأزلية؛ هِي معاني لطيفة غَيْبية. فإظْهارها لعَالَم الشَّهَادَةِ، هو كَشفُهَا وجلاؤهَا. وَلاَ شَكَ أَنَّ بُرُوزهَا لعالم الشهادة، يكُون سِرّاً، ويكُون جَهْراً. فَعَبَّر النَّاظم بالسّرِّ مُبَالغَة. ليكُون الجَهْرُ أوْلَى. أي فَلَوْ بَرَزَتْ مِنْ عَالَم الغَيْبِ، إلَى عَالَم الشهادة سِرّاً. لعادَ الأكْمه بصيراً. حتى يُبصر أنوارها. ويُشاهد أَسْرَارهَا. فَمَا بالُكَ

لَوْ بَرَزَتْ جَهْراً. ومِنْ حُسْنِ صَفَاءِ هَذِهِ الْخَمْرَةِ، وجودة جوهريته. تُسْمع الآذان الصُّمَّ، أي تصير سَامعة، بعد أَنْ كَانَتْ صَمَّاء. أو من الإعجابِ لحسنِها، وحسْن الثياب علَيْهَا، تصير الآذَانُ الصّمُّ سَامعة. فتسمَعُ تلك المحاسنَ. بعد أَنْ كَانَتْ صُمًّا؛ وَهَذَا أَحْسَنُ. ويحتمل أَنْ يريد بالأكْمه. أَعْمَى البصيرة. فإذا صحب أَهْل هذه الخمرة، وكَشفوا لَكَ شَيئاً مِنْ حُسْنها وبهجتها. انفَتَحَتْ بصيرتُه، وصارَ عَلَى بيّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ. وأن يريد بالصُّمّ؛ الذي تَنْفَعُهم الموعظة، وَلاَ تنهج فيهم التذكرة، فإذا سَمِعُوا مِنْ أَهْلِ هذه الخمرةِ شيئاً، مِنْ صفاءِ المَوْعظةِ. وحُسْن التَّذكِرة. انكَفَوْا وانزجَرُوا. وقيلُوا مَا سَمِعُوا. وصارُوا: من ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾. واللَّهُ تعالَى أَعْلَمُ. وبِاللَّهِ التوفيق. وهو الْهَادي إلى سواءِ الطريق. ثم قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وَلَوْ أَنَّ رَكْباً يَمَّمُوا تُرْبَ أَرْضِهَا ... وَفِي الرَّكْبَ مَلْسُوعٌ لَمَا ضَرَّهُ السُّمُّ

قلتُ: الرَّكْبُ جمع رَاكبٍ، كَصَحْب وصاحب. وقيل: لاَ مُفْرَدَ لَهُ مِنْ لفظِهِ وتَيَمَّمَ: قَصَدَ. والملسوعُ: الملْدُوغ من الحيَّة أَوِ العَقْربِ، والسُّم مثلث: السّين: الشيْءِ القاتل. يقول رضِي اللَّهُ عَنْهُ: لَوْ أَنَّ جَمَاعة قصدوا تُرْب هذه الخَمْرة. التي تُنْبت كَرْمها. وفي الرَّكْب مَنْ لسَعته الحيَّةُ أو العَقرب، لمَا ضَرَّهُ سُمّ ذلِكَ اللَّسْع، حيْث قَصد تُرْب هذه الخَمرة. فَمَا بالُكَ لَوْ وصَلَ إِلَيْهَا. أَوْ أَخَذَ شيئاً مِنْ تُرَابِهَا. أَوْ رماه على ما لُسِعَ مِنْهُ. ويحتمل أن يُريد بالمَلْسُوعِ، مَنْ لَدَغَتْهُ الشهوات والمَعَاصِي. فَإِذَا كَانَ مَعَ قَوْمٍ قَاصِدِينَ الوصول إليهَا. أَوْ إلى مَحَلّها. فَلاَ يضرهُ الوقوع في شيْءٍ منهَا. إذ بَرَكَةُ صُحْبتِهم تُذْهب عنه الإضرار. وتُزْعِجُهُ إِلَى الإقلاع. وقد تَقَدَّمَ الكَلاَمُ على الصّحْبَة وثمرتها. وقال بَعْض العُلَمَاءِ: مَنْ قَصَد زيَادة صالِحِ، لا يكْتَب عليه مَلَكُ الشمال شيئاً. ما دَامَ في زيارته. ولعله وقف على حديثٍ فِي ذلكَ. واللَّهُ تعالى أَعْلَمُ. ثم قال رضِي اللَّهُ عَنْهُ.

وَلَوْ رَسَمَ الرَّاقِي حُرُوفَ اسْمِهَا عَلَى ... جَبِينِ مُصَابٌ جُنَّ أَبْرَأَهُ الرَّسْمُ

قلت: الرَّاقِي؛ هو المعوّذ. قال في القاموس: الرُّقية بِالضّمّ: العَوْذَة. والجمع رُقًى. ورقاهُ رقياً. ورقياً ورقية؛ فهو رقَّاء. نَفَثَ فِي عَوْذَتِهِ هـ. والجبينُ: قال في القاموس: والجبينَانِ حرفان لكشف الجبْهَة من جَانبيْهَا، فيما بيْن الحَاجِبَين. مصعداً إلى قصاره الشّعر. أو حروف الجبْهةِ. مَا بيْن الصّدْغيْن، متصلاً

بحذاء النَّاصية. كله جبينٌ هـ. وجُنَّ بالضّمّ: جُناً وجِناً وجنوناً. واسْتُجِنَّ مَبْنيًا لِلمَفْعُولِ. أَيْ أَصَابَهُ الجنُونُ؛ وهو من الأفْعَال اللاَّزمَة للبناءِ للمَفْعُولِ. لكَلّ دمُه: أي هَدَرَ وَزُهِيَ: أي تكبَّرَ. وعني بحاجتِهِ. فهذه الأفعَال لم يُسْمع فِيها البناء للفاعل. وأبرأه الله: شفاهُ.

يقول رضي اللَّهُ عَنهُ: لَو رَسَم الكاتب المُعَوِّذ، حروف هذه الخمرَة الأزلية، على جبين مصاب، أصَابَهُ الجُنُون، لأبرَأه ذلِكَ الرَّسْمُ من سَاعَتِهِ. وحُرُوف هذه الخمرة هي حُرُوف اسْمِ الجلالة: فلو كتبها العارف على مجنونٍ. بحضور يهمّه، لبَرِيءَ المصابُ من حِينه إن شاءَ اللَّهُ تَعَالَى. وكذا مَن جُنَّ قَلبُه بالخواطِرِ الشيطانية. والشكوك الوهمية. إذا لَقَّنَهُ العارف هَذَا الاسْمَ، وَرَسَمهُ له فِي قَلْبِهِ، لتَبرِىءَ مِنْ حينهِ، وَصَارَ مِنْ أَهْلِ اليقِين التامِّ. والطُّمأنينة الكُبْرى. واللَّهُ تعالى أَعْلَمُ. ثم قال رضيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وَفَوْقَ لِوَاءِ الجَيْشِ لَوْ رُقِّمَ اسْمُهَا لأَسْكَرَ مَنْ تَحتَ اللِوَا ذَلِكَ الرَّقْمُ

قلت: اللواء بالمدِّ: العَلَمُ. ويُجْمع على أَلْوية. وَجَمْعُ الجمع أَلْوِياتٌ. والجيشِ: الجُنْدُ. أو السائرون لحرب أو غيرها ورقَمَ: كَتَبَ. والمِرْقَمُ بِكسْر الميم: القَلَمُ، والرَّقم: الكتابة والتخطيط. يقول رضي اللَّهُ عَنهُ: لَوْ كتب اسْم هذه الخمرة الأزلية. وجُعل فَوْق عَلَم الجيْش لأسْكَر ذلِك الرَّقم. كُلَّ مَن تَحتَ ذلِكَ اللواءِ. وصاروا كلهم نَشَاوَى مِن خَمْرَة المَحبّة. فيذلون نفوسهم في مَرْضاتِ مخبوبهم. اختياراً مِنهُم. فهذا كلهُ مبالغة في هذه الخمرة. وتشويق إليْهَا. وقَدْ أشرْتُ إلى شَيْءٍ من ذلِكَ في تائيتي فَقُلْتُ:

فَيَا لَهَا مِنْ نَشوَى لَوْ هَبَّ نَسِيمُهَا عَلَى قُبُورِ الأمْوَاتِ أَحْيَتْ بِسُرْعَةِ
وَلَوْ عَبِقَتْ أَنْفَاسُ طِيبِهَا فِي الْوَرَى لأضْحَوْا سُكَارَى بالجميع فِي لحْظَةِ
وَلَوْ بِيعَتِ الأرْوَاحُ فِي قَبْرِ حَانِهَا لَكَانَ لَهَا بَيْعاً رَخِيصاً بِصَفْقَةِ
فَهِمْ وتَنزَّهْ فِي كَمَالِ جَمَالِهَا وَلاَ تَسْرِفْ بِغَيْرِ الْحَبِيبِ بِنَظْرَةِ

وَباللّهِ التوفيق. ثم ذَكَرَ ثَمَرَةَ هذه الخَمْرَةِ، ومَا ينشأ عَنْهَا فِي الْبَاطِنِ فَقَالَ:

تُهَذِّبُ أَخْلاقَ النَّدَامَى فَيَهْتَدِي بِهَا لِطَرِيقِ الْعَزْمِ مَنْ لاَ لَهُ عَزْمُ
ويَكْرُمُ مَنْ لَمْ يَعْرِفِ الْجُودَ كَفُّه وَيَحْلُمُ عِنْدَ الْغَيْظِ مَنْ لاَ لَهُ حِلْمُ

قلْتُ: هَذَّبَ الشيْءَ: نَقَّاهُ وأَخْلَصَهُ، وصفَّاهُ وأَصْلَحَهُ. قاله فِي القَامُوسِ.

والأخلاق جمع خُلق؛ وهو ما جُبِلَ عليه الإنسان، حَسَناً أَوْ قَبيحاً. والنَّدَامَى جَمْع نَدِيم: وهو: المُنَاجِي لصاحِبِه. في مجلس الخمر أو غيْرِهِ. أطلقه هُنا على الشَّارب. ويُكْرم بِضَمّ أَوّلِهِ. وكَسْر ثانيه. مضارع أكرمَ. والحِلْمُ: الأناةُ والعقل. قالهُ في القاموس. والأناة بفتح الهَمْزَة: الرَّزَانة والتأني. وحَلُمَ بالضمّ، حُلْماً: عَفَا وأصْفَحَ وَلَمْ يُعاجِلْ. وتحلف: تكلف. يقول رضِي اللّهُ عَنْهُ: إنَّ هذه الخَمْرَة، تنقي وتخلّص أخلاَق الشَّارِبينَ لَهَا. فَتُبَدّل الأخْلاَق السَّيّئَةَ بِالْحَسَنَةِ. فَتبدّل الكَسَلَ بالنَّشَاطِ؛ وخِفَّة الأعْضاءِ. حَتَّى يهْتَدي لطريق العَزْم على البِرّ والتَّقوى. مَنْ لاَ عَزْمَ لَهُ عَلَيْها. وتُبدّل الشّح والبُخْل بالكَرَمِ، والسّخاء. حتَّى يصيرَ مَنْ لاَ يَعْرف السَّخَاءَ أصْلاً، أَسْخَى النَّاس، وأكْرم الناس. تبدّل الغَضَب والحقد والعجلة والبطش، بالْحِلم وسَلاَمَة الصَّدْرِ، والسكينة والتأني والرَّزَانة. وتبدّل الخوف والجَزعَ والهَلَعَ، بالشَّجَاعَةَ واليَقِينَ، والغِنَى بِاللّهِ. وتبَدّل الشكّ والاضطراب بالطُّمأنينة والسّكون. وتُبدّل كثرة التدبير والاختيار، بالرِّضَى والتسليم، والسكون تَحت مَجَارِي الأقْدَار. وتبدّل التكَبُّرَ وحبّ الرّفعةَ، والجاه والرياسة، بالتواضع والسكينة، والخمول وحبّ السُّفليات. دُونَ العلويات. وتبدّل حبّ الدّنيا والحِرْص والطّمَع، بالزُّهْدِ والقَنَاعَة والْوَرَع. والغِنَا باللّهِ دُونَ شَيْءٍ سِوَاهُ. وتبدّل تعظيم الأغنياء والحلف لهُمْ. بالإعْرَاضِ عنهم والزُّهْد فيهم. والتيهِ عليْهم. اكتفاءً بِعلم اللّهِ. وتُبَدّل تحقير الفقراءِ، وتصغيرهم، بتعْظيمهم ورفعتهم، والدّنوّ منهم. والحبّ لهُمْ. إلى غيرَ ذلكَ مِمَّا لاَ يَنْحَصِر حتَّى قال بعْضهم: «للنَّفس مِنَ النقائص. ما للّهِ من الكَمَالاَتِ». فتنقلِب جُلّ تلك النَّقائص كَمَالاَت. وَلاَ يَلْزَمُ مِنْ ثبوت الخُصُوصِية. بمدَح وَصْفِ البشرية. إذْ لَوْ كُنْتَ لاَ تَصِلُ إلَيْهِ إلاَّ بَعْدَ مَحْوِ مَسَاوِئك، وَمَحْوِ دَعَاوِيْكَ، لاَ تَصِل إِلَيْهِ أَبَداً. ولكن إذَا أَرَادَ أَنْ يوصلك. غطَّى ووصَفَكَ بِوَصْفِهِ، ونَعْتَكَ بنَعْتِهِ. فَوَصَّاك بِمَا مِنْهُ إِلَيْكَ. لاَ يَمَد مِنْكَ إِلَيْهِ. وبِاللّهِ التوفيق؛ وهو الهَادِي إلى سواءِ الطريق. ثُمّ قال رضِي اللّهُ عَنْهُ:

وَلَوْ نَالَ فَرْمُ الْقَوْمِ لَثْمَ قِدَامِهَا ... لأَكْسَبَهُ مَعْنَى شَمَائِلِهَا اللَّثْمُ

قلت: نال الشيْء: أعطيه وأخذهُ. والفَرْمُ: السَّيّدِ. وفَرْمُ القوم سيّدهُمْ. واللّثْمُ: التقبيل. لثَمَ. كَضَرب وسمع، واللثام، كَكِتاب: ما عَلَى الْفَمّ مِنَ النقابِ، والشَّمَائِل، جَمْعَ شَمَال بالفتح بِمَعْنَى الطّبْع. يقول رضي اللّهُ عَنْهُ: لو نَالَ سيّد القَوْمِ وكبيرهم، تقبيل لثام هذه الخمرة، وشَمَّ شيئاً مِن عِطْرها لأكسَبَه ذلكَ اللّثم،

معنى طبائعها الحسنة. فتهذّب أخلاقه، وتُزين أشكاله، فيصيرُ حليماً، كريماً، رحيماً، شفيعاً مُتواضعاً، سَهلاً ليّناً، إلى آخر ما تقدم من الأخلاق وتقلّب التي تكسبها، لمن تحقق بها. وإنما كانت الخمرة تهذب الأخلاق، وتقلّبُ الأعيان؛ لأنها نتيجة ذِكْر اللّهِ. وَلاَ شَكَّ أَنَّ ذِكْرَ اللّهِ الْحَقِيقي يُهَذِّب صاحِبَه، ويخلّصُهُ. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي أكبرُ مِنَ الصَّلاةِ، في النَّهْي عَنِ الْفَحشاءِ وَالْمُنكَرِ. وَهَذَا أَمْرٌ مُجَرَّبٌ. قَدْ تَحَقَّقْنَا بِهِ وَرَأَيْنَاهُ والحَمْدُ لِلّهِ. ولَيْسَ الخَبَرُ كالْعَيانِ وإِنَّما خَصَّ قَرَمَ الْقَوْمِ بِهَذَا الأمْرِ، لأَنَّهُ أَحْوج إلَى التَّهْذِيبِ مِنْ غَيْرِهِ؛ لأنَّ السِّيَاسَةَ لاَ تَلِيقُ إلاَّ بِأَهْلِ الْحِلْمِ وَالصَّبْرِ. والتَّأَنِّي والسكينَة. وإلاَّ فسَدتِ الرَّعية. أَوْ تَعِبَتْ. وبِاللّهِ التوفيق. ثم قال رضيَ اللّهُ عَنْهُ:

يَقُولُونَ لِي صِفْهَا فَأَنْتَ بِوَصْفِهَا ... خَبيرٌ أَجَلْ عِنْدِي بِأَوْصَافِهَا عِلْمُ

يقول السَّامعُونَ لي: صِفْ لَنَا هَذِهِ الخمرة التي شَوَّقْتَنا إلَيهَا، وبالَغتَ فِي مَدْحِهَا فقَالَ لَهُمْ: أَجَل، أي نَعَمْ. عِنْدِي بأوصافها ونُعُوتها، عِلْمٌ وتحقيق، ثم وَصَفَها لَهُمْ فقال:

صَفَاءٌ وَلاَ مَاءٌ ولُطْفٌ وَلا هَوَا ... وَنُورٌ وَلاَ نَارٌ وَرُوحٌ وَلا جِسْمُ

تَقَدَّمَ كُلَّ الْكَائِنَاتِ حَدِيثُهَا ... قَدِيماً وَلاَ شَكْلٌ هُنَاكَ وَلا رَسْمُ

وَقَامَتْ بِهَا الأشْيَاءُ ثُمَّ لِحِكْمَةٍ ... بِهَا احْتَجَبَتْ عَنْ كُلِّ مِنْ لاَ لَهُ فَهْمُ

يقول رضي اللّهُ عَنْهُ في وصْفِ الخمرَة الأزلية، والذّات المقدّسة الأصلية. هي ذات موجودة. خفية لطيفة، كَلُطْفِ الْهَوَاءِ وَلا هَوَاءَ لَهَا صَفاء كصفاءِ الماءِ، وَلاَ مَاءِ نورانية كَنُور النَّار وَلاَ نَارُ. رُوحانية كروحِ الأجْسَامِ وَلا جِسْمُ. أي متصفة بالحياة الأصْلية القديمَة. وقد تَقَدَّمَ حديثها أي نعوتها ووجودها كُلَّ الكَائنات: لأنَّ وجودها قَدِيمٌ أزلي. لَمَ يكُن هُناكَ جِرْم صغير وَلاَ كبيرٌ. فالأجرام الكبيرة، كالعَرْشِ والكُرْسِي، والسماوات والأرض، شبيهة بالرّسوم، أي الحروف. والأجْرَامُ الصَّغيرةَ، كالمَلائكة والجِنّ والآدمِي وسَائر المخلوقات الرقيقة، كالأشكال لتلك الحُروفِ. وَلاَ شَكَّ أَنَّ فَائدة الرُّسُوم والأشكال، هي قبْض المعاني مِنْهَا وفَهْمُها. فإِذَا قبضت المعْنَى اسْتُغْنِيَ عَن الرُّسُومِ ومُحِيَ. كَذَلِكَ الكَائِنَات، ما نُصِبَتْ إلاَّ لتُرَى فِيها مَوْلاَها. فإذَا عَرَفْته. طاحَتْ تلك الرُّسُومِ والأشكَال. وَلاَ يَبْقَى إلاَّ الكبيرُ المتعال. وأنْشَدُوا:

وَطَاحَ مَقَامِي فِي الرَّسُومِ كلامُهَا فَلَسْتُ أرَى فِي الْوَقْتِ قرباً وَلا بُعْدَا

فَنيتُ بِهِ عَنِّي فَبَاتَ بِهَا غَيْبِي فَهَذَا ظُهُور الحقِّ عِنْدَ الْفَنَا قَصْدَا

أحَاطَ بِنَا التَّعْظِيمُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَعَادَتْ صِفَاتُ الحقِّ مِمَّا يَلِي الْعَبْدَا

وفي الحدِيثِ الصَّحيح: «كَانَ اللَّهُ وَلاَ شَيْءٍ مَعَهُ». زَادَ بَعْض المحققين: وهو الآن عَلَى ما عَلَيْهِ كَانَ. وفي حَدِيث الترمذي، عن أبي رُزَيْنٍ العُقَيلي: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: «أيْنَ كَانَ رَبُّنَا قَبْلَ أنْ يَخْلُقَ خَلْقَهُ؟» قال: «كَانَ فِي عَمَدٍ مَا فَوْقَهُ هواء. وَمَا تَحتَهُ هواء». قُلْتُ: العَمَد هو الخَفَا. قال تعالى: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ﴾. أي خفيت. أي أنَّ الحقَّ تعالى؛ كَانَ فِي خَفاءٍ ولطافة؛ لاَ يُدْرَكُ ولاَ يُعْرفُ. أيْ كَان خفيّاً لطيفاً. لَيْسَ فَوقهُ هواء. وَلاَ تَحْتَهُ هَوَاءٌ. بَلْ عَظَمَتُهُ أحَاطَتْ بكُلِّ فَوْق، وبكُلِّ تَحت. وبكل هَوَاء. وَلاَ فَوْق وَلاَ تَحْتُ، وَلاَ هَوَاء. وإنمَا الوجود للْعَليِّ الأعْلَى فِي الأزَلِ، وفيما لا يَزَالُ. وقيل لسيّدنا عليّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجهَهُ. يَابْنَ عمّ رَسُول اللَّهِ، أيْن كَانَ رَبَّنَا؛ أوْ هَلْ لَهُ مَكَان؟ فتغيَّرَ لَوْنَهُ وَسَكَتَ سَاعة. ثم قال: قَوْلكم أيْن الله. سؤال عن مَكَانٍ. وَكَانَ اللَّهُ وَلا مَكَانَ. ثُمَّ خَلَقَ الزَّمانَ والمَكَانَ؛ وهُو الآن كَمَا كَانَ. دُونَ زَمَانٍ وَلاَ مَكَانٍ. وسُئِلَ أبُو الحسَن النُّوري فِي محنة الصوفية. أيْن اللَّهُ مِن مخلوقاتِهِ. فقال: كَانَ اللَّهُ وَلاَ أيْنَ. والمخلوقات فِي عَدَم. فكَان حَيْثُ هُوَ. وَهُوَ الآنَ حيث كَانَ. إذْ لاَ أيْنَ وَلاَ مَكَانَ. وفِي بَعْضِ الأخْبارِ: «كُنتُ كَنزاً لَمْ أعْرَفْ فأحْبَبْتُ أنَّ أعْرَفَ. فَخَلقْتُ الخَلْقَ فَتعَرَّفْت لَهُمْ. فَبِي عَرَفُونِي». وَقَوْلُهُ. وقَامَتْ بِهَا الأشياء. يَعْنِي أنَّ الخمْرَةِ الأزَلية؛ أظْهَرَتْ أنْوَارَهَا. وأبْرَزَتْ حُسْنَهَا وَجَمَالَهَا فِي مَظَاهِرِ الأشْيَاءِ، كَمَا قَالَ صاحِب الْعَيْنِية:

تَجَلَّى حَبِيبي فِي مَرَائي جَمَالِهِ فَفِي كُلِّ مَرْأىً لِلْحَبِيبِ طَلائِعُ

فَلَمَّا تَبَدَّى حُسْنُهُ مُتَنَوِّعاً تَسَمَّى بأسْمَاءٍ فِيهِنَّ مَطَالِعُ

وَقُلْتُ فِي تَائِيتِي الْخَمْرِية:

تَجَلَّتْ عَرُوسةٌ فِي مَرَائِي عروساً وأرْخَتْ سُتُورَ الكِبْرِيَاءِ لِعِزَّةِ

فَالأشْيَاء كُلُّها قامتْ بِالْخَمْرَةِ الأزَلِيةِ. وَلاَ وُجودَ لها بِدُونِهَا، بَلْ لاَ نِسْبَةَ لَهَا مَعهَا:

مُنذ عَرَفْتُ الإلَهَ لَمْ أرَ غَيْراً وَكَذَا الغَيْرُ عِنْدَنَا مَمْنُوعُ

قَالَ بَعْضُ المحققينَ: لَوْ كُلِّفْتُ أَنْ أَرَى غَيْرَهُ لَمْ أَسْتطعْ؛ فإنَّهُ لاَ شَيْءَ مَعَهُ حَتَّى أُشْهِدَهُ: ثم احْتَجَبتْ هَذِهِ الخَمْرَةُ، بَعْدَ ظُهُورِهَا لحِكْمَةٍ أَزَلِية. سَتَرَتْ أَسْرَارَ الرُّبُوبيّة. وأَسْدَلَتْ حِجَابَ الكبْرِياء عَلَى العظمَةِ الأصْلية. فخفيَت تلك الخمرة بعد ظهورها. واستترت بَعْدَ بُرُوزِهَا. وَحُجِبَتْ عَمَّن لاَ فَهْمَ عِنْدَهُ. وَلاَ بصيرة لَهُ إذ لَو انفتَحَتْ بَصِيرتهُ لَمْ يَرَ غَيْرَها. قَالَ فِي الحِكَم: شُعَاع البصيرة، يشهدك قُرْبَ الحقّ مِنْكَ. وعَيْن البَصِيرَة، يُشْهِدك عَدَمَكَ لِوُجُودِهِ. وحقُّ البصيرة يشهدك وُجُود الحقّ، لا عدمك وَلاَ وجودك. كَانَ اللّهُ وَلاَ شَيْءَ مَعَهُ؛ وهو الآنَ على ما عليه كَانَ. وقال المجذوب رضي اللّهُ عَنْه:

مَنْ شَهِدَ الكَوْن بِالكَوْنِ عَزّة فِي عَمَا البصِيرَا

وَمَن شهد الكوْن بالمُكَوِّنِ ذَاكَ صَادف علاج السرِيرَا

وقد أشرت إلى هَذَا المعْنَى الَّذي ذكره الشيخ، في تائيتي الخمرية فقلْت:

فَإِنْ تَسَأَلُونِي عَنْ نُعُوتِ كَمَالِهَا فَإِنِّي خَبِيرٌ عَنْ شُهُودٍ وَخِبْرَةِ

تَقَدَّمْ كُلَّ الكَوْنِ نُورُ بَهَائِهَا لَطِيفٌ خَبِيرٌ فِي صَفَاءٍ وَقُدْرَةِ

وَقَامَتْ بِهَا الأَشْيَاءُ حِينَ تَكَشَّفَتْ وَعَنْ كُلِّ ذِي جَهْلٍ خَفَيَتْ لحِكْمَةِ

وَاعْلَمْ أَنَّكَ لاَ تَفْهَمُ هَذِه الخَمْرة ذَوْقاً وَعِلماً. إلاَّ إذَا أصْحَبت أَهْلَهَا: وهم العارِفُونَ بِذَلِكَ أَهْل الجَذْب والسلوك. وأمَّا إن لم تصحبهم، فَلا تطْمع فِي فَهْمها. وَلَوْ طَالَعْت أَلْفَ مجَلَّد. وصحبْت ألف عالم؛ أَوْ عابِدٍ. وباللّهِ التوفيق. ثم قال رضِي اللّهُ عَنْهُ:

وَهَامَتْ بِهَا رُوحِي بحَيْثُ تَمَازَجَتْ بِعَاداً وَلاَ جِرْمٌ تُخلّله جِرْمُ

قال في القاموس. الْهُيَام بالضَّمْ. كالجُنُونِ مِنَ الْعِشْقِ. وقال أَيْضاً: هَامَ يَهِيمُ هِيَماً، وَهيَماناً: أَحبَّ امرأَةً. ثُم قال: وَرَجُل هائم: متحيّر. وتمازَجَ: اختلط والاتحاد: يطلق على مَعْنَيينِ: أَحَدهما: اختلاط جِرْمَيْن. حتى يَصِيرا جِرْماً واحِداً. وهَذَا مُحَال فِي حقّه تعالى، وَهُوَ كُفْر لِمَن اعْتَقَدَهُ. ويطلق على الوحدة الحقيقية يُقَال: اتَّحدَ الشيْء إذا صارَ واحداً؛ وهو المُرَاد هُنَا. وفي هَذَا المعنى. قال القُطْبُ بن مشيش رضِي اللّهُ عَنْهُ: وَشرَاب المحبّة: مَزْج الأوصاف بالأوصافِ. والأَخلاَق بالأخلاقِ. والأنوار بالأنوار. والأسْمَاء بالأسْمَاء. والنعوت بالنعوتِ. والأَفْعَال بالأَفْعَال هـ. والجرم: الجَسَدُ، ويجمع على أَجْرَام. وجُرُوم،

وجرم قاله في الْقَاموس. يقول رضِي اللَّهُ عَنْهُ: لقَدْ هامَتْ رُوحِي أَيْ طاشَتْ وانْجَذَبَتْ، بِسَبَبِ هَذِهِ الخَمْرَةِ. محبّةً وعشقاً فَمَا زَالَتْ تتعطش إِلَيْها. وتطلب الوصول إِلَيْها بِالتخلية والتَّصْفِية. فَلَمَّا تَجَوْهَرتْ وتَطَهَّرتْ مِنْ بَقَايَا الحِسِّ. اتَّصَلَتْ بِهَا وَامْتَزَجَتْ مَعَهَا. فوجَدَتْ نَفْسَهَا كَانَتْ فِي الحَضْرَةِ وهِيَ لاَ تَشْعُرُ. وإنما حَجَبها عَنْهَا الجَهْلِ والْوَهْمُ. فَلَمَّا ارْتَفَعَ الْجَهْل. وثبَت الْعِلْمُ. وَجَدَتْ نفسَهَا فِي الحَضْرَةِ. فَغَرَقَتْ فِي عَيْن بَحْر الْوَحْدَةَ. وَارْتَفَعَ عَنْهَا الشِرْك الخَفِي والجلِي. وَهِيَ هَذَا المَعْنَى. قَالَ بَعْضُ المَشَارقة.

كُنْتُ قَبْلَ الْيَوْم مَحْجُوباً بِالْوَهْم ... مُقَيَّداً بِقُيُودِ الْبَيْنِ
مُفْرَدِي وَاحِدٌ وأَنَا أَحْسِبُهُ اثْنَيْنِ ... فَلَمَّا تَبدَّى جَمَالٌ وارتَفَعَ الْضيْنِ
وَقَعَ الْعَيْن عَلى الْعَيْن ... وصِرتُ عَيْن الْعَيْن

وقال في الحِكَم: ما حَجَبك عن الله وجود مَوْجود معه. إذ لا شيء معه: وإنما حَجَبَكَ تَوَهّم موجود مَعَهُ.

وقال أَيْضاً: وصُولُكَ إلى اللَّهِ، وصُولُكَ إلى الْعِلم بِهِ. وإلاّ فَجَلَّ رَبّنَا أن يتّصلَ بِشَيءٍ، أَوْ يتَّصِل بِهِ شَيْءٌ. وهَذَا مَعْنَى الاتحاد؛ إذا أُطلق عِنْدَ الصوفية. أَعْنِي بثبوتِ العِلْمِ بالوحدة. بَعْدَ الْجَهْلِ بِهَا. أَوْ بثبوت الْعِلم بعد حُصُول الْفَرْقِ. ومِنْهُ قَول صاحب الْعَيْنِيَة:

وَغُصْ فِي بِحَار الاتِّحادِ مُنَزِّهاً ... عَنِ الْمَزْجِ بِالأَغْيَارِ إن أَنْتَ سَاجِعُ
وَإِيَّاكَ والتَّنْزِيهَ فَهُوَ مُقَيِّدٌ ... وَإِيَّاكَ والتَّشْبِيهَ فَهُوَ مُخَادعُ

وقال أَيْضاً في مَدْحٍ آخَر:

فَكُنْتَ أَنَا وَهيَ كَانَتْ أَنَا وَمَا ... لَهَا مِنْ وُجُودِ مُفْرد مُتَنَازع
فَنِيتُ بِهَا فِيهَا وَلاَ شَيْءَ بَيْنَنَا ... وِصالِي بِهَا مَاضٍ وَبُهَا مُضَارعُ

وَقالَ أَيْضاً:

فنيتها حتَّى فَنَتْ وَهْيَ لَمْ تَكُنْ ... وَلَكِنَّي بِالْوَهْمِ أُطَالِعُ

وَمِنْ ذلِكَ قَوْلُ الشَّاعر:

أَنَا مَنْ أَهْوَى وَمَنْ أَهْوَى أَنَا ... فَنَحْنُ رُوحَانِ حللنا بَدَنَان

فَلاَ يَفهم هَذا الكَلاَم عَلَى ظَاهِرِهِ مِنَ الاتِّحَادِ والحُلولِ؛ لأنهم مُبَرَّؤُونَ مِنْهُ.

وإنما أَرَادُوا إظهار التَّغَزُّل بإثبات المحبوبة والمحبّ، وحُصُول العشق مِنَ المحبّ لَهَا، فإذا حَصَلَ الْوُصُول، لَمْ تَبْقَ هَذِهِ الإشارة، ولذلك قال في الحِكَم: مَا العارف. مَنْ إِذَا أَشَارَ وَجَدَ الحق أَقرب إِلَيْهِ من إشارتِهِ. بَلِ العَارِفُ مَنْ لاَ إِشارة لَهُ. لفنائِهِ في وجودِهِ. وانطوائِهِ في شهودِهِ. ومن هَذَا المَعْنَى احْتَرَسَ الشيخ بقولِهِ: وَلاَ جِرْم تخلله جِرْمُ. لَئلاً يَفْهَم السَّامع أَنَّهُ الاتحاد المَذْمُوم، وقد اتهمهم كثير مَنْ لَمْ يفْهَمْ مُرَادَهُم. فربَّما همّ بِمَا لَمْ يحط به علماً، وقد تقدم تنزيه الشيْخ نَفْسه عن هَذَا المعْنَى فِي تائيته: نظم السلوك. وكَلام الشُّشْتُرِي، وابن سَبْعين، وابْن العربي، مشحوباً بِهذِهِ الإشارة. وهم أَوْلياء محققون. رضِي اللَّهُ عَنهُم وَأَرْضَاهُمْ وَقَدْ أَشَرْتُ فِي تَائِيتي الخَمْرية الأزلية، عن الحلول والاتحاد، فقلْتُ:

تَنَزَّهَتْ عَنْ حُكْم الْحُلُولِ فِي وَصْفِهَا فَلَيْسَ لَهَا سِوَى فِي شَكْلِهِ حَلَّتِ
تَجَلَّتْ عَرُوساً في مَرَائِي جَمَالِهَا فَأَرْخَتْ سُتُور الْكِبْرِيَاءِ بِعِزَّةِ
فَمَا ظَهَرَ فِي الكَوْنِ غَيْر بَهَائِهَا وَمَا احْتَجَبَتْ إلاَّ لِحُجُبِ شريرَةِ

والله تعالى أعلمُ. ثم قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

فَخَمْرٌ وَلاَ كَرْمٌ وَآدَمُ لِي أَبٌ وَكَرْمٌ وَلاَ خَمْرٌ وَلِي أُمُّهَا أُمُّ
وَقَدْ وَقَعَ التَّفْرِيقُ وَالْكُلُّ وَاحِدٌ فَأَرْوَاحُنَا خَمْرٌ وأَشْبَاحُنَا كَرْمُ

قُلْتُ: شَبَّهَ الشيخ رضِي اللَّهُ عَنْهُ: الرُّوح السَّارية في الْبَدَنِ: بِالْخَمرِ المُسْتَتِرِ فِي الكَرْم. وشَبَّهَ البَشرِية الظَّاهِرَةَ: بِالكَرْم المحتوى على الخَمرَةِ، والمريد في حال سيْرِهِ إنارة يغلبُ جَذْبه على سلوكه. وسكره على محوِهِ. فتكون الرّوحانية غالبة على البشرية. مستولية عليها فَلاَ يَبْقى لِلْبَشرية أَمرٌ. وتارة يَغْلِب سُلُوكه على جذبِهِ، ومحوه على سُكْرِهِ. فتكون البشرية غالبة على الرُّوحَانية. مُسْتَوْلِية عَلَيْها. فإذا غَلَبت الرُّوحانية على البَشرية، كَانَ كَوُجودِ خَمْرٍ بِلاَ كَرْم. وَإِذَا غَلَبت البَشرية على الرّوحانية، كَان كَوُجودِ كَرْمٍ بِلاَ خَمْرٍ لبُطونها حينئذٍ. فبيَّنَ الشيْخ رضِي اللَّهُ عَنْهُ حالَهُ في حَالِ سَيْرِهِ فَقَالَ: فَأَنَا تارة خَمْرٌ وَلاَ كَرْمٌ، وذَلكَ في حالة جَذْبي وَسُكْري. وأَنَا حينئذٍ خليفة اللَّهِ في أَرْضِهِ عَلَى قَدَم أَبي آدَمَ عليه السَّلاَمُ. لأنَّ الجَذْبَ عِنَايَةٌ. فإِنَّ الرُّوحَ إذَا اسْتَوْلَتْ على البَشَرية. اسْتَوْلَتْ على الوُجُودِ بِأَسْرِهِ. فيكون هو آدَمَ الأَكْبَرُ، خليفة عَن اللَّهِ، وَهَذَا مَعْنى قولِهِ: وآدَمُ لِي أَبٌ؛ لأنَّ الإبْنَ خَليفة عن أَبِيهِ. فيكون هُوَ حِينئذٍ خليفة اللَّهِ في كَوْنِهِ. وتَارَةً أَكُون كَرْماً وَلاَ خَمْر. والكَرْمُ شَبِيهٌ

بالبَشَرِية. ويَحتمل أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: وَآدَمُ لِي أَبٌ. إشارة إِلَى أَنَّ جَذْبَهُ مَمْزُوج بِسُلوكِهِ؛ لأنَّ المصطلَح، خرجَ عن طوْر البَشَرِ. فإنّما أَنْ يَلْتَحِقَ بالرُّوحَانِيّينَ، أَوْ بالبَهَائِمِ. بخلافِ مَنْ كَانَ سَالكاً في جَذْبِهِ، فَظَاهره سُلُوكٌ، وَبَاطنه جَذْبٌ. لكن تارة يَغْلُبُ الجذب، فتَنْخَنِسُ البَشرية، ملحُوظة. فهذا معْنى قولِهِ: وَآدَمُ لِي أَبُ. أيْ وأنا بشرٌ مِن بني آدَمَ، لَمْ تَخرجْ عَنْ طَوْرِ الآدمية؛ وهَذَا هُوَ عيْن الكَمَالِ وتارة يغلب السلوك، فَيَبْطُنُ الجَذْبُ في الرّوحانية. وتظهر أوصاف البشرية على السَّالِك. فتكون الرُّوحَانية تَمْتدّ من البشرية، وتشرَبُ مِن كَأْسِهَا. كَمَا قال التستري:

مِــنِّـي عــلــيَّ دَارَتْ كُــؤُوســي ... فــتــكــون الــبــشــريــة كــالأُمّ

والرّوحانية ولداً. رضع من لبنَها. وهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ولِي أمّها أُمٌّ. أي حينئذٍ أُمّ الخمر؛ وهي الكَرْمُ أُمٌّ. والمراد بها البشرية، المستولية على الرُّوحانية، استِلاءَ الكَرْم عَلَى الخَمْرِ. وهَذَا الاحتمَال أَحْسَن وأَظْهَرُ. واللَّهُ تعالى أَعْلَمُ. وهَذا التعريف كُله قبل الوُصول إلى التحقيق. وإلا امتحق الحسّ وثبَتَ المعْنَى. فالكُلّ واحِدٌ. فَلاَ قيامَ للبَشَرية إلاَّ بالرّوحانية. وَلاَ ظهور للرّوحانية إلاَّ بالبشرية. بَلْ إذا سَقطت المعاني، سقطت الأواني، فالأَكْوَان ثَابِتَة بِإِثباتِهِ. مَمْحُوّة بأَحدية ذَرتِهِ. فَلاَ بَشَرية وَلاَ رُوحَانية. وإنما الوجود للفرْد الصَّمَد. لاَ شَرِيكَ لَهُ. وأَنْشَدُوا:

فَلَمْ يَبْقَ إلاَّ الْحَقُّ لَمْ يَبْقَ كَائِنُ ... فَمَا ثَمَّ مَوْجُودٌ وَلاَ ثَمَّ بَائِنُ

بِذَا جَاءَ بُرْهَانُ العِيَانِ فَمَا أَرَى ... بِعَيْنَيَّ شَيْئاً غَيْرَهُ إِذْ أُعَايِنُ

تنبيه: مَا ذكَره النَّاظم في هذيْن البَيْتَيْن، مِن تَشْبِيه الجَذْبِ بِخَمْرٍ وَلاَ كَرْم. وتشبِيه السُّلوك بِكَرْم وَلاَ خَمْر. مَثْلُهُ وَقَع للجنَيْد فِي شعرهِ المشهور، حيْث سُئِلَ عن التوحيد، فَأَنْشَدَ يَقُولُ:

رَقَّ الزُّجَاجُ وَرَقَّتِ الْخَمْرُ ... فَتَشَابَهَا وتَشَاكَلَ الأَمْرُ

فَكَأَنَّمَا خَمْرٌ وَلاَ قَدَحٌ ... وَكَأَنَّمَا قَدَحٌ وَلاَ خَمْرٌ

فَتَشَبَّهَ البشرية بالزجاجة. والرّوحانية بالخَمر. فَإِذَا غَلَبَت الرُّوحانية على البشرية، وذلك في حالة الجذب. فَكَأَنَّمَا خَمْرٌ وَلاَ قدحٌ، وإنمَا غَلَبَت البشرية على الرّوحانية، وذَلِكَ يكون في حالِ السُّلُوك. فَكَأَنما قَدَحٌ وَلاَ خَمْر. وقد أَوْضَحْت هَذَا الْمَعْنى فِي تَائِيتي الخَمْرِية. فقلْتُ:

لِرِقَّةِ خَمْرٍ فِي الأَوَانِي تَلَطَّفَتْ ... لِلُطْفِ مَعَانِي الخَمْرِ فِي أصْل نَشْأَتِي

فَطَوْراً تَغيبُ الْخَمْرُ فِي جِرْمِ كَأْسِهَا ... وَطَوْراً تَغِيبُ الكَأْسُ فِي خَمْرِ نَشْوَةِ
وَغَيْبُ الأَوَانِي فِي الْمَعَانِي مُحقَّق ... فَنَاءُ الأَوَانِي فِي الْمَعَانِي الْقَدِيمَةِ
فَأَشْبَاحُنَا كَأْسٌ وَأَرْوَاحُنَا خَمْرٌ ... وَسَاقٍ لَهَا جَذْبُ الْعِنَايَةِ حَفَّتِ

واللَّهُ تعالى أَعْلَمُ. ثُمَّ قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وَلُطْفُ الأَوَانِي فِي الْحَقِيقَةِ تَابِعٌ ... لِلُطْفِ الْمَعَانِي وَالْمَعَانِي بِهَا تَسْمُو

قلْتُ: لَطُفَ كَكَرُمَ. لطفاً ولطافة: صَغُر ودق؛ فَهُو لطيف. قالهُ في القاموس. وَسَمَا الشيْء سُمُوّاً: ارْتَفَعَ. والأَوَانِي هُنَا: الكَائنات بِأَسْرِهَا. والْمَعَانِي: أَسْرار الرُّبوبية الْقَائمة بِهَا؛ وهِي الخمْرةُ المتقدمَة. فأَصْلُها لطيفة دقيقة. والأنوار الظَّاهرة حينَ تحسَّسَت، صَارَتْ كثيفة. فَمَنْ وَقَفَ مَعَ ظَاهِرِ كَثافتَها. كَانَ جَاهِلاً باللَّهِ. مَحْجُوباً عَن شهودِهِ. وَمَن نَفَذَ إلى بَاطِنِهَا وَجَدَها حاملة للمَعَانِي ظُروفاً لأَسْرَار الرُّبُوبية. فَغَاب عَنِ الأَوَانِي، بشهودِ الْمَعَانِي. فَكَان عَارفاً مُقرّباً مَحْبوباً. وفِي ذَلِكَ يقول التشتري: لاَ تنظرْ إلى الأَوَانِي، وخُضْ بَحْرَ المَعَانِي. لَعلَّكَ تَرَانِي. وقال فِي الحِكَم: الأَكْوَانُ ظَاهِرُهَا غُرَّةٌ. وَبَاطِنُهَا عِبْرةٌ. فالنَّفسُ تَنْظُر إلى ظَاهِرِ غرّتها. والقَلْبُ يَنْظُرُ إِلَى بَاطِنِ عِبْرَتِهَا. وتكثيفُ الأَوَاني عَارفٌ. والأَصلُ فيها اللَّطافة. إذ الأَوَانِي أَصْلُها مَعَانٍ. لكن اسْمُه تعالى الظَّاهر، اقتَضَى ظهورها فِي الحِسِّ فَهِيَ أَشْبَهُ شَيْءٍ بالثلجة، باطنها ماء، وظاهرها ثلج. وفِي ذلِكَ يَقُولُ الجَيلاَنِي فِي عَيْنِيتِهِ:

وَمَا الكَوْنُ في التِّمْثَالِ إلاَّ كَثَلْجَةٍ ... وَأَنْتَ لَهَا الْمَاءُ الَّذِي هُوَ نَابِعُ
فَمَا الثَّلْجُ فِي تَحْقِيقِنا غَيْرُ مَائِهِ ... وغَيْران فِي حُكْمِ دَهَتْهُ الشَّرائِعُ

وَهَذَا مَعْنَى قول الشيْخ رضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ولطف الأَوَانِي فِي الحقيقة، تابِعَة لِلُطوفِ الْمَعَانِي. فَالمَعَانِي في الحقيقة أَصْلها مَعَانٍ. والمَعَاني لطيفة. ولطفُ الأواني تابع لِلُطْفِهَا. وَإِنَّمَا تَكَثَّفَتْ وَتَحَسَّسَتْ، فِي حَقِّ مَنْ وَقَفَ مَعَهَا، وَاغْتَرَّ بزُخْرُفِ ظَاهِرِهَا. واشْتَغَلَ بِحِسّها، حَتَّى انطبَعَتْ صُوَرُ ظَاهِرِهَا فِي مِرْآةِ قَلْبِهِ. فَعَمَا وَحُجِبت عَن رُؤْيةِ الْمَعَانِي اللَّطِيفة. ولِذَلكَ يَقُولُ أَهْلُ المَعَانِي: كُلُّ مَا نَقَصَ مِنَ الحسِّ؛ زَادَ فِي الْمَعْنَى. وكُلّ مَا زَادَ فِي الحِسِّ نَقَصَ فِي المَعْنَى. وهَذا مَعْنَى قولِهِ: وَالْمَعَانِي بِهَا تَسْمُو. أَيْ بِلُطفِ الأوَانِي. وردّها إلى أَصْلها، ترتفع المعانِي وَتَسْمُو. وإنما تَتَلَطَّفُ الأَوَانِي بِالْغَيْبَةِ عَنْ حِسِّهَا. والإِعْرَاضِ عَنْ شَوَاغِلِهَا،

وَعَوائِقها. فَرِّغْ قَلْبَكَ مِنَ الأَغْيَار. تملأ بالمَعَارف والأَسْرَار. وكَتَبَ إِلَيّ شَيْخُ شَيْخِنَا مَوْلاَي العربي رَضِي اللّهُ عَنهُ ما نصُّهُ بَعْدَ كَلاَم: وقُلْ لهم أيضاً: أَترَاكُوا ذَبْلَة الدّنيا مِنْ قلوبكُم، تتقوّى مَعَانيكُمْ: أو نقولُ نورانيتكُم. إذْ بِتَقْوِية النُّور؛ يتقوَّى اليقِين. وبتقوية اليقين، تَعْلُو الهِمَّةُ. وَبِعُلوّ الهِمَّة، يَحْصُل الوصُولُ. وباللَّهِ التوفيق هـ. والذَّبْلة: رَأسُ الفتيلة حينَ تَترمَّدُ. فَإذَا قطعْتها تَشَعْشَعَ نُورُهَا. كَذَلِكَ هَمُّ الدّنيا. يُطْفِىءُ نور اليقين مِنَ الْقَلْبِ. فَإذا قطعته تشعشع نوره. وقلْت لبعْض الفُقَرَاء: مَادَّة المَعَانِي ثلاثة أُمُورٍ: الأول المُذَاكرة مَعَ أَهْل الفنّ، والحَلّ مَعَهُمْ. والثاني: الفِكرة وَجَوَلاَن الْقَلْب فِي مَيَادِين التوحيد، حَتّى تَمْتَحي الأكْوَان مِنْ عَيْنِ البَصيرة. والثالث: ذِكر اللسَان جَمَاعة أو فرادى؛ وهو أضعفها مِنْ جِهَةِ الامْتدادِ. وتقوية المَعَانِي. وإِن كَان هُوَ الباب في الدّخول إِلَيْهَا. لكن إذا حَصَلَ ذِكر القَلْب اكتفَى عَنهُ: فَضعُف تَأثِيره بالنِّسْبَةِ إِلَى الفِكْرَة. وقُلْت لَهُم: مَادَّة الحسّ ثلاثة: الأول: شغل الجوارح بالحِسّ في طَلَبِ الحُظُوظِ. والثاني خوف اللسان في الحسّ مَعَ أَهْلِه. والثالث: الفِكْرة فِيه، واشتغَال القَلْبِ بالخَوْفِ فِيهِ. فبهذه المواد الثلاث، يَتَقَوّى الحسّ. وتَضْعُف المعانِي. حتى ينطفىء نورها. نعوذ باللَّهِ مِن ذلِكَ. وقلْت لهم أَيْضاً: أرْكَان الوِلاية وَموادها ثلاثة أشياء: تَفرِيغ القَلْبِ مِنَ الحسّ، وتَعظيم الشيْخ والأدب مَعَهُ. وَدَوَامُ الذِّكر بالحضور. كل واحد ما يليق به لساني أو قَلبِي أَوْ سِرّي. وقدْ قُلْت في ذلِكَ أبياتاً وهي هذِهِ:

يَا مَنْ يُرِدْ مَرَاتِبَ الرِّجَالِ ... يَفْنَى عَنِ الحِسّ فِي كُلّ حَال
يُفَرّغ قَلْبَه مِنَ الأغْيَارِ ... يَمْلأ بالأنْوارِ والأَسْرَار
يُعَظِّمُ الشيْخ بِصِدْقٍ وَافِرْ ... وَيُكْثِرُ الذِّكْرَ بِقَلْبٍ حَاضِرْ
فَهَذِهِ مَرَاسِمُ الْوِلاَيَةْ ... وَمَظْهر العِرْفان والعِنَايةْ

وَسَمِعْت صاحبنا العارف الرَّبَّاني، سيدي عبد الرّحمن الرّحماني رضِي اللَّهُ عنه يقولُ: الحسُّ هو كل ما يُقوي مَادَّة وُجُودكَ. والمعْنى هو كُلّ مَا يفْنِيك عن وُجودك. ويغيبك عنكَ. فالاشتغال بِالحِسّ إذَا كَانَ سَبَباً في تقوية المَعَانِي، كَخِدْمَة الأشياخ والإِخْوَان. وكُلّ ما يؤدّي إلى تصفية المَعْنى. كَمَا قال سيدي عبد الوارث رضِيَ اللّهُ عَنهُ: خِدْمَةُ الرِّجَالِ، سَبَب الوِصال، لمَوْلى المَوَالِي. لاَ إِلَه إلاَّ اللّهُ. واللَّهُ تعالى أَعْلَم. ثم قال رضِي اللَّهُ عنْهُ:

وَلاَ قَبْلَهَا قَبْلٌ وَلاَ بَعْدَهَا بَعْدُ ... وَقَبْلِيَة الأَبْعَادِ فَهْيَ لَهَا خَتْمُ

وَحَضرُ المَدَى مِنْ قَبْلِهِ كان عصرهَا ... وَعَهد أَبِينَا بَعْدَهَا وَلَهَا الْيُتْمُ

يقول رضي اللَّهُ عَنْهُ: هذه الخمرة الأزلية قديمة باقية، فَلَيْس قبلها زمانٌ يكون قبلاً لَهَا وَلاَ بَعْدَهَا زَمَانٌ يكون بَعْداً لَهَا. والقَبْلِية التِي ثبتَتْ لَهَا قبل ظهور الأشياءِ؛ وهي الأولية بِلا بداية. هيَ ختْم لها بَعْد ظهور الأشياء؛ وهي الآخرية بِلاَ نِهَاية. فَتَرَتُّب الأزْمَان زَمَان بَعْد زَمان؛ هي سَابقة عليه. وباقية بَعْدَهُ. هَذَا مَعْنَى قوله: وقبلية الأبعاد هي لها خَتْمُ. أي وعدم النهاية السابقة على الأكوان؛ هي خَتْم لها بَعْد ظهور الأكْوَانِ. قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ فالأسماءِ متعددة، وَالمُسَمّى واحِد؛ وهي الذّات المقدّسة؛ فالأول هو عيْن الآخِرِ. والآخر هو عيْن الأول. والظّاهر هو عيْن الباطِن. والباطن هو عيْن الظّاهِر. وَإِلَى هَذَا أَشار صاحب العينية فقال:

وَأَبْرَزَ مِنْهُ فِيهِ آثار وَصْفِهِ ... فَدلَّكَ بالآثارِ مَا هُوَ صَانِعُ

فَأَوْصَافُهُ والاسْمُ والأَثَرُ الَّذِي ... هُوَ الكَوْنُ عَيْنُ الذَّاتِ واللَّهُ جَامعُ

فَمَا ثَمَّ شَيءٍ سِوَى اللَّهِ فِي الْوَرَى ... وَلاَ ثَمَّ مَسْمُوع وَلاَ ثَمَّ سَامِعُ

وقوله: وحضر المدى. . . الخ يعْني أَنَّ وجود هَذِه الخمرية، كان قديماً قَبْل حَضرِ الزَّمَانِ، وعدّه وتَرْتيبه. وزمان وجود أبينا آدم عليه السَّلام، وعهد حياته كان بعدهَا: لأن ظهوره حادثٌ. ووجوده قدِيمٌ. فثبت لها الْيُتْمُ، أي الانفِراد، والغِنَا عَنِ المَادَّة القبلية والبَعْدية. فلَيْسَ لها أَبٌ سَابِق عليْهَا. وَلاَ وَلَدٌ لاَحِق بَعْدَهَا. قال تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ ثم قال رضي اللَّهُ عَنْهُ:

مَحَاسِنُ تَهْدِي المَادِحِينَ لِوَصْفِهَا ... فَيَحْسُنُ فِيهَا مِنْهُمُ النَّثْرُ وَالنَّظْمُ

وَيَطْرَبُ مَنْ لَمْ يَدْرِهَا عِنْدَ ذِكْرِهَا ... كَمُشْتَاقِ نُعْم كُلَّمَا ذُكِرَتْ نُعْمُ

قُلْت: الطربُ: الفَرَحْ. ويُطلقُ على الحُزْنِ كَمَا في القَامُوس. يُقالُ: طرب طرباً. كَفَرَحَ فَرَحاً. بالمضارع مفتوح العيْنِ. ونُعْم بِضَمّ العَيْنِ. اسم امرأةَ. كَمَا فِي القَاموس. وأَرَاد هُنا اسم المحبوبة. يقول رضي اللَّهُ عَنْهُ: الأوصاف التي ذكرتْ للخمرة، هِيَ محاسِنُ لَهَا. تهدِي أَيْ تُرْشد المَادِحِينَ لِوَصْفهَا. فَيَمْدحُونَها بِقَدْرِ طَاقَتِهِمْ. فَيَحْسُن منهم كلّ ما يمدحونَهَا بِهِ نَظْماً أَوْ نَثراً؛ لأنها فوق ما يُقَال فيهَا: فَلَوْ بَقِي أَهْل الدّنيا يَمْدحُونها مُدّة عُمُر الدّنيا والآخرة، ما بَلَغُوا معشار حسْنِها وبهائهَا. ويفرح عند ذِكر هذه الأَمْواجِ من لَمْ يَعْرفها، شوقاً ومحبَّةً. فكيْف لمَن يعرفها؛ فهو أَب

مَن لَمْ يَعْرفها. ولكنه مشتاق إليها، كمشاق محبُوبته التي اسمُها نُعم. فلما ذكرت هذه المحبوبة، اهتَزَّ لَهَا. واشتاق لرُؤيتها. وَأَمَّا مَنْ عَرَفَها وَاتَّصَلَ بها، وتَمَكَّنَ مِن شُهُودها. فلا يَهُزّه سماع مَدحهَا. لقوَّتِهِ وتمكّنِهِ؛ فَهُو مالكٌ للأَحْوَالِ. وليْسَت مالكة له؛ فهو كالجبل الرَّاسِي، واللَّهُ تَعَالى أَعْلَمُ. ثم قال رضي اللَّهُ عَنْهُ:

وَقَالُوا شَرِبْتَ الإِثْمَ كَلاَّ وَإِنَّمَا   شَرِبْتُ الَّتِي فِي تَرْكِهَا عِنْدِي الإِثْمُ

قُلْتُ: كَلاَّ عِنْدَ النحاة حَرْفَ زَجْر وَرَدْع. يقول رضي اللَّهُ عَنهُ: قال لي العواذل واللؤم: شَرِبْتَ مَا يُوجِب لكَ الإِثم؛ لأَنَّكَ تَسَبَّبْتَ فِي هَتْك عِرْضكَ. وتخريب ظاهركَ. وتَلْف مالك. فَقُلْتُ لَهُمْ. كَلاَّ. بَلْ شَرِبْت التي في تَرْكِ شُرْبِهَا هُوَ الإِثْمُ؛ لأنها تُهذِّبُ أَخْلاَق النَّدَامَى. فكُلّ من لم يَشْرَبْ مِنْهَا، لا يَخْلُو مِن ذَنْبٍ. وَلاَ يَصْفو مِن عَيْبٍ. ولذلك قال الغَزَّالي: عِلْمُ التصوف فَرض عَيْنٍ. إذْ لاَ يَخْلُو الإنسَان من العُيُوبِ. وقال الشيخ أَبُو الحَسَنَ: مَنْ لَمْ يَتغَلْغَلْ في علمِنَا هَذَا؛ ماتَ مُصِرًّا على الكَبَائر؛ وَهُوَ لا يَشْعُرُ. وقال آخر: مَنْ تَشَرَّعَ وَلَمْ يَتَصَوَّفْ فَقَدْ تَفَسَّق. إلى غَير ذَلِكَ. لِمَا وَرَدَ في مَدْحِ التَّصوّفِ وأربابه به. وباللَّهِ التوفيق. ثم قال رضي اللَّهُ عَنهُ:

هَنِيئاً لأَهْلِ الدَّيْرِ كَمْ سَكِرُوا بِهَا   وَمَا شَرِبُوا مِنْهَا وَلَكِنَّهُم هَمُّوا

قلت: الهَنَى والْهَنَاءُ: ما أَتَاكَ بِلا مَشَقَّةٍ. هو هنيّ سائغٌ. قَوله في القاموس: ويُعرب حالاً. عامله محذوفٌ وجُوباً. أي ثَبَتَ الخَيْرُ هَنيئاً. أي سَهْلاً بِلا مَشقةٍ. والدَّيْرُ: الصَّوْمعة التي يتعَبَّد فِيها الرُّهْبَان. فيُحتمل أن يُريد بِأَهْلِ الدَّيْر هُنَا: العُبَّاد والزُّهَّاد المنقطعينَ إلى اللَّهِ في البَرَاري والجِبَالِ. حَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ لِلّهِ. كَمَا حَبَسَت الرّهْبَان أَنفسهم فِي الدّيور، طلباً لمحبَّة اللَّهِ. فَلَم ينَالوا مِنْهَا شيئاً. لتركهم الشريعة التي هي باب اللَّهِ. قال تعالى: ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾ بخلاف العُبَّادِ والزُّهَّاد، والمنقَطِعِينَ إلى اللَّهِ. قد قَصَدُوا الأمْرَ مِن بَابِهِ. فَقَال الشيخ رضِي اللَّهُ عَنهُ، مبَشراً لَهُمْ ومُغْتبطاً لِحَالِهِمْ: هَنيئاً لأَهْلِ الدَّيْر. أَيْ ثَبَتَ لَهُمُ الخَيْر العَظيم سهْلاً بِلا مَشَقَّةٍ. فَكَمْ سَكِرُوا بِهَا. أَيْ كَثِيراً مَا سَكرُوا بِهَذِهِ الخَمْرَةِ، حتَّى تَاهُوا، ورفَضُوا الأَهْلَ والأَولاد. وتَرَكُوا الأوطَانَ والبلادَ. وَمَع ذَلِكَ، لَمْ يَقَعْ لَهُم شُرْب مِنْهَا. إذْ لَمْ يَتَّصِلُوا بِأَرْبَابِهَا؛ وهم العَارِفُونَ أَهْلِ التربيَة النبوية، والخمرة الأزلية. إذْ لَوِ اتصلُوا بهم: لسَكِرُوا في مَوْضعهم وبيْنَ أَوْلاَدِهِمْ. ولكنهم هَمُّوا بشربهَا، فَتَاهُوا فِي طَلَبِهَا فَسَكِرُوا قَبْلَ الشُّرْبِ. فَمَا بَالكَ لَوْ شَرِبُوا. وَمَا بَالُكَ لَوْ رُوُوا مِنْهَا.

فَسُكْرُ العُبَّادِ والزُّهَّادِ؛ هو الفِرَار من الأشياءِ، لغَيْبَتِهم عَنْ شُهُودِ مَكَوّنها. ولو شَهِدوا مُكَوّنها فيها لَمْ يَفِرُّوا مِنْهَا. قال في الحِكَم: إنَّمَا اسْتَوْحَشَ العُبَّادُ والزُّهَّادُ مِن كُلِّ شَيْءٍ. لِغَيْبَتِهِمْ عَنِ اللَّهِ في كُلِّ شَيءٍ. وَلَوْ عَرَفُوهُ في كُلِّ شَيْءٍ. مَا اسْتَوحَشُوا مِنْ شَيْءٍ. هـ. فَسُكْرُهُم نَاقِصٌ. بخلافِ مَنِ اتَّصَلَ بِأَهْلِ الخَمْرَةِ، فَسَقوه مِنهَا فَإِنَّ سُكْره مَمْزوج بِصَحْوةٍ. فَكُلَّما شَرِب ازْدَادَ صَحْواً. وكَلَّمَا غَابَ، ازدادَ حُضُوراً. لا يحجبه صَحْوة عن سُكْرِهِ. وَلاَ سُكْره عَن صَحْوِهِ. وَيُوفي كل ذي قسط قِسْطَهُ. ويحتَمل أن يُريد بأَهْلِ الدَّيْر؛ الرُّهْبَان المنقطعين فيه من النَّصارى. أي لولا المحبَّة التي في قلبهم ما صَبرُوا على تلك المشاقّ. من الجوع والبَرْدِ. فَلَوْلا خَمرة المحبَّة التي شمتها أرواحهم مِن وَرَاءِ الحِجَابِ. مَا انْقَطَعُوا هَذَا الانقطاع. فإنْ قُلْت: لاَ يصحّ قوله في حَقِّهِمْ هَنِيئاً. إذ لاَ خَيْرَ عِنْدَهُمْ. قُلْتُ: للعارفينَ نَظَرٌ رقيق، يشهدُونَ الأنْوار الباطنة. ويغيبون عن الظلمَة الظاهِرَة. يَشْهَدُونَ القُدْرَة، ويَعْرِفُونَ الحِكْمَةَ. فَهُم كالنَّحْلَةِ، تَرْعى مِن كل نُورٍ. حلواً أَوْ مُرّاً. وَلاَ يَخرُج مِنْها إلاَّ العَسَل الحُلْوَ. ولذلك قال شيخ أشياخِنَا. سيّدي عَبْد الرحمن الْمَجْذُوب:

الخلق نُوز وأَنَا ازعت فيهم
هُمُ الحُجُبُ الأكْبَز والْمَدْخَلْ فيهمْ

وفي هَذَا المنزع يقول الرّفَاعِي رَضِي اللّهُ عَنْهُ:

تَأَدَّبْ بِبَابِ الدَّيْرِ وَاخْلَع بِهِ النَّعْلاَ وَسَلِّمْ عَلَى الرُّهْبَانِ وَاخْطُطْ بِهِمْ نَعْلاَ
وَعَظِّمْ بِهِ الْقِسّيسَ إنْ شِئْت حظوهُ وكَبِّرْ بِهِ الشَّمَّاس إنْ شِئْتَ أَنْ تَعْلاَ
وَدُونَكَ أَمْوَاتُ الشَّمَّامِينَ فَاسْتَمِعْ لألْحَانِهِمْ واحْذَرْكَ أَنْ يَسْلُبُوا الْعَقْلا
بَدَتْ فِيهِمْ أَقْمَارٌ شُمُوسٌ طَوَالِعُ يَطُوفُونَ بِهِ الصُّلْبَانِ واحْذَرك أَنْ تَبْلاَ
فَإِيَّاكَ أَنْ تَسْمَعْ لَهُنَّ بِخُلَّةٍ وَإِيَّاكَ أَنْ تَجْمَعْ لَهُنَّ بِكَ الشَّمْلا

إلَى أن قال في أثْنَاءِ القَصِيدَة:

فَلَمَّا أَتَيْتُ الدَّيْرَ أَمْسَيْتُ سَيِّداً وَأَصْبَحْتُ مِنْ زُهْدِي أَجُرُّ بِهِ الذَّيْلا
سَأَلْتُ عَنِ الخَمَّارِ أَيْنَ مَحَلُّهُ وَهَلْ لِي سَبِيلٌ لِلْوُصُولِ بِهِ أَمْ لاَ
فَقَالَ لِيَ الْقِسّيسُ مَاذَا تُرِيدُهُ فَقُلْتُ أُرِيدُ الْخَمْرَ مِن عِنْدِكُمْ أَمْ لاَ
فقال: وَرَأْسِي والمسيح ابن مَرْيم وديني ولم بالدّم تُبَدِّلُهُ بَذْلاً

إلَى آخِرَ كَلاَمِهِ رضِي اللَّهُ عَنهُ: فَلِلْعَارِفِينَ مَنْزَع غَرِيبٌ، ونظَرٌ عجيبٌ. لاَ يَذُوقهُ إلاَّ مَنْ صَحِبَهُمْ. وإلاَّ فَشَأْنهُ التَّسْليمُ. فإنِ اعْتَرَضَ عَلَيْهِمْ، أَصْبَحَ مِنَ البُكْم الصُّمْ الذِينَ لاَ يعقلُونَ. وَلاَ شكَّ أَنَّ الحقيقة الْعَارية مِن وَرَاء الشريعة؛ الشهوة فِيهَا أَقرب وأظهَرُ. ولذلك قال:

بَـدَتْ فـيـهـم أقـمـار شـمُـوع طَـوَالِـعُ　　وَلاَ يَـذُوق هَـذَا إلاَّ أَرْبَـاب الـفَـنّ

قلت: النَّشْوَة: السَّكْرَة. يُقالُ: نَشَا نَشْوَة: سَكَرَ. قَالَهُ في القاموس. يقول رضي اللَّهُ عَنهُ: عِندِي مِنْ هَذِهِ الخَمْرَةَ. نشوء لرُوحي في الأزَلِ. قَبْلَ نَشْأَة البَشرية. فَمَا ظَهَرَ فِي عَالَم الشَّهَادة. إلاَّ مَا سَبَقَ فِي عَالَم الْغَيْبِ. فللرُّوح سَكْرَة. لِمَا عَلِمَتْهُ مِن سَبْقِ السَّعَادَةِ، والْعِنَايةِ، قَبْل ظهور البْرية. ثُمَّ تبقى تِلك النَّشْوَة لهَا، بَعْد مُفَارقتها هذه البشرية اللطيفة، وإن بقي عظمها، واضْمَحَلَّ رَسْمُهَا؛ فإنَّ الرُّوحَ لاَ فَنَاءَ لَهَا. فَإذَا فَارَقَتْ هذه البَشرية. بقيْت عَلى ما كَانَتْ عليه مِنَ المعرفة والعِلْم. بل لَمْ تَزَلْ تَتَرَقَّى فِي المَقامَاتِ، كما كَانَتْ فِي الدُنيا أَبَداً سَرْمَداً. يَمُوتُ الْمَرْءُ عَلَى ما عاش عليه. ويُبْعَثُ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ. وقد أشرتُ إلى هَذَا المَعْنَى الَّذي قال الشيخ، في تَائيتي الخَمْرِية. فَقُلْتُ:

سَـكِـرنَـا بِـهَـا قِـدْمـاً وَبَـعْـدَ نَـشَـاءَتـي　　وَفِـي الـنَّـشْـأَةِ الأُخْـرَى تَـدُومُ مَـسَّـرتِـي

ثم قال رضي اللَّهُ عَنهُ:

عَلَيْكَ بِهَا صِرْفاً وَإِنْ شِئْتَ مَزْجَهَا　　فَعَدْلُكَ عَنْ ظُلْمِ الْحَبِيبِ هُوَ الظُّلْمُ

قلت: الصِّرْفُ بِكَسْرِ الصَّادِ: الخالِصُ مِنَ الخَمْرِ وغَيرها. قاله في القاموس: والمَزْجُ: الخَلْطُ. وَعَدَل عَنْ كَذَا: انصَرَفَ عَنهُ. والظَّلْمُ، ضَبَطَها بفتح الظَّاءِ. وفسره بالريق. وقوله في القاموس. الظُّلْم بالضَّمّ: وَقْع الشيْء في غَيْر مَحَلِّهِ. والمصْدَر الحقيقي: الظَّلْم بالفَتْح، ظَلَم يظلم ظَلماً بالفَتْح فَهُوَ ظَالِمٌ ومظلوم. ثم قال: والظلم: الثلجُ بهذيل الثعلبي. وماء الأسنان هـ. فإن أراد بماءِ الأسْنانِ الرِّيق، وافَق ما قاله الْبَعْضُ. ويكون حينئذٍ كناية عن خَمْرِ المحبَّة. لكنَّها بعيدة لغربة الانتقال، مِنَ الرِّيقِ إلى الخَمْرِ. والَّذي يظهر. أنَّهُ الظلم المعلومُ، أطلقه على التَّصَرُّفَات القهرية الجلالية. إذ لاَ سبيل لشُرْب خَمْر المحبَّة على الْوفاءِ والصَّفَاءِ، إلاَّ بعد مرور هذه التَّصرُّفات الإلَهية عليه. وإلاَّ كَانَ كَاذباً. لقول أبي المَوَاهِب: مَنِ ادَّعَى شهود الجَمَالِ، قَبْل تَأْدِيبِهِ بِالْجَلاَلِ، فارْفُضْهُ فَإنه دَجَّالٌ. فَهُوَ كَقَول الشَّاعِرِ:

السحبُ دِيني فَلاَ أَبْغِي بِهِ بَدَلاً والحُسْنُ مَلِكٌ مُطَاعٌ جَارَ أَمْ عَدَلاَ
والنَّفسُ عُزَّتْ وَلَكِنْ فِيكَ أَبْذُلُهَا والذُّلُّ مُرٌّ ولكِنْ في رِضَاكَ حَلاَ
يَا مَنْ عَذَابِي عَذْبٌ فِي مَحَبَّتِهِ لا أَشْتَكِي مِنْكَ لاَ صَدّاً وَلاَ مَلَلاَ

يقول رضي اللَّهُ عنه: عليك أيّها الشَّارب للخَمرةِ الأزلية بِهَا صِرْفاً. أي صافية، خالصة من السلوكِ. بل أَسْتَغرِقْ في تعاطِي أسْباب شُرْبِهَا، حتى تغيب عن الحسّ بالكلية. وإن شِئت. فامْزجْها بشيءٍ من السلوكِ. إعطاءً لحق العبودية؛ التي هي كَمَالٌ. فَإِنْ تَعرفَ إليكَ الحق بشيءٍ من التَّصرُّفَاتِ القهرية. التي هي سبب الشرْب شرْب هذه الخمرة الأزلية. فعذلك عَنها، وانصرافكَ عن نِيرَانها؛ هُوَ الظّلم الكَبِيرُ. الحق تعالى يقول لك: هاتِ نُسقيكَ خَمْرتِي بثَمَنِ تَصرُّفَاتِي. وأنت تَهرب مِنْهُ. الحق تعالى يريدُ أن يطوي عنك مسافَةَ البُعْدِ. وأنْتَ تَفِرّ مِنْهُ إلى الْبُعْدِ. وفي الحِكَم: إذَا فَتَحَ لَك وجْهَةً مِنَ التَّصرّفِ، فَلاَ تبال مَعَها إنْ قَلَّ عَمَلُكَ. فَإِنَّهُ مَا فَتَحهَا لَك؛ إلاّ وهُوَ يُرِيد أَنْ يَتَعَرَّفَ إليْكَ فِيهَا هـ. وكَان شيْخ شيخنا رضي اللَّهُ عنهُ يَقُولُ: العجَبُ كل العَجَب مِنَ الفَقِير يقول: يَا رَبِّ عرِّفْنِي بِكَ. فَإِذَا تَعرَّف الحق تَعَالى إِلَيْهِ فَرَّ مِنهُ وأَنْكرهُ. والحاصل: أنَّ جَنَّة المعارف؛ التي هي محلّ شُرْب الخمرة الأزَلية. مَحْفُوفةٌ بالمَكَارِهِ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾... الآية: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾[1] الآية، فإطلاقُ الشيخ رضيَ اللَّهُ عَنهُ على هَذِهِ التَّصرُّفَاتِ ظُلْماً مَجازٌ. ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾. لكن ذِكْرَ الحبيبَ هُنَا لِيَسْهُلَ هَذَا الإطلاق. إذْ كُلّ ما يصْدُر مِنَ الحبِيبِ كُلّه حُلو مُسْتَعْذَبٌ. وإنْ كَانَ ظَاهِره ظلماً. فبَاطِنُهُ صَوَابٌ وتقريب. واللَّهُ تعالى أَعْلَمُ. ثم قال رضِي اللَّهُ عَنْهُ:

فَدُونَكَهَا في الْحَانِ واسْتَجلْهَا بِهِ عَلَى نَغَمِ الأَلْحَانِ فَهْيَ بِهَا غُنْمُ

قُلْتُ: دُونَكَ اسْمُ فِعْلٍ بِمَعْنَى خُذْ. واللَّحْنُ مِنَ الأصْوَاتِ المصنُوعاتِ. المَوْضوعة على ميزَان الشِّعْرِ. والجمع ألحان ولحون والْغُنْمُ بِالضّمّ: الفَوْز بالشَّيْءِ بِلاَ مَشقَّةٍ. قَالَهُ في القَامُوس. يَقُول رضِي اللَّهُ عَنهُ: إن أردتَّ أَنْ تَظفَرَ بِهَذِهِ الخَمْرَةِ، فَخُذها مِنْ مَحلّها. واستجلّها مِن حَانِهَا؛ وهو الاجْتماع مَعَ أَرْبَابِهَا. والصُّحْبة لَهُمْ. والأدب مَعَهُمْ وتعظيمهم، والمُذَاكَرَة فِيها مَعَهُمْ. وإنشاد الأشْعَار

(1) سورة العنكبوت: الآية: 2.

التِي تَشْتَمِلُ على ذِكْرِها. على نُغُم حَسَنَة. وألْحان مستحسنة؛ فهي السبَبُ في الْفَوزِ بحصولهَا. والظُّفر بالسُّكْرِ بِهَا. كَأَلْحانِ الشُشتري والنَاظم وغيرهما من الخمرية أو البحرية. ولذلك اتخذت الصوفية مُنْشداً لينشد في حلقة الذّكر وبعدهَا؛ لأنَّهَا تُهَيّج الحبَّ. وتَستجلب السكر. ويُشترط أَنْ يكُونَ صَيِّتاً عارفاً بصناعَةِ الإنْشادِ. يَذْكُرُ في كُلّ محلّ ما يُنَاسِبُهُ، بِدَايةً ونهايَةً. جَذْباً وسُلوكاً. وباللَّهِ التوفيق. ثم قال رضي اللَّهُ عَنهُ:

فَمَا سَكَنَتْ وَالْهَمُّ يَوْماً بِمَوْضِعٍ ... كَذَلِكَ لَمْ يَسْكُنْ مَعَ النَّغَمِ الْغَمُّ

يقول رضِي اللَّهُ عَنهُ: هَذِهِ الْخَمْرَةِ الأزلية. مَنْ شَربها وسَكر بِهَا. وتمَكَّنَتْ مِنْ قَلْبِهِ مَعْرِفَتُهَا. وأشرقت على سِرّهِ أَنْوارهَا. لاَ يَسْكُنُ مَعَهَا فِي قَلْبِهِ هَمٌّ أَبَداً؛ لأنَّ الْوُصُول إلى هَذِهِ الْخَمْرَةِ، هو الْوُصُول إلى الحبيب، والجلوس في بسَاطِ حَضْرَتِهِ. ومُشاهدة أنوار طلعَتِهِ. وَمَن كَانَ مَعَ الحَبِيبِ لاَ يَعْتَرِيهِ الهُمُومُ. وَلا يطرق ساحته الغُموم. كَما قال القائل:

هَنِيئاً لِمَنْ قَدْ نَالَ حُبَّ حَبِيبِهِ ... وَخَاضَ بِتَرْكِ الغَيْرِ أكْرَمَ مَوْرِدِ

نَعِيمٌ بِلاَ حَلٍّ لَدَيْهِ مُجَدَّدٌ ... عَلَى عَدَدِ الأنْفَاسِ فِي كُلِّ مَشْهَدِ

وأَيْضاً: لاَ تطرق الهموم والأحزان، إلاَّ من وُجُودِ الإنسَان. وأمَّا مَن تحقَّقَ زَوَالُهُ؛ كَانَ أمْرَهُ كُلُّهُ باللَّهِ. ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾. والحقُّ مُنَزَّهٌ عَنِ النَّقَائِصِ. وإن شئتَ قُلْتَ. الهَمُّ والْحُزن لاَ يتصوّران إلاَّ فُقدَانَ شَيْءٍ أَوْ فَوَاتَهُ. وَماذَا فَقَدَ مَنْ وَجَدَ اللَّهَ. بَلْ مَنْ وَجَدَ اللَّهَ كَانَتْ أَوْقاته كلها مَوَاسِم وأَعْيَاداً. كما قال الشَّاعِرُ:

الدَّهْرُ لِي مَأْتَمٌ إنْ غِبْتَ يَا أَمَلِي ... وَالْعِيدُ مَا كُنْتَ لِي مرءاً ومُسْتَمِعا

وقال آخَرُ:

قَالت: هنّ العيدَ بالبشْرَى فقُلْت لها ... الْعِيدُ والبُشْرَى عِنْدِي يَوْمَ لُقْيَاكَ

اللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ النَّاسَ قَدْ فَرِحُوا ... بِهِ وَمَا فَرْحَتِي إلاَّ بِرُؤْيَاكَ

وإنْ شِئتَ قُلْتَ: إنما كَانَتْ هذِه الخَمرةُ لا يسْكُنُ مَعَهَا الْهَمُّ والْغَمُّ؛ لأن هذه الخمرة لا تَسْكُنُ إلاَّ فِي قَلْبِ تَقِيٍّ. وقد قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ أَيْ يَجْعل له من كُلِّ هَمٍّ مَخرجاً. وَلاَ تَسْكُنُ أَيضاً. إلاَّ في قَلْبِ مُحْسِن. وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾.

وَلاَ تَسْكُنُ أَيْضاً إلاَّ فِي قَلْبٍ صَبُورٍ. وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، ومَن كَان اللَّهُ مَعَهُ مَاذَا يَفُوتُهُ؟

وإن شِئْتَ قُلْتَ: إنما تطرقُ الهموم والغموم، مَنْ عَدِمَ الثقة بِالحيّ القَيُّوم. وَأَمَّا مَنْ صَلحَ تَوَكّلُهُ على اللَّهِ. فَقَدْ كَفَاهُ اللَّهُ وَآوَاهُ. قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾. وَمَنْ كَانَ اللَّهُ كَافِيهِ، كَيْف تَعْتَرِيهِ الْهُمُومُ؟

إنْ شِئْتَ قُلْتَ: إِنَّما تَطْرُقُ هَذِهِ الغمُوم. مَنْ عَدم التحقق بالقَضَاءِ المختُوم. وأَمَّا مَنْ تحقق بِسَابِق القَضَاءِ والقَدَرِ. أَرَاحَ نَفْسَهُ مِنَ التَّعَبِ والكَدَرِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ الآيـة. ثـم قـال: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾. حُكِيَ أَنَّ رَجُلاً فَاقَ حَالُهُ. وَتَعَطَّلَ أَجَلُهُ. فَخَرَجَ هائماً عَلَى وَجْهِهِ. وَدَخَلَ الصحراء، فَوَجَدَ قَصْراً دَارِساً مُتَخَرِباً. قَدْ كَشَف الريحُ عَنْهُ الرَّمْلَ. وفي حَائِط ذلِكَ القَصْرِ، لوْح من الرُّخَام. مكتوبٌ فيه بقلم الْقُدْرَة هَذَا الشِّعر:

لَمَّا رَأَيْتُكَ جَالِساً مُسْتَقْبِلاً ... أَيْقَنْتُ أَنَّكَ لِلْهُمُومِ قَرِينُ

مَا لاَ يُقَدَّرُ لاَ يَكُونُ بِحِيلَةٍ ... أَبَداً وَمَا هُوَ كَائِنٌ سَيَكُونُ

سَيَكُونُ مَا هُوَ كَائِنٌ فِي وَقْتِهِ ... وَأَخُو الْجَهَالَةِ مَتْعُوبٌ مَحْزُونُ

يَجْرِي الْحَرِيصُ وَلاَ يَنَالُ بِحِرْصِهِ ... شَيْئاً وَيَضْحَى عَاجِزاً مُهِينُ

دَع الْهُمُومَ وَتَعَرَّ مِنْ أَثْوَابِهَا ... إنْ كَانَ عِنْدَكَ بِالْقَضَاءِ يَقِينُ

هَوِّنْ عَلَيْكَ وَكُنْ بِرَبِّكَ وَاثِقاً ... فَأَخُو الْحَقِيقَةِ شَأْنُهُ التَّهْوِينُ

طَرَحَ الأَذَى عَنْ نَفْسِهِ فِي رِزْقِهِ ... لَمَّا تَيَقَّنَ أَنَّهُ مَضْمُونُ

وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ: الْهُمُومُ والغُمُومُ ظُلُمَات. والخَمْرَة الأَزَلية أَنْوَارٌ مُشْرِقَاتٌ. فَكَيْفَ تَجتَمِعَ الظُّلمَات والنُّورُ؟ أَمْ كَيف تجتمعُ الكَآبة والسُّرُورِ؟ وتعبير الشيخ بالسُّكنَى يَقْتَضِي أَنَّ خطو الهَمّ على الْقَلْبِ ومُروره عليه. لا ينافي وُجُود الخَمرة. وَهُوَ كَذَلِكَ. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ فهذه الآية، تحكُمُ على أَهْل البِدَايَاتِ والنهاياتِ لِقوله تَعَالَى قَبْلَ ذَلِكَ مُخَاطِباً لِسَيِّد العارفينَ: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ الآية. أو إشارة إلى أَنَّ الطَّيْفَ لاَ يَخلُو مِنْهُ أَحَدٌ. وإن كَانَ الرَّسول معصوماً مِن إصراره، لكن فيه تنبيهٌ لِغَيْرِهِ. واللَّهُ تعالى أَعْلَمُ. ثم قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وَفِي سَكْرَةٍ مِنْهَا وَلَوْ عُمْرُ سَاعَةٍ تَرَى الدَّهْرِ عَبْداً طَائِعاً وَلَك الْحُكْمُ

يَقُولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وفي سَكَرَةٍ مِنْ هَذِهِ الخَمرةِ الأزَلِيَّةُ، وَلَوْ سَاعَة من الْعُمُرِ، ترى الزَّمَان طَائِعاً لكَ. والأشياء كُلّها عِندَ أَمْرِكَ ونَهْيك. وأَنْتَ حَاكِمْ عَلَيْهَا. ما دُمْتَ فِي هَذِهِ السَّكْرَةَ. لأنكَ حُرّ عنهَا، غنِيّ بِشُهُودِ مُكَوّنِهَا. الأشيَاءُ كُلّما تشتاقُ إلَيْكَ وأنتَ مَوْلاَهَا. أَنْتَ مَعَ الأكْوَان. مَا لَمْ تَشهد المُكوّن. فَإِذَا أَشهدتَّهُ، كَانَتِ الأكْوَان مَعَكَ. وفي الحديث. «اشتَاقَتِ الجَنَّةُ إلى عَلِيٍّ وعَمَّارٍ. وصُهَيْبٍ وَبِلاَلٍ». وَبالْجُمْلَةِ. فَمَن عَلَتْ هِمَّتُهُ عَنِ الأشيَاءِ كَانَ حُرّاً. والأشيَاء كلها عَبِيد لَهُ. يَتَصَرَّف فِيها باللَّيل. مُرَاده مَعَ مُرَاد مَوْلاك. لا يشتهي إلاَّ ما يَقْضي، وَلاَ يُرِيدُ إلاَّ ما يُرِيدُ. صَارَ المَنْعُ عِنْدَهُ عَيْنَ العَطَاءِ. والذّلّ عَيْنَ الْعِزّ. والْفَقْرُ عَيْن الْغِنَا. والقبْضُ عَيْنَ البَسطِ. إلى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ تَوَارِدِ الأضدادِ. فَلاَ يَقْدَحُ فِي حَقّ العَارِفِ تَعَذر الأشياء عليه، في أمُور الدُّنيا؛ لأنه عِنْدَ مَوْلاَهُ. مَنَعَهُ أَوْ أَعْطَاهُ. وتقييدنا كَلاَم الشيخ. بوقتِ الخَمْرةِ لاَ بُدَّ مِنْهُ. وأَمَّا مَن رَجَعَ إِلَى نَفْسِهِ، وَشُهُودِ حِسّهِ. فَلاَ تبقى له هذه الْمَزِية. لغَلَبة أَحْكَام العُبُودية عَلَيْهِ. وفي ذَلِكَ يقُول الشَّاعِر:

نَحْنُ إنْ كُنَّا بِهِ دَلاَلاَ تِهْنَا عَنْ سَائِرِ الأحْرَار والْعَبِيدِ
وَإنْ نَحْنُ رَجَعْنَا إلَيْنَا عَطَّل ذُلّنَا ذُلَّ الْيَهُودِ

فَمَنْ دَامَ سُكْرُهُ فِي الْبَاطِنِ. وتحقق بَقَاؤهُ وَفَنَاؤهُ. وَسَكَنَ عِنْدَ مَوْلاَهُ، كَان حُرّاً عَلى الدَّوَام. مَالِكاً عَلَى الدَّوَام. والأشياء مملوكة له على الدَّوام. يَتَصَرَّف فِيهَا باللَّهِ. خليفة عَن الله في حُكْمِهِ وَإِلْزَامِهِ. مَعْزُول عن رؤية نَفْسِهِ وَوُجُودِهِ. يَتَظَهَّرُ بِعَيْن البَصِيرَة إلى سَابِقِ الْقَضَاءِ، فَيَحْكُمُ بِهِ. قَدْ ذَهَبَ رُؤْيَةُ الْكَوْنِ عَن نظَرِهِ. فَلاَ يشهد إلاَّ مُكَوّنَهَا. فلا شكَّ أَنَّ مَنْ كَانَ هَكَذَا. يكُون الدَّهر خَادماً لَهُ. والأنَامُ عَبيداً. فَكُلّ يوم عِنْدَهُ الْعِيدُ. حَقَّقَنا اللَّهُ بِهَذَا الأَمْرِ الْعَظِيم. بجاه سَيِّدِ الخَلْقِ عليه السلام. ثُم قَالَ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ:

فَلاَ عَيْشَ فِي الدُّنْيَا لمن عَاش صَاحِياً وَمَنْ لَمْ يَمُتْ سُكْراً بِهَا فَاتَهُ الْحَزْمُ

قُلْتُ: الصَّحْو: ذَهَابُ الْغَيْم، والسُّكْر. يقال: صَحِيَ السكران. كَرَضِي. وأَضحَى: ذَهَبَ سُكْرُهُ. قَالَهُ في الْقَامُوسِ: يقول رضي اللَّهُ عَنْهُ: مَنْ فَاتَهُ السّكْر بِهَذِهِ الخَمْرَةِ، وعاش سَالِكاً مَحْضاً. لاَ يَرَى إلاَّ الأكْوَان. وَلاَ يَحُول فِكْره إلاَّ فِيهَا.

فَعَيْشُهُ عَيْش الْبَهَائِم. فَلاَ عَيْشَ لَهُ عِنْدَ الأكْيَاسِ؛ لأنَّ عَيْشه مُكَدَّر. وَرزقه مِنَ العلوم مُقَتَّرْ. مسجُون بمحيطاتِهِ، مَحْصُورٌ فِي هَيْكَلِ ذَاتِهِ. لَمْ يُفْتَحْ لَهُ مَيَادِينُ الْغُيُوبِ. وَلَمْ يَخْرجْ إلى فَضَاءِ الشُّهُودِ والعِيَان. قَدْ بَانَ غَبْنه، وَدَامَ حُزْنُهُ. وَقَدْ قُلْتُ في تَائيتي فِي هَذِهِ المَعْنَى:

فَيَا غَبْنَ مَنْ لَمْ يَشْفِ مِنْهَا غَلِيلَهُ	لَقَدْ كَسَاكَ الْحِرْمَانُ ثَوْبَ مَذلَّتِي
وَيَا فَوزَ مَنْ أضْحَى لَهَا مُتَضَلِّعاً	عَلَى عَدَدِ الأنْفَاسِ فِي كُلِّ وجْهَةِ
هَنِيئاً لَهُ فَالأمْرُ عِنْدَ مُرَادِهِ	وَعَبْداً يَصِيرُ الدَّهْرُ فِي كُلِّ خِدْمَةِ
فَمَنْ عَاش وَلَمْ يَسْكرْ مِنْها حَتَّى مَات	فَقَدْ فَاتَهُ الحَزْمُ وَكَانَ حَظُّهُ النَّدَمُ

كَمَا قَالَ الشاعِرُ:

مَنْ فَاتَهُ مِنْكَ وَصْلٌ حَظُّهُ النَّدَمُ	وَمَنْ تَكُنْ هَمَّهُ تَسْمُو بِهِ الْهِمَمُ

وَاعْلَمْ أنَّ الصَّحْوَ عَلَى قِسْمَيْنِ: صَحْوٌ بعد السُّكْر: وهَذَا عَيْن الكَمالِ. وصحو قبل السكر؛ وهذا هو المَذْمُوم، لأن صاحبه محجوب عن اللّهِ؛ وهو الذي أرَاد الناظم هُنَا، كَمَا أنَّ السكر على قسْمين: سكر يكُون مَعَه سلوك أوْ بعدهُ. وهذا هو الكَمَال. وسكر لاَ يصحبه سلوك معه وَلاَ بعدهُ. وَهَذا نَاقِصٌ؛ لا يَصْلحُ للتربية النبوية. كَما أنَّ السُّلوك المخض لا يصلح أيْضاً للتَّربية. ومَن سَكَر ثم صَحَا كان شيخاً مُرَبِّياً، كَاملاً مكملاً؛ وهذا لا ينقطعُ، ما دَامَ الوجود قَائماً. وَلاَ يقُول بخلافِ هَذَا، إلاَّ مَنْ طَبَعَ اللَّهُ على قَلْبِهِ. نَسْأل اللَّهُ السَّلامَة بِمنِّهِ وكَرَمِهِ: ثُمَّ إنه قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

عَلى نَفْسِهِ فَلْيَبْكِ مَنْ ضَاعَ عُمْرُهُ	وَلَيْسَ لَهُ فِيهَا نَصِيبٌ وَلا سَهْمُ

يَقُولُ رضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَن ضَاع عُمْرُهُ في البطالة والتقصير. والتخليط والتكْدير. وليْسَ له مِن خَمْرَة الأفراحِ قليل وَلاَ كَبيرٌ. فَالواجبُ عليه أنْ يبكي على نَفسِهِ آناء اللَّيْل وأطراف النَّهار. ويلتجىء إلى العارفين الأطهار والصحالين الأبْرَار فعَسى أنْ تَهُبَّ عليه نَفَحات مِنَ الكَرِيم الْغَفَّار. لعلّ يلتحق بِهِم، وينخرط في سِلكهم. وإلاَّ بَقِيَ مغبوناً عَبادَتُهُ؛ وإن كَثُرتْ فِي الحسِّ؛ فهي قليلة في الْمَعْنَى؛ لأنَّ المقصود مِنْ عَمَلِ الجوارحِ، وصُولُ ثمرتها إلى الْقَلْبِ؛ وهِي خَمْرة المحبَّة. فَمَنْ لَمْ يَصِلْ إلى هَذِهِ الخَمْرَةِ، فعبادته وسيلة بِلاَ غَايَةِ. ولذلك قال القطب ابن مَشيش ـ نَفَعَنَا اللَّهُ بِذِكْرِهِ ـ مَنْ دَلَّكَ على الدّنيا فَقَدْ غَشَكَ. وَمَنْ دَلَّكَ عَلَى الْعَمَل

فَقدْ أَتعبَكَ. وَمَنْ دَلَّكَ على اللَّهِ فَقَدْ نَصَحَكَ. فالدِّلاَلَةُ على اللَّهِ، هو تَغيّبَ الْعَبْد عَمَّا سواهُ، ونِسْيَانُهُ نَفسه وَهَواهُ؛ وَهَذِهِ هِيَ الخمرةُ المَطلوبة. فعبادة أَهْل هذه الخمرة كثيرة في المَعْنَى. وَإِن كَانَتْ قَلِيلَة فِي الحسِّ؛ لأنَّ عبادَة هذه الخمرة كُلّها مُضَاعفة بأضعاف كثيرة؛ لأنها بيْن فكْرَةٍ ونظرةٍ. وشهودٍ وعِبْرة. وفي الخَبر: «تَفَكُّرُ سَاعَةٍ أَفْضَلُ مِنْ عِبَادَةِ سَبْعِينَ سَنَة». وَقَال الشَّاعِر:

كُلُّ وَقْتٍ مِنْ حَبِيبي ... قَدْره كَأَلْفِ حَجَّةِ

أي سنة. وقال الشيخ أَبو العَبَّاس المرسِي رَضِي اللَّهُ عَنْهُ: أَوْقَاتُنَا كُلها ليلة القدْر. أي كل وقتٍ عِنْدَنَا خَيْر مِن أَلْفِ شَهْرٍ. يسيرُ إلى هَذَا المَعْنى. وقال الجنيد رضي اللَّهُ عَنْهُ: أشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الفكرة في ميدان التوحيد، بِنَسِيم المعرفة. والشُربُ بكأس المحبّة، مِنْ بَحْر الوِداد، والنظر بحسْن الظَّنْ باللَّهِ تعالى. ثم قال: يَا لَهَا مِن مجالس. مَا أَجَلَّها! وَمِن شَرابٍ ما أَلَذَّهُ! طوبَى لِمَن رَزَقَهُ هـ. وقال ابن عطية رحمهُ اللَّهُ: حدَّثني أبي رضِي اللَّهُ عَنْهُ: عن بَعْض علماءِ المشرقِ، قال: كنت تائهاً في مسجد الاقْدَام بمِصر. فصلَّيْت العَتَمة. فَرَأَيْت رَجُلاً قَدِ اضْطَجَعَ فِي كِسَاءٍ لَهُ. مَسجياً بكسَائِهِ حَتَّى أَصْلَحَ. وصَلَّينَا في الليلة وسهرنَا. فَلَمَّا أُقيمت صَلاَةَ الصُّبْح. قام ذَلِكَ الرَّجُل، فاسْتَقْبَلَ القِبْلَةَ. وصَلَّى مَعَ النَّاس، فاسْتَعْظَمْتُ جُرْأَتَهُ في الصَّلاَةِ بِغَيْر وُضُوءٍ. فلمَّا فَرغت الصلاة، خرج فَتَبَعْتَهُ لأعِظَهُ. فَلَمَّا تبعته سَمِعْتُهُ يُنْشِدُ:

مُنْسَجِنُ الْجِسْمِ غَائِبٌ حَاضِرْ ... مُتَنَبِّهُ الْقَلْبِ صَامِتٌ ذاكِرْ

مُنْقَبِضٌ فِي الْغُيُوبِ مُنْبسط ... كَذَاكَ مَنْ كَانَ عَارِفاً نَكِرْ

قال: فعلِمتُ أَنَّهُ مَنْ يَعْبدُ اللَّهَ بِالفِكْرَةِ. وقال أَبُو الحجاج الضرير في مَنظومتِهِ:

والفِكْرُ في عَجَائِب الخَلِيقَةْ ... مِنْ أَفْضَلِ الطَّاعَاتِ في الحقيقَةْ

لأنَّهُ بِهِ تَكُونُ الْمَعْرِفَةْ ... وإنَّمَا يَخَافُهُ مَنْ عَرَفَةْ

وقال الششتري رضي اللَّهُ عَنْهُ:

دَع السَّيْفَ والسُّبحة والسَّجَادْ ... واعقد سُكَيرةً مِنْ خَمْرَةِ الإفرادْ

أي اترك الجهاد الحِسّي والعبادة الحسية. واشْتَغِلْ بالعبَادَةِ الباطنية القلبية. ولذلك قال بَعض العارفينَ: الذَّرَّةُ مِنْ أَعْمَال القُلُوبِ. أَفضل مِن أَمْثال الجِبَالِ مِنْ

أَعْمَالِ الجَوَارِحِ. وقال الإمام أَبُو القاسم القشيْري رضي اللَّهُ عَنْهُ: التفكر نعْت كل طالبِ، وثمرة الوصول، بِشرطِ الْعِلْم. فَإِذَا سَلِم الفكر عَن الشوائب. وَرد صاحبه على مَنَاهِلِ التحقيق. وفي كتاب اللَّهِ عَزَّ وجلَّ، وسنَّة رسول الله ﷺ، مِنَ الحث على التفكّر، والاغتباط به. ما يَقلّ بِهِ أَسْفار. وكذلك أخبار السّلف الصالح. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾. وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾. وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾. إلى غَيْر ذلِكَ ممَّا لاَ يُحْصَى. ولمَّا نَزلت على رسولِ اللَّهِ ﷺ، هذه الآية: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ الخ الآية، قال: «**وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتفكَّره فِيهَا**». وقال ﷺ: «**لاَ عِبَادَةَ كَالتَّفكُّرُ**». وسُئِلَتْ زوجة أبي ذَرٍّ عن عبادة زَوْجِهَا. فَقَالَتْ: كَانَ نَهَارُهُ أجمع في ناحية يتفكَّرُ. وكذلك ذكرتْ زَوْجة أبي بَكْر. قَالَتْ: كَانَ لَيْلُهُ في ناحيَة يَتفكَّرُ. وَكَانَ عِيسَى عليه السلام يقولُ: طوبَى لِمَن قيله ذكراً. وصمته تفكراً ونظرةُ عِبْرة. إنَّ أكْيَسَ النَّاس مَن دَانَ نَفْسَهُ؛ وعمل لِمَا بَعْد المَوْت. وقال كَعْبٌ: مَنْ أَرَادَ شَرَفَ الآخِرَةَ، فليكثر التَّفَكّر. وقيل لإبراهيم: إنك تُطيل الفِكرة. فقال: الفِكرة مُخّ الْعَقْل.

وَكَانَ سُفْيَانُ بْن عُيَيْنَة، كَثِيراً، مَا يَتَأَمَّلُ وَيَقُول: إذا المَرْء كَانَتْ لَهُ فِكْرَة. فَفِي كُلّ شَيْءٍ لَهُ عِبْرَة. وقال الحسَن: مَنْ لَمْ يكُن كَلاَمه حكمَة، فَهُو لَغْوٌ. وَمَنْ لَمْ يَكُنْ سكوته تفكّراً؛ فَهُو سَهْوٌ. وَمَنْ لَمْ يَكُن نظرُهُ اعْتباراً، فهُوَ لَهْوٌ. وقيل في قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي أَمْنعَ قلوبَهُمُ التفكير في أَمْري.

وَكَانَ لُقْمَانُ يُطِيلُ الجُلوسَ وحْدهُ. فيمرّ بِهِ مَوْلاَهُ. يا لقمان. إنك تطيل الجُلُوس وحدك. فَلَوْ جلسْتَ مَعَ النَّاسِ، كان أأنسَ لَكَ. فيقول لقمان: إن أطول الوحدة أَتمُّ لِلفكرةِ.

وقال في الحِكم: ما نفع القَلْب شيْءٌ مثل عُزْلة، يَدْخل بِهَا ميْدان فِكْرة. وقال أيْضاً: الفِكْرة سِراج الْقَلْب. فإذا ذَهَبَتْ فَلاَ إضاءَةَ لَهُ. وقال أَيْضاً: الفِكرة فكرتان: فكرة تَصدِيقٍ وإيمَانٍ. وفِكرة شُهُودٍ وعِيَانٍ. فالأَوَّل لأرْبَابِ الاعْتِبار. والثاني لأرْباب الشهود، والاسْتِبْصَارِ. وفكرة أَهْل الشهودِ والعِيانِ؛ هي التي تَسْتَلْزِم الخَمْرة؛ وهي المقصودة عنْدَ العَارِفين. وهي التي تعَادِل أَلْف سَنَة. وقت

منْهَا خَيْر من ألف شَهْرٍ. فَمَنْ فَقَدَها فَلاَ عَيْش لهُ في الدُّنيا. وحق على نَفسه البُكَاء. وَمَنْ ظَفَرَ بِهَا وَنَالَهَا يحق لهُ الْهَنَاءُ. وفي أَمْثالِهِ قال القائل:

هُمُ الرِّجالُ وغَيْن لِمَنْ أَنْ يُقَالَ لَمْ يَتَّصِفْ بِمَعَانِي فِي وَصْفِهِمْ رَجُلُ

حَقَّقَنا اللَّهُ بِمَا حقَّقَهُمْ بِهِ. وأَتْحَفَنَا بِمَا أتْحَفَهُمْ بِهِ. آمينَ. وسلام على المُرْسلينَ. والحمد لله رب الْعَالَمِينَ.

هَذَا آخر ما قَصَدنَا جَمْعَهُ على القصيدة الخمرية الفرضية: على يد عبْد ربه، أَقَل عبيده، أحمد بن محمد بنعجِيبة الحسَنِي.

شَرْح قَصِيدَةِ يَا مَنْ تَعَاظَمَ...

لِلامَامِ الرِّفَاعِي

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تَسْليماً

يقول العبد الفقير إلى مَوْلاَهُ الْغَنِيِّ بِهِ عمَّا سِوَاهُ. أحمد بن محمد بنعجيبة الحسني. لطفَ الله به وحَبَاهُ. ولحضْرَتِهِ اجْتَبَاهُ.

الحمد لله. نحمدكَ يَا مَنْ تَعاظَمَتْ أَنْوَار جَمَالِهِ وبهائه. حتى حفيت من شدة ظهورها معاني صفاته وَأَسمَائِهِ. ونشكركَ يَا مَنْ تَردَّى بِرداءِ عِزَّتِهِ وكِبْرِيَائِهِ. حمداً وشكراً يقتضيان المزيد منْ عَظِيم نوالِهِ وَآلائِهِ. ونصلِّي ونُسَلِّم على مَنْ انشقَّت من ناسُوتِهِ الأَسْرَار. وَرَضِيَ اللَّهِ تَعالى عَنْ أَصْحَابِهِ الأبْرَار وأَهل بَيْتِهِ الأَطْهَار.

أمَّا بَعْدُ. فقد سألني بعض أهْل المَحَبَّة والوِداد مِن أَهْل التَّسْليم والاعْتِقَادِ أن أَضَعَ تقييداً على قصيدة تنسَب للإمام الرفاعي رضي الله عنه؛ وهو أحْمَد بن أبي الحسن الرِّفَاعِي. نسب إلى بني رفاعة قبيلة من العرب. وسكن بأحواز مصر قرية يقال لها: أمّ عبيدة. بِأرض البطائحِ إلى أنْ ماتَ بِهَا رضي الله عنهُ وقت الظُّهْر، ثاني عشر جمادى الأولى سنة سَبْعِينَ وخمسمائة، وكَان شافعي المَذْهَبِ. وله أحْوَال غريبَة في التواضع، وتعاطي السّفليات، وتحمُّلِ الأذى. كان رضي الله عنه يمشي إلى حارة المجذومينَ، وأهْل الأوساخ، فيغسل ثيابَهُمْ، ويَفلِي رؤوسَهُمْ ولِحَاهُمْ. ويحمل لهم الطعام ويأكل معهم اللّبَن، ويجالسهم ويسألهم الدعاء، ويقول زيارة هؤلاء واجبة لا مسْتَحَبَّة. ورأى مَرَّة كَلْباً أَجْرَبَ أخرجه أهل أم عبيدة وقذروه، فخرجَ معه إلى البرية، وضرب مظلة، وجعل يطليه بالدُّهْنِ، ويُطعمه ويسقيه، ويحك الجرْبَ بخرقة. فَلَمَّا برىءَ. سخن له ماء وغسَلهُ، وقال: خِفْت أن يؤخذ حُمَيْد بِهذا الكَلْبِ يوم القيامة. ويقول الحق لِي جَلَّ وَعُلاَ يا حُمَيْدُ أما علمْتَ أنّه خَلْق من خَلْقِي، أما أَمَرتك بالرَّحمة أظلِ مبتلى.

وكان يخرج إلى الطريق ينتظر الْعُمْيَانَ ويقودُهُمْ إلى مكَانِهِمْ. وإذا رأى شخصاً كبيراً يذهب إلى أهْلِ حارة، وَيُوصيهم عليه. ويقول: قَدْ وَرَدَ في الحديثِ: «مَنْ أَكْرَمَ ذَا شَيْبَةٍ، سَخَّرَ اللَّهُ تعالى مَنْ يُكْرِمه عِنْدَ كِبَرِهِ». وكَان إذا قَدِمَ من سَفَرٍ، وقرب مِنْ بَلَدِهِ يشِدُّ وسَطَهُ، ويخرج حَبْلاً ويجمع حَطَباً ثم يَحْمِلُهُ على رأسه إلى الدَّارِ، ويفعل كذلك الفقراء. فإذا دَخَلَ البَلَد، فَرَّقَ ذَلِكَ عَلى الأَرَامل والْعُمْيَانِ والمساكين. وَكَانَ يَتَحَمَّلُ أَذَى النَّاسِ ما لا يَحْمِلُهُ غَيْرُهُ.

وَيقُولُ: إِنَّهُمْ مِنْ أُمَّةِ محمَّدٍ ﷺ. لَقِيهُ مَرَّة جماعة فسبُّوهُ. وقالُوا لهُ: يا بدَّاع. يا مستحلاً للحرامِ، يا مبَدِّلاً للقرآنِ، يا ملحد يا كَلْب. فكشفَ رأسَهُ، وقبَّل الأرض. وقال: اجْعَلوني في حلٍّ. وجعل يقبل أَيْديهم وأرجلهُمْ، فلما أعجزهُمْ قالُوا: ما رأَيْنَا مثلكَ في الفقراءِ تحتمِلُ منَّا هَذَا الشَّتْم. فقال: هَذَا بِبَرَكَاتِكُمْ. وأَرسل إليه الشيخ البوصتي كتاباً يُعاتبه، ويحطُّ مَرْتبته. فقال للرسول اقرأْهُ، فإذا فيه: يل مبتدع، يا كلب، يا جامعاً بيْن النِّسَاءِ والرِّجَال، ونحو ذلكَ. فلمَّا فَرَغَ الرسول من قراءةَ الكتاب أخذه سيّدي أحمد وَقَرَأَهُ. وصار يقول: صدق أخِي فيما يقول وجزَاه الله عَنِّي خَيْراً. ثم أَنْشَدَ:

فَلَسْتُ أُبَالِي مَنْ رَمَانِي بِرَمْيَةٍ إِنْ كُنْتُ عِنْدَ اللَّهِ غَيْرَ مُرِيبِ

وَكَانَ كَثيراً ما يتجلَّى الحق له بالعظمةِ، فيذوب حتى يصير نُقْطة. ثُمَّ يَتَدَاركه اللطفُ، فيصيرُ يكبَر شيئاً فشيْئاً، حتَّى يردَّ إلى جِنْسه المعتادِ. ويَقُولُ: لَوْلاَ لُطف الله تَعَالَى ما رَجعْتُ إِلَيْكُمْ. ولهُ كَلاَمٌ طويلٌ فِي الْحَقَائق. فَمِنْ كَلاَمِهِ رَضِيَ اللَّهُ عنه:

«الزُّهْدُ أَسَاسُ الأَحْوَال الْمُرْضية، والْمَرَاتِب السَّنية». وهو أَوَّل قَدَم القاصدين إلى الله عَزَّ وَجَلَّ. والمنقطعينَ إلى اللَّهِ. والرَّاضين عنه، والمتوكلين عليه. فكل مَنْ لم يُحْكم أَسَاسه في الزُّهْدِ لَمْ يصلحْ لَهُ شَيْء مِنْ هَذَا الطريق.

ومن كَلاَمِهِ أَيْضاً: «الْفُقَرَاءَ أَشرافُ النَّاسِ؛ لأنَّ الفقر لبَاسُ الْمُرْسَلينَ. وجَيْب الصالحينَ، وتَاج المتقينَ، وغنيمة العارفينَ، ومُنية الْمُريدين، وَرِضَى رَبّ العالمينَ، وكرامة الأولياء وأَهْل وِلاَيَتِهِ». وسألَهُ أَنْ يَدْعُوَ لَهُ فقالَ: «يَا أَخِي إِنَّ عِنْدي الْيَوْم قُوتَ يَوْمِي. ومَن كَان عنده قوت يَوْمِهِ، لَمْ يُقْبَلْ له دُعَاءٌ. فإذَا بَلَغَكَ يا أَخِي أَنه لَيْس عِنْدِي مَا يَأْكُله ذُو كَبِدٍ. فَسَلْنِي الدُّعاءَ. فإِنَّ لِي حينئذٍ إِسوة برسول الله ﷺ». وكَان يقول: «لاَ يَصحّ الأُنس باللَّهِ تَعَالى. إلاَّ لِمَن كَمُلتْ طهارتهُ،

واستوحش مما يشغله عن اللَّهِ تَعَالَى. فعندَ ذَلِكَ يُؤْنِسُهُ الله به». وكَان يقول: «الشفقة على الإخوان، ممَّا يُقرِّبُ إلى الله تعالى». وقَالَ لخادِمِهِ: «يا يَعقوبُ كُنْ ذَنباً وَلاَ تكنْ رأساً. فإنَّ الضَّرْبة أول ما تقع تقع في الرأس. وإيَاكَ ورؤية نفسكَ على الإخْوَانِ. فإنه لاَ يُقَالُ لَكَ عَثرة. وَلاَ يساعدك عَلَيْهَا وَلَوْ حَملَتْ مَا حَملَتْ لا يساعدها أحد. وانظر إلى شجرة اليقطين: «شجرة القَرْع» لما اتَّفَعَتْ، وأَلْقَتْ خَدَّهَا على الأَرْضِ، كيْفَ جَعَلَ الله ثِقْل حمْلِهَا على الأَرضِ. ولو حَمَلَتْ مَا حَمَلَتْ لاَ تَحُسُّ بِهِ».

وكَانَ يقولُ: «أَفْضَلُ العبَاداتِ الْبَدنية: الصَّدَقة». وكَانَ يَقُولُ: «التَّوحِيد وِجْدَانٌ عَظِيمٌ، والْقَلْبُ يَمْنَعُ مِنَ التعطِيل والتشبيه» «وكَانَ يكرَهُ لأَصْحَابِهِ الخوض فِي الذَّات والصفاتِ». وكَان يقول: «إِذَا صَلُحَ الْقَلْبُ صَارَ مَهْبِطَ الْوَحِي والأَسْرَار، والأنوار، والملائكة. وَإِذا فَسَدَ صار مَهْبِط الأباطيل والظُّلْم والشياطين». وكَانَ يَقولُ: «إذا صَلُحَ الْقَلْبُ أَخْبَرَكَ عَمَّا وَرَاءَكَ وَأَمَامَكَ. وإذا فَسَدَ حَدَّثَكَ بِأَبَاطِيلَ، يغيبُ مَعها الرّشدُ، وينتفِي مِنْهَا الْهُدَى». وَكَانَ يَقُولُ: «مِنْ شَرْطِ الْفَقِير أَنْ يَرَى كُلَّ نَفَسٍ مِنْ أَنْفَاسه. أَعَزَّ من الكِبْرِيتِ الأَحْمَرِ. فَلاَ يَضَع في كل نَفَسٍ إلا ما يَصْلح لَهُ». وكَان يقول في حديث: «مَنْ تَزَوَّج لِلَّهِ كَفَى وَوَفَى». مَعْناه أَن يتزَوَّجَ امتثالاً للأمرِ. لاَ بِحكم الشَّهْوة البهيمية. وكَان يقول: «طَرِيقنا على ثلاثة أشياءَ لاَ يَسْأَلُ، وَلاَ يَرُدُّ، وَلاَ يَدَّخِرُ». وكانَ يَقُولُ: «سعادة المريد أنْ يفتخر بِهِ شيخهُ لِشدَّةِ مُجَاهَدتِهِ». وكَان يقولُ: «مَنْ غَضِبَ لنَفْسِهِ تَعِبَ. وَمَنْ سَلَّمَ أَمْرَهُ إلى موْلاه نصره من غَيْر أَهْلِ وَلاَ عَشِيرة». وَكَان يقول: «واللَّهِ ما كَانَ لِي خيْراً إلاَّ فِي الوَحْدَةِ. فيَا لَيْتنِي لَمْ أَعْرِفْ أَحَداً، ولم يعرفنِي أَحَدٌ». وكان يقول: «مِنْ شَرْطِ الْفَقِيرِ أَلاَّ يكُونَ له نَظَرٌ في عيُوبِ النَّاس». وكَانَ يَقُولُ: «إِيَّاكُمْ وتعاطِي أَسْباب الشُّهْرَةِ، والفرحِ بالمحبّين والمعتقدينَ». وكَان يقول: ما مِنْ لَيْلةٍ إلا ينزِل فيها نورٌ مِن السَّمَاءِ يُقذف في قلوب المُسْتيقظين». وكَانَ يقول لأَصْحَابِهِ «مَنْ تشيَّخَ عَلَيْكُمْ فَقَدِّمُوهُ ومَنْ قَدَّمَ لَكُمْ يَدَهُ لتقبلُوهَا فَقَبِّلُوا رِجلَهُ» ومعنى تَشَيَّخ عَلَيْكُم: نَصَّبَ نَفْسَهُ للشَّيْخوخَةِ. وكَانَ يقول: «إِذا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُرَقِّي عَبْدَهُ إلى مقامات الرِّجَالِ؛ كَلَّفَهُ بِأَمْر نَفْسِهِ أَوَّلاً فَإِذَا أَدَّبَ نَفْسَهُ واسْتَقَامَتْ معهُ كَلَّفهُ بِأَهْلِهِ. فَإِنْ أَحْسَن إِلَيْهم وَساسَهُمْ كَلَّفه اللَّهُ بِأَهْلِ بَلَدِهِ. فَإِنْ أَحْسَنَ إِلَيْهم وَسَاسَهُمْ، كَلَّفه جِهَةً مِنَ البلادِ.

فإن هُوَ نصحهم وَسَاسَهُمْ. وأَصْلَحَ سَرِيرتهُ مَعَ اللَّهِ. كلفَهُ رُتْبَةَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ

وَالأَرض. فَإِنَّ لِلَّهِ خَلْقاً لاَ يَعْلَمُهم إلا اللَّهُ. ثم لاَ يَزَالُ يَرْتَفِعُ مِنْ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ. حَتَّى يَرْتَفِعَ وَيَصِلَ إلى مَحَلِّ القطب الغوثِ؛ وَهُنَاكَ يُطلعه الله تعالى على غَيْبِهِ، فَلاَ تَنْبُتُ شَجَرَةٌ، وَلاَ تَخْضَرُ وَرَقَةٌ إلاَّ بِعِلْمِهِ. وهُنَاكَ يتكلم عن اللَّهِ بِكَلاَمٍ لاَ تَسعه الْعُقولُ، وَرُبَّمَا ذَهَبَ بِهِ إِيمَان جَمَاعَةٍ مِنَ الْمُنْكِرِينَ». وكَان رضي الله عنه، إِذا صَعِدَ الكرْسِي، يسْمع كلامه القريب والبعيد، حتى أَهْل الْقرى. حَوْل أُمّ عبيدة. ويعرفُونَ جميع ما يتحدَّث بِهِ. مَعَ أَنَّ صَوْتَهُ كَان ضعيفاً. وكَانَ الأَطْرَشُ والأَصَمُّ، إذا حَضَرَا يَفْتَحُ اللَّهُ أَسْمَاعَهُمَا لِكَلاَمِهِ.

وَكَانَ مَشَايخ الطَّرِيق يحضرونَهُ. وكَانَ جُلُّهُمْ يبسُط حُجْرَهُ. فإِذَا فَرغَ مِنْ وَعْظِهِ، ضَمُّوا حُجُورهم إلى صُدُورِهِم، وقَصُّوا الحديث إذا رَجَعُوا إلى أصحابِهِمْ على حليته. قال خادمه يعقوب: قلْتُ يا سيِّدِي: أَنْتَ الْقُطْبُ. فقال: نَزِّهْ شيخكَ عن القطبَانية. فإنَّ مَنْ كَانَ فِي حَضْرَةِ اللَّهِ لا مَقَامَ لَهُ. وَسُئِلَ مَرَّة كيْفَ كَانَ سُلوكِكَ. فقال: مَرَرْتُ وأَنا صَغِيرٌ على الشيخ عبْد الملك الجَرْبُوفي. قال: يا أَحْمَد. اسْمَعْ ما أَقُولُ لَكَ: «مَنِ الْتَفَتَ لا يَصِلُ. وَمِثْلُهُ لاَ يُفْلِحُ. ولم يعرف من نفسه النقصان. فكل أوْقاته نقصانٌ». فخرجت من عنده. وجعلت أُكَرِّرُهَا سَنَةً. ثم رجَعْت إليه، فقلت: أوْصِني. فقال: «مَا أَقْبَحَ الْجَهْل بالأولياءِ والعِلَّة بالأطباء. والجفا بالأحبة. ثم خرجت وصرْت أُكررها سنَةً. فانتفعْت بكلامه لكونه اخْتَصر لِي الطريق» قلت: لم نطلعْ له على شيخ لَهُ في طريق التربية غيْر هَذَا. والله أَعْلَمُ. وهذا أول القصيدة التي أردْنَا الكلامَ علَيها:

يَا مَنْ تَعَاظَمَ حَتَّى رَقَّ مَعْنَاهُ   وَلاَ تَرَدَّى رِدَاءَ الْكِبْرِ إلاَّ هُو

قُلْتُ: يقول رَضِي اللَّهُ عَنْهُ: يا مَنْ تعاظمَ فِي شدة ظهورِ أنواره، وتجلّيات أَسْرَاره، فما زال يظهر للبصائر، ويتجلّى للسرائر. حتى خَفَا مَعْنَاهُ. ورق عن مدارك العقولِ نور جماله وسَنَاهُ. فما احتجب من شدَّة ظهوره، وما منَعَ الأبصار أَن تدرِكَهُ إلا قهارية نوره. ولله درّ الْقَائِلِ:

لَقَدْ ظَهَرَتْ فما تَخْفَى عَلَى أَحَدٍ   إلا عَلَى أَكْمَه لاَ يُبْصِر الْقَمَرَا

لكن بطنتْ بِمَا أَظْهَرَتْ مُحْتَجِباً   وكَيْفَ يُبْصِرُ مَنْ بِالْعِزَّةِ اسْتَتَرا

قال آخر:

وَمَا احْتَجَبَتْ إِلاَّ بِرَفْعِ حِجَابِهَا   وَمِنْ عَجَبٍ أَنَّ الظُّهُورَ تَسَتُّرُ

وقول الششتري في هَذَا الْمَعْنَى:

يَا مَنْ بَدَا ظَاهِرٌ حِينَ اسْتَتَرْ ثُمَّ اخْتَفَى بَاطِنٌ لَمَّا ظَهَرْ
ظَهَرْتَ لَمْ تَخْفَ عَلَى أَحَد وَغِبْتَ لَمْ تَظْهَرْ لِكُلُ أَحَد

وفي الحِكَم: يَا مَنِ احْتَجَبَ فِي سُرَادقاتِ عِزِّهِ عَنْ أَنْ تُدْرِكَهُ الأبصار. وَيَا مَنْ تَجَلَّى بِكَمَالِ بَهَائِهِ، فتحققتْ عظمته الأسرار، كيْف تخفى وأنت الظَّاهِر. أمْ كيْف تغيبُ وأنْتَ الرَّقيبُ الحَاضِر. وقال أَيْضاً: إِلَهِي: كيْفَ يُسْتَدلّ عليكَ بِمَا هو فِي وجودِهِ، مفتقر إليك. أيكون لغَيْرك مِنَ الظُّهور ما ليْسَ لَكَ. حتى يكون هو المُظْهر لَكَ. مَتَى غبْت حتى تحتاج إلى دليلٍ يدلُّ عليكَ. وَمَتَى بعدتَّ حتَّى تكون الآثار هي التي تُوصل إليك. إلَهي عَمِيَت عيْن لا تراك عليْها رقيباً. وخسرت صَفْقة عَبْدٍ لم تجعَلْ من حبكَ نصيباً. فالعارفُونَ لاَ يشهدُونَ سِوَى اللَّهِ. وَلاَ يَرَوْنَ في الكَوْنيْن إلاَّ إِيَّاهُ. قال بَعْضُهُم: لَوْ كُلِّفْتُ أَنْ أَرَى غَيْرهُ لَمْ أَسْتَطِعْ، فَإِنَّهُ لاَ غَيْرَ مَعَهُ، حَتَّى أشهده.

وقال الشاعِرُ:

مُذْ عَرَفْتُ الإِلَهَ لَمْ أَرَ غَيْرَهُ وَكَذَا الْغَيْرُ عِنْدَنَا مَمْنُوعُ
مُذْ تَجَمَّعْتُ مَا خَشِيتُ افْتِرَاقاً فَأَنَا الْيَوْمَ وَاصِلٌ مَجْمُوعُ

وبالجُمْلَةِ: فاسْمُه الظَّاهر، يقتضي بُطُونَ الأشياءِ، وتلاشيهَا. إذ لاَ ظَاهِرَ مَعَهُ، بِدَلِيلِ الحَصر في قولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾.

واسْمُه الباطن: يقتضي ظهورَ الأشياء بِهِ، ليتحقَّقُوا من اسمه الباطن بالنسبة إلى ظَاهِرِ حِسِّهَا؛ فَهُو الظَّاهِرُ في حالِ بُطُونِهِ. والْبَاطِن في حالِ ظهورِه قال في الحِكَم: أَظْهَرَ كُلَّ شَيْءٍ بِأَنه الباطِن، وطوى وجود كُلِّ شَيْءٍ بأَنه الظَّاهر. وَلاَ يذوق هَذَا على الكَمَالِ، إِلاَّ مَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِ بِصُحْبَةِ الرِّجَالِ. ومَن لم يصحب الرِّجال، بقي خفاشياً. كُلَّمَا اشْتَدَّ النُّورُ. انطمسَ بصرهُ. وَهَاهُنَا احتمالٌ آخَرُ أَرَقّ مِنَ الأول وهو أن يقول:

يَا مَنْ تَعَاظَمَ في ظهور أَسْرار ذاتِهِ، وأَنْوار صِفَاتِهِ فِي مَظَاهِرِ تجلياتِهِ. حَتَّى رَقَّتْ ولطُفَت مَعَانِي الذَّاتِ فِي أَنْوَارِ الصفاتِ. فأَنْوَار الصفاتِ أَوَانِي، وأَسْرَار الذَّاتِ مَعَانِي. فَالْمَعَانِي قائمة بالأوَانِي، والأواني حاصلة للمَعَانِي. فَلاَ قِيَامَ للأوَانِي، إلا بِالمعاني وَلاَ ظهور للمعاني في مظاهر الأواني. فَمَنْ وَقَفَ مَعَ ظَاهِرِ

الأوَانِي، حُجِبَ عَنْ شُهُود المعاني. وَمَنْ نَفَذَ إِلى شُهُود المعاني، غابَ عَنْ شهود حسّ الأواني، ولذلك قَالَ الششتري رضي اللّهُ تعالى عَنْهُ:

لاَ تَنْظُرْ إلى الأَوَانِي، وَخُضْ بَحْرَ الْمَعَانِي، لَعَلَّكَ تَرَانِي. فَكُلَّما تَلَطَّفَتِ الأَوَانِي بِالغَيْبَة عَنْ حِسِّها ظهرتْ معاني الذَّات في أنوار الصفاتِ. وكُلَّمَا تكَثَّفَت الأواني باشتغال القلب بحِسّها الظاهر، حجبَتِ المعاني، ورقَّتْ وخَفِيَتْ. ولذلك قَالَ ابن الفارِضِ في خَمْرِيّتِهِ:

وَلُطْفُ الأَوَانِي في الحقيقة تابع لِلُطفِ المعانِي، والمعانِي بِهَا تَسْمُو. ولمَّا سُئِلَ الجُنَيْدُ رضيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ التَّوحِيدِ أَنْشَأَ يَقُولُ:

رَقَّ الـزُّجَـاجُ وَرَقَّـتِ الـخَـمْـرُ ... فَـتَـشَـابَـهَـا وَتَـشَـاكَـلَ الأَمْـرُ

وقلتُ في تائيتي الخمرية:

لِـرِقَّـةِ خَـمْـرٍ فِـي الأَوَانِـي تَـلَـطَّـفَـتْ ... أَوَانِي مَـعَانِي الْـخَـمْرة فِي أَصْلِ نَشْأَةِ

فَطَوْراً تَغِيبُ الْخَمْر فِي جِرْمِ كَأْسِهَا ... وَطَوراً تَغِيبُ الكَأْسُ فِي خَمرِه نَشْوَةِ

وَغَيْبُ الأَوَانِي فِي الْمَعَانِي مُحَقَّق ... فَنَاءُ الأَوَانِي فِي الْمَعَانِي الْقَدِيمَةِ

وفي الْقرآن العَظِيم تَلْويحاتٌ، وإشَارَات إلى هَذِهِ الْمَعَانِي اللطيفة، والأنوار الرَّبانية. كَقَولِهِ تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾. وكقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ وَكَقَولِهِ تَعَالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ وَكَقَوْلِهِ تَعَالى: ﴿ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾. قَالَ فِي الحِكَم: أَمَرَكَ أَنْ تَنظُرَ مَا فِي المُكَوَّنات. وَمَا أَمَرَكَ أن تَقِفَ مَعَ ذَوَاتِ المكوّنات: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾. فتح لك بَابَ الإفهام، ولم يَقلْ: انظروا السموات. فيدلك على وجود الأجرام. وقد حققْنَا هَذا المعنى في شرحنا على الحِكَم. فَانظُرْهُ إنْ شِئتَ. وفِي الْحَديث الْقدسي ما يُشِيرُ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى. قال ﷺ. يقول اللّهُ تبارك وتَعالَى: «لَقَدْ مَرِضَ عَبْدِي فَلَمْ تَعُدْهُ أمَا إِنك لَوْ عدته لوجدتَّنِي عِنْدَهُ». على مَا فِي بَعْضِ الرِّوَاياتِ. وَلاَ يَفْهم هَذِهِ الأَسْرَارَ إلاَّ مَنْ خَاضَ مَقَامَ الفَنَاء والبقاء. وَتَربَّى عَلى يَدِ شَيْخ كَاملٍ مُحقق. وإلاَّ فَحَسْبُهُ التسليمُ لِمَا رَمَزوهُ، وأَشَارُوا إِلَيْهِ: إِنْ لَمْ تَرَ الهِلاَلَ فَسَلِّمْ لأُنَاسٍ رَأَوْهُ بالإِبْصَارِ وَإِيَّاكَ أَنْ تَرْمِيَهُمْ بِمَا رَمَوْهُم بِهِ مَنْ لَمْ يعرفْ مَقَامَهُمْ. وَلَم يشربْ مِنْ مشْرِبِهِمْ، كالاتحاد والحلولِ، فإِنَّهُم منزّهُونَ عَنْهُ. إِذْ لَمْ يَبْقَ للسِّوَى عِنْدَهُمْ وُجُودٌ. حتَّى يصحَّ الاتحاد والحلول،

وإلى ذلِكَ أَشَرْتُ فِي تَائيتِي الخمرية، في وصْف الخمرة الأزَلية بِقَوْلِي:

تَنَزَّهَتْ فِي حُكْمِ الْحُلُولِ فِي وَصْفِهَا فَلَيْسَ لَهَا سِوَى فِي شَكْلِهِ حُلَّتِي

قال في الحِكَم: يَا عجباً كيْفَ يَظْهَرُ الوجودُ فِي الْعَدَم. أَمْ كَيْفَ يَثْبُت الحديثُ مَعَ مَنْ لَهُ وَصْفُ الْقِدَم. وقال رَجُلٌ بيْن يَدَي الْجُنَيْدِ: الْحَمْدُ لِلَّهِ. ولم يزد رب العالمينَ. فقال له الجُنَيْدُ: كَمِّلْه يا أخي، فقال له الرَّجُلُ: أيُّ قَدْرٍ للأشياء حتى تُذْكر مَعَهُ. فقال الجُنَيْدُ: كَمِّلْه يَا أَخِي. فَإِنَّ الحادثَ إذا قُرِنَ بالْقَدِيم تَلاَشَى الحَادِث وبقي الْقديمُ. انتَهَى وبالله التوفيق. وقَوْلُه: وَلاَ تَرَدَّى رِدَاءَ الكِبْرِ إلاَّ هُو. يُشير إلى اختصاصه تعالى بالكِبْرِياءِ، وغاية التَعَالِي. كما اخْتَصَّ بالعظمة وكَمَال التجلِّي. وكَأَنَّهُ يشير إلى الحديث الْقُدْسي: «يقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: الْعَظَمَةُ إزارِي، والكِبْرياء رِدَائِي فَمَنْ نَازَعَنِي فِي وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا قَصَمْتُهُ». فَالْعَظمةُ تَرْجع إلى كَمَالِ أنْوَارِالْمَلَكُوتِ والكِبْرِياء تَرْجعُ إلى تعْظيم أَسْرار الجبورت؛ لأَنَّ المَلَكوت ظَهَرَتْ أنواره في التجليات؛ وهو مَا ظَهَرَ فِي عَالَم الشهادة على وَجْهِ الجَمِيع. والجَبَرُوتُ: مَا لَمْ يظهَر فِي عَالَم الشَّهَادَة؛ وهو من عَالَم الْغَيْبِ؛ وهو الَّذِي كَان كَنْزاً لَمْ يُعْرَفْ. وإليه أشار ابن الفَارضِ بِقَوْلِهِ:

صَفَاءٌ وَلاَ مَاءٌ ولُطْفٌ وَلاَ هَوَى وَنُورٌ وَلاَ نَارٌ وَرُوحٌ وَلاَ جِسْمُ

تَقَدَّمَ كُلَّ الْكَائِنَاتِ حَدِيثُهَا قَدِيماً وَلاَ شَكْلٌ هُنَاكَ وَلاَ رَسْمُ

ولذلك خصّصت العظمة بالإزارِ؛ لأَنَّ من شَأْنِهِ أَنْ يَكُونَ لِلأَسْفَلِ. والرِدَاء لِلأَعْلَى. وأَنْوَارُ المَلَكوت ظَهَرَت فِي عَالَم الشَّهَادَة، وأنوارُ الجَبَروت أَحَاطتْ بِهَا، وارتَفَعَتْ عن مَدَارِكِ العُقُولِ؛ فهي أَرْفَعُ وأَعْلَى مِنْهَا مَعَ كَوْنِهَا لاَ تَنْفَكُّ عَنْهَا، إذ عَالَمُ الملكوتِ قائم بِأَسرارِ الجبروت. فمَا احْتَجَبَتْ أَسْرار الجَبَروت. إلاَّ بأنْوارِ المَلَكُوتِ. وَلاَ قَامَتْ أَنْوَار المَلَكُوت. إلاَّ بِأَسْرَارِ الجَبَرُوتِ؛ وهما في الحقيقة شَيْءٌ واحِدٌ؛ وَمَا افْتَرَقا إلاَّ باعْتِبَارِ مَدَارِكِ السَّالِكِينَ:

فَأَوَّلُ مَا يُفْتَح لِلْمُريد عن أَنْوارِ الْمُلْكِ الْحِسّي، فَإِذَا تَفَكَّرَ فِيهِ واعْتَبَرَ. أَدْرَكَ عَظَمَة الصَّانِع، فَإِذَا تَفَرَّغَ مِنَ الشَوَاغِلِ، وتَطهَّرَتْ مِرْآة قَلْبِهِ مِنَ الصَّدَأ. أَشْرَقَتْ عَلَيْهِ أَنْوَارُ المَلَكُوتِ. فَإِذَا تَمَكَّنَ مِنَ الشُهُودِ، وبَلَغَتِ الرُوحُ غَايَةَ الصَّفَاء. أَشْرَقَتْ عليه أَسْرَار الجبروت. فيحجَبُ حينئذٍ عَنْ عَالَم المُلْكِ والملكوتِ. وصَارَ لاَ يُشاهِدُ إلاَّ أَسْرَار الجَبَرُوتِ. فَرِدَاءُ الكِبْرياءِ: هو الاحْتِجَابُ لحجابِ الْقَهْرِية عن مَدَارِكِ العُقُولِ. مَعَ كَمَال ظهورهِ. وفي الحديث الصحيح في صِفَة أَهْل الجنّة: «مَابيْنَ

النَّاسِ، وبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إلى رَبّهِم، إلا رِدَاءُ الكِبْرياءِ على وَجْهِهِ في جَنَّاتِ عَدْنٍ».
والمُرَاد بِهِ: إسْدَال حجابِ الحسّ والقهرية، على وَجْهِ مَعَانِي أَسْرَارِ الذَّاتِ العالِية. إِذْ لا حِجَابَ بيْن اللَّهِ، وبيْن خَلْقِهِ إلاَّ قَهْرِية نُورِهِ، وشِدَّةِ ظُهُورِهِ. وتَوَهُّم وجود الغَيْرية. ولقد سَمِعْتُ شَيْخَنَا البُوزيدِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: «واللَّهِ مَا حَجَبَ الخَلْقَ عَنِ اللَّهِ إلاَّ الوَهم، والوَهْمُ أَمْرٌ عَدَمِي، لاَ حقيقَةَ لِوُجودِهِ». أيْ ما حَجَبَهُمْ عَنِ الشُّهُودِ، إلاَّ وُجُود الغَيْرية. وَهِيَ في الحقيقة مُنْتَفية. وفِي الحِكَم: ما حَجَبَكَ عَنِ اللَّهِ وُجُودُ مَوْجُودٍ معَهُ. إِذْ لاَ شَيْءَ مَعَهُ. وَإِنَّمَا حَجَبَكَ تَوَهُّمُ مَوْجُودٍ مَعَهُ.
وقال أيضاً: «الحَقُّ لَيْسَ بِمَحْجُوبٍ عَنْكَ. إنَّمَا المَحْجُوبُ أَنْتَ عَن النَّظَرِ إِلَيْهِ. إِذْ لَوْ حَجَبَهُ شَيْءٌ لَسَتَرَهُ مَا حَجَبَهُ. ولَوْ كَانَ لَهُ سَاتِرٌ، لكان لِوجوده حاصِرٌ. وكل حَاصِرِ شيْءٍ فَهُوَ له قاهِرٌ وَهُوَ القَاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ». وقال أيضاً: «مِمَّا يَدُلُّكَ على وُجُودِ قَهرِهِ أَنْ حَجَبَكَ عَنْهُ بِمَا لَيْسَ بِمَوْجُودٍ مَعَهُ».

وقَدْ أَشَرْتُ إِلَى هَذَا في تائيتي، في وَصْفِ الخُمْرَة الأَزَلية، فَقُلْتُ:

تَجَلَّتْ عَرُوساً فِي مِرَائِي جَمَالِهَا ... وَأَرْخَتْ سُتُورَ الكِبْرِيَاءِ لِعِزَّةِ

وَلاَ يَذُوقُ هَذِهِ إلاَّ مَنْ كَحَّلَ عَيْنَ بَصِيرَتِهِ بِإِثْمِدِ التَّوْحِيدِ الخاصِّ، حَتَى تَنْفَتِحَ بَصِيرَتُهُ، فَيُبْصِرَ أَنْوار المَعَانِي، خَلْفَ رداءِ الأَوَانِي. وإلاَّ بَقِيَ أَرْمَدَ العَيْنِ، كُلَّمَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ انطَمَسَ بَصَرُهُ كَمَا قَالَ البُوصِيرِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

قَدْ تُنْكِرُ العَيْنُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مِنْ رَمَدٍ ... وَيُنْكِرُ الفَمُ طَعْمَ المَاءِ مِنْ سَقَمِ

وبالله التوفيق: وهو الهادي إلى سَوَاءِ الطريق. ثم قال رضي الله عَنْهُ:

تَاهُوا بِحُبِّكَ أَقْوَامٌ وَأَنْتَ لَهُمْ ... نِعْمَ الحَبِيبُ وَإِنْ هَامُوا وَإِنْ تَاهُوا

قُلْتُ: التيهُ هُنَا: هو التلف، والخروج عن الطريق المعتاد. والحبّ هُوَ المَيْلُ الدَّائِمُ بِالقَلْبِ الهَائِم، وأقوام: فاعل تاهوا على لغة أزد شَنُوءَة. وَهَامَ عَلَى وَجْهِهِ: إِذَا سَارَ على غَيْر قَصْدٍ. يقول رضِي الله عَنْهُ: إِنَّ أقواماً مِنْ خَوَاصِّ المحبّين، لمَّا أطلعهم الله عَلَى أَسْرَارِ عَظَمَةِ ذَاتِهِ. وكَشَفَ لَهُمْ شيئاً مِن رِدَاءِ كِبْرِيَائِهِ، تَاهَتْ عُقُولُهُمْ، وَهَامَتْ قُلُوبُهُمْ. وطاشَتْ أَرْوَاحُهُمْ في مَحَبَّتِهِ. ففارَقُوا الأَوْطَانَ والدِّيارَ، وأَلِفُوا البراري وَالقِفَارَ. وتَأَنَّسُوا بالحبيبِ، وَاشْتَغَلُوا بِمُنَاجَاةِ القَرِيبِ. فَهُمْ بَيْنَ سَالِكٍ وَمَجْذُوبٍ، وَمُحِبٌّ ومحبُوبٍ. فمنهُمُ العُبَّاد والزُّهَّاد. ومَنهم الأَبْدَالُ والأَوْتَادُ، عَمَّرُوا قُلُوبهم بمحبَّة المحبُوبِ. وَرَفَضُوا مَا سِوَاهُ مِنْ كُلِّ مَرْغُوبٍ.

وهذه مَحَجَّة الطالبينَ، أو السَّائِرينَ مِنَ الْمُريدينَ. وَأَمَا الْوَاصِلُونَ إلى الْمَحْبُوبِ مِنَ الْعَارِفِينَ الْمُقَرَّبِينَ، سَكَنَتْ قلُوبُهُمْ. واطمَأَنَّتْ بِمُشَاهَدَةِ الْحَبِيبِ. ومُنَاجَاة القريب؛ فهم يشاهدون الحبيب في مَرَائي تجلياتِهِ. وآثار صِفَاتِهِ. فَلَمْ يحجبْهُمُ الخلق، عَنْ مُشَاهَدَة الحق. بَلْ هم مَحْجُوبُونَ بالجمْعِ عَنِ الفَرْقِ. وبِمُشَاهَدَةِ الحَق، عن رُؤْية الخلقِ. بَلْ، لَوْ كُلِّفُوا أَنْ يشاهِدُوا غَيْرهُ، لم يستطيعُوا فَهَؤلاءِ يَرُدُّهُمُ الحق تعالى إلى مُرَافقَةِ الخَلْقِ ومخالطتهم ليقع الانتفاع بِصُحْبتهم. فَهُمْ مُسْتَأْنِسُونَ بالحَقِّ في حَالِ مُخَالطتهم لِلْخَلْقِ؛ لأَنَّهُمْ عَرَفُوا اللَّهَ فِي كُلِّ شَيْءٍ، فَلَمْ يَسْتَوْحِشُوا مِنْ شَيْءٍ.

أشباحُهم بيْن الْخَلائِقِ تَسْعَى، وَأَرْوَاحُهُمْ فِي أَنْوَارِ الملكُوتِ تَرْعَى، وإلى حَالِ الْفَرِيقَيْنِ أَشَارَ فِي الحِكَمِ بِقَوْلِهِ: «إِنَّما اسْتوحش العبّادُ والزُّهاد مِنْ كُلِّ شَيْءٍ لِغَيْبَتِهِم عَنِ اللَّهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ. وَلَو عَرَفُوا اللَّهَ فِي كُلِّ شَيْءٍ مَا اسْتَوْحَشُوا من شَيْءٍ». وقال أَيْضاً: «مَنْ عَرَفَ اللَّهُ رآهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ. وَمَنْ فَنَى بِهِ غابَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ. وَمَن أَحَبَّهُ آثَرَهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ». والحاصل: أَنَّ المَحَبَّةَ لَهَا بِدَايَات؛ وهي ما ذكَره الشيخ في حالِ التَّائِهِينَ والْهَائِمينَ. وَنِهَايَاتٌ: وهي السُّكُون والطُّمَأْنِينة فِي حَضْرَةِ الْمحبُوبِ. ولذلِكَ قال بَعْضُهُمْ: المَحَبَّة: أَوَّلُهَا جُنُون، وَوَسَطُهَا فنُونٌ، وآخِرها سُكُونٌ وإلى هَذَا المعْنَى، أشارتْ رابعة العدوية رضي اللَّهُ عَنْهَا:

أُحِبُّكَ حُبَّيْنِ حُبُّ الْهَوَى ... وَحُبٌّ أَنْتَ أَهْلٌ لِذَاكَ
فَأَمَّا الَّذِي هُوَ حُبُّ الْهَوَى ... فَشُغْلِي بِذِكْرِكَ حَتَّى أَلْقَاكَ
وَأَمَّا الَّذِي أَنْتَ أَهْلٌ لَهُ ... فَكَشْفُكَ الْحِجَابَ حَتَّى أَرَاكَ

أَشَارَتْ رضي اللَّهُ عَنْهَا إلى ذِكْرِ المَقَامَيْنِ: بِدَايَةً وَنِهَايَةً أَوْ نقولُ: محبة المحبين ومحبة المحبوسين محبّة السَّائرينَ. ومحبَّة الواصلينَ. وإنها سلكَتِ الأَمْرَيْنِ مَعاً. فَحُبُّ الْهَوَى هُوَ حُبُّ الْعِشْقِ والتَّمَلُّقِ مِنْ وَرَاءِ الحجابِ. وَعَلاَمَتُهُ: اللَّهَجُ بِذِكِرِ المحبُوبِ، والاشتغال بِخِدْمَتِهِ، والفرار من الخلق. للقاءِ الحقِّ. وأمَّا حُبُّ الْوَاصِلِينَ، فَثَمَرَتُهُ كَشْفُ الحِجَاب. والدُّخُولُ مَعَ الأحبَابِ، ومُشَاهَدَة الحبيبِ فِي كُلِّ شَيْءٍ من تجلِّيَاتِهِ. كَمَا قال صَاحِبُ العَيْنِية:

تَجَلَّى حَبِيبِي فِي مِرَائِي جَمَالِهِ ... فَفِي كُلِّ مَرْءٍ لِلْحَبِيبِ طَلائِعُ
فَلَمَّا تَبَدَّى حُسْنُهُ مُتَنَوِّعاً ... تَسَمَّى بِأَسْمَاءٍ فَهِيَ مَطَالِعُ

وَعَلاَمَة صاحب هذا المقام، سكون ظاهره من تَعَبِ الخِدْمَةِ. وعِمَارة قَلْبِهِ

بنورِ الكِبْرِيَاءِ والْعَظَمَةِ أو تقول: علامتُهُ: سُكون الْقَلْبِ وَطُمَأْنِينَتُهُ عِنْدَ هَيَجَانِ رِيَاحِ الأَقْدَارِ وَوُرُود التَّعْرِيفات مِنَ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: عَلاَمَةُ الْمَحَبَّة أَرْبَعَةُ أَشْيَاءَ:

الإكثارُ مِنْ ذِكْرِهِ. وامتثال أَمْرِهِ واجتناب نَهْيِهِ وَالإِسْتِسْلاَمُ لقَهْرِهِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ الباعِثَ عَلَى الْمَحَبَّةِ أَمْرَانِ: إِمَّا الذَّاتِي. أو الإِحْسَان الْفِعْلِي. وقد اجْتَمَعَا فِي ذَاتِ الحقِّ تعالى. وَأَمَّا الجَمَالُ، فَلاَ أَجْمَلَ مِنْ جَمَالِهِ تَعَالَى وَلاَ أَعْظَمَ إِذْ جَمَالُهُ يُسْبِي الْعُقُولَ وَيُدْهِشُ الأَلْبَابَ. وَقَدْ وَرَدَ أَنَّ أَهْلَ الجنَّة إِذَا تَجَلَّى لَهُمُ الحقُّ سُبْحَانَهُ. ذُهِلُوا وَغَابُوا عَمَّا كَانُوا فيه مِنَ النَّعِيمِ الحِسِّي فَلَوْلاَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَرُدُّهُمْ إِلَى حِسِّهِمْ بِإِسْدَالِ الحَجابِ فيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُم ما تَنَعَّمُوا بِشَيْءٍ مِنَ النَّعِيمِ الحسِّي. وَمَا ظَهَرَ فِي عالم الشهادة مِنَ الجَمَالِ. فَإِنَّمَا هو رشحَة من رشحَاتِ جَمَالِهِ الأَصْلِي. كَمَا قال ابن الْفَارِضِ:

عَيْنِي لِغَيْرِ جَمَالِكُمْ لاَ تَنْظُرُ ... وَسِوَاكُمْ فِي خَاطِرِي لاَ يَخْطُرُ

وبِقَدْرِ مَا تَصْفُو الرّوحُ مِن غَبَشِ الحِسّ. وتترقَّى إِلَى عَالَم المَلَكُوتِ. يُكْشَفُ لَهَا عَنْ جَمَالِ الْحَضْرَةِ. وتتنعَّمُ بِجَمَالِ الحبيب. وبقدْرِ مَا تَتَعَلَّقُ بهذا الْعَالَم الحِسِّي وَيُكْثِرُ شُغْلها بِهِ، تحجبُ مِنْ شهُود جَمَالِ الحَضْرَةِ. ولذلك قال بَعْضُهُمْ: حَضْرَةُ القُدُوسِ مُحَرَّمَةٌ عَلَى أَهْلِ النّفُوسِ. وقال الشاعِرُ:

أَيُّهَا الْعَاشِقُ مَعْنَى حُبِّنَا ... مَهْرُنَا غَالٍ لِمَنْ يَخْطُبُنَا
جَسَدٌ مُضْنى وَرُوحٌ فِي الْعَنَا ... وَجُفُونٌ لاَ تَذُوقُ الْوَسَنَا
وَفُؤَادٌ لَيْسَ فِيهِ غَيْرُنَا ... وَإِذَا مَا شِئْتَ أَدِّ الثَّمَنَا
وَافْنَ إِنْ شِئْتَ فَنَاءً سَرْمَداً ... فَالْفَنَا يُدْنِي إِلَى ذَاكَ الْفِنَا
وَاخْلَعِ النَّعْلَيْنِ إِنْ جِئْتَ إِلَى ... ذَلِكَ الْحَيِّ فَفِيهِ قُدْسُنَا
وَعَنِ الْكَوْنَيْنِ كُنْ مُنْخَلِعاً ... وَأَزِلْ مَا بَيْنَنَا مِنْ بَيْنِنَا
وَإِذَا قِيلَ لِمَنْ تَهْوَى فَقُلْ ... أَنَا مَنْ أَهْوَى وَمَنْ أَهْوَى أَنَا

وأَمَّا الباعث الثاني: وهو الإحسَانُ، فَلاَ شَكَّ أَنَّ النَّفْسَ تميلُ إلى مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهَا. وَلاَ إِحْسَانَ إِلاَّ مِنْهُ تَعَالَى. وَلاَ نَعَم ظاهِرَة وبَاطنة. إِلاَّ مِن فَضْله تَعَالَى وَثوابه. قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ

ظَـٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾. أنعَمَ أَوَّلاً بِنِعْمَةِ الإيجَادِ، وَأَنعَمَ ثانِيَةً بِتَوَالِي الإِمْدَادِ. وأفضَل النِّعَمِ وَأَعْظَمُهَا الهِدَايَة إلى الإيمان والإسْلاَمِ. والوُصُول إلى معرفته تعالى والاطلاع إلى جَلاَلِهِ وجمالِهِ فهذه النّعمة المعْتبرة عندَ الأكْيَاس.

وَأَمَّا النِّعَمُ الحسية فقد اشتركَ فيها البَهَائِمُ وسَائر النَّاس وَباللَّهِ التوفيق. وقوله: «وَأَنْتَ لَهُمْ نِعْمَ الحبيبُ، يعْني أَنَّ أقواماً تَاهُوا فِي حُبِّ الحبِيبِ. وَطَاشَتْ عُقُولُهُمْ بقرْبِ القَرِيب. وَخَرَّبُوا ظَوَاهِرَهُمْ، وعَمَّرُوا بَوَاطِنَهُمْ. وَغَابُوا عَنِ الأَسْبَابِ بمشاهدة مُسَبِّبِ الأَسْبَابِ. كانَ الحق تعالى نِعمَ الحبِيبُ، والمُؤْنِسُ. أَنَسَهُمْ فِي بَوَاطِنِهِمْ. وَقَدمَ لَهُمْ بِمَا يحتاجُونَ إِلَيْهِ فِي ظَوَاهِرِهِم. قَامُوا بِخِدْمَتِهِ. وقَامَ لَهُمْ بِإِيصَالِ قِسْمتِهِ. مَنِ انْقَطَعَ إِلَى اللَّهِ كَفَاهُ اللَّهُ مؤونَتَهُ. وَرَزَقَهُ مِنْ حيْث لاَ يَحْتَسِبُ. كما قال عليه الصَّلاَةُ والسلامُ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ وقال بَعْضُهُمْ: «العِلْمُ كُلُّهُ مَجْمُوع فِي كَلِمَتَيْنِ: لاَ تَتكلَّفْ بِمَا كُفِيتَ. وَلاَ تَضيع بِمَا اسْتَكْفَيْتَ». أَيْ لاَ تَتكلَّف مَا كُفِيتَ أَمْرَه مِنَ الرِّزْقِ المَقْسُومِ، وَلاَ تُضَيِّعُ مَا اسْتكْفَيْتَ بِهِ الفَرْضِ المحتوم. وقَوْلُهُ: «وَإِنْ هَامُوا وَإِنْ تَاهُوا» نُشِير إلى مَنْطُوقِهِ ومَفْهُومِهِ إِلَى حَالِ الفَرِيقَيْنِ. أَعْنِي حَالَ أَهْلِ البِدَايَة؛ وهُمُ الهَائِمُونَ التَّائِهُونَ؛ ويُسَمَّوْنَ أَهْل السُّكْرِ، وأَهل الخَمْرَةِ؛ وَهُمُ المجذبُونَ. وَحَالَ النِّهَايَة: وهُمُ السَّالِكُون المُطمَئِنُونَ: وَهُمْ أَهْلُ الصَّحْوِ السَّالِكُونَ بعد السُّكْر والجَذْب. فأَخْبَرَ أَنَّ الحقَّ تعالى هُوَ حَبِيبٌ. ونعم الحبيبُ لِلْجَمِيع. أي وَأَنتَ لَهم نِعْمَ الحبيبُ هَذَا إِنْ سَكَنُوا وَاطْمَأَنُوا. بَلْ وَإِنْ هَامُوا، وإِنْ تَاهُوا. وَلاَ شَكَّ أَنَّ مَا قَبْلَ المُبَالَغَة أوكَدُ وَأَعْظَمُ مِمَّا بَعْدَهَا. كما هُوَ مَفْهُومٌ مِن تَرَاكِيبِ العَرَبِ. تقولُ: أَكْرِمْ زَيْداً وإِنْ جَاءَ عَاصِياً. أي هَذَا إِنْ جَاءَ طَائِعاً، بَلْ وَإِنْ جَاءَ عَاصِياً. وَلاَ شَكَّ أَنَّ المُطْمَئِنِّينَ الرَّاسِخِينَ أَعْظم عند الله مِنَ العاشقِينَ التَّائِهِينَ: لأنَّ الأولينَ واصِلُونَ. والآخِرين سَائِرونَ. والله أَعْلَمُ. واعْلَمْ أَنَّ المخصوصينَ بالمحبَّة على ثلاثة أقْسَام: فقِسْمٌ سالِكُونَ فقط. وَقِسْمٌ مَجْذُولُونَ فقط. وقِسْم سالكون مَجْذُوبُونَ: الجَذْبُ فِي بَوَاطِنِهِمْ، والسلوكُ فِي ظَوَاهِرِهِم. فالأوَّلُونَ لا يصلون للتَّربِية. إذ لاَ جَذْبَ في قُلُوبِهِمْ يَجْذِبُونَ بِهِ قَلْبَ المُرِيد إلى الحَضرَةِ. وَلاَ هِمَّةَ عِنْدَهُمْ تنهَضُ إلى الخِدْمَةِ. قال فِي الحِكَمِ: «لاَ تَصْحَبْ مَنْ لاَ يَنْهَضكَ حَالُهُ، وَلاَ يَدُلُّكَ عَلَى اللَّهِ مَقَالُهُ».

والقسم الثاني أَيْضاً، لاَ يَصْلحُ للتَّرْبية؛ لأَنَّهُ مَطْمُوسُ الأَثَرِ غَرِيق الأَنْوَارِ. غَلَبَ سُكْرَهُ على صَحْوِهِ. فَلاَ يَعْرِف سُلُوك الطَّرِيق لغَلَبَةِ سُكْرِهِ.

وَأَمَّا الثالث؛ وهو الجامع بيْن جَذْبٍ وَسُلُوكٍ؛ فهو الَّذِي يصلح للتَّرْبِيَة لِكَمَالِهِ. لِكَوْنِهِ سَلَكَ الطَّرِيق. وعَرَفَ وَعْرَهَا وَسَهْلَهَا وَجَذْبَهَا وَخَصْبَهَا. سَلَكَ طريقَ الجَذْبِ، وَذَاقَ أَسْرَارَهَا، ثُمَّ رَجَعَ إلى طَرِيقِ السُّلُوكِ، وَحَقَّقَ آثَارَهَا. الجَذْبُ فِي باطنِهِ لاَ يَزُول. والسلوك في ظَاهِرِهِ لاَ يَحول؛ فَهُوَ جَامِعٌ بَيْنَ جَذْبٍ وَسُلُوكٍ. معتدل فِي أُمُورِهِ كُلِّهَا. لَمْ يَغْلُبْ سُكْره على صَحْوِهِ. وَلاَ صَحْوُه على سُكْرِهِ. وَلاَ جَمْعُه على فَرْقِهِ. وَلاَ فَرْقه على جَمْعِهِ. وَلاَ حَقِيقَتُه عَلَى شَرِيعتِه. وَلاَ شَرِيعَتُهُ عَلَى حقيقتِهِ. يُعْطِي كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ. وَيُوفِي كُلَّ ذِي قِسْطٍ قِسْطَهُ. نَفَعَنَا اللَّهُ بِبَرَكَاتِهِ. وَأَفَاضَ عَلَيْنَا مِن سيبه. وقد أدْركنَاهُمْ والحمْدُ لِلهِ، وشهدنَاهُم، وأَخَذْنَا عَنْهُمْ وَصَحِبْنَاهُمْ. فلله المِنَّة والفَضْلِ والعجب كل الْعجب، مَنْ يُنْكِرُ وُجُودهُمْ وَيَسُدُّ بَابَ الرَّحمة على عِبَادِ اللّهِ. ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾. ولِلَّهِ دَرُّ القائِلِ:

وَكَمْ غائب لَيْلاً وَلَمْ يَرَ وَجْهَهَا فَقَالَ لَهُ الْحِرْمَانُ حَسْبُكَ مَا فَاتَ

وحقيقة الجَذْب: هُوَ شُهُود حَقٍّ بِلاَ خَلْقٍ. وَحَقِيقة السُّلوك المَحْض: هو شُهُود خَلْقٍ بِلاَ حَقٍّ. وَحَقِيقة السُّلُوكِ بَعْدَ الْجَذْبِ: هُوَ شُهُودُ خَلْقٍ بِحَقٍّ أَوْ شهود حَقٍّ مَعَ خَلْق. وَلاَ يَذُوق هَذِهِ المعاني إلاَّ مَنْ سَلَكَ الطَّرِيق على أَيْدِي الرِّجَال: ذَوْقاً وَكَشفاً. وإلاَّ فَشَأْنُهُ الإيمَان بالْغَيْبِ. وبِاللَّهِ التَّوْفِيق. وَقَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وَلِي حَبِيبٌ عَزِيزٌ لاَ أَبُوحُ بِهِ أَخْشَى فَضِيحَةَ وَجْهِي يَوْمَ أَلْقَاهُ

الحبيبُ هُوَ المحبوبُ. إلاَّ أَنَّ فَعِيل، أَبْلَغ من مَفْعُولٍ والعَزِيز: يُطلقُ على القليلِ الْوُجُودِ. الَّذِي لاَ نَظِيرَ لَهُ. ويُطلَقُ على الْغَالِبِ الْقَاهِرِ. ولعلَّ المراد هُنا غيْر هذيْن. وإنَّمَا أَرَاد بالعَزِيز هُنا البَالِغ فِي المعزّة والْمحبُوبية؛ كما تقول العامَّة: فُلاَنٌ عِنْدِي عَزِيزٌ. أيْ محبوب غَايَة المحبَّة. وَبَاحَ باليْسير: أَفْشَاهُ يَقُولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «عِنْدِي حَبِيبٌ عَزِيزٌ قَدْ بَلَغَتْ مَحَبته فِي قَلْبِي الغَايَةَ القُصْوَى. فَلَمَّا عشقته وأَحْبَبْتُه، أَطْلَعَنِي عَلَى مَكْنُونِ سِرِّهِ، وَكَشَفَ لِي عَنْ أَسْتَارِ غَيْبِهِ. فَلاَ أَبُوح بِسِرِّه. وَلاَ أُطْلِعُ أَحَداً عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ أَهْلِهِ. فَإِنَّنِي إِنْ بُحْتُ بِسِرِّهِ، وَكَشَفته لغَيْرِ أَهْلِهِ. أَخَافُ أَن يفضحني يَوْمَ لِقَائِهِ: فيقول: يا عَبْدِي، قَدْ أَطْلَعْتُكَ عَلى سِرِّي، وَأَمَّنْتُكَ عَلَى غَيْبِي. ثُمَّ أَفْشَيْتَهُ لِغَيْرِي فاليوم أحرمك من نَعِيم حَضْرَتِي، لِكَوْنِكَ لَمْ تَكْتَفِ بِعِلْمِي. وَلَمْ تَصُنْ سِرِّي. قُلْتُ: والغَالِبُ أَنَّ هَذَا الْعِتَابَ يَقَعُ قبل اللِّقَاءِ فِي دَارِ الدُّنْيَا. فَإِنَّ كُلَّ مَنْ أَفْشَى سِرَّ الرُّبوبية، سَلَّط اللَّهُ عَلَيْهِ سَيْفَ

الشَّرِيعَةِ. فَيُبَاحُ دَمُهُ، وَيُهْتَكُ عِرْضُهُ. كما وَقَعَ لِلْحَلاَّجِ وغَيْرِهِ وفِي ذَلِكَ يقول الشَّاعِرُ:

مَنْ شَهِدَ الْحَقِيقَةَ فَلْيَصُنْهَا ... وَإِلاَّ سَوْفَ يُقْتَلُ بِالسِّنَانِ

كَحَلاَّجِ الْمَحَبَّةِ إِذْ تَبَدَّتْ ... لَهُ شَمْسُ الْحَقِيقَةِ بِالتَّدَانِي

بِالسِّرِّ إِنْ بَاحُوا تُبَاحُ دِمَاؤُهُمْ ... وَكَذَا دِمَاءُ الْبَائِحِينَ تُبَاحُ

وَفِي السِّرِّ أَسْرَارٌ دِقَاقٌ لَطِيفَةٌ ... تُرَقُّ دِمَانَا جَهْرَةً لَوْ بِهَا بُحْنَا

قال بَعْضُ الصالحينَ: رَأَيت رَبَّ العِزَّةِ فِي النَّوْمِ، فقُلْتُ: يا رَبِّ. كيْف سَلَّطتَّ عِبَادِكَ عَلَى وَلِيِّكَ الحلاج حَتَّى قَتَلُوهُ؟ فقال: «يَا عَبْدِي إِنِّي أَطْلَعْتُهُ عَلَى سِرٍّ مِنْ أَسْرَارِي فَأَفْشَاهُ لِغَيْرِي. فَسَلَّطتُّ عليه عِبَادِي فَقَتَلُوهُ» انتهى بالمَعْنَى.

ومِن كَلاَمِهِ الذي قُتِلَ بِسَبَبِهِ: «أَنَا أَنْتَ بِلاَ شَكٍّ، فَسُبْحَانَكَ سُبْحَانِي. فَتوحيدكَ توحيدي وعِصْيَانُكَ عِصْيَانِي». وكَقَوْلِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «سُبْحَانَ مَنْ أَظْهَرَ نَاسُوتَهُ سِرَّ سَنَا لاَهُوتِهِ الثاقِب. ثم بدا فِي خلقه ظاهراً في سورة الآكِلِ والشَّارِبِ، حتَّى لقد عاينه خلقه كلحظة الحاجب بالحاجب».

وَلَمَّا تَقَدَّمَ لهُ السَّيَّاف، ليَضرِبَ عُنُقَهُ. وَجَده يقول ويَضْحَكُ:

نَدِيمِي غَيْرُ مَنْسُوبٍ إلى الْحَيْفِ سَقَانِي مِنْ شَرَابِ الْحُبِّ كَسَقْيِ الضَّيْفِ لِلضَّيْفِ. فَلَمَّا دَارَتِ الأَكْوَاسُ دَعَا بِالنِّطعِ وَالسَّيْفِ. كَذَاكَ مَنْ يَشْرَبُ الرَّاحَ مَعَ الأَمِيرِ فِي الصَّيْفِ. ثم قَالَ:

اللَّهُمَّ إِنَّكَ مُتَوَدِّدٌ لِمَنْ يُؤْذِيكَ. فَكَيْفَ لاَ تَتَودَّد لِمَنْ يُؤْذَى فِيكَ. فَهَا أَنَا فِي دَارِ الْعَجَائِبِ أَتَعَجَّبُ فِي الْغَرَائِبِ. ثم قَالَ:

يَا لاَئِماً فِي هَوَاهُ كَمْ تَلُوم ... فَلَوْ عَايَنْتَ مِنْهُ الَّذِي عَايَنْتَ لَمْ تَلُمِ

لِلنَّاسِ حَجٌّ ولِي حجٌ إِلَى سَكَنِي ... تُهْدَى الأَضَاحِي وَأَهْدِي مُهْجَتِي وَدَمِ

يَطُوفُ بِالْبَيْتِ قَوْمٌ بِلاَ جَارِحَةٍ ... بِاللَّهِ طَافُوا فَأَغْنَاهُمْ عَنِ الْحَرَمِ

قال له الشبلِي: يا أَبَا المغيثُ: ما مَعْنَى التَّفرُّد؟ فقال له: هو أَن ينفرد الْعَبْد بالواحِدِ الْفَرْدِ. فإذَا رآه الحقّ قَد انفرد عَنْ الْخَلْقِ أَمَّنَهُ مِنْ عَذَابِ الطَّرْدِ. فيصير للحقّ مشاهداً. والحق على لسَانِهِ شاهِداً. فحينئذٍ يتخلَّفُ لمَقَامِ الْمَعْرِفَةِ. ويوحي إلى خَاطِرِهِ ويَحْرِس سره مِمَّا سِوَاهُ. فلا يَرْشَحُ فيه غَيْر الحق من حضْرَة الحق

بالحق. قال الشبلي رضِي اللَّهُ عَنهُ فقلت له: ما المَعْرِفَة؟ قال: استِهْلاَكُ الحسِّ في المَعْنى. فَقُلْتُ له: ما المَحبَّةُ؟ قَالَ: الْغَيْبَة عَمَّا سِوَى المحبُوب. فَقُلْتُ لَهُ: مَا الْوُجُود؟ فقال: لَهِيبٌ يَنْشأُ مِنَ الشَّوْقِ فِي الأَسْرَارِ. تضْطَرب بِهِ الْجَوَارِحُ ثم يَزُولُ؛ لأَنَّهُ مَقْرُونٌ بالزَّوَالِ. وتبْقى نَتيجَتُهُ الْعِرْفَانية لاَ تَحُولُ وَلاَ تَزُولُ. فقُلْتُ لَهُ مَا الأُنْس؟ فقَالَ: وُجُودُ الْهَيْبَة مَعَ ارْتِفَاع الخَشْية وَغَلَبَة الرَّجَا على الْخَوْفِ. ثم قال يَا شَبْلِي: «مَنْ رَاقَبَ اللَّهَ عِنْدَ خَطَرَاتِ قَلْبِهِ. عَصَمَهُ عِنْدِ حَرَكَاتِ جَوَارِحِهِ». ثم قال يا شبلِي: أَلَسْتَ تَحفَظُ كِتَابَ اللَّهِ. فقال الشبلِي نَعَمْ. فَقَالَ: «قَدْ قَالَ لِنَبِيّه عليه الصلاة والسَّلاَمُ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ يا شَبْلِي: إِذَا رَمَى اللَّهُ قَلْبَ عَبْدِهِ بِحَبَّةٍ مِنْ حُبِّهِ نَادَى عَلَيْه مَدَى الأَزْمَانِ، بِلِسَانِ الْعِتَابِ». وأَيْضاً: «مَنْ أَفْشَى سِرَّ الْمَلِكِ كَانَ خَائِناً وَمَنْ كَانَ خَائِناً لاَ يُؤْمَنُ عَلَى السِّرِّ. فَهُوَ حَقِيق أَنْ يُنْزَعَ مِنْهُ إِنْ أَفْشَاهُ لِغَيْرِ أَهْلِهِ. وإِنَّمَا يُؤْمَنُ على السِّرِّ أَهْل الثِّقَةِ والصِّيَانَة». كما قال الْقائل:

لاَ يَكْتُمُ السِّرَّ إِلاَّ ذُو ثِقَةٍ ... فَالسِّرُّ عِنْدَ خِيَارِ النَّاسِ مَكْتُومُ

وقَالَ آخَرٌ:

سَأَكْتُمُ عِلْمِي عَنْ ذَوِي الْجَهْلِ طَاقَتِي ... وَلاَ أَنْثُرُ الدُّرَّ النَّفِيسَ عَلَى الْبَهْمِ

فَإِنْ قَدَّرَ اللَّهُ الْكَرِيمُ بِلُطْفِه ... وَلاَقِيتُ أَهْلاً لِلْعُلُومِ وَلِلْحُكْمِ

بَذَلْتُ عُلُومِي وَاسْتَفَدتُّ عُلُومَهُمْ ... وَإِلاَّ فَمَخْزُونٌ لَدَيَّ وَمُكْتِمُ

وَقَالَ سيِّدنا علي كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ: «حَدِّثُوا النَّاس بِقَدْرِ مَا يَفْهَمُونَ أَتريدُونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ». وقال رسول الله ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أُخَاطِبَ النَّاسَ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ». وقال رجل لبعض العلماءِ. وقد سأَلهُ وَلَمْ يُجِبْهُ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَنْ كَتَمَ عِلْماً أَلْجَمَهُ اللَّهُ يَوْمَ القِيَامَة بِلجَام مِنَ النَّارِ». فَقَال له الْعَالِمُ: «اتْرُكِ اللِّجَامَ وَاذْهَبْ. فَإِنَّ مَنْ جَاءَ يَسْتَحِقُّه وَكَتَمْتُه فَأَلْجِمْنِي». وقولُنَا لغَيْرِ أَهْلِهِ. وَأَمَّا مَنْ كَانَ أَهْلاً لَهُ. فَلاَ بَأْسَ بِاطِّلاَعِهِ عليْهِ؛ وهُوَ مَنْ بَذَل نفسَهُ وفلْسهُ. وزهد في جنسه. وحَطَّ رأْسَهُ لأَقْدَام الرِّجَالِ. كما قال سيدي عبد الوارث الْيَلْهُوتِي رضِي اللَّهُ عَنْهُ: بَذْل النفوس، وحطّ الرؤوس. صفَاء الكُؤوس. لاَ إِلَه إِلاَّ اللَّهُ. وقال الشَّاعِرُ:

يَا مَنْ يَلُومُ خَمْر المحبَّة ... فَخُذُوا عَنِّي هِي حَلاَلْ

وَمَــنْ يُــرِدْ يُــسْــقَــى مِــنْــهَــا غِـبّـاً خَــدَّه يــضــع لأقْــدَام الــرِّجَــالْ

رَأْسِــي حَــطَــطْــتُ بِــكُــلّ شـيْـبَـاهُـمْ الْــمَــوَالِــي سَــقُــوِنِــي زُلاَلْ

فكُلُّ مَنْ لَمْ يحط رأسهُ لأَهْلِ السِّرّ، وَلَمْ يَتَحكَّمْ لَهُمْ، فَاطِّلاَعُهُ عَلَى سِرّ الرُّبُوبية حَرَامٌ. والْمُرَاد بِسِرِّ الرُّبُوبية: التوحيد الخاصُ: الذي هو الشهود والعيانُ المخْصُوص بِأَهْلِ الْعِرْفَانِ رضي اللّهُ عَنهُمْ، ونَفَعنَا بِهِمْ. وَهُو الَّذِي أَرَاد النَّاظم بقولِهِ: لاَ أَبُوحُ بِهِ. أَيْ لاَ أَبُوحُ بِسِرِّه وَلاَ أُطلِعُ عليه أَحداً غَيْرَ أَهْلِهِ. واللّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ. ثُمَّ قَالَ رَضِي اللّهُ عَنهُ:

أُغَــالِــطُ الــنَّــاسَ طُــرّاً فِــي مَــحَــبَّــتِــهِ وَلَـيْـسَ يَـعْـلَـمُ مَـا فِـي الْـقَـلْـبِ إلاَّ هُـو

المُغَالطَةُ: إِظْهَارُ الْغَلطِ، وإِيقاع الْغَيْرِ فِيهِ، مَعَ إِخْفَاءِ الصَّوَابِ. وتسمَّى عندَ الصوفية التلْبيس. كَإِظْهَار الرَّغْبَةِ وَإِخْفَاءِ الزُّهْدِ. وإِخْفَاءِ المحبّة وإِظْهَارِ السُّلْوَان، يَفْعَلُونَ ذَلِكَ صِيَانَةً لِلسِّرّ. وتحقيقاً لِمَقَام الأَخْلاَقِ. ومِنْهُ تَخْرِيبُ الظَّاهر، وتَعْمير الباطِنِ، إِلى غَيْر ذَلِكَ مِن أَحْوَال الصوفية رضي اللّهُ عَنهُمْ.

والمحبّةُ: أَخْذ جمال الْمحبوبِ، بِمَحَبَّةِ الْقَلْبِ. حتَّى لاَ يُمْكنه الالْتِفَات إِلَى غَيْرِهِ، وَلاَ العمل بما فيه رضاه، إِيثَاراً لَهُ عَمَّا سِوَاهُ، يقول رضِي الله عَنهُ: إِنَّنِي أُغَالِط النَّاس جميعاً فِي مَحَبَّة المَحْبُوبِ. فَأُظْهِرَ لَهُمُ السلوانَ عَنهُ، والاشتغال بِغَيْرِهِ. وَأُخْفِيَ عَنهم الاستغراق فِي شُهُودِهِ. ودوام ذِكْرِهِ. اكتفَاءً بِعِلْمِهِ. وغَيْرةً عَلَى سِرِّه. أَنْ يَظْهَرَ لِغَيْرِ أَهْلِهِ. وأُظْهِرُ لَهُمُ الْجهْلَ، وَأُخْفِي عَنهُمُ الْعِلْمَ، والمَعْرِفة لَهُ، وأُظْهِرَ لَهُمْ الرَّغْبَة فِي الدُّنْيَا. وأُخْفِي عَنهُمْ الزُّهْد فيهَا. وأَظْهِر لَهُم الحُمْق والسَّفه. وَأُخْفِي عنهم الْعقل والسكينة. وَأُظْهِر لهم مخالطة أَهْل الدّنْيَا، وَأُخْفِي عَنهُمُ الْعُزلَةَ فِي قَلْبِي. فَالْقَلْبُ مَعَ الحقّ. والجِسْمُ مَعَ الْخلْقِ. وَأُظْهِرُ لَهُمْ مَحبَّة الْمُلوكِ ومخالطتهم. وَأُخْفِي عنهم الْغَيْبة عَنهُمُ بِشُهُود مَلِكِ الْمُلُوكِ. وَفِي هَذَا الْمَعْنَى قال الْجُنَيْدِ رَضِي اللّهُ عَنهُ: لِي أَرْبَعُونَ سَنَة نُنَاجِي الْحَقَّ. والنَّاسُ يَرَوْنَ أَنّي نُنَاجِي الْخَلْقَ». إِلَى غَيْر ذَلِكَ مِنْ أَحْوَال الْمَحَبَّةِ والمَعْرِفَةِ. وقَدْ تَكلَّمَ النَّاس فِي المَحَبَّة، وأَكثرُوا الكَلاَم فِيهَا. كُلٌّ عَلَى قَدْرِ مِنْهَالِهِ وشُرْبِهِ.

قال القطبُ ابن مشيش رضِي اللّهُ عنه: «المحبّة أَخْذَة من الله قَلْبَ مَنْ أَحَبَّ بِمَا يكْشف من نورِ جَمَالِهِ. وقُدْس كَمَالِ جَلاَلِهِ. وشرَابُ المحبّة: مَزْجُ الأَوْصَافِ بِالأَوْصَافِ والأَخْلاَق بالأَخْلاَقِ. وَالأَنْوَار بِالأَنْوَارِ وَالأَسْمَاءِ بِالأَسْمَاءِ، والنُّعُوتِ

بِالنُّعُوتِ، والأَفْعَال بالأفعالِ وَيتَّسِع فيه النَّظر لِمَنْ شاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ. والشَّرَابُ سَقْيُ الْقُلُوبِ والأَوْصَالِ، والعُرُوق من هذا الشراب حتى يسكر ويكون الشرْب بالتَّدريب، بَعْد التذريب والتهذيب. فَيُسْقَى كُلٌّ على قَدْرِهِ. فمِنْهُم مَنْ يُسْقَى بِغَيْرِ واسِطةٍ. واللَّهُ سُبْحَانَهُ يتولَّى ذَلِكَ. ومنهم مَنْ يُسْقَى مِن جهة الْوَسَائِطِ، كالملائكة والعلمَاءِ، والأكابِرِ من المقرَّبينَ. فَمِنْهُم مَنْ يَسْكُرُ بِشُهُودِ الكَأْس ولم يَذُق بَعْدُ شَيْئاً فَمَا ظَنُّكَ بَعْدُ بِالذَّوْقِ. وبَعْد بالشرابِ، وبَعْدُ بالرِّيِّ، وَبَعْدُ بالسكر بالمَشْرُوبَاتِ. ثُمَّ الصَّحْوُ بَعْدَ ذَلِكَ على مَقَادِرَ شَتَّى. كَمَا أَنَّ السُّكْر أَيْضاً كَذَلِكَ. والكأس مِغرفة الحقِّ. يُغْرَف بِهَا مِنْ ذَلك الشَّرَاب الطهور المَحْضِ الصَّافِي لِمَنْ يشاء مِنْ عِبَادِهِ الْمَخْصُوصِينَ مِن خَلْقِهِ. فَتَارَةً يشهد الشَّارِبُ ذَلِكَ الكَأس صورة، وتارةً يشهدها مَعْنَوية. وتارة يشهدها عِلْمِية.

فَالصّورة حَظّ الأَبْدَانِ والنُّفُوسِ والمَعْنَوِية حَظُّ القلوب والعُقول. والعلمية: حَظُّ الأَرْوَاحِ والأَسْرَار. فَيَا لَهُ مِنْ شَرَابٍ مَا أَعْذَبَهُ فطوبَى لِمَنْ شَرِبَ مِنْهُ، وَدَامَ وَلَمْ يُقْطَعْ عَنْهُ. نسأَل اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ. ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهُ يُؤتِيهِ مَنْ يشاءُ. واللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيم. وقَدْ تجتمع جَمَاعَةٌ مِنَ المحبِّين، فَيُسْقَوْنَ مِنْ كَأْسٍ وَاحِدَةٍ. وقد يُسْقَوْنَ مِنْ كُؤُوسٍ كثيرةٍ. وقد يُسْقى الواحِد بِكَأْس وبِكُؤُوسٍ، وقَدْ تختلفُ الأَشْرِبَة على حَسَبِ عدد الأَكْوَاسِ. وقد يَخْتَلِف الشُّرْبُ مِنْ كَأسٍ وَاحِدَةٍ. وَإِنْ شَرِبَ مِنْهُ الْجَمُّ الْغَفِيرُ مِنَ الأَحِبَّة». انتهى كَلاَم القطب ابن مشيش.

وقال تلميذُهُ: الشيخ أَبُو الحسَن الشاذِلِي رضي اللَّهُ عَنْهُ: «المحبَّة أَخْذة مِنَ اللَّهِ قَلْبَ عَبْدِهِ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ سِوَاهُ. فَتَرَى النَّفسَ مَائِلة لطَاعَتِهِ. والعَقْلَ مُتحصّناً بمعروفه، والروح مأْخُوذة فِي حَضْرتِهِ. والسِّرُّ مَغْمُوراً فِي مُشَاهدتِهِ، والْعَبْد يَسْتَزِيد مِنْ حُبِّهِ، فيُزَاد وَيُفَاتِح بِمَا هُوَ أَعْذَب من لذيذِ مُنَاجَاتِهِ. فَيُكْسَى حُلَل التقريب. عَلَى بِسَاطِ الْقُرْبَةِ، ويمسّ أَبكَار الحقائق. وثَيِّبَات العلوم. فَمِنْ أَجْل ذَلِكَ قَالُوا:

الأَوْلِيَاءُ عَرَائِسُ وَلا يرى العرائس المجرمون. ثم قال: الشَّرَابُ: هو النُّورُ السَّاطع مِنْ جَمَالِ الْمَحْبُوبِ. وَالكَأْسُ: هو اللُّطف الْمُوَصِّلُ ذَلِكَ إِلَى أَفْوَاهِ الْقُلُوبِ والسَّاقِي: هُوَ المُتَوَلِّي ذَلِكَ لخصوصِ الكِبَرِ، والصالحينَ مِنْ عِبَادِهِ؛ وهو اللَّهُ العَالِم بالمَقَادِيرِ، ومَصَالح العِبَادِ. فَمَن كُشِفَ لَهُ عَنْ هَذَا الْجَمَال، وحُظِي بشيْءٍ مِنْهُ نَفَساً أَوْ نَفَسَيْنِ أَو أُرْخِي عليه الحجاب؛ فَهُوَ الذَّائق المشْتاق. وَمَنْ دَامَ لَهُ ذَلِكَ سَاعَةً أَوْ سَاعَتَيْنِ؛ فَهُوَ الشَّارب حَقّاً. وَمَنْ تَوَالَى عَلَيْهِ الأَمْرُ، وَدَامَ لَهُ الشُّرْبُ، حَتَّى

امْتلأَتْ عَرُوقُهُ وَمَفَاصِلُهُ. مِنْ أَنْوَارِ اللَّهِ المَخْزُونَةِ؛ فَذَلِكَ هو الرِّيُّ وَرُبَّمَا غَابَ عَنِ المَحْسُوسِ والمَعْقُولِ. فلا يُدرى مَا يُقَالُ. وَلاَ ما يَقُولُ. فَذَلِكَ هُوَ السُّكر، وَقَدْ تَدُور عليهم الكَاسَاتُ. وتختلف لدَيْهم الحالاَت. ويردُّونَ إلى الذِّكْر والطَّاعَاتِ، وَلاَ يُحْجَبُونَ عَنِ الصِّفَاتِ. مَعَ تَزَاحم المَقْدُورَاتِ، فَذَلِكَ وقْت، صَحْوهم، واتّساع نَظَرِهِمْ. ومَزِيد عِلْمِهُمْ، فَهُمْ. بِنُجُومِ الْعِلْمِ وَقَمَرِ التَّوْحِيدِ يَهْتَدُونَ فِي لَيْلِهِمْ. وبِشُمُوس الْمَعَارِفِ يسْتضِيؤُونَ فِي نَهَارِهِم. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾. انتهى كَلاَمُ القطب الشَاذِلِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقال أبو عبد الله القُرَشي رضي اللَّهُ عَنْهُ:

«حقيقة المحبَّة أن تَهَبَ كُلكَ لِمَن أَحْبَبْتَ، حَتَّى لاَ يَبْقَى مِنْهُ شَيْء» وقال أبُو الحُسَين الوَرَّاق: «المحبَّةُ سُرُور بِاللَّهِ مِنْ شِدَّة المَحَبَّة لَهُ. والمحبَّة فِي الْقَلْبِ نَار تحرق كُلَّ دَنَسٍ. وقال بَعْضُهُمْ:

«مَن ادَّعَى محبَّة اللَّهِ مِنْ غَيْرِ تَوَرُّع مَحَارِمِه؛ فَهُوَ كَذَّابٌ. وَمَن ادَّعَى محبَّة الجَنَّة مِن غَيْرِ إِنْفَاقِ مُلْكِهِ فَهُوَ كَذَّابٌ وَمَنِ ادَّعَى حُبَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. مِنْ غَيْرِ حُبِّ الْفُقَرَاءِ فَهُوَ كَذَّابٌ. وكَان كرابعة تُنْشِدُ:

تَعْصِي الإِلَهَ وَأَنتَ تُظْهِرُ حُبَّهُ ... هَذَا مُحَالٌ فِي الْفِعَالِ بَدِيعُ

إِنْ كُنْتَ صَادِقاً لأَطَعْتَهُ ... إِنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ

وقال بَعْضُ الشعراءِ فِي هَذَا المَنزع:

قَالَتْ وَقَدْ سأَلَتْ عَنْ حَالِ عَاشِقِهَا ... لِلَّهِ صِفْهُ وَلاَ تَنْقُصْ وَلاَ تَزِدِ

فَقُلْتُ لَوْ كَانَ رَهْنُ الْمَوْتِ مِنْ ظَمَإٍ ... وَقُلْتِ قِفْ عَلَى وُرُودِ الْمَاءِ لَمْ يَرِدِ

وَقَالَ آخَرُ:

وَلَوْ عَذَّبْتَنِي فِي النَّارِ حَتْماً ... دَخَلْتُ مُطَاوِعاً وَسَطَ الْجَحِيمِ

وقال آخرُ:

إِذَا كَانَ الْجَحِيمُ رِضَاكَ عَنِّي ... فَمَا ذَاكَ الْجَحِيم سِوَى نَعِيمِ

إِنْ كَانَ سَفْكُ دَمِي أَقْصَر مُرَادُكُمْ ... فَمَا غَلَتْ نَظْرَة مِنْكُمْ بِسَفْكِ دَمِ

وقال سَحْنُون رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ذَهَبَ المُحِبُّونَ لِلَّهِ بِشَرَفِ الدُّنْيَا والآخِرَةِ؛ لأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ. فَهُوَ مَعَ الله تعالى». وقال أبو يعقوب

السوسي: لاَ تصلح المحبّة، حتّى تخرَج عن رُؤية المحبّة، إلى رُؤيَةِ المحبُوبِ. بفناءِ علم المحبَّة. من حَيْث كَانَ المحبُوب فِي الْغَيْبِ. ولم يكُن هَذَا بالمحبَّة. فإِذَا خَرَجَ المُحِبُّ إلى هَذِهِ. كَانَ مُحِباً مِن غَيْر مَحَبَّة. وسُئِل الشبلي عن المحبّة فقال: كَأْسٌ له وَهَجٌ إِذَا استَقرَّ فِي الحواسِ، وسَكَنَ فِي النفوس تَلاَشَتْ.

وقيل للمحبَّة ظاهرٌ وباطِنٌ. ظَاهِرُهَا اتباع رِضَى الْمحبُوب. وَبَاطِنُهَا أَن يكُونَ مَفْتُوناً بالحبيب عَنْ كُلِّ شَيْءٍ فَلاَ تبقى فيه بَاقية لِغَيْرِهِ وَلاَ لِنَفْسِهِ.

وقال في المعارف: كَان رسول الله ﷺ يَدْعو: «اللَّهُمّ اجْعَلْ حُبَّكَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي وَسَمْعِي وَبَصَرِي، وَأَهْلِي وَمَالِي، وَمِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ». فَكَأَنَّ رسُولُ الله ﷺ طَلَبَ بحكم العلم والحيلة، تتعاضده بِضِدّ العلم. مثل أَنْ يكون راضياً. والحيلة قَدْ تنكرهُ، ويكوُنَ النّظر إلى الانقِيَادِ بِالعِلم، وإلى الاسْتقصَاءِ بالحيلة. فَقَد يحبُّ الله ورسوله بحكم الإيمان. ويحبّ الأهل والولد بِحُكْمِ الصَّبغ المُرَاد منْهُ. فَأَشَار إلى أَنَّ محبَّة الْعَوَامِ بِالعِلْمِ والإيمَان بِالْغَيْبِ. ومحبّة الخواصّ بالذَّوق على نَعْتِ مُشَاهدة الْحَبِيب. والله تَعَالى أَعْلَمُ. وقوله: «وَلَيْسَ يَعْلَمْ فِي الْقَلْب إلاَّ هُوَ». هَكَذَا فِي جُلِّ النُّسَخِ بَعْد السّطر أيْ لاَ يَعْلَمْ مَا فِي قَلْبِي مِنَ الشغفِ والمحبة إلا المحبوبُ. وفي بَعْضِ النُّسَخ: وَفِي الأغاليط سِرٌّ رقَّ مَعْنَاهُ، يشير إلى مَقَام الإِخْلاَصِ. فالسِرّ الَّذِي خَفِي مَعْنَاهُ هُوَ الإِخْلاَصُ، إذ لاَ يتحقق ذوْقاً، إِلاَّ بإِظْهَار ما يُنَافيه مِنَ الأَغَالِيطِ، ومَرْجعهَا إلى تخريب الظَّاهِرِ. إِذْ بِقَدْر مَا يخرِّبُ الظاهر، يُعَمِّر الباطن. وبِقَدْر مَا يُعَمِّر الظَّاهر، يُخَرِّبُ الْبَاطِن. وبقدْر مَا يُزَيِّنُ الظاهر، يقَبِّحُ الْبَاطِنِ. وبالعكْس: يَتَنَوَّر الظَّاهِرُ بِالتَّأَنُّقِ فِي الثيابِ، وتحسين الهيئة وبه يتظلم الباطِن. وَهَذَا مُجرَّبٌ عِنْدَ أَهْلِ الْفَنِّ. لاَ يُنكِرُه إلاَّ الجاهل بالطريق.

وَالإِخلاَصُ: إِفْرَاد الْحَقِّ بِالطَّاعَةِ بِالْعَقْلِ: وَهُوَ أَن يريدَ بِطاعَتِهِ، الْقُرْبَ إِلَى اللّهِ تَعَالَى، دُون شَيْءٍ آخَرَ، مِنْ تَصَنُّع لِمَخْلُوقٍ. أَو اكتِسَابِ مَحْمَدَةٍ عِنْدَ النَّاس ومحبَّة مدْح الخلق. أَو مَعْنى من الْمَعَانِي. سوى التقرّب إلى الله تعالى. قال القشيْري. وَأَحْسَن منه تفسير الحق تعالى في الحديث القُدْسي، قال الحسَن: سَأَلْتُ حُذَيْفَة عن الإِخلاصِ فقال: سَأَلْتُ النَّبِيّ ﷺ عن الإِخْلاصِ ما هو؟ فقال: سَأَلْتُ جِبريلَ عليه السلام عن الإخلاصِ فقال: سَأَلْت رب العِزَّةِ عن الإخلاصِ ما هُوَ فَقَالَ: «سِرٌّ مِنْ أَسْرَارِي أَوْدَعْتُهُ قَلْبَ من أَحْبَبْت مِن عِبَادِي» وقال الجنيْد رضِي الله عَنهُ: «الإِخْلاصُ سِرٌّ بيْن اللّهِ تعالى وبيْن الْعَبْد. لاَ يعلمه مَلَكٌ فَيَكْتُبَهُ، وَلاَ

شَيْطَانٌ فَيُفْسِدَهُ. وَلاَ هَوى فَيُبْطِلَهُ». وله درجات: إِخْلاص العوامّ: هو إِفْرَاد الحقِّ بالطَّاعة، مع ملاحظة الجزاء في الدنيا والآخِرَة. وإخلاص الخواصّ: وهو إفراد الحقِ بالطاعة مع ملاحظة الجزاء الأخروي فقط وإخلاص خواصّ الخواصّ. هو إفراد الحق بالطَّاعة، مع الغيبة؛ بَلْ مَحبَّة وتعظيماً وعُبُودية.

قال مكحول رضي الله عَنْهُ: «مَا أَخْلَصَ عَبْدٌ أَرْبعينَ يَوْماً إِلاَّ ظَهَرَتْ ينابيع الحِكْمَة مِن قَلْبِهِ على لِسَانِهِ». وهو مَوْقُوف عليه. واللَّهُ أَعْلَمُ. ويُوجَدُ فِي بَعْضِ النُّسَخِ: أُريهم أَنَّنِي بِغَيْرِه كلف؛ أي أَظْهِرْ للنَّاس أَنَّنِي بِغَيْرِ المحبوب كلف؛ أي مُولَعٌ ومتكلف بِهِ، ومشغول بمَحَبَّتِهِ. وليْس يَعْلَمُ ما في قَلْبِي مِن محبَّة الحبيب إلاَّ هُو: لأنَّنِي لمَّا عَرِفْتُه، وكَشفَ الحجاب بيْني وبيْنَهُ. قلت لاَ يحجبني عنه شيْء من تجلياتِهِ. فيظهر للناس أنّي أشاهد الخَلْق. ونُعَظِّمهُمْ، ونتأدَّب مَعَهُمْ. وَأَنَا فِي الباطِنِ لاَ نُشَاهِد إِلاَّ الملك الحقّ. وَلاَ نَتَأَدَّبُ إِلاَّ مَعَهُ. وَلاَ نَتَكَلف إِلاَّ بِهِ، فَلِلَّهِ الحَمدُ وَلَهُ الشكر.

قال الشيخ أَبُو الحسَن الشاذلِي رضِي اللَّهُ عَنهُ: «إِنَّا لَنَنْظُرُ إِلَى اللَّهِ بِبَصَرِ الإِيمَانِ والإِيقَانِ. فَأَغْنَانَا ذَلِكَ عن الدَّليل والبُرْهَانِ. وَأَنا لاَ نَرَى أَحَداً مِنَ الخَلْقِ. فَهَلْ فِي الْوُجُودِ سِوَى المَلِكَ الحقِّ. فَإِن كَانَ وَلاَ بُدَّ كَالْهَبَاءِ فِي الْهَوَى إِنْ فَتَّشْته لم تَجِدْه شَيْئاً» وَبِاللَّهِ التوفيق. ثم قال رضِي اللَّهُ عَنهُ:

قَالُوا أَتَنْسَى الَّذِي تَهْوَى فَقُلْتُ لَهُمْ ... يَا قَوْمِي مَنْ هُوَ رُوحِي كَيْفَ أَنْسَاهُ

وَكَيْفَ أَنْسَاهُ وَالأَشْيَا بِهِ حَسُنَتْ ... مِنَ الْعَجَائِبِ يَنْسَى الْعَبْدُ مَوْلاَهُ

يقول رضي اللَّهُ عنهُ: قال لي قَوْمي: أَتنْسَى المَحْبُوبَ الَّذِي تَهْوَاه وتعْشقُهُ حتى تغيب عن ذِكْره ومشاهدة سِرِّه. فقلْتُ لَهُمْ: يَا قَوْمِي مَنْ هُوَ رُوحِي وَبِهِ قِوَامِي وَنشأَتِي. قَدْ سَرَى سِرُّهُ فِي سِرِّي، ونوره في كُلّية ذَاتِي، وتَخَلَّلَتْ محبَّته جميع أَجْزَائِي كيف أَنْسَاهُ. وَأَغِيبُ عَنْهُ. وكيْف أيْضاً أَنْسَاهُ وَأَغِيب عَنْهُ. وَالأَشْيَاء كُلّها بِهِ قَامَتْ. وبنور جماله حَسُنَتْ وابْتَهَجَتْ. فَمَا ظَهَرَ فِي الكَوْنَيْنِ إِلاَّ نور بَهَائِهِ وَجَمَالِهِ. فَلَيْسَ فِي الوجودِ قَبِيحٌ، وَلاَ بَشِعٌ؛ لأَنَّ الوجود كُلَّهُ بقدرة الحكيم البديع. وإِلى هَذَا، أشار صاحب العينية رضي الله عَنْهُ:

وَكُلُّ قَبِيحٍ إِنْ نَسَبْتَ لِحُسْنِهِ ... أَتَتْكَ مَعَانِي الحُسْنِ فِيهِ تُسَارِعُ

يُكَمِّلُ نُقْصَانَ الْقَبِيحِ جَمَالُهُ ... فَمَا ثَمَّ نُقْصَانٌ وَلاَ ثَمَّ بَاشِعُ

ثم تَعَجَّبَ نِسْيَان العَبْد مَوْلاهُ وَهُوَ معه أقرَب إليه من حَبْلِ الْوَرِيدِ. فَمِن أَعْجَبِ العجائِبِ، أَن يكون الحقُّ قَائماً بِأَمْرِ عَبْدِهِ، لاَ يَنْسَاهُ مِنْ إِحْسَانِهِ وَرِفْدِهِ. والعَبْدُ غَافِلٌ عَنْ ذِكْرِهِ. مشغول بِذِكْرِ غَيْرِه. فَالواجبُ على الْعبْدِ، اسْتفراغ طاقته وجُهْده في ذِكر سيّدهِ؛ ومشاهدة إِحْسَانِهِ وَرِفْدِهِ. قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾. وقال تعالى: ﴿فَاذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وقد رَأَيْتَ أَحَاديث وأَخْبَاراً في الترْغيب في ذِكرْ اللَّهِ، «والتَفكّر في عَظَمَتِهِ. فَلاَ نطِيل بِسَرْدِهَا؛ لأنها مقرّرة فِي مَحَلِّهَا مِنَ الْمُطوّلاَتِ. وبالله التوفيق. ثم صَرَّحَ بِحَالِهِ مع مَحْبُوبِهِ؛ وهو الاسْتغراق فِي شهودِهِ فقال:

مَا غَابَ عَنِّي وَلَكِنْ لَسْتُ أَبْصِرهُ   إِلاَّ وَقُلْتُ جِهَاراً قَدْ هُوَ اللَّهُ

يَقُولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ: ما غَابَ عَنِّي مَحْبُوبِي طَرْفَة عَيْنٍ؛ لأَنَّهُ أَقْرَبُ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ؛ وَبِهِ حَيَاتِي، وقيام ذَاتِي كَمَا قال ابن الفارض رضي الله عَنهُ:

أَنْتُمْ شُمُوسِي وعَيْنُ ذَاتِي   وَوَجْهُكُمْ قِبْلَ لِلسُّجُودْ

فَمَحْبُوبِي لاَ يغيب عَنِّي قط. ولكن لسْت أَبْصرهُ، وَأُشاهده فِي مِرائي جماله، وتجلّيات ذَاتِهِ، إِلاَّ وقُلْت جهاراً بلِسَانِ الحَالِ. قل هو اللَّهُ. إِذ لاَ نُشَاهِد سِواهُ. وَلاَ نَرَى إِلاَّ ايَّاهُ؛ لأَنَّني مَحْجُوب بالجَمْع عَنِ الْفَرْقِ. وبِشُهودِ الْمُؤَثِّر عَلَى الأَثَرِ. وَإِن كَانَ وَلاَ بُدَّ مِنْ رؤْية الأَثَر، فَيَراهُ قائماً بِهِ، ونوراً من أنوارهِ. لاَ وُجُود لَهُ مَعَهُ. لثبوتِ أَحَدِيتهِ. فَالأَكْوَان ثابتة بِإِثْباتِهِ. مَمْحوة بِأَحَدِية ذَاتِهِ.

مَنْ لاَ وُجُودَ لِذَاتِهِ مِنْ ذَاتِهِ   فَوُجُدُهُ لَوْلاَهُ عَيْنُ مُحَالِ

فَالْعَارِفُونَ فَنَوا لَمَّا لَمْ يَشْهَدُوا   شَيئاً سِوَى الْمُتَكَبِّرِ الْمُتَعَالِي

وَرَأَوا سِوَاهُ عَلَى الحقيقة هَالِكاً   فِي الحَالِ والمَاضِي وَالاسْتِقْبَالِ

قَالَ الْقُطْبُ ابن مشيش؛ لأبي الحسَن الشَّاذِلي رَضِي اللَّهُ عَنهُمَا: يَا أَبَا الحَسَنِ: «حَدِّدْ بَصرَ الإِيمانِ. تَجِد الله فِي كُلِّ شيءٍ، وَعِنْدَ كُلِّ شَيْءٍ، وَمَعَ كُلِّ شَيْءٍ، وَقَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ. وبَعْدَ كل شَيْءٍ. وفَوْق كل شَيْءٍ، وتحْتَ كل شَيْءٍ، وقريباً مِنْ كل شيءٍ. ومُحِيطاً بِكُلِّ شَيْءٍ. بِقُرْبٍ هُوَ وَصْفُهُ. وبحيطةٍ هِيَ نَعْتَهُ. وعُدَّ عَنِ الطرفية والْحُدُودِ، وعن الأَمَاكِنِ والجهات. وعن الصحبة والْقرْب فِي المَسَافَات. وعن الدور بالمخلوقاتِ. وامحُق الكُلَّ بوصفه الأول والآخر، والظَّاهر والباطن؛ وهو هُوَ، هو. كَانَ اللَّهُ وَلاَ شَيْءَ مَعَهُ. وهُوَ الآن عَلَى مَا عَلَيْهِ كَان». وَأَشَارَ

بِقولِهِ، وعُدَّ الخ. إلَى أنَّ مَا جَرَى فِي كَلاَمِهِ من الظُرُوفِ ليْسَت بِزَمَانية وَلاَ مَكَانية؛ لأنَّهَا مِن جُمْلَةَ الأكْوَانِ. وَإنَّمَا هِيَ أُمورٌ ذَوْقية. فَاعْتقد كَمَال التَّنزِيهِ. وبُطْلاَن التشبيه. وتمَسَّكْ بِقَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ وَسَلِّم ذَلِكَ لأهْلِهِ. فَإنَّهُمْ عَلى بصيرة فيما رمَزُوا إلَيْهِ. فيما ذاقوهُ وَوَجَدُوهُ. بل هي مِن محضِ الإيمَانِ، وخالِصِ العِرْفَانِ؛ وهو حقيقة التوحيد. وَصَفْو الإيمَانَ؛ كما قال بعض العارفينَ. قال بعض المحققين مِنَ العارفين:

الحقُّ تَعَالَى مُنَزَّةٌ عَنِ الأيْنِ، والجِهَةِ والكَيْفِ، ولا جِسْمَ وَلاَ جَوْهَرَ، وَلاَ عرْف؛ لأنه لِلُطْفِهِ سَار فِي كل شَيْءٍ، ولنوريته ظَاهِر فِي كل شَيْءٍ. وَلإطلاقه وإحاطتِهِ مُتَكَيِّفٌ بِكُلِّ كَيْفٍ غَيْر متقيّد بذلك. وَمَنْ لَمْ يَذُقْ هَذَا، ولم يشهده؛ فَهُوَ أَعْمَى البصيرة. مَحْرُوم من مُشاهدة الحقِ. وَمِن كَلاَمِ الشيخ ابن الفارض:

هُوَ الْحَقُّ الْمُحِيطُ بِكُلِّ شَيْءٍ ... هُوَ الرَّحْمَنُ ذُو الْعَرْشِ المَجِيدِ
هُوَ النُّورُ الْمُبِينُ بِغَيْرِ شَكٍّ ... هُوَ الرَّبُّ الْمَحْبُوبُ فِي الْعَبِيدِ
هُوَ المَشْهُود في الشَّاهِدِ يَبْدُو ... فَيُخْفِيه الشُّهُود عَنِ الشَّهِيد
هُوَ الْعَيْن العيان لِكُلِّ غَيْبٍ ... هُوَ المقصود في بَيْتِ القصيد
جَمِيعُ الْعَالِمِينَ لَهُ ظِلاَلٌ ... سُجُودٌ فِي القريب وَفِي الْبَعِيدِ
وَهَذَا الْقَدْرُ فِي التَّحْقِيقِ كَافٍ ... فَكُفَّ النَّفْسَ عَنْ طَلَبِ الْمَزِيدِ

ولاِبْن عطاءِ الله، رضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

فَالنُّورُ يَظْهَرُ مَا تَرَى مِنْ صُورَةٍ ... إلاَّ بِهِ وُجُودُ الْكَائِنَاتِ بِلاَ امْتِرا
لَكِنَّهُ يَخْفَى لِفَرْطِ ظُهُورِهِ ... حِسّاً وَيُدْرِكُهُ الْبَصِيرُ مِنَ الوَرا
فَإذَا نَظَرْتَ بِعَيْنِ عَقْلِكَ لاَ تَجِدْ ... شَيْئاً سواه عن الذَّاتِ مُصَوَّرا
وَإذَا طَلَبْتَ حَقِيقَةً مِنْ غَيْرِهِ ... فيزيد جهلك لاَ تَزَال مُعَثَّرا

وهذه الأَسْرَار لا يَذُوقُهَا، إلاَّ مَنْ صَحِبَ أَهْلَ الفناء والبَقَاءِ. وَمَنْ لَمْ يَصْحَبْهُمْ، فَحَسْبُهُ الإيمَانُ بِالْغَيْبِ، واللَّهُ تعالى أَعْلَمُ.

ثُمَّ اعْلَم أَنَّ من عَادة الشعراءِ أَن يَتَغَزَّلُوا فِي مَدْحِ الحبيب. بذكر الرقبا والْعَوَاذِلِ إذ لاَ تَحلُو المَحَبَّة إلاَّ بِوُجُودِهِمْ، فمنهم مَنْ يَذْكُر ذَلِكَ فِي أَوَّلِ مَدْحِهِ.

كما فَعَلَ كَعْب بن زُهَيْر، والإِمَام البوصيري فِي بُرْدتِهِ؛ وغيرهما. ومِنْهم مَن يَسْتعمله في آخِرِ مَدْحِهِ، كما فعل النَّاظم حيث قال:

مَاذَا يَقُولُ اللَّوَاحِي ضَلَّ سَعْيُهُمُ ... وَمَاذَا تَقُولُ الأَعَادِي زَادَ مَعْنَاهُ

هَلْ غَيْرُ أَنِّي أَهْوَاهُ وَقَدْ صَدَقُوا ... نَعَمْ نَعَمْ أَنَا أَهْوَاهُ وَأَهْوَاهُ

قلتُ: التَّلاحِي: هو التَّخَاصُم. وَتَلاَحَى فُلاَنٌ وفُلاَنٌ تَخاصَمَا. واللَّوَاح: جمع لائحة أي مُخَاصَمَة وَمَاذَا: إِمَّا أَن تكون اسْتِفْهامية بُرمَّتِهَا. أَوْ ذَا مَوْصُولة. وَمَا اسْتفهامية. يقول رضِي اللَّهُ عَنهُ عَلَى طريق التَّشْبِيب والنَّسيب: مَاذَا: أَيْ أَيُّ شَيْءٍ تقول اللَّوَاحِي. فِي لوْمِي وَعِتَابِي على مَحبَّة الْحَبِيب. أَوْ مَا الَّذِي تقولُهُ الْعَوَاذِلُ والرقبَا فِي عَذْلِي ولوْمِي عَلَى فَرْطِ مَحبَّتِي، والتَّهالك في عشقِي أَضَلَّ اللَّهُ سَعْيَهُمْ، وَخَيَّب قَصْدَهُمْ. فَإِنَّهُمْ أَرَادُوا سُلْوَانِي مِنْ عشقي، وبُعْدي من حَبِيبي. فَلاَ أَسْمَعُ قوْلهُم. وَلاَ أَقْبَلُ نصحَهُمْ. وما تقول الأعَادي، أيْ أَيُّ شَيْءٍ تَقُولُهُ الأَعادِي والحُسَّاد فِي دُخُولهم بَيْنِي وبيْن مَحْبُوبي؛ بِالتَّخْلِيطِ والتَّخْوِيفِ. فَمَا وَقَعَ ذَلِكَ مِنهُمْ. إلاَّ لِمَا رَأَوْا مِنْ شِدَّة إقبال الْمَحبُوب عليَّ. وتقريبه إِيَّاي. واعْتِنَائِهِ بِشَأْنِي. فاللَّهُ يزيدني مِنْ تِلكَ الْمَعْنَى ويحققنِي بِذَلِكَ الْمَقْصِد الأَسْنَى. وهل يَقُولونَ شيئاً؛ غَيْر أَنِّي أَهْواه وأُحِبهُ. أي لاَ يُمْكِنُهُمْ أَنْ يَعيبُوا عَليَّ شيئاً. إلاَّ أَنِّي أُحِبهُ وَأَهْوَاهُ. ولَقَدْ صَدَقُوا فِي دَعْوَاهم. فَإِذَا أَقَرَّ بِذَلِكَ، وَأَفْصَحَ بالجَوَابِ. فنقول: نَعَمْ نَعمْ. أَنَا أَهْوَاهُ. ثم أَهْوَاهُ وَلاَ نَسْلُو عنه أَبَداً. وهذا الذي ذَكَره الشيخ من ذِكر الخِصُوم والأَعَادي. لاَ يشترط تحققه فِي الخارج. بل ذَلِكَ مِن فِعْل الشعراءِ. أَوْ يُسَمَّى التَّغَزُّلَ والشتبِيب والنَّسيب. يَحْسُن ذِكرهُ فِي أَوَّل المَدْح. أَوْ فِي أَثْنَائِهِ كما تَقَدَّم. ويمكن أَنْ يُقْصد بِذَلِكَ مَنْ يلومه عَلَى التجريد، وترْكَ الأَسْبَاب، والانقطاع إلى المحبوب لاسِيَمَا إِنْ كَانَ لَهُ مَنْ يتعلَّق بِهِ من أهْلٍ وَأَوْلاَدٍ. فَإِنَّ أَهْل الظَّاهِرِ لاَ يُسَلِّمُونَ لأَهْلِ الباطِنِ فِي هَذَا المَعْنَى، وكذلك تخريب الظاهر، وإتلاف المال الذي يشغل الباطنَ. فَإِنَّ غالبَ النَّاسِ يَعيبُونَ على من يفعل ذَلِكَ. وقَدْ فسَّر بعضهم العواذل والرقبا، والأعادي بالنفس والشيطان والهَوَى والدُّنْيَا؛ وكل ما يشْغل عن اللَّهِ. ذكره في شرح تائية ابن الفارض وقال: هذا مراد الصوفية. بِالعواذِلِ والرقبا وهو حسَنٌ. ثم إِنَّ هذه العواذِل؛ وهي القواطع التي تقطع عن الله تعالى؛ هي في الظَّاهر قواطعُ. وفي الباطِنِ محسُوساتٌ. وَمُوَصِّلاتٌ إلى اللَّهِ تَعالَى وعلى هَذَا الوجه ذَكَرَهُمْ صاحِب الحِكَم العطائية رضي الله عنهُ. فقال في شأنِ النَّفْسِ: حَرِّكْ

النَّفسَ عليكَ ليدُومَ إقبَالكَ عليْهِ. وقال في شأنِ الشيطان: إذَا علِمْت أَنَّ الشيطَانَ لاَ يَغفل عَنْكَ، فَلاَ تَغْفَلْ أَنْتَ عَمَّنْ نَاصِيتُكَ بِيَدِهِ. وقال في شَأْنِ الدُّنيَا: إنَّما جَعَلَهَا مَحَلاً لِلأَكْدَارِ تَزْهيداً لكَ فِيهَا. وقال في شَأْنِ النَّاسِ: إنَّمَا جرَى الأذى عَلَيْهِمْ كَيْ لاَ تكُونَ سَاكِناً إلَيْهم. أرَاد أنْ يُزْعِجَكَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ، حتى لاَ يُشغلكَ عَنْهُ شَيْءٌ. وقد كَانَ شيْخ شَيْخِنَا مَوْلاَي العَرَبي رضيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقولُ في شَأْنِ النَّفْس إذا اشتَكى لهُ أَحَدٌ بنفسِهِ. جَزَاهَا اللَّهُ خيراً عَنِّي. واللَّهِ مَا رَبِحْنَا إلا مِنْهَا. يَعْنِي أَنَّهُ جَاهَدَهَا وَرَيَّضَهَا. حتى انْقَادَتْ، وَأَسْلَمَتْ وَتَرَوْحَنَتْ. فَجَعَلَتْ تَأْتِيهِ بِالعلوم والْمَوَاهِبِ مِنْ أَسْرَار الْغَيْبِ، فَإِنَّ الرُّوح كَانَ أَصْلها عَلاَّمَة دَرَّاكَةً. فَمَا حَجَبَهَا إلاَّ الشَّهَوَات، والعوائد التي تَعَوَّدَتْ بِهَا. حَتَّى تَظَلَّمَتْ. فَسُمِّيَتْ نَفْساً. فإذَا مُنِعَتْ مِن شهَوَاتِهَا وعوائِدهَا، رجَعَتْ إلى أَصْلِهَا. وَإِلَى هَذَا الْمَعْنَى، أَشارَ ابْن البَنَّا في مَبَاحِثِهِ حيْث قال:

وَلَمْ تَزَلْ كُلُّ نُفُوسِ الأَحْيَا ... عَلاَّمَةً دَرَّاكَةً لِلأَشْيَا
وَإِنَّمَا تعوقُهَا الأَبْدَانُ ... وَالأَنْفُس النَّزَّاغ وَالشَّيْطَانُ
فَكُلُّ مَنْ أذَاقَهُمْ جِهَادَهْ ... أَظْهَرَ لِلْقَاعِدِ خَرْقَ الْعَادَهْ

ثم قال رضي اللَّهُ عَنْهُ:

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ إلاَّ مِنْ مَحَبَّتِهِ ... فَإِنَّهَا حَسَنَاتِي يَوْمَ أَلْقَاهُ
فَإِنْ يَقُولُوا بِأَنَّ الْحُبَّ مَعْصِيَةٌ ... فَالْحُبُّ أَحْسَنُ مَا يُلْقَى بِهِ اللَّهُ

يَقُول رضي اللَّهُ عَنْهُ: أَسْتَغْفِرُ الله: أيْ أَطلُبُ مَغْفِرَتهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ يَصْدُرُ مِنِّي، قَوْلاً وَعَمَلاً وعقداً. إلاَّ مِنْ مَحَبَّتِهِ، فَإنها لاَ يَدْخلها خَلل؛ لأنها محمودة في كل حَالٍ. فلا تحتاج إلى اسْتغفارٍ فَتَقُولُ له: الحبُّ أَحْسَن ما يُلْقى بِهِ اللَّهُ. لقوله ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ لقَاءَ اللَّهِ، أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ». وَلاَ يُحِبُّ لقاء اللَّهِ. إلاَّ مَنْ تَمَكَّنَت مَحبَّة الله فِي قَلْبِهِ. فَظَهَرَ أَنَّ المحبَّةَ أَفْضَلُ الْمَقَامَاتِ، وَأَكْمل الحالاتِ، فَلاَ تَفتقِرُ إلَى اسْتِغْفَار ولذلك قال القطب ابن مشيش: واعْلَمْ أَنَّ حُبَّ اللَّهِ قُطْبٌ تَدُورُ عليه الخيْرات. وَأَصْلٌ جَامع لجميع الكَرَامَاتِ. إلى آخِرِ كَلاَمِهِ فِي بَعْضِ وَصَايَاهُ. ثم اعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ المحبّة الَّتي هِيَ أَفْضَلُ المَقَامَات؛ إنما تكون مَعَ تمام المعرفة، إِذِ المحبّة بلا مَعْرِفَةٍ، قد يَصْدُرُ من صَاحِبِهَا سُوءُ أَدَبٍ. بِمَا يَصْحَبُهَا مِنَ الْقَلَقِ، أَو الإذْلاَل في غَيْرِ مَحَلِّهِ. فيُطرَدُ وهو لاَ يشْعُرُ بخلافِ مَنْ تَرَقَّى إِلَى

مَقَامِ المَعْرِفَةِ، بَعْدَ كَمَال المحبَّة. فالأدب مُحَقَّقٌ لَدَيهِ. إذ المعرفة لا تكونُ إلاَّ بَعْدَ التَّهْذِيبِ وَالتَّأْديب. فيلزَمُهُ الرِّضَى والتَّسْليمُ. والصَّبْرُ والتوكل. وغَيْر ذَلِكَ مِنَ المَقَامَاتِ؛ لأَنَّ الْمَعْرِفَةَ ضَمَّتْهُ لجميع ذَلِك. إذ لاَ يَسْلك لَهَا إلاَّ ويقطع هذه المقامات. بخلاف المحبَّة وَحْدَهَا: فقد توجد مَعَ الحجاب. فيكوُنِ صَاحبُهَا غيْر كَامِلٍ، كما هُوَ شأن كثير من العُبَّادِ والزُّهادِ، والعُشَّاق. وَأَمَّا المعرفة فلا تَحْصُل إلاَّ بَعْدَ التَّرْبية والتأديب، والتهذيب بعد التدريب والتَّهْذيب. فصاحِبُها مَأْمُون من سُوء الأدَبِ فِي الْغَالب. مَنَحَنَا اللّٰهُ مِن معرفته الكَامِلَةِ أَوْفَرَ نَصِيبٍ، إنه سَمِيع قريبٌ مجيبٌ. بِجَاهِ سيّدنا ومَوْلاَنَا محمَّد، أَفْضَل كُل مُحِبّ وَحَبِيب. صَلَّى الله عليه وعلى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَعِتْرَتِهِ وَأَحْزَابِهِ. وسلم تسليماً. والحمد لله رب العالمين.

شرح بعض مقتطفات الششتري للعارف بالله، سيدي أحمد بنعجيبة، رضي الله عنه

سُبْحَانَ مَنِ اخْتُصَّ بِالْحَمْدِ والثَنَاءِ مِنَ الْعِبَادِ. وَتَقَدَّسَ ذَاتاً وَصِفَاتاً عَنِ الشُرَكَاءِ والنُظَرَاءِ والحلول والاتحادِ. خَصَّ أقواماً بِكَمال المحبّة والوداد. فَهُمْ بَيْنَ سَالِكٍ ومَجْذُوب، ومُحِبّ ومحبُوبٍ. لاَ يطرق سَاحَة قلوبهم الأغْيَارُ والإنْكَار. واخْتَصَّ أَقْواماً بِغَايَة الخِدْمَةِ والاجْتِهَادِ فَهُمْ بَيْنَ عُبَّادٍ وَزُهَّادٍ، وَبُدَلاَء وَنُجَباء. وصَالحينَ وَأَوتاد، يقومُونَ فِي دَيَاجِي اللَّيْلِ بِمُنَاجَاةِ الحبيبِ. والتعلقِ بَيْن يدي القريب المجيبِ. وإِذا هَبَّ عليهم نسِيم الأَسْحَار. فَاضَتْ أَعْينهم بَالبُكَاءِ والنَّحِيبِ. فكُلّ هؤلاَءِ كَانَ سَعْيهم مَشْكوراً. ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾. نَحْمَدُهُ تَعَالَى ونشكُرُهُ حمْداً وَشُكْراً يَقْضِيَانِ بتوالي الإمْدَادِ. ويعطفانِ علي قَائلهما بالتعرفِ والوِدَادِ. ونُصَلّي وَنُسلم على مَنْبع الأنوارِ. ومَعْدِن المعارف والأَسْرَارِ سيّد الوجود، ومنبت الكرم والجود. سيدنا ومَوْلاَنَا أفضل كل حامدٍ ومحمُود. ورضِي الله تعالى عَنْ أصحابه الأبْرَارِ. وأَهْل بَيْتِهِ الأطْهَارِ. أَمّا بعد: كل شيء قبله وبعده فعلم الباطنِ عِلْمٌ كبيرٌ. وفَضْله مِنَ الكتاب والسنة شهيرٌ بَذْل المهج والأرواح في نيله نَزْر يسيرٌ وركوب بَحْره الهائل أمر خطير. إلا مَن ركبه مع رئيس عارف كبير. عالم بأحوال البَحْر وأهْوَالِهِ. عارف باسْتِخْرَاجِ يواقيته وَلآلئه. إذا تعَاصفت عليه الأمواج والرياحُ. أَوَى إلى سفينة السّنَّة والأخبار الصحاح. ومَدَار هَذَا العلم على تربية اليقين وتحقيق شهودِ ربّ العالمينَ. فبدايته مجاهدة. ونهايته مُشاهدة. ومِمَّن خَاضَ هذَا البحر الخطير، وتضلع من ماء عِلْمِهِ الغزير الشيخ الكَامِل المحقق الواصل بحري زمانه. ورئيس دهره وأوَانِهِ. أَبُو الحَسَن سيدي علي بن عبد الله النميري الششتري، الأندلسي الأصل. الرباطي الدَّار. وشُشْتر بشينَيْن مُعْجَمَتيْن، أَوّلهما مضمومة، وثانيهما ساكنة، بعدها تاء مضمومة فوقية، هِي قَرْية بالأندلس. وششتر أَيْضاً. مدينة بالعراق.

سكَنَ الشيخ رضي الله عنه الرِّبَاط. ثم جَالَ فِي البِلاَدِ. فدخَلَ فاس

ومكناس، ثم رَحَلَ إلى المشرق فجال في بلادِهَا. وبها توفي رَضِيَ اللَّهُ عنهُ. رُوي أَنَّهُ لَمَّا وَصَلَ إِلَى الشَّامِ. نَزَل بساحل دمياط؛ وهو مَرِيض، فَنَزَلَ قَرْيَة هُنَاك، على سَاحِل البحر الرّومِي. يصْطاد فيها السَّمَكَ. فقال: ما اسْمُ هذه القرية؟ فقيل لهُ: الطينة. فقال: حنَّت الطينة إلى الطينة فوَصَّى أَنْ يُدْفَنَ بمقبرة دمياط. فَحَمله الفقراء على أَعْنَاقِهِمْ، فتوفي بها يوم الثلاثاء تاسع عشر صَفَر، سنة ثمانية وستين وستمائة (19 صفر سنة 668هـ).

كَانَ رضي اللَّهُ عنه من الأمراء، وأولاد الأمراء. فصار من سادة الفقراء. أَخَذَ رضي اللَّهُ عَنْهُ طريق التجريد والتخريب، فنال غَاية التفريد والتقريب. رُوي أَنَه لما التقى شيخه ابن سَبْعِينَ، وَأَرَادَ أن يَأْخُذَ عَنْهُ: قال له الشيخ: لاَ تَنَالُ من علمنَا هَذَا حَتَّى تُسْقِط جَاهكَ. وَتُفْنِي مَالَكَ. فَبَاع كُلَّ مَا عِنْدَهُ وتَصَدَّقَ بِهِ. ولبس قشَّابة، وأتى إلى الشيخ، فَقَالَ: خُذْ بِنْدِيراً وادْخل السوق. فقال له: مَا نقول؟ فقال: قُلْ: بَدَأْتُ بِذِكر الحبِيبِ، فَدَخَل السُّوقَ. وَجَعل يُغَنِّي بِهَذِهِ الكَلمة ثلاثة أيام. ثم خرقت له الحجب. وفَاضَتْ عليه المواهب. فزَاد على ما قال له الشيخ: بَدَأْتُ بِذِكر الحبيب، وهِمْتُ وَعَيْشِي يطيب. وبحت بِسِرٍّ عجِيبْ. لَمَّا دار الكاسْ ما بيْن الجلاسْ. واحيتهم الأنفاسْ. عنهم زال الباسْ الخ كلامِهِ. هكذا سَمِعْت الحكَاية مِنْ شيخِنَا، وسمعتها أَيْضاً مِنْ غَيْرِه. ممَّن له اعْتناء بِكَلاَمِهِ. وَلَمْ أَقف عَلَيْهَا. ولَهُ تَآليف منها: كتاب العرْوَة الوثقى، في بَيَان السّنَن، وإِحْصَاء العلوم. وما يجب على الْمُسْلم أَن يَعْلَمَهُ ويَعْتقده إِلَى وَفَاتِهِ. ومنه اخْتصر رسالته، التي اختصرها التَّجيبي في الإنَالة، ومنها المقاليد الوُجُودية في أَسْرَارِ إِشَارات الصّوفية. وله الرسالة القدْسية، في توحيد العَامَّة وَالخَاصَّة، والمراتب الإِسلامية، والإِيمانِية، والإِحْسَانية. وله أَشعار وأزجَال ومقطعات فِي غَايَة النّبل. جمعتْ فِي ديوان كبير. ومنها قصيدته التي أَرَدْنَا الكَلاَم عَلَيْهَا. التي أَوَّلها: صَحَّ عِنْدِي الْخَبَر، وسرى في سري. . . إلى آخرها. وقيل هي لشيخه عبد الحق ابن سَبْعين. لكنني رَأَيْته فِي ديوانِهِ من جُملة أَشْعَارِهِ. فَالله أَعْلَمُ. وتوفي شيخه ابن سبعين بعد وَفَاتِهِ بِسَنَةٍ. قال رضي اللَّهُ عَنْهُ: «المقتطفة الأولى».

(ص)[1] صَحَّ عِنْدِي الْخَبَرْ. . . وسَرَى فِي سِرِّي. . . إِنَّ عَيْنُ النَّظَرْ. . . عَيْنُ عَيْنِ الْفِكْرِي. . .

---

(1) ص: التَّصْنِيف: أي كَلاَم الششتري رضي الله عَنْهُ.

أَغْمِضْ طَرْفَكَ تَرَى... وَتلوح أَسْرَارُك... وَافْنَ عَنِ الْوَرى... وتَبْدُو لَكْ أَخْبَارُكَ...

(ش)[1] يقول رضِيَ اللَّهُ عَنهُ: صَحَّ عِنْدِي الْخَبَر وحققته. وَسَرَى فِي قَلْبِي وروحي وسِرِّي حتى ذقته وهو أن عيْن النظر، التي أَمَرَ اللَّهُ باسْتعمالهَا، والنَّظر بها في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾. وبقوله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ﴾. هي عَيْنُ الْقَلْبِ؛ الَّذِي هُوَ مَحَلّ الفكر والاعْتِبَارِ. لا عَيْنُ البَصَر الحِسِّي؛ لأَنَّ عَيْنَ الْقَلْبِ؛ وهي عَيْن الفِكْرِ. لاَ تَرَى إِلاَّ المَعَانِي الْقَدِيمة والأنوار القدّسية. وتسَمَّى البصيرة. بِخلاف عَيْن البَصَر الحِسِّي، لاَ يَرَى إِلاَّ المحسوسات الحديثة المفروقة. فإذا انفتحتِ الْبَصِيرة؛ وهي عَيْن الفِكْر، اسْتَوْلتْ على الْبَصَرِ الحِسِّي. فلاَ يَرى البَصَر حينئذٍ إِلاَّ المَعَانِي التي تراها البصيرة. فيستولي المعْنَى على الحِسِّ. والجمعُ على الْفَرْقِ. وتسْتولِي الرّوحانية على البَشَرية. فتخنس البَشَرية، وَلَمْ يَبْقَ لها أَثَرٌ. فَيَغِيبُ الأَثَرُ، وَيَبْقَى المُؤَثّر. وحِينَئِذٍ يقول صاحب هذا المقام: طَلَعَ النَّهار على الأقمار، وَلاَ بقي إِلاَّ رَبِّي. ويقول أَيْضاً:

مُذْ عَرَفْتُ الإِلَه لَمْ أَرَ غَيْراً ... وَكَذَا الغَيْرُ عِنْدَنَا مَمْنُوعُ
مُذْ تَجَمَّعْتُ مَا خَشِيتُ افْتِراقاً ... فَأَنَا الْيَوْمَ وَاصِلٌ مَجْمُوعُ

ويَقول أَيْضاً:

لَوْ كُلِّفت أَنْ أَرَى غَيْرهُ لَمْ أَسْتَطِع. فَإِنه لاَ غَيْر مَعَهُ حَتَّى أَشهَدهُ فمشهد البَصر والبصيرة ضِدَّانِ. يحجب أَحدهما عَنِ الآخَرِ. فَمَن وقَفَ مَعَ المحسوسات التي هِي مَشْهَد البَصَرِ. وَاشْتَغَلَ بحِسِّيتها. واغْتَرّ بزخرفها، حُجبَ عن المَعَانِي اللطيفة؛ التي هي مَشْهَد البَصِيرة وَصَارَ مَحْجُوباً عَنِ اللَّهِ. واقفاً مَعَ القِشر الظَّاهر. لَمْ يَنْفذ إلى اللّبّ الباطنِ. قال في الحِكَم: الأكْوَان ظَاهرهَا غرّة. وَبَاطنها عِبْرة. فالنفس تنظر إلى ظَاهر غرّتها. والقلب ينظر إلى باطن عبْرتها هـ. وقيل لرسول الله ﷺ: مَنْ أَولياء الله الَّذين لاَ خَوْفٌ عَلَيْهم وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ. فقال: «الَّذِين نَظَرُوا إلى بَاطِن الدّنيا، حينَ نَظَرَ النَّاس إلى ظَاهِرِها واهتمّوا بَأَجَل الدّنيا. حينَ اهتمّ النَّاس بِعَاجِلِهَا. فَأَمَاتُوا مِنْهَا مَا خشَوا أن يميتهُمْ. وتَرَكُوا منها ما علمُوا أَنْ سَيَتْرُكهُمْ. فَمَا

(1) ش: شرح سيّدي أحمد بنعجيبة له. تَوضيح من المصحح.

عَارضهم مِن نَائلها عارض إلاَّ رَفَضُوهُ. وَلاَ خَادعهم من رفعتها خَادِع إلاَّ وضَعُوهُ. خلقت الدّنيا في قلوبهم فما يُجَدّدونَهَا. وخربت بيوتهم فَمَا يُعَمّرُونَهَا. وماتَتْ في صدورهم فما يُحْيُونَهَا. بل يُهَدّمُونها، فيبنونَ بِهَا آخِرَتَهُمْ. ويبيعونَهَا فيشترون بهَا ما يَبْقى لَهُمْ. نَظَرُوا إلى أَهْلها صَرْعَى قد خَلَتْ بِهِم المَثُلاَتُ. فَمَا يَرَوْنَ أَمَاناً دُون مَا يَرْجُونَ، وَلاَ خَوْفاً دُونَ مَا يَحذَرُونَ» هـ. ويحتمل أن يريد بعَيْن النَّظر محلّه أَوْ ذَاتَهُ. فيكون المَعْنَى حِينَئِذٍ: صَحَّ عِنْدِي الخَبَر. إنَّ مَحَلَّ النظر، هو محلّ الفكر؛ وذلِكَ لاتّحادِهِمَا عندَ الْعَارِفِ؛ لأنَّ مَا كَانَ غيْباً يُدْرَكُ بِالفكر، صَارَ عنده شهادة يُدْرك بالنَّظَرِ. فَصَارَ عيْنُ النظر. هُوَ عَيْن الفِكْرِ. وعيْن الفكر هو عَيْن النَّظَر؛ لأنَّ البصيرة إذَا فتحت، استولتْ على البَصَر فَاتَّحَدَ مَدْرَكُهُمَا. وأما غيْرُ العَارف، ففكرتُهُ فِي المعانِي الغيْبية، ونظرهُ في الأشياءِ الحسّية. قال في الحِكَم: الفِكرة فِكْرتَان: فكرة تصديق وإيمَانٍ. وفِكْرَة شهودٍ وعيَانٍ فالأولى لأرْبابِ التَّصْدِيقِ والاعْتِبَارِ. والثانية، لأرْبَابِ الشهودِ والاسْتِبْصَارِ. هـ والحاصل أنه كلما يغمُضُ بصرهُ عَنِ النَّظَرِ إلى الحسّيات الفَانية، تُشْرِقُ عليه أنْوَار المَعَانِي الباقية. وإليه أشار بقوله: اغمض طرفك، ترى وَتَلوح أَسْرَارك. أي أغْمض طرْفك عن المحسُوسات الحادثة الفانية، ترى المعاني القديمة الباقية. اغمض طرفك مِن وُجُودكَ الوَهْمِي تلوح أسْرَارك الحقيقية الأزلية؛ وهي العلم الوهبي فالحسّ في الحقيقة عَيْن المعْنى. لكنه رداء وحجاب للمعانِي. فإذا تَنَحّى رداءُ الصَّوْنِ عن الكَوْنِ. أشْرقت أنْوار القِدَم، على صفحَات العَدَمِ. فتلاشَى الحادث، وبقي القديم. وقد أشَرْت إلى هذا المَعْنَى فِي عيْنَيتي فقلْتُ:

تَـنَـحَّ رِدَاءُ الـصَّـوْنِ عَـنْ كَـوْنِ رَبِّـنَـا	فَـصِـرْنَـا إِلَـى نُـورِ الْـحَـبِـيـبِ نُـسَـارِعُ
فَـقَـالَ لَـنَـا أَهْـلاً وَسَـهْـلاً وَمَـرْحَـبـاً	فَـهَـذَا جَـمَـالِـي حَـقّـاً فِـيـهِ تَـمَـتُّـعُ

أَوْ نَقُولُ المحسُوسات أَوَانِي، حَاملة للمَعَانِي، فَإِذَا تَكَسَّرَتِ الأوَانِي، سقطت المَعَانِي، وفي ذَلِكَ يقول النَّاظم رضِي الله عَنْهُ: لاَ تَنْظر إلى الأوَانِي وخُضْ بَحْرَ المعانِي لَعَلّكَ تَرَانِي.

وَأَكْبَر الحُجب: النَّظر إلى ظاهر الخَلْق. والغيبة عن المَلِك الحقّ. والاغْتِرَارِ بما هُمْ فيه. والخوض مَعَهُمْ في حِسّهِمْ الّذِي هُوَ لعبٌ ولَهْوٌ. فَمَن فَنَى عَنْهُم، وغابَ عَنْ حِسّهِمْ، لاَحَتْ لَهُ أنوار. وظهَرت له أَسْرَار وإلى ذَلِكَ أَشَار بِقوله: وافْنَ عَنِ الوَرَى، تَبْدُو لَكْ أَخْبَارُكَ. أي افْنَ عَن رُؤْية الوَرَى؛ بِعَيْنِ الفَرْقِ. تَبْدو لَكَ

أَخْبَارِكَ أي عُلومَك، حَتَّى تَرَاهُمْ بِعَيْنِ الجَمْعِ. وفي هَذَا المَعْنَى، قال شيخ شيوخَنَا المجذوب رضي الله عَنْهُ: الخَلْق نُوَّارْ وأَنَا رْعِتْ فِيهِمْ هُمْ الحُجُبُ الأَكْبَرْ. وَالْمَدْخَلْ فِيهِمْ هُمْ الحُجُبُ الأَكْبَرُ لِمَنْ وَقَفَ مَعَ ظَاهِرِهِم. والمَدْخَلُ فِيهِم، لِمَنْ نَفَذَ إلى شُهُودِ خَالِقِهِمْ فِي ظَاهِرَهِمْ. قال في لطَائف المِنَنِ: فَمَا نُصبت الكَائنات لَترَاهَا، ولكِن لتَرَى فيها مَوْلاَهَا. فَمُرَاد الحقّ مِنْكَ. أن تراها بعَيْن مَن لاَ يَرَاهَا. تَرَاهَا مِنْ حَيْث ظُهُورهُ فيهَا. وَلاَ تَرَاهَا مِنْ حَيْث كَوْنيتُهَا. قال: ولنا فِي هَذَا المعْنَى: مَا أُثْبِتَت لك المعالم إلاَّ لتراهَا بِعَيْن مَنْ لاَ يَرَاهَا.

فَارِقَ عَنْهَا رُقَى مَنْ لَيْسَ يَرْضَى حَالَةً دُونَ أَن يَرَى مَوْلاَهَا هـ. فَالنَّاظر للكَائِنَاتِ غَيْر شَاهد للحقّ فيها، غَافلٌ. والفَانِي عَنهَا عَبْدٌ بِسَطَوَات الشهود ذاهلٌ. والشَّاهد للحق فيها عَبْد مخصّص كَامِلٌ. وإنما تُرْفع الهِمَّة عَنِ الكَوْنِ مِنْ حيْث كَوْنِيَتُهُ، لاَ مِنْ حَيْث ظُهُورُ الحقّ فِيهِ فَإغْضَاءُ الزُّهَاد والعُبَّاد وأَهْلُ الإرَادة، عَنِ الكَوْنِ؛ لأنَّهُمْ لَمْ يَشْهَدُوا ظهور الحق فِيهِ. وذلك لِعَدم نُفُوذهم إليه في كل شَيْءٍ لاَ لعَدم ظهوره فِي كل شَيْءٍ. فَإنَّهُ ظَاهر فِي كُلّ شيْءٍ. حتَّى إنه ظَهَرَ فيما بِهِ احْتَجَبَ بِلاَ حِجَاب هـ.

وقال الشيخ أَبُو الحسَن الشَّاذِلِي رضِي اللَّهُ عَنهُ، في بَعْض كتب اللَّهِ. المنزَّلَة على أَنْبِيَائِهِ: «مَنْ أَطَاعَنِي فِي كُلّ شَيْءٍ، بِهِجْرَانِهِ لِكُلّ شَيْءٍ أَطَعْته في كل شيءٍ. بأَنْ أَتجلَّى لَهُ دُونَ كل شَيْءٍ، حَتَّى يَرَانِي أقرب إليه مِن كلّ شَيْءٍ». قال: وهذه طريق أُولَى. وهي طريق السَّالكينَ. وطريق أُخْرى كُبْرى: مَنْ أَطَاعَنِي فِي كُلّ شَيْءٍ، بِإقباله على كُلّ شَيْءٍ. لحسْن إرَادة مَوْلاَه فِي كُلّ شَيْءٍ. أَطَعْتُهُ فِي كل شَيْءٍ. بِأَنْ أَتَجَلَّى لَهُ فِي كُلّ شَيْءٍ، حَتى يَرَانِي كَأنّي كل شيء هـ. قال ابن عطاءِ اللَّهِ فِي لَطَائِفِهِ: وَإذَا عَرَفْتَ هَذَا فاعْلَمْ أَنَّهُمَا وَلِيَّانِ. وَلِيّ يَفْنَى عن كُلّ شَيْءٍ. فَلاَ يَشْهَد مع الله شيئاً. وَوَلِيّ يَفْنَى فِي كُلّ شيء. فيشهد اللَّهَ في كل شيْءٍ. وَهَذَا أَتَمُّ: لأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَم يُظهر المملكة إلاَّ حَتى يُشْهَدَ فيها. فالكَائِنَات مِرْآة الصفات. فمن غاب عن الكون، غابَ عن شهود الحق فيه هـ. وقال في الحِكم: مَنْ عَرَفَ اللَّهَ رَآه في كل شَيءٍ. ومَن فَنَى فيه، غابَ عَن كُلّ شَيْءٍ. وَمَن أَحبَّه، آثره على كل شيءٍ هـ.

وفي بَعْضِ الأثَرِ: «مَا رَأَيْتُ شيئاً، إلاَّ رَأَيْت اللَّهَ فِيهِ». وَلاَ تَحْصُل هذه الرؤية إلاَّ لِمَنْ صَقلت مِرْآة قَلْبِهِ. وتطهَّرَتْ مِنَ الأغْيَار وحِينئذٍ تَتَجَلَّى فيهِ الحقائِق والأسْرَار وإلى ذَلِكَ أشار بقوله:

(ص) وَبِصَقْلِ المِزآ. . . بِه تَزُولَ أغْيَارِكْ. . . وَتْلُوحْ لَكَ أَسْرَارْ. . .
مِن أغيونك تَسْرِي. . . والتَفِتْ إِنْ ظَهر. . . فِي سَمَاكَ الدُّرِّي.

(ش) قلت: المِزآ بِكَسْرِ الميم، هي المِرآة التي تنطبعُ فيهَا الأشياء عِنْدَ مُقَابَلَتِهَا، إذا صقُلتْ مِن الصَدَا. وكذلكَ عَيْن البصيرة؛ وهي عَيْن الفِكْرِ أَوْ عَيْن القَلْبِ، مثل المِرْآةِ كلما اشتدَّ صقلها وصَفاؤها. اشتدَّ ظهور الأنوار فيهَا. وصقلها يكون بِذِكرِ اللَّهِ بِالْحُضُورِ وانجماع القلْبِ. والتفرّغ من الاشتغال. وفي الحديث: «لِكُلِّ شَيْءٍ مِصْقَلَةٌ. ومِصْقَلَةُ القلوب ذكْر الله، وقال (ص) أيضاً: «إنَّ القلوبَ تَصْدَى كَما يَصْدَى الحَدِيد. وإن الإيمان يَخْلق كما يَخْلق الثَّوْبُ الجَدِيد». أيْ يَبْلَى كَمَا يَبْلَى الثوبُ. فَإذَا صُقِل القَلْبُ مِنَ الأغيَارِ أَشْرَقت فيه شموس المَعَارف والأنوار. فرغْ قلبك مِنَ الأغْيَار. يُمْلأ بالمَعَارف والأسْرَار فَأَسْرَار الذَّات العالية. وأنوار الصفات الأزلية، ظَاهِرة بَادِية. وَمَا مَنَع القلوب أن تشهد إلاَّ انطباع صور الأكْوَانِ فِي مِرْآتِهَا. فتظلمت القلُوب بالأكْدَارِ. وَفِي الحكم كَيْفَ يشرق قلْبٌ صُورُ الأكْوَان مُنْطبعَة فِي مِرْآتِهِ. أَمْ كَيْفَ يَرْحَلُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُكَبَّلٌ بشَهَوَاتِهِ أَمْ كَيْفَ يَطْمَعُ أَن يَدْخُلَ حَضْرَةَ اللَّهِ؛ وهُوَ لَمْ يَتَطَهَّرْ مِن جَنَابة غفلاتِهِ. أَمْ كَيْف يَفْهَم دَقَائقَ الأسْرَارِ؛ وهو لَمْ يَتُبْ مِنْ هفوَاتِهِ هـ. وقال الشاعر:

إنْ تَلاَشَى الكَوْنُ عَنْ عَيْنِ قَلْبِي ... شَاهَدْتُ غَيْبَهُ فِي بَيَانِي
فَاطْرَحِ الكَوْنَ عَنْ عَيْنَاكَ وامْحِ ... نُقْطَةَ الْغَيْنِ إنْ أَردتَّ تَرَانِي

وهَذَا مَعْنَى قول النَّاظِم: وبصقل المِزآ ـ أي مِرْآة ـ القلْبِ بِهِ تزول أغيارك. أيْ بِذَلِكَ الصّقل يزول أغيارك. أي مَا يُغَيِّر قَلْبَكَ عَنِ الشُّهُودِ. ويَحُول بيْنَك وبَيْنَ رؤية المَلِك المعبود. جَمْع غِير بِكَسْر الْغَيْن، وغَيْر بِفَتْحِهَا وهو ما سِوَى الحقّ. وإذَا زَالت عَنِ القَلْبِ الأغْيَارُ. أَشْرَقت فيه الأنوار والأسْرَارُ. أَعْنِي أنْوَار الصفاتِ، وأَسْرَارِ الذَّاتِ. فَيَرى الوُجُود كله نوراً متصلاً بِأَنْوَارِ الجبرُوتِ. هُوَ الأول والآخر. والظاهر والباطنُ. وَلاَ يَذُوق هذا إلاَّ مَنْ مَنَّ اللَّهُ عليه بصحبةِ شيخ كاملٍ يُأَقِّيهِ مِنْ ظلمة عَالَم الأشباح. إلى أَسْرَار الجبروت. وإلاَّ فَالغَالب عليه احتجابه بظلمة الأغيَارِ. أَوَ وقوفه مع الأنْوَار. وفي الحِكَم: رُبَّمَا وقفتِ القلوب مَعَ الأنْوَار، كما حجَبت النُّفُوس بكثائفِ الأَغْيَارِ وقال النَّاظم رضي اللَّهُ عَنْهُ فِي نونيته:

تَقَيَّدْتَ بِالأَوْهَامِ لَمَّا تَدَاخَلَتْ ... عَلَيْكَ وَنُورُ الْعَقْلِ أَوْرَثَكَ السِّجْنَا

وَهِمْتَ بِأَنْوَارٍ فَهِمْنَا أُصُولَهَا ... وَمَنْبَعَهَا مِنْ أَيْنَ كَانَ فَمَا هِمْنَا

وَقَدْ تَحْجُبُ الأنْوَارُ لِلْعَبْدِ مِثْلَ مَا ... تُبْعِدُ مِنْ أَظْلَامِ نَفْسٍ حَوَتْ ضِغْنَا

والله تَعالى أَعْلَم.

وقَوْلُهُ: وتلُوحُ لَكَ الأسْرَار، معطوفة على تزول. أي وبسَب صَقْلِ مرْآةِ قَلْبِكَ، تزول عَنْك الأغْيَار. وتلوح لَكَ الأسرار؛ وهي أَسْرار الذَّاتِ. مُرْتدية بِأنوار الصفاتِ. أَوْ تقول تلوح لك أَسْرَار الملكوت. فائضة مِنْ بَحَارِ الجَبَرُوتِ، جَارية بالقُدْرةِ. مُرْتدية بحجابِ الحِكْمَةِ؛ التي مَدَارها على عَالم المُلْكِ. فَالمُلكُ مَا ظَهَرَ مِنَ التجلياتِ. والملكوتُ ما بطن مِنْ أَسْرَار الذَّاتِ. والْجَبَرُوت. مَا سَبَقَ قَبْلَ التجليات. فَإِذا ضُمَّت الفروع إلى الأصُول، صار الجميع جبروتاً وَلاَهُوتاً؛ وهذه الأَسْرَار مجموعَة فيكَ أَيُّهَا الإِنْسَانُ. فَظَاهِرُكَ مُلْكٌ. وَبَاطنكَ ملكوتٌ. فَإِذَا تَلَطَّفَتْ عَوَالِمُكَ، وفَنيت دائرة حسِّكَ، صِرْتَ جَبَرُوتاً. فتكُون تِلْكَ الأسْرَار تَسْرِي مِنْكَ إِلَيْكَ. وهَذَا مَعْنَى قولِهِ: من عُيُونِك تَسْرِي. أَيْ تَسْرِي إِلَيْكَ مِنْ عَيْنِي وُجُودِكَ والجمع للتعظيم. وهَذَا كقوله في بَعْضِ أَشْعَارِهِ: مِنِّي عَلَيَّ دَارَتْ كُؤوسِي. وكقولِهِ أَيْضاً:

يَا قَاصِداً عَيْنَ الخَبَرْ ... غِطَاهُ أَيْنَكْ

الخَبَر مِنْك والخبر ... والسُّرّ عِنْدَكْ

ارْجِع لِذَاتِكَ وَاعْتَبِرْ ... مَاثَمَ غَيْرُكْ

وكقَوْل صاحب العَيْنِية:

نَفْسُكَ تَحْوِي بالحقيقة كُلَّها
أَشَرْتُ بِجِدِّ القَوْلِ مَا أَنا خَادِعُ

وقوله: والتفت إن ظهر في سما قلبك... الخ أي التفت إلى الوجودِ تجده ظاهراً فِي سَمَا قلبك الصَّافِي كَالدُّرِّ؛ لأنَّ القَلْبَ إِذَا صَفَا، اتَّسَعَتْ دَائِرَة شُهُودِهِ، فانطبَع فيه الوجود بِأَسْرِهِ مِنْ عَرْشِهِ إِلَى فرشه. وصَار فيك كَنُقطة مِنْ بَحْرٍ ولذلكَ قَالَ بَعْضُهُمْ:

لَوْ كَانَ الْعَرْشُ فِي زَاوِيَة مِنْ زوايَا قَلْبِ العَارف. ما أَحَسَّ بِهِ. وقال آخرَ: العرش والكرسي مُنْدَقَّانِ فِي ترسي. وقال صاحب المباحث:

أَلَيْسَ فِيكَ الْعَرْش والكُرْسِي. . . والْعَالَمُ الْعُلْوِيّ والسُّفْلِيُّ. . . مَا الْكَوْنُ إلاَّ رَجُلٌ كَبِيرٌ. . . وأَنْتَ كَوْنٌ مِثْلُهُ صَغِيرُ. قلْتُ؛ كَوْن الكَوْنِ رجلاً كَبِيراً والإنْسَان كَوْناً صغيراً. مَحَلُّه مَا لَمْ يَصِرْ عَارِفاً بِاللّهِ. وَأَمَّا إذَا كَانَ عَارِفاً؛ فَهُوَ رَجُل كَبِيرٌ، والكوْن رجُل صَغير لاتّسَاع دَائرة شهودِهِ. فتنْشرح فِكْرتهُ. حتَّى تَسْتَوْلِي على الوجودِ بأَسْرِهِ. ومِمَّا يُنْسَبُ لأبي عبَّاسِ المِرْسي رضي الله عَنْهُ:

يَا تَائِهاً فِي مَهْمَهٍ عَنْ سِرِّهِ ... انْظُرْ تجِدْ فِيكَ الوجود بِأَسْرِهِ

أَنْتَ الكَمَالُ طَرِيقَةً وحقِيقَةً ... يَا جَامِعاً سِرَّ الإلَهِ بِأَسْرِهِ

وقال النَّاظم أَيْضاً فِي بَعْضِ أَشْعَارِه

وأَنْتَ مِرآ لِلنَّظَرْ ... قُطْبُ الزَّمَانِي. . .

وَفِيكَ يطْوى مَا انْتَشَرْ ... مِنَ الأَوَانِي

وَقَال أَيْضاً فِي بَعْضِ أَزْجَالِهِ: إِذَا رَأَيْتَ الوجودْ قَدْ لاَحَ فِي ذَاتِكْ كَذَا وَلاَزِم الْجُحُودْ ذَاكَ صِفَاتكْ وَاضْرِبْ بتُرْسِكَ الْعُقُودْ. وأَلْقِ عَصَاتكْ. وَأَشار إلى هَذَا المَعْنَى بقَوْلِهِ:

(ص): الْفُلْك فيكْ يَدُورْ وَيُضِيءْ وَيَلْمَعْ. . . والشُّمُوسْ وَالْبُدُور. . . فِيكَ تَغِيبْ وَتَطْلَعْ. . . فَاقْرَأْ مَعْنَى السُّطُورْ. . . الَّتِي فِيك اجْمَع. . . لاَ تُغَادِرْ سِطَرْ من سطوركْ وَادْرِبي. . . اسْرهُ مَعْنَى الْقَمَرْ. . . الْذِي فِيكَ يَسْرِي.

(ش) قُلتُ: الفُلْك شيْء مستدير بِكُرة الأرض عِنْدَ أَهْل التَّنْجيم؛ وهو عِنْدَهم متعدد إلى تَسْعَة أَفْلاَكٍ. وَهَلْ هِيَ السماوات أَوْ غَيْرها قوْلاَنِ عِنْدَهُمْ. فيحتمل أَن يُريد بِهِ الحسِّي؛ لأَنَّ العَارِفَ اتّسعَ عليه الفضاء؛ فلا يَحْصرهُ الكَوْن؛ لأن رُوحَانيتَهُ اسْتَوْلَتْ على الوُجُودِ بِأَسْرِهِ. مِنْ عَرْشِهِ إلى فرْشه. فالأَفْلاَكْ تَدُور فِي جَوْفِهِ، بِشَمْسِها وقَمَرِهَا ونجومِهَا؛ فهِي تَغِيبُ وَتَطْلَعُ في وسَطِ رُوحانِيتِهِ. وتُضِيءُ وَتَلْمَعُ فِي عَيْن فِكْرَتِهِ. هَذَا بِاعْتِبَار الرُّوحَانية. وَأَمَّا باعْتِبَارِ البَشَرية؛ فهي مَحْصُورة بالأَكْوَانِ دَائِرة عَلَيْهَا. قال في الحِكَم: وَسِعَكَ الكَوْن مِنْ حَيْثُ جُثْمَانيتُكَ، وَلَمْ يَسَعْكَ مِنْ حَيْثُ ثُبُوتُ رُوحَانِيتِكَ. وَلاَ يَفْهَمُ هَذَا إلاَّ مِنْ غَلَبَتْ رُوحَانيته عَلَى بشريته. وفي الحِكَم أَيْضاً: الكَائِنُ فِي الكَوْنِ؛ وَلَمْ يفْتَح لَهُ مَيَادِين الغُيُوب، مَسْجُون بِمُحِيطاتِهِ. مَحْصُور فِي هَيْكَل ذَاتِهِ هـ. فيكُون حينئذٍ مِنْ أَهْلِ الدَّلِيل والبُرْهَان، يسْتدل بوجودِهِ على وجودِ خَالِقِهِ. قال تعالى: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا

تُبْصِرُونَ﴾. وإلَى هَذَا القِسْمِ أشَارَ بِقَوْلِهِ: فاقرأ معْنى السّطور التي فيك أَجْمع. وَهُوَ ما سَطَّرَتْهُ القُدْرةُ فِي ظَاهِرِ البَشَرية، مِن تَسْوِيَةِ الأَعْضَاءِ، وحُسْن التقويم. فَقَدِ انْطَوَى فِي هذه البشرية الحِسّية ما وُجد في الوجود الحِسّي، مِن العَرْش إلى الفرش. والرَّأس كَالعَرْشِ. والصَّدْرُ كالكُرْسِي والأمْعَاء كالأَفْلاَكِ. والعظام كالجِبَالِ. واللَّحم كَالتُّرَابِ. والشَّعَر كَالشَجَر. والقمل كَالدَّوَابِّ. والعروق التي تجري فيها الدَّم، كالعيُون والأنهار. فَسُبْحَان الوَاحد القهَّار. فَتَحَصَّلَ من هَذَا أَنَّ الرّوحَ إِذا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْها، وَرَجَعَتْ إلى أَصْلِهَا، اسْتَوْلَتْ على الوجودِ بِأَسْرِهِ. فتكُون الأفلاَكُ تدُور في بَاطِنِهَا. وإليه أَشَار بِقَوْلِهِ:

الفلك فيكَ يَدُور إلى آخِرِ البَيْت. وَإِنْ لَمْ يُفْتَحْ عَلَيْهَا، وَبَقِيتْ مَحْصُورة في هَيْكَلِ ذَاتِهَا اسْتَدَلَّتْ بِحُسْنِ صُورَتِهَا على وُجُودِ خَالِقِهَا. كما يستدلُّ القَارِئ بِالرّسُومِ على المَعَانِي والفُهُوم. وإليه أَشار بقَوْلِهِ: فَاقْرَأْ السُّطُورَ، التي فيك أَجْمع لا تغادر. . . أي لاَ تترك سطراً واحداً من سُطُورِكَ الَّتِي سَطَّرَتْهَا فِيكَ الْقُدْرة الأزلية. والحِكْمة الباقية. وَاذرِ حينَئِذٍ مَعْنَى قَمَرِ التَّوْحِيدِ؛ الَّذِي نُورُهُ يَسْرِي فِي قَلْبِكَ. فَتَهْتَدِي بِهِ إِلى مَعْرفَة رَبِّكَ. فَإذا مَنَّ اللَّهُ عَلَيْكَ بِصُحْبَةِ عَارِفٍ. أَخْرَجَكَ مِنْ سجْن نفسكَ إلى فَضَاءِ شُهُودِ رَبِّكَ. فتكون مِنْ أَهْلِ القسم الأَوَّلِ؛ الَّذِين تَدُور الأَفْلاَكَ فِي وَسَطِ رُوحَانيتهم، وتطلع الشَّمْس والقمر والنجوم، وتغيب في جَوْفِ فِكْرَتِهِمْ. فَبَدَأَ النَّاظِمُ رضي اللَّهُ عَنْهُ بِالقسم الْعَالِي. ثم نَزَل إلى القِسْمْ الأَسْفَلِ، مِن بَابِ التدلِّي. كقَوْلِهِ ﷺ في تفسير الإحْسَانِ: «أَنْ تَعْبُد اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ. فَإِن لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ». فَإِن لَمْ تَكُنْ مِمَّنْ يَعْبُد الله كأَنَّهُ يَرَى. فَكُن مِمَّن يَعْبُدُ كَأَنَّ اللَّهُ يَرَاهُ، على أَحَدِ التفاسير. وعند أَهْلِ الإشارة فَإِنْ لَمْ تَكُنْ، فَحِينئذٍ تَرَاهُ. واللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ. ويحْتَمل أَن يُريد بالفلك فلك الحقيقة؛ وهي الأنْوَار المحيطات بالأغْيَار الماحية للآثار. قال في الحِكَمِ: محقَتَ الآثَارَ بِالآثَارِ. ومَحَوْت الآثَارَ بمحيطات أفلاكَ الأنوار. هـ. فالآثار التي محقت بالآثار؛ هي الأكْوَان التي احتوى عليها العَرْش. فإنها بالنّسبة إليه، كحلقة في فلاة. فقد محقتْ في جانبِ العَرْش واضْمَحَلَّتْ. وللآثار التي محيت بمحيطات أفلاك الأنوار؛ هي العَرْش وَمَا احتوى عليْه؛ فإنه لاَ وجود لَهُ بِالنِّسبة إلى أفْلاكِ الأنوار الأزلية المحيطة به. فقد محقته وأفنت وُجُوده. ولذلِكَ قيل: حقيقة الفَنَا عنْدَ الصُّوفية هو مَحْو وَاضْمحلاَل وَذَهاب عنْدَكَ وَزَوَالُ هـ. أَيْ يَفْنَى مَا لَمْ يَكُنْ، وَيَبْقَى مَا لَمْ يَزَلْ. والْمُرَاد بالشُّمُوس حينئذٍ شموس المَعَارِفِ. وبِالْبُدور بُدُور التوحيد الذَّاتِي والصفاتي والفِعْلِي. فَإِذَا غَابَتْ

شموس المعَارف، أَغنِي الأذوَاق. أَشرَقَتْ عليهم بُدُور التوحيد، ونجوم الْعِلْم. فَإِذَا أَرَدتَ أَنْ تَترَقَّى إلَى هَذَا المَقام. فاقرأ مَعْنَى السُّطُور الَّتي سطرتها القدرة فِي ظَاهِرِ بشريتكَ. حتى تتعشق إلى صانعك، فَإِذَا رأى تعطُّشَكَ رَزَقَكَ مَنْ يَأْخُذُ بِيَدِكَ إلى أَنْ يُوَصِّلكَ إلى شُهُودِهِ. فتكون مِن هَذَا الْطَرِيق الأعْلَى؛ الَّذِي تَدُور الأفلاكُ فِي وسَطِ قلوبهم، وتشرق شموس المعارف على روحانيتهم، فتكون من المقرَّبِينَ مَعَ النَّبيين والصِّدّيقين. وحَسُن أُولَئِكَ رفيقاً. والحمد لله رب الْعَالمينَ. جَعَلنَا اللَّهُ مِنْهُمْ وحَشرَنَا معهم آمِينَ بِمِنِّهِ وَكَرَمِهِ، وبِسَيّدنا محمد نبيه. ثم قال رضي اللَّهُ عَنْهُ:

بَحْرُ فِكْرِي عَمِيقْ... ريح مسْك يغبق... مَنْ دَخَلُوا حقيقْ... لاَ شَ يَخَافْ أَنْ يَغْرَقْ... يَدْرِي هَذَا الطَّرِيقْ... مَنْ كَانَ عَبْد الْحَق.

يقول رضي اللَّهُ عَنْهُ: بَحْرُ فِكْرِي عَمِيق. أي لاَ قَعْرَ لَهُ وَلاَ حَدَّ ينتهي إِلَيْهِ؛ لأَنَّ الْفِكْرَةَ إِذَا تَسَرَّحَتْ تبعَتِ المَعَانِي. ومَعَانِي الرُّبُوبية لاَ نِهَايَة لأَوَّليتهَا وَلاَ لآخِرِيَّتِهَا. هُوَ الأَوَّلُ والآخِرُ والظَّاهِر والباطِنُ. ولِهَذَا المعْنَى أشَار ابن الفَارِضِ فِي خَمْرِيته بِقَوْلِهِ:

فَلاَ قَبْلَهَا قَبْلٌ وَلاَ بَعْدها بَعْدٌ   وَقَبْلِيَّة الأبْعَادِ هِيَ لَهَا خَتْمُ

فَإِذَا سَبَحَتِ الفِكرة فِي بَحْر عَظَمه الأزَلِيةِ وَجَدَتْهُ لاَ سَاحِلَ لَهُ. وَإِذَا سَبَحْتَ فِي بَحْرِ عَظَمَة الأحَدِيَة. وجدته لاَ سَاحِلَ لَهُ. وكَذَلِكَ بَحْرُ الْفَوْقِيَة والتَّحتِية. لاَ حَدَّ لَهُ وَلاَ نِهَايَة، لاَ تحيط بِهِ الأفكَار. وَلاَ تُدْركهُ الأبْصَار. وَلا تَكيِّفُهُ الْعقُول. فَالعَارِفُونَ يعومُونَ بِسُفُنِ أَفْكَارِهِمْ فِي بَحْر العَظمَة الأزَلية والأبَدِية. فَإِذَا خَافوا مِنَ الغَرَقِ رَجَعُوا إلى عَشِّ الْعُبُودية. فَأَقَرُّوا بِالْعَجْز وَتَأَدَّبُوا بَيْن يَدي الرُّبُوبية. رُوي أَنَّ مَلَكاً اسْتَأْذَنَ رَبَّهُ أَنْ يطيرَ إلى سَمَاءِ العَظمَةِ العُلْوِية. فَطَارَ ثلاثين أَلف سَنَة. فَقَالَ يَا ربِّ أَيْنَ أَنْتَ؟ فقال لهُ: أَنَا مَعَكَ. ثم طَارَ كَذَلكَ، فقال يَا رَبِّ. أَيْنَ أَنْتَ؟ فقال لَهُ: أَنَا مَعَكَ. فقال: سُبْحَانَكَ. مَا أَعْظَمَ شَأْنَكَ! فَطَلَبَ مِنَ الحقِّ تعالى أَنْ يَرُدَّهُ إلى مَوْضِعِهِ فَرَجَعَ إلى عُبُودِيتهِ. وَكَذَلِكَ فكْرةُ الْعَارِفِينَ، تَعُومُ في بَحْر العَظمَة الأزلية والأبَدية. والفَوْقية والتَّحْتية. فَلاَ تَجِدُ له ساحلاً يَنْتَهِي إِلَيْهِ. فترجع إلى عشّ العبودية والعجز. فتقول حينئذٍ العجزُ عَنِ الإدْرَاكِ إِدْرَاكٌ.

وقوله: ريح مسك يغبق: يَعْنِي أَنَّ مَن دَخَلَ بَحْر الفِكْرَة، وعَامَ فيه، هَبَّ عليه نَسِيم الوِصَالِ. وريحان الجَمَالِ. حتى يَلِجَ به جَنَان الكَمَال، فَيَسْكُنُ فِي رَوْح وَرَيْحَانٍ وَجَنَّةِ نَعِيم. وقوله: مَن دخلُوا حقيق... الخ أَيْ مَن دَخَلَ هَذَا البحر مَعَ رئيس عارفٍ

كالشيخ النَّاظم وأَمْثَالِهِ، لاَ يَخَاف أَنْ يَغْرَق؛ لأنَّ الرئيس عارف بِأَهْوَال البَحْرِ، كلما هَاجَتْ عليهم عواصف الريح آوى بهم إلى سفينة السنة المحمدية: وهي مضمونَة مِنَ الغرقِ، كَسَفِينَة نوح عليه السَّلاَمُ. وقوله: لاَش يُخَاف. يحتملِ أَنْ تكون الشين زائد. أي حقيق بِأَن يُقَال في حقّه: لأَيّ شَيْءٍ يَخَاف أَن يَغْرق؛ وهو مَأْمُونٌ إنْ آوَى إِلَى سَفِينَة النجاة. وقوله: يَدْرِي هَذَا الطريق... الخ يَعْنِي أَنَّ طريق اسْتعمال الفِكْرَة ودُخول بحرهَا يعرفها من كَانَ عبداً لله حقيقة حُرّاً مِمَّا سِوَاهُ. وأَمَّا إِنْ كَانَ عَبْداً لنَفْسِهِ وَهَوَاهُ. فَهُوَ ضَالٌّ في عِلْمِهِ. جَاهِل بِحكْمِهِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾... الآية. فَإِن تَبَحرَّ أَو دَخَلَ البَحْرَ وَحْدَهُ، هَاجَتْ عليه الرِّيَاحُ. وَتَلاَطمتْ عَلَيْهِمُ الأَمْوَاجُ. فَكَانَ مِنَ الْمُغرقين في بَحْرِ الزَّنْدَقَةِ والكُفرِ. وَفِي قوله: عبْد الحق: إِشَارة لطيفة إلى تَعْظِيم شيخه: عبْد الحق بن سبْعين أَيْ يَدْرِي هَذَا الطريق، مَنْ كَانَ مِثْلَ عَبْدِ الحقِّ. فِي مَعْرفته وتحقيقه. وإِن كَانَت القصيدة لشيخِهِ، فيكون أَشَارَ إلى أَنَّ هَذَا الطريق، لاَ يَدْرِيهَا إِلاَّ مَنْ عَلاَ قَدَمُهُ، مِنَ التجريد والتَخْريب. واللَّهُ تَعَالى أَعْلَمُ. ثم قال رضي الله عَنْهُ: (ص) إِنَّ ذاكَ البَحْر... لاَشْ يُقَاسْ بِبَحْري... بَحْرُ فِكْرِي دُرَرْ... والزَّهْرُ فِي برِّي.

(ش) قلْتُ: الإشارة واللَّهُ أَعْلَمْ إلى البَحْر الحسِّي. وإِن كَان لَمْ يتقدّم له ذِكْر بالخُصُوصِ. أَيَ إِنَّ ذَاكَ البَحْر الحسّي، لأيّ شيءٍ يُقَاسُ بِبَحْرِي أَوْ لا يُقَاس بِبَحْرِي؛ لأَنَّ البَحْر الحِسّيّ مَحْدُودٌ مَحْصُورٌ. وَبَحْرِي عَمِيق لاَ نِهَايَةَ لَهُ بَحْرِي كُلُّه دُرَرُ الحِكَم، ويَوَاقِيت العُلُوم بِخِلاَفِ البَحْرِ الحِسّي. فَدُرَره حسية حجرية. وهي مَعَ ذَلِكَ قلِيلة نَادِرة. وَبَحْرِي أَيْضاً داخله دُرَرُ. وظَاهِره أَزهارٌ أَعْنِي باطنه تحقيق. وظَاهِره تشريع. بَاطنُهُ مُنَوَّرٌ بنورِ الحقيقة الأزلية. وَظَاهِره مُبَهَّجٌ بِزَهر جَمَال الشريعة المحمدية. واللَّهُ تعالى أَعْلَمْ. ثم قال رضي اللَّهُ عَنْهُ:

(ص) فَالْتَفْتُ الخِطَاب... وَسَمِعْتُ مِنِّي... كُلِّي عَنْ كُلِّ غَابْ... وَأَنَا عَنِّي مَفْنِي... وَارْتَفَعْ لِي الْحِجَابْ... وَشَهِدتُ أَنِّي...

ـ (ش) يَقُولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَمَّا دَخَلَتْ فِكْرَتِي مَيْدَانَ التَّوْحِيد، وخَاضَتْ فِي بِحَارِ التَّفريدِ. حَصَلَ لِي الجمع الكُلّي. حينَ جَمَعَ اللَّهُ شَمْلِي، فَاجْتَمَعَتِ الْفُرُوع بالأصُولِ. وَصِرْت بالوصُول نصول. فاتَّحدَ عندي الوجود وصَقَلَ لِي غَايَة الشهود. فَالْتَفْتُ إلى الخِطَاب الصَّادِر من الأحْبَاب. فَإِذَا هُوَ مِنِّي لِي. حين صَارَ بَعْضِي كُلِّي. فَصِرْتُ بِاللَّهِ أَنْطقُ. ومِنَ الله أَسْمَعُ. قَدْ غَابَ كُلِّي عَنْ كُلِّ شَيْءٍ، في شُهُودِ

الَّذِي لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيء. فَأَنَا عَنْ شهود نَفْسِي مَفْنِي. حينَ غِبْتُ عَنْ وجُودِي الوَهمِي. فَارْتَفعَ عَنِّي الحجاب. وَدَخَلْتُ مَعَ الأحْبَابِ. وانقَشَعَ عَنْ عَيْن قَلْبِي الغَيْن. وشهدتُ أَنّي عَيْنُ العَيْنِ. فَإِنْ لَمْ تَذُقْ مَا ذَاقَتِ النَّاسُ فِي الْهَوَى. فَلِلَّهِ يَا خَالِي الْحَشَا لاَ تُعَنِّفْنَا.. إِنْ لَمْ تَرَ الهِلاَلَ فَسَلِّمْ.. لأُنَاسٍ رَأوهُ بِالأبْصَارِ.. ثم قال رَضِي اللَّهُ عَنْهُ:

مَا بَقَا لِي أَثَرْ.. غِبْتُ عَنْ أَثَرِي.. لَمْ أَجِدْ مَنْ حَضَرْ.. فِي الْحَقِيقَة غَيْرِي.

أَخْبَرَ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ غابَ عَن حِسِّهِ، وشهود رسْمِهِ. فَانطَوى وُجُوده فِي وجودِ مَحْبُوبِهِ. وشُهُوده فِي شهود مَعْبُودِهِ؛ فَهُوَ غَرِيقُ الأنوَار. مَطْمُوس الآثَار قَدِ اتَّحَدَ عِنْدَه الوجود، فَصَارَ وجوداً وَاحِداً. فَلَمْ يَجِدْ فِي الحقيقة غَيْر وجودِهِ؛ لأَنَّ وجوده صَارَ مَوْصُولاً بِالحَضْرة القدسية؛ والأنوار الأزلية. فَلَمْ يشهد في الحقيقة سوَاهُ. وَلَمْ يَرَ فِي الكَوْنَيْن إلاَّ إِيَّاهُ. فَإِن قلتَ: الْغَيْبَة عَنِ الأثَرِ بِالكُلِّية، نَقصٌ باعْتبار ما بَعْدَهُ من شهود الأثر والمؤثر. كما قال في الحِكَم وأَكْمَلَ مِنْهُ رجُلٌ شَرِبَ. فَازْداد صَحْواً، وغابَ، فازْداد حُضوراً. فَلاَ فَرْقُهُ يَحْجُبُهُ عَن جَمْعِهِ. وَلاَ جَمْعُه يحجُبُهُ عَنْ فَرْقِهِ. وَلاَ فَنَاؤه يَصُدّهُ عَنْ بَقَائِهِ. وَلاَ بقَاؤه يَصْرِفُهُ عَنْ فَنَائِهِ. يُعْطِي كل ذي حَقٍّ حقَّهُ، وَيُوفِي كُلَّ ذِي قِسْطٍ قسْطهُ. قُلْتُ: لاَ طَرِيقَ لشهودِ الأثرِ والمُؤثر، إلاَّ الْغَيْبَة أَوّلاً عَنِ الأثَرِ؛ فَهِيَ قَنطَرة تؤدّي إِلَيْهَا. وكُلُّ مَنْ دَخَلَ مَقَام الفَنَاءِ لاَ بُدَّ أَنْ يَخْرُجَ إلى مَقَام البَقَاءِ. إِنْ كَانَ لَهُ شَيْخ يُرَبِّيهِ، كَالنَّاظِم وأَمْثَالِهِ. فَلَعَلَّهُ فِي هَذَا الْوَقْتِ، كَانَ غَرِيقَ الأنوَارِ ثُمَّ تَكَمَّلَ بَعْدَ ذَلِكَ. فَالْفَنَا ضَامِنٌ للبَقَاءِ لاَ مَحَالة. بِخِلاَفِ مَنْ لَمْ يَسْلُكْ مَقَامَ الفَنَاءِ، لاَ يطمَعُ فِي مَقَام البَقَاءِ أَبَداً. وقَدْ رَأَيْتُ كثيراً مِمَّنْ غلط فِي نَفْسِهِ، فَادَّعَى المقَام الثانِي؛ وهو البَقَاءُ، قَبْلَ سُلُوكِهِ مَقَامَ الْفَنَاء. بَلْ هُوَ ظَاهِرِي مَحْض، لَم يصحب الرِّجَال، وَلاَ سَلَكَ عَلَى أَيْدِي الكُمَّالِ وَهُوَ يَتَرَامَى عَلَى هَذَا المقَام الرفيع. فَإِنَّ لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ.

فصل: وَقَدْ تَكَلَّمْتُ مَعَ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ المتجمّدِينَ عَلَى ظَاهِرِ الشريعة فَقَالَ لِي: نَحْنُ هُمْ أَهْل مقام الإحْسَان إذ هُوَ فيهم الكتاب والسّنَّة. فَقُلْتُ لَهُ: واللَّهُ مَا هُوَ الَّذِي تَفْهَم. ثم قُمْت عَنْهُ وَتَرَكْتُهُ فالله يعصمنا منَ الغَلَطِ والزَّلِل ويُوفقنَا لصَالِح القَوْل والْعَمَلِ. ثم قال رضي الله عَنْهُ:

(ص) سَادَتِي وَافهَمُوا.. الْمُرَاد مِنْ قَوْلِي.. هَذَا لاَشْ نَكْتِمُوا.. عَنْ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِي.. سِرّي لاَ يَفْهَمُوهْ.. إلاَّ مَنْ هُوَ مِثْلِي..

(ش) أَمَرَ رضي اللَّهُ عَنهُ مَنْ سَمِعَهُ، أَنْ يَفْهَم الْمُرَادَ مِنْ تِلْكَ الْعِبَارَاتِ، ومَا وَرَاءَ تِلْكَ الإِشَارَاتِ مِن دَقَائِقِ الأَسْرَارِ. وحَقَائِقِ الأنوار؛ فَإِنَّ عِلْمَنَا كُلَّهُ إِشَارَة. فَإِذا صَار عِبَارة خَفي ثُمَّ عَاتَبَ مَنْ فَهِمَ تِلْكَ الأَسْرَارَ ثُمَّ كَتَمَهَا عَنْ أَحَدٍ مِنْ أَهْلَهَا. لقولِهِ عليه السلامُ: «لاَ تُؤتُوا الحِكْمَةَ غَيْرَ أَهْلِهَا، فَتَظْلِمُوهُم وَلاَ تَمْنَعُوهَا أَهْلَهَا فَتَظْلِمُوهُمْ». وأَهل هَذَا السِّرّ: هُوَ مَنْ أَعْطَى كُلِّيَّتَهُ لِلَّهِ. أَعْطى نَفْسَهُ وَفِلْسَهُ. وَزَهِدَ فِي جِنْسِهِ. وَتَجرَّد ظاهِراً وَبَاطناً فَإِذَا فَعَلَ حَرُمَ كَتْم السِّرِّ عَنْهُ. كَما حَرُم التصريح بِهِ لِغَيْرِ أَهْلِهِ، لقَوْلِ سِيِّدِنا عَلِيٍّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ: «خَاطِبُوا النَّاس بِقَدْرِ مَا يَفْهمُونَ أَتريدون أَن يكذَّب اللَّهُ وَرسوله». وقال الشاعر: وَمَن مَنَحَ الْجُهَّالَ علماً أَضَاعَهُ وَمَنْ مَنَعَ الْمُسْتَوْجِبِينَ فَقَدْ ظَلَمْ.. وقد كان الجنيد رضي اللَّهُ عَنْهُ يُلْقِي الْحقَائق على رؤوس الأشهاد. فقيل له في ذَلِك. فقال: علمُنَا محفوظٌ مِن أَنْ يأخذه غيْر أَهْله. أَوْ كَلاَمٌ هذا مَعْنَاهُ. وإليه أَشار النَّاظم بقولِهِ: سِرِّي لاَ يَفْهَمُوهُ. إِلاَّ مَنْ هُوَ مِثْلِي أيْ مِمَّن دَخَلَ الْفَنَاءَ وَعَرَفَ مَقَامَ الإِحْسَانِ وإِلاَّ لَمْ يَذُقْ مِنْهُ شَيْئاً. وبِاللَّهِ التوفيق. ثم اعْتَذَرَ عَنْ إِظْهَارِ تِلْكَ الحقَائِق للنَّاسِ وفيهم الخاصّ والعامّ. بكَوْن السكر غالباً عليه فقال:

(ص) سِلْكَ عِقْدِي انْتَثرْ.. وَبَدَا لِي دُرِي.. نظِّمُوه يَا جِوَارْ.. إِنَّنِي فِي سُكْرِي.

(ش) قلْت: سِلك العِقد بكَسْرِ الْعَيْن: هو الخيط الَّذِي انتظمت فيه الجواهِر. وانتثاره قطعه. فَإِذا قطع انتثرت الجواهر وسقطت. يقول رضي الله عَنْهُ: كَانَتْ هذه الأَسْرَار التي نطقت بها في هَذَا النَّظم: جواهر ويواقيت في سِرِّي محفوظة، مَنْظُومة في سلكَها. فَلمَّا غلبَ عَلَيَّ السُّكْرِ انقطع عِقْدهَا وانْتَثرَ. فَنَطَقْتُ بِهَا والسّكُر غَالبٌ عَلَيَّ. فانظموها أيها السَّامِعُون وصُونُوهَا عَن غَيْرِ أَهْلها. وقيدوهَا، واحفظُوها كي لا تضيع. فإِنّي غَائب فِي سُكْرِي والجِوَارِ بِكَسْرِ الجيم، جمع جار أَوْ جارية، أَطْلَقه على أَصْحَابِهِ المجَاوِرِينَ لَهُ. وعبَّر عَنهم بالجِوَارِ مجازاً وَتَلْمِيحاً: لأنَّ الشعر يحسن فيه اسْتعمال الجِوَاري والمغنيات وغَيْر ذَلِكَ مِمَّن هو مَقْرُون بالخمرِ الحسِّي. واللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمْ. وصَلَّى اللَّهُ على سيدنَا ومَوْلاَنَا محمَّدٍ وآلِهِ وصحبِهِ وسَلَّم.

هَذَا آخر التقييد المُبَارَك بِحَوْل الله وقوته. وكانَ الفراغُ مِن تبييضِهِ زَوَال يوم الخميس سابع صَفَر عام أَربعة عشَرَ ومائتين وأَلف بمنزل الشريبي مِنْ بَسَاتِين تطوان. عَمَّرَها الله بالإِسلام والإِيمان. وبالصَّالحينَ أَهْل الشهود والعيان آمين والحمدُ لِلَّهِ رب العالمين هـ.

«المقتطفة الثانية: في الاسم المفرد».

وقال رضي اللَّهُ عَنهُ: في قصيدة يذكر فيها الاسم المفرد، وَمَا فيه مِنَ الأسْرَار، فَقَالَ:

(ص) أَلِفٌ قَبْلَ لاَمَيْنِ.. وهَاءٌ قرّة العَيْنِ..

(ش) أي هُوَ قرّة العَيْنِ وقرّة العَيْن: بُرُودتها بِدمْع الفَرَح؛ لأَنَّهُ بَارد. والقُرُّ في اللُّغة: هو البَرْد. وَهُوَ بِضَمِّ القافِ على المَشْهُورِ. وَدَمْع الفَرَحِ بَارِدٌ، كَمَا هو مجربٌ أي هذا الاسم، هو فَرَح قَلْبِي وسروره، وبهجته وحبوره والاسم هُنَا هو عيْن المُسَمَّى. إِذِ الفَرَحُ إنما هو بالذَّاتِ. ثم قال رضِي اللَّهُ عَنْهُ.

(ص) أَلِف أَوّل الاسْمِ.. وَلاَ مانِ بِلاَ جِسْمِ.. وَهَاءٌ آيَةُ الرَّسْمِ... تهَجَّا سِرّ حَرْفَيْنِ.. تَجِدْ اسماً بِلاَ أَيْنَ..

قلت: هَذَا تَقرير لما قَبْلهُ وتوضيحٌ لَهُ. وقوله: وَلاَ مان: الصواب أَنَّهُ مَرْفُوعٌ، معطوف على الألف. وقوله: بلا جِسْم. [أي] مُسَمَّى ذَلِكَ الاسم هو بلا جِسْم بَلْ مُنَزَّه عَنِ الحَصْرِ فِي الجِسْمية والأينية. وقوله: آية الرسم. أي عَلاَمَة تمامِهِ فِي الرسم والخطّ. لا في المعْنَى. إِذْ لا نِهَايَة لَهُ. قوله: تهجا سر حرفيْن هما الهاء والواو. من هو كأنه تكلم على المفرد ولفظه هُوَ لأن طريق المشارقة. يَذكُرون اسْمَ الجلالة مفرداً ثم يذكرونه هُوَ هُوَ. حتى يستغرقوا في الهوية. وهي الحقيقة وقوله تجد اسماً بلا أيْن. أي تجد مسَمَّى ذلك الحرفيْن هوية وحقيقة بِلاَ جِهَة وَلاَ أَيْنِية. لاَ زمانية وَلاَ مَكانِية. كَانَتْ قَبْلَ الزَّمَانِ والمَكَانِ. وقد بقي الأمْرُ على مَا كَانَ. واللَّهُ تَعالى أَعْلَمُ. ثم قال رضي اللَّهُ عَنهُ:

(ص): «حُرُوفٌ كُلّهَا تُتْلَى.. تَرَى الْقَلْبَ بِهَا يُجلَى.. وَيَسْلَى بَعْدَ مَا يَبْلَى... ويندرج بَيْنَ كَفْنَين.. بِرَمْزَيْنِ رَقِيقَيْنِ.

(ش) قلت: المراد بالحروف التي تُتْلَى: حروف اسْم الجَلاَلَةِ. وَذَلِكَ إِذَا ذكرت الحروف كلها، صار مدخولها: الله. وإذا حُذِفَتِ الهمزة واللامَان صار: هُ وَلاَ تحذف الهاء؛ لأنها آية الرَّسْم. وعلامته كَمَا تقدَّم فحرُوف اسْم الجلالة كلّها تُتْلَى مَعَ صحَّة المعْنَى. واللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ. وَقَولهُ: ترى القلْبَ فيها يُجْلَى؛ أَي يُصْقَلُ وتنجلي عنْهُ عظمة الغفلة وصُوَر الأكْوَانِ؛ التي تحول بيْنه وبيْن الشُّهودِ والْعِيَانُ. إذا دَامَ عَلى مَذْكَر مذخول تلكَ الحروف، وهو اللَّهُ: أَوْ هُوَ لمَن استَغرقت فِكْرتهُ في الهَوِية. وفي الحديث: «لِكُلِّ شيءٍ مِصْقَلَةٌ ومِصْقَلَة القُلُوبِ ذِكْر اللَّهِ». وقوْلُهُ: ويسلى بعد ما يَبْلى؛

أي ويتسَلَّى عَنِ الهُمُومِ والأكْدَارِ بِالْغَيْبَةِ عَنْهَا فِي ذِكْرِ الواحِدِ الْقَهّارِ بعد ما يَبْلَى ويختبر بِالفكرة فيهَا، والنصوص في ظلمتها. فَإِذَا ذكَرَ اللَّهُ انْجَلَى عَنْهُ ذَلِكَ تسلى عَنْهَا. وَأَنس بِاللَّهِ وَحْدَهُ. واسْتوحش مِمَّا سِواهُ. وقوله: يندرج بيْن كفنيْن: الضَّمير في ينْدرِجُ يَعُود على الْقَلْبِ. والمُرَاد بالكَفَنَيْنِ: الْبشرية والرّوحانية؛ أَوِ الحِسّ والمعْنَى أو القدرة والحِكمَة؛ لأنّه لَمَّا مَاتَ عَنْ حُظُوظِهِ وَشهواتِهِ. كُفِّن بردائيْنِ رداء نوراني روحاني، ورداء ظلماني جِسْمَانِي؛ وهو مُقِيمٌ بَيْنَهُمَا. يُعْطِي كُلَّ ذِي حقٍّ حَقَّهُ. ويُوفِي كُلّ ذِي قِسْطٍ قسْطه؛ لأنَّ الحقَّ تَعَالَى جَعَلَ فيه عَيْنَيْنِ: إحداهما تَنْظُرُ للبَشَرِية والحِكْمة. والأخرى تنظُرُ لِلرُّوحَانية والْقُدْرة. فَإِذَا نَظَرَتْ إِلى البشرية أعطتها حقها من العبودية. قياماً بِرَسْمِ الحِكْمَة. وإذا نَظَرَتْ إلى الرّوحانية، أعْطتها حَقَّها مِنَ الشهود والمَعْرفةِ. قياماً بحقّ الْقدرة. فَإِذَا أَهْمَل الْقَلْبُ النظر إلى إِحدى الجهتَيْنِ، كَان أعْوَر وَإِذَا أهْمَلهما معاً كَانَ أعْمَى والعياذ بِاللَّهِ. قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾. وقوله: بِرَمْزَيْن رقيقَيْنِ: أي بإشَارَتَيْن رقيقتيْن لطيفتَيْنِ؛ لاَ يَفْهَمها إِلاَّ مَنْ تَلَطَّفَتْ رُوحُهُ. وَرقت بشريته. إذ لاَ يعرف البشرية والرّوحانية، والقدرة والحكمة، والحسّ والمَعْنَى، إلاَّ مَن تَلَطَّفَتْ عَوَالِمُهُ، ورقت بشريتهُ. وفنيَت دائرة حسّه وإلاَّ فَحَسْبه الإيمان بِالْغَيْبِ، والتَّسْلِيم لأَرْبَابِ المعرفَةِ. رضي اللَّهُ عَنْهُمْ. ثم قال رضي اللَّهُ عَنْهُ:

(ص): غَرَامِي فِي الْهَوَى قَدْ بَاحَ. . وَفَجْرِي بَعْدَ لَيْلِي لاَحْ. . وَصِرْتُ لِلْوُجُود مِصْبَاحْ. . وَشَمْسٌ بَيْن قَمَرَيْن. . وَلاَ أَدْرِي أَيْنَ أَيْنِ. . (ش) قلت: الْغَرَامُ: هو العِشْقُ. والهوَى: ما تميل إلَيْه النَّفْسُ، وتنجذب إليه، فِي الحقّ أَوْ فِي البَاطِلِ. فَأَخْبَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ عشقَهُ فِي هَوَى الحبِيب قَدْ بَاحَ. أَيْ ظَهَرَ واشتهر. وفَجْر وصوله للمحْبُوبِ، بَعْدَ لَيْلِ قطيعته عنهُ قد لاَحَ. أيْ طلع وانتشر. وصار مصباح أهْل زمانِهِ. يُسْتَضَاءُ بِهِ فِي ظُلْمَةِ الْجَهْلِ والكُفْرِ ويُهْتدى بِهِ في سلوكِ البَرّ والبَحْرِ. وقَوْلهُ: وشمس بيْن قَمَرَيْنِ: يوجد في النسخ بالرَّفعِ. أي وَأَنَا شَمْسُ بيْن قَمَرَيْنِ. ويصحّ فيه النَّصْب للعطفِ على مصباح لأنه منصوب. ووقف عليه بالسكون، على لغَة ربيعة للوَزْنِ. والمراد بالقَمَرَيْنِ: قمر أهْل الشريعة الظاهِرة، وقمر أهْل الحقيقة الباطنة. أَخبر رضي اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّه صَارَ مصباحاً للفريقَيْنِ، يقتبس من نُورِهِ أَهْل الظَّاهِرِ، وأَهْل الباطن كَما يقتبس القمر نوره من نور الشمس. وقوله: ولاَ أَدْرِي أيْنَ أين. أي لاَ أَدْرِي أيْنَ وُجُودي وأثري لغلبة سُكْري. وهذه حالة شريفة، ومَرْتبة منيفة. ولله درّ ابن الفارض حيْث قال:

فَلاَ عَيْش فِي الدّنيا لِمَن عَاشَ صَاحِياً ... ومَن لَمْ يَمُتْ سكران بِهَا فَاتَهُ الْحَزْمُ
عَلَى نَفْسِهِ فَلْيَبْكِ مَنْ ضَاعَ عُمْرُهُ ... ولَيْسَ لَهُ مِنْهَا نَصِيبٌ وَلاَ سَهْمُ

فالسكْر ضَامِنٌ للصَّحْو والفَنَا ضَامِن للبقاءِ. واللَّهُ تعالى أَعْلَمْ. ويحتمل أن يريد بالقَمَرَيْن: قَمَر توحيد الأفعال وقَمَر توحيد الصفات. أَوْ قَمَر أَهْل الإسلام، وقمر أهْل الإيمان. وباللّهِ التوفيقَ. ثم قال رضي اللَّهُ عَنْهُ:

(ص): فَمَعْنَى حُبِّيَ الأَتقى. . بِأَنْ أَفْنَى فيه عِشْقَا. . وَأَفْنَى فِي الْفَنَا حَقّاً. . بِوُجُودِ دُونَ فَقْدَيْنِ. . حيَاة في فَنَاءَيْنِ. . (ش) قلت: الَّذِي يَظْهَرُ أَنَّ المُرَاد بالحِبُّ هُنَا هُو النَّبِيّ ﷺ. لِقولِهِ عليه السلام: «أَنَا أَتْقَاكُمْ لِلّهِ. وَأَنَا أَعْرَفكم بِهِ» أَوْ كَمَا قَالَ عليه السلام، حسب ما هو في صحيح البخاري وَلاَ بُدَّ من حَذْفِ مضاف قبل المبتدإ. ومتعلق الخَبَر قبل الخبر. والتقدير: فشهود معْنَى حِبّي الأتقى يحصل بأَن أَفْنَى فيه عشقاً، فيكون الشيخ أَخْبَر أولاً عن جَذْبِهِ وفَنَائِهِ. بقوْلِهِ: وَشَمس بيْن قَمَرَيْنِ. وَأَخبر ثانياً عن صَحْوه وبَقَائِهِ. بشهودِ الواسطة، بعد شهود الموسوطِ بِقَوْلِهِ: فَمَعْنَى حُبِّي. . الخ. فيكون كقول الشيخ ابن مشيش رضي اللّهُ عَنْهُ في تصليته المشهورة: واجْعَل الحجاب الأعْظَم حيَاة روحِي. أي وَاجْعَل شهود الحجاب الأعْظم؛ وهو النَّبيّ ﷺ. سبب حياة روحِي. بعد أنْ قال: وَأَغْرِقنِي في عيْن بحر الوحدة. . الخ. وقوله: وَأَفْنَى في الفنا حقاً. هُوَ عَلى حَذْفِ مُضافٍ. أي وَأَفْنَى فِي ذي الفنا حقاً؛ وهو الحق تَعَالَى. لأنه هو الَّذِي يسْتحق أنْ يَفْنَى فيه دون غَيْره. خَافَ أَنْ يقف مَعَ الواسطة، دون شهود الموسوط. فَاخْبَرَ أَنَّهُ فَنَى فِي الذَّاتِ الْعَالية. ثم رَجعَ إلى شهودِ الواسطة. لكن على وَجْه بحيْث لا تَحْجُبه عن الموسوط؛ وهو الحق تعالى فَهُوَ كقول القطب ابن مشيش أَيْضاً. . «بتحقيق الحَقِّ الأول» أي اجْعل شهود الحجاب الأعْظم حياة روحي مع تحقيق شهود الحق الأول؛ وهو اللّهُ تعالى. ثم كَمَّل هَذَا المَعْنَى بقولِهِ: «بوجود دون فقدين». فهُو على حَذْف مُضافٍ. والباء بِمَعْنَى مَعَ. أي مَعَ شهود وجود قديم باق دون فقد في أوّلِهِ، وَلا فقد في آخِرِهِ. بل هو واجب الْوجُودِ لاَ يتصوّر فقده أَوَّلاً وَلاَ آخِراً. «هُوَ الأَوَّلُ والآخِرُ والظَّاهِرُ والْبَاطِنُ». فَإِذَا تَحَقَّقَ وجود هذه الذَّات القديمة الباقية. مَعَ شهود الواسطة المحمدية. فقد حصَلت حياة في فَنَاءيْنِ. فناء في ذَات الحق؛ وهو الموسوط. وفناء في ذاتِ الرسول ﷺ؛ وهو الواسطة؛ وهذه هي الحياة الطيبة. والعيشة الراضية. متَّعَنَا اللّهُ بِهَا على أكمل حال نحن وأَحِبَّاؤنا، ومن تعلق بنا آمين. والحمد لله رب العَالمينَ. ثم قال رضِي اللّهُ عَنْهُ.

(ص) مُنَائِي مَنْ بِهِ هِمْتُ. . وقوت الرُّوحِ إِنْ مِتُّ. . وَحَرْف البَيْن أَنْشَدتُ. . مَتى يَا قُرَّةِ العَيْنِ. . أَرَى وَصْلاً بِلاَ أَيْنِ.

(ش) قلت: المُنَا: هو ما يتمنَّى الإنسَان ويقصده. والبَيْن: هو الفرق وَالبُعْد أَخْبَر رضِي اللَّهُ عَنهُ أَنَّ مُنَاهُ وهَوَاه؛ هو مَنْ هَامَتْ بِهِ رُوحُه. وانْجذبَ إليه سِرُّهُ؛ وهو الحق تعالى. وهو قوت الرُّوح، لمن ماتت نفسه عن شهواتها وحظوظها، فقد سُئل سهل بن عبد الله رضي اللَّهُ عَنه عن القوت فقال: هو الحيّ الَّذِي لاَ يَمُوتُ. فقيل: إِنَّمَا سَأَلْنَاكَ عَنِ القِوَام فقال: القِوَامُ: هو العِلْمُ فقيل: سَأَلْنَاكَ عن الغذاء فقال: الغذاء هو الذِّكْرُ، فقيل: سَأَلناك عن طعم الجسد. فقال: مَا لَكَ وللجَسَدِ دَعْ مَنْ تَولاَّه أَوَّلاً. يتوَلاَّه آخِراً إذا دَخَلَتْ عليه عِلَّة، رَدُّهُ إلى صَانِعِهِ. أَمَا رَأَيْتَ الصَّنعَة إذا عِيبتْ ردّوهَا إلى صَانِعِهَا حتى يُصْلحها هـ. وأَنْشَدُوا:

كَمِّلْ حَقِيقَتَكَ التي لَمْ تَكْمُلْ. . والجِسْمُ دَعْهُ فِي الْحَضِيضِ الأسْفَلْ. . أَتُكَمِّلُ الفَانِي وَتَتْرُكَ بَاقِياً. . هَمَلاً وَأَنْتَ بِأَمْرِهِ لَمْ تَحفُلْ. . فالجِسْمُ للنفس النَّفِيسَةِ ايَةٌ. . مَا لَمْ تَحَصِّلْه فِيهَا لَمْ يَحْصُلْ. . يَفْنَى وَتَبْقَى دَائِماً فِي غبطة أَوْ شَقْوَةٍ وَنَدَامَة لا تَنْجَلْ. . أُعْطِيتَ جِسْمَكَ خَادِماً فَخَدَمْتَهُ. . أَتُمَلِّكُ المَفضول رق الأَفْضَلِ. . شِرْكٌ كُنْتُ أَنْتَ فِي حِبَالِهِ. . مَا دَامَ يُمْكِنُكَ الْخَلاَصُ فَعَجِّلْ. . مَنْ يَسْتَطِيعُ بُلُوغ أَعْلَى مَنْزِل. . مَا لَهُ يَرْضَى بِأَدْنَى منزل هـ.

وقال آخر[1]:

يا خَادِمَ الجِسْمِ كَمْ تَشْقَى بِخِدْمَتِهِ	وتَطْلُبُ الربح فِيمَا فِيهِ خُسْرَانُ
عَلَيْكَ بِالنَّفْسِ فَاسْتَكْمِلْ فَضِيلَتَهَا	فَأَنْتَ بِالنَّفْسِ لاَ بِالجِسْمِ إِنْسَانُ

والمراد بالنَّفْس الرُّوحُ؛ لأَنَّهُمَا شَيْءٌ واحدٌ. وإنما تفترق التسمية، باعْتبار التَّصْفية. فالروحُ هي المُنَعَّمة فِي عَالَم البَرزَخ وَمَا بَعْدَهُ. أَوْ مُعَذَّبَة عَلَى مَا سَبَقَ لَهَا. وللغَزَّالِي رضِي اللَّهُ فِي قصيدة وُجدت تَحت عَمَامته بعد مَوْتِهِ. وقيل لغَيْرِه: قال فيها:

قُلْ لإِخْوَانٍ رَأَونِي مَيْتاً. . فَبَكُونِي وَرَثَوْنِي حَزناً. . أَتظُنُّونَ بِأَنِّي مَيْتُكُمْ. . لَيْسَ ذَلِكَ الْمَيّتُ والله أَنَا. . أَنَا فِي الصّورِ وَهَذَا جَسَدِي. . كَانَ لبْسِي وَقَمِيصِي زَمَناً. . أَنَا كَنْزٌ وطلسم وحجاب. . مِنْ تُرَابٍ قَدْ تَهَيَّأَ لِلْفَنَا. . أَنَا دُرٌّ قَدْ حَوَانِي

(1) أبو الفتح علي بن محمد الباشي/ الجواهر المختارة.

صُدَفٌ . . طِرْتُ عَنْهُ فَتَخَلَّى وَهَنَا . . أَنَا عُصْفُورٌ وَهَذَا قَفصِي . . كَانَ سِجْنِي فَأَلِفْتُ السِّجْنَا . . فَأَشْكُرُ اللَّهَ الَّذِي خلَّصني . . وَبَنَى لِي فِي الْمَعَالِي وَطَنا . . كُنْتُ قَبْلَ الْيَوْم مَيّتاً بَيْنكُمْ فَحَيِيتُ وَخَلَعْتُ الْكَفَنَا . . فَأَنَا الْيَوْمَ أُنَاجِي مكلماً . . وَأَرَى الحقَّ جِهَاراً عَلَنَا . . عَاكِفاً فِي اللَّوْحِ أَقْرأُ وأَرَى . . كُلَّمَا كَانَ أَوْ يَأْتِي أَوْ دنَا . . وَطَعَامِي وَشَرَابِي وَاحِدٌ . . وَهُوَ رَمْزٌ فَافْهَمُوهُ حَسَناً . . لَيْسَ خَمْراً سَائغاً أَوْ عَسَلاً . . لاَ وَلاَ مَاءٌ وَلكِنْ لَبَنَا . . هُوَ مَشْرُوبُ رَسُولِ اللَّهِ إِذْ . . كَانَ سِرُّ فِطْرَةِ فَطَرْنَا . .

انتهى المراد مِنْهَا:

وَقوله: وحَرْف البَيْنِ أَنْشَدت: حَرْفُ البَيْنِ هو ياء النِّدَاء. لأنه يُنَادِي بِهَا البعيد. وَأَمَّا مَنْ كَانَ حَاضِراً، فَلاَ يحتاج إلى نِدَاء. وإنَّما استعملتْ فِي حَقِّهِ تعالى، مَعَ كَوْنِهِ قَرِيباً مِنَ الدَّاعِي تَنْزِيلاً للدَّاعِي مَنْزِلة البَعيد. تحقيراً لشأنِ النَّفْسِ وخِستها. وَأَمَّا مَنْ غَلَبَ عليه الحُضُورُ والقُرْب فَلاَ يحتاج إلى نِدَاءٍ؛ وَهَذَا الْحَرْف الَّذِي أَنْشَدَه الشيخ، هو قَوْلُهُ: مَتَى يَا قُرَّةَ الْعَيْنِ الخ. أي يَا قُرَّةَ عَيْنِي، مَتَى أَرَى وَصْلاً متأبداً. لا يصحبه بَيْنٌ وَلاَ فَرْقٌ. ومُرَادهُ واللَّهُ أَعْلَمُ مَا يَحْصُل بَعْدَ الْمَوْتِ مِنَ الرَّوْحِ وَالرَّيحَانِ وَجَنَة النَّعيم؛ وهو الشهود الدَّائم. والنَّعيم المُقِيمُ. فَهُو كَقَوْلِ الشَّيْخ ابن مشيش رضي اللَّهُ عَنْهُ، مُخَاطِباً لرُوحِهِ عَلَى اقتبَاس أَهْل الإشَارةِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾. ويَحْتملُ أَن يُريد بِحَرْفِ البَيْنِ، مَا أَنْشَده في القصيدةِ كلها مِنَ التغزُلاَتِ والإشَارَاتِ؛ لأَنَّ الإشَارَاتِ بِهَا تَدلّ على البَيْن والبُعْدِ قال في الحِكم: ما العارف: مَن إِذَا أَشَار وجد الحق أقرب إليه من إشارته. بل العارف مَنْ لا إِشَارَة لَهُ، لفَنَائِهِ فِي شهودِهِ. وانطِوَائِهِ في وُجُودِهِ. هـ. قال فالعَارِفُونَ حينَ حَصَلَ لَهُمُ الْوُصُول. فَنَوْا عَن رُؤْيَة وُجُودِهِمْ، في وُجُودِ مَحْبُوبِهِمْ. فَلاَ مُشير غير المشار إِلَيْهِ قَدِ اتَّحَد الوجود، وَلَمْ يَبْقَ إِلاَّ المَلِك المَعْبُود؛ وَهَذَا هُوَ الَّذِي تَمَنَّاهُ النَّاظِم بِقَوْلِهِ: مَتَى يَا قرَّة العَيْن. . أَرَى وَصْلاً بِلاَ أَيْنِ. . أي بِغَيْر وُجُودِي، وَلاَ شهود نَفْسِي. وقد حقَّق الله له ذَلِكَ بِلاَ مَيْنٍ. كَمَا يَشْهد بِذَلِكَ كلاَمُهُ فِي قَصَائِده وَأَزْجَالِهِ. إِذ الكَلاَم صِفة المتكلم. وَمَا فيكَ، ظَهَرَ على فيكَ. وكُلّ إِنَاءٍ بِالَّذِي فيه يَرْشَحُ. فَاللَّهُ تعالى يَمْنحنَا وأحباءنَا مَا منحهم بِهِ، أَوْ أَعْظم. بِمِنّه وَكَرَمِهِ. وبسيّدنَا محمد نبيه وحبيبِهِ صَلَّى عليه وسلم وعلى آلِهِ وصحبِهِ.

وَهَذَا آخِرِ التقييد المُبَارك بِحَوْلِ اللَّهِ وَقُوَّتِهِ. وتوفِيقه وحسْن عَوْنهِ. كَسَاه الله جِلْبَاب القبول. وَبَلَّغ بِهِ القَصْد والمأمول آمين. والحمد لله رب العالمين. ووافق الفراغ من تبْييضِهِ زوال يَوْم الخميس أَواسط صَفَر. عام أَربعة عشر، ومائتيْن وأَلْف في ثَغْر وادي اللّيَان. عَمَّرَه الله بأَهل الإحْسَان آمين. سُبْحَان ربك رب العِزَّةِ عَمَّا يَصفُونَ. وسَلاَمَ على المُرْسلينَ. والحمد لله رب العالمين.

المؤلف: أحمد بن محمد بن عجيبة.

شَرْحُ الأبيَاتِ الثَّلاثَةِ لأَبِي الْقَاسِمِ الْجُنَيْدِ

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآلِهِ وصحبه

الحمد لله وحده. وصلى الله على سيّدنا محمد وآلِهِ وصحبه وسلم تسليماً إلى أَخِينَا الفقيه الأَجَلّ السيّد علي بن عبد الرحمن. أَصْلَحَكَ الله ورعَاكَ. وَأَعَانَكَ على الدِّين والدّنيا. سلامُ الله تعالى عليك وبركاتهُ. وبعد فقد وَرَدَ علَيْنَا كتابك ومسطورك. وتَأَمَّلْنَاهُ، فظهر لنا أَنك تريد الجواب عن مسْأَلة الأبيات الثلاثة المنسوبة لشيخ الطريقة، وإمام الصوفية، ومُحيي الحقيقة، الشيخ: أَبُو القاسم الجُنَيْد، نفعنا الله ببركاته آمين:

تَوَضَّأْ بِمَاءِ الْغَيْبِ إِنْ كُنْتَ ذَا سِرٍّ وَإِلاَّ تَيَمَّمْ بِالصَّعِيدِ أَوِ الصَّخْرِ

وَقَدِّمْ إِمَاماً كُنْتَ أَنْتَ إِمَامَهُ وَصَلِّ صَلاَةَ الْفَجْرِ فِي أَوَّلِ الْعَصْرِ

فَهَذا صَلاَةُ الْعَارِفِينَ بِرَبِّهِمْ فَإِنْ كُنْتَ مِنْهُمْ فَانْضَحِ الْبَرَّ بِالْبَحْرِ

فَاعْلَمْ أَيُّهَا الأَخ: أَنَّ كَلاَمَ الأَوْلياء العارفينَ، والعلماء العاملينَ، الَّذِي ليس بمنقول عَمَّنْ تَقَدَّمَ. وَإِنَّمَا تكلموا به من قريحة أنفسهم. فيكون منطوياً على أَسْرَارِ مصونة، وجواهر مكنونة، لا يكشفها إلاَّ هُمْ. وَلاَ تَتبيَّن حقائقها بالتَلَقِّي عَنهُمْ. ومثل هذا يسأل عنها الأولياء العَارفُونَ. وَأَمَّا أَنَا بمعزلٍ عن هَذَا. وبعيد لكثرةِ جَهْلِي، ومخالفة رَبِّي، وكثرة زلَّتِي، وعَمَى بصيرتِي. ونقصان عَقْلِي. لكن لمَّا أَتَانِي كِتَابكَ. استَحيَيْتُ أَنَّ أُهمِلَهُ. ولم أُجِبْهُ؛ لأَنَّ الكتابَ يَنُوبُ عَلَى صَاحِبِهِ. وَأُجِيبُ عَلَى قَدْرِ مَا مَنَحَنِي اللَّهُ تَعَالَى بِفَضْلِه وجودِهِ وَكَرَمِهِ. فَلِلَّهِ الْحَمْدُ وله الشكر. على قَدْرِ فَهِمِنَا كَلاَمَ الْمُتَقَدِّمِينَ رضي اللَّهُ عَنهُمْ. فَاعْلَمْ أيها الأخ بِأَنَّ الطَّهَارة طَهَارَتَانِ: طهارة حسية، وطهارة معنوية. فالطهارة الحسية، صغرى وكبرى، كما هي مَعْلومة والطَهَارة المعنوية طهارتانِ: ظاهرية وباطنية. فالطهارة الظاهرة، طهارة الجوارحِ من المعاصي والباطنة طهارة القلْب من الأَدْنَاسِ والأَغْيَارِ

ومِنْ مخالفة الدَّيَّان: الملك الجبَّار. وَأن يمتثل الإنسَان بجميع جوارِحِه ما أَمَرَ به الواحد القهَّار فجمع المصنف رحمه اللَّهُ تعالى في هذه الأبيات: الطهارة المَعْنوية كلها، وعلوم الصوفية. والحقيقة والشريعة. فَقَوْلُهُ: «تَوَضَّأْ بِمَاءِ الْغَيْبِ إِنْ كُنْتَ ذَا سِرّ» أي تَطَهَّرْ للدّخُولِ فِي الْحَضْرَةِ الرَّبَانِية الإلَهِية؛ أَيْ تطهَّرْ مِنَ المعاصي بالتوبة. والتَجريد من الأغْيَار والنَّدَم على ما فاتَ مِن عُمرِكَ، وكثرَة الإسْتِغفار، والنية، وصحَّة اليقين. كما لاَ تَدْخلَ في الصَّلاَة إلاَّ بِالطَّهَارة الحسيَة. فَكَذَلِكَ إِذَا أردتَ أَن تدخلَ في حضرة اللَّهِ تعالَى والتقرب إليه. فتطهَّرْ وتوضَّأْ بماءِ الْغَيْبِ. أي اليقين الَّذِي لاَ شَكَّ فِيهِ، وَلاَ شَكَّ مَعَهُ. والنية، والصدق، والإخلاص. ودليل ماء الغَيْب هو اليقين والله أَعْلَمُ. فقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾. وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾. أيْ يُؤْمِنُونَ بقلوبِهِم، ويؤمِنُونَ بالآخِرة؛ لأنَّ الآخِرة غَيْبٌ. وَلاَ يُؤْمِنُ بالآخِرَة إلاَّ الموقنونَ. فلِذَلِكَ قال الشيخ: تَوضَّأْ بِمَاءِ الْغَيبِ؛ الَّذِي هُوَ اليقين، وفَسَّرَه الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ إلى قوله: يُوقِنُونَ﴾. بقولِهِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾. فَهَذِهِ مَزِيَة هَذَا الْوضوء، وأَيُّ مَزِيةٍ أَعْلَى، لِمَنْ شَهِدَ اللَّهُ لَهُ بِالهدَى والفَلاَح. وقوله: «إِنْ كُنْتَ ذَا سِرٌ». أي إِنْ كِنْتَ صاحب سِرّ. والسِّرُّ هُوَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ؛ لأَنَّهَا شَرْط فِي جميع العِبَادَات. فَإِذَا انْتَفَى الشرط، انتفَى المَشروط. وقوله: لاَ إِله إِلاَّ اللَّهُ. هو سِرّ الأسرار. وَأَصْل جميع أَعْمَال الأَخْيَار؛ لأنَّا لَوْ فَرَضْنَا أَنَّ أَحَداً يعمل الأعمال الصالحات كلها؛ من صَلاَةٍ، وصيام، وقِراءة، وَيأتِي بوجوه العباداتِ كلها، واسْتكْبَرَ عَنْ قولِ لاَ إِلَه إِلاَّ اللَّهُ. أَوْ نطق بها ولم يَعْرِفْ مَعْنَاها، بل نطق بِهَا خاصَّة، فلا ينفعه عملٌ مِنَ الأعمال كلِّهَا. وإن هذه الكلمة الطيبة المُبَارَكَة؛ هِيَ أَصْل الأسرار الربانية. والمواهب الإلَهية؛ وبها يسْتحق المُؤمن رضاء ربّ العالمينَ. ووجه المناسبة بينها. وبيْن الوضوء المَذكور. حتى جعلها شرطاً فِي صحَّة ذلِك؛ لأَنَّ الكُفر نجسٌ. لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾. الآية. وبقول لاَ إِلـه إلاَّ الله المذكورة، يَظْهَرُ ذَلِكَ النَّجَسُ مِن حِينِهِ. ويصير من نَفْسِ قَوْلِهَا. واعتقادها وليّاً لله تعالى. والله وليّ المُؤمنينَ. فَهَذَا مُرَاد النَّاظم بقوله: «إِن كُنْتَ ذَا سِرٌ». والله تعالى أَعْلَمُ؛ لأَنَّ هذه الكلمة تَدْخل تحتها جميع الأَسرار الرّبانية. واتفقوا على أَنَّ ذِكرها

مفتاح الوِلاَيَة الكُبْرى. فَأَيُّ سِرٌ أَعْظَم مِن هَذَا السِّرِّ. وقولُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَإِلاَّ تَيَمَّمْ بالصَّعِيدِ أَوِ الصَّخْرِ»: أَيْ إِذَا عدمْت الغَيْب؛ وهو اليقين. وكنت من أصْحَابِ السِّرِّ. فيتَمَّمْ بِالصَّعِيدِ أَوْ بِالصَّخْرِ؛ لأَنَّكَ لاَ تَدْخلِ الْحَضْرة حضرة الله تعالى، إِلاَّ بالطَّهارةِ الْمَعْنَوية. كما لا تَدْخل للصلاة إِلاَّ بُالْوُضُوءِ، أَوْ بِالتَّيَمُّمِ إِنْ عُدِمَ الْمَاءُ كَمَا هُوَ مقَرَّرٌ. ومراده بِالصَّعيد هُنَا: مخالطة الأولياء العارفين. والعلماء العاملينَ، أَهْل اليقين. لأَنَّ الطباع تسْرق الطباع. فتقتدي بِأَهْلِ اليَقِين. وتهتدي بِهِم، حتى تكون مَن أهل اليقين؛ ولذلك اتَّفَقَ أَهْلُ هَذَا الطَّرِيقِ عَلى أَنَّ الشيخ لاَ بُدَّ مِنْهُ. قال الشيخ أبو القاسم الخليل: «مَنْ لاَ شَيْخَ لهُ. فالشيطان شيخُهُ». وقال: ومخالطة الأخيار محبَّتهُمْ مِن أَعْمَال الْخَيْرِ وإِن كَانَ جنباً. لقولهم: إِن لم تكُنْ منهم، فَعَلَيْكَ بمحبَّتهم؛ لأَنك بحبك لهم تَصِلُ إليهم. ولقوله ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ قَوْماً حُشِرَ مَعَهُمْ» وقال بَعْضُهُمْ: «مَنْ فاتته درجة الولاية والصَّلاَح، فعليه بمحبَّةِ أَهْلِهَا؛ لأَنَّ محبَّتهم وِلاَيَة». ومن أَحَبَّ أَهْلِ الخيْر، وَإِن كَانَ جُنُباً، فَلاَ بُدَّ أَنْ يَتَطَهَّرَ بمخالطتهم فهذا مُراد الناظم بالتيمم بالصَّعِيدِ. والمراد بالجنابة: الجنابة المعْنوية؛ وهي الغفلة عن طَاعَةِ اللَّهِ. والإِنْهِمَاك فِي معاصي اللَّهِ؛ والإصرار عليْهَا فيجبُ على العَبْدِ أَن يتطَهَّرَ مِنْ غَفْلَتِهِ، وسوء فِعْلِهِ، بتوبته، ورجوعِهِ إلى رَبِّهِ، ووقوفه عند أَمْرِ اللَّهِ ونَهْيِهِ. واتِّبَاع سُنَّة رسول الله ﷺ. إِن كان عارفاً بذلك وكثرة اليقين. والتصديق، والنية والإخلاص. وإِن كَانَ جاهِلاً بذلكَ، وغلبه الأَمْرُ فَعَلَيْه بمخالطة الأَخْيَارِ العارفين، وأَهْل اليقين. نسأل الله التوفيق لنَا ولكُم: وقوله رضي اللَّهُ عَنْهُ: أَو بِالصَّخْرِ. أي أَنَّكَ إِذَا لم تَجِدْ مَاءَ الغَيْبِ الذي يَرْفَعُ الحدث الأكْبَر؛ وهي الغفلة، فَلاَ غِنَى لَكَ عَنِ التيمم بِالتُّرَابِ؛ وهي مخالطة الأولياء العارفِينَ والعلماءِ العاملينَ. لأَنَّ التراب ينبت فيه كل نباتٍ. فكَذَلِك الأولياء العارفُونَ كَلاَمُهُمْ حِكمة، ينبت في القلوب شيْئاً فشيئاً. والانتفاع بِهِمْ حَاصِلٌ. نَفعَنَا اللهم بِهِمْ. فَإِنْ لَمْ تطلع عليهم لأَنَّهُمْ عَرَائس، والعرائس لاَ يَرَاهُمْ إِلاَّ مَحْرَمٌ مِنْهُمْ فعليك بمخالطة علماء السُّوءِ والمنتسبين والمدَّعِينَ؛ لأنك رُبَّما تَسْمَعُ كلمةً تَنْتَفِعُ بِهَا مِنْ نِيتكَ وصِدْقِكَ؛ لأَن من اعتقد الخير في صَخْرَةٍ نَالَ مِنها. وَمُرَادُ النَّاظم بالصَّخْرِ: الحجر لكوْنه لا ينبت فيه نبات في غالِب الأَحْيَانِ، وربما ينبتُ في بَعْضٍ بِكَثْرةِ الأمطارِ. أَوْ بكثرة مُرُور الماءِ عليْهِ. فكذلك علماء السوء، والمنتسبُونَ، لاَ يُنْتفع بهم في غالب الأحوال، لكن إِذَا دَامَ على مجالستهم، فَرُبَّمَا يَنْتَفِعُ بِهِمْ؛ أَيْ بِأَقْوَالهم؛ وَلأَنَّ مَن تشبه بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ. ولذلك أُمر بالإنصات للوُرَّاقِ، والخطيب. وقراءة كتب أَهْل التصوفِ؛

لأنه ربما يَسْمع كلمةً فيتعظُ بِهَا. قال الشيْخ زروق رحمَهُ الله تعالى في صَدْرِ شرحِه على المباحثِ الأصلية، قال:

تَشَاجَرَ الحق والباطِلُ، فَغَلَبَهُ الباطِلُ فقتلهُ. فخافَ أَنْ يطلبَ بِهِ، فَأَحْرَقَهُ. فجاء أَهْلُهُ وَفَرَّ مِنهُمُ الْبَاطِلُ. وجمعوا رماد الحق وَجَعَلُوهُ في المَحَابِرِ وكَتَبُوا بِهِ الكتب. فَمَن أَرَادَ الحق في زمانِنَا هَذَا فَلاَ يَجده إلاَّ في الكُتبِ. فهذا مُرَادُ الناظم بالصَّخْرِ لِكَوْنِهِمْ يَسْمَعُ مِنهُمْ مَا كَانَ موافقاً، ويترك فِعْلَهُمْ لمَا قيل: «اجْنِ الثِّمَارَ وخَلِّ العود لِلنَّارِ». ولذَلِك قِيل وربّما يسمع كلمةً، ينتفع بها سَامِعُهَا ويُحْرَمُ مِنهَا قَائِلُهَا. والله الموفق بِمَنِّهِ للصواب. وقوله رضيَ اللَّهُ عَنهُ: «وَقَدِّمْ إِمَاماً كُنتَ أَنْتَ إِمَامَهُ». فَالإِمَامُ هو المتبوع، والمأموم هو التَّابعُ. والمراد به هُنَا. هو النبيُّ ﷺ. فيجبُ على الإنسان أن يتبعَهُ، ويُقدّمه، ويتخذه إماماً. باتِباع الكتاب والسّنَّةِ. قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. فهو إمَامٌ بِاتباعه لَهُ. وقوله: كُنتَ أَنتَ إِمَامَهُ. فَإِنَّ الإنْسَان لمَّا كَان مرتكِباً لِلْمَعَاصِي، والكبَائِرِ، قبل التَّوْبة في حال المُؤْمِنِ الْعَاصِي. أَوْ حَالِ الكَافِرِ، أَوْ مشركٍ؛ لِمَنْ كَانَ كافراً قبل أن يُسْلِمَ وهو يَفِرُّ مِنَ التَّوْبَةِ، والإسلام. وَدَعْوَةُ النَّبِيِّ ﷺ تَتْبَعُهُ. حتى عمَّتِ الآفَاق كُلَّهَا بَحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى فَعَلَى هَذَا الْمتبوعُ هُوَ الكَافِرُ. حيْث فَرَّ مِنَ الحقِّ لِلْبَاطِلِ. فَالْمتْبُوعُ: إماماً. والتابع: المأْمُومُ؛ وهو التَابعُ لَهُ؛ وهُو رسول الله ﷺ. طول حياته: بالمعجزاتِ والْبَرَاهين، والحجة، والأمر والنَّهْي، والنّذر والوعظِ، والقتال وهم فارُونَ مِنْهُ؛ وهم يتبعهم؛ حرصاً على هِدَايَتِهِمْ حَتَّى هَدَاهُمُ الله لِلإِسْلاَمِ، فَأُمِرُوا باتباعِهِ. فحينَ كَانُوا مَتْبُوعِينَ لَهُ. كَانُوا أَئِمَّةً لَهُ. لكَوْنِ المتبوع كَانَ إماماً لتابِعِهِ. والآن أَمَرَهُمُ الشَّرْعُ العزيز بأَنْ يَتبعُوا النبيَّ ﷺ. فصارَ إِمَامَهُمْ باتباعهم لَهُ. وكذلكَ عصاة المُؤْمِنينَ لَمْ يزالوا هَارِبِينَ من سُنَّة رسول الله ﷺ وطاعته. والأولياء يتبعونهم بالمواعظِ، من الكتاب والسُّنَّة. ويأمرونهم بالمعروف. ويَنهونَهُمْ عنِ المُنْكَرِ. وكذلكَ العلماء. ولم يَزَل كتاب الله تعالى يُخَاطبهُمْ وسُنَّة رسول الله ﷺ، إلى أَنِ اسْتَيقظُوا منْ نَوْم الغَفْلَةِ. وسكرة الأهواء. وبادروا إلى التَّوْبة، بالرجوع إلى اللَّهِ، على قَدْر صِدْقهِمْ فيعزلونَ نفوسَهُمْ مِنْ هذه التبعية. ويكونون تابعينَ للكتاب والسُّنَّةِ، والعلماءُ، فكانوا قبل التوبة متبوعينَ، والمتبوع إِمَاماً لِمَنْ تبعه كما تَقَدَّمَ، والآنَ حين تَابُوا أُمِرُوا بالكتابِ والسُّنة، والعلماءُ، والأولياءُ الَّذِينَ كانُوا تَابِعِينَ لَهُمْ، صَارُوا مَأْمُومينَ لِمَنْ كَانَ إِمَاماً لَهُمْ. وهذا مراد النَّاظم بقولِهِ: «وَقَدِّمْ إِماماً كُنْتَ أَنتَ إِمَامَهُ». والله تعالى أَعْلَمُ.

وقوله: «وَصَلِّ صَلاَةَ الْفَجْرِ فِي أَوَّلِ الْعَصْرِ». أي مراده واللَّهُ أَعْلَمُ بالْفَجْرِ: الطَّاعة فِي حَالَةِ الشَّبَابِ، والْعَصْر آخر العمر.

وَلَمَّا كَانَ حَال كُلّ مُسْلم، وأوان موته مجهولاً، لا يعلم كل أَحَد بموتِهِ. أي يوم أو أي ساعة. والنَّاس مُخْتَلِفُونَ. فمنهم مَنْ يَمُوتُ صغيراً، ومِنْهم من يَمُوتُ كَبِيراً، ومِنْهُمْ منْ يَمُوتُ شَابّاً. ومِنْهُمْ من يَمُوتُ شيْخاً. صَارَ كُلُّ إِنْسَانٍ صغيراً كَان أَوْ كبيراً فِي عَصْرِ يَوْمِهِ. أي آخِر عُمْرِهِ. وَيُصَلِّي صلاة الفجر في حالة شبابِهِ. بأن يطيعَ اللَّهَ تَعَالَى، ويتوبَ فِي أَوَّلِ عَصْرِهِ أي في أول عُمرهِ؛ لأَنَّ صلاة الْفَجْرِ فِي كَلاَمِ النَّاظِمِ: الطاعةُ والتوبة، والنَّدَمُ، والرّجوع إلى الله تعالى في حالة الشبابِ، وهو أَوَّلُ الْعَصْرِ أي أول الْعُمُرِ؛ لأَنَّ عَصْرَ النَّهَار هو آخِرُهُ. وكل ساعة من الساعات على الإنْسَانِ؛ فَهِي آخر عمرهِ لاَ يَدْرِي هَلْ يفوتها أَمْ لاَ. فهذا مُرَادُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. والله أعْلَمْ؛ لأَنَّ الإنْسَان إِذَا أَصْبحَ، فَلاَ يُحدِّث نفسَه بِالْمَسَاءِ. وإِذَا أَمْسَى فَلاَ يحدِّث نفسه بالصَّبَاحِ. وقوله: «فَهَذِهِ صَلاَةُ الْعَارِفِينَ بِرَبِّهِمْ»؛ لأَنَّ العارفين رضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، مهما تفكَّرُوا أَوْ تيقظوا من الْغَفْلَةِ، رَجعُوا إلى اللَّهِ. وتابُوا تَوْبَةً نَصُوحاً. خَوْفاً أَنْ يُدْرِكهُمُ المَوْتُ قَبْلَ الفَوْتِ. ويندمُونَ على ما فَاتَ من عُمُرِهِمْ. فهذه حالة أكابِرِ الأولياءِ والصالحينَ؛ لأَنَّهُمْ لَمْ يكونُوا مُوَفَّقِينَ في حال شبَابِهِمْ. بل كانُوا عُصَاةً مُذْنِبينَ. فَلَمَّا كَانُوا في آخِرِ عُمُرهم. تَدَارَكَهُمُ الله بِعَفْوِهِ ومغفرتِهِ. فكَانَ أَوَّلَ عَصْرِهِمْ، وَصَلاَةَ فَجْرِهِمْ فتَابُوا فِي ذلِكَ الْوَقْتِ، ورجعُوا إلى الله تبارك وتَعَالَى وفتح اللَّهُ عَلَيْهم. وبلَّغَهُمْ حَضْرَة قدسِهِ في الحينِ، بفضلِهِ وإحْسَانِهِ. كالفضيل بن عياض، رضي اللَّهُ عَنْهُمْ. وَأكابرهم منهم. بل جُلّهم نفعَنَا اللَّهُ بِبَرَكَاتِهِمْ فكان الوقت الذي تفكَّروا فيه، هو صلاة فَجْرِهِمْ وأَوَّل عصرهم. وإِنْ لم يكونُوا في أول الشبابِ؛ لأَنَّ الإنْسَانَ يجب عليه المُبَادرة إلى التوبة. مهما تفكَّرَ وتيقَّظَ. سواء في حَالَةِ الشباب. أو في حالةِ الكهولة أو الشيخوخة. ومنهم نفعنا الله ببركَاتِهِمْ، كَانَ مُوَافِقاً في حال الصِّغَرِ، كمعروف الكَرَخي، والشيخ الجيلاني، والشيخ مولاَنا عبد السلام بن مشيش، وأَمثالهم، فقليلُونَ، نَفَعَنَا الله ببركاتهم. والله الموفق بِمَنِّهِ. وقوله: «فَإِنْ كُنْتَ مِنْهُمْ فَانْضَحِ الْبَرَّ بِالْبَحْرِ». النَّضْحُ: هُوَ الرَّشُّ بِالْيَدِ تقول: نَضَحْتُ الشَّيْءَ إذا رششته بِالْمَاءِ. والبَرّ: الشريعة، والبَحْر: المراد بِهِ الحقيقة. أي كُنْ ملتبساً بالشريعة. مُلاَزِماً للحقيقة.

الشريعة هي أنْ تَعْبُدَهُ؛ وهي أَمْرٌ وَنَهْيٌ. والحقيقة أَنْ تُشَاهِدَهُ: وهي قَضَاءٌ وَقَدَرٌ، فيجب عليكَ أَنْ تَقِفَ مَعَ الشريعة في حالِ الأمْرِ والنَّهْي. وَلاَ تخرج عن الحقيقة، في حال القضاءِ والقدَر. ودُمْ على ذلك إلى أَنْ يَحين المَمَات.

الْقُشَيْري: الشريعة: مُلاَزمة العبودية. والحقيقة: مُشاهدة الرّبوبية. فكل شريعة غَيْر مقيَّدة بِالحقيقةِ غيْر مقبولة. وكل حقيقة غير مقيَّدة بالشريعة؛ فهي غيْر محمودة. وهذا مُرَاد النَّاظِمِ بِقَولِهِ: «فَانْضَحِ البَرَّ بالْبَحْرِ». أي انْضَح الشريعة بالحقيقة. أي اجْمَعْ بَيْنَهُمَا.

قَالَ الشَّيْخ الشَّرِيشي:

وللشَّيْخ آيَةٌ إذَا لَمْ تَكُنْ لَهُ ... فَمَا هُوَ إلاَّ فِي لَيَالِي الْهَوَى يَسْرِي
إِذَا لَمْ يَكُنْ عِلْمٌ لَدَيْهِ بِظَاهِرٍ ... وَلاَ بَاطِنٍ فَاضْرِبْ بِهِ لُجَجَ الْبَحْرِ

فَعِلْمُ الشريعة هو عِلْمُ الظَّاهِرِ. قال الشيخ: علمٌ لَدَيْه بظاهِرٍ. وعلم الحقيقة: هو علم الْبَاطِنِ الَّذِي قال الشيْخ: وَلاَ بَاطِنٍ إلاَّ أن علم الشريعة محصور في خَمْسَة أقسام على ما قال المطرفي. وعلى ما قال ابن السبكي بستة بزيادة الأولى. وعلم الحقيقة مواهب لاَ تُحْصَى. وهَذَا مَا حَضَرَ لأَخِيكم في الله في هذا الجواب.

وأَمَّا هذه الأبيات، فقد احْتوت على كثير مِنَ الْعُلُومِ لَوْ جَعَلْنَا عليها المُجَلَّدات، والدَّوَاوين والأسفار، ما احتوت على أَحَدِهَا بكَوْنه كَلام منَور، صدر من شيخ كاملٍ جليل. فكيْف لعاجزٍ مِثْلِي تحومُه[1] وكيْف لِنَاقص بِطَاعَةٍ مِثْلِي يَتَسوَّقُ سُوقه. فنسأل الله تعالى أَنْ يَمُنَّ علينا بفتح بصيرتنا، وأن يتجاوَزَ عَنْ سيئاتنا بجاه سيدنا محمد المصطفى ﷺ.

اللَّهم صَلّ على سيدنا محمد وآلِهِ وصحبه وسلم تَسْليماً

(1) قوله رَضِيَ اللَّهُ عنه: كيْف لِعَاجِزٍ مِثْلِي الخ. قاله تواضعاً لله تعالى. أو كَان هذا الشرح في بداية الفتح عليه في علم الباطن. لأنَّهُ بَعْدَ الفتح الأكْبَر غرَق في عُلُوم المَعَاني، وغابَ عَنِ الأوَانِي.
كلام الحج العمراني الخالدي عبد السلام.

شَرح الفُتُوحَاتِ القدُّوسِيَّةِ
في شَرْحِ الْمُقَدِّمَةِ الأجرُّومِيَّةِ

قال الشيخ الإمَامُ، الْحبْرُ الهُمَام، العَارف الرَّبَّانِي، والقطب الصَّمَدَانِي، قدْوة السَّالكينَ. ومَنَار الواصلينَ، بحر العِرْفان، ومشرق شَمْس العِيَان، مُوَضِّحُ الطريقة. الجامع بيْن الشريعة والحقيقة. أبُو العبَّاس، سيّدي أحْمد بن سيّدي محمد بن عجِيبَة الحسَنِي رضيَ اللَّهُ عَنهُ آمِين.

الْحَمْدُ لِلَّهِ الكَرِيم المَنَّان، الَّذِي خَلَقَ الإنسَانَ، وَعَلَّمَهُ البيَانَ، وَفَضَّلَهُ بالْعَقْلِ على سَائِرِ الأَكْوَانِ، ثُمَّ خَصَّ الْعَرَب الْعَاربةَ بَالبَرَاعَة والبَلاَغَةِ، وفصاحَة اللِّسَانِ، فَأَنْزَلَ على لسَانِهَا، ومحاورة كلامها القرآن، فَأَعْجزَ بِبَلاغَتِهِ وَبَرَاعَتِهِ الإِنْسَ والجَانّ، وأخْرسَ عَنْ مُعَارضَتهِ فرسَانَ البَرَاعة والبَلاَغَة والبَيَان. نَحْمَده تعالى ونشكُرُهُ على مَا أَوْلاَنَا مِنْ سَوَابِغ الإِحْسَانِ. ونَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَه إِلاَّ اللَّهُ وحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ. شَهَادَةَ أَهْلِ الذَّوْق وَالْعِيَانِ، ونَشْهَد أَنَّ سَيِّدَنَا ونَبِيَّنَا محمداً عَبْدُه وَرَسُولُهُ قُطْب دائرة الزَّمَان. وأَفْصح مَن نطق بالحقّ والتِّبْيَانِ. صَلَّى اللَّهُ عليه وعلى آلِهِ وأَصْحَابِهِ، وعِتْرَته وأَحْزَابِهِ الَّذِينَ أَظْهَر اللَّهُ بِهِمْ مَنَارَ الإِسْلاَمِ. وأَشرقَ بِهِمْ أَنْوَارَ الإِيمَانِ، وشُمُوسَ العِرْفَانِ.

وَبَعْد: فَأَهمُّ مَا يَعْتَنِي بِهِ الإِنْسَان، بَعْد إِصْلاح دينِهِ بتحقيق الإِيمَان والإِسْلاَم، إِصْلاح لسَانِهِ من اللَّحْنِ فِي الكَلاَم. وذَلِكَ بالتغلغل فِي عِلْم الْعَرَبية واللُّغة. إذ بذلك يتقوّى على فَهْم كتابِهِ العَزيز وسُنَّة نَبِيِّهِ عَلَيْهِ أَفْضَل الصَّلاَة وَأَزكى التَّسْلِيم اللذَيْنِ بهما قَامَ الدِّين. واسْتَقَرَّ بَقَاؤهُ على المُسْلِمِينَ، فَلَوْلاَ هَذَا العلم الشريف لدَخَلَ فِي السُّنَّة المُحَمَّدية التَّغْييرُ والتحريفُ، ولوَقعَ الخَلَل في فَهْم كتابِ اللَّهِ الحكيم، فتعيَّن حِفْظ هَذَا الْعِلم وتحصيله على كل عاقل لبيب. ثم يجبُ عليه بعد إِصْلاح لسَانِهِ، إِصلاحُ عَقْله وجنانه بتَصْفيته من الرَّذَائِلِ، وتحليته بأَنْواع الْفَضَائِلِ ليتَأَهَّلَ بِذَلِكَ قَلْبُه لإِشْرَاقِ أنوارِ حقيقة التَّوْحيد، وأَسْرار التفريد فإِصلاح اللِّسَان كمال دُون كَمَالٍ، وإِصلاحهما معاً. كَمَال الكَمَال. ولله دَرُّ سِيبَوَيْهِ رضيَ اللَّهُ عَنهُ حَيْث يقول:

لِسَـانٌ فَـصِيـحٌ مُـعْـرِبٌ فِـي كَـلاَمِـهِ ... فَـيَـالَيْـتَـهُ مِـنْ حَـسْـرَةِ الْـعَـرْضِ يَـسْـلَـمُ
وَمَـا ضَـرَّ ذَا تَـقْـوَى لِـسَـانٌ مُـعْـجِـمُ ... وَمَـا يَـنْـفَـعُ الإِعْـرَابُ إِنْ لَـمْ يَـكُـنْ تُـقَـى

وقال الشيخ الصَّالِحُ، الفقيه المَيْمُوني رضيَ اللَّهُ عنهُ: وأَقْبَحُ مِنَ الْقَبِيحِ، أَنْ يتعَلَّم الإِنْسَانُ، أَوْ يُعلم إِصْلاح اللّسَان. وَلاَ يتعلَّم أَوْ يُعَلِّمَ إِصْلاحِ القَلْبِ، الَّذِي هو مَحلّ الرَّبّ. فالنَّحْوُ عَلَى قِسْمَيْن، نَحْو لسَانِ الْفَمِ، ونَحْو الْقَلْب، ومَعْرفة نَحْوِ الْقَلْبِ عِنْدَ الْعُقَلاءِ آكد وأَنْفعُ مِنْ مَعْرفَة اللّسَانِ بِدَليلِ: أَنَّنَا نَجِدُ مَنْ لاَ يُحْسَن التلَفُّظَ بِكَلاَمِ الْعَرَبِ، فَيَلْحَنَ فِي كَلاَمِهِ، برفع المنصوب، ونصب المرفوع، ويكون في حاله مُتَخَلّقاً بالكتاب والسنة. وهذا هو الغالب في زماننا هذا. وهذا مذموم عِنْدَ اللَّه وَرَسُولِهِ. ولذلِكَ قال ﷺ، فسَّاقُ أُمَّتِي قُرَّاءُهَا. وقال أَيْضاً: العلم علمانِ، علم اللّسَانِ، فذلك حجَّة الله على ابن آدم. وعلم القَلْبِ، فذلكَ العِلم النَّافع هـ، وعلم القلب هو اليقين الكبير، ومعرفة اللَّهِ بِنعْت العيَانِ؛ وهو هو النحو القلْبِي؛ وهو فرض عيْن على كل مُسْلمِ، أَعْنِي علاج القلب من الأمراضِ، كحبّ الدّنيا الَّذي هو رأس الخطايَا وهَمّ الرزقِ، وخوْف الخلقِ وغيْر ذلك من الأَمْرَاض التي تعوق عن معرفة الحق وشهودهِ. وهذا النحو القلبي؛ تسمّيه الصوفية المَحْوِ بالميم؛ لأنه يمحو من القَلْبِ كُلّ ما سوى اللَّهِ. وهذا العلم هو محط رِحَالهم، ومجال أفكارهم، قد استتغنوا به عن جميع العلوم، قيل للولي الكبير سيّدي أحمد بن موسى رضي الله عنهُ: هل قرأت شيئاً من النَّحْوِ، فقال: قرأت بيْتيْن من الأَلفية. قوله: فمالنا إلا اتباع أحمد. وقوله: فما أُبيح افعلْ ودَع مَا لَمْ يُبَحْ. وقال شيخ شَيْخِنَا ومادَّة طريقنا مولاَي العربي رضي اللَّهُ عَنْهُ: ما عرفْت من النَّحْوِ إلاَّ إِعراب قوله تعالى: ﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾. إِنْ شَرْط، ويُغنهم جواب الشرطِ، والمُرَاد بِالْغِنَا الأَكْبَر، فيكون خطاباً للمتوجهينَ على طريق أَهْل الإِشارة. وأَجَلّ ما صُنّف في علم النَّحْوِ للمبتدي، وفتح بِهِ على المنتهي: المقدمة الجرومية، المباركة الميمونة. عمَّ نفعها المشارق والمغارب، وتلقَّاها بالقبول كل سالك وَطَالب، فَدَل ذلكَ على خلوص نِيَة مؤلفها وصلاحه. وقد أَردتّ بعونِ اللَّهِ أَنْ أَضع عليها شرحاً متوسطاً، متوشحاً بِنُكَتٍ عجيبة قَلَّ أَن توجد في غيْرِهِ من المطوّلاتِ. وإشارات صوفية غريبة قَلَّ أن يغوص عليْهَا من لهُ شأن فِي علم الأذواق والإِشاراتِ.

وَسَمَّيْتُهُ الْفُتُوحَات الْقُدّوسِية، فِي شَرْحِ الْمُقَدِّمَةِ الأَجرُّومية. وكل علم لاَ ينبغي الشروع فيه، حتى يعلم الخائض فيه حدَّة وموضوعه وواضعه، واستمداده، وسائر

مبادئه العَشرة التي أَشار إليها الفقيه العالم، المحرر، سيدي أَحمد بن زكريا التلمساني بقولِهِ:

الـحَـدُّ وَالـمَـوْضـوع ثـم الـوَاضِـعْ   والاسـم الاسـتـعـداد حـكـم الـشـارعْ
تـصُـوّر الـمـسـائـل الـفـضـيـلـة   ونـسـبـة فـائـدة جـلـيـلـة
حـق عـلـى طـالـب عـلـم أَنْ يُـحِـطْ   بـفـهـم ذي الـعـشـرة ميزهـا يُـنـيـط

أَمَّا حدّهُ. فهو علم مستخرج بالمقايس، المستنبطة من استقراء كَلام العربِ، أَو علم يعرف بِهِ أَحْوال أَوَاخر الكلام إِعْراباً وبناء، وموضوع الكلمات الثلاث، الاسم والفعل والحرف؛ لأَنَّهُ يُبْحث عنْها. من حيْث إِعرابُهَا وَبِناؤها، وإِفْرَادها وتركيبهَا. وواضعه أمير المؤمنين. سيدنا عليّ كَرَّمَ اللَّهُ وجْهَهُ، بسبب شكوى أَبي الأَسود الدُّؤَلِي لحن بنوه فقال له: يَا أَبَا الأَسْوَد، اكتب بسم الله الرحمن الرحيم، الكلمة اسم وفعل وحرف، فالاسم ما أَنْبَأَ عن المُسَمَّى. والفعل ما أنبأ عن حركة المسمَّى، والحرف مُوَصِّل بينهما. وانْحُ على هذا النَّحْو، أَي انسج على هذا الشَّبْه. ولهذا سُمّي علم النحو؛ وهو من إِطلاق لفظ المَصْدرِ على المفعولِ، فالنحو بِمعنى المنحْو. كالنَّسجِ بِمعْنَى المنسوج. واعلمْ أَنَّ إِعراب الكَلام كان للعرب سجية لا يقدرون على اللَّحْنِ. فلما ظَهرَ الإِسلامُ، ونكحت الصحابة بنات العجم. اختلطت الألسن، فكادت العربية تتلاشَى. فوضع عليّ كَرَّم الله وَجْهَه علم النَّحْوِ. وقال الفخر الرازي في كتابه المحرر في علم النحو: رسَمَ عليٌ كَرَّمَ اللَّهُ وجْهَه لأَبي الأَسْوَدِ باب إِنَّ. وباب الإِضافة، وباب الإِمالة. ثم صنف أَبو الأَسود باب العطف، وباب النَّعْت ثم صَنَّف باب التعجب، وباب الإِستفهام. وقيل: واضعه أبو الأَسود من غَيْر واسطة. وقيل أَول من وضَعَه نصر بن عاصم، وقيل عبد الرحمن بن هُرمُز، والمشهورُ الأَول. وتقدم وجْه تسْميته بِالنَّحْوِ. والمتصف به نَحْوِي، يجمع على نحويّينَ. وأَما نحاة، فجمع ناح. كقاض وقضَاةٍ. واسْتِمْدَادهُ من كَلاَم العربِ نظماً ونثراً. وحُكْمه فرْض الكفاية؛ لأَنه وسيلة لِحفظِ العلم ومفتاحه. إلاَّ من تَصدَّى لتفسير كَلام الله تعالى، وكَلام رسوله ﷺ، فيكون في حقه فَرْض عيْنٍ لقوْله عليه السلامُ: «مَنْ كَذَبَ عليّ متعمداً فليتبوّأ مقعدهُ مِنَ النَّارِ». والجاهل ملحق بِالْعَامِدِ في كثير من الأَحكَامِ. وقال الإِمام الرازي في المحصول: اعلمْ أَنَّ معرفة اللُّغة، والنحو والتصريف، فرض كفاية؛ لأَن معرفة الأَحكَام الشرعية واجبة بالإِجماع؛ ومعرفة الأَحكام دون معرفة أَدلتها مستحيلٌ. فلا بدّ من

معرفة أَدلتها، والأَدِلة راجعة للكتابِ والسنة، وهما واردانِ بلغةِ العربِ. فقد توقف علم الأَحكام على الأَدِلة، ومعرفة الأدلة تتوقف على معرفة اللغة والنحو. وما يتوقف عليه الواجب المطلق، فهو واجبٌ، وقال عِزّ الدِين بن عبد السلام: من أَنواع الواجبات، الاشتغال بعلمِ النّحْوِ الذي يُفهَم كَلام الله. وكَلاَم رسوله ﷺ. وذَلِكَ لأَنَّ حفظ الشريعة واجب، وَلاَ يَتأَتّى حفظها إِلاّ بذلكَ. وما لاَ يتمّ الواجب المطلق إِلا بِهِ، فهو واجبٌ. وَتَصَوّر مسائله، هي معرفة كَوْنِ الفاعِلِ مرْفوعاً، والمفعول منصوباً، والمضارع معرباً، والماضي والأمر مَبْنِيينِ.

والضمير لا يعود على ما بعده إلاّ في مَسَائِل. وقس على هذا من قواعِدِهِ، وفضيلته: معرفة كَلاَم اللّه وكَلام رسوله ﷺ، وصَوْنهما من اللحن والتحريف. وَنَاهيكَ به شرفاً. وقد قال عليه السلام: «نَضّرَ اللّه امْرءاً سَمِعَ منا حديثاً فحفظه حتى يُبَلِّغه عَنّا كما سَمِعَهُ، فَرُبَّ مُبَلِّغ أَوْعى له من سامِعٍ» رواه الترمذي. ومعْنَى نَضّرَ: حسّنَ وبهج.

وعن أَبي بَكْر وعمر رضي اللّهُ عَنْهُمَا: إِعراب القرآن أَحَبّ إِليَّ من حفظ بعضِ حُرُوفِهِ. وعن عمر رضي الله عنه: تعلموا العربية، فإنها تزيد في العَقل والمُرُوءَة. وعن علي رضي الله عنهُ:

النّحْو يصلح من لسانِ الأَلْكَنِ	والمَرْء تعظمه إذا لم يلحَنِ
وإِذا كلبْتَ مِنَ العلوم أَجَلها	فأَجَلها منها مقيم الأَلسنِ

وكَان عُمَر رضي اللّهُ عَنْهُ: يَضرِبُ ولَده على اللّحْنِ. وعن الحسَن البَصْري رضي اللّهُ عنْهُ: من لحن في القرآن، فقد كَذَب على الله هـ. وقال أَبُو حيّان في قصيدة له بعد كَلامٍ:

وَقَدْ قصُرَتْ أَعْمَارُنَا وعلومنا	يطول علَيْنَا حصرها ونكابده
وفِي كلِهَا خيْر ولكن أَصْلها	هو النحوُ فاحذَرْ من جهولٍ يعانده
بِهِ يعرف القرْآن والسّنّة التي	هما أَصْل دين اللّه ذو أَنت عابده

وقال ابن الوردِي في أول تحفته:

وبعد فالجاهل بالنحو احتقر	إِذْ كُلُّ عِلْمٍ فَإِلَيْهِ يَفْتَقِر

وقال السيوطي في أَلفيته:

النّحْو مَا بِهِ خَيْرُ ما بِهِ الْمَرْء عُني	إِذْ لَيْس علم عنه حقاً يغتني

وقال آخر:

لو تعلم الطير ما في النحو من أَدَبٍ ... لغَنَّتْ وَرَنَّتْ عليه بالمناقر

وقال آخر:

ازكَبْ جَوَاد النَّحو ثم ليكن ... لكَ على المنطق إكْبَاب

تفلسَفْ ثم تقوَّفْ فَلَيْسَ ... إلاَّ لِلعِلم منهما بَابُ

ونسْبته من العلوم الجزئية؛ لأنه جزئي لهَا، وَآلة توصل إليها. وَلاَ علم إلاَّ وهو محتاج إليه كَمالاً أو شرطاً كما تقدمَ. وفائدته، أي غايتهُ: مَلَكة يحترز بها من الخطإ في النطق: حتى لا يفت يخرج عن القواعد العربية في الغالِب. واعلم أَنَّ النَّحْو مُرَكب من علم الإِعراب، وعلم التعريف. فهما كَالفَنِّ الواحِدِ. لاَ تَتِمّ إلاَّ بهما. ولَذا يجمعانِ غالباً في الموضوعات، غير أن الكثير يصدِّرون بالإِعراب؛ لأنه هو الأول وَضعاً كما تَقَدَّم عن سيدنا علي كَرَّمَ اللَّهُ وجهه، ثم وضع عِلْمُ التصريف، ومنهم من يَبْدأ بالتعريف؛ لأَنَّ مبحثه الْمُفْرَدُ، وهو قبل المركب. وقد تذكر جملة من التعريف في علم الإِعراب، كبناءِ صيغة المضارع، والأمر، وأَبنية المَصَادِرِ. وأَسماء الفاعلين والمفعولين. والصفة المشبهة بِهَا. واسم التفضيل، والزَّمان، والمكَان، والإِصالة، والتكسير والتصغير ونحو ذلِكَ. فإن هَذَا شعبة من علم التصريف. أُدرج في علم الإِعراب، وذلكَ؛ لأَنَّ علم التصريف على قسمين. قسم يرجع لتغيير الكلمة لمعْنًى. كبناءِ الفاعل والمَفْعُول؛ وهو المذكور غالباً في باب الإِعراب، وقسْم يرجع إلى تغييرها لغَيْر مَعْنًى، وهو المذكور فِي باب التصريف. والكتب الموضوعة لهذا العلم ثلاثة أَقسام: مختصرة، ومتوسطة، وَمُطَوَّلة. فالأولى كهذه المقدمة. وجمل المجراد، وقواعد ابن هشام. والثانية. كأَلفية ابن مالك، والسيوطي، ومغنى ابن هشام وأَضرابهَا. والثالثة: ككتاب سِيبَوَيْهِ، وتَسْهيل ابن مالك وأضرابهما. فقد قال أَبُو حيان: من قرأَ التسهيل؛ لم يكن تحت إِديم السَّمَاءِ أَنْحَى مِنْهُ. وقد حلَفَ أَلاَّ يقرأَ من كُتُبِ النَّحْو إلاَّ هُوَ. وها هُنَا اصطلاحاتٌ قد يتوقَف عليها في علم النَّحْوِ، مِنْها تفسير الشاذ والضعيف والضرورة. فالشاذ من خالف القياس من غَيْر نَظَر إِلَى قلة وجودِهِ، وكثرته. والضعيف ما قلَّ وجودهُ في كَلاَم العربِ. والضرورة ما لَيْس للشاعر عنه مندوحة. وقد يستعملون غالباً، وكثيراً ونادراً وقليلاً ومطَّرداً. فالمُّطِردِ: مَا لاَ يتخلَّف، والغالبُ ما كَثر لكن يختلف. والكثير دونَهُ والقليل دونَهُ. والنَّادِر: أَقل من القليل،

وَلاَ يُقَاس إِلاَّ على الكثير والمطرد على المشهود. والشاهد: ما يذكر لتقرير قاعدة من كَلام الله، أَو كَلام رسوله، أَوْ كَلام العرب. والمِثال: ما يُذكر لإِيضاح تلك القاعدة. والبصريّون هم النحويُونَ النَّاشئون بالبصرة، كسِيبويْهِ، ومن أَخَذَ هو عَنهُمْ كالخليل، ويونس، وأَبي عمْرو بن العَلا. ومن تبعَ هَؤُلاءِ في المذهب، وإِن لم ينشأ بالبَصرة. لكن أَخَذَ بِمَذْهبهم. والكُوفيّون: هم النَّحوِيّون النَّاشئون بالكوفة، وأشهرهم الكسائي المقري، ومن أَخَذ عنهُ كيحيى بن زكريا. وخلف الأحمر، وهشام الضرير. وأَبي إِسحاق البَغوي وأَضرابِهِمْ. ومَنْ تبع مذهبهم وإِن لم ينشأ بالكوفة.

واعْلَمْ أَن العلم إِن كَان عقلياً أَو ذوقياً لم يحتج إِلى نِسْبة قَائله. إِذ بُرهانه في نَفْسِه، وشاهده معَهُ. فلا يحتاج إِلى معرفة قائله إِلاَّ حيْث الكَمَال. وأَمَّا إِن كَان نقلياً، فلا بُدَّ من معرفة قائِلِهِ؛ لأَنه موكّل إِلى أَمَانته، فَمَن اعتمد في نقله على من لا يُعرف حَالهُ، كان كالباني على غير أَسَاس. ثم ما تركب منهما كالفقهِ والنَّحْوِ، فإِنَّ كلاّ منهما منقول معقول، لكن يغلب فيه جانب النقلِ، فينبغي معرفة القائل، لتطمئنَّ النَّفس، فإِنَّ المؤلف رحمه اللَّهُ هو محمد بن محمد بن داود الصنهاجي، عرف بابن أَجُروم، بفتح الهمزة الممدودة، وضمّ الجيم والراء المشدودة، ومعناه بلغة البربر، الفقير الصوفي. ولعلمه في لغتهم بالقاف المعقودة، وَوَصَفه بعض الشراح بالفقيه، الإمام الصالح البركة. وبعضهم بالأُستاذية والأستاذ بالدَّال المعجمة، وهمزة مضمومة، لفظة فارسية عَرَّبَتها العرب. ومعناه عنْدَ الفرس العالم بالشيءِ. الماهر فيه، والجمع أَساتيذ. وكَان رحمه الله عالماً بالقراآتِ، ماهراً فيها. شرح حِرز الأماني شرحاً عجيباً، وتمهّرَ في العربية، فكان مجتهداً فيها، لا يتقيد بمذهبِ البَصَرِيينَ. وَلاَ مذهب الكوفيين، بل يميل مع الحق أينما ظَهَر له. أَخَذَ عن أَبي حيّان، ومغيرة. وُلِد رحمه اللَّهُ عام اثنين وسبعين وستمائة، وفي هذه المائة توفي جمال الدين. ابن مالك، صاحب الألفية: فكَان يقول: توفي نحوي، وولد نحوي، ومات رحمه الله سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة، فعمره إِحدى وخمسون سنَة. رُوي أنه رضي الله عنه حج وأَلَّف هذه المقدمة تجاه الكَعْبَة، ولذلك عمَّت بَركتها. ولم يفتحَ كتابه بالحمد له، بل اكتفى بالبسملة أَوّلاً فقال: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم. فالباء متعلقة بمحذوفٍ، يقدر كل واحد، ما جعلت التسْمية مبدأ لهُ. فيقدَّر هنَا، أؤلف، ويُقدر مؤخراً للابتداءِ بِالحَصْرِ والإختصاصِ، والباء للاستعانة، أو المصاحبة والملابسَة، وطوّلت خطاً، عوضاً من الألف

المحذوف. والاسم مشتق من السّمُوّ عند البصريينَ؛ وهو العلو والارتفاع؛ لأنه يَدُلُّ على مسمَّاهُ ويظهره. وأَصْله سمو حذفت لاَمُه، وعُوض عنها همزة وَصْل. وعند الكوفيين من الوَسْم؛ وهو العلامة؛ لأنه علامة على مُسَمَّاهُ. حُذفت فاؤه، وعوّض عنها همزة وصل فَوَزْنه عند البصريينَ افع، وعند الكوفيين اعل. واللَّهُ عَلَمٌ على الذَّات الواجبة الوجودِ، المستحقة للكمالات؛ وهو أَعْرَف المعارفِ عند الجمهور، وبعده الضمير، وهل هو مترجل أو منقول خلاف. والرَّحمن والرحيم صفتانِ بنيتا للمبالغة من رَحُمَ بعد نقله إلى فَعُل بالضم لأنَّ الصّفة المشبَّهة لا تكون إلاَّ من القاصِرِ، والجمهور على أَنَّ الرَّحمن أَبْلَغ من الرحيم؛ لأَنَّ كثرة المبنَى تدلّ على كثرة المَعْنَى. واختلف في تعيين معناهما، فقيل الرَّحمن في الدّنيا، والرحيم في الآخرة. ولا شك أن الرحمة في الدنيا أعم؛ لأنها تشمل المؤمن والكافر. وفي الآخرة خاصَّة بالمؤمن. وقيل: الرَّحْمَان بجلائل النِّعَم، والرحيم بدقائقها. وقيل: الرَّحمَان بنعمة الإِيجاد. والرحيم بنعمة الإمداد، وهذا أَحْسُنهَا، ويجوز فيهما سبع إعرابات جَرّهما ورفعهما ونصبهما. ورفع الثاني ونصبه، مع جر الأول ورفع الأول، ونصب الثاني، وعكسهُ. وَلاَ يجوز جرّ الثاني مع رفع الأول أَوْ نصْبه. إذ لاَ يجوز الاتباع بعد القطع على المشْهُور.

إعلان: علامة الصَّاد في هَذَا الكتاب تدل على المصنف. وعلامة الشّين تدل على الشارح هـ. ولما كَان المقصود من عِلْم النَّحْوِ، إصلاح الكَلام من اللَّحْن، بدأ به فقال رحمه الله. (ص): الكَلام هو اللّفظ المركب المفيد بِالوضع. (ش). قلت: الكَلاَمُ عند اللُّغويينَ، كل ما يفهم المقصود، كَان قولاً أو غيرهُ. وعند النحويينَ ما أَشَار إِليه المصنف بِقولِهِ: هو اللفظ، أي الصَّوْت المشتمل على بعض الحروف الهجائية، فاحترزَ بِهِ، مما يفهم المعنى ولَيْس بلفظ كالخطِّ. تقول العربُ: الخط أَحَد اللسانَيْنِ، والإِشارة كقول الشاعر:

خَوَاجِبنا تَقْضِي الحوائِجَ بيْنَنا ... ونحن صمُوت والْهَوَى يتكَلَّمُ

ولسان الحال كقول الشاعر:

امتلأَ الحوض وقال خطْني ... مَهْلاً رُوَيْداً قَدْ مَلأْتَ بَطْنِي

وحديث النَّفس. قال الشاعر:

إِن الكَلاَمَ في الفؤادِ وإِنما ... جُعل اللسَان على الفؤاد دليلاَ

وَالتَّكْليم؛ وهُوَ مصدر كلّم. كقَول الشاعِر:

قـالـوا كـلامـك هـنـداً وهـي مـصـغـيـة | يـشـفـيـك قـلـت صـحـيـح ذاكَ لـوْ كَـانَـا

فأَطلَقَ الكَلاَم على التكليم، الذي هو معْنَى؛ وهو إِيصال الكَلاَم إلى الغَيْر؛ فهذه الأمور كُلّها تُسَمَّى كَلاَماً فيَ اللُّغة لاَ في اصطلاح النحويينَ. قَال في الكَلام، عوضاً عن المضاف إليه، أي كَلام النحويينَ، وقيل للاسْتغراق. قال المبرد: الكَلاَم كله عربيُّهُ وعَجَمِيّهُ لاَ يخرج عن هذه الأقسام الثلاثة: اللفظ والتركيب والإِفَادَة. وبقوله بالوَضع، يخرج غير كَلام العربِ. والمركَّبُ: ما تركَّبَ مِن كلمتيْن فأَكْثَرَ، سواء كَان ملفوظاً أَوْ مقدَّراً كاستقمْ.

وسواء تركَّبَ فِي اسميْن، أَو من فِعل واسم، أو من فِعْلٍ واسميْن، أَوْ من فِعل وثلاثة أَسْماء، أَوْ من جملتيْن. واحترز به من الكلمة الواحدة. إِمَّا حقيقة، ككَمْ وَهَلْ وَبَلْ، أَو حكماً كَبَعْلَبكَّ. وامْرىء القيس وتأبط شراً عَلَماً. وأَسقط هذا الشرط أي التركيب، كثير من النحويينَ، استغناء عنه بالمفيد.

تنبيه: لاَ يشترط في المركَّبِ أَن يكون من متكلم واحدٍ، فلو اتفق رجُلانِ أَن يقول أَحدهما كلمة، والآخر كلمة وحصلت الفائدة للسامع، لكَان كَلاَماً. كما أن الكاتب لا يشترط اتحاده، في كوْنِ الخَطِ خطه، قال ابن مالك، وغيْره. والمفيد: ما أَفادَ فائدة يحسن سكوت المتكلم عليها، بحيْث لاَ يصير السَامع منتظراً لشيءٍ آخَرَ. واحترز به، مما لاَ فائدة فيه. لتوقفه على غَيْرِهِ لجملة الشرط دون الجزاءِ أَو ما هو معلوم عند المخاطبِ كالسماء فوقنا، والأَرض تحتنَا، والنَّار حارة، واللَّهُ ربنا، إِذا خاطب به المؤمن. هكذا قال الجمهور. وقال أَبو حيان، لا وجْه لاِشتراطِ كَوْنِ الفائدة جديدة. وإِلاَّ لَزِمَ في كل مَا عُلِمَ مَدْلُولُه أَلاَّ يكون كَلاَماً. واللاَّزم باطِل. قلت: أَمَّا الإِخبار بمعلوم فلا وَجْه للنطق بِه؛ إِلاَّ على وجه التبرك والتَلَذّذ أَو الترقِّي في اليقين، أَو التحذير والتبشير في الوعظِ. فهذا لاَ بَأْس بِذِكرهِ. ويُسمَّى كَلاَماً باعتبار قَالَبه والله تعالى أَعْلَمُ. وقوله بالوضع: المراد به الوضع العربي؛ وهو جعل اللفظ دليلاً على المعْنَى. احترز به من كَلاَم العجَم. وهو كل ما خالف العربية، كالعبرانية، والسّريانية، والشلحية، وغير ذلكَ. فلا يُسَمَّى شيء من ذلكَ كَلاَماً عند النحويينَ، إِذ لاَ بَحْثَ لهم فيه بإِعرابٍ وَلاَ بناءٍ. وقيل المراد بالوضع: القَصْدُ. وهو أَنْ يقصد المتكلّم إِفادة السامع، فاحَترزَ به من كَلاَم النَّائِم، والسكران. ومحاكَاة الطيور، فلا يُسمَّى شيء من ذلك كَلاَماً. وهَذَا القيد اعتبرَهُ

الجَزُولي، وابن مالك، وابن عصفور وغيرهم. ورد بأن المفيد يغني عنه. فإن حصلت الفائدة للسامع من هؤلاءِ، وأيْقن بصحة كَلامهم، سمي كَلاماً في حقه. قال الأزهري، وهذا الخلاف له التفات إلى الخلافِ في دلالة الأَحكَام، هَلْ هي وضعية أَو عقْلية، والأصح الثاني. فإن من عرَف مُسَمَّى زيْدٍ، وعَرف مسمَّى قائم. وسمع زيد قائم بإعرابه المخصوصِ فَهِمَ بِالضَّرُورة مَعْنَى هَذَا الكَلاَم هـ. يعْنِي أن الخِلاَف في تفسير الوَضع بالوَضع العربي، أَو بالقَصْدِ مَبْنِي على الخلاف فِي دِلالة الكَلام وعَلَى المعنَى، هل هي وضعية أو عقلية. فإن قلنا دِلاَلَة الكَلاَم على المَعْنَى وضعية. فسَّرْنَا الوضْعَ بِالْقَصْدِ. وقوله: والأصح الثاني: فيه نَظَر، بل الأصح. أَنَّ دِلاَلَة الكَلاَم وضعية؛ لأنَّ العرب، كما وضَعتِ المفردَات تدل على الأشخاص، وضعت الجمل تدُلُّ على النِّسب، لكن وضع المفرداتِ بالشخص، بِأَنْ وضَعْت كل مفرد يَدلّ على مُسَمَّاهُ. ووضع الجمل بالنوع بأن وضعت بعض الجمل تدل على النسب، بأن تكلمتْ ببعض الجمل، وسكتت عن الباقي. فَقِسْ ما لم تتكلم به على ما تكلمت بِهِ. فانظر الشنواني. هذا ما يتعلق بالكلام. وأما الكلم فهو اسم جنس جمعي، أَقله ثلاثة. أَفاد أَم لاَ. فقولكَ قَامَ زيْدٌ كَلامٌ لا كَلم. وقولك إن قامَ زيْد كلم لا كلامٌ. وقولكَ قد قام زيْدٌ كَلاَم، وكلم. والكلمة: اسم مُفْرَد كَزَيْدٍ. والقول عام. فيصدق بالكلام والكلم والكلمة. وينفرد بِقولك غلام زَيد، فَبَيْنَ الكَلام والكلم عموم وخصوص مِنْ وجهٍ، وبحث فيه الأزهري بعد اتحادِ المادَّةِ، فانظره، والله تعالى أَعْلَمُ.

الإِشَارَةُ: الكَلاَمُ عِنْدَ الأكياس، هو اللفظ المركَّبُ من المقال والْحَالِ. بأَن يكون المتَكلِّمُ ممَّن ينهض حَالُهُ. ويدل على الله مقاله، المفيد في قول المستمعينَ. إمَّا علوماً أَو أَنواراً، أَو أَسْراراً. وفي الحِكَم: تسْبق أَنوار الحكماء أقوالهم، فحيث ما سار التنوير، وصل التعبير. فيفيد بمجرَّدِ وضعه في القلوب، نهوضاً واشتياقاً إلى الحضرة المقدسة، أَو خوفاً زاجراً عن المعصية. والحاصل أَنَّ الكلامَ إذا خرج من القلب، وُضع في القَلْب. فيفيد إمَّا خوفاً مُزْعجاً، أَوْ شوقاً مقلقاً. وإذا خرج من اللسانِ، كَان حدّه الآذان. أو تقول: الكَلام عند الحكماء هو اللفظ المُرَكَّب من القول والعمل. فإذا كَان الكَلام خالياً عن العمل، كَان غيره مفيداً في القلوب لكون الحال يُكذِّب المقال؛ لأَن المتكلم الواعظ، إذا عمل أَوَّلاً. ثم تكلم ووعظ، نفَعَ قَوْلهُ. وأَنْهَض حالهُ. وإلاَّ كَان ضرباً من حديد باردٍ، وفي ذلكَ يقول الشاعر:

يـا أَيـهـا الـرَّجُـل الْـمُـعَـلـم غَـيْـرهُ   هَـلاَّ لـنَـفـسـكَ كَـان ذا الـتـعـلـيـمُ

تَصِفُ الدَّواءَ لذي السقام وَذي الضَّنَا ... ومن الضنا وجواه وأَنت سقيمُ
وَنَراكَ تُصْلِحُ بالرشاد عقولنا ... نُصْحاً وأَنت من الرَّشاد عديمُ
إِبدأْ بنفسكَ فانهها عَنْ غَيِّها ... فَإِذا انتهتْ عَنْهُ فَأَنْتَ حَكِيمُ
فهناك يُقْبَل إن وعظت ويقتدي ... بالقولِ مِنْكَ وَيَنْفَع التَّعْلِيمُ
لاَ تَنْهَ عن خُلُقٍ وَتَأْتي مِثْلَهُ ... عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ

وإن شئت قلت: الكَلام الذي يعود بالنَّفْع على صاحِبِهِ هو اللَّفْظ المركب من الْقَلْب واللسَانِ. المفيد بوَضْعه في القلْبِ؛ تَنويراً أَوْ ترقية وشُهُوداً؛ وهو الذِّكر الحقيقي بِاللسانِ والقلب. أَو بالقَلْبِ والرُّوح، أَو بِالرُّوح والسِّرِّ؛ وهو دَوام الشهود، أَو المفيد أَجراً جزيلاً، وإِحْساناً جميلاً. وهو ذِكر اللسانِ والقلب. إذا كَان بِلا شيْخ، أَوْ أَمراً بمعروفٍ، أَو نَهْياً عن مُنكَرٍ. وما سِوَى ذلِكَ لغْوٌ وهَدر، ولهو وتضييع العمر. واشتغال بما لاَ يغنِي. قال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾. وقال عليه السلامُ: «مِن حُسْن إِسْلاَم الْمَرْءِ تركه ما لاَ يَعْنِيه». فالكلام كلهُ عليكَ لاَ لَكَ. إلاَّ ذِكْر اللّهِ وما والاَهُ. وفي الحديث: «رَحِمَ اللَّهُ عَبْداً سَكَتَ فَسَلِمَ، أَوْ تكلَّم فغنم». ويرحم اللَّهُ القائل:

لَوْ يكون الكَلاَمُ في القِيَاسِ ... مِن فِضَّةٍ بَيْضَاءَ عِنْدَ النَّاسِ
إِذاً لكَانَ الصَّمْتُ مِنْ عَيْنِ الذَّهب ... فافْهَمْ هَدَاكَ اللَّهُ آدابَ الطلبْ

وسَمِعت شيخنا البوزيدي رضي اللَّهُ عنْهُ يقول: الفقير الصَّادِق، يتكلَّم بِكلمةٍ واحِدةٍ، يقضي بها أَلْفَ حاجَة، والفقير الكَاذِب، يتكلم بأَلفِ كَلمة، يقضي بها حاجَة واحدة هـ. وقلت في بعض الرسائل لبعض الإخوان بعد كَلام: طالب الوصول، لاَ تجده إلاَّ ذاكراً، أَو متفكّراً، أَو تالياً، أَو مُصَلياً، أَوْ مذَكِّراً، أَو مستمعاً. أَوقَاتُهُ معمورة، وحركاتُهُ وسكنَاتهُ بالإِخلاص ملحوظة، إن تكلم فبذكر اللّهِ. أو ما يقرِّب إلى اللّهِ، وإِنْ صَمَت فَعَن الغَيْبة في اللّهِ يَجُول في عظمة اللّهِ. أَوْ فيما يُقرِّبهُ إلى الله. وإِن تحرَّكَ فبِاللّهِ وإِلى اللّه. وإِنْ سَكَنَ فَمَعَ اللّهِ، مسْتأنساً باللّهِ مشتغلاً بِرَبِّهِ، غائباً عن نَفسِهِ لَيْس له عن نفسه إِخبار، وَلاَ مع الله قرار. أَنْسُه بِاللّهِ، ومجالسته مَعَ اللّهِ التقوى زاده، والقناعة رِفَادُه. ومن بَحْر العِرْفانِ اسْتِمْدادهُ. قَدِ اسْتَغْنَى بِاللّهِ عمَّا سهوَاهُ. ورفض وراء ظهره دنياهُ وَهَوَاهُ، قَدِ اتَّخَذَ الله صاحباً.

وتركَ النَّاس جانباً، وفي الصَّمْت عن غَيْر ذِكر اللَّهِ حِكَم وأَسْرارٌ لا يذوقها إلاَّ مَنِ استعمله وتخلق بِهِ. والله تعالى أَعْلَمُ: هذا ما يتعلق بكلام الخَلْق عبارة وإشارة. وأما كَلاَم الحق تعالى، فهو معنى قائم بذاته، قديم بِقِدم الذَّات، مُنَزَّه عن الحروف والأصوات، وعن التركيب والتقديم والتأخير، وسَائر أنواع التغيرات المتعلق تعلق دِلاَلَة بما يتعلّق به العلم من المتعلقات.

ولما كَانت المعْنَى لاَ تظهر إِلاَّ بالحسِّ، خَلَقَ الله حُرُوفاً وأصواتاً تدلُّ على ذلِكَ المَعْنَى، فتارة يخلقها من الجمادات كالشجرة وغيرهَا مثلاً، وتارة من الحيوانات كالملائكة والآدمي وَغيرهما. فكَمَا أَنَّ الذَّات لا تظهر إِلاَّ في مظاهر التجليات الخليقة. فالكلام معنى قائم بِالذَّاتِ، وَلاَ تقبض المعنى إِلاَّ بِالحِسّ فأظهر الله حروفاً وأَصْواتاً تدلّ على معْنَى كَلاَمه تَعَالَى. ولـمَّا كَانت كل صفة من صفاتِهِ تعالى لاَ تتناهَى. كان ما يدل عليها لا يتناهى جِنسُهُ ونوعُهُ. فالكَلام الذي هو معنى قائم بذاتِهِ تعالى؛ لا نِهَايَةَ لَهُ؛ لأنه تابع لِعِلْمه. كَذَلِكَ ما يَدُلّ عليه، لاَ يتناهى جِنسِه وَنَوْعُهُ: «قُلْ لوْ كَانَ البَحْرُ مِداداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ البَحْرُ قَبْلَ أَنْ تنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً». «وَلَو أنما في الأَرَضِ مِنْ شجرةٍ أَقْلام والبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَة أَبْحُر مَا نَفِدت كَلِمَاتُ اللَّهِ». وقول المتكلمين: كُلَّمَا دَخَلَ الْوُجُود مُتَنَاهٍ خَاصّ بالمخلوقات وَصِفَاتها. وأَمَّا ذَاتُ الحقّ تَعَالَى وصفاتهُ فَلاَ نهَايَة لَهَا، وَلاَ لِمَا يدلّ عَلَيْهَا فَتَجَلِّيَاتُ الذَّاتِ لا تنحصر وَلاَ تَتَنَاهَى. وكذلك تجليات الصفات لا تنحصر وَلاَ تتناهَى نوعاً وجنساً. فكلاَمُ الخلق يتناهَى لفظاً ونوعاً، وكَلاَم الحق لاَ يتناهى نوْعاً، وإِن كَان يتناهَى لفظاً. فكل كلمة برزَت للوجودِ تتناهَى في نفسهَا؛ لأنها مخلوقة، وَلاَ تتناهَى في نوعِهَا؛ لأنها دالَّة على معنى لاَ نهاية لَهَا. فإذا انقضت كلمة من جِهَة لفظها، فلاَ بدَّ من كلمة أُخرى، تدل على المعْنَى الَّذي لاَ نِهاية لَهُ. وهكذا: لأَنَّ الكَلاَم تابع للعلم، وعلمه تعالى لاَ نهاية لهُ. فكذلك كَلاَمه الدَّال عليه. فالحروف والأصوات مخلوقة حادثة، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾. والمعنى قديم بقدم الذّات والله تعالى أَعْلم.

ولما كَان كل مركب لاَ بد له من أَجْزاءٍ يتركَّبُ مِنْهَا، بيَّنَ ذلِكَ فقال: (ص): وأَقْسَامه ثلاثة: اسم وفِعل وحرْفٌ جاء لمعنًى، (ش). قلت: الضَّمير يعود على الكلام؛ فهو من تقسيم الشيء إلى أَجزائِهِ لاَ إِلى أَنْوَاعِهِ، والفرق بينهما أَنَّ تقسيم الشيءِ إلى أَنْوَاعِهِ، يصحّ حمل المقْسُومِ على كُلِّ نَوْعٍ من أَنْوَاعِهِ كتقسيم الإعراب

إلى أربعة كما يأتي فيصح أَنْ يقول: الرفع إعرابٌ، والنصب إعراب، والخفض إعرابٌ بخلافِ تقسيم الكلام إِلَى الاسْمِ والفِعْلِ والحَرْفِ. فلا يصح أَنْ تقول: الاسم كلام، والفعل كلام، والحرف كَلاَمٌ. فهُو من تقسيم الشيء إِلى أَجْزَائِهِ، أي أَجزاء الكَلاَم التي يتركَّبُ مِنهَا، من حيْث مجموعهَا لا جميعها ثلاثة. والتحقيق أَنَّ التقسيمَ إنما هو الكلمة التي يتركَّبُ الكلاَمُ منها. فلو قال: وأَقسامه الكلمة التي يتركَّبُ منها ثلاثة، لكَان أَحْسَن؛ لأنَّ الكَلاَم قد يتركَّبُ من جُزْءَيْن فقط. فلا يفي بتمام التقسِيم. وحقيقة الاسْم: ما دَلَّ على معْنًى في نَفْسِهِ؛ ولم يتعرَّض بِصِيغتِهِ للزَّمانِ؛ وهو على ثلاثة أَقسام، ظَاهر، ومضمر، وَمُبْهَم كالموصولات والإشارات. وحقيقة الفعل مَا دَلَّ على معنى في نَفْسِهِ، وتعرَّض بصيغته للزَّمانِ؛ وهو ثلاثة: ماضٍ، ومضارع، وأَمر، وحقيقة الحرف: ما دلَّ على معنى في غيره فقط؛ وهو ثلاثة: مختص بالأسماءِ، كحَرف الجرّ، ومختص بالأفعال كالنواصب والجوازم، ومشترك بينهما، كهل وبل وكم. وقولنا في مد الحرف فقط، احتراز من أسماء الشروط وإنها تدل في نَفسها وفي غَيْرها. فهي أَسْماء لا حُرُوفٌ. وسُمِّيَ الاسم اسماً لسُمُوِّهِ؛ لأنَّه يدلُّ على شَرَف مسمَّاهُ، غالباً، ولأَنه يخبر به وعنْهُ. ولذلك استحقّ التقديم، وسُمِّيَ الفِعْل فِعْلاً؛ لأَنَّه يدُلُّ على فِعْلٍ صَدَرَ من الْفَاعِلِ، ولذلكَ قال سيّدنا عليّ كَرَّم اللَّهُ وجْهَهُ، ورضي عَنْهُ الاسمُ ما دَلَّ على المسَمَّى. والفعل ما دَلَّ على حركة المسمَّى. وقد لاَ يدلّ على فعْل كَمَاتَ وَهَلكَ. فيدُلّ على الاتصاف بالشيء أي اتصف بالموت والْهَلاك. ومنه عزّ وَذُو أي اتصف بِالعزّ والذّلِ. وَسُمِّيَ الحَرْف حرفاً لوقوعه طرفاً من الكَلاَم ليْس مقصوداً بِالذَّاتِ، ومن حرف الجبل، أي طرفه. قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍۖ﴾. أي طرف من الدِّين غيْر متمكّن مِنْهُ بل أَقل شيء يُزَلزلهُ عنْهُ. واحْتَرَزَ بقَوْلِهِ، جاءَ لمعْنى من حروف المعَاني التي هي جزء الكلمة، كالضادِ من ضَرَب. والعَيْن من عُمَر. ومن حروف المُعْجَم التي هي أَصْل مدار اللُّغة عربيها وعجيمهَا. وهي ألف، وباء، وتاء إلى آخره فإنها أَسْماء، والمعنى الذي جاء إليها الحرف هي المعنى في غَيْره كَمِنْ لتبعيضِ الكَلام فهي تدل على تبعيض غيرهَا لاَ نَفْسِهَا أَوْ ابْتداءِ غاية غيرها، وهكذا. وكذلكَ إلى تدل على انتهاء غَيْرهَا. الواقع بعدهَا، وكذلك سَائر حروف المَعَانِي كَإِنَّ لتوكيد ما بَعْدَهَا وليْت للتَّمنّي وقس على ذلكَ.

الإِشارَة: وأَقسام الكَلام الَّذي يصل به العبد إلى حضرة مَوْلاه ثلاثة اسم أي ذِكر الاسم المفرد؛ وهو الله. قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾. أي

انقطعْ إليه انقطاعاً كُلّياً ليْلاً ونهاراً. فالاسم المفرد هو سلطان الأسْمَاء؛ وهو اسْمُ الله الأَعْظَم، فلا يَزَال المريد يذكره بلِسَانِهِ، ويستهلُّ بِهِ، حتى يمتزج بلَحمِهِ وَدَمِهِ. وَتَسْرِي أَنْوارهُ في كليتِهِ وجزئياتِهِ. فيتَّحِد الذّاكر والمَذْكُور، فينتقل الذِّكر إلى القلْب، ثُمَّ إِلَى الرُّوحِ، ثم إلى السِّرّ، فحينئذٍ يَخْرسُ اللِّسَان، وَيُحَصِّل على محلِّ الشهودِ والعيَان. فيصير ذِكْر اللسانِ ذنباً من الذُّنوبِ عند مُشاهدة عَلاَّم الغيوبِ حَسَنَات الأبرار، سيآت المقربينَ. وفي ذَلِكَ يقول الشاعر:

مَـا إِنْ ذَكَـرتـكَ إِلاَّ هَـمَّ يَـلْـعَـنُـنِـي ... سِـرِّي وقَـلْـبِـي وَرُوحِـي عِـنْـدَ ذِكْـرَاكَ

حتَّـى كَـأَنَّ رقـيـبـاً مِـنْـكَ يَـهْـتِـفُ بِـي ... إِيَّـاكَ وَيْـحَـكَ والـتَّـذكَـار إِيَّـاكَ

أَمـا تـرى الـحـق قـد لاَحَـتْ شـواهِـدُهُ ... وواصِـلِ الـكُـلَّ مـن مـعْـنَـاه مَـعْـنَـاكَ

فالذِّكْر منشور الوِلاَيةِ، وَلاَ بُدَّ مِنْهُ فِي الْبِدَايَةِ والنهاية. وهو باب عظيم للدخول على الله، كما قال الشاعر:

الـذِّكـر بَـابٌ عَـظِـيـمٌ أَنْـتَ دَاخِـلُـهُ ... فَـاجْـعَـلْ بِـمَـنْـزِلِـهِ الأَنْـفَـاسَ حُـرَّاسـا

والثاني الْفِعْلُ: والمُرَادُ بِهِ مُجَاهَدَة النَّفس في خَرْق عوائدهَا، كيف تخرق لك العوائد، وأنت لم تغير من نفسك العوائد. فتخرق كثرة الكَلاَم بِالصُّمْتِ، وكثرة النَّوْم بالسُّهر. وكثرة الأكل بشيْءٍ من الجوع. وأَهَمُّ العَوَائِد الشَّاقَّة على النَّفس حبّ الرياسَة والْجَاه، فيتخرقها بِالذِلّ والفَقر، والنزول بها إلى أَرْض الخُمُولِ. ادفَن وجودكَ في أَرْض الخُمُول، فما نبت ممَّا لم يُدْفَن لا يتمْ نتاجُهُ. والمراد بالخمُول، كل ما يسْقط جاهها. ويحُط قدرهَا عنْد النَّاس فقد قالوه: هم كُلّ ما سقط من عَيْن الخلق، عَظُمَ مني عيْن الْحقّ. وبِالْعَكْسِ فإذا صار الذلّ والضعة والخمول عنده أَحْلَى مِنَ العِزّ. فقد ملكَ نفْسَهُ. ومن ملكَ نَفسه، مَلَكَ الْوُجود بِأَسْرِهِ. وَوَصَلَ إلى حَضْرَةِ رَبِّهِ. قال بَعْضهُمْ: انتهى سَيْر السائرينَ بِالظفر لنفوسهم. فإِن ظفِرُوا بها وَصَلُوا.

والثالث: الحرف. والمراد به الهِمة والقريحة، وطلب الْوُصُول إِلى اللَّهِ تَعَالَى، وهَذَا الْحَرف لاَ بُدَّ منْهُ في البِدَايَة. فَإِذَا وَصَلَ إلى اللَّهِ حَذَفَهُ. قال الشيخ أَبُو الحسَن الشاذلِي رضي الله عنْهُ. إِن كَانَ وَلاَ بدَّ من الحَرْف، فحَرف بيْنكَ وبيْن اللَّهِ، خيْر من الحَرْف يكون بيْنكَ وبيْن الخَلْق. والمراد بالحَرْفِ الطمع فِي الوصول إلى مَرْتبة من المَرَاتِب. فالحرْف النّوراني، هو الطمع في الوصول إلى اللَّهِ أَوْ إِلَى رِضْوَانِهِ أو إِلَى

كرامَة من كرامة أوْليائِهِ، أو إلى نَعيمه الدَّائم. والحرف الظلماني، هو الطمع فِي الْوُصُول إلى حظٍ من حظوظ النَّفس العاجلة، كالرِّياسة والتعظيم والجاه، وحبّ الدّنيا وغَيْر ذَلِكَ من المقاصد الدنيوية، التي يقصدها أَهْل الهِمَم الدِّينية. والحاصِلُ من الإشارة، أَنها ترجع إلى الأقسام الثلاثة التي يقطعها المريد؛ وهي الشريعة، والطريقة، والحقيقة فالشريعة أقواله عليه السلامُ. والطريقة أَفْعَالهُ والحقيقة أَحْوَاله. قال ﷺ: «الشريعة مقالي والطريقة فعالي والحقيقة حالي» فالشريعة أن تعبُدهُ، والطريقة أن تقصدهُ والحقيقة أن تشهدهُ، فالشريعة جلها أقوال. والطريقة جُلّها أفعال، أي مجاهدة ومكابدة. والحقيقة جُلها أخلاق وأَذواق، وإلى هذا ترجع الإشارة بقوله: اسم وفعل وحَرْف، كما تقدَّمَ فالشريعة لِلْعَوَام، والطريقة للخواصّ، والحقيقة لخواصّ الخواصّ. فَالْعَوَامُ اقتصَرُوا على التمسكِ بالشريعة الظَّاهرة. والخواصّ تمسّكُوا بالشريعة في الظَّاهِرِ وزادوا سلوك الطريق إلى الحقيقة بتهذيب النفوسِ، وتطهير القلوب. وهم السَّائرون من المريدينَ. وخواصّ الخواصّ: تمسَّكُوا بالشريعة في الظَّاهر. وبالطريقة في الباطِنِ. فأشرقت عليهم أنوار الحقائق، فتخلقوا بأخلاقه عليه السلامُ وورثوا حاله ومقالهُ. فَهُمْ الورثة الحقيقيُّون وَرِثُوا التركَة بتمامها، أقواله، وأفعَاله، وأَحْوَالهُ، وإلى هذا أشار صاحب المباحث حيث قال:

تَبِعَهُ الْعَالِمُ فِي الأَقْوالِ والعَابِد النَّاسك في الأَفْعَال

وفيهما الصوفي فِي السبَاقِ لكِنَّهُ قَدْ زاد بِالأَخْلاقِ

وذكَرَ القشيْري في تفسير قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ قال الظالم لنفسه: هو المتمسك بِأقوالِهِ عليه السلامُ والمقتصد، أي المتوسط، المتمسك بأقواله وأَفعَاله، والسابق بالْخَيْرَاتِ المتمسكُ بأَخْلاقِهِ عليه السلامُ هـ. أي المتمسكُ بأخلاقِهِ. بعد التمسك بِأقوالِهِ وأَفعَاله والله تعالى أَعْلَمُ، ثم ذكر ما يتميَّز به كل واحدٍ من هذا الأقسام الثلاثة. فقال (ص): فالاسم يعرف بالخَفْضِ والتنوين ودُخول الألف واللاَّم، وحروف الخفض. (ش) قلت الفاء فصيحة جواب عن سؤال مقدّر، كأَنَّ قائلاً قال: فَبِمَاذَا يعرف كل واحد من هذه الأقسام الثلاثة فقال، فالإسْمُ يُعرف بالخفض؛ لأنَّ الأفعال لا خفض فيها. والحروف كلها مبْنِيَة؛ وهو عِبَارة عَنِ الكَسْرَة التي يحدثها العامل في آخر الكلمة، سواء كانت بالْحَرْفِ، أَو بالإضافةِ، أَو بالتبعية. وقد اجتمعت في البَسْملة، أَو بالمجاورة كَقَولِ الشاعر:

كَأَنَّ أَبَانَا فِي أَفَانين ودقه كبير أناس في بجاد مزمّل فَمُزَمّل نَعْت لكبير خفض، مبجاورة بجاد، أَوْ بالتَّوهُّم.

كَقَول الشاعِر:

بَـدَا لـي أَنِّـي لـسْـت مـدركـهَـا مَـضَـى وَلاَ سَـابِـق شـيـئـاً إِذَا كَـانَ جَـائِـيـاً

فسابق عطف على مدرك المنصوب، لكنَّهُ خفض على توهم دخول بَاء الجر في خبر ليْسَ أَيْ لسْتَ بِمُدْركٍ شيئاً لم يسْبق بِهِ القدر، وَلاَ لاَحقٍ شيئاً سبَق به الْقَدَر قبل وقْتِهِ. وعبَّر المصنف بالخفضِ، وهو عبارة الكوفيينَ، وعبارة البصريين الجرّ؛ وهو أَفْصَح، ويعرف أَيْضاً بِالتنوينِ؛ وَهُو مصْدَر نَوَّنتُ الكلمة، أدخَلْتُ عليْهَا نوناً، وفي الاصطلاح: نُونٌ سَاكِنَة زائدة تلْحَقُ الآخر، تثبت لَفْظاً لاَ خطّاً، لغَيْر توكيد، فنون جِنس وساكنة: أَخرج به ضيْفنٍ ورعشنٍ لغة في الضيْف والمرْتعش. وزائدة: أَخرج به نون لدن. وتَلَحق الآخِر: أُخرج نحو غَضَنفَر. اسم للأَسَدِ، ولغير توكيد: أُخرج كنسفعاً وليكوناً، فإنَّها نون التوكيد. وكُتِبَتْ بالألفه مراعاة للوقفِ؛ لأنها تبدل في الوقف أَلِفاً. قال في الألفية: وَأَبْدِلَنْهَا بَعْدَ فَتْحٍ أَلِفاً. وَقْفاً كَمَا تَقُولُ فِي قِفَنْ قِفَا. وهو أَرْبعة أَقْسَام، تنوين التَّمْكِين؛ وهو الَّذِي يدلّ على تمكين الاسم في باب الإسمية. بحيث لاَ شِبْه فيه للحرف فَيُبْنَى، وَلاَ لِلفِعْلِ فيمنع منَ الصَّرْف، كَزَيْدٍ وَرَجُل وتنوين النكرة، وهو الَّذِي يدْخل على بعض الأسماءِ المَبْنِيَة، فَيَدُلّ على تنكير الكلمة أيْ شيُوعهَا إن وُجد وعلى تعريفِهَا أي تشخيصها إن فُقِدَ كَسِيبَوَيْهِ، فإنْ نَوَّنْتَهُ دَلَّ على كل شخصٍ اسمه سيبَوَيْه، وإن لَمْ تُنَوِّنْهُ دَلَّ على النحوي المعلوم إمَام النحويّينَ. وكذلكَ قلْ: إن نَوَّنته دَلَّ على أَيّ سُكُوتٍ، كَانَ وإن لَمْ تُنَوِّنْهُ دَلَّ على سُكُوتٍ معلوم، وكذلك أَيِّةٍ بمعنى حَدِّث، فَإن نَوَّنته دَلَّ على الأَمْر بأي حديثٍ، كَانَ. وفي الحديث عنه عليه السلام: «ايْه يابْن الخطاب». أي حدِّث بما شئتَ. وإنْ لم تنوِّنْهُ، دلَّ على الأمر بحديث معهودٍ، وتنوين الْعِوَض؛ وهو الَّذي يُعَوِّض عن حرْف، كجوار وغَوَاش. فأصله جواري وغواشي مَمْنوع من الصَّرْفِ، ثم اسْتثقلت الضَّمَّة فحذفَتْ، فَصَار جواري وغَوَاشي، ثم حُذفَت الياء وعُوِّض منْهَا التنوين، على المشهُور، أي عن كَلمة كتنوين كل وبعض عن الجُمْهُور. أَيْ عن جُمْلَة كَيَوْمئذٍ وحينئذٍ، وساعتئذٍ وعامئذٍ. نحو: «ويومئذٍ يفرح المؤمنُونَ» «وأَنتم حِيئَذٍ تنظرونَ». والأصل يوم إذا غلبَت الرُّوم فارساً يفرح المؤمنون. وحين إذا بلغت الروح الحلقوم. فعوّض التنوين عن الجُمْلةِ. وتنوين المُقَابَلَة؛ وهو الذي يَدْخُل على جَمْع المُؤَنَّثِ السَّالِمِ؛ فهو في

مُقابلةِ النُون. في الجَمْعِ المذَكَّرِ في الدِّلالة على تمام الكلمة. فإن التنوين يدل على تمامها في المفرد. والنون في المفرد. والنون يدل على تمامها في الجمع المذكر السالم بدَلِيلِ حَذْفِهَا للإضافةِ، فجعل التنوين يدلّ على التمام في جمع المؤنثِ السَّالِم في مُقابلة النُونِ فِي المُذكَّرِ. ويُعْرَف أَيْضاً بِدُخُول الألِفِ واللاَّمِ. سواءٌ كَانَتْ للتعريف، أو زائدة، كَالحارثِ والضحَّاكِ، أو موصولة كَالضَّارب والقَائِم على قَوْل الأكْثرِ. وقيل الموصولة غيْر مختصة بِالأَسْمَاءِ. فقد تدخل على المضارع كقول الشاعر:

مَا أَنْتَ بالحَكَم الترضَى حُكومتُهُ ... وَلاَ الأَصيل وَلاَ ذِي الرَّأْي والجدلِ

أي الذي تُرْضى حكومتُهُ. والمشهور أنه ضَرُورة. وهل ال بُرمَّتها للتَّعريف؛ وهو مَذْهب الخَليل، أَو اللاَّمُ فقط؛ وهو مَذْهب سيبَويْهِ، خِلاف. ويعرف أيْضاً بحرُوفِ الخفْضِ، ويُسَمّيها البصريون حُرُوف الجرّ؛ لأَنَّها تجرُّ ما بَعْدَهَا. نحو بزيْد وبكَ ومنك وإليك وفي ذلِكَ. فهذه كلها أَسْماء، وقد تجتمع على متانٍ فَأكثرَ في كلمة واحدة كما هو معلوم.

الإشَارَةُ: فالاسم الَّذِي تذكره وتستهل به وهو اللَّهُ؛ لأَنَّ الاسم هو عيْن المُسَمَّى يعرف بالخفضِ؛ وهو التحقق بالذّلّ والسُّفليات. قال الشّاعر:

تَذَلَّلْ لِمَنْ تَهوَى فَلَيْسَ الْهَوَى سَهْل ... إذا رَضِيَ المحبُوب صحَّ لكَ الْوَصْلُ

وقال آخر:

تَذَلَّلْ لِمَنْ تَهْوَى لتكْسِب عِزَّة ... فَكَمْ عِزَّة قَدْ نَالَهَا الْمَرْءُ بِالذّلِ

إِذَا كَانَ مَنْ تَهْوَى عَزِيزاً وَلَمْ تَكُنْ ... ذَليلاً لَهُ فَاقْرا السلام عَلَى الْوَصْلِ

وقال الشيخ أبُو الحسن رضي اللَّهُ عنهُ: اللهمَّ إنَّ القَوْمَ قَدْ حكَمْتَ عليْهم بالذّلّ حتَّى عَزُّوا، وحكَمْت عَلَيْهم بِالفقْدِ حتى وَجَدُوا. والمراد بِالذّلِ، هو ذُلّ النَّفس في طلب الحق. يُظْهِر ذلِك بيْن الأقْرَانِ، لتموت بِهِ النَّفس سريعاً فتحيَا الرّوح بمعرفة الحقّ وشهودهِ؛ وذلِك كالمشي بِالحَفَا. وتعرية الرَّأسِ في المواضع الذي يراه النَّاس، والسؤال في الأسواق، والحوانيت، فهذا هو الذُّلُ الَّذي يعقبه العِزّ بالله. وتحيا به الرُّوحُ بشهود مَوْلاهَا. ويعرف به الله حق معرفته؛ وهو معرفة العيَانِ لا معرفة الدَّلِيل والبُرْهان. وبالله التوفيق. ويُعرف اللَّهُ تعالى أَيْضاً بالتنوينِ، إِمَّا تنوين التمكين بأَن يمكِّنه اللَّهُ من صحبَة شيخ كامِلٍ عارف بِاللَّهِ. ثم يمكّنهُ من

خِدمته وصحبَتِهِ، ثم يمكنه من شهود الحقّ ومعرفتِهِ وإمَّا تَنوين التَّنكير، بأن يتنكَّر من جميع النَّاس، ويفرَّ مِنْهُمْ، حتى يتأنَّس باللَّهِ، فقد قال بعض الصوفية في شأن مَن دَخَلَ معَهُمْ تنكَّرْ لمَن تعرف، وَلاَ تَتعرَّف لمَن لاَ تعرف. وفي الحِكَم: مَهْمَا أَوْحَشَكَ من خَلْقِهِ، فاعْلَمْ أَنَّهُ أَرَادَ أَن يؤنسك بِهِ. وقال أَيْضاً: ما نفَعَ القَلْبَ شيءٌ مثْلُ عُزْلةٍ يَدْخل بِهَا ميْدَان فِكْرَة. وإمَّا تنوين العِوَض، بأن يُعوّض الغِنَا بالفقر، والعِزّ بالذّلّ. الخلطة بالعُزْلةِ، وهكذا يُبَدّل الأَشياء القبيحة بِأَضدادِهَا. وإمَّا تنوين المقابلة، فيُقابل عِزَ الرّبوبية بذلّ العبودية. تحقَّقْ بِوَصفكَ، يَمُدَّك بوَصفِهِ تحقق بفقركَ، يمُدَّكَ بغناهُ. تحقق بضعفك، يمدكَ بحوْلِهِ وقوَّتِهِ. ولَنَا في هذا المعْنَى:

تحقَّقْ بِوَصْفِ الفَقْرِ في كل لَحْظَة ... فما أَسْرع الغنا إذا صُحّح الفَقْرُ
وإن تُرِدَنْ تبْسط المواهب عَاجِلاً ... فَفِي الفاقة ريحُ المواهبِ يُنْشَرُ
وَإِن تُرِدَنْ عِزّاً منيعاً مؤبّداً ... فَفِي الذّلّ يخفى العِزّ بَلْ ثم يَظْهَرُ
وإنْ تردَنْ رفعاً لقَدْركَ عالياً ... ففي وضعك النَّفس الدّنية يحْضُرُ
وإنْ أَردتَ العِرْفان فافْن عن الوَرَى ... وعن كُلِّ مطلوبِ سوى الحق تَظْفُرُ
تَرَى الحقَّ في الأشياء حينَ تَلَطَّفَتْ ... فَفِي كُلِّ مَوْجودٍ حَبِيبِيَ ظَاهِرُ

ويُقابل أَيْضاً الأوصاف المذمومة، بالأوصاف المحمودة، كَالبُخْلِ بِالسَّخَاءِ، والتكبّر بالتواضع، والحقد والحسَد بِسَلاَمَة الصَّدْرِ. والقَلَق والحِدَّة بِالرَّزَانَةِ والتأَنّي. وهكذا يُقابل المَسَاوي بالمَحَاسِنِ، ويُقَابل الدَّاء بالدَّواءِ. ويعرف أيْضاً بدخولِ الألفِ واللاَّم؛ وهو إشارة إلى دخولِهِ الحضْرَة المقدَّمَة، فإنها معروفة عنْدَ العارفين، ومعرفتها بتعريف الله إيّاهَا على أَلْسِنَة الرّسُل وخلفائهم؛ وهي محلّ المشاهدة والمكَالمة، والمواجهة والمكَافَحَةِ. وَدُخُولها يكون يتحقيق ما تقدَّمَ من العَلاَمات المتقدمة. ويُعْرف اللَّهُ تعالى أَيْضاً الذي هو سمَّى الأسماء بحروف الخفضِ، أي بأسبابِ الخفضِ؛ وهي كل ما يخفض النفس وينزل بها إلى أرْض التواضع والسّفليات كما تقدم. والله تعالى أَعْلَمُ. ثم بيَّن حروف الخفض فقال:

(ص): وهيَ مِنْ: (ش) مبْنية على السكونِ، إلاَّ إنْ وَليها ساكن كَالأَلِفِ واللاَّمِ، فَتُفْتَحُ على خلافِ أَصْل التقاءِ السَّاكنيْن. قال الجريري إنما ذَلِكَ لكَسْرةِ الميمِ، فكرهوا التقاء كسْرتين. قلت: يرد بما إذا كَانَ الساكن غير الألف واللاَّم. فإنهم يكسرونه نحو ففرت من اعتداء زيد وإنما فتح مع ال التحقيق. وبقي على أَصْله في

غيْر ال. وقال الكِسائي والفرَّاء. أصْلها منًا، فخففتْ بحذفِ الألف وتسْكين النُّون، كثرة الاسْتعمال هـ. فإذا وليها ال رجعت إلى أصلها من فتح النُّون ولها معَان، أَشهر ابتغاء الغاية، أي ابتداء شيء له غاية في المكَان كثير، وفي الزَّمان قليل، فمن الأول. «من الْمَسْجِدِ الحرَامِ إِلَى المسْجدِ الأَقْصَا» «مِنْ تراب ثم من نطفَةٍ». من محمد رسول الله إلى هرقل. ومن الثاني: «مِنْ أَوَّل يوم أَحق أن تقوم فيه». مُطِرْنَا مِنَ الجمعة إلى الجُمُعَةِ. وللتبعيضِ؛ وهي التي يصح موضعها بعض. نَحو: «مِنْهُمْ مَنْ كَلَّم اللَّهُ». «لَن تَنَالُوا البِرَّ حتَّى تُنفِقُوا ممَّا تحبُّون». وللبيَان: أي لبيَانِ الجِنْسِ، وكثيراً ما تقع بعدما، ومهما، لكثرة إِبْهامهما، كقوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾ «مَا يَفْتَح اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رحْمَةٍ» «مَهْمَا تَأْتِنا بِهِ مِن آية». ومن غيْرهما. «فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ من الأَوْثَانِ». «يلبسون ثياباً خضراً مِن سُنْدُسٍ». وتُزَاد للتصنيف على العموم، مسبوقة بنفي أَوْ نَهْي أَو اسْتفهام بِهَلْ. نحو: «مَا لَكم مِنِ إِلَه غَيْره» ونحو: لا تضرب من أَحَدٍ. «هَلْ تُحِسّ مِنهم مِنَ أَحَدٍ». زاد في المغني: أن يكون المزيد فيه فَاعِلاً أَوْ مفعُولاً أَوْ مبْتدأً، بخلاف الْخَبَرِ، أَو الحال أو التمييز المنفِيَين. ولها معانٍ غَيْر هذا تركْنَا ذِكْرهَا خوف الإطالة، وهي أَقوى حروف الجرّ. ولذلك اختصَّت بِالدّخولِ على عنْدَ ولدن من ظروف الْمَكَانِ. (ص): وإلى (ش) لانتهاء الغاية في الزّمان والمَكَانِ. نحو: «إلى المسجد الأَقْصَا». «ثم أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ». وتكون بِمَعنى فِي، وبمعْنى اللاَّم، وبمعنى مِن. كما في التسْهيل. (ص): وَعَنْ (ش): للتجاوُزِ. نحو: رميْت السَّهم عنِ القوْسِ. وبِمَعْنَى على نحو: «وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ» أي على نَفْسِهِ. وقد تجيء بِمَعْنَى بعد. كقولِهِ تعالى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾. أي حَالاً بعد حَالٍ. (ص): وَعَلَى: (ش)، للاسْتِعْلاءِ حسّاً. نحو: «وعليها وعلى الْفُلْكِ تُحْمَلون». أَوْ مَعْنى نَحْوَ. «أولائِكَ على هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ» أي راكبين على مَتْنِ الهِدَاية. مُتَمَكّنينَ مِنْهَا. وبِمَعْنَى فِي، نحو: «على مُلْك سُلَيْمَان». (ص): وَفِي (ش): للظرفية، مكَانية أَوْ زَمَانية. نحو: «غُلِبَتِ الرُّوحُ فِي أَدْنَى الأَرْض». «فَصيامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ»، أي في زَمَانِهِ. والسَّبَبِية، نحو: «لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَفَضْتُمْ». أي بِسَبَبِ مَاَ أفضتم فيه من حديث الإفْكِ. (ص): وَرُبَّ (ش) للتقليل دَائماً عند الأكثر، أَو للتَّكثير دائماً عند الْغَضِ، أَو للتقليل غالباً، والتكثير قليلاً. وقيل: لم توضَعْ لِوَاحدٍ منهما، وإنما يُفْهَم ذلِك من خارج، واختاره أَبُو حيّان. وقيل: وُضعتْ لهما معاً من غيْر غَلَبة. وقال الأعلم، وإِن السِّيد بكسر السين للتكثير في مَوْضع الافْتِخَارِ، وللتقليل فيما عَدَاهُ. وهَلْ يجب

نَعْت مجرورها قوْلاَنِ. قال في التَّسْهِيل: لاَ يلزم وصْف مجرورهَا، خلافاً للمُبَرّدِ ومَن وافَقَهُ. وَلاَ مضيّ ما تتعلق به، بل يلزم تصديرها، وتنكير مجرورهَا. فإن دَخَلَتْ عليْها مَا دَخَلَ على الجُمَلِ، وزال اختِصَاصُهَا بالأَسْمَاءِ. نحو: «رُبَمَا يَوَدُّ الذِين كَفَرُوا». وتخفيف المبالغة فيها. وقد تدْخل عليها تاء التأنيث في اللّغتيْن معاً. (ص) وَالْبَاءُ (ش): للإلصاقِ، نحو أَمْسَكْت بزيْدٍ. ومنْهُ: «وامْسَحُوا برُؤوسكم» عند مالكٍ، وللتبعيض عند الشافعي. وتكون للاسْتِعانَةِ، نحو: كتبْتُ بالقَلَمِ. والمصاحبة كالبَسْملة، وللتَّعْدية، نحو مَرَرْت بزيْدٍ، إذا كَان الفعل قاصراً عُدّي بِهَا. ولِلْعِوضِ «ادخلُوا الجنَّة بما كنتُم تَعْمَلُونَ». أيْ عِوَض ما كنتم تعملونَ؛ لأَنَّ الّذي يُعْطي بِعوَضٍ، قد يُعْطي مَجَاناً، أي بِلاَ عِوَضٍ، بخلافِ الّذِي يُعْطِي بِسَبَبٍ. فلا بُدَّ من وُجُودِ سببهِ. فليْسَت البَاء حينئذٍ سَبَبية. لقولهِ عليه السلامُ: «لَنْ يَدْخل أَحَدُكم الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ». فينتفي التعارف بيْن الآية والحديث. ويُجاب أَيْضاً بأَنَّ الآية شرعت، والحديث حقق. فالجمْعُ بيْنهما لازِمٌ. (ص) والكاف (ش) للتشبيه. نحو: «وَرْدة كَالدِّهانِ». وللتعليل: «واذْكروهُ كما هَدَاكُمْ». ومنه قول القطب ابن مشيش في تعليته المشهورة: كما هُوَ أَهْله. وللمبادَرَة، كقول صاحب الرسالة: وليرقَ المِنبر كما يدْخل. وقد تزاد نحو: «ليْس كمثله شيء». (ص) واللاّمُ. (ش) للاستحقاق: الحمد لله. وللمُلك: «لله مَا فِي السَّمٰوات والأرض». وللتَّمليك نحو: وهبْت لزيْد مالاً، وشبه التملكِ، نحو: «جعل لكم الأرض مهاداً» وللتعليل؛ نحو: «لإيلافِ قُرَيْشٍ». أَيْ فليعبُدُوا لأَجل إيلافهم الرّحلتيْن؛ وهي مكْسُورة. إلاَّ إن دَخَلَتْ عى المُضمَرِ فتُفتح، بخلاف الباء، مكسورة مطلقاً. ورُوي فتحها مع الظاهر فيقال بزيد. قال السوداني: (ص) وحروفِ القَسَمِ (ش) يصح أَن يقرأ بالرفع عطفاً على من، وبالخفض عطفاً على بالخَفْضِ، بناء على أَنَّ العَاطف إِذا تعدَّدَت هل تعطف على الأول أو كل واحدٍ على ما يليهِ؛ قوْلاَنِ أَوْ خلاف. والقسم: اسم مصدر أَقسَمَ؛ وهو الحلف، وهو في عرْف الفقهاء: تحقيق، ما لم يجب بذكر اللّهِ، أَو صفته. (ص) وهي الواو (ش)، وتختصّ بالظَّاهِرِ نحو: «واللَّهَ رَبِّنَا ما كُنَّا مُشركينَ». «والضُّحى والليل إِذَا سَجَى». ويجب مَعَهَا إِضْمار فعل القَسَم، فلا يظهر أَبَداً. وهل هذه الواو هي العاطفة، كواو رُبَّ عطفت على مقدر، قاله البيهقي وغَيْرُهُ. أَو بدل من الباء والتاء بدل منْهَا، وبه جَزَم الزَّمخشري وابْن مالك وغيرهما، قولانِ، والأصح الثاني. (ص) والتَّاء، (ش) وتختصّ بِاللَّهِ، نحو تَالله لقد أَرسلنا، فلا تجرّ غيره ظَاهِراً وَلاَ مضمراً، وسمع تالرحمان وتربَّ الكعبة

وتحياتك. وتقدم أنها بَدَلٌ من الباءِ. وقال قطرب هي حرف مستقل للقَسَمُ اكتفاء بِذكرِهَا، في حروف الجرّ؛ لأنَّ القسم معنًى من معَانِي الباء. والقسم في الباءِ أصْلِي، ولذلك جاز إظهار فِعل القَسم، أي يرفع على المبتدأ، نحو قوله تعالى: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾ قريء بالوجهيْنَ معاً في الأول. والله تعالى أَعْلَمُ. وبقي من عَلاَمَاتِ الاسم النّدَا. والإسْناد إليه، نحو: يَا زَيْد، وقمْت، وعلمت، فالتاء اسمٌ، لأنك أَسْنَدتَ إِليها الْقيامَ والْعِلم، فالاسم يُسْنَد ويُسْند إليه، بخلاف الفِعْل، فَإِنهُ يُسْنَدُ وَلاَ يُسْنَدُ إِليه. وبالله التوفيق.

الإشارة: فَمِنْ: إشارة إلى ابْتداءِ السَّيْرِ، وإلى إشارة إلى انتهَائه، فَلِلْمُرِيد بداية؛ وهي المجاهدة، ونهاية، وهي المشاهدة. فَمَنْ أشرقَتْ بِدَايتُهُ، أَشرقت نهَايتهُ. فَإشراق الْبِدَاية. هي القريحة الوَقَّادَةُ، والكَدّ والجدّ في مجاهدة النَّفْسِ، وعمارة الأوقات، وإشراق النهاية: هي دَوَام شهود الحقّ، والعكوف في حضْرة القدس، ومحلّ الأنس. والنَّاس ثلاثة أقسام: قَوْمٌ قَنعُوا بمقام الإيمان، ولم تُرْفَع هِمّتهم إلى طلب العيَانِ. فَهؤُلاَءِ لاَ سَيْرَ لَهُمْ فَهُمْ من عَوَام المسلمينَ. وقوم تعلقت همّتهُم بالوصولِ، واستعْملوا شيئاً من عبادة الظَّاهر، لكن لَمْ يظفروا بشيخ التربية، ولم يَقدروا على صحبَتِهِ، ولم تسمح نفوسهم بالتجريد وخرق العَوائد، فهؤلاءِ صالحون أَبْرار؛ وهو أَيْضاً من عامّة أَهْل اليَمين. سواء كانوا من العُبّادِ، أو الزُّهاد، أَو العلماء الأنجاد؛ لأنهم، حيْث لم يخرقوا عوائد أَنْفسهم لَمْ يتحقق سَيْرهم، فَلَوْلاَ مَيَادِين النّفوس، ما تحقق سَيْرُ السَّائرينَ، كيف تخرق لك العوائد. وأَنتَ لم تخرق من نفسكَ العوائد، وقوم ارتفعت هِمَمهم إلى الوصول وظفروا بشيخ التربية، وقوَّاهم الله على صُحبته وخِدْمتِه. وتجرَّدُوا من عوائدهم، فَأَشرقت بدايتهم بالمجاهدة والمكَابدة. وأَشرقتْ نهايتهم بِدَوَام المشاهدة. فهؤلاء خاصَّة الخاصَّة؛ وهم المقرَّبُونَ السابقونَ جعلنا اللّه من خواصِّهم، بمنِّهِ وكَرَمِه. وعن تشير إلى المجاورة عن العلائق والشواغل. إذْ لاَ يصحُّ السَّيْر مع العَلائق والشواغِلِ. وكان شيخنا البوزيْدي رضي اللّهُ عنه يقول: إن شئتم أن نَقْسِم لكُمْ: لاَ يَدخل عالم الملكوت وفي قَلْبِهِ عَلَقه. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ أي فرادى من عَلائق القلب وشواغله وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾، أي يتيماً مِنَ السِّوَى فآواكَ إلى حَضْرَتِهِ. وقال الشاعِرُ:

فَازَ مَنْ خَلَّ الشواغل ولمَوْلاه توجه. وعَلَى: إشارة على الاستعْلاَء على

النفس بالقَهر والغلبة. وعلى السَّيْرِ بِالنَّصْر والرّعاية. وعلى الهداية بالتمكين والعناية. «أُولائك على هدىً من رَبّهِم. وأُولائك هم المفلحون». وفي، إشارة إلى دُخول الحضرة والتمكن فيه، تمكّن المظروف في الظرف، فتصير مأواه. ومعشش قلبه فيها سِكْن، وإليها يأوي، أَو تشير إلى الذَّهاب في الله، بعد الذَّهاب إليه قال تعالى حاكياً عن خليله عليه السلام: «وَقَالَ إِنّي ذَاهِبٌ إِلى ربّي سَيَهْدِينِ»، إلى الذهاب فيه، بعد الذهاب إِلَيْه؛ وهو الغرق في بَحْرِ الأَحدية. فالذَّهاب إليه حال السّائرينَ، والذَّهاب فيه حال الواصلينَ، وَرُبَّ إِشارة إِلَى قِلَّةِ وجُودِ أَهْلِ الخصوصية. قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْۗ﴾ وقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾. فَهُمْ إِكسير الوجود. مَنْ ظَفِرَ بِهِمْ ظفر بِالغنا الأَكْبَرِ والسّر الأَبْهَر، أَو إِلَى كثرتهم لمَن سبقت له العناية، وحسّن ظنه بِاللَّهِ وبعبادِهِ. والبَاءُ إِشارة إلى اسْتعانتهم بِاللَّه في سَيْرِهِمْ. وظَفرهم باللَّهِ في وصولهم، فَمن كَانت بِاللَّه بدايتهُ. كانت إليه نهايتهُ. فَهُمْ مبرؤون من حَوْلهم وقوتهم. في سَيْرهم وَوُصُولِهِم أو إشارة إلى مُصَاحَبتهم لله في غيْبتهم وحضورهم، وفي جميع شؤونِهِمْ. قد اتخذوا الله صاحباً. وتركُوا النَّاس جانباً. «فَلَمَّا اعتَزَلَهُمْ وَمَا يعبدون من دون الله وَهَبْنَا له اسْحَاق وَيَعْقُوبَ». فَالاعْتزال عن الخلق سبَب في مَوَاهب الحقّ. أَو إلى مصاحبتهِمْ، لم يدل على الله بمقالِهِ، وينهض إليه بحالِهِ. فالصحبة عند هؤلاءِ رُكْن كبير من أركانِ التصوف، يُدْرك بِها في ساعَة واحدة، مَا لاَ يُدْرك في سنين بالمجاهدة والمكابدة. وجَرّبْ، فإن التجريب علم الحقائق. والكَاف تشير إلى التشبه بالقومِ، في زَيّهم وسَيرهم وأَخلاقهم. فَمن تشبَّهَ بِقَوم فَهُو منهم بشرْطِ العمل والإخلاص، والتجريد من العلائق، حتى تشرق عليه أنوار الحقائق، ويملك الوجود بِأسرهِ من عَرْشه إلى فرشهِ. يتصرف فيه بِهِمّتِهِ. ويُدَوِرُهُ في لمحةٍ بفِكرهِ. ويُقال له حينئذ:

لَكَ الدَّهر طوع والأنام عبيد ... فعِش كل يوم من أيّامك عيد

وحروف القسم، إشارة إلى كَوْنِهم: لَوْ أَقْسَمُوا على اللَّهِ لأَبَرَّهُمْ فِي قَسمِهِمْ. وهذا مقام المحبوبينَ، جعلنا الله من خواصّهم بِمَنِّهِ وكَرَمِهِ. ثم ذكر عَلاَمَة الْفِعْل فقال: (ص). والفعل يعرف بِقد والسين وسَوْف وتاء التَّأنيث السّاكنة. (ش): يعني أَنَّ الْفِعْل يتميّز عن صاحبَيْهِ بِقَدْ. فهي مختصّة بالفعل المتصرف الخبري المثبت المجرَّد من ناصبٍ وَجَازم. فَلاَ تدْخل على الجامِدِ، كَعَسى ولَيْسَ، وَلاَ على الإِنْشائي كَبِعْت وأَنكحت، وَلاَ على المنفِي، وَلاَ على المقترِنِ بناصبٍ أَو جَازِمٍ.

ومعْنَاها: التوقع في المضارع، نحو قد يقدم الغائب إِذَا كَان ينتظر وقوعه، وتقريب الماضي والحال، تقول: قام، فتحتمل الماضي والقريب والبعيد. فإذا قلت: قد قام، اختصَّ بالقريب، والمشهور من أَحْوَالِهَا. أنها تفيد التحقيق مع الماضي، والتقليل مع المضارع. إلاَّ في كتاب اللَّهِ؛ فَإنَّها تفيد التحقيق فيهما، وَلاَ تفيد التقليل في كتاب اللَّهِ إلاَّ بتأويل. وقد تفيد التكثير، نحو: «قَد نَرى تَقَلُّب وجهكَ فِي السَّمَاءِ». وقد تدخل على الجُمْلَةِ الاسمية، كقول الششتري:

لقد أنا شيء عجيب لمن رآني أنا المحبّ والحبيب لشر مأثم ثانيِ

ويحمله أن يحملَ على حذف الفِعل، أي لقد علمْت أنَّني أنَا شيء عجيب، وقد تكون إسماً بِمعنَى حسْبَ، فتضاف إلى الاسْمِ نحو: قد زيْد دِرْهم. والسين وسَوف؛ وهما مختصان بالمضارع فالسّين التنفيس، وسَوْف للتَّسْويف، وهو أَوْسع زماناً من التنفيس، هذا مذهب البصريينَ، وقال الكوفيون زمَانهما واحد. ويؤيّده تعاقبهما على معنى واحدِ. قال تعالى: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾. وفي سَوْف لغات سوْ وسيْ. وسفْ. وتاء التأنيث السَّاكنة؛ وهي مختصَّة بالفعل الماضي، واحتَرَز بِالسَّاكنة مِنَ المتحركَةِ، فإنها مختصة بِالأَسْمَاءِ كَرَحْمَة ونِعْمَة، ومن المتحركةِ بحركةِ البِنَاءِ كلات وربّت وتمت، فإنها تلحق الحروف، وبهذه العَلامة استدلّ على فعليةِ ليْسَ، وعَسَى، وبيس ونِعْمَ. لقولهم: نعمتِ وَبيسْتَ وليست وعست، خلاَفاً لِمَن زَعَم اسْميه نعم وبيس، وهم الكوفيُّونَ. وبحرفية عَسى. وهو ثعلب. وحرفية ليْس وهو الفَارسِي، وبقي من علامة الفعل تاء الْفَاعِلِ نحو قمت، وياء المخاطبة كقولي. ونون التوكيد كَاضْرِبَنَّ والله تعالى أَعْلَمُ.

الإِشَارَة: والفعل الذي يتصل به إلى الله تعالى، ويحصل به الوصول إلى حضرة القدس، يعرف بِقد التي تفيد الجَزْمَ والتصميم؛ وهو العَزْمُ على البِرِّ والتَّقْوى، والجزْم بدوام السَّيْر حتى يَصِلَ أَوْ يموت فبهذا يحصلُ للمريد الوصول. فقد قالوا في شروط الفقير، هي حسْن الخدمة، وحفظُ الحُرْمةِ، وتعظيم النعمة، ونفوذ العزيمة هو تصميم العَزْم على السَّيْر إلى الوصولِ فَإذَا كَلَّ أَو ضعف جدَّد العَزْمَ حتى يَصِلَ. وفي ذلِكَ يقول القائل:

قَدْ جَدُّوا في السَّيْر حتَّى مَلَّ أكثرهم وَعَانَقَ المَجْدَ مَنْ وفى وَمَن صَبَرَ

فإذا خافَ على نفسه المَلَل والرجوع، نَفّس لها شيئاً مَا، بترْك المجاهدة. وسوِّف لها بالرَّاحَة والبشارة بالوصول وإليه الإشارة بقولِهِ: والسين وسوْف. ويحتمل أن يكون على حذف مُضَافٍ، أي يُعرف بتركِ السّين وسوف، أي بتركِ التسويف، فيكون إشارة إلى المبادرة، وانتهاز الفرصَة قَبْلَ فواتِ الوقتِ، وإليه أشار ابن الفارض بقوله:

وجُدّ بسيف العزم سَوْف فإن تَجُدْ   تجد نفَساً فالنفس إن جُدّت جَدَّتِ

وكذا يُقال في قوله: وتاء التأنيث، أي وترك صحبة التأنيث، فإنَّ صحبَةَ النِّسَاءِ من أَعْظم القواطِع للمريد. قال ﷺ: «ما تَرَكْت بَعْدي أَضَرّ على الرِّجَال مِن النِّسَاءِ» وقد حَذَّر كثير من الصوفية الفقير من التزوُّج، قبل الوصول، إلا إن كان في صحبة الشيخ، ملتصقاً به، وقد أذن له في التزوج، فقد لاَ يضرّهُ، واللّهُ تعالى أَعْلَمُ. ثم ذكر علامة الحرْف فقال: (ص): والحَرْف مَا لاَ يَصْلح مَعه دليلُ الاسم وَلاَ دليل الفِعْل، (ش) يَعْني أن الحرفَ هو الَّذي لاَ يقبل شيئاً من عَلاَمات الأسماء، وَلاَ من عَلاَمات الأفعالِ، كَهَل، وقدْ. فلا تقبل علامات الأَسماء، وَلاَ عَلامات الأفعال. فلا تقول: الْهَلْ، وَلاَ الْقَدْ، وَلاَ شيئاً من حروف الجرّ، وَلاَ السّين وَلاَ سوْف، وَلاَ تاء التأنيث. فَعَلاَمَة الحرف هو ترْك العَلاَمَة، فمثاله كَحَرفِ الجيم والحاء والخَاء، فالجيم يعرف بالنقطة من تحت. والخاء بالنقطة من فوق. والحَاء بالإِهْمَالِ، وإليه أَشار بَعْضهم بقوله:

والحَرْف ما لَيْسَتْ لَهُ عَلامَةْ   تركُ العلامات له عَلاَمَةْ

الإِشَارَةُ: والحرْفُ. أي وذو الحرْف الظُّلْمَانِي؛ وهو الَّذي يعبد الله على حَرْفٍ أي طرفٍ من الدِّين وطمَع، فإن أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ، وإن أَصَابَتْهُ فِتْنَة انْقَلَبَ على وَجْهِهِ، لا يَصْلِح للسَّيرِ بِالذِّكْر وَلاَ بِالعَمَلِ. وهو الَّذي دَخَل في طريق القَوْم طمَعاً في رياسَةٍ أَوْ عزٍّ أَوْ جَاهٍ أَوْ مَالٍ. فَلاَ يأتي منْهُ شيْءٌ. خَسِرَ الدُّنيا والآخرة، ذَلِكَ هُوَ الخُسْرَان المُبِين. والعياذ بالله.

الإِعرابُ في اللغة هو البيان، يقال: أَعْرَبَ الرَّجُل عمَّا في ضَمِيره، أَيْ بَيّنَهُ. وفي الحديث: «البِكْرُ تُسْتأمر، والثيب تعربُ عن نَفْسها» أي تبيّنُ. وفي الاصْطلاح على أنه لَفْظِي. ما جيء بِهِ لبيَان مُقتضَى العَامِلِ، من حَرَكَة أَوْ حَرْفٍ أَوْ سُكُونٍ أَوْ حَذْفٍ؛ وهو مَذهب البَصْرِيينَ، وعلى أَنَّ مَعْنَوِي، ما قاله المصنف. (ص): تَغْيِيرُ أَوَاخِرِ الكَلِم لاخْتِلاَفِ الْعَوَامِلِ الدَّاخِلَةِ عَلَيْهَا. (ش) فاحترز بالأَواخِرِ، من تغيير الْوَسَطِ، كمَا في التَّصْغير، كزيْد وزييْدٍ. والتكسير، كدرهم وَدَرَاهم، والمراد

بالآخر حقيقة أو حكماً، كَيَدٍ وَدَم. فَأصله يدي وَدَمي، فحذفت لاَمُهُ، بدليل ردّهِ في التثنية والجَمْع، فقالُوا: يديانِ، ودميانِ، واحترز باختلاف العوامل، من التغيير الذي يكون بلا اختلاف الْعَامِلِ كاختلاف اللّغَاتِ في كلمة واحِدَة نَحْو: حَيْثُ ففيها ثلاث لغات. الضَّمُّ وهو المشهور، والفتح والكَسْر. وكحركةِ النَّقْلِ فيمَنْ قَرأَ بِهِ، نحو: قد أفْلَح من آمَنَ. فالسكون أصْل، والحركة نَقْلٌ. وحقيقة العامل: ما بِهِ يتقَوَّمُ المَعْنَى المقتضى للإعرابِ. فالشأن في اختلاف الإعراب، أن يكون لاختلافِ العامِلِ. وقد يكون مع اتحادِهِ، كما في مَعْمول الصفةِ، فإنه يجوز رفْعُه ونَصْبُه وجرّه مع اتحاد العامل نحو: الحسن الوجه، فيجوز رفعه على أنه فاعل ونصبه على التشبيه بالمفعول به. وجره بالإضافةِ، وكذلك نحو: زَيْد قائِم الأب. فيجوز رفعه ونَصْبه وَجَرُّهُ. وكذلك اسم المفعول المضاف مفْعُوله. نحو: زيد مضروب الأب، فتجُوز فيه الثلاثة أيْضاً. واحترز بالدَّاخلة عليها، مما يتغيَّر لاختلاف العوامِلِ الدَّاخلة على غيره كحركة الحكاية. كقولك مَنْ زَيْدٌ؟ لِمن قال جاء زيدٌ. وَمَنْ زيداً؟ لمن قال: رأيت زيداً. ومَنْ زَيْدٍ لِمَنْ قال: مَرَرْت بزَيْدٍ، فإنها في الجميع حركة حكاية، لا حركة إعْرَابٍ، فمن مبتدأ، وزيد خبر مَرْفُوعٌ. وعلامة رفعه ضمة مقدَّرة لاشتغاله اللفْظِي يكون في الصحيح الآخر كزيْد ونَحْوه، والتقدير يكون في المعتل، نحو: مُوسَى، والقاضي، ويرمي، ويغْزُو. فالألف يُقدّر فيه الإعراب كله، نحو جاء موسى، ورأيْت موسى، ومَرَرت بموسَى. فالحركَات الثلاث، مقدرة في المانع، المانع من ظهورها التعَذر. وَالْيَاء يقدر فيه الرفع والجرّ، نَحْو جاء القاضي، مَرَرت بالقاضي، ويظهر نصْبه نحو أَن القاضِي لن يَرْميَ. وَالْوَاو يُقَدّر فيه الرفع، ويظهر نصبه، نحو: «إلاَّ أَن يعفُونَ أَوْ يَعْفُو». والجَزْم بحذف الجميع، وسواء كَان هَذَا الحَرْف الَّذي يُقدَّر فيه الإعراب مَوْجُوداً أَوْ محذوفاً، نحو جاء قَاضٍ، ومرزت بقاضٍ، أَو جاء فتًى، ومررت بِفَتًى، وَرَأَيْت فتًى. ويحتمل أن يرجع قوله: لفظاً أو تقديراً، للعوامل، فالعامل اللفظي مَا تقدَّم ذِكره، والمقدَّر كباب الاشتغال، والإغراء، نحو: زيداً ضَرَبته. أي ضَرَبْت زيداً ضَرَبْتُهُ. والعِلْمَ العلمَ، أي الزم العِلْم وغير ذلك من حذف العوامل، وهو كثيرٌ، ويكون فِي عوامل: الرفع والنصب والجرّ، كَما هو مُقرر في مَحَلِهِ.

الإِشَارَةِ: كَمَا يَتَغَيَّر أَواخِرُ الكلم، لاختلاف العوامل تتغيَّرُ أَحْوال القلوب، لاختلاف الواردات الدَّاخلة عليْهَا. فتارةً يَرِد عليها وارد القَبْضِ، وتارة يرد عليها وارد البَسْطِ. فالقبض والبَسْط حَالَتَانِ يتعَاقَبانِ على العبد تعاقب اللَّيل والنَّهار.

القشيري؛ إذا كاشف العبد بنعمة جَمَاله بسَطه، وإذا كاسف بنعمة جلاله قبضه. فالقبض يوجب إيحاشه، والبسط يوجب إينَاسَهُ. واعْلَمْ أنه يَرُدّ العبد إلى أَحْوال بشريته، فيقبضَه حتى لا يطيق ذرَّة. ويأخذه مَرَّة عن نعوته، فيجد لِحمْل ما يرد عليه قوة وطاقَة. قال الشبلي رضي الله عنه: مَن عَرَف اللَّهَ حَمَل السماوات والأرض على شعرة من شعرات جفن عينيْه. ومن لم يعرف الله جَلّ وعلاَ. فلو تعلق به جناح بعوضة فَجّ. فحمل منه هذا على حالتي القَبْض والبسط. وقال أهل المعرفة: إذا قَبَضَ قُبِضَ حتى لاَ طاقة. وإذا بسط بسط حتى لإفاقة. وهذا سيْد الرسل ﷺ، حينَ وَرَد عليه وارد القبض شَدَّ الحجَر على بَطْنِهِ. وحين وَرَد عليه وارد البَسْطِ، أَطْعم أَلفاً جياعاً من صاع. ولكلٍّ من القَبْضِ والبَسْط آدابٌ. فآداب القبْض السكون تحت مجاري الأقدار، وانتظار الفرج من الكريم الغفَّار. وآداب البَسْطِ كفُّ اللّسان، وقبض العنان، والحياء من الكريم المنَّان، والبسط منزلة أقدام الرجال، قال بُعْضهم: فتح عليّ باب من البَسْطِ، فَزَلَلْت زَلَّة، فحجبْت عن مقامي ثلاثين سنَة. ولذلكَ قيل: قِف بالبَسْطِ، وإيَّاكَ والانبساط. واعْلَمْ أَنَّ القبض والبَسْط فوق الخوف والرَّجاءِ. وفوق القبض والبَسْط الهيْبة والأنس للعارفين. ثم المحْو في وجود العَيْن، لِلْمُتَمَكّنِينَ، فلا هيبة لهم وَلاَ أُنْس، وَلاَ علم وَلاَ حسّ. وأَنْشَدُوا:

فلو كنت من أهل الوجود حقيقة لغبْت عن الأكوان والعرشِ والكرسي

وكنت بِلاَ حَالٍ مع الله واقفاً تُمَازِعَنِ التذكار للجن والإنْسِ

وإن قلنا الإعراب هو البيان، فتقول في الإشارة، الإعراب عَمَّا في البواطِنِ؛ هو تغيير أَحْوال الظَّواهر، لاختلاف الواردات الدَّاخلة عليها، فَمَا كمن في السرائر، ظَهر فِي شهادة الخواطر، تنوعت أجناس الأعمال، بتنوع واردات الأحوال. واللَّهُ تعالى أعلم. ثم ذكر أَنواع الإعراب فقال: (ص) وأقسامه أربعة: رفْع ونصب وخَفْض وجزم. (ش) قلت: تقدم الفرق بيْن تقسيم الشيء إلى أَجْزَائِهِ وإِلَى أنواعهِ، فهذا من التقسيم النَّوْعي، ووجه انحصاره في الأربعة، أنه ليس في الوجود، في كَلام العَرب، إلا حركة وسكون. والحركة لها ثلاثة مخارج. إمَّا فم الشفتيْن؛ وهو مخرج الضمة، أو كسْر السفلي؛ وهو مخرج الكسرة، أو مجرد فتحهما؛ وهو مخرج الفتحة. وأمَّا السكون فهو سلْب الحركة؛ فهو قسم رابع. فالرَّفع ما أَحْدثه عامل الرفع؛ وهو خاصّ بالعمد أو ما ناب عَنْهَا. والنصب ما أحدثه عامل النصب،

وغالب وُجُوده في الفضلات، والجرّ ما أحْدثه عامل الجرّ. وهو ملحَق بِالْفُضْلاَتِ. والجَزْم ما أحدثه عامل الجزم؛ وهو خاصّ بالأَفعالِ. وأَسْقط الكوفيون. والمازِنِي الجزم؛ لأنه عدم الحركة، وجعلوا الإِعراب ثلاثة. والله تعالى أعلم.

الإِشَارَةُ: وأقسام التغيير؛ الذي يعتري الإِنسان، وينزل به أَرْبعة: رفع: أي رَفْع الْقَدْرِ، والعزّ والجاه عند الله تعالى. وعَامِلُهُ: الْعِلْمُ بِاللَّهِ، والعمل بطاعته، وصحبة أهل العزّ والغناء؛ وهم الأولياء، وضدُّهُ الخفض؛ وهُوَ الذّل والهوان، وعَامِله الجَهْل وارتكاب المعاصي، واتباع الهوى كما قال الشاعر:

لاَ تَتْبع النَّفس في هواهَا ... إِنَّ اتباع الهَوى هَوَانُ

وقال آخر:

إِنَّ الهوى هو الهَوَان بِعَيْنِهِ ... فإِذا هويت فقد لقيت هَوَانَا

وإِذا هويت تعبَّدك الهوى ... فاخضع لحبك كائناً من كَانَا

والمراد بِالهوى: ما تهْواه النَّفْس، وتعشقه من الحظوظ الجسمانية: المحرمة أو المكروهة، أو المباحة قبل الوصُول. والنفس نصب العيْن لمجاري الأقدار؛ وهو مقام الرِّضَى والتسليم؛ وهو حال أَهْل الطمأنينة من العارفين الواصلينَ. والجزْمُ: هو التصميم والعَزْمُ على السَّيْر والمجاهدة والمكابدة، إلى الوصول إلى تمام المشاهدة. فأَهل الرفع والنَّصْب عارفون واصِلونَ. وأَهْل الخفض تالِفُونَ تائهونَ. وأَهْل الْجَزْمِ سَائرونَ. وقد يتلوّن العَبْد بيْن الرّفع والخفض. فتارة يغلب نفسهُ فترْتفع، وتارة تغلب عليه نفسه، فتنخفض. وهؤلاء أَهْل التلوين قبل التمكين. وقد يكون التلوين بعد التمكين؛ وهو تلوّن العارف مع المقاماتِ، فيتلوّن في كل مقام بِلَوْنِهِ. فتارة يظهر عليه الهيبة، والخوف. وتارة يظهر عليه الرجاء والبسْط. وتارة يظهر عليه الورع والكفّ، وتارة يظهر عليه الرَّغبة والأخذ. وتارة يظهر عليه الشوق والقلق، وتارة يظهر عليه السكون والطمأنينة. وهكذا. وقد يطلب العبد الرفع؛ فينخفض، وهو مَنْ سبَق لهُ الحِرْمان والعَياذ بِالله. وقد يَطْلبُ الخفض فيرتفع، وهو: مَن سبقتْ له العِنَاية، فَلاَ تضره الجناية. رُبَّما قضَى عليكَ بالذّنب فكَان سبَبَ الوُصُول واللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ. ثم قسَّم الإِعراب على الأَسْماء والأَفعَال فقال: (ص): فلِلأَسْمَاء مِن ذلك الرَّفع والنَّصْب والخفض وَلاَ جَزْم فيهَا. ولِلأَفعال من ذلِكَ، الرَّفع والنَّصْبُ والجَزْمُ وَلاَ خفض فيهَا. (ش) قلت: الفاء

فصيحة، والتقدير: إن أردتَّ معرفة مواردِهِ. فَلِلأَسماء المتمكّنة، بحيّث لم يشبهه الحرف شبَهاً قوّياً فتبنَى. فإذا سَلِمَت من الشّبَه القوي، أعرب. فَلَها الرَّفع، وهو لِلْعَمَد. وما ناب عنْهَا والنَّصْب، وهو لِلْفُضْلاَتِ غالباً. والخفض، وهو لمَا ترَدَّد بيْن العَمد وَالْفُضَلات، فقد يقع في مَوْضع يكمل العمدة، نَحو جاء غلام زَيْدٍ، فَغُلاَم عُمْدة، وزيد مكَمِل لهُ. وَيَقَع في مَوْضع الفُضْلة، نحو هَذَا ضارب زيْد، فزيد مفعول، لكنه أُضيف إلى عامِلِهِ بِجرٍ، وَلاَ جَزم فيها، أي في الأسْمَاءِ؛ لأَنَّ الجزم لاَ يكُون إلاَّ بِالْعَوَامِلِ وعوامل الجزم خاصَّة بالأَفْعَال، ولِلأَفعال من ذلِك الإعراب، الرَّفع حَال التجريد، والنَّصْب والجزمُ إذا دَخَلَ عليه عاملهما، والمراد بالأَفْعَالِ. الفعل المضارع الخَالِي من نون التوكيد المباشرة، ومن نون الإِناثِ. فإذا باشَرَتها نون التوكيد بنيت. نحو: لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي». ونُون الإِناث بُنِيَتْ أَيْضاً؛ نحو: «إلاَّ أَنْ يَعيبُونَ». وإنما بنيَت لشَبَه التركيب. وأما الماضي والأمر، فمبنيان على ما يأتي إنْ شَاءَ اللَّهُ. وَلاَ خَفْضَ فِيهَا. أيْ في الأفعَال؛ لأَنَّ عَوَامل الْخَفْض خاصَّة بالأَسْمَاءِ فَتَحَصَّل. أَنَّ الرفع والنَّصْبَ مشترك بيْنَ الأَسماء والأفعال. والجزْم مختصّ بالأَفعالِ. والخَفْض مختصّ بالأَسماءِ، وإنما اختصَّت الأفعال بالجَزم، لأَنه ثقيل، والجزم خَفيفٌ. فاعطي الخفيف للثقيل ليتعادَلاَ. ووجه ثقلها أنها حَامِلة، إذ لا بُدَّ لها من فاعل مضمرٍ أَوْ ظَاهرٍ. وإنما اختصَّتِ الأسماء بالخفض؛ لأنها خفيفة، والخفض ثقيل، فلو أُعطي الخفيف للخفيف لطار. كما لَوْ أعْطي الثقيل للثقيل لسقط، فأعطي الخفيف للثقيل، والثقيل للخفيف، ليتعادَل الأَمْر، وَوَجْهُ خِفة الأَسْمَاء، أنها فارغة لا تحتاج إلى فاعلٍ، إلاَّ إذا اشتبهتِ الأفعَال. واللَّهُ تعالى أَعْلَمُ.

الإِشَارَةُ: تقدَّم أَنَّ القسمة ثلاثية: شريعة، وطريقة، وحقيقة. فأَهل الشريعة قائمونَ بأَقوالِهِ عليه السلامُ: وأَهْل الطريقة قائمونَ بِأَفْعَالِهِ، وأَهْل الحقيقة قائمون بأَحْوَالِهِ وأَخلاقِهِ. فأَهل الأقوال؛ هم المعَبَّرُون عنهم بالأَسْمَاءِ. لأَنهم فَانُونَ في الأَسماء؛ لأَنَّ ذِكْرَهُمْ جُله لساني، وعملهم جُلّه بَدَنِي. فيقال من طريق الإِشارة، فَالأَهْل الأَسماء من ذلِكَ الرَّفع تارة، إنِ استعَاصَت أَحْوَالُهُمْ، وَقَويت دَلاَئلهم فيرتفعون إلى درجة الصالحينَ. والنَّصْب، أَيْ التوسُّط بيْن الارتفاع والانخفاضِ فيتبعون لمجاري الأقدار؛ وهو حال فتورهم وبرودتهم عَنِ الْعَمَل الصالح، والخفض تارةً أُخْرَى. وهو حال عصيانهم، فيسقطون عن درجَة الصَّلاَحِ. وينخفضون إلى أَسْفل سَافلين، حيْث لَمْ تسبق لهم عناية مُقَرَّبين. وَلاَ جزم لهم.

جزم أَهْل كالعيان. إذ لاَ يحصل الجزْم الحقيقي، إلاَّ لأَهل الشهود والعيانِ، فليسَ الخَبَرُ كالعِيَانِ، إذ لاَ يَسْلم صاحب الدَّليل، من الخواطر الرديئة، والشبه الشيطانية، فجلهم يعبدون الله على ظنّ قويّ، لذلِك عَبَّر تعالى بالظنّ فِي مقام الجزْم، فقال تعالى: ﴿يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ تيسيراً أو تخفيفاً على أهل الدليل من أهل الإيمان إذ لو عبر بالعلم لخرج من دائرة الإسلام خلْق كثير. والحاصل، أنَّ الإنسَان لا يخْرج من مقام الظنون، حتى يَصْحب العارفينَ، أَهْل اليقين الكبير، وقَدْ قَال عليه السلام: «تَعَلَّمُوا اليقين فَإِنِّي أتعلَّمه». في رواية، بمجالسة أَهْل اليقين. ثم أَشار إلى أَهْل الطريقة؛ الَّتِي تُوَصِّل إلى عيْن الحقيقة بقولِهِ: وللأفعال، أي ولأَهْل الأفْعَال التي هي المجاهدة والمُكابدة. الرَّفع إلى أعْلى عليين، والنَّصْبُ، أيْ نَصْب أَبْدانهم إلى مَجَاري أَقدار ربهم، بالرِّضى والتَّسْليم. والجزْم في عقائدهم وعلومهم؛ لأَنها عيْن شهود وعيَانٍ. وَلاَ خفْضَ فيها، لأنهم سبقت لهُمْ مِن الله العناية، فلا تَضرّهم الجناية. فكلما طلبهم عامِل الخفض، اسْتَدْرجَهُمْ عامل الرّفع، فيرفَعَهُمْ، فلا خَفض لَهُمْ أَبَداً. جعلنا اللَّهُ مِن خَوَاصِّهِمْ آمين.

بَابُ مَعْرِفةِ عَلاَمَات الإِعْرَاب:

قلت: الناظم إنَّ الإعراب إمَّا مَعْنوي؛ وهو التغيير والانتقال، من حال إلى حَالٍ. وهذا التغيير له علامات؛ وهي الأشكال والحروف النَّائبة عنْهَا. فالرَّفع مثلاً معنًى. وهو كَوْن الكلمة مرفوعة، والضمة علامة على رَفْعها، وقِسْ على هَذَا أَنواع الإعراب كلها. وإمَّا على أنه لفظي فالضمة والألف والواو مثلاً. هِيَ عيْن الرَّفع، وكذلك الفتحة والألف والكسرة، هي عيْن النصب، ولذلك قيل في حقيقته ما جيء بِهِ لبيَان مقتضَى العامِلِ، من حركة أو حرْفٍ، إلى آخِرِ ما تقدمَ.

الإِشَارَةُ: ذكر هنا علامة تقال الْعَبْد من حالٍ إلى حالٍ، على حسَب الوارداتِ القلبية، والخواطر السنية، والرَّدِيئة، إمَّا مِنَ الرَّفْع إلى الخفضِ، أو العَكْس أَوْ مِنْ حالة القبض إلى البَسْطِ، أو العكْس. وهكذا من تَخَالف الآثَارِ، وتنقلاَت الأطوار، فلِكلّ واحدٍ من هذه الآثار علامات تظهر على صاحبِهِ كما تَقَدَّمَ، ولكل واحدٍ من القبْض والبَسْطِ آداب، وقد أشرت في قصيدتي العينية فقلت:

وإنْ جئْتَكَ لَيْلٌ مِن القبض حالِكٌ	فهيءْ لَهُ صَبْراً فَضَوْؤهُ تَابِعُ
سكونٌ وتسْليمٌ لِمَا قد جَرَى بِهِ	قَضَاء مُحَتَّمٌ مِنَ الحق وَاقِعُ
وَلِلْبَسْطِ آدابٌ إذَا لَمْ تَقُمْ بِهَا	تَزِلُّ بِكَ الأَقْدَامُ والقَلْبُ تَابِعُ

خضوعٌ وهيْبَة وتعْظيم نِعْمَةٍ ومَسْك لِسَان القَوْلِ إنَّهُ راتِعُ

ثُمَّ بيَّنَ العَلامة فقال: (ص) للرَّفع أرْبع عَلامَاتٍ: الضمَّة والواو والألف والنُّون. (ش) يعني، أنَّ الكلمة إذا كَانتْ مرفوعَة، بأن طلبَها عامل الرفع، فلِرَفعها أَرْبع عَلامَاتٍ، أولها الضمَّة في آخره ظاهرة. نحو: «وقَالَ رجُلٌ مؤمِنٌ». ومقدرة نحو: «وَقَالَ مُوسَى». وَبَدَأَ بِهَا؛ لأنها الأقل، ثم الواو؛ لأنها بنتهَا، وناشئة عنها، ولذلك ذكرتْ بعدهَا. ثم الألف؛ لأنها أختها في العِلَّة واللِّين، ثم النّون لقرب مخرجها من الواو، ولذلِك أُدغِمَت فيها إذا سُكِّنت، وآخرها لبُعدِ الشَّبَه، ولاختصاصها بالأفعالِ وَسَيَأتي أمثلتُهَا بعد إن شاء اللَّهُ. ومن قال: إن الإعراب لفظي، قال: إنها مرْفوعة بنفس الضَّمَّة، والواو والألف والنون. فالإعراب هو نَفْس الحركات. أو الحروف والله تعالى أعْلَمُ.

الإشَارَةُ: للرَّفع إلى مَقام المقرَّبينَ أَرْبَع علامات، أَوَّلُها الضَّمَّة، أي ضَمّ المريد إلى الشيخ، وصحبته وخِدْمَتُهُ، وتعظيمه ومحبَّتهُ. واللَّهِ ما أفلح مَن أفلح. إلاَّ بصحبَة مَنْ أَفْلَحَ.

وثانيها: واو الْهَوية والحقيقة. فلاَ بُدَّ للمريد أن يفْنَى في الذَّات حقيقة، فَمَنْ لاَ فَنَاءَ لَهُ، لاَ بَقَاءَ لَهُ. فيفْنَى أَوَّلاً في الاسم ثُمَّ في الذَّاتِ، فبقدر الفناء، يكون البقاء. وبِقَدْر السكر، يكون الصَّحْوُ. وثالثها: أَلِف الوَحْدَة، فلا بدَّ أن يكُونَ فَرْد الْفَرْدِ، فيكون لَهُ قَصْد واحدٌ. ومحبة واحدة، وإرادة واحِدَة، ويكون ذلِك بقلب مفرد فيه توحيد مجرّد. ورابعها نون الأَنَانية، فلا يَزَال يذكر الاسم، حتى يكُون عيْن المسمَّى. فَيَقُول حينئذٍ: أَنَا من أَهْوَى وَمَنْ أَهْوَى أَنَا، فيغيب الذَّاكر في المذكور، فلقد قال غيرُ واحدٍ في مقام الفنا أَنَا. وقال آخَر في مقام البَقا هُوَ. فيقال للأَوَّلِ صَدَقت وما كَذَبْت. ويقال للثاني: أَحْسَنْتَ وتأدَّبْت، كما قال بَعْض العارفين. وهُنَا إشارة أخرى، فيسيرُ بالضَّمِّ إلى ضَمّ النَّفس وَكفِّهَا عن حُظوظِهَا وهواهَا، بلِجَام المجاهدة والمخالفة، فَيَرْجع إلى مَقَام المشاهدة، وبالواوِ إلى الودّ والمحبَّة في الله ورسولهِ، والشيخ الَّذي يوصِّله إلى حضرتِهِ. والإخوان وسَائر عباد اللَّهِ. فَالمحبَّة أَصْل الطريق. وبِهَا يقع السَّيْر إلى عيْن التحقيق. فإذا وصَلَ، أَحَبَّهُ اللَّهُ، فكَان سَمْعَه وبصرهُ وكليته. لقوله: «فإذا أَحببْتُهُ كُنتُهُ». فإذَا أَحَبَّهُ اللَّهُ، نَادَى في السماوات، فيحبه أَهْل السماء. ثم تنزل محبته إلى الأَرْض، كما في الحديث. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ ويُشِيرُ

بالألَفِ إلى أَلِف الْوَحْدَة كما تقدَّمَ. وبالنُّون إلى نُون التَّوَجُّه، ثم نون الْمُوَاجَهَة، فنور التوجه للسائرينَ، ونور المواجَهَة للواصلينَ. والمراد بنور التوجّه، حَلاَوة المعاملة، وما يجده الْمُريد في سَيْرِهِ مِن النشوة والسكرة، ونور المواجهة، هو نور الشهود، يواجهه الحق تعالى بِأَسْرَار ذاتِهِ فيغيب عن رؤية الوجود، سِوَى ذَاتِ المعبودِ، وفي ذلك يقول الجُنَيْد رضي اللَّهُ عنهُ:

وُجُــودِي أَنْ أَغِـيـبَ عــن الْـوُجُــودِ ... بِــمَــا يَـبْـدُ وعــلــيَّ مِــنَ الـشُّـهــوُدِ

ثُمَّ عيَّنَ المواضع التي تنوب فيها الضَّمَّة عن الرَّفع فَقَالَ: (ص) فأَمَّا الضَّمَّة فتكون عَلاَمَة لِلرَّفْعِ في أَرْبعة مَوَاضِعَ، في الاسم المفردِ (ش) نحو: «وقَالَ رَجُل مُؤمِنٌ». «وقَالَ مُوسَى». والْمُرَاد بالْمُفْرَدِ هُنَا: مَا لَيْس مجموعاً وَلاَ مثنًى وَلا واحِداً مِن أَسْمَاءِ الخمْسَة، متصرفاً أو غيْر متصرفٍ، مذكراً أو مؤنثاً. اسماً أَو صِفَة، تابعاً أَوْ متبوعاً. مقصوراً أو منقوصاً. فالمقصور ما كان آخره أَلِفاً؛ قَبْله فتحة لاَزِمَة، كَمُوسى وعِيسَى، وَعَصَىَ وَفَتَىَ، والمنقوص: ما كَان آخِره ياءَ؛ قَبْلها كسْرة لاَزِمَة. كالمُتَعَالي والدَّاعي، وَوَالِ وهَادِ، فالمقصور يُرفع بضمَّة مقدَّرة، المانع من ظهوره التعَذّر. إذ يتعَذَّر ظهورها الاسْتثقال، إذ يثقل ظهور الضَّمَّة أَو الكسْرة على الياء. (ص) وجَمْع التكسير (ش) وهو في اللُّغَة التغيير وتفريق الأَجزَاء. وفي الاصْطِلاحِ: ما تغيَّر بناء مُفردِهِ، تغييراً ظاهراً أو مقدَّراً، لغَيْر إعلالٍ. والتغيير الظَّاهِر إمَّا بزيادة فقط نحو: صِنْوٍ أَو صنوان، أو بنقص فقط نحو: تُخْمَة وَتُخَم، وشجرة وشَجَر. أَوْ تبديل شكل فقط نَحْو أَسَد وَأُسْد، أَو بنقص مع تبديل شكلٍ، نحو كتاب وكتب، أَو بزيادة مع تبديل شكلٍ، نحو رجل وَرِجَال، أَو بنقص وزيادَة وتبديل شكْلٍ، نحو غلام وغِلمان، والتغيير المقدر، كما في فُلك، فَإِنَّهُ يطلق على الواحدِ والجمْع بلفظٍ واحدٍ. ويتميَّز المفرد مِنَ الجمعِ بالوصفِ. تقول: عندي فلك جيّد، وفلك كثيرة. فحركة المفرد غَيْر حركة الجمع، وإِن تَساوتَا في اللفظِ وقلنا: لغَيْر إِعْلاَلٍ احتراز من نحو قَاضُونِ، فإِن واحدة مغيّر. لكن لا إعلاَل فأَصله قاضيُون، استثقلت الضَّمَّة على الياءِ فحذفَتْ، ثم حذفت الياء لالتقاءِ السَّاكنيْن، ثم قلبَت الكسْرة ضمَّة، لتناسب الْوَاو. ويدْخل في جمع الكسير اسم جَمْع، كَقوم وَرَهْطٍ، واسْم الجِنْس، كشجر ونَخْلٍ، وسيأْتي الفَرْق بيْنهما في جمع المذكَّرِ. (صٌ) وجمع المذكر السالم. (ش) وَحَقيقته: ما جمع بألف وتاءٍ مزيدتيْن، نحو: «والسماوات مطويات بيمينهِ» «إِذَا جَاءَ المؤمنات». فالسماوات مبتدأ، المؤمنات فاعل، والضمة

ظاهرة فيه. واحترز بقيْد الزيادة من إِقالة الألَفِ نحو: قضاة، جمع قاضٍ، وأصْله قضية. مال في الألفية: في نحو رَام واضطراد فعلَه». فقلبت الياء أيضاً لتحركهَا، وانفتاح ما قَبْلَهَا؛ فهو جمع تكسير أَيْضاً. ولما كان الغالب في هَذَا الجمعِ، أَنْ يكون لمؤنثٍ. قيل فيه: جمع المؤنَّثِ. وقد يُسْتعْمل في غَيْر المؤنّثِ، ويطّرد في ستّ مسائِل، في كل ما فيه تاء زائدة للتأنيث اللفظي، نحو: طَلْحَة وطَلْحَات بفتحِهَا، والتاء في الجمع غيْر التاء في المفردِ؛ لأَنَّ تاء المُفْرَد تحذف عِنْدَ الْجَمْعِ. قال في الألْفية. وتاء ذي التأنيث الزمن تحيه. ويطَّرد أَيْضاً فيما كَان مقصوراً كذفرى وذكرى. تقول: ذفريات وذكريات. وفي نحو دِرهم مقفَّر. تقول: دُرَيْهمات، وفيها كَان اسماً ممدوداً نحو صحراء وصحراوات، وسماء، وسماوات، وفيما كَان مؤنثاً بِغَيْر تاءٍ، نحو زينب، وهِنْد تقول: زينبات وهندات. وفيما كَن وصفاً لغَيْر الْعَاقِلِ. نحو جبال راسيات وشامخات. وقد نَظَّمها بعضهم فقال:

وقِسْن في ذي التَّا ونحو ذِكرى ... ودرهم مصغرٍ وصحراء

وزينبُ وغير وصف العاقل ... وغير ذي مسلم للعاقِلِ

وقد يسْتعمل في غيْر هذه المواضع سماعاً، نحو حمامات واصطبْلات. والاصطبل بقطع الهمزة وفتْح الطّاءِ. الأرْوَى الَّذي يكون فيه الدّوابّ. وتكون الضَّمّة علامة للرَّفع أيْضاً: (ص) وفي الفعل المضارع الذي لم يتَّصل بِآخِرِه شيْء (ش) نحو: «وإذ يقول الله». «ويوْم تشقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمْمِ». فَيَقول. وتشقق مضارع مَرْفوع بضَمة ظَاهِرة. واحترز بقولِهِ، لم يتصل بآخِرِه شيْء، مما إذا اتَّصَل بِهِ، واوا جَمْع، أو ألف اثنيْن، أو ضمير المؤنثة المخاطبَة، فإنه يرفع بالحروف، كما يأتي، وأمَّا إذا اتَّصل بِهِ ضمير نون التوكيد المُباشِرة أو نون الإناث، فهو مبْني كما تقدَّم؛ فلا يدخل هُنَا؛ لأنَّ الكَلاَم هنا في المُعربِ. ويشمل ما إِذا لَمْ يتصل به شيْءٌ الصحيح نحو: «ونَمِيرُ أَهْلَنَا». والمعتلّ بالألف كيَخْشى، وبِالْوَاو وكيَدْعُو. وبالياءِ كبيرة فلكن معرب بضمة مقدرة. والله أَعْلَمُ.

الإِشَارَةُ: فأمَّا الضَّمّ بالأولياءِ، والصحبة لَهُمْ، فيكون عَلاَمة للرَّفعِ إلى مقام المُقَرَّبينَ. وسبباً في نَيْل مقام السابقينَ؛ في ذِكر الاسم المفرد والفناء فيه. سمعت شيخ شيخنا مولاي العربي رضي الله عنه يقول: بقيت فانياً في الاسم المفرد أَرْبَعَ سنينَ. حتى كَان بَدَنِي كله يتحرّكُ بِغير اختيار منّي، إذا شددت على الرجل الواحد انهَزّ الآخر هـ. فالفَنَاء في الاسم مقدمة للفَنَاءِ في الذَّاتِ. بِقدْره يَعْظم ويَقلّ،

ويكون أيْضاً علامة للرفع في صحبَة جميع الأولياء، الَّذين هم أَهْل التكسير والإِكْسير، يتصرَّفون في الوجودِ بِهِمَمِهِمْ، يكسّرونَ مَنْ شَاءُوا، وَيُجْبِرُونَ مَنْ شَاءُوا، يكسِّرُونَ أَعْدَاءَهُمْ ومن ناوأهم، بِإِرَادة مَوْلاَهُمْ وَيُجْبِرُونَ أَحْبَابَهُمْ بِمشيئة مَوْلاَهُمْ، كَمَا قال القائل في وَصْفِهِمْ:

هِمَمُهم تَقْضِي بِحُكْمِ الْوَقْتِ مُنَكَّرُهُم مُعَرَّفٌ لِلْمَقْتِ

ويَرْتفع أيْضاً بِضَمِّهِ إلى الشيخ في جمع المُؤنثِ، أي في جمعه بالمؤنَّثِ، على طريق التزوج، السَّالم مِن غَوَائِلِهِ، وشغله عن ربِّه؛ لأنَّ التزوجَ للفَقِير المعتني، يَزِيد في تَرْبية يقينه، ويُوَسع أَخْلاَقَهُ، فتتسع معرفته، فإذا علم أَنَّهُ لا يَسْلم، فالسلامة في تَرْكِهِ، وكَان شيخ شيخِنا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول:

الصُّوفية حَذَّرُوا من التَّزَوج للفقير. وأَنَا آمُرُ بِهِ؛ لأنَّ الفَقِير إذا تَزَوَّجَ. تَقَوَّى يقينُهُ. واتَّسَعَت أَخْلاقهُ، وتتسِع مَغْنَاهُ. أو كَلاَماً مَا هَذَا مغْناهُ. وَيَرْتفع أَيْضاً بالفعل المضارع: العَمَل المشابه لِفعل الأَصْفياءِ، بموافَقته للسّنَّة. وسلامته من البِدْعة، وتحققه فيه بالإخلاصِ، والتبري في الحَوْل والقوة. قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾. والعَمَلُ الصَّالحُ، هو الَّذي يصحبه الإخلاص في أوَّلِهِ، والاتْقَان في وَسَطِهِ. والغَيْبة عنه في آخِرهِ. وإليه الإشارة بقوله: لَمْ يتَّصلْ بآخِرهِ شيْء مِنَ الْعِلَل كالإظهار له، والبَجح به. وفي الحِكَم: لاَ عَمَلَ أرحب للقلوب، من عَمَلٍ يغيب عنك شهوده ويحتقر لديْك وُجوده. وفي نسْخة أُخرى للقبول، وبالله التوفيق. ثم ذكر العَلاَمَة الثانية للرَّفع فقال: (ص) وأَمَّا الواوُ فتكون عَلاَمة للرَّفْع في مَوْضِعَيْنِ، في جمع المذكر السَّالِم (ش). وهو ما دَلَّ على ثلاثة فأكْثر، بزيادة في آخره مع سلامة بناءِ واحدة، فخرجَ ما دَلَّ على أَقل كَاثنينْ. وما دل على ذلك لاَ بزيادة كاسْم الجمْع، وما لم يُسَمَّ بناء واحد، فهو جمع التكسير. وقد تقدم أنهُ يعرب بالحركَاتِ. ومفرد هَذَا الجمع، إمَّا أَنْ يكُونَ اسْماً كزيْد وعمْرو، فتقول: زَيْدون وعَمْرُون. وشرطهُ أن يكُونَ مُذَكَّراً عاقِلاً، خالياً من تَاءِ التأنيث، ومن التركيب، فلا يجمع هذا الجمع نجو صَائف، وزينب، لعدم التذكير، وَلاَ واشق علماً لكلب وسابق، صفة لِفَرس، لعدم العَقل وَلاَ طلحة، وعلامة لتاء التأنيث، ولا بَعْلبكُّ، وبرق نحره للتركيب المزجي، والإسْناد، وأَمَّا الْمُرَكَّب الإضافِي، فإنه يجمع صَدره ويُضاف إلى عَجُزهِ. وقيل يجمع الجزآن معاً، وإمَّا أن يكون صِفَة كصالح وعالم، فتقول: صالحونَ وَعَالِمُونَ. وشرطه أن يقبل

التاء أو يدل على التفضيل، كَقائم ومُذْنب، وأَفْضَل، بِخلافِ نحو جَرِيح وَصَبُور، فلا يُجْمعُ هذا الجمع؛ لأنه لاَ يقبل التَّاء، لأنه يستوي فيه المذكَّر والمؤنث، تقول: رجل جريح، وامرأة جريحٌ. ورجل صبور، وامرأة صبور. وكذلك سَكْران وأحمر، إذا لم يقولوا سكرانة وَلاَ أحمرة. بل سكراء وحمراء. وحملوا على هذا الجمع أربعة أنواع. فأعربوها إعراب جمع المذكر السَّالم. وإن لم تتوفَّر فيها الشروط، أحدها أسماء جموع؛ وهي أولو، وعالمون، وعشرون وبابه إلى التسْعينَ، فإنها تعرب بالواو رفعاً، وبالياءِ نصباً. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾. فَاعْتبروا يا أولي الأبصار، وتمثيل الباقي ظاهرٌ. وجعل عالمين اسْم جمع هو رأْي ابن مالِكٍ. والتحقيق، أنه جمع عالمٍ، ويقصد به نوع من أنواع العِلْمِ. فَلاَ يكون المفرد أَوْسَع من جمعهِ، كما قال: من فعل اسم جَمْع. الثاني: جموع التكسير، نحو بنون وإخرون بكَسْر الهمزة جمع حرة؛ وهي الأرض ذات حجارة سَوْداء. ومنهُ أَرَضون وسنُون وبابه. فإن هذا الجمع شائع فِي كلِّ ثلاثين، حذفت لاَمه، وعُوِّض منها هاء التأنيثِ وإنْ لم يُكْسرْ نحو سَنَة وَسِنين وَعِضَة وَعِضِينَ، وَعِزَّة وَعِزِينَ، وثُبَة وثبينَ. قال تعالى: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾. ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾. ﴿وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ﴾. وأَصْل مفردها سنو وعضو أو عضة. وعِزْيٌ، ونتو. فحذفت منها اللاَّم وعُوِّض منها تاء التأنيثِ، وَلاَ يجوز ذَلِكَ فِي نحو ثمرة، لعدم الحذفِ. وَلاَ في نحْو عِدة وزنة؛ لأنَّ المحذوف الفاء، وَلاَ في نحوِ يدٍ وَدَم لعَدَم التعويض. وشرَّابون وأخوان، ولا في نحو اسم وأُخت وبنت؛ لأَنَّ العوضَ غير الهاء، وَلاَ في نحوِ شاة وشفة؛ لأنهما كسراً عَلَى شياه وشفاه. الثالث: جموع تصحيح؛ لأنها لم تستوف الشروط، كأهلون ووابلونَ؛ لأن أَهْلاً ووابِلاً، وهو المطر الغزير، لَيْس علميْن وَلاَ صفتيْن؛ لأن وابلاً اسم للمطر لا صِفة، الرابع: ما سمي به من هذا الجمع، وما أُلحق بِهِ، كَعِلّيينَ وزَيْدينَ مسمّى به، ويجوز في هذا النَّوْع أَنْ يَجْرِيَ مَجْرَى غِسْلين في لزُوم الياءِ، والإعراب بالحركات عَلَى النُّونِ منونة، ودون هَذَا أَن يَجْرِيَ مَجْرَى غربون في لزوم الواو كقوله:

طَالَ لَيْلي وبِتّ كَالمجنُونِ ... واعترانِي الهموم بالماطرون

ودُون هذا أَنْ تلزمَهُ الواو وفتح النون، وبعضهم يُجري سنينَ وباب سنين مجرى غسلين في لزوم الياء في الأحوال الثلاثة. قال الشاعر:

وكَـان لَـنـا أَبُـو حـسـن عَـلـي أَبـا بـراً ونـحـن لـهُ بـنـيـنُ

ومنه الحديث:

«اللَّهم اجْعَلْها عليهم سنيناً كسنين يوسف» تذييل: اعلم أَنَّ الجمع هو الاسم الموضوع للآحاد المجتمعة دَالاً عليهَا دلاَلَة الواحد بالعطف؛ وهو أَرْبَعَة أَقسام: اسم الجمع، واسم الجِنْس، وجمع التكسير، وجمع السَّالم أَمَّا اسْم الجمع، فهو الاسم الموضوع للآحاد دَالاً عَلَيْهَا، دِلاَلَة المفرد على جملة أَجْزَاء مُسَمَّاهُ. وَلاَ مفرد لهُ لفظاً، كقوم وَرَهْطِ وركْب وصحْب. وأما اسْم الجِنْس؛ فهو الاسم الموضوع للحقيقة. ملغى فيها اعتبار الفردية وهو قسْمَانِ: إفرادي وجَمْعِي، فالأول كالماء والعَسَل. والثاني كَتُركِ وَرُوم. والفَرْق بَيْنَهُمَا أَنَّ الأول ينتفي الواحد بنفْيِهِ، بخلاف الثاني. فإنه لا ينتفي الواحد والاثنان بنفيه، فإذا قلتَ: لَيْس هُنَا ماءٌ انتفى كل فَرْد من أَفْراد الماء، وإن قلت: لَيْس هنا تُرْك، لاَ يُنَافِي أن يوجد تركي أَوْ تركيَانِ؛ وهو اسْمُ الجِنْسِ على ثلاثة أقسَام، ما يميز واحده عنه بياءِ النَّسبِ، كَرُوم ورومي، وتُرْكِ وَتُرْكِي، وَمَا يُمَيز وَاحِده عنهُ بتاءِ التأنيث، كثمرة وثمر، ونخْلة ونَخْل، ونبْقة ونبق، وكلمة وكلم؛ وهو الغالب وَمَا يُمَيّز هُوَ عَن مُفردهِ بتاء التأنيث، كَكَمأة وكما فكصأة جمع، ومفرده كما. وأما جمع التكسير، وجمع السلامة، مذكراً أوْ مؤنثاً، فقد تَقَدَّم الكَلاَم عليه، والله تعالى أَعْلَمُ. وتكون الواو أيضاً علامة للرَّفع. (ص): في الأسْمَاء الخمْسة؛ وهي أَخُوك وأَبُوك وحموك وفوك (ش). قلت: أما أَخُوكَ وأَبُوك، فأَصلهما أَخُووكَ وأَبُووكَ، فاسْتثقلت الضَّمَّة على الواو، فحُذفت، ثم حذفت الواو الأولى لالتقاءِ الساكنين، وقد تشدد الخاء والباء، من أخٍ وأب. وقد يُقال: أَخُوك بسُكونِ الخاءِ. قال الشَّاعر:

مـال الـمـرء أخـوك إن لـم تـلـفـه وزراً عـنـد الـكـريـهـة مِـعْـوَانـاً عـلـى الـنُّـوبِ

ويجمع الأخ من النَّسَب على إخوة، ومن الصَّدَاقة والخلة على إخوان، ومن الدِّين عليهما، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾. فإخوانكم في الدِّين. وأمَّا حَمُوكِ فَلاَ يقال إلاَّ بِكَسْر الكَاف؛ لأنه لاَ يكون خطاباً إلاَّ للمؤنَّثِ؛ لأن الأحما أقارب الزَّوج كما أَنَّ الأختان أقارب المرأة. والأصهار يطلق عليهما؛ لأنه مِنَ الصِّهْرِ وهو الاختلاط. هذا أَخَك وأَبَك وحمك. فيعرب بالحركة الظاهرة. قال الشاعر:

بـابَـه اقـتـدى عُـدي فـي الـكَـرَم وَمَـن يُـشـابـه أَبـاهُ فَـمَـا ظَـلَـم

وقد تلْزَم الألف في الأَحْوَالِ الثلاثة، فيُقال: هَذا أَخَاكَ وأَباك وحماك، فيقدر الإعراب في الألف. وأَما فُوكَ، فيعرب بالحروف، ما لم تظهر فيه الميم، فيعرب حينئذٍ بالحركة، تقول: هَذَا فمك، وقد تشدَّد ميمُهُ، وتثلث فاؤهُ، قال في التَّسْهِيل: وقد يُثلَّثُ ما فم منقوصاً أو مقصوراً،أو يضعف مفتوح الفاء. أو مضمومها أو تتبع فاؤه حرف إعرابه في الحركة، كأفعل بفاء مرء وعيني أَمْري وَابْنَم، ونحوهما. وأَصل فم فوهُ، بدليل أَفواه وفويه، وأما ذو، فأصلها ذَوُوا. وهل المحذوف لاَمها أَوْ عينيها قولاَن. وهل وزنها فعل وهو مذهب الخليل، أو فَعَلَ بالفتح، وهو مَذْهب سيبويْه قَوْلاَنِ. وَلاَ تضاف إلا لظاهِرِ على المشهور. وشذَّ قول الشاعر: أَفضل المعروف ما لم تبتدل فيه الوجوه» إنما يعرف ذا الفضل من النَّاس ذاووهُ. وَلاَ يكون ذلِكَ الظَّاهر إلاَّ ما فيه شَرَف كذي علم، وذي عزٍّ وجَلالٍ، وَلاَ يُقال ذُو حَجَامة وذو حياكة. مما ليْس فيه شَرَف. قال الزَّيَاتي، وترك المصنف الْهَن؛ وهو الفَرْج، أو ما يستقبَحُ مِنَ الإنسَان. وقد ذكره بعْضُهمْ من الأسماء الخمسَة، والمشهور فيه النقص، وإعرابه بالحركاتِ، قال في الألفية:

والنقص في هَذَا الأخير أَحْسَنُ. ويشترط في إعراب هذه الأَسْمَاء بالحروف، أَن تكون مكبرة لاَ مصغرة وَلاَ مجموعة. وأَنْ تكون مُضَافة لِغَيْرِ ياءِ المتكلم. فإن أُضيفت للياءِ، أُعْربت بِالحركَاتِ المقدَّرة. فيما قبل ياءِ المتكلمِ،والله تعالى أَعْلَمُ.

الإشَارَة: وأَمَّا وَاو المودة والمحبَّة من الخلق. فتكون علامة للرَّفع عنْدَ الخلقِ في مَوْضعيْن: في جمع المُذكَّرِ أي إذا كَانت تلك المحبَّة من الجمع الكَثير، والجمّ الغفيرِ من أَهْل العَقل السَّليم، والرَّأي المستقيم، وَلاَ عبْرَة بمحبَّة السُّفهاء وَلاَ بُغْضهم، إذ ليْسُوا من العقل السليم، وأن يكونَ ذلك الوُدّ سالماً من الأغراض والأهواءِ، بل يكون لِلهِ، وفي اللهِ، ومِنَ اللَّهِ، بلا عِوَضٍ وَلاَ حَرْفٍ. فهذه المحبَّة التي تدلُّ على رفع قَدْر صاحبها عنْد اللَّهِ، وتكون أَيْضاً علامة لرَفْعِهِ في الأسماءِ الخَمْسَة، أي إذا وقعت من الأجناس الخمسة، الإنس والجن والملائكة والحَيَوَانَات، والجمادات فإنَّ اللَّهَ تعالى، إذا أَحَبَّ عبْداً، قَذَف محبَّتَهُ في قلوب جميع خَلْقهِ، فيشتاق إليه كل شيء، ويطيعه كل شيء. ويدل على هذا تسْخير الحيوانات، والجمادات للأولياء، وتقدم الحديث. إذا أَحَبَّ الله عبداً نادَى جِبْرِيلَ إنِّي أُحب فلاناً فأَحَبَّهُ. فيحبّه جبريل، ثم يُنادي جبريل في السماوات. إنَّ اللَّهَ يحبُّ فُلاناً فأَحِبُوهُ. جِنهم وإنسهم. وفي الحديث: إن العَالم يسْتغفر له دوام البرّ وأنعامه، ودوام البحر وهوامهُ.

وفي حديث آخر: «إن العالم يستغفر له مَن في السماوات ومن في الأرضِ، حتى الحيتان في جوف الماءِ، وإِنَّ العلمَاء ورثة الأنبياء، لم يورِّثوا ديناراً وَلاَ دِرهماً، وإنما وَرثُوا العِلم، فمن أَخذه، بحَظٍ وافرٍ» هـ. والمراد بالعلماء، العلماء باللَّهِ، أو بأحكام اللَّهِ، إذا خلصت النيّة والاستغفار يدل على المحبَّة، والله تعالى أَعْلَمُ، ثم قال: (ص): وأَمَّا الألف فتكون عَلاَمَة للرَّفْع في تثنيَة الأسماء خاصَّة.

(ش) قلت: التثنية مَصْدر أطلقه على اسم المفعول في مثنى الأسماء. قال في التسهيل في حقيقة التثنية: جَعْل الاسم القابل دليل اثنين متفقيْن في اللفظ غالباً وفي المعنى. على رأي بزيادة ألف في آخرهِ رفعاً، وياء نصْباً وجراً، تليهما نون مكسورة فتحها لغة. وقد تُضمّ وتسقط للإضافة والضرورة، أو لتقصير صلةٍ هـ. وأقرب منه ما قاله غيْره: ما دلَّ على أقل أَو أَكثر. وبقولهِ بزيادة في آخرهِ، ما دلَّ على اثنيْنِ بلا زيادة، كزوج وشفع وزكَى وكِلاَ وكِلْتَا. إلاَّ أَن كلا وكِلْتا ملحقاً بالتثنية في الإعراب على ما يأتي. وبقوله صالحاً للتجريد: اثنان واثنَتَان، فإِنَّهما ملحقَان بِهَا. وبقوله: وعَطْف مثله عليه، ما لا يعطف عليه مثلُهُ. بل غيْره، كالقمَريْن والعَمْريْنِ، في التغليب. فإنهما مما يلحق بالتثنية، وقال ابن هشام: والَّذي أراه أنهما مثنى حقيقة لا محلقانِ بِهَا. وقوله في التسهيل: القابل خرج بلا ما لاَ يقبل التثنية، والذي يقبلها ما توفَّرت فِيهِ ثَمانية شروط، جمعها بعضهم فقال:

وَلِلَّذِي ثُنِي قُل ثَمانٌ ... مِن الشروط فُزت بالبيانِ

أَوَّلُها الإعرابُ والتَّنْكيرُ وَعَدَم التركيب والنظير. وأَن يكون مُفرداً وأَلاَّ يغني عنه غيره عين نقلاً. كذا اتفاق اللفظ والمعنى فذي، شروطها مجموعة للمبتدي.

فلا يثنَّى المبْني كالضمير وأسماء الشروط، والاستفهام، والموصولات، والإشارات. وأما اللذانِ واللتان وهذَانِ فملحق بالتثنية، وَلاَ تثنى المعارف حتى يقدر شيوعها، فلا يثنى العَلَم باقِياً عَلَى عَلَمِيَّتِهِ، بل إذا أَريد تثنيته، قدّر تنكيره، بدليل دخول الألف واللاَّم عليه، نحو الزيدان والعمرانِ، وَلاَ المركب تركيب إسنادِ اتِّفاقاً. وفي المَزْجي ثالثها إن لم يخْتَم بويْه، وَلاَ ما لاَ نظير لهُ كالشمس والقمر، إلاَّ على سبيل التغليب، فقد قالوا؛ القمرانِ للشمس والقمر، والعمرانِ لأبي بكر وعمر، ولا تثنى الجمع والمثنى باقياً على جمعيته وتثنيته، غير مسمًّى بهما، وَلاَ يثنَّى أَيْضاً ما أَغنَى عَنْه غيْره كسَواء، فَلَم يقولوا سَوَاءآنِ، بل قالوا: سِيَّانِ، فأغنى تثنية سي عن تثنية سواء، وشَذَّ قول الشاعر:

يا ربّ إن لم تجْعل الحبّ بيننا سَوَاءَ ... يْنِ فاجْعَلْني على حُبْها جلدا

وَلاَ يثنى أيضاً ما اختلف لفظاً. كزيْد وعَمْرو، إلاَّ ما تقدَّم من التَّغْلِيب: فقد قالوا: الأبوان للأب والأُمّ. والدِّرهمان، للدِّرْهَم والدِّينار، والأذانانِ، للأذانِ والإقامة، والعشاءآنِ، للمغرب والعشاءِ. وألفاظاً كثيرة. والتغليب يكون للأخفِّ. أوْ للأفْضَل، فالمفرد أَخَفّ من المركَّب، والمذكر، أفضل من المؤنثِ، فلذلك قالوا: العُمْرَانِ والقمرانِ، وكذلك ما اختلف معنًى، كَأَن يكون أحدهما حقيقة، وللآخر مَجَازاً، فلا تقول: جاء الأسَدَانِ، وتعْني السَّبع الْمَعْلُوم بالرجل الشبيهُ بِهِ. تَنبِيهات، الأول: هذه الشروط الثمانية التي جرَتْ في المعْنَى، كلها تجري أيْضاً في جمع المُذَكَّر السَّالم، فلا يجمع جمع سَلاَمَة إلاَّ بِهَا. وإلاَّ كَان مُلحقاً بالجميع. هكذا سَمِعت من شيخنا ابن قريش، وأظنه نقله عَنِ الزّياتي. الثاني: مما أُلحق بالمثنَّى كِلاَ وكلْتَا، يشترط إضافتهما إلى الضَّمير. تقول: جاء الجيشان كِلاَهما. والقبيلتانِ كِلْتاهما. ورأيْت الجيْشيْن كِلَيْهما، والقبيلتيْن كِلْتَيْهما، ومَرَرْت بالجيشيْن كليهما، وبالقبيلتيْن كِلْتيْهما، وإعرابهما توكيد تابع للموكَّد. فإذا أُضيفَ للظَّاهِرِ، أُعرب بالحركة المقدَّرة، نحو كِلْتا الجنَّتيْن آتَتْ أُكْلها، فَكِلْت مبْتدأ، مرْفوعة بضمة مقدرة في الألفِ. وجملة آتَتْ خبَر. وإنما أعرب بالحركة إذا أضيف للظاهر إعْطاءَ الأصْل للأصْل، فأصل الإضافة أن تكون للظَّاهِرِ، وأصْل الإعراب أَن يكون بالحركاتِ، فَحِينَ أُضيفَتْ للظَّاهِرِ، رجَعَتْ لأصْلِهَا، فأَعْربت بالحركَاتِ. الثالث: الباعث على التثنية الاختصار، وكذلك الجمعُ، وأصْلهما العطف، بدليل رجوع الشاعر إليه في الاضطرار كقولِهِ إنَّ الرّزية لاَ رِزيَة مثْلَهَا، فقدان مثل محمد ومحمَّد. والله تعالى أعلم.

الإشارةُ: وَالله أَلِف الوَحْدة، أي التحقق بِهَا. فيكون عَلامة لرفع صَاحِبَها وكَمَالِهِ، في تثنية الأسْماء خاصَّة. أيّ في التَّمَسُّكَ بالشريعة والحقيقة فقط. فَمَن تحقق وَلَمْ يتشرَّع فقد تزندق. إلاَّ أن يكون مجذوباً. أو تقول: تكون ألف الوحدة علامة للرفع في تثنية الأشياء الدَّالة عليها الأسْماء. وتثنيتها جَعْلها ورؤيتها قائمة بيْن الضدّين بيْن الحِسّ والمَعْنَى، بيْن الحِكمة والقدْرة. بيْن عبودية وربوبية. بيْن ملك ملكوت، بيْن أَثَر ومؤثر. بيْن كَوْن ومُكَوّن، بيْن خَلْق وحَقٌ. فلا يكون العارف كَامِلاً حتى يبلغ إلى هذا المَقام، فإن وقف مَع الضِدُ الأول، كان محجوباً مطمُوس البصيرة. وفيه قال المجذوب رضي الله عنهُ: مَنْ نَظَرَ الكَوْنَ بالكَوْنِ. عِزّهْ في عَمَى البصيرةِ. وَمَن نَظَرَ الكَوْنَ بالكَوِّن، صادف علاج السريرة. وإن وقف مع الضّدّ الثاني، كَان سكراناً غيْر صاح. فانياً غير باق، مجذوباً غير سالك. فلا يكون

كَامِلاً. وبالله التوفيق. ثم قال (ص) وأما النون فتكون علامة للرفع في الفعل المضارع. إذا اتَّصَلَ بِه ضمير تثنية. أو ضمير جمع، أو ضمير المؤنثة المخاطبة. (ش) قالت: ضمير تثنية، نحو الزَّيدانِ يقومان، أو يقومانِ الزَّيدان، وضمير جمع، نحو الزَّيدان يقومون، أو يقومون الزَّيدان، على لغة عدم تجريد الفعل فيهما، وضمير المؤنثة المخاطبة. أنت يا هند تقومينَ. فالنون علامة للرَّفع. في الجميع، سواء كَان الألف والواو ضميرين، أو حَرْفين، دالَّيْن على التثنية والجمع، وَلاَ فَرْق في هذا الفعل المتَّصل بضَمير تثنية، أو ضَمير جَمْع، بيْن أن يكون مؤكداً بنونِ التوكيد الثقيلة. أَمْ لاَ. فإنه في كل ذلِكَ مرفوع بِالنونِ، نحو قوله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ﴾، فأَصْلُهُ تُبْلَوُونَ، كَتُنْصَرونَ، تحركَتِ الواو وَانْفتحَ مَا قَبْلَها. فقُبِلَت أَلفاً، فَصَارَ تُبْلاوْن، فحذفت الألف لالتقاءِ الساكنيْن. فصار تُبْلوْنَ. ثم أَكَّد بنون التوكيد، فصار تبلونن، اجتمع ثلاث نوناتٍ، فَحُذفت نون الرَّفع لاجتماع الأمثال. فالتقَّى ساكِنَان: سكون الواو وسكون نون التوكيد المشدَّدة. فحرّكت الواو بالضَّمَّة لمجانستها لَهُ، فَهذا الفِعْل مرفوع بِالنُّون المحذوفة، لاِجتماعِ الأمثالِ. ومِنْهُ لتخرجنَّ يا هِنْد، أَصْله تخرجينَ. فأكَّد، فصار تخرجيننَّ. فالتقى ثلاث نونات، فحذفت نون الرَّفع لاِجتماع الأمثال. وكذلِك تقول يا زيدان. واللَّهِ لتخرجانّ، أصله لتخرجانن، فاجتمع ثلاث نوناتٍ، فحذفت نون الرفع كَمَا تَقدَّم، وكسرت نون التوكيد. وما ذكره المصنف، من أَنَّ ياء المخاطبة ضمير هو مذهب الجمهور. وقال الأخفش والمَازِني، إنها حرْف، والفاعل على ضمير مستتر. قال بعضهم: أصل هذه النّون بسكون، وإنما حرّكتْ لالتقاء الساكنَيْن. سكونها، وسكون ما قبلها، فكسرت بعد الألِف على أَصْلها، وفُتحت بعد الواو والياء تخفيفاً، لاِشتغال الكَسْرَة بَعْدهما، وقيل تشبيهاً للأول بالمثنَى. وللثاني بالجمع. وقد تفتح بعد الألف، قُريء أَتَعِدَ انِنيَ. وقد تضم قريء شاذاً (طعام ترزقانِهِ) بضَمّ النُون. وقد تحذف النّون في الأمر. وفي الصحيح: «لاَ تَدْخُلُوا الجَنَّة حتَّى تُؤمِنُوا، وفِي النظم كقول الشاعِرِ: أَبيت أَسري تبين تَدْلكي» وجهَك بالعَنْبَر والمِسْك الذَّكي. وإذا اجْتمعَت هذه النون، مع نون الوقاية، جاز فيهما الفكّ والإدغام والحَذْف. وقريء بالجميع. وهل المحذوف حينئذٍ نون الرفع أو نون الوقاية قولاَن. تَنبيه: قد تلْتبِس هذه النُّون بنون الإناث. التي يُبْنَى المضارع معهَا، وذلك في المضارع المُعْتل به الواو والياء، نحو الزَّيدون يدعُونَ. والهِنْدَات تَدْعُونَ، أو الرجال يغزونَ. والنِّسَاء تغزونَ. فالأوَّل مُعرّب، والثاني مَبْنِي. ومنهُ قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ﴾ وقوله

تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ «والقواعد من النساء التي لا يرجون». فهذه الأفعال الثلاثة كلها مبنية لاتّصالها بنون الإناث. فالنون فيها فاعل. والواو عيْن لام الكلمة؛ بخلاف. «وقَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُون». فإنّه معرب، والواو فاعل وأصْله يرجُوون، على وزْن يفعلُونَ، وأمّا: «الْقَواعِدُ مِنَ النساء اللاتي لاَ يرجون». فأصله يرجون. على وزن يفْعُلن، فالواو أصْلي، والنون فاعل. وقسْ على ذلك نظائره، وكذلِكَ الهندات ترمين، مبْني. والنون فاعلا بخلاَفِ أنتِ يَا هِنْد ترمينَ، فمعرب بِثبوت النون. والياء فاعل، وهذه مسألة ابن خميسة مع أهْل سبتة التي ذكرها ابن غازي في حَاشيته على الألفية. فانظرها فيه، إذ لم تحضر لي الآن.

الإِشَارَةُ: وأمّا نون الأنانية؛ وهو مقام الفنا الذي يقول فيه صاحِبُه. أنَا من أَهْوى ومَن أَهْوى أنا. فيكون عَلاَمة لرَفع صاحِبِهِ، اتصل بِهِ ضمير، أي قَلْبُ تثنية: وهو الَّذي يقرّ الشريعة في محلّها، والحقيقة في محَلّهَا. والشريعة للظواهِرِ، والحقيقة للبَوَاطِنِ. فَلاَ يكملُ مقام الفَنَاء إلاّ بالبقاءِ. الذي يعطى فيه كل ذي حق حقّهُ كَمَا تَقَدَّمَ. أو تقول ضمير تثنية. هو رؤيتهُ الضِدّيْن في جميع التجليات كما تقدَّمَ. أو ضمير جَمْع على اللّهِ في جميع الأوقات، وكل الحالاَت، فيكون مستغرقاً في الشّهود، غائباً عن كل موجودٍ، مستديمَ الشرب والورود. غارقاً مِن عيْن المِنَّة والجودِ. أو ضمير المؤنَّثة، أيْ ذي البصيرة المُنَوَّرَة المخاطبة، بالوارداتِ الإلهية، والعلوم اللدُنية. والأسْرار الرَّبّانية. وبالله التوفيق. ثم ذكر عَلاَمة النصب. فقال (ص): ولِلنَّصْبِ خمس عَلاَمَاتٍ: الفتحة والألف والكَسْرَةَ، والياء، وحذف النُّون. (ش). قلت: قَدَّم الفتحة لأصْلِهَا. وثنّى بالألف لأنه بنتها. وثلّث بالكسرةِ لأنها أُختها. وذكر الياء بعدها لأنّها بنتها، وأُخت الألف في اللّين. وخَتَم بالنون. لأنه مُخْتَصٌّ بالأفعَال، اختصاص الألف والياء. والكسرةَ بالأسماء. وتشترك الفتحة بين الأسماء والأفعال.

الإِشَارَةُ: وَلِنَصْبِ العبد نفسه للمقادير في مقام الرِضَى خمس علامات. الفتحة، أي فتح قلبه لمعرفة الحقّ. فإِنَّ مَن عَرَفَ الحقَّ رضي بِحُكْمِهِ. ومن جَهلهُ سخط أحكامه. قيل لبعضِ الْعَارفينَ: قال: ما يقضي الله. وقال آخر، أخْلجتُ وَمَالي سرور إلاّ في مواقع القدر. وفي الحِكَم: العاقل إذا أصبح، نظر إلى ما يَفعله اللّهُ. والْغَافِلُ ينظر ما يفعل بنفسِهِ. وعلامَةَ النَّصْب للمقادير أيْضاً، والرضَى بما يجري من عُنْصُر القدرةِ، أَلِف الوحدة. فلا يرى ألاّ الله. وَلاَ يَرْكَن إلى شيء سواه؛ لأنَّ مَن رَضِيَ بِاللّهِ رَبّاً. لاَ يعرف غيره. وعلامته أيْضاً: الكسْرة. أي

الخضوع والسكون تحت مجاري أقدارهِ. والذّل والافتقار إليه. وعلامته أَيْضاً: اليقين التام، والطمأنينة الكبرى. فالياء يُشار بها هُنَا إلى اليقين. وعَلاَمته أَيْضاً: حذف نون الأنانية، بخروجه إلى البَقاءِ. فالفاني يقول: أَنَا. والباقي يقول: هُو. كما تقدَّمَ. ثم فَصَّلَ ما تَقَدَّم. فقال (ص): فأَمَّا الفتحة فتكون في ثلاثة مواضع. (ش) الأول (ص) في الاسم المفردِ (ش)؛ وهو ما ليس مثنى وَلاَ مجموعاً. وَلاَ واحداً من أسماء الخَمْسة. نحو: رأَيت زَيْداً، وعبد الله، والفتى والقاضي. (ص) وَ(ش) الثالث (ص) الفعل المضارع الذي لم يتصل بآخره شيءٍ. (ش) نحو: «لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا» وَلَنْ يَخْشَى الله من يَعْصيه.

الإِشَارَةُ: لا يكون الفتح ذاته على تحقق العَبْدِ بمقدم الرضى. إلاَّ بعد تحققه بثلاثة أُمُورٍ، في بِدايتهِ: الاستغراق في الاسم المفرد، وصحبته للذاكرين، وتَمسُّكهُ بالعمل الصالح، الَّذي لم يتصل بآخره شيء من الْعِلَلِ؛ وهو التمسك بالشريعة المحمدية. وبالله التوفيق. ثم قال (ص) وأَمَّا الألفُ فيكون علامَةً للِنَّصْب في الأسماء الخمْسَة (ش) المتقدمة في علامات الرَّفع. (ص) نحو رَأَيْت أَخَاكَ وأَبَاكَ ومَا أشبه ذلِكَ. (ش) نحو رَأَيْت حَمَاكِ لي. وَقَبَّلْتُ فَاكِ. وَرَأيت ذَا مالٍ. فأخاكَ وَمَا بعْدَه منصوبات. وعلامة نصبها الألف.

الإِشَارَةُ: وأَمَّا ألف الْوَحدةُ، إذا تحقق به المُريد، وتَمكَّن مِنهُ، فيكون عَلاَمَة لنَصْبِهِ للمشيخة والتذكير، في خمسة أمور. فإذا تحقق بِهَا، كَانت عَلاَمَة على صِحَّة نَصْبِهِ وظهوره بذكر ثلاثة في سَيْرِه؛ وهي الصُّحْبَة للشيخ. وخرق عوائد نَفْسِهِ، وإِذْن له من شيخهِ. واثنان بَعْد وُصُولِهِ: وهو التحقق بمقام الفنا، والبقاء. وبالله التوفيق. (ص): فأَمَّا الكسْرة فتكون عَلاَمَة للنَّصْبِ في جمع المؤنَّثِ السَّالِم. (ش) نحو قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ فالسماوات مفعول به منصوب. وعَلاَمة نَصْبِهِ الكَسْرَة النَّائِبَةُ عَنِ الْفَتحَةِ. وَهَاهُنَا بحْث، وهو أَنَّ من شأنِ المفعول بِهِ أنْ يكون مَوْجُوداً قَبْل الفِعْل، ثم يجيء الْفَاعِل. فيفعل فيه فِعْله، نحوِ زَيْداً ضربت، فزَيْد موجود قبل الضرب، ثم وَقَعَ الضرب عليه. والسماوات لم تكن موجودة قَبْل الخلق، بل وَجدت بِهِ: فهو أشبه شيء بالمفعولِ المطلق، الذي من شأنه أن يُوجد بالفِعْلِ والجواب، أَنَّ هذه القاعدة، إنما هِيَ في غَيْرِ أفعال الإيجاد الاختراع. وأَمَّا ما يَدُل على الإيجاد والاختراع، فالمفعول يوجد بِهَا، نحو صَنَعْت شنينَةً وقصْعة، ونحوهما. وقَد تقدَّم الكَلاَم على جمع المؤنثِ السالِم، فَلاَ نُعيد الكَلام عليه.

الإِشَارَةُ: وأَمَّا الكَسْرة. أي الزَّلَّة والهَفْوة، فتكون عَلاَمة على نَصبِ الْعَبْد وجْهَه لجهة التوجُه، بحيْث لَمْ تَضُرّهُ ولم تفترهُ. بل تزيده انكسَاراً وإيحاشاً في رَبِّهِ. في جمع المؤنثِ السَّالِم أي إِذَا كَانَ ذلِك ميْلاً منهُ بِطَبْعِهِ، لِجهَة النِّسَاءِ. ثم سَلِم مِن غَائلتهنَّ، ورحل إلى ربهِ بانكِسَارهِ. معصية أَوْرثت ذُلاً وافتقاراً. خير من طاعةٍ أورثت عِزّاً واسْتِكْبَاراً. وباللّهِ التوفيق. (ص): وأَمَّا الياءُ فتكون عَلاَمَة للنَّصْبِ (ش) أي نائبة عن الفتحة (ص) في التثنيَة. (ش) نحو رأيتُ الزَّيدَيْن. وقوله تعالى في قراءة أبي عمْرو: «إنَّ هَذَانِ لسَاحِرَانِ» فالياء نائبة عن الفتحة فيهما. (ص) والجمع (ش) نحو رأيتُ الزَّيْدِينَ. وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فالياء نائبة عن الفتحة فيهما. مفتوح ما بعدها، مكسور ما قبلها، بخلاف التَّثنية، فإِنَّ ما قَبْلها مفتوح، وَمَا بَعْدها مكسور. وإنما خص المثنَّى بالكَسْرِ، والجمع بالفتح لما بَعد اليَاءِ، لخفَّةِ المثنَّى، وثقل الجمع، فأُعْطي الثقيل للخفيف. والخفيف للثقيل، ليتعادلَ. والله تعالى أَعْلَمُ.

الإِشَارَةُ: وأَمَّا اليقين والطُّمَانِينَةُ، فيكون علاَمَة لنَصْب العَبْد وتوجهه إلى ربه، فِي التثنية، أَي في ضَمّ الشريعة إلى الحقيقة. فإِن ظَاهِرهُ متمسكاً بالشريعة، وباطنه منوراً بأسرار الحقيقة علمنا كَمَالَه وصحة توجهه. وإن أَخَلَّ بأحدهما عَلِمْنَا نُقْصَانه، وإن ظَهَرَ أَثر اليقين عليه من سكون الظَّاهر وطمأنينته. فإن كثيراً من العُبَّاد والزُّهَّادِ ظهر عليهم أَثر اليقين؛ وهم غَيْر كُمَّال. ثم هم أَشد حجاباً عن اللّهِ. ويظهر أَيْضاً نصْبه وتوجهه في الجَمْع الدَّائم. والقَلْب الهائم، فيكون شربه متواليةً، وشكره متواصِلةً، كما قول الشاعر:

مِــنْ أَحْــسَــنِ الْــمَــذَاهِــب ســكــر عــلــى الــدَّوَام
وأَكــمــل الــرَّغــائــب وَصْــل بِــلاَ إنــصــرام

(ص) وأَمَّا حذف النُّون فيكون عَلاَمة للنَّصْبِ في الأفعال التي رفعها بِثَبَاتِ النُّون. (ش) وهي الفِعْل المضارع الذي اتَّصَلَ بِهِ ضَمِير تثنيَة، أَو ضمير جَمْع. أَو ضمير المؤنثة المخاطبة، نحو: لن تفْعلاَ، ولنْ تَفْعَلُوا. وَلاَ تفعَلِي. فلَن حَرْف نَصْبٍ واستقبال. وتفعلا فِعل مُضَارع منصوب، وعَلاَمَة نَصْبِهِ، حَذْفُ النُّوْنِ، الكَميات في كَلاَم المُصَنِّف مصدر. يقال: ثبت ثبوتاً، وثباتاً. فالأول مقيس والثاني سماعي. وَمِثله: ذهب ذهاباً وذهوباً. واللّهُ تعالى أعْلَمُ.

الإِشَارَةُ: وأَما حذف نون الإِنانية، بالخروج إلى التحقق بِالهوية. في مقام

البقاء. وقد تقدَّم أَنَّ الفانِي أَنَا. والباقي يقول: هُوَ. فَعَلامة نَصْبِهِ في مَقَامُه، اشتِغَاله بالأَفْعَالِ التي ترفع إِلى الله تَعالَى. بثبوت النُّور الذي يَحُفّها. وهو الإِخلاص والإِتْقان، والله تعالى أَعْلَمُ. ثم ذكَر عَلاَمَةَ الخفضِ فَقَال (ص): وللخفض ثلاث علامات. الكسرة (ش) نحو بسم الله. (ص) والياء (ش) نحو رب العالمين. (ص) والفتحة (ش) نحو إلى إبراهيم. قُدَّمَ الكسرة لأصالتها. وثُنّى بالياءِ؛ لأنها ابنتها. وثَلَّثَ بِالفتحةِ لأنها أُختها.

الإِشَارَةُ: ولخفضِ العَبْد وتواضعه ثُلاثُ عَلاَمَاتٍ: إِنكسارة لربّه دائماً. هيْبة منه وَإِجْلاَلاً لَهُ، ولعِبادِ الله تواضعاً. ولأَوليائه تعظيماً. وَتَحقُّقه بياء النَّسَب. أي يكون منسُوباً إلى الصوفية، متحققاً بمقامهم. حتى يقال فيه صوفي، أَو منسوباً لأَولياء اللّهِ مضافاً إليه. الثالث: أن يكون مفتوحاً عليه. قد تحقق الفتح الكبير. وفي الحِكم: التواضع الحقيقي، ما كان ناشئاً عن شهود عظمته. وتجلّي صفاتِهِ. وبالله التوفيق. (ص) فأَمَّا الكسْرة فتكون عَلاَمَة للخفضِ في ثلاثة مواضع. فِي الاسم المفرد المنصرفِ. (ش) نحو مررت برجال. واحْتَرَزَ مِنْ غَيْر المنصرف، نحو من محاريب وتماثيل وسيأتي. (ص) وَ (ش) في (ص) جمع المؤنث السالم (ش) نحو: «إنَّ في خلق والسَّواتِ والأَرْضِ لآيتٍ». فإنَّ حرْف توكيد ونصب، وفِي السماوات جارّ ومجرور وعلاَمَة جرّهِ. كسْرة في آخِرِه. وهو خبر إنَّ مقدَّم. وآيات اسْمُها مؤخَر. منصوب بالكسْرة نائبة عن الفتحة: لأنه جمع مؤنث سالم كما تقدَّمَ. ولم يُقَيِّدْهُ بالمنصرف؛ لأنه لاَ يكون إِلاَّ منصرفاً على المشهور.

الإِشَارَةُ: فأما الإِنكسارُ فيكون عَلاَمة للتواضع الحقيقي. في ثلاث، أولها الإشتغال بذكر الله. وأعظم الذّكر. الاسم المفرد؛ لأنه سلطان الأسماء، فإن الذّكر يُهذّبُ وَيؤدّبُ. قال تعالى: «ولَذِكْرِ اللّهِ أكبَرُ». ثانيها: جمعه مَعَ الأولياء، أَهْل الإكسِر والتكسير. ثالثها: تَحصِيله للسنَّة، وإحرازه لِدِينِه. بجمعه بالمؤنث السَّالم من غوائِله. وهو التزوج. فلا يظهر تواضع العبد وحُسْن خُلُقه إِلاَّ مع أَهْله وأَوْلادِهِ. قال ﷺ خيْركم. خيْركم لِنسَائِهِ. وأَنَا خَيْركم لنسائي». وبالله التوفيق. (ص) وأَمَّا الْيَاء فتكون عَلاَمَة للخفض. في ثلاثة مواضع. في الأسماء الخمْسة (ش) أي المتقدمة. نحومررت بأَخِيكَ، وأَبِيكَ، وحميك. ونظرت إلى فيكَ. وذي مالٍ. وفي التثنية، نحو مررت بالزّيدَيْن، والجمع، نحو ربّ العالمين.

الإِشَارَةُ: وأَمَّا ياء النّسْبَة التي تحققه باللحوقِ بالصُّوفية، فتكون عَلاَمَة على

خَفْضه وتواضُعِه حتى يتحقق بِما تحققوا بِهِ في ثلاثة مَوَاضع، فِي الأَسماءِ الخَمْسَة، أَي يظهر تواضعه في الأسماء الخمسَة، في الإِنس والجنّ والملائكة، والحيوانات، والجمادات. فإِنَّ العَارِفَ يتواضع مَع الحجرِ والمَدَرِ، ومع الأشياءِ كُلّها؛ لأنَّ تواضعه ناشيء عن شهودِ عَظَمة الذَّاتِ التي تجلَّتْ فِي كل شيْءٍ. وفِي التثنية، أَي في شهود الضِدّين في الأشيَاءِ كلّهَا. فيتواضع مع الربوبيَة، ويقوم بحقوق العبودية. وفي الجمع، أَي في جمع الإِخْوَان، فيتواضع مع صغيرهم وكبيرهم، ويرحم صغيرهم، ويُوقر كبيرهم. وفي الحديث: «إِرْحَمُوا صَغيركم، ووقروا كبيركُمْ، أَو كما قال عليه السَّلاَمُ. كما في الجامع. ولله در القائل. ارحَم بني جميع الخلق كلهم. وانظر إليهم بعيْن الحِلم والشفقةْ.

وقِّرْ كبيرهُمْ وارْحَم صغيرهم وراع في كل خلْق حق من خَلَقَهْ

(ص) وأَما الفتحة فتكون علامة للخفضِ في الاسم الذي لاَ يَنْصَرف. (ش) قلت: الاسْمُ على قسْميْنِ، معرب وهو الأصل. ومبْني وهو الفَرْع، وإِنَّما بني الاسم إِذا أَشبه الحرفَ شبهاً قوياً، يقربه من الحروف، فيبنى حينئذٍ؛ لأنَّ الحروف كلها مبنية، وأَنواع الشَّبَه ثلاثة: أحدها الشبه الوضعي؛ وهو أن يكون الاسم على حرفٍ أَو حرفيْن، كتاءِ قمتُ، فإِنها شبيهة بِبَل وقد، فَالضمائر كلها مبنية، إِذ جلها على حرفٍ أَو حرفين، وما وجدنا منها على ثلاثة؛ فهو شبيه بمنذ الحرفية. والثاني: الشَّبَه المعنوي؛ وهو أن يتضمَّن الاسمُ معْنًى من معانِي الحروفِ، أي المعاني التي حقها أَن تؤدّي الحروفِ، سواء وُضع لذلك المعنى حرف أَمْ لاَ، فالأَول كمتَى، فإِنها تستعمل شرطاً، فهي شبيهة حينئذٍ بِإِما الشرطية. وتسْتعمل استفهاماً؛ فهي شبيهة حينئذٍ بهمزَة الإسْتفهام، وإِنما أُعربت أي الشرطية في نحو: «أَيَّمَا الأَجَلَيْن قَضَيْتُ»، والإستفهامية في نحْوِ: «أَيُّ الفَريقَيْن أَحَقُّ بالأَمْنِ». لضعف الشبَه بما عَارَضَهُ مِن لُزُومها الإضافَة؛ التي هي من خَصائِصِ الأَسْمَاءِ، والثاني: وهو المعْنَى التي لم يُوضعْ لها حَرْف، نحو هُنَا، فإِنها مضمنة لمعْنَى الإِشارة؛ وهذا المعنى لم تَضَعْ له العربُ حرفاً، ولكنه من المعاني التي حقها أَن تؤَدّي بالحروفِ، ومعْنَى الإِشَارة؛ هو المعْنَى الذي لا يصحُ النطق بِهِ؛ لأَنه لاَ يؤدّى بالكَلاَمِ. وأَمَّا ذا مثلاً، فاسمٌ للمشارِ إليه، لكنه تضمن معنى الإشارة التي لم تقع لها العرب حرفاً يدل عليها مع أنها من المعاني التي من حقهَا أن تؤديَ بالحروف، كالتثنية والخطاب، وإِنما أَعرب هَذَانِ وهاتَانِ لضعف الشَبَه بمجيئهَا على صورة

المثنى التي هي من خَصائص الأَسْمَاء. والثالث: الشبه الإسْتعمالي. وضابطه أَن يلزم الاسم طريقة من طرائق الحروف، كَأَنْ يَنُوبَ عنِ الْفِعْلِ، وَلا يدخل عليه عامل فيؤثر فيه، وكان يفتقر افتقاراً. موصلاً إلى جملة، فالأوّل كَهَيْهات وَصَهَ وَأَي، فإنها نائبة عَن بَعُدَ، واسْكُتْ وأتوجَّعُ، وَلاَ يصح أَن يدْخل عليها عامل، فيؤثر فيها، فأشبهَتْ لَعَلَّ وليْتَ مثلاً، أَلا ترى إنها نائبة في المعْنَى عن أَترجَّى وأتمنَّى. وَلاَ يدْخل عَليْهَا عامل، واحترزَ بالتأثير، من المصْدر النائب عن فِعْله، فإنه يتأثر بالفعل النّائب عنه، فأُعْرِب. والثاني؛ وهو: الشبَه الإفتِقَاري كإذْ رميت والموصولات، فإنها مفتقرة إلى ما بعدها. فلا يتم معنَاهَا إلاَّ بذِكر ما بَعْدهَا. فأشبهَت الحروف في الإفتقار، إذ مِن شأن الحرفِ أَلاَّ يسْتقل بنفسهِ، وإنما أُعرب اللذَانِ واللتان. وأَيّ الموصولة، لضعف الشبه كما تقدَّمَ. وإذا سَلِمَ الاسْمُ من شبَهِ الحرف أُعرِبَ؛ وهو على قسْميْن، متمكِّن أمكن؛ وهو المتصرف. ومتمكِّن غير أَمكن؛ وهو الممنوع من الصرف، وسبب مَنْعِهِ مِنَ الصَّرْفِ، لشبهه بِالفعلِ؛ لأَنَّ الفعل لاَ يدْخله الخفض وَلاَ التنوينُ. فإذا أشبهه الاسْمُ منع منهما، فيكون غير منصرف، والصرف هو التَّنْوين الذي يدلُّ على خِفَّة الاسْم وتمكنه في باب الإسمية، وشبهه بالفعل؛ أن توجد فيه علتانِ فرْعيتانِ، أَو عِلَّةَ تقوم مقام عِلَّتيْنِ، فإن كَانَ كذلكَ، منع مِمَّا يمْنع منه الفِعْل. وكذلكَ أن الفعل فيه أمرانِ زائدانِ على مجرَّد معناه، أَحَدُهما راجع إلى لفظه، والآخر إلى مَعْنَاهُ، فالراجع لِلَّفظِ اشتقاقه أي أَخذه عن المصدرِ، كقام مِنَ القيام، وعلم مِنَ العلم، ونحو ذلِكَ. والأصل في الأَشياءِ عدم أَخْذها عن غيْرها، والراجع إلى معْناه، افتقاره إلى فاعلٍ فإنَّ الأصل في الأشياء استقلالها بنفسِهَا، وعدم افتقارها إلى غيرهَا. أَمَّا وجْهُ جعلهما علَّتيْن، فلِوجْهَيْنِ، أَحَدهما كونهما أَمرين زائديْن على أَصْل المغْنَى، وارِدَيْن عليه، فهما بمنزلةِ العِلَل الواردة على الأجسام الصحيحة، والآخر كونهما صالحيْن للإلحاقِ بمحَلهما، والجمع بهما، كما شأن القياس، وأَمَّا جَعلهما فرعتيْن، فلا يخفَى أَنَّ الأصْل في الكلمة أَلاَّ تكون مشتقة، وَلاَ مأخوذة من غيرها، وإنَّ عدم الإسْتقال والإحتياج إلى الغَيْر فرع عن الإستقال. وعدم الإحتياج إلى الْغَيْر. فإذا كَان الاسم مشتملاً على علتيْن فرعتين، إحْداهما راجعة إلى اللفظ. والأخرى إلى المعْنَى. حَصَلَ له الشبه بِالفعلِ فَمُنعَ مما مُنع منه الفِعْلُ وليْستِ العِلَّتَانِ الموجودتانِ في الفعل، هما اللتانِ تكونان في الاسْمِ، وإنما المراد أنهما يتشابَهَانِ في مجرد وجودِ

العِلَّتيْنِ. وجُمْلة العِلل التي تُوجَدُ في الاسْمِ؛ فيشبه بها الفعل تِسْعٌ جَمَعَها بعْضهم في بيت فقال:

أَجْـمَـعْ وَزْنَ عَـادِلاً أَنِّـثْ بِـمَـعْـرِفَـةٍ ... رَكِّبْ وَزِدْ عجْـمَـةً فَـالْـوَصْـفُ قَـدْ كَـمَـلاَ

فقوله: أَجمع، يُشير به إلى صيغَة منتهى الجُمُوع؛ وهو ما كَان على وَزْنِ مَفَاعل، أَوْ مَفَاعِيل، وما أَشبهُ، كَفَوَاعِل وتفاعيل؛ لأنَّه لاَ نظيرَ لهُ في المفردَات، نحو: «مِنْ محاريبَ وتماثيلَ». ودراهم. فَمَحَاريب وتماثيل ودراهم مجرورة بالفتحة نائبة عن الكسْرة؛ لأنه اشتمل على علَّتيْن فرْعيتيْنِ؛ إحْداهما من جهَةِ اللفظ؛ وهو صيغة الجمْع، والأخرى من جهة المعْنَى، وهو عدم النظير في الآحاد، في كلام العرب، إلاَّ أَنَّ النَّحْويينَ يقولون في هَذَا. فيه علَّة واحدة تقوم مقام علَّتين؛ لأَن العِلَّة الظاَّهرة، هي كَوْنُهُ جَمْعاً؛ وهي لفظية، وأَمَّا عدَم النَّظِير؛ فهي علَّة لاَزمَة لا صيغة، وإنما سُمّيتْ منتهَى الجمُوع؛ لأَنَّ المفرد قد يجمع مَرَّتيْن أَو ثلاثة؛ فإذا انتهى إلى هذا الجمعِ، لم يُجْمع بعدة ذلِكَ. تقول؛ كلْب وأَكلُبٌ، وأَكَالب، وَلاَ تزد. وقوله وَزن أشار به إلى وَزْن الفِعْلِ نحو: أحمد وَيَعْلَى. فأَحمدَ على وَزْن أَكْرَمَ. ويَعْلَى على وزن يعلم، وتكون في الاسم، كأحمد، والوصف كَأَحْسَن، كقوله تعالى: ﴿فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا﴾ فأَحسَن مجرور بالباءِ، وعلامة جره، الفتحة نائبة عن الكَسْرة، والمانع له من الصَّرف: الوصف ووزن الفِعْل، كما أن أحمد، المانع له العلمية، ووزن الفعل. والمراد بوزنِ الفعل المختصّ بِهِ. أَو الغالب فيه، فالأول كشمَّر اسم لفرَسٍ. والثاني كأَحمدَ وأَحْسَنَ. وَقَوْلُهُ عَادِلاً، أَشار به إلى الْعَدْل وحقيقته صَرف لفظٌ أَولى بِالمسمَّى إلى لفظٍ آخر لعلَّة، ويكون في الْعِلْم والوصف، فالأول، نحو: عُمَر ومضمر، نحْو مرزت بِعُمَرَ، فَعُمر مجرور بالفتحة نائبة عَنِ الكسْرة، والمانع لهُ من الصَّرْفِ العلمية والعَدْل؛ لأنه عَدَلَ بِهِ عن عامرٍ وما ضر للخفة، لأَن عُمَر ومضر أَخَفّ مِن عامرٍ وما ضر. فانعَدل علَّة لفظية والعَلَمِية. والعَلَمِية معنوية، ومثاله العَدْل فِي الوصف: مثنى وثلاث وَرُبَاع وَأُخَر. قال تعالى: ﴿أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾. فمثنى وما بَعْدهَا نعت لأَجْنِحَة، مخفوضة بالفتحة، والمانع لهُ من الصَّرْف؛ الوَصْف والعَدْل، فالعَدْل لفظِي، والوَصْف معنوي. ومعْنَى العدْل فيهَا، كَوْنُها مَعْدُولة عن إِعدَادِهَا المكررة، فمثنى معدول عن اثنيْن اثنيْن. وثلاثَ، عن ثلاث وثلاث، ورباع عن أربع أَرْبع، بحسب ما وقعتْ وصفاً لَهُ واحد. وأَما آخر. كقوله عليه السَّلاَمُ، صَلاَة الليل مثنى مثنَى.

وتقع حالاً، كقوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ﴾. أي اثنين اثنين. وثلاث ثلاث، وأربع أربع لكل واحد. وأما آخر، فمعدول عن آخر؛ لأن اسم التفضيل، إذا جرّد لَزِمَ الإفراد والتذكير. فحقه هُنَا أن يكون مُفرداً، فعدل به إلى الجَمْع للخِفة، كعمر وقوله: أَنِثْ: أشار به إلى التَأنيثِ، وهو على قسْمين: الأول ما فيه ألف التأنيث المقصُورة، كَحُبلَى. والممدودة، كصحراء، وَحمراء، فهذا يُمْنَع صَرْفُهُ، على أي حالٍ، كَان اسماً ووصْفاً. تقول: مَرَرْت بِحبْلى وبحراء، فالأول مجرور بالفتحة المقدرة، والثاني ظاهرة؛ وهذا القسم يقول فيه النحويُون، فيه علَّة وَاحِدة تقوم مقام عِلَّتيْن؛ لأنَّ التأنيث عِلَّة. ولزومه عِلَّة أُخرى؛ لأنَّ هذه لاَزمَة للتأنيثِ، لا تخرج عنهُ أَبداً، بخلافِ التَّاءِ؛ فقد تكون لغَيْر التَّأنيث بِغَيْر أَلفِ. وَهَذَا إنما يَكُونُ مع العلمية. وسواء كَان التأنيث لفظياً أو معنوياً؛ وهو على قسْميْن، ما كان مؤنثاً بالتَّاءِ، كطلحة وفاطمة وهبة علماً، فهذا يُمْنع مطلقاً ثلاثياً أَو رُباعياً. والمانِع لَهُ: العَلَمِية والتأنيث. فَالعَلَمِية معنوية. والتأنيث لَفظية، وما كَان مؤنثاً بغيرهَا، نحو زَينب، فإِنْ كَان رُبَاعياً كَزَينب، أَوْ عجمياً كجُور بِضَمّ الجِيم اسم امرأة، أَو محركاً وسطه كَسَقَرَ أَو أَصْله المذكور. وَسُمِّيَ بِهِ مؤنثاً، كَزيد، مُنِعَ مِنَ الصَّرْفِ على كل حالٍ، وإِن كَان مسَكَّن الوسط. نحو هنْد ودعْد، ففيه وجْهَان، أَشهرهما المَنْعُ. والعِلَّتانِ فيه: العَلَمِية والتأنيث كما تقدَّمَ، وأَشارَ بقولِهِ: بمعرفة، إلى عِلَّة التعريفِ، والمراد بِهِ العَلَميَّةُ. وتكون مَعَ العَدْل والتأنيث، ومع التركيب الذي أشار إليه بقوله: مركَّب. والمراد بِهِ التركيب المَزْجِي، نحو بَعْلبَكَّ ومَعْديكَرِبَ. نحو مررتُ بِبَعْلَبَكَّ: اسم بلدة. فبَعْلَبَكَ مجرور بفتحة نَائبة، والمانع من الصَّرْف، العَلمِية والتَّرْكيب، الأولَى معنوية. والثانية لفظية، وتكون العلمية مع زيادة الألفِ والنون، وإليه أَشار بقولِهِ، وَزِدْ نحو عمران وعثمان، وتزاد أَيْضاً في الوصف، نحو سكران وعطشَانَ، فَالمانِع في الأول العلمية والزيادة، وفي الثاني، الوصف وزيادة الألف والنون. فالوصف معْنوي، والزيادة لفْظية، لكن يُشترط في الوَصْف أَلاَّ يؤنث بِالتَّاءِ، احترازاً من نحو ندمان، من المُنَادمَة؛ وهي المصاحبَة، فهذا يُصْرف، تقول: مَرَرت بنَدْمان بالتنوين؛ لأَن مؤنَّثَهُ نَدْمانة بِالتَّاءِ، فليس له كغَضْبَانَ، لأَنَّ مؤنَّثه غَضبى. وكذلكَ ندْمان من النَّدَم، ومُؤَنَّثه نَدْمَى، فيمنَع مِنَ الصَّرْفِ.

تنبيه: إذا احتملت النون أَنْ تكون أَصْلية أَو زائدة، كَان فيه وجْهَانِ: الصَّرْف وعدمُهُ. وكذلك نحو حسان وشيطان ورمَّان، فيحتمل أن يكون من الحسْن فيُمْنَعُ. أَو من الحسن فيصرف. وكذلك شيطان يحتمل فيه أن يكون من شاط أي بعُدَ أو

من شطن، وكذلك رمان، يحتمل أنْ يكون من الرم، أَو من الرمن. انظر المرادي. والمشهور في الثلاثة الصَّرْف كما في القرآن. وتكون العَلَمِية أَيْضاً مع العُجْمَة وإليه أَشار بقولِهِ، عجمة. نحو: إلى إبراهيم وإسماعِيل وإسحاق وَيَعْقُوبَ، فكُلّها مجرُورة بِالفتحة النَّائبة. والمانعُ، العَلَمية والعجْمة؛ الأولى معنوية. والثانية لفظية، وَلاَ بدَّ أَن يكون معرفة عنْد العَجَم. وأَمَّا إن كَان عندهم نكرة، وصار عند العرب علماً، فلا يُمْنَع على المشهُور. وَلاَ بدَّ أَيْضاً أَن يكون زائداً على ثلاثةِ أَحْرفٍ. فإن كَان ثلاثياً صُرِف، كنوح ولوط. قولُهُ: وَالْوَصف قَدْ كَمُلاَ. أَشار إلى عِلَّة الوصفية، وقد سَبَقَ ذِكرها، مع ما تجتمع من العِلَل، إذ هو لاَ تسْتقِل بالمَنْع كالعَلَمِية. فَتَحصَّل في العِلَلِ المذكورة، أَنَّهَا أَرْبعَة أَقسَام: قسْمان يسْتقِلاَّنِ بِالمنْع؛ وهما ألف التأنيث، وصيغة منتهى الجموع، وقسْمان لاَ يسْتقلاَّنِ؛ وهما العَلَمِية والوصفية. فالعَلَمية تمْنع مَعَ العَدْلِ. والتأنيث، والتركيب الزِّيادة، والعُجْمَةُ والوصفُ يمْنع مع العَدْل ووزن الفِعْل، والزيادة السَّابقة، فكل ما أثر فيه التعريف بالعلمية، يُصرف إذا نكر وإليه أَشار في الألفية بقولِهِ:

واصْرِفَنْ مَا نُكِّرَا ... مِنْ كُلِّ ما التعريف فيه أَثَرَا

تقول: رُبَّ أحمد وعُمَر وفاطمة ومعدِيكرَب وعثمان لقيتهم، وما أَثر فيه أَلِف التأنيث، أوصيغة منتهى الجمُوع، أو الوَصْف، فَلاَ يصرف أَصْلاً، وَاعْلَم أَنَّ الاسم الذي لا ينصرف، إنَّما يُمْنع من التصَّرْفِ ما لَمْ يُضَفْ، أو يَكُ بعد ال، وإلاَّ صُرِف بكقولِهِ تعالى: ﴿وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ﴾. وقوله تعالى: ﴿فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ وقد يُصرف الممنوع مِن الصَّرفِ للضرورة، أو للتناسُبِ، كقولِ الشاعِرِ:

وَيَوْمَ دَخَلْتَ الخَدْر خِدْر عُنَيْزةٍ ... فقالَتْ لك الوَيْلات إنك راجلُ

والثاني، كقوله تعالى: ﴿سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا﴾ فهي قراءة نافع والكسائي. وقوله تعالى: «وَلاَ يغوثا ويعوقا» في قراءة الأعْمَش، فصرف سلاسلاً ليناسبَ أَغلالاً، وصرف يغوثا ويعوقا مع كونه عجمياً، ليناسبَ نسْراً. والله تعالى أَعلم.

الإشَارَةُ: قد يكون الفتح على العَبْد في علم الحقائق سبباً لطرده، وعلاَمة لخفضِهِ عن مقام الأكَابِرِ. وذلِكَ في العَبْد الَّذي لاَ ينصرف عن هواه، وَلاَ ينفكّ عن طبْعهِ ومتابعة مُنَاهُ. وذلِك لوجودِ علَّتين، وهما حبّ الرياسة والجَاه، وعلَّة تقوم مقامهما؛ وهيَ حبّ الدّنيا التي هي رأْس الخطايَا. واعْلم أَنَّ علمَ الحقائق، لا تطيقه إلاَّ الأقوياء، والرجال الذِين قتلُوا نفوسهُمْ بالمجاهدة والمخالفة، وتفرَّغُوا

من جميع الشَّواغِلِ والعَلائق القلبية. وصحبُوا المشايخ وخدموهُمْ. ورسخت أحكام الشريعة في ظَوَاهِرهم. فحينئذٍ إذا دَخَلُوا بَلد الحقائق، أشرقت عليهم أنوارها وأسْرارهَا. وذاقوا حَلاوة مَعَانيها. ورسَخت في قلوبهم أسْرار المعارف. وأما قَبْل ذلِكَ، فإمَّا أن يتزندقوا. ويرفضُوا الشريعة وراء ظهورهم، فينسَلّ الإيمان من قلوبهم انسِلال الشعرة من العجينِ. وإمَّا أن يتقهقروا ويرجعوا إلى مقام العمومية. وليْسَت القلوب كلها تطيق أنوار الحقيقة، بل بعْضها فقط، وربما تكون بعض القلوب تَفِرُّ من الذِّكر، وتتعشّق إلى اللَّهْو والغِنَا، فهي كالجُعَل، الذي تقول فيه العامّة أبو فسّاس، فإن مِن شأنِهِ إن قرب منه رائحة طيبة مات من سَاعَتِهِ. وَلاَ يعيش إلاَّ بالنَّتن والخبث، فكذلك بعض الأرواح الخبيثة، تَتَنعش بِاللَّهْوِ، وتفرّ من الذِّكر ينسحب عليها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ وباللَّهِ التوفيق. ثم ذكر عَلامَة الجَزْم، فقال (ص): وللجَزْمِ عَلامَتَانِ: السكونُ والحَذْفُ. (ش): قلت: السكون: حَذْف الحركةِ. والحَذف: حَذْف حرْفِ العِلَّة، أو نون الرَّفع للجَازِمِ. وقولنا للجازم احترازاً من نَحْوِ: «وَيَمْحُ اللَّهُ البَاطِلَ» «سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ» فإنَّ الوَاو حُذِفتْ خطًّا تَبعاً لحذفها فِي اللفظِ. فإنَّ يَمْح مضارع مجرّد مَرْفوع، وليْس معطوفاً على ما قَبْلَهُ. بدليل رفع ما بَعْدَهُ من قوله: «ويُحِقُّ الحقَّ» وكذلكَ سَنَدْعُ، لاَ سببَ لحَذفِهِ إلاَّ ما تَقَدَّمَ. واحترازاً أيضاً مِن نَحْوِ لتبلوُنَّ، فإنَّ النُّون حُذِفَتْ لِتَوَالِي الأَمْثَالِ كَمَا تقدَّم. والله تعالى أعْلَمُ..

الإشارة: وللجزم بمعرفة الحق والرسوخ فيها بحيث ينقطع عن القلب التهمم والخواطر والشكوك والأوهام، علامتان، السكون: أي سكون القَلْبِ وطَمَأنِينَتَهُ، فيكون كالجبَل الرَّاسِخ، لا تحلّ بساحته الهموم، وَلاَ تطرقه عوارض الْغموم، ولَوِ انطبَقت السماء على الأرْضِ، فَلاَ تُحَرّكه واردات الأحْوال وَلاَ تَهزُّه الزَّلاَزِل والأَهْوَال. وفي أمْثاله يقول الشاعرُ:

لاَ تَهدي نوب الزَّمان إليهم ... ولَهُمْ على الخطب الجليل لِجَامُ

فيسكن الظَّاهر من تَعبِ المجاهدة، ويرتَاح الباطِن في ظِلِّ المشاهدة، إذْ لاَ تجتمعُ المجاهدة، مع المشاهدة. إنما يكون التعب في حالةِ السَّيْر. وأَمَّا من وَصَل إلى الحبِيبِ، فَلاَ تَعبَ لَهُ وَلاَ نَصبَ. قال تعالى في جناتِ الزَّخَارف: «لاَ يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ». وأَولى جنَّة المعارف. وعَلاَمَة الجَزْم أيْضاً: شهود الحق حذف علائق

القَلْبِ، وشَوَاغِلِهِ، فلا يَبْقَى إلاَّ قلب مُفْرد، فيه توحيد مجرَّد. مَن جعل الهموم واحداً فكفاه اللّهُ هَمَّ دنياهُ، وضمن له عاقبة أُخراهُ. جعلنا الله مِنْهُمْ، بِمَنِّهِ وكَرمِهِ آمين. ثم فَصَّلَ ما تَقَدَّم فقال (ص): فأَمَّا السكون فيكون عَلاَمَةً للجَزْمِ في الفعل المضارع الصحيح الآخِرِ (ش) أي إذا دَخَل عليه لاَزم وَلَم يتصل بآخره شيء مِنَ الأشياء المتقدمة، نحو: «لَمْ يَلِد وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَد» فلم حَرْف جَزْم ونفي وقَلْبٍ، ويَلِدْ مجزوم بِالسّكُونِ الظَّاهِرِ. أي لَمْ يكن لَهُ وَلَدٌ وَلاَ والِدٌ ولم يكنْ أَحَد شبِيهاً لَهُ. (ص): وأَمَّا الحذْفِ فيكون عَلاَمَةً للجَزمِ في الفِعل المضارع المُعْتَلِّ الآخِرِ. (ش) أي الَّذي في آخره حرْف من حروفِ العِلَّةِ: الألف والواو والياء، نحو: «وَلَمْ يَخْشَ إلا اللَّهَ». ولَمْ يَدْعُ، وَلَمْ يَرْمِ. فهذه الأفعال مجْزُومَة، وعَلاَمَة جَزمها حَذْف حَرْفِ العِلَّةِ. وإبقاء الشكلة دليل علَيه. وما مشى عليه المصنف، من كَوْنِ المحذُوفِ حرف العِلّة، إنما يتمشَّى على قَوْل ابن السراجِ ومن تَبِعَهُ، إن هذه الأفعال لاَ يقدر فيها الإعراب بالفتحة والضَّمَّة، وعلَّلَ ذلِكَ، بأن الإعراب في الفِعل فَرْعٌ. فلا حاجَة لتقديره. وجعل الجازم كالدَّواء المسهل، إن وَجَد فضلة أَخَذها. وإلاَّ أَخَذَ من قوّى البَدَنِ. وذهَب سِيبَوَيْهِ إلى تقدير الإعراب فيها. فَعَلَى قوْل سِيبَوَيْهِ: لمَّا دخَل الجازم، أخذ الحركة المقدرة، واكتفى بِهَا، ثم لمَّا صارت المجزوم والمرفوع واحدة فرقوا بينهما بالحذف بحرف العلة فحرف العلة محذوف عند الجازم لا به وعلى قول ابن السراج: الجازم حذف نفس الحرف هـ. وقد ثبتت هذه الحروف الثلاثة مع الجازم ضرورة كقول الشاعِر:

إذا العجوز غضبت فطلِّقي وَلاَ ترضاها وَلاَ تملقي

وقولٌ آخر:

أَلَمْ يأتيك والأنباء تنمي بما لاَقت لبون بني زياد

وقول الشاعر: لَمْ تهجوا ولم تدَّعي هـ. ويكون الحَذْف أَيضاً علامة للجَزْم (ص) في الأفعال التي رفعها بثبوت النُّون. (ش) وهو الفعل المضارع المتَّصِل بِهِ أَلفِ الاثنيْن، نحو: «وَلاَ تتبِعَانٌ». فَلاَ نَاهية جَازِمَة، وتتبعانٌ مجزوم بِحَذْفِ النُّونِ. والبَاقِي نُون التَّوْكيد، وكسُرت لالتقاءِ السَّاكنيْن. أَو واو الجمع، نحو: «فإن لَمْ تفعَلُوا، ولَنْ تَفعَلُوا فاتقُوا النَّارِ». أَوْ ضمير المؤنثة المخاطبة، نحو: «وَإمَّا تَرَينَّ» أَصْله: تَرْءَيْنَ، تحرّكَتِ الياء وانْفَتَح ما قَبْلَهَا، فقلبت أَلفاً، فصارت تَراين، التقى ساكِنَانِ، فحذفت الألف، فصار ترينَ. فلمَّا دخَلَ الجَازِم، وهو ما حذف النون.

فصار تريّ، ثم أتى بنون التوكيد، فالتقى سَاكنانِ، فَحرُكت الياء لِمُجانسها وهو الكَسْر، فصار ترين، فهو معرب؛ لأنَّ نون التوكيد لَمْ تباشِرهُ لانفِصالِه عَنه بالياء الفاعلة، واللَّهُ تعالى أعْلَمُ.

الإشَارَة: فَأَما سكون الظَّاهر، من تعبِ المجاهدة، فيكون عَلاَمَة لجَزْم الباطِنِ، ورسُوخِهِ في مَقَام المشاهدة، في الفِعل المُضَارع، أي في العَمَلِ الصَّالح، المشابه لأفْعَال المخلصينَ، بموافقة السُّنَّة، ومجانَبَة البِدْعَة. الصحيح الآخر، أي الصَّافي مِنَ العِلَلِ، التي تلحقه بَعْد تَمامِهِ، كَالتبجُّج بِهِ، واعتقاد المَزية على النَّاس بسَبَبِهِ، أوْ طلب العِوض عليه، كَيْفَ تطلبُ عنْ عَمَلٍ لسْت أنْت فاعله. والحَاصلَ أَنَّ سكون الظاهر بعد التعب، يدلُّ على جَزْم البَاطِنِ وتحققه بمعرفة اللَّهِ؛ وهي الحيَاة الطيبة، والعيش الهناء. قال السري السقطي: مَن عَرَفَ اللَّهَ عاشَ، وَمَن مال إلَى الدّنيا طاشَ، والأحمق يغدو ويروح في لاش. واعلم أَنَّ سكون الظَّاهر من تَعَبِ المجاهدَة، قد يكون مع سُكُون البَاطِنِ براقة المشاهدة، وقد يكون مَعَ بقاءِ تَعَبِهِ، بالأهوال والخواطر الدُّنيوية، وذلكَ أَنَّ المريد إِذا التقى بالشيخ، وأَخَذَ عنْهُ. جاء جُنْد النُّور يُريد أَنْ يُخرِجَ جُنْد الظُّلمة من القَلْبِ. ويريد جُنْد الظُّلمة البقاء في وَطَنِهِ، فتشتعل الحَرْبُ بَيْنَهما، وهذا سَبَبُ اضْطرابِ الظَّاهر، وتوارد الأحوال عليه. وَذِكْرُ اللسَان كالمِدْفَعِ، يدوي عليه مِنْ خَارج، فَإِذَا دَخَلَ يذكر القلب وخالط معه البلاد. سكت اللسانَ وما بقي إلا السيوف تضرب ثم يرتحل جُنْد الظلمة من القَلْبِ، وَيَرْتَاح القلب من تَعبِ التدبير والإختيار، وأهوال الدنيا، ويَسْكن الظاهر أَيْضاً: من تَعَبِ المجاهدة. وقد يَنْزل جند النُور عَلى جنْد الظلمَة، فلا يقدر على إخراجه من القلب فيرتحل النور من حيث النُور عَلى جنْد الظلمَة، فلا يقدر على إخراجه من القلب فيرتحل النور من حيث جاء ويسكن الظاهر على جند الظلمة ويَبْقى الباطن متعوباً كما كَان. فهذا حالُ من رَجَع من الفقراء قبل. واشتغل بالأسْباب قبل الوصول والعياذ بِالله من السَّلْبِ بعد العَطَاءِ. وبالله التوفيق.

وأَما حَذْف الشواغِلِ والعَلاَئق الظَّاهِرة، كَانت ظلمانية أَو نُورَانية، فيكون عَلامة لجَزْمِ الْبَاطِنِ، وتحققه بمقام الأذواق والوِجْدانِ، تخلصه لمقام العِيَانِ، في الفِعل المضَارع، أي العلم الشَّابِه وفعال الصالحينَ، المعتل الآخِرِ، بما تقدَّمَ فإِن حَذَفَ عِلَله وصفاهُ وطهرهُ من تلكَ العِلَلِ كَان ذلِكَ عَلاَمَة على جَزْمِهِ وتحققه بالعرفانِ، على نَعْت الشهود والعِيَانِ. وإن لم يحذف عِلَلهُ، ولم يطهره ممَّا يشوبُهُ،

كَان عَلاَمة على ثبوت جِزمَانِهِ، وكذِبه في دَعواهُ. يَعْني أن العَبدَ إذا تجرَّد وانقطع لِلَّهِ، وترك شَوَاغل الظَّاهر، كانَتْ تلك الشواغِل ظلمانية، ككونها دُنياوية، أو نورانية، ككونها دينية، لكِنَّها تشتت القَلْبَ، وتفرق الهم، كتدريس العِلْم الظَّاهر، وتَتَبع الفضائِل، فإنَّ ذلِكَ يُفَرّق قَلْب المُريد ويُشتتهُ، فَلاَ يليق به إلاَّ ذكر واحِد، حتى يذوق مرَّهُ، فلا يكون ذلكَ علامة على جَزم صاحبِهِ، وطُمَأنينته حتى يَصْلحَ عمله، ويخلصهُ من العِلَلِ؛ التي تلحقه ظاهراً أو باطَناً، وَيَكُونُ عَلاَمَة على جَزْمِهِ، وتحققه في الأفعال، التي رفعها بثبوت النُونِ، أيْ في الأفعال التي ترفع صَاحِبَهَا، بِثُبُوتِ نورانيتها، وَوُجدان حَلاَوتها فوجدان الحَلاَوَة عاجِلاً، دليل على وِجْدَانِ القبول آجِلاً. فإذا تحقق جَزْمهُ. وعقده في أسرار التوحيد، وبالله التوفيق.

(ص) **فصل**: (ش): وهو لغة: الحاجِز بيْن الشيئيْن، وفي الإصطلاح: اسم لطائفة من المَسَائِلِ، اشتركت في حُكْم، وهو هنا بمعْنَى الفذلكة لَمَا تقدَّم اعتناء لباب الإعراب؛ لأنه معظم النحو، وأَصْل قواعده، فمن أتقنه، أتقن ما بعدهُ، ومن لم يُتقنهُ، لم يُدركْ مَا بَعْدهُ. وكَان بعض من يقرأ هذه المقدمة من النحويينَ، يصل إلى هذا الفعل، ثم يرجع إلى إعادة ما تقَدَّم، حتى يتحققه مَنْ يَأْخُذُهَا عنه اعتناءَ بِأمر الإعرابِ، ثم قال الشيخ رحمهُ الله تعالى. (ص): المعرباتُ قسمانِ: قسم يعرب بالحركاتِ، وقِسْم يعرب بالحروفِ (ش). قلت: المعربات مبْتدأ. وقسمانِ خَبَر، فإن قلت: الخبر لاَ بُدّ أن يُطابق المبتدأ في التثنية والجمع، وهنا غير مطابق. قلت: لما كان قوله قسمان في معْنَى أقسام، ساغ ذلك؛ لأن كل قسم من القسْمين فيه أقسام. فكَأَنَّهُ قال: المعربات أقسام، فهو كقوله تعالى: «هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا». لأَنَّ المُرَاد بِالخصم جماعة المسلمينَ والكفَّار، قيل نَزَلت في المبارزينَ يوم بَدْرِ، فكان في كل فِرْقة مِن المتبارزينَ ثلاثة. وقوله قسْمٌ. إما بدل مفعل من قسْمين، وجملة يعرب صفة له، أو مبتدأ. ويعرب خبره والمسوغ للابتداءِ بالنكرةِ التقسيم كقول الشاعر:

فَيَوْم علينا ويوم لنَا ... ويوم نساء ويوم نسر

وحصل ما ذكِرَ أن المعربات التي تقدَّمتْ، منحصرة في قسميْن: قِسْم يعرب بالحركات الظَّاهرة، أو المقدرة، وقسم يعرب بالحروف النَّائبة عنهَا، ثم بيَّن ذلِكَ فقال (ص): فالْذي عرب بالحركاتِ أَربعة أنواع: الاسم المفرد، وجمع التكسير، وجمع المؤنث السَّالِم، والفعل المضارع الذي لم يتصل بِآخرِهِ شيءٌ (ش) قلت:

وتقدم أَمثلة ذلِكَ كله. ثم ذكر ضابطها فقال (ص): فالَّذي يعرب بالحركاتِ أَربعة أَنواع: اسم المفرد، وجمع التكسير، وجمع المؤنث السَّالِم، والفعل المضارع الذي لم يتصل بِآخرهِ شيءٌ. (ش) قلت: وتقدم أمثلة ذلِكَ كله. ثم ذكر ضابطها فقال (ص) وكلّها ترفع بالضَّمة (ش) أيْ. إمَّا ظَاهرةً، أو مقدَّرة. (ص) وتُنْصَب بالفتحةِ. (ش) ظَاهرة أو مقدرة. (ص) وتخفض بالكسْرة. (ش) أي كذلكَ (ص) وتجزم بِالسكونِ. (ش) أي إِن كَان الفعل صحيحاً. قال في الألفية:

فَـارْفَـعْ بِـضَـمّ وَانْـصِـبَـنْ فَـتْـحـاً وَجُـرْ كَـسْـراً كَـذِكْـرِ الـلَّـهِ عَـبْـدَه يَـسُـرْ

واجْزم بتسْكين. ثم اسْتَثْنَى من هذه القاعدة أُموراً فقال (ص) وخرج عن ذلك ثلاثة أشياء، جمع المؤنث السَّالِم، نصب بِالكسْرة (ش) نحو: «إنَّ في السَّمَواتِ والأرض لآيْتٍ» فإِنَّ حرف توكيد ونَصْبٍ وفي السماوات جار ومجرور خبرها مقدم، ولآيات اسْمها مؤخَّر، منصوب بالكسْرة النَّائبة عن الفتحة (ص) والاسم الذي لا ينصرف، خُفِف بالفتحة. (ش) كقوله تعالى: ﴿لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾ أي مكَّة. والمَانَع له: الْعَلمية والتأنيث. (ص) والفعل المضارع المعتلّ الآخر، جُزِم بِحَذْف آخِرهِ (ش) نحو: «مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلاَ مُضِلَّ لَهُ». «وإنْ تشكرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ» «وَلاَ تَدْعُ مِن دون اللَّهِ مَا لاَ يَنْفعُكَ وَلاَ يَضرّكَ» (ص) والَّذي يُعْرَبُ بِالحُرُوفِ أَربعَة أَنواع: التثنية، وجمع المذكَّر السالِم والأسماء الخمسة، والأفعال الخمسة (ش). ثم بيَّنَها بقولِهِ: (ص) وهي يَفْعَلاَنِ (ش) بيَاءِ الغيبة (ص) وتَفْعَلاَنِ (ش) بِتَاءِ الخطابِ (ص) وَيَفْعَلُونَ (ش) بِالغيبةِ. (ص) وتفْعَلونَ (ش) بالخطابِ (ص) وتَفعلينَ (ش) بتاء المؤنثة المخاطبة، وَلاَ فَرْق بيْن كوْن الألف والواو ضميراً وعلامة، فتصل إلى عشرة ستة في التثنية؛ وهي الزَّيدانِ يقومانِ، يقومان الزيدان، أنما يا زيدان تقومان، الهِندان تقومان، الهندان أنتما يا هندان تقومان، وثلاثة في الجمع؛ وهي: الزَّيدونَ يقومونَ، يقومون الزَّيدون، أَنتم تقومون، وواحدة في المؤنثة المخاطبة: أَنتِ يَا هِند تقومينَ، ويُقال لها: الأمثلة الخمسة، وهي أَحْسَن ليدخل فيها غيرهَا من الصِّيَغ، نحو ينفَعِلاَنِ، ويستفْعلاَنِ، ويتفاعلونَ، وشبه ذلكَ من أَمثلة الأفعال. بِخِلاَفِ الأسماء الخمسَة، فإنها محصورة بالعدّ، ثم فَصَّل ما أَجمل فقال (ص) فأَما التثنية فترفع بالألفِ (ش) نحو: إن هذانِ لساحرانِ» في قراءة من رفع، فقيل: إنَّ هُنَا مُهْمَلة، بِمَعْنَى نَعَم، وهذان مبتدأ، ولَسَاحِرَانِ خَبَر. أي لهما ساحرانِ، وقيل غير ذَلِكَ. (ص) وتُنْصَب وتخفف بِالياءِ. (ش) فَالنَّصْبُ نحو: قوله تعالى: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ﴾ فَيَا حَرْف نِداءِ، وَصَاحِبي مُنادى مضاف

منصوب الياءِ، وحُذفت النُّونَ للإضافةِ والجرّ، نحو قوله تعالى: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ﴾، فإحدى مفعول، وابنتي مضاف مجرور بالياءِ، وحُذِفَت النُّون للإضافةِ، وهاتَيْنِ بَدَل تابع لَهُ. (ص) وأمَّا جمع المذكر السالم، فيُرْفع بِالْوَاو. (ش) ونيابة عن الضَّمَّة. كقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾، أصْله الأعْلُوونَ تحركت الواو وانفتح ما قَبْلَها، فقُبِلَتْ أَلِفاً، فصارت الأعلاَوْن، فحذفت الألف لالتقاءِ السَّاكنين، فصار الآعْلَوْنَ، فالواو الْبَاقية هي عَلاَمَة الرَّفع. (ص) ويُنْصَب ويخفف بالياءِ (ش). فَالنَّصب نحو: «إن المتقين في جنات ونهر» والجر نحو: «لمن المصطفين الأخيار» وأصله المصطفين «اسْتثقلت الكَسْرة على الياءِ، فحذفَتْ، فبقت الياءُ سَاكنة، فحذفت لالتقاء السَّاكنيْن، أَوْ تقول: تحركَتِ الياء، وانْفَتَحَ مَا قَبْلَهَا، فقلبَتْ أَيْضاً، فصار مصطفاين، فحذفت الألف لالتقاء السَّاكنيْن، فصار مصطفين. (ص) وأَمَّا الأسماء الخَمْسَة، فَتُرْفع بِالْوَاوِ (ش) نحو: «وَأَبُونَا شَيْخ كبيرٌ»، وتقول: هذا أَخوك وأَبوك وحموك وفوك وذو مَالٍ (ص) وتنصب بالألفِ (ش) «إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُبين». وقال تعالى: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ﴾. (ص) وتخفف بِالياءِ، (ش) نحو: «آيتُوني بِأَخٍ لكم مِن أَبيكُمْ». وتقول: مَرَرْتُ بأَخيك، وحميك، ونظرتُ إلى فيكَ، وذي مالٍ، قال الأَصْمعي رضي الله عَنْهُ: بينما أنا في بَعْضِ الطرق إذْ أنا بصبيّة تحمل قربَة وقد غلبَتْهَا وفيها ماء، فقالت: يا أَبَت أدرِكْ فَاهَا، غلبتي فُوها لا طاقة لي بفيها. وقيل كان ذكراً. قال الأَصْمَعِي: واللَّهِ لقَدْ جَمَعْت العربية في ثلاث كَلمَات، وروي أنه بقي ستة عشر سنة يطوف في قبائل العرب، يجمع اللُّغَة العربية من كَلاَمِ العرب، التي بقيت على لغتها الأصلية التي لَمْ تختلطْ، حتى قال له بعض العرب: أَنت مثْل الحفظة تكتب لفظ اللفظة. فقال له الأصْمعي، هذا مما أكتب. (ص) وأما الأفعال الخمسَة، فترفع بالنُّونِ، (ش) نحو: «أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ». فيقسمان بالله، أنتِ يا هنْد تقومينَ. (ص) وتُنصَب وتجْزَم بحذفِ النُّونِ (ش) نحو: «فَإِنْ لَمْ تَفعَلُوا ولَنْ تَفْعَلُوا فاتقُوا النَّارَ» فجملة لنْ تفعلوا اعْتراضية بيْن الشرط والجواب. وحَاصِلُ عَلاَمَة الإعرابِ أَربع عشرة: أَربعة أُصُولِ، وفي الحركَات الثلاث، والسكون، والباقي فروع: ثلاثة، تنوب عن الضَّمَّة. وهيَ الألف والواو والنُّون. وأربعة تنوب عن الفتحة، وهي الألف والياء والكسْرة. وحذف النُّون، واثنان تنوبان عن الكسْرة؛ وهي الياء والفتحة، وواحد ينوب عن السكون، وهو الحَذف لِلنُّون، أو لِحَرْف العِلَّة. والله أَعْلَمُ.

الإشَارَةَ: أَسْرار المعربات هي الْمُظْهَرَاتُ من عَالَم الغَيْبِ إلى عَالَم الشهادة. أو مِن تخْر الجبروتِ إلى عَالَم الملكوت والمُلْك وهي أَسْرار الذّاتِ الأزلية، قسمان: قسم يعرب. أي يظهر بالحروف، أو بالرسوم، وقسْم يُعرب، أي يظهر بالأشكالِ. ويُقال للجميع: التجليات، وذلكَ أن الذّات العالية في حالة الكنزية، كانت ذاتاً لطيفة خفية قديمة أزلية، متصفة بِأوصافِ الكَمَالِ، ثم تجلّت وظهرت بالرّسوم والأشكال، فالرسوم هي التجليات العظيمة، كالعرش والكرسي، والسماوات والأرضين، والجبال، وغير ذلكِ من الأجرام الكبيرة، والأشكال هي التجليات الرقيقة، كبعض الملائكة، وأصناف الحيوانات، شبهُوا التجليات العظام، بالحروف والرسوم، والتجليات الرّقيقة، بالأشكال وأسرار الذّاتِ الأزلية بالمعانِي. وشأن المعاني أن تُفهم من الحروف والأشكَال، فما ظهرت الكائنات الحسية، إلا لتقبض منها المعاني الأزلية، فما نُصِبَت الكَائنات لتراهَا، بلِ لترى فيها مَوْلاَهَا، فمن رَأَى الكَوْن، ولم يشهد الحق فيه، أَوْ قبله، أَوْ معَهُ، أو بَعْدهُ، فقد أَعوزه وجود الأنوار، وحجبَت عنه شموس المعارف بسُحُب الآثار كما في الحِكَم: فما ظَهَر في عالم الشهادة، هو عيْن مَا في عَالَم الغيْبِ، الأكوان ثابتة بإثباتِهِ. ممحوّة بِأَحدية ذَاتِهِ. وقد أَشار ابن الفارض في خمرته، في وصف الذّات الأزلية، في حال الكَنْزية فقال:

صفَاء وَلاَ مَاء ولطف وَلاَ هَوَا ... وَنُورٌ وَلاَع نَارٌ وروح وَلاَ جِسْمُ

تقدم كُلَّ الكَائِنَاتِ حَدِيثُهَا ... قَدِيمٌ وَلاَ شكلٌ هُنَاكَ وَلاَ رسْمُ

أي صفاء كصفاءِ الماءِ وَلاَ ماء، ولطف كلطف الهواء وَلاَ هواء. ونور كنور النَّارِ وَلاَ نَارٌ وَرُوح، أي حياة كحياة الأجسام، وَلاَ جِسْم. ويسمى هذا الحال الأزلي بالعَمَا. قيل يا رسول الله أَيْن كَانَ ربُّنا قبل أن يخلق خَلْقَهُ، قال: كَان في عَمَاءٍ ليْس فوقه هواء، وَلاَ تحته هواء، أي كَانَ في خفاءٍ ولطافة، ليْس فوقه هواء، وَلاَ تحته هواء، بل عظمته عمّت فوق الفوق، وتحت التّحْتِ، وقبل الْقَبلِ، وبَعد الْبَعد، ثم أَشار إليها بعد التجلّي بالرسوم والأشكال فقال:

وَقَامَتْ بِهَا الأشْيَاء ثم لحِكْمَةٍ ... احتجبَت عن كل مَن لاَ لَهُ فَهْمُ

وقد أَوْضَحْنَا المسألة وَبَيَّنَاها في شرحنَا عليْها، فلينظره من أَرَاده، وقد تقدم إشارات الرفع والنَّصبِ والخفض والجزْم وما ينوب عنها، ففيه، كفاية، وعلمنا كله إشارة. وبالله التوفيق، ولما أنهى الكلام على المقدمات؛ وهي الكلام وأَجزاؤه، ما

تعرف به تلك الأجزاء، وحدَّ الإعراب وأقسامه وموارده ومعرفة عَلاَماته، بسطاً وإيجازاً، شرع في المقاصد فقال:

بَابُ الأَفعَالِ:

وإنما قدَّم الأفعال؛ وكَان حقها التأخير؛ لأن الاسم قبل الفعل لسُموِّهِ بالإخبار به وعنهُ. لأن الأفعال لما كَان الكلام عليها قليلاً قَدَّمها، ليتفرغ للأسماء، لتنوعها إلى المرفوعات والمنصوبات، والمخفُوضَات. وتكون تابعة ومتبوعة، ونكرة ومعرفة، إلى غير ذلكَ من كثرة أنواعها. ومن شأن المؤلفين تقديم ما هو أقصر، وتأخير ما يسْتدعي طولاً. قال رحمه الله (ص) الأفعال ثلاثة، ماضٍ ومضارع وأَمْرٌ (ش) قلت: ماضٍ بَدَلٌ من ثلاثة، مرفوع بضمة مقدرة في الياء، وأَصْله مَاضِيٌ، استثقلت الضمة على الياء فحُذفَت، فالتقى سَاكنَانِ، فحذفت الْيَاءُ، ووجه الانحصار في الثلاثة، أنَّ الزمان الَّذي هو أَحَد مَدْلولي الْفِعْل، إمَّا أن يكونَ مَضَى وقته، أو حاضراً أَو مستقبلاً، بفتح الباءِ على المشهور، والقياس كَسْرها، اسم فاعل، لأن الزَّمانَ هُو المتصف بالاستقبالِ، أو الماضي أو الحال. ومما يؤيّد الانحِصَار في الثلاثة قول زهير:

وَأَعْـلَـمُ عِـلْـمَ الـيـوم والأمـس قَـبْـلَـهُ وَلـكِـنَّـنـي عَـنْ عِـلْـم مَـا فِـي غَـدٍ عَـمِـي

وقال آخر:

هَـلِ الـدَّهْـر إلاَّ الـيـوم والأمـس أو غـدُ كـل الـدَّهـر فـيـمـا بـيْـنَـنـا يـتـردَّدُ

وقَدَّمَ الْمَاضِي لأنه سابق في الوجود على المضارع، الَّذي هو أجزاء من طرف المَاضِي والمستقبل، يعْقب بَعْضها بَعْضاً، من غَيْر فَرْضِ مُهْلَةٍ، وَتَرَاخٍ، ويُسمّى الحَالُ، ولذلكَ قيل: هو أقل من طَرْفة العَيْن، وآخر الأمر، لأنه يدل على المستقبل الَّذي هو بعد الحالِ، فحقيقة الماضي: ما دلّ على حدثٍ في زَمن ماض. وحقيقة المضارع: ما دَلَّ على حَدَثٍ مقترن بالحال والاسْتقبالِ. وحقيقة الأمر: ما دَلَّ على طلب حَدَثٍ في زَمَن مسْتقبلٍ، فتحصل أن الماضي: ما دَلَّ على زَمَن ماضٍ. والمضارع: ما دلَّ على زمنٍ حاضرٍ أو مستقبل. فالأمر مستقبل أَبَداً. وقد يخرج كل واحد مِنْهن على أصله.

قال في التسهيل: وينصرف الماضي إلى الحالِ بالإنشاءِ، أي كبعت ونحوه. وإلى الاستقبال بالطَّلبِ، نحو: غَفَرَ الله لكَ. والوعد: نحو: «إنَّ أعْطَيْنَاكَ

الْكَوْثَر». وبالعطفِ على ما عُلم استقباله، نحو: «يَقْدُمُ قَوْمَه يَوْمَ القِيامَةِ فأَوْرَدَهُمُ النَّار»، وبالنَّفي بِلاَ؛ نحو: لاَ غَفَرَ اللَّهُ لكَ. وإنَّ في جوابِ القَسَم، نحو ولئن زَالَتَا إن أمْسَكَهُمَا مِنَ أَحَدٍ مِن بَعْدِهِ». ويحتمل الماضي والاستقبال، بعد هَمْزَة المنسوبة، وحرف التخفيض، وكلَّما، نحو: «كُلَّ مَا جاءَ أمَّة رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ». فهذا مثال الماضي، ومثال المستقبل: «كُلَّما نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ». وَبَعْد حيْث، فالماضي نحو: «فَاتُوهُنَّ مِنْ حَيْث أَمَرَكُمُ اللَّهُ». والمستقبل، نحو: «ومِنْ حيْث خَرَجْتَ». وبِكَوْن صِلَة، فالماضي، نحو: «الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ». والاسْتقبال: «لِلذينَ تَابُوا». أو صفة لنكرة عامَّة، وقال أيْضاً: والأَمْرُ مستقبل أَبداً، والمضارع صالح لهُ وَلِلْحَالِ. ولو نفي بِلاَ خِلاَفاً لمَن خصصها بالمستقبل، وترجع الحال مع التجريد، ويتعيَّن عند الأكثر، بمصاحبَة الآنَ، وما في معْنَاه، أي كالساعة والحين، وبلام الابتداءِ، مثالهُ: إنَّ زيداً لاَ يقومُ. وينفيه بليس، نَحْو: إن زيداً يقوم، أي الآن، وبِمَا وإنَّ. ويتلخص الاستقبال بظرف المستقبل. نحو: أزورك إذا تزورني، وبإسناده إلى متوقع، أي كقول الشاعر:

يُهَوّ لك أَنْ تموت وأَنت ملقى ... لِمَا فيه النجاةُ مِنَ العَذَابِ

وبِاقتضائِهِ طلباً، أي نحو: «والوَالِدَاتِ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ». أو وَعْد، نحو: «يَغفر لمَن يَشَاءُ». أو بمصاحبة ناصبٍ، أي ظاهر، مقدراً أو أداة تَرَجّ، نحو: «لَعَلِّيَ أَبلغ الأسْبَاب». أو اشفَاقَ، نحو: لعلَّ زيداً يُهْلك. أو مجازات، نحو: إنْ يقمْ زيْد يقم عمْروٌ. أو ذُو الْمَصْدَرِية، نحو: «يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ». أو نون توكيد، أي مطلقاً، أو حرف تنفيس، وهو السّين وسوف. نحو: «سيَقُولُ السفهَاءُ». «وسَوْف يوتِ اللَّهُ الْمُؤمِنينَ» مع زيادة الأمثلة.

تنبيه: ما ذكر عليه المصنف، من أَنَّ الأفعال ثلاثة؛ هو مَذْهب جمهور البصريينَ، وَجَرَى عليه أكثر المُتَأَخِّرِينَ، وذَهَب الْكُوفيُّونَ والأخفش، إلى أَنَّ الأفعال اثنانِ. وأَسْقَطوا فِعْل الأمر وقالوا: إنه مقتطع من المضارع، فهو عِنْدَهم معرب بِلامِ مقدَّرة. قال في المغني: وبقولهم أقول، لأنَّ الأمر معنى، أَحَقه أن يؤدّى بالحروفِ، إنه أَخو النَّهْي، ولم يدلوا عليه إلا بالحروف، ولأنَّ الفعل إنما وُضع لتقييد الحدث بالزَّمن المحصل فيه، وكَوْنه أَمراً أو خبراً خارج عن مقصوده. ولأنهم قد نطقوا بذلك الأصل، كقول الشَّاعر في شأن زيْن العابدينَ، رضي اللَّهُ عنهُ.

لِتَقُمْ أَنْت يابْن خَيْر قريْش كَيْ لتقضِيَ حَوَائِجَ الْمُسْلِمِينَا

ثم أطال في ذلك فانظره فيه، والله تعالى أَعْلَمُ.

الإِشَارَةُ: الأفعال التي سبق بِهَا القدر ثلاثة: أفعال سَابقة، وأفعال لاحقة تابعة للسابقة، وأفعال حاصلة، والنَّاس فيها أرْبعة أقسام، قسم غلب عليهم خوْف السابقة، وقسم غلب عليهم خوف العاقبة. وقسم غلب عليهم الاشتغال بعمارة الأوقات، وما كلَّفهم به مقدِّر الأوقات. غائبينَ عن السوابق واللواحق؛ وهم العُبَّاد والزّهاد، وقسْم غلب عليهم الاسْتغراق في شُهودِ الفاعِلِ المختار، فَانُونَ عن أنفسهم، غائبون عن وُجُودهم، في وُجُودِ مَعْبُودِهِمْ لم يخطر على بَالِهِمْ سوابِقُ وَلاَ لواحق. مستسلمونَ لمولاَهم في حُكمه وقضائِهِ؛ وهؤلاء هم العَارفُون بِاللَّه، وإن شئت قلت: الأفعال التي تُصدر من العَبْدِ ثلاثة: فِعل مَضَى، وفعل هو مشتغل به في الحالِ. وَفِعْل يأتي، لا يَدْرِي مَا اللَّهُ مَانِع فيه. وبيْن أَجَلٍ، قد بقي لاَ يدري ما الله قَاضٍ فِيه، فَلْيَأخذ العَبْد من نَفْسِهِ لنَفسِه، ومن دُنياه لآخرته، ومن الشبيبة قبل الكِبَر، ومن الحياة قبل المَوْت، فوالَّذي نَفْس محمَّد بيدِهِ. ما بَعْدَ الموتِ بمسْتَعْتِبٍ، وَلاَ بعد الدَّار من دارٍ إلاَّ الجنة أو النَّار» هـ. فآداب الماضي نسيانُهُ والغيْبة عَنْهُ، فإن تذكر ما مضى مِنْ إساءَتِهِ، جدَّدَ النَّدَم والاسْتغفارَ، وإن تَذَكَّرَ ما سَلَفَ من إحْسَانه، حمد وشكَرَ. وآداب الأمر: الغيبة عَنْهُ، والنظر لما يبرز من عُنْصُر القدرة، تاركاً للتدبير والاختيار، مستسلماً كما يبرُز من عند الواحد القهَّار؛ لأنَّ من لم يُدَبِّر، دُبِّرَ لهُ. وما دبِّر، دبّره الحق لكَ، إحْسَن من تدبيرك لنفسكَ، فَعَسَى أن تدبر شيئاً وتختارهُ وهو وَبَال عليك، فالله أَرْحَمُ بك من نفسِكَ، وَاعْلَمُ بمصالحكَ مِنْكَ. ولله درّ القائل:

وَكَمْ رمت أَمراً خرت لي بي انصرافه فلا زلت لي مني أَبَرَّ وأَرْحَمَا

عَزَمت على ألاَ أُحس بخاطر على القلبِ إلاَّ كنت أَنت المقدما

وألاَّ تراني عنْد مَن قد نَهيتني لأنكَ في قلبي كبيرٌ معظَمَا

وآداب الْحَاصل اغتنام الوقت قبل الممات، وانتهاز الفرصة قبل الفوات، والمسابقة على فعل الخيْراتِ، كما قال الشاعر:

السّباق السباق قولاً وفِعْلاً حذِّر النفس حسْرة المسبوقِ

وبالله التوفيق، ثم مثَّل للأفعال الثلاثة فقال (ص) نحو ضَرَبْت يضرب

واضرِبْ. (ش) فالأول ماضٍ، والثاني مضارع، والثالث أَمْر، فإن كَان الماضي فَعَلَ بالفتح، فالمضارع يفعل بالكَسْرِ، نحو ضَرَبَ يضربُ، ما لم يشتهر بِالضَّم، كدخل وخَرَج ونَصَر. فمضارعه يفعل بالضَّمّ، وما لم يكن حلقي العَيْن، كسأل وسقى وذهل، فمضارعه بالفتح، تقول: يسأل ويسعى ويذهل وقِسْ عليه، وإن كَان فَعِل بِالكَسْر، فالمضارع يَفْعَل بالفَتْحِ، كَعَلِمَ يَعْلَمُ وَفَرِحَ يَفْرَحُ، وخافَ يَخَاف، وإنْ فَعُلَ بِالضَّمِّ، فَمضارعه كذلك. نحو كَرُمَ يكرمُ وحَسُن يَحْسُن. والأمر تابع للمضارع في الأوْجه الثلاثةِ. تقول: اضْرِبْ وَاعْلَم وأكْرِمْ. وإن كَان رُبَاعياً فمضارعهُ يُفْعل بضَمّ حَرْف المضارعةِ. نحو يكَرُم ويحسُن، مضارع أكرم وأَحْسَن. والأمر منْهُ إِفْعَل بقطع الهمزة، والله تعالى أَعْلَمُ، ثم ذكر أحكامها في البِنَاءِ والإعرابِ فقال (ص) فالماضي مفتوح الآخر أبَداً. (ش) يعْني أَنَّ الماضي مبْني على الفتح أبَداً. أَمَّا بناؤه فلا سُؤَالَ عليه؛ لأنه أَصْلٌ في الأفعال. وأما تحريكُهُ مع أن الأصل في المبْنِي أَنْ يُسَكَّن، لشبهه بِالمضارع، لوقوعه صِلَةً وصفَةً، وخبراً، وحالاً، وشرطاً وجزاءً. وأَما كَوْن الحركة فتحة، فلطلب التخفيف، والفتح الَّذي يُبْنَى عليه الماضي. إمَّا أَن يكون ظَاهراً كضربَ؛ وهو الَّذي لم يتصل بآخرِهِ، ضميرٌ رفع كضربُوا، فَيُضَمُّ، لمناسبَة الواوِ أو ضمير تكلُّم أو خطابٍ. فيسكَّن، كضربْنَا وَضَرَبْتُ؛ فهو مبني على فتحة مقدرة فيما قبل الواو، المانع من ظهورها، اشتغال المحلِّ بحركة المناسبَة، أو فيما قبل النُّون والتاء. المانع من ظهورها أربع متحركات فيما هو كالكلمة الواحدة؛ لأنَّ الفاعل لشدة لصُوقه صار كالجُزْءِ من الكلمَة، والعرب لاَ تجمَعُ بيْن أَرْبع متحركَات في الكلمة الواحدة، وإلما ضَربنا زَيْد، فالمفعول منفعلٌ عن الفِعْل بالفاعِلِ، فصار كَأَنه كلمة أُخرى. (ص) والأمْرُ مجزوم أَبَداً (ش) أي بُنِيَ على السكون، وفي عِبارته، تجوز؛ لأنَّ الجزْمَ مِنْ أَلْقَابِ الإعرابِ. والسكون من أَلقَابِ البِنَاءِ، كالفتح، والكسر، والضَّمّ. وأَلقَابُ الإعرابِ، والرَّفع والنَّصْبُ، والخفض والجزْم، فيقال: مبْنِي على الضَّمِّ، أو على الْفتح، أو على الكسر، أو على السكون. كما يُقال في المُعْرَب. معرب بالرّفع أو النَّصْب، أو الخفض أو الجَزْم. وإنما بُنِيَ الأمر على السكون، إذا كَان صحيح الآخِر. وأَمَا إن كَان معتلّ الآخر، فيُبنَى على ما يجزم به مُضَارعهُ، من حَذْف الألف أو الْواو أو الياء. أو حذف النُّون إن أُسْنِد إلى ضمير تثنية، أو جمع، أو مؤنثة مُخَاطَبَةٍ. وقد نظم بعْضهم فقال: والأمْر مبْنِيٌّ عَلَى ما يُجْزَمُ بِهِ مُضَارِعُهُ يَا مَنْ يَفْهَمُ. كَضَمّ وصل واخش واذْعُ وارغَبُوا، وَكَارْغباً وَكَارْغَبِي يَا زَيْنَبُ. هَذَا. وكَوْن

الأمر مبيناً، هو مَذْهب البصريينَ، وقال الكُوفيّون؛ هو معرب مجزُومٌ بِلاَمِ الأمْرِ، لأنه مقتَطع منه، كما تقدم عَنهم.

تنبيه: الأصل في الأسماء الإعراب، لأنها قد تتوارد عليها المعاني المختلفة بِلفظٍ واحدٍ. فلا يتميّز المعْنَى إلا بالإعراب تقول: مَا أَحْسَن زيد بالوقف، فلا يَدري هل تعجب أو نَفْي أو استفهام. فإذا نصبت، علمنا أنه تعجب. وإذا رفعت علمنا أنه نفي، وإذا جرزت علمنا أن ما اسْتفهامية. أي أيّ شيء فيه حسَن. وأما الأفعال، فالأصْل فيها هو البناء على مذهب البصريين. وإنما أُعرب المضارع لشبهه بالاسم كما يأتي. والأصل في المبْني هو السكون، فإذا بُني الاسم على السكون تُوَجَّه إليه سؤال واحد؛ وهو لِمَ بُني؟ وقد تقدم أنه لشبه الحرف، وإذا بُنِي على حركة؛ تُوجه إليه ثلاث أَسْئلة: لِمَ بُنِيَ؟ وَلِمَ كَانَت حركة؟ ولِمَ كَانَت فتحة أو ضمة مثلاً. وإذا بني الحرفُ أو الفعل فلا سؤال عليه؛ لأنه جاء على أَصْله. وإنما يُسْأَل إذا بُنِي على حركة فيقال: لِمَ بُنِي على حركة؟ ولِمَ كَانَت كذا؟ وقد ذكر المرادي في شرح الألفية، أسباب البناء على الفتح والضمّ والكَسْر، تركناه خشية الإطالة. ثم ذكر المضارع فقال: (ص) والمضارع ما كَانَتْ في أَوَّلِه إِحدى الزَّوَائد الأرْبع بجمعها قولك أَنَيْتُ (ش) قلت: المُضَارعة، هي المشابهة: يُقال: ضارَعَهُ. أي شابهَه. وسُمّي المُضَارع به. لأنه أشبه اسْم الفاعل في الحركات والسكنات؛ وعَدد الحروف. وأشبهَ مُطْلَقَ الاسم في الإبهام والتخصيص، ودخول لام الابتداء عليه، وأَيْضاً قد تتوارد عليه المعاني المختلفة بِلفظ واحِدٍ كما تقدَّم في الاسْم. نحو تأكل السمكة وتشرب اللَّبن. بالنصب والرَّفع والجزْم. ولكل إعْراب معنًى يخصّهُ على ما يأتي في النواصِبِ. وقال بعضُهم: المضارعة من الضَّرْع، كَأَن الفعل ضرع مع الاسم ضرعاً واحداً. وعنَوْا بِذلكَ مشابهته له فيما تقدم ثم عرَّفه بكونِهِ ما افتتح بأحد هذه الحروف الهمز والنُّون، والياء والتاء يجمعها قولك أنيْتُ. أي أَدركْت. من أَنا يأتي أَدرَك. فيشترط في الهمزَة أن تكون زائدة تدل على المتكلم وَحْده نحو أقام فخرج أتيت لإصالة الهمزة، وأيدع اسم لعدم دلالتها على المتكلم، ويشترط في النّون، أنْ تكون زائدة، وأن تدل على المتكلم المُعَظم نفسه، أو معه غيْره، فالأوَّل كقولِهِ: «إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأرْضَ وَمَن عَلَيْهَا»، والثاني كقول المَلاَئكة: «ونحن نُسَبِّحُ بحمْدِك ونُقَدّسُ لكَ».

فخرج نحو: نرجس اسْم نَبَاتٍ مَعْرُوف، نَرْجَسَ الدَّواء جعل فيه النَّرْجِس، إذ لا تدلُّ على المتكلم، فهي في الأول اسم، وفي الثاني فعل ماض، ويشترط في

الياء أَنْ تكون زائدة، وأن تدلَّ على الخطاب، نحو: أَنت تقول: وأَنتما تقولاَنِ، وأَنتم تقولُونَ، وأَنت تقولينَ، وأَنتُنَّ تقلْنَ، أو على التأنيث والغيبة، نحو: هند تقوم، والهندانِ تقومان، والهندات تقمْن، والهنود تقمن، وتقوم الهندانِ، ونحو ذلكَ. فخرج نحو تَبَّ أي خَسِر. وتَرَمَّس بمعْنَى رَمَسَ. أي تَسَتر. فهذا كله ماض، لإصالة التاء في الأوَّلِ ولعدم الدّلاَلة على الخطابِ، أو غيبة المؤنث في الثاني.

حِكَايَةٌ: روي عن بعض ملوك سبتة من المعروفينَ، أنه طلب من الشيخ أبي إسحاقَ الغافقي شارح الجمل لأبي إسحاق الزّجاجي حتى انتهى إلى هذا الموضع؛ فقال له: يجمعه قولك نأيت، بتقديم النون على الهمزة، فقال له التلميذ، يا سيدي، ينبغي أنْ تقدم الهمزة على النون، فيقول: أنيت لما في ذلكَ من حسْن اللفظ والمناسبة. يكون لكل واحد من هذه الحروف ضعف ما قبلهُ. فإن الهمزة لمعنى واحد للمتكلم وحده. والنون للمعنيْن؛ للمعظم نفسه ومعه غيرهُ. والياء لأربعة. فضعف ما قبلها للغائِب وللغائبينَ، وللغائبيْن، وللغائبات. والتاء لثمانية معانٍ. ضعف ما قبْلهَا للواحد المخاطب، وللواحد المخاطبة، وللمذكَّريْن المخاطبيْن، وللمؤنثيْن المخاطبتيْن. ولجماعة الذكور المخاطبين. ولجماعة الإناث المخاطبات، وللواحدة الغائبة. نحو هِنْدٌ تقوم. وللغائبتين نحو الهندان تقومان وما أشبه ذلِكَ، فلما سَمع الشيخ كَلام تلميذه قال: من يفهم هذه المسألة ليس بمحتاج إلىْ من يشغله. بل يستحق أن يشغل غيرهُ. ولم يشغله بعد ذلك هـ من السُّوداني.

الإِشَارَةُ: فالماضي، أي الزّمن الماضي الذي اشتغل فيه صاحبه بأنواع الطاعات والمجاهدات والسياحات في طلب الحق، مفتوح آخره، بالفتح الكبير أبَداً؛ لأنَّ البِدايات مجلات النهايات، فمن أشرقت بدايته، أشرقت نهايته. والأمر الّذي يُوَصّل صاحبه إلى حضرة الأُنْسِ مجزم ومعزوم عليه أَبَداً، لا يصحبه فتورٌ وَلاَ قُصور. وَلاَ عَيَ وَلاَ مَلَلَ بل لم تزل مَطِية عزمه، لاَ يَقرّ قرارُهَا دائماً تسيارها إلى أَن نَاخَتْ في حضرة القدس، ومحل الأنس: محل المشاهدة والمواجهة والمكَالمة والمفاتحة والمؤانَسَة: فتصير حضرة معشش قَلْبه فيها يسْكن وإليها يأوي والمضارع أي المتشَبه بالقوم. وليْس في ناهضة حب وإنما قَصْدُه التزي بأحوال القوم، والتطفل عليهم؛ وهو ما كانت فيه إحدى العِلل الأربع الزَّائدة على الرُّوح والعارضة فيها؛ وهي حبّ الدّنيا، والعِزُّ وخوف الخلق، وهم الرّزق يجمعها الرِّضى عنِ النَّفس، الذي هو أَصْل كل معصية، وغفلة وشهوة. وينشأ عن الرِّضى عن النَّفس الدَّعوى فيدَّعي الوصول، ويقول: أنيت أي قربت من الحَضرة وَوَصَلْت

إِلَيْهَا. وَبَيْنَهُ وبينها ما بيْن السماء والأرض، وسبب ذلكَ الغلط والجهل المركب. وسبب الغلط عدم صحبة الرجال. إذ لاَ تعرف المقامات، إلاَّ بصبحة أَهْل المقامات العَالية. وبالله التوفيق. ثم ذكر حكمه فقال (ص) وهُوَ مَرْفوع أبداً حتى يدخل عليه نَاصِبٌ أو جازم (ش) يعني أَنَّ المضارع إذا تجرَّد عَنِ النَّاصب والجازم، كَان مَرْفوعاً دائماً. وهل رَافِعهُ التجرد، وهو مذهب حداث الكوفيين، واختاره ابن مالك أو وُقوعه موضع الاسم؛ وهو مذهب سيبويْه، وجمهور البصريين. أو بحرْف المضارعة؛ وهو قول الكسائي، أي بنفس المضارعة؛ وهو قول ثعلب، أقوال لا ينبني عليه شيْء. ربما يفْهم من أغنياء المصنف بقوله، حتى يدخل عليه ناصب أو جازم، إن رافعه التجرد كما اختاره ابن مالك. وقال إنه سالم من النقض.

الإِشَارَةُ: والْمُتَشَبِّه بالقوم الْمُتَزَيِّن بِزَيِّهم مَرْفوع أبداً؛ لأنَّ مَنْ أَحَبَّ قوماً حُشِرَ مَعَهُم، وَمَن تزيَّا بزيّ قوْم فَهُوَ مِنهُمْ. فَلاَ يَزَال عزيزاً مَرْفوعاً ما دَامَ منخرطاً في سِلْكهم، حتى يَدْخل عليه ناصب فَيَنصبَهُ بطلبِ الدُّنْيَا. أو جازم يردُّهُ فيقهرهُ على الرجوع عن طلب المولى، فيترك صحبة المشايخ والفقراء، والوصول إليهم، فيكون ذلك سبب رجوعه إلى مقام العمومية والعياذ باللّهِ. ثم ذكر النواصب التي تنصب المضارع فقال (ص) النواصب عشرة (ش) أي إِذا أَرَدْتَ مَعْرفة النَّواصب، فهي عشرة من جِهَة التقريب؛ وهي على قِسْمَيْن، قسم ينصب بنفسِهِ. وقسم ينصب بأن مضمرة بَعْدَهَا. فالأول أَربعة؛ وهي: (ص) أنْ (ش) بالفَتح والسكون، وهي المصدرية. كقوله تعالى: ﴿وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾. فإنْ الناصبة مسبوقة بالمصدَر مبتدأ وخيْر خَبَرٌ، أي صَوْمكم خَيْرٌ لكم. وأمَّا التفسيرية فَلاَ عَمَلَ عَلَيْهِ؛ وهي المسبوقة بِجُمْلَة فيها معْنى القول دون حروفه كقولك أَشَرْتُ لزيْدٍ أَنْ يفعل، وكذلك الزَّائدة، نحو: «ولمَّا أن جَاءَتْ رُسُلُنَا»، والمخففة من الثقيلة؛ وهي المسبوقة بِعَلِم، نحو: «عَلِمَ أَنْ سَيكُونُ منكُم مَرضى». أَفَلاَ يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إليهم قَوْلاً». وفي المسبوقة بظنٍّ وجْهَانِ، قريء بهما في قوله تعالى: ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾. واعلمْ أَنَّ أَنْ ناصبة، هيَ أُمُّ النَّوَاصِبِ، بدليل إعْمالها ظَاهرة ومقدَّرة. وبكوْنها تخلف الْفِعْل للاستقبال، والباقي محمول عليها. قاله أَبو حيان وغيرهُ. والثاني من النَّواصِبِ (ص) لَنْ (ش)؛ وهي حَرْف نَصب ونفي واستقبال. وهي بسيطة لا مركبة من لاَ. وإن حذفت الهمزة تخفيفاً. والألف لالْتقاءِ السَّاكِنَيْن. مستدلاً بقولِه تعالى: ﴿لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا﴾ فاحتجَّ بسبب ذلك، لقولِهِ تعالى: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ على أَنَّ الله لاَ يُرَى أَبَداً؛ وهو بَاطِلٌ. قال في الكافية:

ولــن يــرى الــنــفــس بــلــن مــؤبــداً　　　فــاردد كَــلامــه وغــيــره أعــضــدا

وَرَدَ عليه بأنها لو كَانت تفيد التأبيد بذاتها لم يقيّد نفيها بِاليوم، في قوله تعالى: ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾. ولم يصحّ التوقيت في قوله تعالى: ﴿لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ وأمَّا التَّأبيد في قوله تعالى: ﴿لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا﴾ فاستفيد من خارج قال بعض المحققين: هذا في إفادته التأبيد. وأمَّا التأكيد فَمُسَلَّم. ومعناه مكابدة. فلا شكَّ أن قولك: زيد لن يقوم، أوْكَدُ من قولك زيد لا يقوم. وقد تردّ للدّعاءِ كقول الشاعر:

لَــنْ تَــزَالُــوا كَــذَلِــكــم ثُــمَّ لاَ زِلْــتُ　　　لَــكُــمْ خَــالِــداً خُــلُــود الــجِــبَــالِ

قاله ابن عصْفور، وخالفه الجمهور، وما قالَهُ ابن عصفور ظَاهر من بيْت الشاعر. والثالث: (ص) إذَنْ (ش) وهي حرف جزَاءٍ غالباً، وجواب دائماً. تقول: أَزورك غداً. فيقول: إِذَنْ أكْرِمكَ. وقد تتمحَّض للجوابِ دون جزَاء، تقول إنِّي أُحِبُّكَ. فيقول إِذَنْ أُصَدِّقك. ولنَصْبِهَا ثلاثة شروط: أَحَدها أَنْ تكون مصدرية في أَوَّل الكَلاَم، فلو لم تصدَّر لَمْ تنصب. نحو: واغتفر الْفَصْل بالقسم؛ لأنَّ الْقَسَم يُقصد بِهِ توكيد الكَلامِ، فكَأَنه منْهُ، تقول؛ إِذَنْ واللّٰهِ أُكْرِمَك. ومنه قول الشاعر:

إِذَنْ والــلّــهِ نَــرْمــيــهــم بِــحَــرْبٍ　　　تُــشَــيِّــبُ الــطِــفْــلَ مِــنْ قَــبْــلِ الــمَــشِــيــبِ

وَبِلاَ النَّافية، نحو: إِذَنْ لاَ أُهِينكَ. وأَجَاز ابن بابش إِذاً للفصل بالنداءِ، نحو: إذاً يا زيد أحْسن إليك، وأَجَازَ ابن عُصْفُور والأبري الفصل بالظرف، نحو: إِذَنْ غداً أُكْرِمك. وثالثها: أَن يكون الفعل مستقبلاً. فلو كَان دالاً على الحالِ لأُهْمِلَتْ، نحو: إِذَنْ أُكْرِمَكَ الآنَ؛ لأنَّ الجزاء إنما يتحقق في المسْتقبل، وأَمَّا الأمر الحاصِل فلا يُسَمَّى جَزَاءً. وإن وقعتْ بعد عاطفٍ؛ فالأكثر إهْمَالها، كقوْلِهِ تعالى: ﴿وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ﴾ «وإِذَنْ لا يأتُونَ النَّاسَ نقيراً». وقرىء شاذًا. وإِذَنْ لاَ يلْبَثُوا فَمَنْ أَلْغَى رَعى تقدُّم الحرف فكأنها لَمْ تَصدر، وَمَنْ نَصَبَ رَعَى كَوْن مَا بعد جُمْلة مستقلةٍ. ونظَّم بعضهُمْ هذِه الشروط فقال:

إذا إِذَنْ أَتَــــــتْــــــكَ أَوَّلاَ　　　وَسُــقْــتَ فِــعْــلاً بَــعْــدهَــا مُــسْــتَــقْــبــلاَ

واحْــذر إِذا أَعــمــلــتــهــا أَنْ تــفْــقــه　　　إلاَّ بِــحَــلْــقِ أَلاَ نــداء أو بَــلاَ

وَافْــصِــل بــظَــرف أَوْ بــمَــجْــرُور عَــلَــى　　　رأْي ابْــن عــصــفــور رَئِــيــس الــنُّــبَــلاَ

وَإِنْ تَــجِــيءْ بِــحَــرْفِ عَــطْــفٍ أَوَّلاَ　　　فَــأَحْــسَــن الــوجــوه أَلاَّ تَــعْــمِــلاَ

وَقَدْ تلْغى مَعَ توفر الشروط، لكنه نادرٌ كما أُلْغيت ما الجازمة، لعدَم اختصاصها بِالأفعالِ. وهل تكتب بالألفِ مراعاة للوقوف عَلَيْها؛ وهو قول الجمهور، أَو بالنُّون مُرَاعاة لأَصْلها. ثالثها: التفصيل، إن أُعْملت كتبت بالنُّون، وإذا أُهْمِلَتْ كُتِبَتْ بالألفِ. وقيل بالعكْسِ. وقال الشيخ محمد بن يزيد: أشتهِي أَن أكون يد مَن يكتب إذاً بالألفِ؛ لأنها مثل أَن وَلاَ يَدْخل التنوين في الحرف هـ. قال السُّودانِي. والرَّابع (ص) كَيْ (ش) المَصْدَرية؛ إذا دَخَلَتْ عَلَيْهَا اللاَّم. إمَّا لفظاً كقولِهِ تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا﴾ أَوْ تقديراً، كقوله تعالى: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً﴾ فإنْ لَمْ تُقدَّر اللاَّمُ كَانَتْ حَرْفَ جَرٍّ بمنزلة لاَ للتعليل، وكَانَت أَن مُضْمَرة بَعْدها. هَذَا مَذْهَبُ سِيبَوَيْهِ وجمهور البصريين، وذهب الكوفيُّون إلى أنها حرف نَصْب دائماً مِن غَيْر تفصيل، وَذَهَبَ قوم إلى أنها حَرْف جَرّ دائماً. القسم الثاني، ما يُنْصَب بأَن مُضْمَرة بعدهَا؛ وهي ستَّة. أَحَدها (ص) لاَمُ كَيْ (ش)، نَحْو قوله تعالى: ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وسُمِّيَتْ لاَمُ كَيْ لمساواتها لكَيْ في التعليل. والنَّاصبُ في الحقيقة، إنما هُوَ أَن مُقَدَّرة بَعْدهَا. وَيَجُوز إظهارها كقولِهِ تَعَالَى: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾. ويجب إظهارها إن وَقَعَتْ بَعْدهَا لاَ، نحو: «لِئَلاَّ يَعْلَمَ». وتُسَاويها لاَم الصَّيْرورة فِي إضمار أَنْ، نحو: «فالتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ ليَكون لَهُمْ عَدُوّاً وحَزَناً». واللاَّم الزَّائدة نحو: «يُريد اللَّهُ ليُبَيِّنَ لَكُمْ». وثانيها: (ص) لاَمُ الجُحُود (ش) أي النَّفي، وهي الدَّاخلة على خَبَر كَان، أو لَمْ يكُن المَنفِيَتَيْنِ. نحو: «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ» «لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ». أي ما كَان اللَّهُ مُرِيداً ليُعَذِّبَهُمْ، فالفعل مَنصُوبٌ بَعْدها بأَن مُضْمَرة. وقال الكُوفيّون، منصوب بنفس اللاَّم. وثالثها (ص) حتَّى (ش) وهي الجارَّة. والفعل بعدها منصوب بأَن مضمرة وُجُوباً، نحو: «حتَّى يَرْجِع إِلَيْنَا مُوسَى». هذا مَذْهب البَصْريين. خلافاً للكوفيين، القائلين بِنَصْبِهَا. ولعملها النَّصْب شروط: إِحداها أَنْ يكون الفعل بعدها مستقبلاً. كقوله تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ ﴿حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ فلو كَانَ حالاً يرفع، نحو: مرض زيد حتى لا يرجُونَهُ؛ لأَنَّهُ في التقدير، حتى أنهم لا يرجونَهُ، فهُو في قوة المجرَّدِ والاسْتقبال يكون زَمَنَ التَّكَلُّم. وقد يكون باعتبار ما قَبْلهُ، كقوله تعالى: ﴿وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ﴾ في قراءة النَّصْب. فإن قول الرسول ومن مَعَه مؤخر عن الزَّلْزَلة. وأَمَّا باعتبارِ زَمَن النُّزُول، فإنه إخبار عمَّا مَضَى. فتكون مُؤَوَّلة بالحالِ، فيكون رفْعُه، وعليه تَجْري قراءة الرَّفع. والمَعْنَى، وزلزلوا حالة الرسول والمؤمنين. يقولون: متى نَصْر الله. فتقدر الماضي والفعل الآن، وتحكيه كأَنه واقع، فَلِرَفع الماضِي بعد

حتى ثلاثة. فيؤيد. أَحَدُهَا: أَن يكون حَالاً، أَوْ مؤوّلاً بالحالِ كما تَقدَّم. ثانيها: أَن يكون المضارع مسبباً عما قبله، كما في المثال المتقدم، فإِنَّ المَرض سبب في عَدَم الرجاء. وتقول: سرتُ حتى أدخل البلد بالرَّفع بخلاف ما: سرت حتى أدخلها فالنصب واجب؛ لأَنَّ السَّبَب منْفِي، والقيد الثالث: كَوْن المضارع فِي ذَلِكَ في محلِّ الفضلة، نحو: سرت حتى أَدْخلها بخلاف إِذا كَان في محل العُمْدَة، نحو: سِيري حتى أَدْخُلَها، فَالنَّصْبُ واجِبٌ؛ لأَنَّ الفعل في محلِّ الْخَبَرِ، وكذا قولك: كَان سَيْري أَمين حتى أَدْخُلها، إِن جَعَلْتَ كَان ناقصة، والخبر المجرور، فالنَّصْب واجبٌ، وإِنْ جعلتها تامَّة، فالرَّفعُ أَو جعلت الظرف الخبر. والضابط في حتى التي يرتفع الفعل بعدها، هو أن يصحَّ في موضعها الفاء. فتقول في قوله: مرض حتى لاَ يرجونه، وزلزلوا، فيقول الرسول حينئذٍ حتى نَصْر الله، لأَنَّ الفاء تؤذن بالتسبب، وضابط حتى التي ينتصب ما بعدها أن تجعل في موضعها كي التعليلية، أو إلى الغائية. فتقول: «فَقَاتلوُا التي تَبْغي حتى تفيء إلى أَمْر اللَّهِ»، وكذلك قوله تعالى: ﴿لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾ أي كي ينفضُّوا ونظم بعْضهم هذه القيود، وهذا الضابط فقال:

ترفع حتى الحال أو مؤولاَ	بِهِ فُضلة مسبباً عَلاَ
ما قَبْلَهُ كحتَّى لاَ يرجُونَهُ	يُخْبِر ذا يجعل فاء دونهُ
وَمَا سوَاه فانصبَنَّه أَبَداً	واخْبِر بِكَي كَذَا إِلى نِلْت الْهُدى

ومعنى يخبِر يختبِرُ، أي تختبر حتى التي يرتفع بَعْدَهَا الفعل، يجعل الفاء موضعها، واختبِر التي يُنصب بَعْدهَا، يجعل موضعها كي. وقال في التسْهيل: وإِن كَان الفعل حالاً أَوْ مؤوَّلاً به رفع. وعلامة ذلكَ. صلاحية جعل الفاءِ مكَان حتَّى، وكَوْن ما بعدها فُضْلة مسبباً عما قبلها ذا محل صالح للابتداءِ هـ. فَحتَّى الرافعة ابتدائية؛ وهي مختصَّة بالدخول على الجملة اسمية أو فعلية، وحتى التي ينصب الفعل بَعْدَهَا، جارة لمصدر مسبك مِن أَنْ والفِعل الذي بعدهَا. ثم ذكر الثامن فقال (ص) والجواب بالفاءِ (ش) وفي عبارته قلق، والصواب أَنْ يقول: والفاء في الجواب؛ لأن الجواب هو ما بعد الألفِ، لاَ الفاء. والمعنى أَن الفعل المضارع ينتصب بعد فاء السّببية في الجواب في أُمُور: أَحَدها النفي المحض، نحو: «لاَ يُقْضَى عَلَيْهم فيَمُوتُوا». والثاني: النَّهي، نحو: «لاَ تَطْغَوْا فيه فَيَحِلَّ عَلَيْكُم غَضَبِي».

والثالث: الطلب، فيشمل الأَمْرَ، نحو: اضربْ زيداً فيستقيم، والدّعاء، نحو: رب وفقني فلا أعدل عن سُنَنِ الماضينَ، في خيْر سنن. والاستفهام، نحو: «فَهَلْ لَنَا من شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا». والعرض، نحو: لاَ تنزل علينا فَنُكْرِمكَ. والتحضيض، نحو: هَلاَّ تأتِنَا فتنزل عندنَا. والفرْق بيْنهما، أَن العرض تكون برفق ولِينٍ. والتخصيص يكون بحثٍّ وإزعاجٍ، والرَّابع التمنِّي. نحو: «يٰلَيْتَني كُنْتُ مَعَهُمْ فَأفوزَ». والخامس: الترجّي، نحو: «لَعَلِّي أَبْلَغُ الأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمٰوَاتِ فَأَطَّلِعَ». قراءة حفصٍ؛ وهو مَذْهَبُ الكوفيين، ورجح ابن مالكٍ ثُبُوته في النَّثر الصحيح كما تقدم في الآية وإليه أَشَارَ في الألفية بقولِهِ:

والْفَاءُ بَعْدَ الْفَاءِ فِي الرَّجَا نُصِبْ كَنَصْبِ مَا إِلَى التَّمَنِّي يَنْتَسِبْ

فرع: إذا أَسقطت هذه الفاء وقصد الجواب، جزم الفعل. نحو: اضرب زيداً ليستقيم، ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ﴾. وهل جزمه بأن مقدَّرة أو بالجملةِ لتَضَمُّنها مَعْنَى الشروط، قَولاَنِ. وهي الحكم يجري في الأمور الخمسَة. إلاَّ في النَّفْي المخض. فلا يجزم الفِعل بإسقاطها؛ لأنّه لا يسْتقيم تقدير أَن قبلهُ. ويشترط في جواب النَّهْي تقدير أَلا تفعل موضعه، فإن لم يصحّ تقديره رُفع. تقول: لاَ تَدْنُ مِنَ الأَسَد تَسْلَمْ بالجزم، لأَنك تقول: لا تمدْن تَسْلَم بخلاف لاَ تَدْن من الأَسَدِ يأكلك. فيجب رفْعُه؛ لأنه لاَ يصحُّ أَن تقول: ألا تدن من الأسد يأكلك. قال في التَّسْهيل: فإن لم يُحْسن إقامَة أَن يَفْعَلَ مقام الأمر. وألاَّ تفعل مقام النَّهي لم يجزم جوابها خِلافاً للكسائِي هـ. وقال أَيْضاً: ويرفع مقصوداً به الوصف أَو الإسْنَاد هـ. قلت: مثال الأمرين قوله تعالى: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي﴾. ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ﴾ فيصحّ فيه الجزم على الجَوَاب، والرَّفع على الوصفية، أَو الاستئناف. ثم قال: والأَمْرُ المدلول عليه بالخبَر قولك: اتق الله امرؤ، وافعَل خيراً تثب عليه، ومنه قوله تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ ثم قال: «يغفرْ لَكُمْ». أي آمِنُوا وَجَاهِدُوا يغفر لكم. ومثال اسم الفعل صه نكلمكَ، وحَسْبك الحديث ينم الناس.

تنبيه: إذا نَصَبْتَ الفعلَ بَعْد الفاءِ. في جواب ما تقدَّم، ثم عطفت عليه فِعْلاً آخر يصحّ فيه الجزْم بالعطف على المحلّ، والنَّصْب عطفاً على اللفظ. ثم اعلم أَنَّ هذه الفاء، مع كونها تؤذن بالجواب، هي على أَصْلها من العطف عطفت مَصْدَراً مسبوكاً من الفِعْل بَعْدهَا على مصدر مُوهِم مأخوذ من الفعل السابق. فالتقدير في

قوله تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾ أي لاَ يكون قضاء بمَوْتٍ. «وَلاَ تطغُوا فِيه فَيَحِلّ» أي لاَ يكُن طغياناً فحَلِ غضب. وهكذا فيما بقي ولذلك لم يجز النَّصْبُ في غَيْر النَّفْي والطَّلَبِ الْمَحْضَيْنِ. فتأَمَّلْهُ. وما قوله (ص) والْوَاو (ش) فينبغي أَن يجعل معطوفاً على قَوْلِهِ. والجواب أَنْ يكون مَرْفوعاً على الفاء، ليلاً يقتضِي أَنَّ الواو تكون في الجوابِ. فإِنّ الواو هُنَا لَيْسَت للجواب فقط. وإنما هي واو المعية التي أَصْلها العطف. فالمراد حينئذٍ أَن المضارع ينتصب بعد الواو التي تفيد مَعنَى مَعَ. حيْث وقعَت بَعْد النَّفْي والطلب بأقسامه السابقة، على مقتضى القياس لكن لم يُسْمع ذلكَ في جميعها، والمَسْمُوع مِنْ ذَلِكَ في النفي. نحو: «ولمَّا يَعْلِمَ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ ويعلم الصَّابِرِينَ». أي لم يكن عِلْم جهاد مِنْكُمْ مَعَ علم صبر. والمراد على ظهور. وفي النَّهي نحو قوله:

لاَ تَـنْـهَ عَـنْ خُـلُـقٍ وَتَـأْتِـي مِـثْـلَـهُ ... عَـارٌ عَـلَـيْـكَ إِذَا فَـعَـلْـتَ عَـظِـيـمُ

وقوله لاَ تأكل السمكة وتشربَ اللَّبَن بالنَّصْبِ. أي لاَ تجمع بينهما، ويصحُّ الجزَمُ، فيكون نَهْي عن كل واحد منهما. والرَّفع على الاستئناف. أي لاَ تأكل السمكة، ولك شرب اللَّبَن. وفي الأَمْر كقول الشَّاعِرِ:

قـلـت ادعـي وأَدعـو أن أنـدى ... لـصـوت أَن يـنـادي ذا عـيـانِ

أي ليكن منك دعاء مع دعائي، وفي التَّمَنِّي كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾. ونكُونُ في قراءة للنَّصْبِ في نكون وأَمَّا نُرَدّ فخبر ليت، ونكذّب عطف عليه، أي يا لَيْتَنَا يكون منَّا ردّ للدّنيا مَعَ إِيمانٍ. وفي الاستفهام، كقول الشاعر:

أَتـبـيـت ريـان الـجـفـونِ مـن الـكـرا ... وأَبـيـت مـنـك بِـلـسـعـة الـمـلـسُـوع

وتقول في العرف والتحضيض والدّعاء: أَلا تأتنا وتحدّثنا. هلاَ تأتنا وتحدثنا. رب وفقني وأَتوب علي. وأما إن كانت الواو لاَ تفيد المعية، وإنما هي لمجرَّد العطف: والفعل بَعْدهَا معطوف على ما قبلهُ، فَيَجْرِي عليه ما جَرَى على ما قَبْله، من رفْع ونَصْبٍ وجزْم، وقد تجتمع الوجوه الثلاثة في مثال واحدٍ، كما تقدم في قولهم: لاَ تأكل السمكة وتشرب اللَّبَن. فإن أَرَاد النَّهي عَنهُما معاً اجتماعاً وافتراقاً، جُزِمَا معاً، وكُسر الثاني لالتقاءِ السَّاكنيْن. وإِن أَرَادَ النَّهي عن اجتماعهما فقط نَصَبَ وإِن نهى عَن الأول فقط، وأَبَاحَ الثاني رفَعَ. والله تعالى أعلم. (ص) أو (ش) فإنها

تَنْصب المضارع بعدها بأن مضمرة وجوباً، وضابطها أن يصلح موضعها إلى وَإلا أو حتى، فالأول: إِذا كَان ما قبلها ينقضي شيئاً فشيئاً كقول الشاعر:

لأَ تَسْتَسْهِلَنَّ الصَّعْب أَو أدرك المُنَا فما انْقادَتِ الآمال إِلأ لِصَابِرِ

أي لأَ تركبن الأمور الشَّاقة، واستسهل الصعب إلى أن أدرك ما تتمنَّاهُ. والثاني: إِذا كَان ينقضي دفعةٍ ولعدة، كقول الشاعر:

وكُنْتُ إذا غَمَزْت قَنَاة يوم كَرَّت كعوبها أَو تستقيم

أي إِلأَ أَن تَسْتقيم. أو تقول: لأَقتلَنَّ الكَافر أو يسلم، أي إلأَ أَن يسلم. والثالث: إِذا كَان عِلَّة لمَا قَبْلَهُ، نحو: لاَ تنظرنه أو يجيء أي حتَّى يجيء؛ وهي في هذا كله عاطفة مصدراً مؤوَّلاً، من دخولها على مصدر متوهَم من الفِعْلِ الَّذي قبلها، فإذا قلت: لأقتلنَّ الكَافِرَ أو سلم، كانت تقدير: ليكن مني قتل للكافِرِ أو إِسْلاَمٌ منْهُ. وقس عليه أَمْثاله. فإن لم تكن أَوْ بِمَعْنَى الحروف المذكورة، فقد ينتصب المضارع بَعْدَمَا بأَن. لكن لاَي جب إِضمارهَا، بل يجوز الأمرانِ، ومنه قوله تعالى، في قراءة ابن كثير: «أَو يُرْسِل رسولاً» فأَوْ عاطفة على وحياً، أي أَن يُكَلمَه اللَّهُ إِلاَّ وَحياً، أَو إرسال رسول، وإليه أشار في الألفية بقوله:

وإِن علم اسم خليص فِعْلاً عُطِفْ نصبه أَن ثابتاً أَو منحذف

فَتَحَصَّلَ أَنَّ أَن بِالنِّسْبَةِ إلى إِظهارها وإِضمارها ثلاثة أقسام: قسم يجب إِضمارها، وذلك بعد الفاءِ الواقعة في جواب الطلب والنفي المحْضيْن، وبعد واو المَعية. وبعد حتَّى، وبعد أَو المقيدة بما مر، وبعد لاَم الجحود. فهذه خمسَة مواضع. وقسم يجب فيه إِظهارهَا وإِضمارهَا وذلك بعد لاَم كَيْ، من غَيْر لاَ. وبعد أَوْ، والواو والفاء، وثم العاطفة على اسم خالص، كما تقدَّمَت الإِشارة إليه والله تعالى أَعلم. ثم شرع في الجوازم فقال (ص): والجَوَازم ثمانية عشر (ش). قلت: التحقيق أنها خمسة عشر فقط. وأما أَلَمْ وَأَلَمَّا، فَهِيَ لَمْ ولمَّا، بزيادة هَمْزَة التقرير، وهي على قسْمين. ما يجزم فعلاً واحداً وهي ثمانية على ما ذكر الناظم فأَشار إلى أولها بقوله: (ص) وهِيَ لَمْ (ش)، نحو: لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ. فلم حرف جَزْم ونفي وَقَلْب؛ لأَنها تقلب المُضارع إلى الماضي. وفي قلبها للمعنى أَو اللفظ قَولاَنِ. فعلى الأول، هي داخلة على المضارع الصالح للحال أَو الاستقبال. فتَقْلِب معناه إلى النفي في الماضي، وعلى الثاني؛ هي داخلة على لفظ الماضِي فقلَبَت لفظه إلى

المضارع. والأول أَرْجَحُ. (ص) ولمَّا (ش) وهي أَيضاً حرْف جزم ونَفْي وَقَلْب. كما في لَمْ، كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ﴾. «وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ» «ولمَّا يذوقُوا عَذَابِ». وتشترك مَ لَمْ في أُمورٍ. وتفترق في أُمورٍ. فيشتركَان في الحرفية، والجزم والنَّفي والقَلْبِ. ويفترقان في أن النَّفي قد يتصل بزمَانِ الحال، وقد لاَ يتصل. تقول: لَمْ يقم زيْد بالأمس. وإن كَان قد قَام بعد ذلكَ. ومنْهُ قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾. وقد كَان بخلافِ النَّفي بِلَمَّا، فَلاَ بُدَّ أن يتَّصِلَ بِزَمَانِ الحال. تقول: لَمْ يقُمْ زيْدٌ. إذا كَان نَفْي قيامه مستمرّاً لزمانِ الحالِ. ومِنْه قوله تعالى: و ﴿لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾ فإنَّ كفار قريْش لم يكونُوا ذَاقُوا العذاب حينَ نَزَلتِ الآيَة. وفي أن منفي كما يتوقع ثبوته في الغالب، كالآية المتقدمة، أي وسيذوقه، وكقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾. أي وسَيَأتهم تأويله. «ولَمَّا يجتمع الضِدَّانِ». وَلاَ يَصحُ أن تقول: وَلمَّا يتبْ إِبْلِيسُ. وتقول: لم يَتُبْ إبْليس؛ لأَنَّ توبته مُحَالٌ عرضي، وفي إنْ لَمْ قد يدْخل عليها أدوات الشرط، نحو: «فإنْ لَمْ تَفْعَلُوا»، بخلافِ لَمَّا، وفي أن لما يجوز، حذف مجزومها، كَقَول الشاعر:

فــجــئــت قــبــورهــم بَــدْءاً وَلَــمَّــا ... أي ولـــمَّـــا أكُـــنْ بَـــدْءاً

بِخلافِ لَمْ. فلا تقول: جئت بَغْدَاد ولم، أي ولم أدخلها إلاَّ في الضرورة. قال في التسْهيل: وقد تلي لَمْ معمول مجزومها اضطراراً. وقد لاَ يجزم بها جملاً على لاَ هـ. وزَعَم بَعْضهم أن العربَ قد تنصب بها، كقراءة بعضهم. ألم نشرح. (ص) وألَمْ وَألَمَّا (ش): هما لَمْ ولما. دَخَلَت عليهما همزة التقرير أو التوبيخ. فالأول كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ والثاني: كقول الشاعر: «على حين عاتبت المشيب على الصبا» فقلت ألمَّا أَصح والمشيب وازعُ. فالهمزة للتوبيخ. وأصح مَجْزُومِ بِحَذْفِ الواوِ، ويُقال صَحَاً يصْحُو. إذا فاق مِنْ سَكْرَتِهِ، وقال آخر:

الــمَّــا تــعــرفــوا مــنَّــا الــيــقــيــنَ ... أَلــمَّــا تــعــرفُــوا مِــنَّــا ومــنــكــم

كشباب يطعمن ويرتمين.

(ص) وَلاَم الأمر (ش): نحو: «لِيُنْفقْ ذو سَعَة مِن سَعَتِهِ. (ص) والدّعاء. (ش) نحو: «لِيَقْضِ علينَا ربّكَ». ابن هشام وجزمهما فعلى المتكلمينَ المبنيين للفاعل قليل نحو قومُوا فَلاَ حال لكُمْ. ولتحمل خطاياكم. وأَقَلُّ منهما جزْمُهما لفعل الفاعل المُخَاطب، نَحْو: فبذلك فليفرحوا في قراءة يعقوب. وقوله عليه

السلام: لتأخذُوا مصافاكم، والأكثر الإغناء عن هذا بفعل الأمر هـ. وهما لاَم الطلب، فإن كَان من الأعلى إلى الأدنَى فأمْرٌ، وإنْ كَان من الأدنَى فَدعاء، وإن كَان مِنَ المتماثلينَ فالْتماس كقولكَ لِمَن يُساويك لتسْتقمْ يَا زَيْدُ. وتسْكينها بَعْدَ الواو والفاء، أكثر من تحريكهَا. نحو: «فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِيَ». وقد تسْكن بَعْد ثم. نحو: «ثم ليقْضُوا» في قراءة من سكّن. قال في التسهيل: منها لاَم الطَّلَبِ مكسُورة، وفتحها لغة. وقد تسكّن بَعْد الفاءِ والواو، ثم وتلْزَم في النَّثرِ، في فِعْل غيْرِ الفعل المخاطب به مطلقاً خلافاً لِمَنْ أَجاز حذفها في نحو: قلْ لهُ ليفْعَلَ هـ. ومَن حذَفها قول الشاعر:

مـحَـمَّـدٌ تَـفْـدِ نَـفْـسَـكَ كـلُّ نَـفَـس إذَا مَـا خَـافَـتْ مِـن أَمـر تـبـالا

أي لتَفْدي. (ص) وَلاَ فِي النَّهْي (ش): نحو: «لاَ تؤاخِذْنَا» والفَرْق بيْنَهُمَا ما تقدَّم في الأمْر والدّعاءِ، فإنَّ النَّهْي طلب الكَفّ. فإنْ كَان مِنَ الأعلى فَنَهْيٌ. وَمِنَ الأدْنَى دُعَاءٌ. ومن المساوي التماسٌ. والطلب يشمَل الجَميع، ولذلكَ اقتَصَرَ في الألفية عليه فقال:

قَـالَـتْ بـنـات الـعِـلْـم يَـا سَـلْـمَـا وإن كـأَن فـقـيـراً مـعـدومـاً قـالـت وإنْ

أي وإن كَانَ فقيراً معدوماً تتزوجُه، ومنها جواز حذفها عند بعضهم، والجمهور مَنعُه، ومنها أنه يجوز إيلاؤها الاسم على إضمار الفِعْل، نحو: «وإنْ أَحَدٌ مِنَ المشركِينَ اسْتجارَكَ» أي، وإن استجارَكَ أَحَدٌ (ص) وَمَا (ش)، نحو: «وَمَا تَفْعَلُوا من خَيْر يَعلمْهُ اللَّهُ». «مَا نَنْسَخْ مِن آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأتِ بِخَيْر مِنْهَا»، وَهِي اسم موضع للدّلالة على من لاَ يعْقل ثم ضمن معنى الشرط (ص) ومن (ش) وهي اسمٌ وُضع للدّلالة على مَن يعْقل، ثم ضَمّن معْنَى الشرطِ، نحو: «وَمَنْ يعملْ سُوءٍ يجز به» (ص) وَمَهْمَا (ش)؛ وهي اسم موضع للدّلاَلةِ على مَن لاَ يَعْقِل، كما ثم ضمن معنى الشرطِ، نحو قوله تعالى: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ومن آية حال من الضمير المجرور، ولتَسْحَرنَا منْصوب بلام كَيْ، وجُمْلة فَمَا نَحْنُ الخ جَواب الشرطِ. (ص) وَإِذْمَا (ش) عند سِيبَويْه حرف موضوع لِلدَّلاَلَةِ، على مجَرّد تعليق الجوابِ على الشرطِ. وعنْدَ غيْرِهِ اسم موضع للدّلالةِ على الزّمانِ، ثم ضَمّنَ معنى الشرطِ كقول الشاعر:

وإنَّـكَ إذْ مَـا تَـأْتِ مَـا أَنْـتَ آمِـر بِـه تُـلْـقَ مَـن إيَّـاه تـأمـر أتـيـا

فتأتِ فعْل الشرطِ: وتلق جوابهُ: جُزِما بحذف الياءِ (ص) وأي (ش) وهو اسم مُتردِّد بَيْنَمَا تَقَدَّمَ، وَمَا سيأتي، بِحسب ما يُضاف إليه، فهو في قولكَ: أيُّهم يقم أقم معَهُ: بمنزلة من وفي قولك: أيَّ دوابٌ تركب اركبْ، بِمَنزلةِ ما. وفي قولك: أيَّ يوم تَصُمْ أصُمْ بمنزلة مَتَى. وفي قولك: أي مكَان تجلسْ أجْلِسْ فيه، بمنزلة أيْنَ. وقوله تعالى: ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟﴾ لا بمعنى أيُّ اسْم تدعو. فأيًا مفعول بتدْعُو. وما صِلَة، وتدعوا فِعْل الشرطِ مجزوم بحذفِ النُّونِ. وجُملة فله الأسماء الحسْنَى في محلِ جَزْم جواب أي قَالَهُ كثيرٌ من المعربين، والَّذي يظهر لي أن الجواب محذوف، دلَّ عليه جملة فله الأسماء الحسنَى. والتقدير: أيُّ اسْم تَدْعُوا بِهِ فهو اسْمهُ. فله الأسماء الكثيرة الحُسْنَى، فبأي اسْم دَعَوْتموه فهو اسْمُهُ. (ص) وَمَتَى وَأَيَّانَ (ش) وهما مَوْضوعانِ للدَّلالة على الزَّمانِ، ثم ضُمِّنَا مَعْنَى الشَّرْطِ، فمثال الأول، قول الشاعر:

مَتَى تَأتِنَا تلمِمْ بِنَافِي ديارنَا تَجِدْ حَطْباً جَزْلاً وَنَاراً تَأجَّجَا

ومثال الثاني قوله:

أيَّان نُؤمِنْكَ تَأمَنْ غيرنَا ومَتَى لَمْ تُدْرِكِ الأَمْنَ مِنَّا لم تزل حظرا

فمتي وأيَّانَ منصوبَان على الظَّرْفية الزَّمانية، بمعنى أيِّ وقت، والعامل فيهما فعل الشرطِ التالي لهُمَا. فهُما عامِلانِ معمُولاَنِ، والجهات منفكَّة. (ص) وَأَيْنَ (ش) كقوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ﴾. وهي موضوعة لِلدَّلاَلة على المَكَانِ، ثم ضُمِّنَتْ معْنَى الشرطِ. (ص) وَأَنَّى (ش) هي كَأَيْنَ في المعنى، كقول الشَّاعِرِ:

خليلي أنَّى تَأتِيَانِي تَأتِنَا أخا غير مَا يرضيكما لاَ يحاول

فتأتياني فعل الشرطِ مجْزُوم بحذف النون، والنون الباقية: نون الوقاية، وتأتنَا جَوَابُهُ مجزوم بحذف النُّونِ. وقد تكون استفهامية فقط، كقوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ أيْ مِنْ أيْنَ. وتكُون ظرفية فقط كقوله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ أي من أي مكَان شئتُمْ، مع اتحادِ المَحَلّ. وفي أيِّ وقتٍ شئْتُمْ (ص) وَحَيْثُمَا: (ش) هيَ ظرف مكَانٍ أيضاً، ضمن معنى الشرط، كقول الشَّاعر:

حَيْثُمَا تَسْتَقِمْ يُقدرْ لكَ اللّهُ نجاحاً فِي غَابِرِ الأزْمانِ

أيْ أيُّ مكَانٍ تسْتقم فيه مَعَ زيد، يقدِّر لك نجاحاً وفلاحاً وظفراً، بكل ما

تريد في الأزمانِ الباقية من عمرك؛ لأن استقامة الصِّغَرِ تَصُونُ عَوَاقِبَ الْكِبَرِ، وتقي أَرْذل الْعُمرُ، وَلاَ تُجْزِم حيْث إِلاَّ إِذا كَانت مَعها مَا. وإِلاَّ لم تجزم. وكذلك إِذْ مَا وأَمَّا (ص) كيْفَمَا (ش) فَلاَ تجزم عند البصريين. وقال الكُوفيون: تجزم قياساً على حيثما، ووافقهم قطرب كالمؤلف؛ وهي موضوعة للدَّلاَلَةِ على الحالِ، ثم ضمنت مغنى الشرطِ. وَلاَ تجزم إِلاَّ فعْلين متفقيْن لفظاً ومعْنًى. نحو: كيْفَما تَصْنَع أَصْنَعْ، وكيْفَما تجلسْ أَجْلِسْ وظَاهرهُ حيْث نطق بِهَا، بما أنها لاَ تجزم إِلاَّ مقرونة بِهَا كحيثما؛ وهي رأي قوم. وقال الكُوفيُّون تجزم بها مطلقاً. وقال البصريُّونَ لاَ مطلقاً. وإنما يجازى بها وَلاَ تَجْزِمُ، ويوجد في بعض النسخ بعد الثمانية عشر (ص) وَإِذَا فِي الشعر: (ش) قال الزجاجي في الجمل: وَلاَ يَجزمُ بإِذَا إِلاَّ في الشعر:

وأَنشَد:

إِذَا قصرت أَسْيافنا كَان وصلنَا ... خطاباً إِلى أَعدائنا فنضارب

قال بعض شراحه: وإنما لم يجزم بِهَا؛ لأن حق ما يجزَم بِه، أَلا يدري أَيكون أم لاَ. وما بعد إِذا معلوم؛ كَوْنهُ، كقولكَ: إِذا طلعتِ الشمس فأْتِنِي. ولو قلت: إِن طلعت الشمس لم يُحْسَن. ومِن أعْمالها أَيْضاً قول الشاعر:

اسْتَغْنِ مَا أَغْنَاكَ ربُّكَ بِالْغِنَا ... وإِذَا تُصِبْكَ خَصَاصَةٌ فَتَجَمَّلِي

أي استغْنِ بِالله عمَّن سواهُ. وَلاَ تفتقرْ إلى أَحدٍ من خلقه، وَلاَ تطمعْ في أَحَدٍ سوى خالقك. مدَّة ما أَغْنَاكَ الله بغناه الحسي أَو المعنوي. وإِذا تصبك حاجة وفاقة فاصبر صَبْراً جميلاً؛ وهو الذي لاَ شكوى مَعَهُ لأحد.

تَنْبِيهَاتٌ: الأول: هذه الأدوات منها ما هو حَرْف باتفاق، ومنها ما هو مختلف فيه كما تقدَّمَ. ومنها ما هو اسم غَيْر ظرف. ومنها ما هو اسم غير ظرفٍ. ومنها ما هو ظرف مكان، ومنها ما هو ظرف زمان، وقَد نظَّمَ ذلك بعضهم فقال:

سَائِلاً عن أَدَوَات الشَّرْطِ ... فَاصْغَ لِمَا ذكرت وَافْهَم بَسْطِ
إِنْ بِاتفاقٍ حرْفُ إِذْ مَا لِلإِمَامْ ... وعنْدَ غَيْرِهِ لِلأَسْمَاءِ تُضَمْ
مَهْمَا وَمَا وَمَنْ وكَيْفَمَا اجْعَلاَ ... أَساسياً غير مظروف مسجَّلاَ
وحيْثمَا أَنَّى وأَيْنَ لِلمَكَانْ ... مَتَى وأَيَّانَ وَإِذْ مَا لِلزَّمَانْ
إِذَا بِشِعْرهم لوقتٍ تنسَبُ ... أي لما أَضفت حقاً تُحْسَب

الثاني: هذه الأدوات، بالنسبَة إلى لحوق ما بِها على ثلاثة أقسام قسم لاَ يجوز لحوقها بها وهي: مَنْ، وَمَا، ومَهمَا، وقسم يكون لحُوقها بها شرطاً في عَمَلِهَا، وهي إذْ وحيْث، وقسْم يجوزُ لحوقها بِهَا وعدمه، وَهُو إنْ ومتى وأيْن وَأيُّ وأيّان.

وأَما كيْفَمَا فَمِن الْقِسْم الثاني عند قَوْم؛ وهو ظَاهر كَلاَم المصنف، ومن القسم الثالث في رأي الكُوفيينَ وقطرب. وأَمَّا إِذَا، فَالظَّاهر أَنَّه من القسم الثالث هـ. قاله السوداني. **الثالث**: فعل الشرط والجواب، قد يكونان ماضيَيْن أَو مُضَارعيْن، أَو متخالفيْن. فإِن كَان الأول ماضياً والثاني مضارعاً جاز رَفْع المضارع كقول الشاعر:

وإنْ أَتاه الخليل يوماً مسألة يقول لا غائب مالي ولا حرم

وجازم الشرط الأدوات على المشهور. وأما الجواب، فقال محققو البَصْريينَ: الأدوات. والأخفش: الشرط، وسيبويه والخليل هما معاً. والكُوفيّون الجوار. ونقل ابن جني عن الأخفش أيْضاً أنهما تجاز مَا قَالَ فِي التّسْهِيل: وجزم الجزاء بفعل الشرطِ لا بالآداة وحدها وَلاَ بِهِمَا. وَلاَ على الجوار، خلافاً للزّاعمي ذلكَ. **الرابع**: إذا لم يصح الأداة لمباشرة الشرط، قُرِن بِالفاءِ، أو بإذا الفجائية؛ إن كَانت الجملة اسْمية، وعدم صَلاَحية ذلكَ في ست مسائل: **الأولى**: أَن تكون الجملة اسمية، نحو: أي يقم زيد فَعَمروٌ قائم ونحوه، وإن تجد إذا لنا مكافأة. ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾. **الثانية**: أن تكون فِعْلية فِعْلها جامِدٌ، نحو قوله تعالى: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا فَعَسَىٰ رَبِّىٓ﴾ الخ. **الثالثة**: أن يكون فِعْلها إنشائية، كقولِهِ تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى﴾. **الرابعة**: أن يكون فِعْلها ماضياً لفظاً أَوْ معْنَى. إما حقيقة نحو: «إِنْ يَسْرِق فَقَدْ سَرَق أَخٌ لَهُ مِن قَبْلُ». وإِمَّا مجازاً، نحو: «وَمَن جَاءَ بالسَّيِّئة فَكبّتْ وجُوهُهُمْ فِي النَّارِ». هذا الفعل لتحقق وقوعه منزلة ما وقع، وإنما لم يصحّ مباشرة هذا الفعل للأداة، لأَنَّها تخلص للاستقبال، والغَرَض من هذا الفعل، هو بقاؤه على مضيه، فلا يصلح لمباشرة. **الخامسة**: أَن تُقرَن بحرف استقبال، كقوله تعالى: ﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥ﴾. ﴿وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾. **السَّادِسة**: أَن تقرن بحرف له الصَّدر نحو: إن تأتِنِي فَمَا تَرَى مِنِّي إلاَّ الخَيْر الجَزِيل. وقد أَشار إلى هذا كله في الألفية بقوله:

وَاقْـرِنْ بِـفَـا حَـتْـماً جَـوَاباً لَـوْ جُـعِـلْ شَـرْطـاً لأَنْ أَوْ غَـيْـرِهَـا لَـمْ يَـنْـجَـعِـلْ

وَتَـخْـلُـفُ الْـفَـا إذ الْـمُـفَـاجـأَة كَـإِنْ تَـجِـدْ إِذَا لَـنَـا مُـكَـافَـأَة

الخامس: يجوز حذف الشرط إِن كَانَتِ الأَداة إِنْ مقرونة.

كقول الشاعر:

فَـطَـلِّـقْـهَـا فَـلَـسْـتَ لَـهَـا بِـكُـفْءٍ وَإِلاَّ يَـعْـلُ يَـفْـرِقَـكَ الْـحُـسَّـامُ

أي وإِلاّ تطلقها، وهو كثيرٌ. ويجوز حذف الجَوَاب إِذا عُلِمَ. كقوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ الآية. أي فافْعل، ويَجبُ حذفه إِن دَلَّ عليه ما تقدم، نحو: أَنت صالح إِن فَعَلْت. وقد يحذفانِ معاً، إِن دَلَّ عليهما دليل كما تقدّم في قول الشاعر:

وإِنَ كَان فقيراً معدوماً قالت. وإِن، وبالله التوفيق.

الإِشَارَةُ: والنواصب التي تنتصب للعبد، وتمنعه من الوصول إلى ربّه، عشرة حبُّ الدّنيا، والجاه والمال، وهَمُّ الرزق، وخوف الفقر، ومراقبة الخلق وسوء الظن بأَهْله النِّسْبَة، وإنكار، وجود أَهْل الخصوصية. وإنكار أَهْل التربية، والشفقة على النَّفس، حتى لاَ يَقْدر على مخالفتها، ورَدْها عن هواهَا.

والجوازمُ التي تجزمهُ، وتُحرمه من الخصوصية ثمانية عشر: الكِبْرُ، والحسَدُ، وحبّ العلو، والعُجْب، والرياء، وعدم الخضوع للأولياءِ، والانتقاد عليهم، والطعن على الفقراء، والطمع في الخلق، والخوف منهم، والميْل إلى أَهْل الظلم والرّكون إليهم. والوقوف مَعَ المقامات والكرامات، وحلاوة الطاعات. والاستغراق في علم الرسوم والتَّجَمّد مع ظَاهر الشريعة، والتعرف للعلويات، والظهور قبل التمكين. وبالله التوفيق.

ولمّا فَرَغَ مِنَ الأفعال، شرع في الأسماء؛ وقسَّمها إلى ثلاثة أَقسام: مَرفوعات، ومنصوبات، ومخفوضات، وَبها خَتَم، وبدأَ بِالْمَرْفُوعَات فقال:

بَابُ مَرْفُوعَاتِ الأَسْمَاءِ: أي هَذَا بابٌ أَذْكر فيه المرفوعات من الأَسْمَاءِ، فالإِضافة عَلَى معْنَى مِن. وإنما جاز جمع المرفوعات والمنصوبات والمخفوضات بالألفِ والتاء، مع أَنَّ معناهَا مُذَكَّر، لأنها صفَة لِلَّفظِ، ومَا لاَ يعْقل، يجوز فيه الأمران، كقوله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾. وبدأَ بالمرفوعاتِ لأنها عمْد، لاَ يخْلُو منها كلامٌ، فإِن قلت: قد يكون عمْدة وهو منصوب، كاسْمِ إِنَّ، وخَبَر كَان،

ومفعولي ظَنَّ. والفاعل المجرور بالباءِ، قلت: أَصْل هذه الأشياء كلها عمْد مرفوعة، ونَصْبُهَا عارضٌ. وكذلك جرُّ الفاعل بالباءِ الزَّائدة، كقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾، أَصْله: كَفَى اللَّهُ شهيداً، كما قال الشاعر:

كَفَى الشَّيب والإِسلام لِلْمَرْءِ نَاهياً. قال ابن عُقَيْل: حقيقة العُمْدة: ما عُدِمِ الاسْتغناء عَنْهُ. أَصِيلاً لاَ عارضاً كالمبتدأ هـ. والفُضْلَةُ: ما جَازَ الإِسْتغناءُ عنْهُ، أَصيلاً لاَ عارضاً. وعروض امتناع الاستغناء عن الفُضْلَة، لاَ يُخْرجها عَن كَوْنها فُضْلَة، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ ثم عَدَّهَا فقال: (ص) المرفوعات سبْعَة وهي الفاعل والمفعول الَّذي لَمْ يَتمّ فَاعِلُهُ. (ش) ويُقال فيه النَّائب عن الفاعِلِ، وسيأتي. (ص) والمبْتدأ وخَبَرُه (ش) نحو: اللَّهُ ربُّنَا. ومحمَّد نبيُّنَا. (ص) وَاسْمُ كَان وأَخَواتها (ش) نحو: «كَانَ اللَّهُ غفوراً رحمياً». (ص) وخَبَرُ إِنَّ وأَخَوَاتها (ش) نحو: «إِنَّ اللَّهَ غفور رحِيمٌ». (ص) والتَّابع للمَرْفُوع (ش) قدَّم الفاعل؛ لأنه أصْل المرفوعاتِ، ثم نائبه؛ لأنه مبتدأ وخَبَرُه، لأنه فاعل معنى. لكون الخَبَر مسْنداً، والمبتدأ مسْنداً إليه، فقولك زَيْد قَائمٌ، بمنزلة قَام زيْدٌ. ثم اسْمُ كَان وأَخواتها؛ لأنه مبتدأ في الأَصْل، ثم خبَر إِن وأَخواتها؛ لأنه خبر في الأصل، ثم التابع؛ لأنه مؤخر عن المتبوعِ، وبيَّنه فقال (ص) وهو أَرْبعة أشياء: النَّعْت والعطف والتوكيد والبَدَل. (ش) ودليلك الحَصْر، أَن الأول إِمَّا إِنْ يكون مقصوداً بالحكم أَم لاَ. الثاني البَدَل والأول إِمَّا أَنْ يتخلَّل بيْنه وبيْن متبوعِهِ شيء أَو لا. الأول العطف، والثاني إِمَّا أَن يدل على أَمْر في المتبوعِ، وإِمَّا أَن يقرر أَمره في النسْبة والشمول. الأَوَّل النَّعْتُ، والثاني التوكيد. والله تعالى أعلم.

الإِشَارَةُ: الأسماء المرفوعة؛ هي أَسْماء الحق تعالى؛ وهي كثيرة. قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ والَّذي وَرَد بها التوقيف تسْعَة وتسْعون، والذي ظهر منها في الوجود، وقام بها عَالم التكوين سَبْعة؛ وهي التي نشأت عن صِفاتِ المعانِي؛ التي هي: القُدْرة والإِرادة والْعلم والحياة والسَّمْع والبَصَرُ والكَلاَم، فيقال: قادر ومريد وعالم وحي وسميع وبصيرٌ ومتكلمٌ. فظهور الأَثَر؛ وهي: تجلِّيات الحقِّ، يَدُلّ على وجودِ الأَسْمَاءِ؛ والأَسماء تدل على وُجودِ الصِّفاتِ والصفات تدلّ على وجود الذَّاتِ في تلك التجليات؛ لأَنَّ الصِّفَة لاَ تُفَارِقُ الموصُوف؛ فظهور هذا العَالَم، يدلّ على وجود القادِر؛ الذي أَظهره بِقُدْرتِهِ. والقادر يدُلُّ على قيام القدْرة بِهِ. والقدرة تدل على وجود الذَّات في تلك التجلِّي؛

لأنَّ الصِّفة لاَ تُفَارِقُ الموصُوفَ فمَهْما ظهرتِ الصفاتُ ظهرت الذَّات. ومهما ظهرت الذَّات، ظهرت الصفات وهذا مَعْنَى من قال: الذَّات عيْن الصِّفات أي مُتَلازِمان في الظهور والتجلِّي. وفي الحِكَم: دَلَّ بوجودِ آثاره، على وجُودِ أَسْمائِهِ. وبوجودِ أَسْمائِهِ، على وجودِ صفاتِهِ، وبوجود صفاتِهِ على وجود ذَاتِهِ. فالسَّالكُ يُكشف له أولاً عن وجود أَسمائِهِ ثم يرتقي إلى شهود صفاتِهِ ثم يكشف له عن كَمال ذَاتِهِ، والمجذوب بالعكْس الخ. فالفاعل الحقيقي هو اللَّهُ، والنَّائب عنه خَليفته؛ وهو الإنسان الكامِل. قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ وهو آدَم وذريته الكُمَّال. والمبتدأ قبل كل شيء هو اللَّهُ. والخَبَر هو الذي تجلَّى بِهِ من الأثَرِ؛ لأَنه يخبر عن الذَّاتِ وكمالاتها. واسْم كَانَ؛ هو الله تعالى؛ لأنه فاعل الكوْنِ؛ الذي هو مصْدر لَهَا؛ وهو أَيْضاً خبر إِنَّ؛ لأنه به تأكدت النسب، وعزم عليها. والتابع للمرفوع؛ هو الولي الكامل؛ لأنه تابع لله ولرسوله اللَّذيْن هما أصْل كل رفعة وشرف وعِزّ، وبالله التوفيق.

ثم بدأ بالفاعل فقال: بَابُ الْفَاعِلِ:

الفاعل لغة: مَنْ صدَر منه فعل، واصطلاحاً ما عرَّفه المصنف بقوله. (ص) هو الاسْمُ (ش) أي الصريح، نحو: «وَقَالَ اللَّهُ». أو المؤوَّل نحو: «أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ». فأن تخشع فاعِل؛ لأنه مؤوَّل بخشوع. أيْ أَلَمْ يحضر للذِينَ آمنوا خشوع قلوبهم لذكر الله (ص) المرْفُوع (ش): إِمَّا لفظاً إذا خَلاَ مِنَ الباءِ، أو من الزَّائدتيْن، أَوْ حُكْماً. إذا جَرَّ بِهِمَا، أو بِإضافَة المَصْدر. (ص) المذكور قبْله فِعْلُهُ (ش) المُسْنَدُ إليه. إِمَّا لكَونه صدر منه كقام وضَرَب، أو اتصفَ بِهِ، كعلم ومات. واعترض على المصنف إِدْخاله الرفع وتقدّم الفعل في حدّ الفَاعل، مع أنهما حكم من أَحْكامِهِ. وقد قال في السُّلَّم:

وعِنْدَهُمْ مِنْ جُمْلَةِ الْمَرْدودِ أَنْ تَدْخُلَ الأحْكَامُ فِي الْحُدُودِ

والحدّ السَّالِمُ: أَنْ يُقال: هو اسْم أَوْ ما في تأويله، أُسند إليه فِعْل، أَوْ ما في تأويله، أَصْلي المحلّ، والصِّيغة كما في المُوَضّح، وقوله: أُسْند إليه فِعل أو ما في تأويله، يشمل الفِعل الجَامد: كَنِعْم وَبِئْسَ ولَيْسَ وعَسَى. والمُتَصرف؛ كضَربَ ونحوه، والذي في تأويل الفِعْل، اسْم الفاعل، نحو: «مختلفٌ أَلوانُهُ». ومُنير وجْهُهُ. والصِّفة المشبَّهة، نحو: الحسنِ وَجْهُه. والمصدر، نحو: «وَلِلَّهِ على النَّاس حجّ البَيْتِ مَنِ استطاع» على قول. واسْمُ الفعل نحو: هيْهَات العقيق. والظِرف

وشِبْهُه. نحو أَعِندك زيْدٌ. «أَفِي الله شك». وقوله: أَصْلي المحلّ، خرج نحو: قائم زَيْد، فزَيْد مبْتدأ مؤخَّر لاَ فَاعل. لأَنَّ قائماً أَصْله التَّأخير. واعترض هذا القيد، بأنه غَيْر محتاج إليه؛ لأنه لم يدْخل فيما في تأويل الفعل، على مَذهَب البَصْريينَ؛ لأنه عنْدهُمْ لا يلحق بالفِعْلِ إلاَّ بعد الشروط وهو الإعتماد. وأما على مذهب الكُوفيينَ، فالمرادُ دُخُوله، وخرج بقوله: أَصْلِي الصّيغَة. نحو: ضُرِب زَيْد، مبْني للمفعول، فإن صيغَتَه مفرعة عن ضرب المبْني لِلْفَاعِلِ. وقول المصنف: المذكُور قبله فعلله، فإنْ ظَهَر ما صورتهُ فاعل مقدَّم جُعل مبتدأً. والفاعل ضمير يعود عليه، نحو زيْد قَامَ. وقد يُذكر الفعل وَلاَ يظهر فاعل لاَ قَبْلُ وَلاَ بَعْدُ، فَيجب أن يُجْعل ضميراً مسْتتراً، يعود إِمَّا على اسم فاعلٍ مأخوذ من الفعل نَفْسه. كقوله عليه السلام: «لاَ يَزْنِي الزَّانِي حين يَزْنِي وَهُوَ مُؤمِنٌ، وَلاَ يشرب الخَمْر حينَ يشربها وَهُوَ مُؤمِنٌ». ففاعل يَشْرَبُ ضمير يعود على الشارب، المفهوم من يشرب، وإِمَّا على ما يَدلّ عليه السياق، كقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾. أي الرّوح المفهومَة مِن السياق.

تَنْبِيهاتٌ: **الأول**: إنما رُفع الفاعل، ونصب المفعول للفرق بيْنهمَا. وناسب الرَّفع للفاعل، لرفعة قدرة في المعْنَى؛ لأنه فاعل. وناسَب النَّصْب للمفعول؛ لأنه منصوب، لوقوع الفعل الصادر من الفاعل عليه، كالغَرض المنصوبة للرَّمي والغرض في اللغة هو المسمى اليوم بالبشارة. **الثاني**: رافع الفعل ما استند إليه من فعل، وشبهه عند الجمهور. وقيل الإسناد، وقيل كوْنه فاعلاً في المعْنَى، **الثالث**: يُفْهم مِن قوله: المذكور قبله فعله؛ أَنَّ الفاعل لاَ يتقدَّم على فِعْلِهِ؛ وهو مَذْهب البصريينَ. وأَجَاز الكوفيُّون تقدمه، مستدلين بِقول الشاعر:

مَا لِلجَمَالِ مَشْيهَا وئِيدَا ... أَجَنْدلاً يحْمِلْنَ أَم حَدِيدَا

فتأوّله البصريون على الابتداءِ. وحذف الخبر، أي مشيُهاً يظهر وئيداً.
الرابع: قيَّدَ بعضهم فعل الفاعل، بِكَوْنه تاماً قَصْداً؛ لإخراج اسْم كَان، بناءً على أَنَّه ليس فاعِلاً. وَمَذْهب سيبويه أنه فاعل، والمشهور أنه لاَ يُسَمَّى فاعِلاً، وقد ذكر هذا القَيْد في التسهيل، فقال: الفاعل: هو الاسم المسند إليه فعل أو ضمن معناه تام الخ، قال ابن عَقَيْل، سمى سِيبويْه اسم كَان فاعِلاً على سبيل المجاز والتوسع. ثم قال: (ص) وَهُوَ على قِسْمَيْن: ظَاهر ومُضْمرٌ. (ش): أَيْ منه ظَاهر، ومنه مُضْمرٌ. (ص) فالظَّاهر نحو قولك، قَامَ زيْد ويَقوم زَيْد. (ش) فحقيقة الظَّاهر: ما

دَلَّ بلفظِهِ وحروفه على معناه، فيدخل فيه النكرات والأعْلام، وأسماء الإشارات، والموصولات، إلاَّ أنَّ الإشارات والمَوْصُلات، يُقال فيهمَا المُبْهمات، وَلاَ فَرْق في الفاعِل بيْن أنْ يكون مُفرداً كما ذكر، أو تثنيةً أوْ جمْعاً، أو واحداً من الأسماءِ الخَمْسة. وَلاَ فرْق أيْضاً بيْن كوْنِ الفِعل ماضياً أو مضارعاً، ولذلكَ نَوَّعَ الأمْثلة فقال: (ص) وقَامَ الزَّيْدان. ويقوم الزَّيدانِ. وقَامَ أَخُوكَ وَيَقُوم أَخُوكَ (ش) وقد يكون جمع تكسير، كقام الرجلانِ، وقامت الهنود، أو اسم جمع، نحو: «كَذَّب به قَومكَ». أو اسْم جِنْس نحو: أَوْرق الشَّجَر. وسقطت النَّخْل اللبن. ويجب تجريد الفِعْل من علامَةِ التثنية والجمع قال في الألفية:

وَجَــرِّدِ الْــفِــعْــلَ إذا مَــا أُسْــنِــدَا لاثــنَــيْــن أو جَــمْــعٍ كَــفَــازَ الــشُّــهَــدَا

قال تعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ﴾. وقال الظالمُونَ. وقد تلحقه عَلاَمة التثنية والجمع، فيقال: سعدا الزَّيدان، وسعد والزَّيدون. وقالوا: أكلوه البراغيث، وهي لغة أزدِ شنوءة، يلحقون علاَمة التثنية والجمع للفعل، مع إسناده للظاهر، فهي عندهم حروف علامات المثنى والجمع لا ضمائر. وما بعدها مبتدأ أو بدل، خلافاً لِمَن زَعَمَ ذلِكَ. ويجب إلحاق تاء التأنيث للفعل الماضي والمضارع، إذا كَان الفاعِل مؤنثاً حقيقي التأنيث؛ وهو مالَهُ فَرْجٌ نحو: قَامتْ هند، وتقوم هندٌ، وقامت الهندانِ، وتقوم الهندَانِ. وقَامَت الهندات، وتقوم الهندات. فإن كَان مَجَازي التأنيث، جاز الأمرانِ تقول: طلعت الشمس. وطلع الشمس. وسقط اللبنة، وسقطت اللبنة. إلاَّ إن كان الفاعِل ضميراً مستتراً متّصلاً، فيجب التأنيث مطلقاً، نحو الشمس طلعتْ، أو الشمس تطلعُ. ونحو هذا في التثنية والجمع، وأما الجموع. كلها سوى جمع المذكر السَّالم فيجُوز فيها تذكير الفِعْلِ، وتأنيثُهُ. تقول: قام الرجال وقامتِ الرجال، وقام الهنود، وقامت الهنود. «وكذَّب به قومكَ». «كذَّبَتْ قَبْلَهُم قوم نوح». وأَوْرقَ الشَّجَرُ. وأورقتِ الشجر. وكذلكَ المضارع. فتحصل، أنَّ جمع المذكر السالم، يجب تذكيره من التاء. وجمع المؤنث السَّالم يجب تأنيثه، والباقي؛ وهو جمع التكسير. واسْم الجمع، واسْم الجِنْس يجوز فيه الأمران. فإنْ أَنَّثتَ الْفِعْل مع أخذ هذه الجموع، ثم أعدتَّ ضميراً على ذلك الجمع، وجب تأنيثهُ. ثم: قامت الرجال لإخوتها. وإن ذكرت ثم أعدت ضميراً عليه، وجب تذكيره، تقول: قام الرجال لإخوتهم. يجوز ترك التاء فيما يجب فيه، مَعَ الفصل بالمفعول ونحوه. كقوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ إلاَّ مَعَ الفَصْل

بإلاَّ. فإنَّ تَركَ التَّاء حينئذٍ هو المختار. نحو: ما قام إلاَّ هندٌ؛ لأنَّ الإسْنَاد حِينئذٍ في المعنَى إلى اسم مذكر. وهو المستثنى منهُ. لأنَّ التقدير: ما قام أَحَد إلاَّ هِندٌ. ومن أثبت التَّاءَ رَأَى أَنَّ ما بعد إلاَّ فاعلاً في الظَّاهِر. ومنه قول الشاعر:

مَـا بَـرِئَـتْ مِـنْ رِيـبَـةٍ وَذَمٍّ فِـي حِـزْبِـنَـا إلاَّ بَـنَـاتِ الْـعَـمِّ

تَنْبِيهَانِ: الأول، إذا أخبر بمضارعٍ عن ضمير غيبة لمؤنث، نحو: الهندانِ هُمَا يفعَلانِ. جاز في المضارع التأنيث، حملاً على المعنَى. ورجَّحه أَبُو حيَّان، والتذكير حملاً على اللفظ، وهو الظاهر الثاني: هذا التعريف بين حقيقة التأنيث ومجازه في لزوم التاء في الحقيقي وجوازها في المجازي. إنما هو باعتبار الفِعل، والصفة الجارية مجراه، وأَما في غيْر هذا الباب من الأبواب، فلا فَرقَ بيْن الحقيقي وغيْرِه، بل يجري كله على سبيل التأنيث في الإضمار. والإشارة إليه. وغيره من الأحكَام. قاله السوداني عن الراعي، ثم ذكر المضمر فقال (ص) والمضمر، نحو قولك، ضَرَبْتُ (ش) بِضَمّ التَّاءِ، للمتكلم الواحد، مذكراً أَو مُؤنثاً. (ص) وَضَرَبْنَا (ش) للمتكلم المعظم نفسه، أَو معه غيْرهُ. (ص) وَضَرَبْتَ (ش) بِفَتْح التَّاءُ، للمذكَّر المخاطبِ. (ص) وَضَرَبْتِ (ش) بِكَسْرِ التَّاءِ للمخاطبة المؤنثة. (ص) وَضَرَبْتُمَا (ش) للمخاطبيْن. مُذَكَّريْن أَو مؤنثيْنِ. (ص) وَضَرَبْتُمْ (ش) للمخاطبيْن المذكريْن، (ص) وَضَرَبْتُنَّ (ش) للمخاطبات المؤنثات. (ص) وَضَرَبَ (ش) للغائب المذكر الواحد (ص). وَضَرَبَتْ (ش) للغَائبة الواحدة. (ص) وَضَرَبَا (ش) للغائب المذكر الواحد (ص). وَضَرَبَتْ (ش) للغَائبة الواحدة. (ص) وَضَرَبَا (ش) للغائبيْن المُذَكَّريْنِ، ومثلهُ ضَرَبَتَا. للغائبتيْن المؤنثيتيْن. وبقي على المؤلّف (ص) وضَرَبُوا (ش) للغائبينَ المذكرينَ. (ص) وَضَرَبْنَ. (ش) للغائبات. وبقي عليه من أَقسام الضمير المتصل بياء المؤنثة المخاطبة. نحو: تقومينَ يَا هند. وقومِي يَا هندُ. والمنفصل اثنا عَشَرَ، نحو قولك: مَا قام إلاَّ أَنَا، وَمَا قام إلاَّ نَحْنُ، وَمَا قَامَ إلاَّ أَنْتَ، وَمَا قام إلاَّ هُمْ، وما قام إلاَّ هُنَّ. تكميل: يجوز حَذف الفعل، وإبْقَاء الفاعِلِ؛ وهو على قسْمَيْن: ما يحذف وُجُوباً. وما يحذف جَوَازاً. كَقوله تعالى، «وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمشركِينَ استجَارَكَ»، فَأَحَدٌ فاعل بفعل محذوف، وُجُوباً؛ لأنه مفسر بما بعده، من باب الإشتغال في المرفوع، والثاني، كقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾. فالله فاعل، أي خلقهنَّ اللَّهُ. وقد أَظهره في قوله: خلقهن العزيز العليم. ويجوز أَنْ يكون الله مبتدأ والجملة بعده خَبَراً، أي الله خلقهن، والله تعالى أَعْلم.

الإِشَارَةُ: الفاعِلُ الحقيقي؛ هو الاسم المَرْفوع القدر، العظيم الشأن؛ وهو الحق جل جلاله، المذكور قبله فعله عندَ الْغَافِلينَ. والمذكور بَعْدَه فِعْلُه عند الذَّاكرينَ. المذكور قبله فعله عند الطالبين أَو السَّائرينَ. والمذكور بعده فعله عند العَارفينَ الواصلينَ. المذكور قبلَهُ فعله عنْدَ أَهْل الدَّليل والبرهان، والمذكور بعده فِعْله عند أَهْل الشهود والعيان. أَهْل الدَّليل والبُرهان بذكرونَ فِعْلَهُ، ويستدلونَ به عليه. وأَما الواصلونَ من العارفينَ، فَيذكرونه وَيرونَهُ قبل رؤية فعلهِ فَهُمْ يسْتدلون بالله على غيْره، فَلاَ يَرَوْنَ إِلاَّ هُوَ، كما قال شاعِرهم:

مُـذْ عَـرَفْـتُ الإِلَـه لَـمْ أَرَ غَـيْـرا وكَـذَا الْـغَـيْـرُ عِـنْـدَنَـا مَـمْـنُـوعُ
مُـذْ تَـجَـمَّـعْـتُ مَـا خِـشيـتُ افـتـراقـا فَـأَنَـا الْـيَـوْمَ وَاصِـلٌ مَـجْـمُـوعُ

فرؤية الفعل قبل الفاعل، هِيَ مَقام العموم، من أهل الدَّليل والبُرْهان، ورؤية الفاعل قبل الفِعْل، أَو معَهُ، مقامُ الخصوص من أَهْل الشهود والعيانِ.

وفي الحِكمِ: فَمَن رأَى الكَوْنَ ولَمْ يشهد الحق فيه أَو قبلهُ أَوْ معَهُ أَوْ بعدهُ، فقد أَعْوَزه وجود الأنوار، وحجَبت عنه شموس المعارف بِسُحب الآثار هـ. وفيه أَيْضاً: شتَّانَ بيْنَ من يسْتدل به، أَو يسْتدل عليه. المستدل به عرف الحق لأَهله، وأَثبت الأَمر من وجودِ أَصْلِهِ، والاستدلال عليه من عَدَمِ الوصول إِليه، وإِلاَّ فَمَتَى غابَ حتى يحتاج إِلى دَليل يدلّ عليه، ومتى بَعُدَ حتى تَكُونَ الآثارُ هي التي تُوَصِّل إِليه. قال الشاعر:

عـجِـبْـتُ لِـمَـنْ يَـبْـغِـي عـلـيـكَ شَـهَـادة وَأَنْـتَ الَّـذِي أَشْـهـدتَّـهُ كُـلَّ شَـاهِـدِ

ثم قال: وهو على قسمين: ظاهر عند العارفين، لاَ يخفى على أَحَدِ عنْدَهُمْ إِلاَّ على الأعمى، كما قال الشاعر:

لـقَـدْ ظَـهَـرْت فَـمَـا تـخـفَـى عـلـى أَحَـدِ إِلاَّ عـلـى أَكْـمَـهٍ لاَ يُـبْـصِـرُ الْـقَـمَـرَا

ومضمرٌ، أي مسْتترٌ، باطنٌ عند الغافلينَ، كما قال في الشطر الثاني.

لـكِـن بَـطُـنَـتْ بِـمَـا أظـهـرتْ مـحـتـجـبـاً وكـيْـفَ يُـبْـصَـرُ مَـنْ بِـالـعـزَّةِ اسْـتَـتَـرَا

وفي مناجَاة الحِكَم: إِلَهِي، كيْف يسْتدلّ عليك بِمَا هُوَ في وجوده مفتقر إِليك. أَتكونَ لِغَيْرِكَ مِنَ الظَهور ما ليْس لكَ، متى غِبْتَ حتى تحتاج إِلى دليل يدل عليكَ، وفي عبارته نَوْع من الفَرْق. فلو قال: إِلَهي كيف يسْتدل عليك، بما هُو سرٌّ مِنْ أَسْرار ذاتِكَ. ونور من أَنوار تجلياتك الخ، وقال أَيْضاً، كيْفَ تخفَى وأَنْتَ

الظَّاهر. أَمْ كيْف تَغِيبُ وأَنت الرقيب الحاضر. فالحق جَلَّ جلاله، قد تجلَّى وظهر في الأَشياء كلها، ثم بطنَ في ظهوره، فَمَا ظَهَر سواهُ. وكَما تجلَّى إلاَّ نور بَهَائِه وسَنَاه. وقد قلت فِي خَمْريتي:

فَمَا ظَهَرَ فِي الكَوْنِ غَيْر بَهَائِهَا وَمَا احْتَجَبتْ إِلاَّ لحُجْبِ سَرِيرَتِي

إلى آخر القصيدة. قال تَعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ أي هُوَ الأول بِلاَ بِداية، والآخر بِلاَ نِهاية. والظَّاهر فيما تجلَّى بِهِ من أَسْرار ذاتِهِ، وأَنوار صفاته. وهو الباطن في عيْن ظهوره، ظَهر بِذاتِهِ. وبطن بِآثارِ صفاته. وفي الحِكم: أَظهر كل شيء بأنه الباطن. وطوَى وجود كل شيءٍ بأنه الظاهر، أي أَظهر حِسَّ الكَائنات، بِسَبب اسْمه الباطن. وطوى وجود كل شيءٍ، بسبب اسْمه الظَّاهر. إِذ لاَ ظَاهر مَعَهُ. وهذا الأَمْرُ لاَ يَفْهَمه إلاَّ أَهْل الأَذواق، الَّذين يثبتون الضِّدَيْن في مظْهَر واحِدٍ. ويعطون كل ذِي حقّ حَقَّهُ. وحسْبُ من لم يَدْرِكْ مَقَامَهُمْ، التَّسْليم لِمَا رَمَزُوا إِلَيْهِ:

إِنْ لَمْ تَرَ الهِلاَلَ فَسَلِّمْ لأُنَاسٍ رَأَوْهُ بِالأَبْصَارِ

وبالله التوفيق

بَابُ المَفْعُول الَّذي لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ: قلت: عبارة النَّائب عن الفاعل أَحْسَن، لاخْتِصارها وكوْنها جامعة. وأَمَّا المفعول الَّذي لم يُسَمَّ فَاعِله، فقد يصدق على المفعول الثاني في قولك: أُعْطِيَ زيْدٌ دِرهماً، فَدِرْهم معطى، لَمْ يذكر فَاعلهُ. مع كونه منصوباً. وعلى معمول المصدر، في قوله تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ يَتِيمًا﴾. فهذان المثالاَنِ، يصدق عليهما أَنهما مفعولاَنِ لم يُسَمَّ فاعلهما مع كونهما بِمَعْزل من هَذَا البَابِ، ثم عرَّفه المصَنِّف بقوله: (ص) وهو الاسْمُ (ش) أي صريحاً أَو مؤوَّلاً. نحو: «قُل أوحي إِلَيَّ أَنَّه اسْتَمَعَ نَفَرٌ» أي استماع نَفرٍ. (ص) المرْفُوعُ. (ش) تقدم البحث فيه بأنه حكم، فلا يَنْبغي إِدْخاله في الحدِّ. وقد يجاب بأنه لم يُقصَدْ به هُنَا الحكْم، وإِنما هو عنده فعْل، أُخرج به المنصوب في المثالَيْن المتقدمَيْن (ص) الَّذي لَمْ يُذْكَرْ مَعَهُ فَاعِلُهُ (ش) بل يُحْذف، وينوب عنه المفعول بِهِ. فيستحقُّ ما كان يَسْتحقه الفاعل من الرَّفع والعُمْدةِ. وتأْنيث الفعل له، وتجريده من عَلاَمَة التثنية والجَمْع. وغَيْر ذلِك من الأَحكام المتقدمة. وإِنما يُحْذف الفاعل لغرضٍ من الأَغراضِ. بَعْضها معنوية، وبعضها لفظية، جمعها أَبو حيَّان في بيْتيْن فقال:

وَحَذْفُهُ لِلْخَوْفِ وَالإِبْهَام وَالوَزْنِ وَالتَّحْقِيرِ والإِعْظَامِ

والْـعِـلْـمِ وَالْـجَـهْـلِ وَالاخْـتِـصَـارِ والـسَّـجْـعِ والـوِفَـاقِ والإِيـثَـارِ

وهَذِهِ النُكَت، هي مِنْ وَظِيفَة عِلْم البَيَانِ، لاَ مِن وظيفَة عِلْم النحو، وإِدْخَالها في علم النَّحْوِ، زيادَة فائدةٍ. فَمِثَال الخوْفِ: وهو شَامل للخَوْفِ، منهُ أَوْ عَلَيْهِ. فالأول: نَحو: قُتِلَ زَيْدٌ. إذا خِفْت مِن قَاتِلِهِ، بأن كَان ظلوماً غَشوماً. فإن كَان القائل ضعيفاً. كَان مثال للخوفِ عليه. ومثال الإِبْهَامِ على السامع: تصدق اليوم بكذَا إِخفاءً للعمل، خوفاً من الرياءِ. وهذان غَرَضَان معْنَويَانِ. ومثال الْوَزن قول الشاعر:

عـهـدت مـغـيـثـاً مـغـنِـيًـا مَـن أَجَـرْتَـهُ فَـلَـمْ أَتَّـخِـذْ إِلاَّ فَـنَـاءكَ مَـوْئِـلاَ

وقال آخرُ:

يَـدَاكَ يَـدا مَـجْـد فـكـف مـفـيـدة وكـفٌ إذا مَـا ضُـن بـالـمـال تـنـفـق

فَضُنَّ مبْني للمجهولِ، من ضَنَّ، بمعْنى بخل. فَلَوْ قال: ضَنَّ النَّاس بالمالِ. لم يُوزَنْ. ومثال التحقير. طُعِن عَمْرُو، وقُتِل الحسين، ترَكَ ذِكر الفاعل احتقاراً لَهُ. ومثاله للأَعْظم: حُدَّ الشارب، وجلد الزَّاني، فحذف الفاعل؛ وهو الحاكِمُ. إِعظاماً لهُ. ومثال الْعِلم بالفَاعِلِ: «حُرِّمَتْ عليكُمُ أُمَّهاتكم»، «أُحِلَ لكم صيد البحر». إذ معلومٌ، اسن المُحَرم والمحلِّل هو اللّهُ تعالى، ومثال الجَهْل: ضُرِب فلان، إِذا لم تدْرِ فاعلهُ. ومثال الاختصاص، نحو: سئل النبيّ ﷺ، عما يلبس المُحْرِم، إلى غير ذلِكَ، ومثال السجع. والمراد به: تقارب الفَوَاصِل بَعْضها من بَعْضٍ، ليلاً تبْعدَ بُعْداً ينفر منه الْطَّبْعُ. كقول الحريري في المقامات: ما طَلَع هلال، وَسُمع إِهلال. فَلوْ قال، وسَمِعَ النَّاس إِهْلالاً لبَعُدت الفاصلة، وتغيَّرت. فهذا المثال يصلح للوفاقِ الآتِي بَعْد، ومنه قوله أَيْضاً: حتى نَأْمَن من حَصَائِد الأَلسنة. وَنُكْفَى غَوَائِلَ الزَّخرفةِ. فَلَو بَنَاه للفاعل فقال، ويكفينَا الله غوائل الزَّخرفة. لطالت الفاصِلَة. ومثال الوِفاقِ في إِعراب القوافي، أَو إِعراب الفواصل. فالأوَّل قول الشاعر:

ومـا الـمَـرْء إِلاَّ كَـالـشِّـهَـابِ وضـوئـه بـحـور رمـاداً بـعـدمـا هـو سـاطـع

ومـا الـمـال والأهـلـونَ إِلاَّ وديـعـة وَلاَ بُـدَّ مِـنْ يَـوْم تُـرَدُّ الْـوَدائِـعُ

فَلَوْ قَالَ: يَرُدّ النَّاس الودائع. لاختلفت القَافِياتِ، والثاني: وهو وفاق الفَوَاصِل. ما تقدم من قوله: ما طلع هلال، وسُمع إِهْلاَل، ومثال الإِيثار. ومعْناه:

إيثار غرض السَّامع على غيْرِهِ. كما إذا كان غَرض السامع، ألاَّ يُذْكَر الفاعل. إمَّا لكراهة سمَاع ذِكْره. أو خوف منْهُ، أوْ عليه، ونَحْو ذلِكَ. فَيَقُول: أُكْرِم فلان، أَوْ ضُرِبَ. ويُحْذف الفاعلُ. فَهَذِهِ اثنا عشر غرضاً. بعضها لفظية، وبَعْضها معنوية، وَلاَ يخْفَى التمييز بيْنَهُمَا، ولمَّا كَانَتْ صيغة الفِعْل المبْنِي للمفعول، مغايرة لصيغة المبْنِي للفاعل؛ ليقع الفرْق بيْنهما؛ وهي من مسائل التصريف، نبَّهَ المصَنِّف على ذلِكَ فقال: (ص) فإنْ كَانَ الفِعْل مَاضِياً ضُمَّ أَوَّلهُ وكُسِرَ ما قَبْلَ آخِرِهِ. (ش) إما تحقيقاً. كَضَرب، وحمد، أو تقديراً، كَقيل وغيض وسِيءَ. وأصْله: قولٌ. وغوض، وسوء. فاسْتثقلتِ الكسْرة على الواو، فنقلت إلى فاءِ الكَلمة. وقلبت الواو ياءً، لمناسَبَة الكَسْرة. وكَذَلكَ شُدَّ، وَرُدَّ أَصْلهُ شُدِدَ وَرُدِدَ. فأُدْغِم أَحَد الْمِثْلَيْنِ في الآخَرِ. فَكسْرُ مَا قَبْلَ الآخِرِ مُقدَّر في هذه الأَمْثلة. وهذا التغيير شامل للماضي الثلاثي، كضُرِبَ. والرُّباعي كَأُكْرِمَ، وَدُحْرِجَ. والخُماسي، كَانطلِقَ، والسُّدَاسِي كَاسْتُخْرِجَ. والمبدُوء بهمْزَة الوصل كالمثالَيْن. والمبْدوء بتاءِ مَزِيدة، كَتُعُلِّم وتُكُبِّر. فضم الأول، وكُسر ما قبل الآخِر، واجِبٌ في الجميع، ويجري أَيْضاً فِي نَحْوِ اختارَ وانقاذ وشبْهِهِمَا، فتقول: اُخْتِيرَ وانقِيدَ بِإِخْلاَصِ الكَسْرَة والإِشْمَام، وإِن كَان مَبْدُوءاً بِتاءٍ زائدة، ضُمَّ ثانِيهِ أَيْضاً، كَتُعُلِّم وتُكُلِّم. وإِن كان مَبْدوءً بِهَمْزَةِ وَصْلٍ، ضُمَّ ثالِثهُ كَانطلق واسْتخرجَ ونَحوهما. (ص) وإِنْ كَان مُضَارعاً ضُمَّ أَوَّله، وفتح ما قبل آخِرِه. (ش). أي سواء كَان صحيحاً أو معتلاً، مفتوحاً ما قَبْلِ آخره، أو مكسوراً من الثلاثي أو غَيْرِهِ. فتقول: يُضْرَبُ زَيْدٌ، ويُكْرَم عَمْروٌ. ويُنطلق بِهِ. ويستخرج، ويُتدحْرَجُ. والفتحة في المُبْنِي للمفعول، غير الفتحة في المبْنِي للفاعِل. ومثله: يُقَال ويُبَاعُ، ويُسْتعان بِهِ. وأصْله يَقْوُلُ وَيُسْتَعْوَن، فقلبت الواو أَلِفاً، حسبما هو مُقَرَّر في علم التصريف. (ص) وهُوَ على قسْميْن، ظاهر ومُضْمَر، فالظَّاهر نحو قولكَ ضُرِبَ زَيْدٌ. (ش) أَصْله: ضَرَب عَمْروٌ زَيْداً، فَحذِفَ الفاعل لغرضٍ كَمَا تقدم، وأُقيم المفعول مَقَامَهُ. فصار مرفوع عمْدة متصلاً بِفعله، متأخراً عنهُ كَما كَان الفاعل (ص) وَيُضْرَبُ زَيْدٌ (ش) أَصْله: يضْرِب عَمْروٌ زَيْداً. فَفُعِل بِهِ ما فُعِلَ بالمَاضِي. (ص) وَأُكْرِمَ عَمْرٌو وَيُكْرَمُ عَمْرٌو (ش). هذا مثال للرُّبَاعي، وَالأَصْل أكرمَ اللَّهُ عَمْراً أو يكرمه. فحذف الفاعل كما تقدَّم. وفعل به ما فعل بالماضِي. (ص) والمضمر (ش) قسْمانِ. متصل ومنفصل، فالمتَّصِل اثنا عَشَر: اثنانِ للمتكلم، وخَمْسَة للمخاطب، وخمسَة للغائب، وبقي عليه واحد للمخاطبة. وذلكَ. (ص) نحو قولك ضُرِبْتُ (ش) بِضمِّ التَّاءِ للمتكلم.

وأَصْله: ضَرَبَنِي زَيْدٌ، فالياء مفعول بِضَرَب، فلما أُريد نِيَابَتُها عَنِ الْفاعل، وكَانتِ الياء لاَ تَصْلح أَنْ تكون في محلِّ رَفْع؛ لأنَّ يَاءَ المتكلّم لاَ تكون أَلاَّ مَجْرُورة أَو منصوبة، وَلاَ تكون مَرْفوعة أَبَداً.. فأَتى بتاءِ المتكلم، الصالحة لذلكَ مع كوْنِها في المعْنَى كالياءِ. فقيل: ضَرَبْتُ. (ص) وَضَرَبْنَا (ش) وأَصْله: ضربنا زيدٌ، فلما أُريد حذف الفَاعِل، وناب المفعول، بَقِيَ الضَّمير بحاله لصلاحيته، للمحَالِ الثلاثة. قال في الألفية:

لِلرَّفْعِ وَالنَّصْبِ وَجَرٍّ نَا صَلَحْ ... كَاعْرِفْ بِنَا فَإِنَّنَا نِلْنَا الْمِنَحْ

أَيْ نِلْنَا المواهب العطائية، والأسرار القدسية. (ص) وَضَرَبْتَ (ش) بتاء الخطابِ. وأَصْلها ضَرَبَكَ زَيْدٌ. فلما أُرِيد بِنَاؤه للمفعول، وحَذْفِ الفاعِل، وَكَانت الكَاف غيْر صالحة لمحلِّ الرفع، أَتَى بالتاء التي هي بمعْنَى الكَاف، وصالحة لمحلِّ الرفع (ص) وَضَرَبْتِ (ش) بِكَسْر التاءِ للمخاطبة، وأَصلها ضَرَبكِ زيْد، ففعل بها ما تقدَّمَ (ص) وضَرَبْتُمَا (ش) للمخاطبيْن: مُذَكَّريْن ومؤَنَّثَيْن، وأَصْلها: ضَرَبكما زيْدٌ. (ص) وَضَرَبْتُمْ (ش) للمخاطبين المُذَكَّرينَ. وأَصْله: ضَرَبكم فُلان. (ص) وَضَرَبْتُنَّ (ش) للمخاطباتِ المؤنثَات، و (ص) وضَرَبَ (ش) وأَصْله زيد ضربه عمرو، فَلمَّا حذفت الفاعل، وأَريد نيابته عنه، ولم تكُن الهاء صالحة للرفع، لأن الهاء لا تصلح إلاَّ للجرِّ والنَّصْب، أَتى بما يَصْلح لذلكَ. مما فيه مفادها مِنَ الغيْبةِ؛ وهو: هُوَ، فقيل: ضرب أي هو. (ص) وَضَرَبَتْ (ش) للمؤنثة الغائبة؛ وأَصْله هِنْد ضَرَبَهَا زيْدٌ فأجري على ما ذكَرْنَا؛ لأَنَّ الهاء غير صالحة للرفع، فأَتى بِهِيَ الصالح للرفع، واستتر، لتقدم الظَّاهر. (ص) وَضَرَبَا (ش) للغائبيْن المُذَكَّريْن، وأَصْله الزَّيْدانِ ضَرَبَهُمَا عمرٌ، ثم جَرَى فيه مَا ذُكِرَ؛ لأَنَّ الهاء غَيْر صالحة للرَّفع. (ص) وضربتا (ش) وكذلك ضرَبتا للمؤنثيْن الغائبتين، وأَصله الهندان ضربهما عمْرو، فَفُعل بِهِ كَذَلِكَ (ص) وَضَرَبُوا (ش) للغائبينَ المُذَكَّرينَ. وأَصْله الزَّيدون ضربَهم عَمْروٌ. (ص) وَضَرَبْنَ (ش) للغائبات، وأَصْله: الهِنْدَاتُ ضَرَبَهُنَّ عَمْروٌ، قَالَ الأمر فيه إِلى مَا ذكَرنَا، وَبَقِي ضَمير المؤَنَّثَة المخاطبة، نحو: أَنت يَا هِنْدُ تَضْرِبْنَ.

والمُنْفَعِل اثنا عَشَرَ، نحو ما أَكرم إلاَّ أَنَا، وما أَكرم إِلاَّ نحْن، وما أَكْرم أَلاَّ أَنت، وما ضُرِبَ إِلاَّ أَنتَ، وما ضُرِبَ إِلاَّ أُنتما. وماضرب إِلاَّ أَنتم، وَمَا ضرب إِلاَّ أَنتنَّ، وما ضرب إِلاَّ هو، وَمَا ضرب إِلاَّ هي، وما ضرب إِلاَّ هما، وَمَاضرب إِلاَّ هُمْ، وما ضرب إِلاَّ هُنَّ.

تَنْبِيهٌ: قد يُفهم من قوة كَلاَم المصنف، أي صيغة فعل المفعول. مفرعة عن فعل الفاعل؛ وهو كذلكَ عند الجمهور. وقال المبرد والكوفيون؛ هو أَصْل، بدليل لزومه في أفعال لَمْ تنطق بها العرب إلاَّ مبْنية للمفعول، كَزْهي علينا، أي تكبر، وعُني بحاجتك، وجن وطل دَمُهُ، أي هُدر، ونفست المرأة، أي تنفَّس رحمها بالحيض والنفاس، واختاره ابن مالك، ولذلك قال في الألفية في باب التصريف: وزدْ نحو ضمن هـ. تَتِمَّتَانِ: الأولى: الأفعال ثلاثة، قِسْم لاَ يجوز بناؤه للمفعُول اتفاقاً، وهي الأفعالُ التي لاَ تتصرف؛ وهي نِعم وبيس، وعسَى، ولَيْس، وحبَّذَا. وفعل التعجب، وقلَّما وَطَالَمَا، ويَذَر، ويدع، وتبارك اللَّهُ.

وقسم فيه خلاف، وهي كَان وأَخواتها المتصرفة، وقسْم لا خِلاَف في جواز بنائِهِ للمفعول وهي ما بقي من الأفعال التي تتصرف، والخلاف الَّذي في كان وأَخواتها، ذكره ابن السراج فقال: وأَجَاز قوم في كَان زيْد قائماً. أنَّ كَان فعل غير حقيقي، وإِنما تدخل على المبتدأ والخَبَر فاعلها غير فاعل حقيقة، ومفعولها غير مفعول به على الصحة. فليس فيه مفعول يقوم مَقَامَ الفاعل هـ. قلت: وكذلكَ مَفْعُولاَ ظنَّ. فإِن أَصْلها المبتدأ والخبَر، وفيهما خلاف. قال في الألفية:

فـي بَـابِ ظَـنَّ وَأَرَى الـمَـنْـعُ اشْـتَـهَـرْ وَلاَ أَرَى مَـنْـعـاً إِذَا الْـقَـصْـدُ ظَـهَـرْ

وأَما باب كَسَى وَأَعْطَى، فيجوز بناء الأول اتفاقاً. تقول: كُسي زيد جبَّة. وكذلكَ الثاني، إِذا أَمِنَ اللَّبْس. والله تعالى أعلمُ. الثانية: إِذا فقد المفعول به، جاز إِقامة غَيْره، مِنْ ظَرْفٍ وجَارٌ ومجرور أَو مصدر، وشَرْط إِقامة الظرف، إِنْ يكون مُخْتَصًا فلا يُقال: سير وقت، ولا جلس مكان، ويقال: سير وقت صعب، وجلس مكان بعيد. وأَن يكون متصرفاً. بخلافِ نحو: سَحَرَ وعِنْد، وقبل وبعد، ودُون، وثمَّ، ممَّا لزم الظرفية. وشرط المصدر أن يكون مُتصرفاً. بخلاف نحو: سبحانَ الله. ومَعَاذ الله، وأَن لاَ يكون مؤكداً، بخلاف نحو قَامَ زَيْدٌ قياساً. وَشرط المجرور أَلاَّ يلزم حالة واحدة كَمُذ ومنذ، والكَاف، وربّ، وما خصَّ بِقَسَم واستثناء. وأَن لا يكون التعليل كاللاَّم والباءِ، ومِن إِذا دلَّتْ على التعليل. ذكره بَعْض النَّحْويين، وإِذا اجْتمعَت الثلاثة، فأَنت مخير في إِنابة ما شئت على المَشْهُور. والله تعالى أَعلمُ.

الإِشَارَةُ: المفعول الَّذي لَمْ يُسَمَّ فاعِلُهُ مَعَهُ. بل يصير عيْن الفاعل حقيقة، هو العَارف باللَّهِ، المتحقق بمقام الفَناءِ والبقاء؛ وهو النَّائب عَن الفاعل الحقيقي. في

تصريف أَحْكَامِهِ التكليفية، والتعريفية الجَلاَلية، والجمالية، وهو القطب الجامع، ويقال فيه الْغَوْث، وسُمّي قطباً، تشبيهاً له بقطبِ الرَّحَا؛ وهُو قَلْبُها الَّذي تَدُورُ عَلَيْه؛ وكذلك القطب، هو قطب الكَوْنِ. عليه يدور مِنْ عَرْشِهِ إلى فرْشِهِ، فينقبض بِقَبضِهِ، وَيَنْبَسِطُ بِبَسْطِهِ؛ وهو الَّذي يصل منه الْمَدَدُ الروحاني إلى دَوَائر الأولياء: مِنْ نَجِيبٍ وَنَقيب، وأَوْتاد وأَبدال إلاَّ الأفراد، فإنهم خارجون عن دائراتِهِ؛ وَلَهُ الإِقَامة، والأرث، والنيابة والخلافة الباطنة؛ وهو روح الكوْن الَّذي عليه مَدَارهُ. ما يشير إلى ذَلِكَ. كوْنه بمنزلة إنسَانِ الْعَيْن مِنَ الْعَيْن. وَلاَ يَعْرف ذلِكَ، إلاَّ مَن كَحل عيْن بصيرته بأثمد التوحيد الخاصّ، وكَان له قسْط ونصيب من سيّر البقاء باللّهِ. وأمَّا تسميته بالغوثِ؛ فمن حيْث إغاثَتُهُ للعوالم بِهِمَّته وَمَادَّته، وَرُتْبَته الخاصّة. فهذا يكون واحداً في الوجود، وله علامات يتميَّز بها. قال القطب الشهير، سيّدي أَبُو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: للقطب خمسة عَشَرَ علامات: فمن ادَّعاها أو شيئاً منها، فليبرز بمدد الرَّحْمَة والْعِصْمَة، والخلافة، والنيابة؛ ومَدَدِ حملة العرش العَظيم، ويُكْشف له عن حَقِيقة الذَّات، وإحاطة الصفات. ويكرم الحكم والفصل بيْن الوجوديْن، وانفصال الأول عن الأول. وما انْفصل عنه إلى منتهاهُ. وما ثبت فيه. وحُكْم ما قبل، وحُكْم ما بَعْد. وما لاَ قبل وَلاَ بَعْدُ، وعلم البَدْء،وهو العلم المحيط بكل معلوم. وما يعود إليه هـ. وقد بيَّنَّا مَعْنَاها، في كتابنا معراج التشوف إلى حقائق التصوف. وفي تفسير الفاتحة الكبير. وَلاَ يشترط في القطب معرفة معاني هذه الشروط، وإنما يشترط وجودها فيه بالذَّوقِ والكشفِ، بحيْث لو بيّن معنى كل واحد منها لوجدها فيه ذوقاً وكشفاً؛ لأَنَّ القطب قد يكون أُمياً في عِلم الظَّاهر، وفي معرفة معاني الألفاظ، لكنه متخلق بكل كَمَالٍ. والله تعالى أَعْلَمُ.

قَوْله: وهو الاسم المرفوع قدْرهُ. العظيم شَأْنه. لكوْنه خليفة الله في كَوْنِهِ يَعْني النَّائب عن الفَاعِلِ الحقيقي. وقوله: الذي لم يذكر مَعَه فاعِله، أي بل صار عيْن الفاعل الحقيقي، لغنائه في وجوده. وانطوائه في شهودِهِ. قد انطوَى وجوده في وجود فاعله. فانتقل من المفعولية إلى الفاعلية بل صار عيْن العَيْن، كما قال بعض المشارقة، في بَعْض أَزجالِهِ:

قَبلَ الْيَوْم كُنت مقيّداً بِقيُودِ البَيْن — مَحْجُوباً بِالْوهمْ نَحْسِب مُفْردي اثنيْن
فَلَمَّا تبدَّى جَمَالك زَال عَنّي الضَّيْن — شَهِدتْ عيْني بِعَيْنِي صِرْت عيْن الْعَيْن

وكُلُّ من تحقَّقَ بِمقامِ الفناءِ، يصير إلى هذا المعنى، فإِنْ كَان الفعل الذي

صدَر مِنهُ مَاضياً ضمّ أَوّلُه إلى آخره، وصَارَ وقتاً واحداً؛ وهو إسْقاط الهوى، ومحبّة المولى، وكُسر ما قبل آخره، أي تواضعٌ في آخر نهايَتِه، مع عظيم قَدْرِهِ، وكبْر شأْنِهِ. ليعمّ الانتفاع به، كما عمّ الانتفاع بمورثه ﷺ. وإن كَان الفِعْل الواقِع مِنْهُ مضارعاً، أي مُشابهاً لأفعال أهْل السلوكِ، بأَن تنزل إلى سماء الحقوق، أو أَرْض الحُظوظ، بالإِذنِ والتمكين، والرسوخ في اليقين ضمّ أَوله لآخره، وفتح لَهُ قَبْل آخر عمره في الترقي أَبَداً سَرْمداً، إلى مَا لاَ نهايَة لَهُ. قال تعالى لسيّد العارفين: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾. وهو على قسْمين: ظاهر وَمُضمر، ظَاهر «لِمَنْ سَبَقَتْ لهُ الْعِناية، ووجَبَتْ لَهُ الوِلاَيَة. ومُضمَرٌ، أي خَفِيّ عمّن سَبَقَ لَهُ الخِذْلان. وحظي بالخيبة والخسْران. فَالأولياء عرائس الرحمن، لاَ يعرفهم إلاَّ مَن أَكرمَهُ الكريم المَنَّان، فلا يعرف العرائِس المجرمون. فَلاَ يُوصل الله إليهم، إلاَّ من أَراد اللّهُ أَن يَوْصّلهُ إلَيْهِ. سُبْحَان مَنْ لَمْ يجعل الدَّليل على أَوْليائِهِ إلاَّ مِنْ حيث الدَّليل عليه، ولم يُوَصل إليهم، إلاَّ مَن أَراد أَن يُوَصّلَهُ إلَيْهِ. وَلِلَّهِ درّ القائل، حيْث يقول:

وَمَن نَفَى الخصُوص في زمانِهِ	فذاكَ مكر زيد في خِذْلاَنِهِ
يَخفيهم عن خَلقِهِ فِي خَلْقه	وَذَاكَ فاعْلَمْ من عظيم لطْفِهِ
لأنّهُمْ عرائس الرحْمن	يَحجبهم عن كلّ ذي خِذْلاَنِ
وَلَمْ يُوصّلْ لولي سَاعتِهِ	إلا الّذي أَهّلهُ لحضرته
إنْ لَمْ تُلاَقِ عارضاً فِي مُدّتكْ	لاَ عَاشَ عُمَر عيْشة كَعيشتكْ

والظّاهر هو الّذي يَظهر عليه خَوَارِق وكرامات، والخفيّ من لم يظهر عليه ذلك، وبالله التوفيق.

بَابُ الْمُبْتَدإِ والخبر: المبْتدأ اسم مَفعُول، حُذف متعلّقه بكسْر اللاَّم أي المبتدأ بِهِ؛ لأنه ابتدىء به الكَلام، والخَبَر اسم من باب تسْمية الجُزْءِ باسْم الكُلّ؛ لأنه لاَ يتمّ الخَبَر إلاّ بِانْضِمامِهِ للمبتدإ. وخصّ اسم الخَبَر؛ لأنه كَمَال مَا أريد أن يخبر به المتكلم. وعَرَّفه المُصَنِّف بقوله: (ص) هو الاسْم (ش) الصريح، كقولك: اللّهُ ربُّنَا. وسيّدنا محمد نبيُّنَا. قصداً للتعظيم، أو إخْبار المشرك أو المؤوّل، نحو: «أَنْ تَصُومُوا خيْرٌ لَكُمْ» أي صَوْمكم خير لكُمْ. نَزَلَتِ الآيَة في أَوّل الإِسلام، حين كَانَ الناس مخَيّرينَ بيْن الصوم والإطعام. ثم نُسِخ بقوله: «فَمَنْ شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْر فَلْيَصُمْهُ». أي فَمَنْ حَضَرَ مِنكُمْ في الشَّهْرِ، ولم يكُن مُسَافراً فليَصُمْ. (ص) المرْفوع (ش) تقدم البَحْث فيه والجواب. (ص) العاري عن الْعوامل اللفظية (ش)

غَيْر الزَّائدة. زَادَ في المحاذي: مخبر عنه، أَو واصف رافع لمكتفي بِهِ. فَخَرَجَ بقوله: العاري عن الْعَوَامِل، اسم كَان، وإنّ وظنّ، وَلاَ المجازية. وقوله: غَيْر الزَّائدة. وأَما الزَّائدة فتدخل عليه، نحو بحسبك درهم، فَحَسْبُكَ مبْتدأ، ودرهم خَبَر. والعامل للزّيادة، لا عِبْرة بِهِ. وقيل: بحسبك خَبَر مقدَّم، ودرهم مبتدأ مؤخّرٌ. واختاره الكافيجي؛ قال: لأنه محطّ الفائدة؛ لأنَّ القصد الإِخبار عن الدّرهم؛ لأنه كَافيه. ودَخَل في العامل الزَّائد، نحو: رُبَّ رجل صالح لقيته، فَرَجُل مبتدأ، وَلاَ أَثر لرُبَّ، لأنها في حكم الزَّائد، إذ لاَ تتعلق بشيءٍ، وفي قوله: العاري عن العوامل الخ. إشارة إلى أن عامل المبتدأ معنوي؛ وهو الإبتداء، وهو الصحيح والإبتداء هو التجرّد عن العوامِل، أي كَوْن المبتدأ معرى عنها. وقوله مخبراً عنْهُ، نحو: زيْد عالم، أَو وصف رافع لمكتفى به، نحو: أَقائم الزَّيدانِ، أَمضروب العمران. وقول الشاعر:

خَليليّ مَا وافٍ بِعَهْدِيَ أَنْتُمَا إِذَا لَمْ تكونا لي على مَن أُقاطعُ

فقائم مبْتدأ، والزَّيدانِ فاعِل أَغْنى عَنِ الخَبَر، وكذلك ما واف مبتدأ، وأَنتما فاعل أَغنى عن الخبَر، وَلاَ بد أَنْ يعتمد هذا الوصف على نفي أَو استفهام، فإنْ لَمْ يَعْمَد تعيَّنَ أَن يكون الوصف خبراً مقدماً. والاسم مبتدأ مؤخّرٌ وَلاَ بد أَيْضاً أَن يكون الوصف مفرداً والمكتفي به تثنية أَو جمعاً، فإن كَانا مُفردَيْن معاً جَازَ الوجهانِ، نحو أَراغب عن آلهتي، فيجوز في رَاغب أَن يكون مبْتدأ، وأَنت فاعل أَغنى عن الخَبَر. وأَن يكون خبراً مقدماً، وأَنت مبتدأ مؤخر، وإن اسْتويا في التثنية والجمع، تَعَيَّن أَنْ يكون الوصف خبراً وما بعده مبتدأ، نحو: أَقائمانِ الزَّيدانِ، أَو أَقائمون الزَّيدونَ، فتحصَّل أَن المبتدأ قسْمان، مسْند إليه، وهو الَّذي له خَبَرٌ ومسْند؛ وهو الرافع لمَا أَغنى عن الخَبَر، ثم عَرَّفَ الخَبَر بقوله: (ص) والخَبَرُ (ش) هو الاسْمُ أي الجملةُ على ما يَأتي. (ص) الْمَرفُوعُ (ش) تقدم ما فيه. (ص) المُسْنَد إِلَيْه. (ش) أي إلى المبتدأ فالخَبَر مُسْنَد، والمبتدأ أَسْند إليه، ولو قال: والخَبَر هو الجزء الذي حَصَلَت بِهِ الفائدة لكَان أَحْسَن وأَبْيَن. والرَّافع للخَبَر هو المبتدأ عند الجمهور. قال في الألفية:

وَرَفَعُوا مُبْتَدأ بالابْتِدا كَذاكَ رَفْعُ خَبَر بِالْمُبْتَدَا

قال ابن مالك: وهَذا هو الصحيح، لسلامته، لما يَرِد عليه من موارد الصحة، وبحث فيه بأَنه يلْزَم عليه رفع معمولَيْن بعَاملٍ واحدٍ من غَيْر تبعيَة. في

نحو أقائم أبُوهُ منطلق. وبأَن معمول الاسم الجامد لاَ يتقدّم عليه. وبأَنَّ المبتدأ يكون ضميراً. والضَّميرُ لاَ يَعْمَلُ وأجِيب عَن الأول، بأَن جهة طلبه للفاعل، غيْر جهَة طلبه للخَبَر. وإذا اختلفَت الجهة زال المنع، وعن الآخرينَ بأَن عمل المبتدأ بالأقالة لاَ بالشبهة بالفعل. وما ذكره إنما يؤثر فيما يعمل بالشبهة أُنظر السوداني (ص) نحو قولك زيد قائم، والزيْدانِ قائمان، والزَّيدون قائمونَ (ش) والزَّيود قيامٌ، وهِنْد قائمة، والهنْدانِ قائمتانِ، والهِنْدات قائماتٌ، فَلاَ بُدَّ من مُطَابقة الخَبَر للمبْتدإِ في الإِفراد والتثنية والجمع، والتذكير والتَّأْنيث، وتقدم الجواب عن قوله: المعربات قسْمَانِ. وأما قوله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ فالأصل فيه الحج في أَشْهُر. وسيأتي الكَلام عليه في الإِخبار بالظرف. وقد يتحد المبتدأ والخبر في اللفظ. وإذا قصد التعظيم والمبالغة، نحو قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾. وقول الشاعر: أَنَا أَبُو النَّجم وشعري شعري. (ص) والمبتدأ قسمان: ظاهر وَمُضمَر، فالظَّاهر ما تقدم ذِكرهُ. والمضمر (ش) أي المنفصل. (ص) خمْسَة للغائب، وسَبْعة للحاضِر، اثنانِ للمتكلم، وخمسة للمُخَاطبِ. (ص) وهي أَنَا (ش) للمتكلم وحده، مذكراً كَان أَوْ مؤنثاً. ومَذْهب البصريينَ، أَنَّ الضمير: الهمزة والنون دون الألف، فإنه زائدٌ. وحُرِّك فرقاً بَيْنَه وبين أَن المصدرية (ومذهب الكوفيين. واختاره ابن مالِك أَنَّ المجموع هو الضَّمِير. (ص) ونحن (ش) للمتكلم المعظم نفسه. أَو معه غيره. حرك لالتقاءِ السَّاكِنيْنِ. وكَانت ضمّة، لأنه لما تضَمَّن معنى الجمع أُعْطِي أَقوى الحركات، قاله المبَرِّد، بفتح الراء المشددة وأصله المبرّد بكسْرها؛ لأنه كَان يبرّد العلومَ. ففتحوا رَاءَه حَسَداً (ص) وأَنْتَ (ش) بفتح التاءِ للمخاطبِ المُذَكّر. (ص) وأَنْتِ (ش) بكسرها للمؤنثة المخاطبة (ص): وأَنتما (ش) للتثنية مطلقاً (ص) وأَنْتُمْ (ش) للمخاطبين المُذَكَّرينَ. (ص) وأَنتنَّ (ش) لجَمْع النِّسوة. والأصل في الجميع، أَنَّ الضمير الهمزة والنون فقط، والتاء حَرْف خطاب. وقال الفَرَّاء: الضمير المجموع. وقال ابن كيسَان: الضمير التاء فقط. (ص) وَهُوَ (ش) للغائب المذكر. والأصحّ أَن الضمير المجموع، وقالت الكوفية، التاء فقط، والواو إشباع، ويصحّ تشديدهُ. وهي لغَة همدان كما في التسهيل. (ص) وهيَ (ش) للغائبة. والخلاف فيها، كالخلافِ في هو. وقد تشدد الياء كَهو. (ص) وهُمَا (ش) للغائبيْن مطلقاً. (ص) وهُمْ (ش) للغائبينَ المذكَّرينَ. (ص) وهُنَّ (ش) للغائبات المؤنثات. والضمير فيها عند البَصْريينَ الهاء؛ وعند الفارسي المجموع. (ص) نحو قولك: أَنا قائمٌ، ونحن قائمونَ، وَمَا أَشبَه ذَلِكَ. (ش) نحو أَنتَ قائم، وأَنت

قائمة، وأَنتما قائمانِ؛ وقائمتانِ، وهم قائمون، وهُنَّ قائِمَات. (ص) والخَبَر (ش) من حيْث هو (ص) قسْمان، مُفرد وغَيْر مُفرد. (ش) والمراد بالمفرد هنا: ما ليس جملة، وَلاَ شبيهاً بالجُملةِ، فيدخل في المفردِ هُنَا التثنية والجمع بأَنواعِه؛ وهو قسْمان جامدٌ فلا يتحمل ضَميراً، نحو زيْد أَبوكَ. وَمُشتق؛ وهو الذي يحْتمل الضمير، نحو زيْد عَالِم. وقَدْ يرفع ظَاهراً ملتبساً بضمير يعود على المبْتدإ. نحو زيْد عالم أَبُوهُ (ص) فالمُفرَد، نحو زيْد قائمٌ. (ش) فقائم خبَر مشتقٌ، يتحصل ضمير المبْتدأ، وهَلْ لضرورة الاشتقاق أَوْ لِلرَّبطِ قَوْلانِ، الأول للمُحققينَ، وقاله أَبُو البقاء ويشهده إِنه نفس المبتدأ في المعْنَى، وإِنما الرَّبط بَيْن المتغايرينَ. وهذه المسْأَلة مما فاتت التسهيل، وجمع الجوامع، قالَهُ السّوداني رحمه الله، ثم قال: فإِن قلت زيْد قائم هُو. فَعَن سيبويْه، فيه وجْهَان، كوْنه فاعلاً بِقَائِم، أَو توكيداً للضمير المسْتتر في قائم. نقله ابن عُقَيْل في شرْح الألفية. (ص) وغيْرُ المفرد أَرْبَعَة أَشياء. المجرور والظرف. (ش) التامَّانِ؛ وهما اللذانِ يُفْهم معْنَاهما بمجرد ذِكرهما. فلا يجوز زيد فيه، وَلاَ زيْد أَمْسِ، ويتعلقانِ بالإِستقرار المحذوف، أَو الكوْن. وهو الخبَر عند المحققينَ، ولا بدّ أَن يكون كوناً مطلقاً. فلا يجوز في نحو زيْد في الدَّار، أَن يقدَّر ضاحك أَو نائم. ونحو ذلكَ. وإِنما يُقَدَّر مَا يدلّ على مطلق الثبات والحصول وتَجُوز أَن يقدَّر اسماً أَو فِعْلاً؛ وهل الراجح الاسم؛ لأنَّ الأصل في الخَبَر الإِفراد. ولتعيينه في بعْض المواضع، نحو: إِمَّا عندك فزيد، إِذ لاَ يفصل بيْن أَمَّا والفاء بجملة تامَّة. وخرجت فإِذا عندك زيد؛ لأن إِذا الفجائية لاَ تدخل على الفِعْل، ورجَحَ ابن الحَاجب تبعاً للزَّمخشري والفارسي الفعل؛ لأنه أَصْل في العملِ، ولتعيْنه في الصّلة. (ص) والفعل مع فاعلهِ. والمبتدأ مع خَبَرهِ (ش) ويسمَّى الفعل مع فاعلِهِ، جملة فعلية، والمبتدأ مع خبر، جملة إِسْمية، ثم إِن بينت من مبتدأ وَخَبَر فصغرى، وإِن كَان خبرها جُمْلة فَكُبْرَى، والكُبْرَى إِذا كان صَدْرها اسْماً، وعجزها فعْلاً، تسَمَّى ذات وجهيْن، نحو زيد قائم أَبُوهُ. ثم مثل للجار والظرف فقال. (ص) نحو زيد في الدَّار (ش) هذا مثال للمجرور، أَي حاصل أَو كَائن في الدَّار، أَو حصل لَوْ كَانَ في الدَّارِ. (ص) وزيد عندكَ (ش) وهذا مثال للظرف، وَلاَ فَرْق بيْن ظرف الزمان والمكَان، نحو: السفر يوم الجمعة. وزيد أَمامك، وَلاَ يكون اسْم زمانٍ خبراً عنِ اسم عيْن، فلا تقول زيد أَمْسِ وَلاَ زيد اليوم لعدم الفائدة. ويكون اسم الزَّمان خبراً عن المعْنَى، نحو: الصيام غداً، أَو السَّفَر يوم الجمعة، ثم إِنْ وقَعِ في جميعه أَو أَكثرِهِ. وكان نكره، رفع غالباً، نحو

السفر يوم، أَو السَّفر شهر، إذا كان السَّفر في أكثرِهِ، لأنه لاسْتغراقه إِيَّاه، صَارَ كأَنه هو، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ لوقوع الحجّ في أكثرها، وَلاَ يمتنع نَصْبُه وَلاَ جرهُ خلافاً للكُوفيينَ. وإِن كَان الزَّمان معرفة، نحو الصيام يوم الجمعة لم يكن إِلاَّ الرفع غالباً، كما في الأول عند البصريينَ. فإِن وقع الفعل لا في أكثر الزمان، سواء كان الزَّمان معرفاً أَو منكَّراً، فالأغلب نصْبه أَو جرهُ يعني اتفاقاً بيْن الفريقيْن. نحو: الخروج يوماً أَو في يوم، والسفر يوم الجمعة، أَو في يوم الجمعَة، ويجوز رفعه قال في التسهيل: وربما رفع خبر الزَّمان الموقع في بعضه، ويفعل ذلكَ في المكَان المتصرف، بعد اسم عيْن، رَاجحاً إِن كَان المكاني نكرة، وَمَرْجُوحاً إِن كَان معرفة. أُنظر بقِيته فيه، ثم مثَّلَ للجملة فقال. (ص) وزَيْد قام أَبُوه (ش) وهو مثال للفعل مع فَاعِلٍ. (ص) وَزَيْد جاريته ذاهبَة (ش) وهو مثال للمبتدأ مع خبره، فجملة قام أَبُوه خبَر. وهي جُمْلة صغرى بانْضمامها إِلى المبتدأ، تكون كبرى ذات وجْهَيْن، وجاريته ذاهبة، خَبَر عن زيْد جملة صغرى ومع المبتدأ جملة كبْرى، ذَات وجه واحدٍ، وَلاَ بدّ للجملة الواقعة خبراً من رابطٍ يربطها مع المبتدأ، كَانت اسمية أَو فعلية، يكون ضميراً؛ وهو الأَصْل، كالهاء في زيد قام أَبُوهُ. ويغني عنه اسم الإِشارة، كقوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾. فيمَن رَفَعَ أَو تكرير المبتدأ بلَفظه، كقوله تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ أَو معْنَاها، نحو زيْد جَاءَنِي، أَبو عبد اللّهِ إِذا كَان أَبُو عبد الله كنْية لهُ. قالَه الأخفش، مستدلاً بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾. أَو عموم يدْخل تحته المبتدأ. نحو زيد نِعْم الرجل. وهذا ما لَمْ يَكُن الجملة هي نفس المبتدأ في المعنَى. وإِلا فلا تحتاج إِلى رابط. نحو: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾. وقول القائل هجيراً أبي بكر لا إله إِلاَّ الله. أي ديدنه وَشغله هُوَ هذه الكلمة.

تَنْبِيهٌ تَتَعدد المبتدئيات إِلى عشرة فأَكثر، ويخبر عنها بخبَر واحدٍ، نحوَ زيْد أَبُوه أخوه خاله ابْنه ابنتهُ، ضمرها جاره جَاريته. سيدها صديقه قائم. فقائم خبر عما قَبْله؛ وهو مَع خَبَره، خَبَر عما قَبْله، وهكذا إِلى الأول، وَلاَ بد في كل جُمْلة من رابطٍ كَالمثال المذكور. فإِن قلت: أي فائدة في تعدد المبتدأ في قولك، زيْد أَبُوه منطلق، وهلاَّ قلت: أَبو زيد منطلق، فيكون أَخصّ. فالجواب: إِنَّ ذكر الشيء مَرَّتيْن أَوْكَد من ذِكره مرَّة. وأَيْضاً: قد وقع الإِلباس في قولك: أبو زيد منطلق. فلا يُدْرى هل أَبوه النسب أَو الكنية، وأَيْضاً في جعل زَيْد وشبهه مبتدأ، عناية وَاهْتمام بشأْنِهِ بخلافِ ما إِذا كَان حشواً مضافاً. وبهذه المسأَلة استدلّت الصوفية، على أَنَّ

الفقير الصابر، أَعظم من الغني الشاكر. وذلكَ أَنَّ سيدنا سليمان عليه السلام ذُكِر مضافاً لأبيه، ومنخرطاً في سِلْكِهِ، ممتنًا به عليه. وَلَمْ يُذْكر مستقلاً بنفسِهِ، وكَان من الأغنياء الشاكرينَ، بخلاف سيدنا أَيوب عليه السلام، فإِنْ ذكر له ترجمة مستقلة فقال: «واذْكُرْ عبْدنَا أَيُّوبَ». فتأمَّلهُ. ذكر ذلِكَ صاحب القوت. فائدة: الأصل في المبتدأ أن يكون معرفة. والأصل في الخَبر أَن يكون نكرة، فإن قلت: ما الفرْق بيْن المبتدأ أو الفاعل، حتى جوزُوا تنكير الفاعل، من غيْر مسوّغ دون المبتدأ. فأَجازوا جاء رَجُل، ولم يجيزوا رجل جاءَ، وَكِلاَهُمَا مُسْندٌ إِليهما في المعْنَى. فالجواب، إِنَّ العرب من شأنها أَن تتأنق في أَولِ الكَلام، ليقَعَ الإِصْغاء إليه. فإذا كَان أَوَّل الكَلاَمَ مجهولاً ولم تلتفت إِلَيْه، ولم تتشوق إِلى تمامه. والنكرة مجهولةٌ، بِخلاف الفِعْل، فإنه يدل على وُقوع شيءٍ، فتتشوق إلى فاعله، فيقع الإِصْغاء إلى ذلك الكَلام، والله تعالى أعلم. وقد تكلَّم النَّاس في مسوغات الإبتداء بِالنكرة، فمنهم المُقلّل، ومنهم المُكثِّر. ولم يشترط سيبَوَيْه إلا حُصُوله أَو ينكران، بشرط الفائدة، وحصولها غالباً عند تنكير المبتدأ بأَن يكون وصْفاً أَو موصُوفاً، ظاهراً ومقدراً، أَو عاملاً أَو معطوفاً عليه، أَو مقصوداً بِهِ العموم أَو الإِبْهَام، أَو ما في الاستفهام، أَو نفي لوْلاَ. أَو واو الحال أَو فاء الجزَاء، أَو ظرف مختصّ، أَو لا حق بِهِ، أَو ما يكون دعاءً أَو جَوَاباً، أَو واجب التَّصْدير، أَو مقدّراً إِيجابهُ بعد نَفْي هـ.

ومن المصوغات، أَن يدلّ المبتدأ على خرق العادة، كقولك: ذيب تكلَّمَ، أَو بَقَرَة تكلمَتْ. تَنْبِيه: يَجُوزِ حذف ما علم من مبتدأ أَو خَبَر، أَو هُمَا معاً. فَمِن حذف المبتدأ. قوله تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ﴾ أي فعَمَله لنفْسِه، ومن أَسَاء، فإِساءته عليْها، ومنه قوله تعالى: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ﴾. أيْ فأَمْري صَبْر جميل. ويجوز أَنْ يكون مِنْ حَذْفِ الخَبَرِ، أي فَصَبْر جميل أَمْثَل، ومن حذف الخَبَرِ، خرجت فإِذا زَيْد، أي حاضِرٌ. وقد يجب حذْفهُ إِذا وقَعَ بعد لوْلاَ الإمتناعية. إِذا علق الإمتناع على نفس المبتدأ، نحو: لولا زيْد لأكْرَمتك، أي موجود، وَمِنْ حَذْفِهما معاً، إِذا دَلَّ عليه دليلٌ، نحو قوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ۚ﴾ أَيْ فَعِدَّتهنَّ ثلاثة أَشْهُر، ومن حذفهما مفترقيْن، قوله تعالى: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾. أي عليكم سلامٌ، أَنتم قوم منكرُون فرع، قال في التسهيل، وقد يكون للمبتدأ خبران فصاعداً بعطفٍ وبغَيْر عطفٍ. وليْس من ذلكَ ما تتعدد لفظاً دون معْنًى. وَلاَ ما تعدد بِتعدّد صاحبِهِ. حقيقة أَوْ حكْماً والله تعالى أَعْلَمُ.

الإِشَارَةُ: المبتدأ به والمنتهى إليه هو الحق جَلَّ جلاله. قال تعالى: ﴿ٱلْأَوَّلُ

وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾. والمبْتدأ: إشارة إلى الذَّاتِ العَلية الأزلية، في حال الكنزية قبل التجلي. والخَبَر إشارة إلى حال الذَّاتِ بَعْد التجلّي؛ لأنَّ ما وقع به التجلّي من الفروع الكَوْنية، أسماء لمسميات متعددة لفظاً. متحدة مغنّى. وهي مُسْنَدَة إلى ما وقع به الإبتداءِ: وهو الذَّات العلية الأزلية؛ لِإنَّهَا فرْع عَنهَا ومن تجلٍ من تجلياتها، قال صاحب العَيْنية:

تجلّى حبيبي في مرآة جَمَالِهِ ففي كل مَرْءَى لِلحبيب طلائعُ

فَلَمَّا تبدَّى حسْنُهُ متنوّعاً، تَسَمَّى بِأَسماءِ فَهِيَ مَطَالِعُ. وفي الحديث القدسي «كُنتُ كَنزاً لَمْ أُعْرَفْ. فأَحْبَبْت أَنْ أُعْرَف. فخلَقْت خلقاً فتعرفت لهم. فبِيَ عَرَفُونِي». أي فأظْهرت من سري الكنز خلقاً. وجعلت فيهم عَقْلاً. فتعرفت لَهُمْ، فعرفُوني بِي لاَ بِغَيْرِي، إِذ لاَ شَيْءَ مَعِي. فالمبتدأ هو الاسم المرفوع الْقدر، العظيم الشأن العاري عن العوامل، أي المنزَّه عن التأثر والإنفعال، الَّذي هو الواجب الوجود، السابق غير مسْبُوق. والعامل غير معمول هو المؤثر في الأشياء كلها بقدرته وإرادتِهِ. وقهريته وإحاطته. تعالَى جدّه. وتعاظم شأنهُ: أن يلحقه نقص، أو يحتاج إِلَى شيْء، بل هو الْغَنيّ عما سواهُ، المفتقر إليه كل ما عداهُ. (يا أَيها النَّاس أَنتم الفقراء إلى الله، واللَّهُ هو الغني الحَميد)، والخبر: هو الاسم المتحد بالذَّاتِ وإِن تعدَّدَت أَسماؤه؛ وهو ما وقع به التجلّي من الفروع الكَوْنية، والتجليات الجمالية والجلالية، المرفوع، أي المرفُوعَة القدر، من حيْث أَنّها سِرّ من أَسرار الذَّاتِ، ونور من نورهَا، وإِن وقَع في الظَّاهر نَقص في بَعْض أَنْوَاعها. فَمِنْ جهَة الباطن عيْن الكَمَالِ، وفي ذلكَ يقول الجَيْلاني رضي الله عَنْهُ:

وكل قبيح إِن نسبت لحسنه أَتتك معانِي الحسن فيه تسارع

يكَمل نقصان القبيح جمالهُ فَمَا ثَمَّ نقصان وَلاَ ثَمَّ بَاشِعُ

المسند إليه فِعلاً وإِيجاداً، واختراعاً وتجلياً، والمبْتدأ قسمان، ظَاهِرٌ عنْد العارفين، بظهور تجلياته، فلا يرَوْن معه غيره كما قال شَاعرهم:

فَلَمْ يَبْقَ إِلاَّ اللَّهُ لم يبق كَائن فَمَا ثَمَّ مَوْصُول وَلاَ ثَمَّ بَائِنُ

بِذَا جَاء بُرْهان العِيَانِ فَمَا أَرَى بِعَيْنِي إِلاَّ عَيْنَهُ إِذْ أُعَايِنُ

ومُضْمِرٌ، أَيْ خَفِيٌّ عند الغَافلينَ. يسْتدلُّونَ بالأَشياء عليه، وفي الحِكَم: شَتَّانَ بيْن مَنْ يَسْتَدِلُّ بِهِ أَوْ يستدل عليه المستدل به عرف الحق لأهله، وأثبت الأمر

من وجود أَصْلِهِ. والاستدلال عليه، من عَدَم الوصول إليه هـ. والخَبَر الذي ظَهَر للعيان، من عَالَم الغَيْبِ إلى عالم الشهادة، قسْمان أَيْضاً. مفرد وهو ما ليْسَت له مادَّة محصورة، كالملائكة والجنّ. وغير مُفْرَدٍ؛ وهو مالَهُ مَادَّة محصورة؛ وهو المركَّبُ من جِسْمٍ ولَحْمٍ وَدَم، أَوْ من جَوَاهر حسيَّة، والكلُّ منه وإليه، وبالله التوفيق.

بَابُ العَوَامِلِ الدَّاخلَةِ على المبْتدإِ وَالْخَبَرَ؛ وَتسَمَّى النَّوَاسِخ؛ لأنها نسَخَتْ حكم الإبتداءِ؛ العامل في الخَبَر، وصار العمل لَهَا؛ وهي شيآنِ: أفعال وحروف، فَالأفعال كَان وأَخواتها، وظننت وأَخوَاتها، والحروف انَّ وأَخواتها، وَلاَ وَلاَت وأَن المشبهات بليْس. (ص) وهي ثلاثة أشياء. (ش) ما يرفع المبتدأ، وَ ينصب الخَبَر. وهي: (ص) كَانَ وأَخواتها (ش). وما يَنصب المبتدأ ويرفع الخَبَر؛ وهي: (ص) إنَّ وأَخَوَاتها (ش) وما ينصب الجزئيْن؛ وهي: (ص) ظَنَنْت وأَخواتها (ش) ثم بيَّن عملها فَقَال: (ص) فَأَمَّا كَان وأَخَوَاتها، فإنَّهَا ترفع الاسْمَ. (ش) رفعاً جديداً عند البصريينَ. وقال الكُوفيُّونَ، هو مَرْفوع بِما كَانَ مَرْفوعاً به قبل دُخُولهَا. وَرَد باتصال الضمير به في كنتهُ، وَلاَ يتصل إلاَّ بِالأفعال. (ص) وتنصب الخبَر (ش) اتفاقاً، لكن انتصَب عند البصريينَ على أنه خَبَر لَهَا. وعند الكوفيين على أنه حَالٌ. وقد يُسَمَّى اسمها فاعلاً مجازاً، وخبرها مفعولاً مجازاً. (ص) وهي كَان (ش) نحو كان اللّهُ غفوراً رحيماً. وهي لا تصاف المخبر عنه بالخَبَر في الماضي. إمَّا مَعَ الدَّوام، كالمثالِ. وإمَّا مَعَ الإنْقطاع، نحو: كَان الشيخ شاباً. وهي أم الْبابِ؛ لأَنَّ كل شيءٍ داخلٍ تحت الكَوْنِ، لاَ ينفكُّ شيْء عن معْناها، ومن ثم صرفوها تصرفاً تاماً على ما يأتي إن شاء الله. وحذفوا نونها، نحو: «وَلَمْ تكُ شيئاً» (ص) وأَمْسَى (ش) وهي لاتِّصاف المخبر عنهُ بالخَبَرِ في المساءِ، نحو أَمْسى زيد عالماً. (ص) وأَضحى (ش) وهي لاتصاف المخبَر عنه بالخَبَر في الضحى بنحو: أَضحى زَيْد ورعاً. (ص) وظَلّ (ش) وهي لاِتصاف المخبر عنه بالخَبَر في النهار، كقوله تعالى: ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾ (ص) وبات (ش) وهي لاتصاف المخبر عنه بالخَبَر في اللَّيْل، كقوله تعالى: ﴿يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾ (ص) وَصَار (ش) وهي للتحويلِ؛ والإنتقال. نحو صار الطين إبريقاً (ص) وليْسَ (ش) وهي لنفي الحالِ عند الإطلاق، والتجرد عن القرائنِ، كَقولِهِ تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَآءً﴾ (ص) وَمَا زال وما انفَكَّ وَمَا فَتِيءَ وَمَا بَرِحَ (ش) وهذه الأفعال تفيد مُلاَزمة المخبر عنه للخَبَر على حسَبِ ما يتقتضيه الحَال، نحو: ما زال الجُود محبوباً. وما انفكَّ عَمْرو جالساً.

وَمَا فتيءَ العلمُ نافعاً. وما برح الجهل مضرّاً (ص) وَمَا دَامَ (ش) وهيَ للإسْتِمْرار، نحو لاَ راحَة للعَبْدِ ما دَامَ مسْجوناً بمحيطاتِهِ، محصوراً في هيكَل ذَاتِه؛ وهذه الأفعال المذكورة، منها ما تَعْمَل بِلاَ شَرْطٍ؛ وهي ثمانية: كان ولَيْس وما بيْنهما. ومنها ما تَعمل بشرط تقدم نَفي أو شبهه؛ وهي زال وفتيءَ وانفكَّ. وبَرِحَ والمُرَاد بِشبه النَّفْي النَّهْي والدّعاء بلا خاصّة. مِثَالُهَا بَعْدَ النَّفْي: «وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلفينَ». «لَنْ نَبْرَح عليه عاكفين». ومنْهُ: «تالله تفتأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ». أَيْ لاَ تَفْتَأ. وقول الشّاعر:

غَيْر منفك أسير هوى ... كل من لهى وليْس يفتقر

وقال آخر:

ليْسَ ينفكّ ذَا غِنًى واعتزاز ... كل ذي عفة يقل قنوع

وقال آخر:

فلما بَرِح اللبيب إلى ما ... يورث المجد دَاعياً ومجيبا

ومثالها بعد النَّهي قول الآخر:

صَاحِ شَمِّره وَلاَ تزل ذاكر الموتِ ... فنسيانه ضلال مبينُ

ومثالها بعد الدّعاء:

أَلاَ يا سلمتي يا دار متى على البَلاَ ... وَلاَ زال مَنْهَلاً بجر عائك القطر

ومنها ما يعلم بشرطِ تَقَدُّم ما المَصْدَرية الظرفية، وهي دَامَ، نحو ما دمت حيّاً، أي أوصَانِي بالصّلاةِ والزكَاة مدَّة دوامي حيّاً، فإن لم يتقدّم عليها ما، أو كَانَتْ غيْر ظرفية، كَانَت تامَّة، نحو دام زيد صحيحاً، أو يعجبني ما دام زيد صحيحاً، أَيْ يعجبني دَوَامُه صحيحاً فما مصدرية، لكنها غَيْر ظرفية، فصحيحاً حال المثالَيْنِ. وقوله: (ص) وَمَا تعرف مِنهَا. (ش) يَعْني يعمل عملهَا كالمَصْدَر. واسْم الفاعل، واسم المفعول، ثم هي باعتبار التصرف وعدمه على ثلاثة أقسام، منها ما يتصرَّف تصرفاً تاماً؛ وهي سبْعة، كَان وصَارَ، وما بَيْنهُما. ومنها ما يتصرف تصرفاً ناقصاً. وهي زال وأَخوَاتها، فقد سمع لها المضارع، واسْم الفاعل، ومنها مَالاَ يتصرف؛ وهو ليس باتفاق. ودام عند الجمهور ثم مثل بقوله: (ص) نحو كَان ويكون وَكُنْ (ش) قال تعالى: «ولم أكـ بغياً». ﴿قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً﴾. وقال الشاعر:

وما كَان مَنْ يُبْدي البَشَاشَة كَائناً ... أَخاك إِذَا لَمْ تلفه لك منجدا

وقال آخر:

بِبَذلٍ وحِلْم ساد في قومه الفَتَى ... وكونه إيَّاهُ عليك يسيرُ

وفي الحديث عنه عليه الصلاة والسلامُ: «إنَّ هذا القرآن كَائن لكم أجْراً وكَائن لكم وزْراً». وقِسْ على هذا. (ص) تقول: كَان زَيْدٌ قائماً. وليس عمْرو شاخصاً. (ش) أيْ مسَافراً. (ص) وما أشبَه ذلِكَ (ش). وقد تسْتعمل هذه الأفعال تَامَّة، تَسْتغنِي بالفاعِل عن الخَبَر، كقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ أي حَضَرَ. ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ أي تدخلون في الصَّبَاح والمساء، ما دامت السماوات والأرض، أي وجدتها، إلاَّ لَيْسَ وَزَالَ وفتيءَ، فلا تسْتعمل إلاَّ ناقصة، ثم شَرَع في إنْ وأخواتها فقال: (ص) وأمَّا إنَّ وَأخوَاتها، فإنَّها تَنصِبُ الاسم وترفع الخَبَر (ش) أي رفعاً مجدداً؛ وهو مذهب البصريينَ، وقال الكُوفيّون لأنَ هو باق على رفعه السابق قبل دخُولها، وإنما عملتْ هذه الحروف، بالجملِ على الأفْعَال؛ لأنَّ أصْل الجُمَلِ، وإنما هو الأفعال دون الأسْماء والحروف. فإن وجد عامل للحروفِ أو الأسماء، فلشبهها بالأفعال في اللفظ، أو في المعْنَى؛ وهذه الحروف، لمَّا أشبهت الماضي في البناء على الفَتْحِ، وكَوْنها على ثلاثة أحرف، ودخول نون الوقاية عَلَيْهَا، وتضمنها معْنَى الأفْعَال، فَمَعْنَى: إنَّ وأنَّ حققتْ، وكَأنَّ شَبَّهَتْ، ولكن اسْتدركَت، وليت تمنيت، ولعلّ ترجيت عملت بالحمل عليْهَا، وهَذَا في عملِ النَّصْبِ والرَّفع. وأما الحروف التي تجرُّ فَعملها أصْلِي من غَيْر شبه. كما قاله ابن جنّي وغيرهُ. ثم عَدَّها فقال: (ص) وهي إنَّ (ش) بِكسْر الهمزة، وشدّ النُون. (ص) وَأنَّ (ش) بفَتح الهمزة والشَّدّ. والمكسورة هي الأصل. والمفتوحة فَرْعها؛ لأن الجملة مع المكْسُورة مسْتقلة بنفْسِهَا، غير مؤولة بِالمفردِ، والمستقبل أصْل المؤول، وقيل المفتوحة أصْل، وقيل: كلاهما أصْل (ص) وَكَأنَّ ولَكِنَّ (ش) بشد النُونِ. (ص) وليْت وَلَعَلَّ تقول: إن زيداً قائمٌ وليْت عَمْراً شاخصٌ. (ش) وكَأن زيداً أسَدٌ. «ولكن الله حبَّبَ إليكم الإيمان» «يَا ليتني كنت مَعَهُمْ» «ولعلكم تفلحون». وعمل هذه الحروف مقيد بما؛ إذا لَمْ تدخُلْ عليها ما الزَّائدة. فإنْ دَخَلَتْ عليها بطل عملها، لزوال اختصاصها بالأسماءِ نحو: «إنما الله إلَه وَاحِد». «كأنما يُسَاقون إلى المَوْتِ» إلاَّ ليْتَ فيجوز فيها الوجهانِ؛ العمل وعَدَمه. قال الشاعر:

ألاَ ليتما هذا الحمامُ لنَا ... إلى حمامتنا ونصفه فقد

وروي بنصب الحمام ورفعه، وقيل يجوز الإِعْمَالُ بقلة. فما الزائدة قد تبْطل الْعَمل كما هنا، وقد توجبه كما تقدم في حيثما وإِذ مَا وألْغز الجلال السيوطي فقال:

ألاَ أيُّها النحوي إن كنت بارعاً وأنت لأقول النحاة تفضّلُ

وأحْكمت أبْواب الأحاجِي بأسْرهَا ابن لي عن حرف يولي ويعزل

فإن قلت لم، أبطلتَ العمل في إنَّ وأخواتها. ولم تبطله في حروف الجرِّ. قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾. ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾. قلت: لأنَّ حروف الجَرّ عملها بالأصالة كما تقدَّمَ بخلاف إنَّ وأخواتها، فبالحَمل على الفعل كما قَدَّمْنَا، فَضَعُفَ أمْرُها. فأقل شيء يُبْطل عملهَا. (ص) فمعنى: إِنَّ وأَنَّ للتوكيد (ش) أي توكيد النِّسْبَة، ونَفْي الشكّ عَنْهَا، إذا كَان المخاطب متردداً. فإن كَان جاحِداً، زيد التوكيد بالقَسَمِ. والحاصل: أنَّ المخاطب إذا كَان خالي الذّهْن. أُلقي إليه الكَلام غير مؤكّد بشيءٍ. فإن كَان متردداً أُكّد لهُ الكَلام بإنَّ. وإنْ كَان منكِّراً له بأنَّ والقسم. كقوله تعالى في قصَّة رسُلِ عيسى: قالوا ﴿إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾. فألقوا إليهم الكَلام غير مؤكد باللاَّم. فلمَّا أنكروا وجحدوا قالوا ربُّنَا يَعْلَم إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ»، فربُّنَا يعلم بمنزلةَ القَسم. فالتوكيد لنفي الشّكّ مستحْسَن. ولنفي الإنكار واجبٌ. ولغيرهما لا وَلاَ. (ص) وكَأَنَّ للتشبيه. (ش) المؤكّد لتركيبه من كَاف التشبيه. وإن المفيدة للتوكيد، نحو: كَأَنَّ زيداً أسَدٌ، أو حمارٌ. مما الخبر فيه أرْفع من الاسْم أَو أخفض (ص) ولكن للاسْتدراك (ش) وهو تعقيب الكَلام بِرَفع ما يَتوهَّم ثبوتُهُ أَوْ نفيُهُ نحو زَيْد شجَاع لكنه بخيل؛ لأنَّ إثبات الشجاعة تُوهِمُ ثبوتَ السَّخَاء؛ لأنَّ من سخي بنفْسِهِ، فبِمَالِهِ أولَى فرفع بذلك الإيهام بالاسْتدراكِ. وتقول: زيْد بخيل لكنَّه شجاعٌ، لأن ثبوت البخل، يُوهِم نَفْي الشجاعَةَ فأثبته بالاستدراك. (ص) وليْتَ للتَّمَنِّي (ش) وهو مَا لاَ طمع فيه، أو ما فيه عسْر فالأول كقول الشيْخ: ليْت الشبابَ يعود يوماً. والثاني: كقول الفقير المنقطع الرجاء: ليت لي مَالاً فأحجّ بِهِ. (ص) ولعَلَّ للترجّي (ش) ويكون في المَحْبُوبِ، نحو: لعَلَّ الحبيبَ قادِمٌ (ص) والتَّوَقُّعِ. (ش) أي الانتظار. كقوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾. ويكون في المحبوبِ والمكروه غَيْر أَنَّ المحبُوبَ فيه الترجّي. والمكروه يقال فيه الإشفاق والتوقع. يصدق عليهما معاً فَلَو اقتصرَ عَلَى التوقع. أو قال الترجي والإشفاق لكَان أقرب. وفي لعَلّ لغات، تركنا ذكرها إذ ليْس فيها غرض،

نحو: وقال المؤلف: ومعنى: إنَّ وأَنَّ للتوكيد. الصواب إسقاط اللاَّم، فيقول: ومعنى إنَّ وأنَّ للتوكيد الخ تتمات: الأولى: إذا خففت إنّ المكسورة قل عملها كقوله تعالى: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ﴾ ومن إعْمَالِهَا قراءة نافع. «وإن كُلاً لَمَا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ ربّكَ أَعْمَالَهُمْ». وإذا أُهْمِلَتْ فالأكثر أن يليَها فعْل ناقص. ليبقَى أثرها في الجملة، كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾. ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَـٰسِقِينَ﴾، وإذا خُفِفَتِ المفتوحة لم تُهْمَلْ. ويكون اسمها ضمير شَأْنٍ ويفصل خبرها إنْ بُديء بِفعلٍ متصرف غير دعاءٍ بِقَدْ. «ونَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا» أو نَفي عَلِمَ أن لَنْ تحصوهُ. أَوْ تنفيس. نحو: «عَلِمَ أَن سيكون منكم مَرْضَى» أو لَوْ، نحو: «وَأن لَو استَقَامُوا على الطريقة». وإنما فصِّلتْ بهذه الأشياء. ليلاً تَلتبِسَ بأن المصدرية؛ لأنَّ المصدرية لاَ تدْخل على هذه الأشياء أبداً. وإذ خُفِّفتْ كَانَتْ أُعْملتْ محذوفة الاسْم. والجملة بعدهَا خَبَر. ويجوز إظهاره كقول الشاعر:

وَيَـوْمـاً تَـوافـيَـنَـا بـوجْـه مـقـسـم كـان ظبـيـة تـعـطـوا إلى ورقـة الـسـلـم

رُوي برفع ظبية ونصبها وجرها، على زيادة أن، أي كظبية. وتفصل بقدر إنْ بُدئتْ بماضٍ، نحو: كَان قد قام زيْد وبكم، إن بُدئتْ بِمضارع كقوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ وتخفف، فكن فَتُهْمَل، وتكون حَرْف عطف، نحو ما قَام زيدٌ لكن عمروٌ وعن يوسف والأخفش جواز إعمالها. الثانية: يجوز تقديم خبَرِ هذه الحروف على اسْمِهَا، إذا كان مجروراً وظرفاً. نحو: «إنَّ في ذَلِكَ لآيَاتٍ». ونحو: «إنَّ في ذَلِكَ لَعِبْرَةً» وَ«إنَّ لَدَيْنَا أنكَالاَ وَجَحيماً». وأما تقديم خبرها عليها فلا يجوز بخلاف كَان وأخواتها فيقدّم، ويتوسط. ويكون ذلك جائزاً أَوْ واجباً، إنْ كَان لهُ صَدْر الكَلام. نحو: كَيْفَ كَان بدْء الوحي إلى رسول الله ﷺ. الثالثة: يجوز حَذْف اسمها، إذا عُلِمَ. قال في التَّسْهيل: وَلاَ يَخْتَصّ حذف الاسم المفهوم معناه بالشعر. وقل ما يكون إلاَّ ضميراً لشأن عليه يُحْمَلُ: إِنَّ من أَشدّ النَّاس عذاباً يَوْم القيامة المصوّرون». أي إنه من أشد الخ. لاَ عَلَى زيادة خلافاً للكسائي. وإذا علم الخَبَر جاز حذفه مطلقاً، خلافاً لِمَن اشترط تنكير الاسْم. وقد يسدّ مصدره واو المصاحبة والحال، والتزم الحذف في لَيْت شعري، مردفاً بِاستفهام. ومن حذْف لخَبَر، قول الشاعر:

أَلاَ إِنَّ نـاسـاً مـن قـريـش تَـفَـضَّـلُـوا عـلى الـنَّـاسِ وابـن الـمـكـارم تـهـشـلا

أَيْ تفضَّلُوا على النَّاس، وقد تنصب الجزءيْن معاً، كقول القائل: إِنَّ حراسَنَا

أَسَداً، قال في التسهيل، ويجوز نصبُهَا بليْت عند الفراء. وبالخمسة عند بعض أصحابه. وما استشهد به محمول على الحال، أو على إضمار فعل؛ وهو أي الكسائي، ثم شرع في القسم الثالث فقال: (ص) وأما ظنَّ وأَخواتها فإنها تنصب الاسم والخَبَر، على أنهما مفعولاَنِ لَهَا. (ش) أي عند البصريينَ. وقال الكوفيّونَ الثاني حال. ونازع السهيلي في دخولها على المبتدأ والخَبر (ص) وهي (ش) قسْمان، فعل قَلْب، وفعل حاسّة الثاني. سمعت والأول ما سواها؛ وهي ثلاثة أقسام: قسْم يدل على اليقين. وقسْم يدلّ على الرجحان، وقسْم يدلُ على التحويل، فمِمَّا يدل على الرجحان (ص) ظَنَنْت (ش) نحو ظننْت زيداً صديقاً. وقد تدلّ على اليقين، كقوله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ إذ لاَ يكفي الظَّنّ في اعتقاد البَعْث، وإنما عبَّر الحق تعالى بِالظَّنِّ اغتفاراً للخواطر، ولطفاً بالضعفاء. قال الورتجبي: وإنما أَقام الظنَّ مقام اليقين؛ لأن في الظَّنّ طَرفاً من اليقين. وإنما ذكر الظنَّ إبقاء على المُذَبْذَبِين. وتوفراً على العاصينَ الذين ليْس لهم صفاء اليقين، ولو ذكر اليقين صرفاً لخرجوا من الجملة. (ص) وحسبْت (ش). نحو قول الشاعر:

حَسِبْت التقَى والْجُودَ خَيْرَ تجَارَةٍ ... إِذَا مَا الْمَرْءُ أَصْبح ثاقلاَ

(ص) وخِلْتُ (ش) كقول الشاعر:

ضعيف النكاية أعداؤه ... يخال الفرار يراضي الأجل

(ص) وَزعمت (ش) نحو:

زعمتني شيخاً ولست بشيخ ... إنما الشيخ من يدبّ دَبيبا

وَمِمَّا يدخلُ على اليقين (ص) رَأَيت (ش) كقول الشاعر:

رَأَيتُ اللَّهَ أَكبر كل شيءٍ ... محاولة وأكثرهم جنودَا

(ص) وعلمْت (ش)؛ وهي كرَأَيْت. قد تُفيدُ اليقين، كقوله تعالى: ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾. ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾. وقد تفيد الظنّ، كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ﴾ وَقَدْ تُفِيدُ الْعِرفَان، فتَتَعدّى إلى واحدٍ فقط. نحو قوله تعالى: ﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾. أي لاَ تعرِفُونَ. (ص) وَوَجَدتَ (ش) وقد تفيد اليقين، نحو قوله تعالى: ﴿وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾. وما يدلّ على التحويل (ص) اتخذتَ (ش) نحو: «واتخذ اللّهُ إبراهيم خليلاً». (ص) وجعلت (ش) نحو: «فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً». وذِكْر المُصنّف جَعَلْت إثر اتَّخذتَ، يَدُلُّ على

أنه أَرَاد التحويلية. وقد تكون كَاعتقادٍ، نحو: «وَجَعَلوا الْمَلاَئِكَةَ الَّذِينَ هم عِنْدَ الرَّحمٰنِ إِنَاثاً». وأَمَّا (ص) سَمِعْت (ش) فَعند الجُمْهور تتعدَّى إلى مفعول واحِدٍ، نحو: سَمِعْت النبيَّ ﷺ يَقُولُ. النبيَّ مفعول بِهِ. ويقول حَالٌ. وعند أبي عليٍّ تنصب المفعولَيْنِ، وعليه ذهبَ المُصَنِّف. فجملة يقول: مفعول ثان، وهذا الخِلاَف إنما هُوَ إذا دَخَلتْ على مَا لاَ يصحّ أَنْ يُسْمعَ. كسَمعت زيداً يتكلَّمُ. وأما إنْ دَخَلَتْ على ما يصحُّ أَنْ يُسْمَع، كسمعت كلام زيْد، فَلاَ تتعدّى إلاَّ لواحد فقط اتفاقاً، ثم مثَّل بقوله: (ص) نَحْو: ظَنَنْتُ زيداً منطلقاً. وخِلْت عَمْراً شَاخِصاً. ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ. (ش) قلت: بقي على المصنف، أفعال من أفعال القلوب، تتعدَّى إلى مفعولَيْن، منْهَا مَا تفيد اليقين. ومنْهَا مَا تفيد الرجحان. وقد نظمها بعْضهم فقال:

الــفـــى دراً كـــذا تـــعـــلـــم وجَـــدْ كـــلّ مـــفـــيـــد لـــلـــيـــقـــيـــن إن وَرَدْ

ولليقين غالباً رَأَى علمٌ وظَن وخل وحسب عكس عُلِمْ. أصار للتقصير صير واتخذ، جعل ردّ ووهب ثم اتخَذ.

وقد تتعدَّى رأى العَلمية إلى مفعولَيْن كَعَلِمَ، لكَوْنها مثلها، في كونها إدراكاً بالعلمي الباطِني، كقوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾ فالياء مفعول أوّل وأعصر في محلّ الثاني. وقول الشاعر:

أراهـــم رفـــقـــتـــي حـــتـــى إذا مـــا تـجـافـى الـلَّـيـلُ وانـخَـذَل انـخـذَالاَ

تَتْمِيمٌ: قَدْ تُلْغَى هذه الأفْعَالُ إذَا تقدَّمَ عليها معمولاَهَا أو توسطت. وَقَدْ تُعَلَّق إذا فَصَل بيْنَها وبيْن معمولها مَالَهُ صَدْر الكَلاَم، نحو: ظَنَنْت ما زيد قائم. أو ظننت زيداً ما هو قائم قال تعالى: ﴿وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ﴾. وقد تسد أَنَّ المفتوحة ما سدّ مفعوليهَا، نحو ظننت أنَّ زيداً عَالم. ومنْهُ: «يظنُّون أنَّهُمْ مُلاَقُوا رَبِّهِمْ». وقد يحذف المفعولاَن أو أحدهما للدليل، كقول الشاعر في شَأْنِ أَهْل البَيْت: بأيّ كتاب أو بِأَيِّ سُنَّةٍ تَرَى حُبَّهُم عاراً عليّ وتحْسبُ، أي وتحسب حبّهم عاراً عليَّ. قال في الألفية:

وَلاَ تُـــجِـــزْهُـــمَـــا بِـــلاَ دلـــيـــل سـقـوط مـفـعـولَـيْـن أو مَـفْـعُـول..

والله تعالى أعلم.

الإِشَارَةُ: نَوَاسِخ الابتداء، إشارة إلى نواسخ الأحكَام الذَّاتية؛ التي تتعلق بالذَّاتِ القديمة؛ التي هي مبتدأ الأشياء، ومنتهاهَا. ويكون النَّسْخ في الأحْكَام

الشرعية، ومعناه: ابتداء الحُكم إلى وقت معلوم ثم يستأنف حكماً آخر على سابق الإرادة. ويكون في شرائع المِلَل، وفي الشريعة الواحدة، ينسخ بعضها بَعْضاً، كما هو مُقرَّر في مَحَلِّه. ويكون في الأقضية البارزة، إلى عَالَم الشهادة، فيظهر اللَّهُ تعالى للمَلاَئكة أمُوراً يُعلقها على أسْباب وشروط، عَلِمَ أنَّها لاَ توجَد، فإذَا أرَاد المَلَكُ الموكل بذلكَ الفِعْل إبْرَازَهُ. أظهر الله خلاف ذلِكَ ليظهر اختصاصه تعالى بالعلم الحقيقي الَّذي لاَ يتبدَّلُ وَلاَ يَتَغَيَّرُ؛ هُو أمّ الكتابِ. فيقع النَّسْخ بهذا المعنَى بالسعادة، والشقاوة، والأعمار، وغيرها من القضايا، التي تبرز عند الحق تعالى. ولذلكَ كَان سيّدُنَا عُمَر وابْن مسعود يقولاَنِ، اللهمّ إن كنت كتَبْتني مِنْ أهْلِ الشقاءِ فامحيني واكْتبني من أهْل السعادة. وأمّا العلم الأصْلِي الّذي هو الأمُّ، فلا يتبَدَّل وَلا يتغَيَّرُ. وَلاَ يصح أنْ يُنْسَخَ في الأخبار؛ لأنه يلزم عليه الكَذب. ويقع النسْخ أيْضاً في وارداتِ القلوبِ الصافية. فيتجلى في طلبِ الولي أمْر، فيخبرُ بِهِ، ثم ينسخه الله تعالى، ويُظهر خلافهُ وَلاَ يَقْدَح ذلكَ في وِلاَيته. وقد يشار هنا بالنَّسْخ إلى تلوين الخمرة الأزلية، بالفروع التكوينية.

ويشيرُ إلى كَانَ اللَّهُ وَلاَ شيْء مَعَهُ حيْث لاَ شكْل وَلاَ رَسْم، وأمْسَى وأصبح وأضْحَى إلى تلوينها بمرور الفلك، بالصباح والمساءَ والضُّحَىء، وَبِظَلّ وبَاتَ إلى تولينها بِمرُور الليل والنَّهَار وَيصار إلى تحويلها بالظهور والبطونِ، وبليْس إلى تنزيهها، كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ وبِمَا زَالَ وأخَوَاتها إلى أنَّه تعالى؛ مَا لاَ زَالَ وَلاَ يَزَال وَلاَ يَحُول عمَّا كَان عليه. فالتغييرُ عليه تعالى مُحَالٌ. وبِدَام إلى دَوَام رُبُوبيته أزَلاً وَأبَداً. ومن شَأْنِ هَذِهِ الأفْعَال، أنْ ترفع الاسْم، وتُعَظِّمَه وتُجِلُّه، وَهُو الَّذي كَان مُبْتدأ الأشياء، وأصْل ظهورهَا، ورفعها له، دِلاَلتها على تلوّن الآثار، وتنقل الأطوار، فتدلّ على عظمة الواحد القهار. وتنصب الخَبَر؛ الذي هو عبارة عن الآثارِ لتجري أحْكَام الواحد القهار. وأمَّا إنَّ وأخَوَاتها فتشير إلى أحْوال الخلقِ، البارزة من حَضْرة الحقّ. وذلِكَ ما يعْتبر بها من تأكيد الأمور، والعَزْم عَلَيْهَا لإدراكِ نَتَائِجهَا. إمَّا دِينيَة، أوْ دُنْيَوِيَة. إذ لاَ تُدْرك الأمور إلاَّ بِالْعَزْمِ والجدّ وسيأتي الكَلام عليها في باب التوكيد، وتشير أيْضاً إلى ما ينزل بِهَا من الرَّجَاءِ والخوْفِ، أو التمني والطمع الفارغ. وقد نَهَى اللَّهُ عَنهما فقال: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ﴾ الآية، والمأمور به قوله: ﴿وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾. وأمَّا ظَننتُ وَأخَوَاتُها فتشير إلى أحْوَال القلوب، فإنَّ منها ما يدْخل فيها اليقين الكبير النَاشيء عن الشهود والعيَان. وهو مقام

عيْن اليقين، أو حق اليقين، وهو مقام العارفين الراسخينَ في العلم باللّهِ، وَلاَ سبيل له إلاَّ بصحبة شيخ التربية، والدّخول تحت تربيته. ومنها ما يدْخلها الظنّ القوي الراجح؛ وهي قلوب أهْل البُرْهان والاستدلال، فتارة يقوى عليهم الدَّليل، فيسْتشرفون على عيْن اليقين، وتارة يكر عليهم الخواطر الرديئة. فَلاَ يبقى لهم إلاَّ الظنّ القوي. ومنهم مَن تلْعَب عليهم الشكوك والأوهام فيموتون على الشكّ والعياذ باللّهِ. ولقد نقل عن الرّازي أنه كَان يقول عند الموت: اللهم إيماناً كَإيمان العجائز. وكتب إليه ابن العربي الحاتمي، فقال له: ايتِني نعرفك قبل أن تموت جاهلاً بِهِ، فتنكِرَهُ فيمَنْ أنكرهُ حينَ يتجلّى لخلقِهِ هـ. وقال بعضهم: إيمان علماء الكلام، كالخيط المعلق بالهواء يميل مع كل ريح، والعياذ بِاللّهِ من الفتَنِ، وسوء المِحَن. وما رأيْت أحداً حصل عن اليقين الكبير الذي هو عيْن اليقين، أو حق اليقين. الناشيء عن الشهود والعيان في زَمَنِنا هَذَا إلاَّ شيخ شَيْخِنا قطب دائرة التربية النبوية، مولاي العربي الدّرقاوي الحسَنِي، وشيخنا البُوزيدي الحسَنِي، وخواصّ أصْحابهما رضي الله عَنْهُمْ. وأَمَّا البَاقي فكلهم في سِجْن الأكوان، يسْتدلّون بها على المُكوّن. فتارة يقوى يقينهم، ويتنوّر دليلهم، فيحصلون على علم اليقين. وتارة يضعف يقينهم، فتكرّ عليهم الخواطرُ الرّديئة. والوساوس الشيطانية. فيحصلُونَ على الظنّ القوي: عالماً كَانَ أو صالحاً، أو عابداً، أو زاهِداً وبالله التوفيق.

بَابُ النَّعْتِ

قلت: النَّعْتِ عبارة الكوفيينَ، والوصف عبارة البصريين، وهل هما مترادفَانِ. المشهور كذلك. وحال بَعْضِهُمْ: النَّعْت يتغيَّرُ. والوَصْف لاَ يتغَيَّر، ولذلِكَ يُقال: أوصاف الله، وَلاَ يُقال نعوتهُ. وبدأ بِالنَّعْتِ، ثم بالنَّسَقِ، ثم بالتوكيد ثم بِالْبَدَلِ. وعكس غيره، وإذا اجْتمعت في كَلاَم واحِد؛ قُدِّمَ النَّعْت، ثم البيَان، ثم التوكيد، ثم البَدَل، ثم النسَق. وَرَمَزَ بعضهم بقوله:

نَبَتُ دُقّ، فالنُّون للنَّعتِ، والبَاء للبيَانِ، والتَّاء للتوكيد. والدَّال للبَدَلِ. والقاف للنسق. تقول: جاء زيْد العاقل برهان الدين نفسه أخوك وعمرو، وحقيقة النعْت هو التابع لما قبلهُ، لعلامة فيه، أو فيما تعلق به. وهو على ثلاثة أقسام، حقيقي ومجازي وسببي فالحقيقي هو الجاري على ما قبله، مع رفعه لضميره، نحو جاء زيد العاقل، والمجازي: هو الجاري على ما بعده، لضمير ما قبْله، نحو: جاء زيد الكريم الأب. والحسن الوجه، والسببي هو الجاري على ما بعده، ما رفَعُه لظاهر متلبّس بضمير الموصُوف، نحو: جاء زيد العَاقلة أُمُّه. أو زيْد العاقل أَبوه،

ومنه قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾. فإذا علمت هذا، (ص) فالنعت (ش) [أكان] حقيقياً أو مَجَازياً (ص) تابع للمنعوتِ في رفعه ونَصْبه وخفضه وتعريفه وتنكيره. (ش) ثم إنْ رَفَعَ ضميرَ الْمَوْصُوفِ، وَكَانَ حَقِيقياً أو مجازياً، تبعد أَيْضاً في تذكيره وَتَأنيثه، وفي إفراده وتثنيته وَجَمْعهِ. (ص) نحو جاءَ زيْد العَاقل، ورأيت زيداً الْعَاقل. ومررت بزيدٍ العَاقِلِ. (ش) وفي المجازي: جاء زيد الكريم الأب، ورأيت زيداً الكريم الأب. ومررت بزيد الكريم الأب. وإن رَفَعَ ظاهراً ملتبِساً بضمير الموصوفِ، فَهُوَ كالفِعْلِ، فيلزم إفراده، كما يجرّد الفعل من علاَمَة التثنية والجمع، ويتبع مَنْعوته في الإعراب والتّذكير والتأنيث فقط. فتقول: جاء الزَّيدان العَاقلة أُمُّهُمَا، وجاءَ الهِنْدَانِ العاقل أَبُوهما. وجاءَ الزَّيديون العاقل آباؤهم. فتحصل: أنَّ النَّعْت الحقيقي يتبع مَنعوته في أَربعة من عَشر، الغالب الإعراب الثلاث، والتعريف والتنكير، والتذكير والتأنيث، والإفراد والتثنية والجمع. وكذلك المجازي. وأمَّا السَّببي، فيتبعه في اثنيْن من خمسة الغالب، الإعراب والتعريف والتنكير، وأمثله ذلك ظَاهره والله تعالى أَعْلَمُ.

الإِشَارَة: الوصف تابع للموصوف لاَ يفتقرانِ أَبَداً، وبعبارة أُخرى، الصفة لاَ تفارق الموصوف. فمهما ظَهرت الصفات، ظهرت معها الذَّات. ومَهْما تجلَّت الذَّات، تجلَّت الصّفات، فامتحى حينئذٍ وجود الأثر، بظهور المؤثر إذ الأثَرُ لاَ يظهر إلاّ بالقدرة؛ وهي لا تفارق الذّات. فَافهَمْ وإلاَّ فَسَلِّمْ. ومنهم من يعبِّر عن هَذَا بقولهم الذَّات عيْن الصفات. وإنما أراد بالعَيْنِ التزام الظهور. وإلاَّ فالذَّات حينئذٍ لطيفة لاَ تدرك. والصفات معنى قائم بِهَا. وإن شئت قلت عيْن الذَّات تابع لهَا في الكَمَالاَتِ، وعَدَم النهايات. فَكَمَا أَنَّ الذَّات لا نهاية لها، وَلاَ حَصْر. فأَسرار الذَّات وكمالاتها خارجة عن مدارك العقولِ، كذلك الصفات. أو تقول: نَعْت الذَّات في مظاهر التجليات، يتْبَع المنعوت في تلوّناته، فقد سئل الجنيد رضي الله عنه عن التوحيد فقال: لوْن الماء لوْن إنائه. يعني أَنَّ أَسْرار المعاني، حينَ تجلَّتْ في قوالب الأواني، تلوَّنتْ بتلوّنِ القوالب، بيْن أبْيض وأَسْوَد، وأَحمر، وأَصْفَر وأَخْضَر، إلى غير ذلك من أَلْوَان الخمرةِ الأزلية في حال التجلّي. وأَمَّا قبل التجلّي؛ فهو سرّ لطيف نُورَاني، له قدْرة على التجلّي كيْف شاء. وإن اختلفت ألوانه بعد التجلّي. قال الجيلاني رضي الله عنه في عيْنيته:

تجلَّى حبيبي في مرائِي جَمَالهِ ... ففي كل مرْءٍ للحبيب طلائعُ

ثم قال:

وكل اسْوِداد في تصافف طرة وكل احْمرارٍ في الضلائع باضع

ثم قال:

وأطلق عنانَ الحق في كل ما ترى لتلك تجليات مَنْ هو صَانع

ويدخل في بعض هذه التلونات، قول المصنف: النَّعْتُ تابع للمنعوتِ في رفْعِهِ، إن تجلَّى بمظهر رفيع، وخفضه، إن تجلَّى بمظهر مخفوض، فظاهره خفض، وباطنه رَفْع وعِزّ. ونَصْبه: إنْ تجلَّى بمظهرِ منصور، لسهام الأقدار، فظاهره منصوبٌ لقهرة العبودية. وباطنه مخض عِزّ الرّبوبية. وتعريفه إن تجلَّى فيه باسمه الظّاهر. فأظهره للانتفاع به. حتى عرفَهُ الخاصُّ والعامُّ. وتنكيره، إن تجلَّى فيه باسمه الباطِنِ. فأنكره جلّ الخلق؛ وهو في مقام عليّ عند الحقّ. وقد أشار شيخ شيوخنا، ومَادَّة طريقتنا، رئيس البحرية، وإمام أَهْل الخَمْرة الأزلية. سيدي علي العمراني المُكنَّى بالجَمَل رضي الله عنه، إلى هذا المعْنَى في كتابه. فقال ما نَصُّه: انظر يا أخي وَتَأَمَّلْ هذه الخمرة، كيف كَمَلت فيها الأوْصَاف، وتوفَّرَتْ فيها الشروط، وكيف كمل نقصانها، كما كمل كمالها. فسُبْحان من أظهرها بالكَمَال في النقص والكَمَال، حتى صار الكلُّ كَمَالاً وَلاَ نَقْص. فانظر يا أخي ما أقربها في بعدها. وما أَبْعدها في قُرْبهَا. وما أرفعها في أَسْفلها، وما أوضعها في عُلُوّهَا، وما أَكبرهَا في صغرها، وما أَصْغَرها في كِبرهَا، وما أقواها في ضُعْفها، وما أَضْعفها في قوّتها، وما أَغناها في فقرها، وما أفقرها في غنائها، وما أَعزّها في ذُلِّهَا، وما أَذَلَّهَا في عِزّها إلى آخر كَلاَمه. فقد اجتمعت الضّدّانِ، بل أَضْدادٌ في مَظْهَر واحدِ. وإلى ذلِك أشار الجيلاني أَيْضاً بقولِهِ:

تجمَّعَتِ الأضْدادُ في واحد البها وفيه تلاشت فهو عَنْهُنَّ شَائِعُ

وَلاَ يبلغ هَذا، إلاّ أَهْل الأَذْوَاق والوُجدان، ممَّن خَاضَ بَحْرَ الشهود والعيانِ وحسْب مَن لَمْ يَبْلُغْ هذا التسليم، وبالله التوفيق.

تَنْبيه: قول أَهْل الحقيقة: إنَّ الضِدَّيْن أَو الأضْدَاد تجتمع في محلّ واحد، مغْنَاهُ اختلاف الحيْثية والجِهَة، ثم إِنَّ الأضداد على قسْمين: أَضداد عَقلية، وأَضداد عادية، فالأضداد العقلية، مثالها القدم، والوجود، والقيام والقعُود، والبيَاض والسَّواد، والرّبوبية والعبودية، والقِدَم والحدوث، وشبه ذَلِكَ مما لاَ يتصور في

العقل اجْتِماعهما. والأضداد العَادية، مثالها: النَّار والماء، والحرّ والبَرْد، والنهار والليل، وغير ذلِكَ ممَّا يُمْكِنُ اجتماعهما عقلاً ويسْتحيل عادة. أمَّا الأضداد العقلية، فلا تجتمع أبَداً في محلٍّ واحدٍ، كالآدمي مثلاً. فالعبودية من حَيْث الغَالبُ الحسّي، والرّبوبية مِن حيْث المَظهر المعنوي، العبودية مُرَتَّبَة على الحسّي البَشَرِي. والرّبوبية مُرَتبة عَلَى المظهر المعنوي، العُبُودية ظاهرة، والرّبوبية كامِنَة. وكذلك القِدَم والحدوث، القِدَم من جِهَة مَعْنَاهُ. والحدوث من جِهَة جِسْمِهِ العارض ظهوره. وكذلك العِزّ والذّلّ، والغنا والفقر، فالْعِزُّ والغِنَا محلهما الْبَوَاطِن. والذّلّ والفقرُ، مَحَلّهما الظواهر. وقد تجتمع فيه، في وَقْت واحدٍ. لَكِن مَعَ اختلاف الجِهَة كَمَا قُلْنَا، ومن يقل: إنَّ الضدْين أو الأضداد تجتمع في محلٍّ واحدٍ، مع اتِحادِ الجهة والوَقت، فَجَاهِلٌ؛ لأنَّ القدرة لاَ تتعلق بالمحالِ. ولو تعلقت بالمحالِ، لزم تعلقها بإعدام الذَّاتِ العلية، وإثبات الشريك لله تعالى وموهوس عظيم، لا يقول به عاقل. وأما الضدّان العاديان، أو الأضداد العَادية فتجوز اجتماعهما في محلّ واحدٍ. وفي وقت واحد، إذ القدرة صالحة لذلكَ ولم تقع في عالم الحِكْمَة إلاَّ معجزة، كنار إبراهيم عليه السلامُ، وإنما وقع اجتماعهما متفرقة المحلّ، مع اتِحادِ الوجود عند أهْل الباطِن، فالماء في محلٍّ، والنَّار في محلٍّ. وكذلك الحرّ والبَرْد، والمَوْت والحياة، والجَنَّة والنَّارُ. ولو جَمَعَ الله ذلكَ في محلٍّ واحدٍ لكَان جائزاً. وقول الجيلاني رضي اللّهُ عنه: تجمعت الأضداد العقلية، مع اختلاف الحيثية كما تقدم، والأضداد العادية، مع اختلاف الجِهَة في عالم الحِكْمَةِ، أو مطلقاً في عَالَم القُدْرة، والوجود لله متحد. ذات واحدة. ومظهر واحدٌ كما قال الشاعر:

هَـذَا الْـوُجُـود وإن تـعـدَّد ظَـاهـراً   وحـيـاتـك مـا فـيـه إلاَّ أنْـتُـمُ

وقد اجتمعَت فيه أضداد كثيرة؛ عَقلية وعادية؛ لكن مع اختلافِ الحيثية أو الجهة. فتحصّلَ: أن الأحكَام العقلية: الواجبة والمستحيلة والجائزة، لا تنخرم عن أهْل الباطِن، وإنما بعض الممكنات عند أهْل الظاهر، تصير وَاجبة عند أهْل الباطِن لجمعها بأصْلها، وشهود الحق فيها، والجائز عند أهْل البَاطِن هو تلوين الخَمْرةِ على سابق المشيئة. والله تعالى أعْلَمُ. (ص) والمعرفة خمسة أشياء: الاسم المُضْمَرْ نحو: أنَا وأنْتَ، والاسم العَلَمُ: نحو زَيْد ومكّة: والاسم الْمُبْهَمُ، نحو: هذا وهَذه وهؤلاءِ. والاسم الَّذي فيه الألفُ اللاَّمُ، نحو: الرجل والغلاَمْ. وما أُضِيفَ إلَى واحدٍ من هذه الأربعة. والنكرة: كل اسْم شائع في جِنْسِهِ، لاَ يختصّ

به واحد دون الآخر. وتقريبهُ: كل ما صلح دخول الألف واللاَّم عليه. نحو الرجل والفرسُ. (ش) قلت: حَصَر المعرفة بالعدّ، ولم يحصرها بِالحدّ؛ لأن حدَّها بحد جامع قد يتعذَّرُ؛ لأنَّ من الأسماءِ ما هو معرفة لفظاً نكرة معْنًى. كأسامة. وثعالة، ومنها ما هو نكرة لفظاً. معرفة معنًى نحو كانَ ذلك عام أوَّل. ومنها ما يسْتعمل بِالْوَجْهيْن، نحو: واحِدُ أُمّه. وفريد عَصْره. وعبْد بطنهِ، فمنهم من يستعملها معرفة بالإضافة، ومنهم من ينْصبها على الحال، فتكون نكِرَة، ومثلها واللاَّم الجنسية. ولذلك يوصف بالمعرفة اعتباراً بِلَفظِهِ، وبالنكرة، اعتباراً بِمعنَاهُ. وإذا كَانَ كَذَلِكَ، فأحْسَن ما تعرف به المعرفة ذكر أقسامها ثم وما سوى ذلك نكِرة. وبعْضُهُمْ عَرَّف النكرة، وقال: وما سوى ذلك معرفة؛ كَابْن مَالك وغيْره. ومنْهم مَن عرَّفها معاً فقال: المعرفة: ما وُضع ليُستعمل في معَيَّن. والنكرة ما شاع في جِنْس مَوْجود أَوْ مقدَّر، فالأوَّل كَرَجُل وفَرَس. والثاني كشمس وقَمَر فالشمس كوكب نهاري. والقمر كَوْكَب لَيْلِي؛ وهما صالحان للتَّعَدّدِ، لكن لم يوجد في الخارج إلاَّ واحدّ. وعَدَّ بَعْضهم المعَارف سَبْعة، الخمسة التي ذكر المؤلف. والمُنادى المعيَّن. وأمثلة التأكيد، كأجمع وجمعاً، فإنَّهُمَا عَلَمٌ عَلَى جنسِ التوكيدِ. والجهورُ، أَنَّ المعارف متفاوتة في التعريفِ. فأعرفها عند سيبويْه: اسم الجلالة الله، ثم الضمير العائد عليه، نحو هو. وقد رُئي في النوم فقال: غفر اللّهُ لي بقولي: أعرف المعارف الله. وقال غيْره: أعرفها الضمير، ثم العلم، ثم الإشارة، ثم الموصول. وقد نظم السيوطي في الألفية فقال:

فَمُضْمَر أعرفها ثم الْعَلم   واسْمُ إشارة وموصول متم
وَذو أداة منادى عُيّنا   وَذُو إضَافة بِهَا تَعَيَّنَا

والمضاف في طبَقة ما أُضيف إليه، إلاَّ المضاف للضمير، فإنَّه في درجَة الْعَلَم. وثمرة هذا تظهر، إذا كَان المبتدأُ والخبَر معرفتين. واسْم كَان وخبرهَا. فالأعرف يكون مبتدأ أَو الأدنى منه يكون الخَبَر. وتظهر أيْضاً إِذَا نصب الفعل ضميريْن، فإن تقدم الأخص وهو الأعرف، جاز في الثاني الاتصال والانفصال، كقوله تعالى: ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾. ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾. والوصل أرجح. ومن الفَضْل، قول القطب سيدي عبد السلام بن مشيش في تصْليته: وعَرِّفْنِي إِيَّاهُ، فارتكب غيْر الراجح أَدَباً معه عليه السلام، ليلاً يأتي بضميره عليه السلام، متَصلاً بِضمير نَفْسِهِ. فانظر، ما أَدَق نظره، وأَكمل أَدبه رضي اللّهُ عَنْهُ. ولو تقدَّم غَيْر الأخَصّ، وجَبَ

الفضل، كقوله عليه السلامُ: «إنَّ اللَّهَ مَلَّكَهُمْ إيَّاكُمْ، ولو شاءَ لمَلَّكَكُمْ إيَّاهُمْ». تَنْبيه: قال الجمهور: المعارف كليات وضعاً. جزئيات استعمالاً. فَزيْد مثلاً كلّيَ يصلح لكل شَخْصٍ، فإذا وضع له صار معيناً، وهكذا سَائر المعارف، وبدأ المصنف بالمعرفة؛ لأنها أشرف، إذ يجُوز الابْتداء بِهَا، والحكم عليها، بالحالِ وغَيْره، وأيْضاً: التعريف وُجُودي، والتنكير عَدَمِي، ومعرفة المكلمات مقدمة على الإعدام، وعكْس غيره؛ لأنَّ مسَمّى النَّكرة، أسْبَقُ للذِّهنِ من مُسَمَّى المعرفة، لأنَّ التعريف طار على التنكير، وما سلكه المصَنّف أحْسَنْ. وعدَّها خَمْسَة، مَعَ أنَّها سَبْعَة؛ لأنه أدْرَجَ الموصولَ في الْمُبْهَم. وأمَّا المُنَادى الْمُعَيَّن فإنما تعرف بالإقبال عليه، ويتكَلَّم عليه في باب المنادى. وَبَدأ بِالضمير لأنه أعرفها بعد اسْم الجَلاَلَة. ويُسَمَّى عند البصريين بالمُضْمَرِ، والضَّمير اسم مفعول من أَضمرَته إذا أَخفيتهُ، وإطلاقه على البارز توسّع، والكُوفيّون يسمّونه الكناية، والمكَنّى بأنه ليْس باسم صريح. والكناية تقابل الصريح. قال ابن هانِي:

فصرِّحْ بِمَن تَهْوَى وَدَعْنِي مِنَ الكَنَا فَلاَ خَيْرَ في اللَّذاتِ من دُونها سَتر

وقبل هذا البيْت:

ألاَ فَاسْقِنِي خَمْراً وَقُل لِي هي الْخَمرُ وَلاَ تَسقني سِرّاً إذَا أمكَن الجَهر

وللصوفية من هذيْن البيْتَيْن شرْب غزيرٌ. وحقيقة الضمير عند النحاة: مَا وُضِع لتعيين مسَمَّاه مشعراً بتكلمه، أَو خطابه، أَو غيبته؛ وهو عَلَى قسْميْن، بَارز ومستتر. فالبارِز ماله صورة في اللفظ، والمستتر ضِدّهُ، وهو على قسْمين: ما يجب استتاره، وهو ما لاَ يخلفه الظّاهر، وذلِكَ في عشرة مواضع، أَشار إليها السُّيُوطي في أَلْفيته فقال:

وستر مرفوع بأمر حتما ودون يَا مُضارع واسْتَثْنِهما

وأَفْعال التفضيل والتَّعَجُّب وفعل الاستثناء فاحفظ تُصِبِ

ودَخَل في الأَمْرِ المصدر النَّائب عن فِعْلِهِ. نحو: «فَضَرْبُ الرقاب» وما يستتر جوازاً؛ وهو ما يخلفه الظَّاهر؛ وهو ما سوى ما تقدَّمَ، والبارز قسمان: مُتَّصِل؛ وهو مَالاَ يبتدأ بِهِ. وَلاَ يقعَ بعد إلاَّ فِي الاختيار. ومُنْفَصِل، وهو ما يبتدأ به ويقع بعد إلاَّ في الاختيار والمتَّصل إمَّا مَرْفوع أَو منصوب أَوْ مجرور. وكل من هذه الثلاثة، إمَّا متكلم، أَوْ مخاطب، أَو غائب، فالمرفوع للمتكلِم؛ فعلْتُ وفَعَلْنَا

والمخاطب فَعَلْتَ وَفَعَلْتِ، وفَعَلْتما، وفَعَلْتم، وفَعَلْتُنَّ، وللغائب: فَعَلَ وفَعَلَتْ، وفَعَلاَ وفَعَلَتَا، وفَعَلُوا وفَعَلْنَ. والمنصوب للمتكلم: أكرمني أكرمنَا. وللمخاطب: أَكْرَمكَ أَكْرمكِ، أكرمكُمَا، أكرَمكُمْ، أكْرمكُنَّ. وللغائب: أكرمَهُ أَكْرمها، أكْرَمهما، أكرمهم، أكرمهنَّ. والمجرور المتكَلم: مرَّ بي، مَرَّ بنا، وللمخاطب: مَرَّ بِكَ مَرَّ بكِ، مَرَّ بكما، مَرَّ بِكُمْ، مَرَّ بكُنَّ. وللغائب: مَرَّ بِهِ، مَرَّ بِهَا، مَرَّ بهما، مَرَّ بِهِمْ، مَرَّ بِهِنَّ، فهذه سبْعَة وثلاثون ضميراً، والثامن والثلاثون ياء المخاطبة نحو قومي، والتحرير أن الضمائر تبلغ إحدى وستّينَ ضميراً، فالمرفوع المتصل اثنا عَشَرَ، والمنفصل كذلكَ. فهذه أَرْبعة وعشرون، والمنصوب المتصل اثنا عشر، والمنفصل كذلك فَهَذِهِ ثمانية وأَرْبَعُونَ. والمجرور لاَ يكون إلاَّ متَّصِلاً: اثنا عشر؛ بعد إلاَّ في الاضطرار، كقول الشَّاعر:

وما تبالي إذا كنت جارتنا ... ألاَّ يجاورنا إلاَّكِ دَيَّارُ

وقال آخر:

أَعُوذ بِرَبِّ الْعَرْشِ مِنْ فِئَةٍ بَغَتْ ... عليَّ فَمَالِي عِوض إلاَّ هو ناصِرُ

والثاني من المعارف: الاسم الْعَلَم. وهو مشتق من الْعِلْم؛ لأنَّهُ يُعْلم به مسَمَّاه. ويُطلَقُ الْعَلَم على الجَبَلِ. وقال الشاعر:

رُبَّما أَلْفيت في عَلَمٍ ... ترفعن ثوبي شمالات

حقيقة ما وُضع لمُعَيّنٍ خارجاً أَو ذِهْناً، لا يتناول غيرهُ. فالَّذي وُضع لمعيَّن في الخارج، يسمَّى علم شخص، والَّذي وُضع لمعيَّن في الذِّهْنِ، يسَمَّى علم جِنْس، فالأول للعاقل، كزيْد وعمرو، وزيْنب، ولغَيْر عاقل، كسابِقٍ عَلَماً لِفَرَسٍ وشَذْقَم لجَمَلٍ، وَهَيْلَة لشاة. وواشق لِكَلْبٍ، ويكون لِلْبُلْدَانِ، كمكَّة، ودمشق، وفاس ومرَّاكش. وأَمَّا عِلْمُ الجِنْسِ؛ وهو الذي وُضِع للحقيقة بعد تعيينها، وتشخصها في الذِّهْنِ كأسامة للأسد، وثعالة للثعلب. وأمّ عَرِيط للعقرب، ويكون للمعاني، كنكرة عَلَمٌ على جنس البرور وفجر على جنس الفجور. قال الشاعر:

إذا اقتسمنا خطيتنا بيننا ... فحملة برة واحتملت فجار

والفرق بيْن النكرة وعِلْم الجِنْس. إنَّ النكرة تدل على الحقيقة الشائعة، من غير تعيّن لهَا من الذِّهنِ. وعلم الجِنْس وضع للحقيقة بَعْد تعيّنها وتشخصها في الذِّهن. فلذلك يبتديء بها، ويأتي الحال مِنْهَا، فتقول أُسَامة اجرأ من ثعالة. وهذا

أُسَامة مقبلاً، وَلاَ تقول: هذا أَسَد مقبلاً. إذ لاَ يكون صاحب الحَال إلاَّ معرفة، ويكون العلَم اسماً كما تقدَّم، وكُنية؛ وهو ما صُدِّر بأَب أَوْ أُمّ. كَأَبِي القاسم، وأَبِي بَكْرٍ، وأُمِّ الخَيْر، وأُمِّ كلثوم، وَلَقباً. أَمَّا المَدح، كزيْن العابدينَ، أَوْ ذَمٌّ كقفة، وبطة، وأَنف الناقة، وَلَمْ يُسْمَع من العَربِ تلقيب النِّسَاء، وإذا اجْتمعَ الاسم واللقب كزين العابدينَ. وَلاَ ترتيب بيْن الكُنيَة وغيرها. والثالث من المعارف: الاسم المُبْهم، وشمل الإشارة والموصول. فأَما الإشارة فقال في التسهيل: مَا وُضع لمسمّى وإشارة إليه، ثم إن المشار إليه، إمَّا مذكراً أَوْ مؤنثاً، وكل مِنْهُمَا، إمَّا مُفرداً أَوْ مثنًّى: أَوْ مَجْمُوعاً، فللمذكرِ ذَا، وللمؤنثِ ذِي، أَو ذِهِ، أَو تي، أَو تِهِ، أَو ذِهِي، أَو تِهِي، أَو تا. وللمثنَّى المُذكَّر، ذَانِ رَفْعاً، وَذَيْن نصْباً وجرّاً، وللمؤنَّث تَانِ رَفْعاً. وتَيْنِ جرّاً ونَصْباً، ولجمعهما أُولى مقصوراً في لغَة تميم مَمْدوداً في لغَة الحجازيينَ، فإن كَان المشار إليه بعيداً قرن بالكافِ حرفاً مطابقة للمخاطب في التذكير والتأنيث، والإفراد وضده مجردة من اللاَّم، ومقرونة بها، إلاَّ في المثنى والجمع، في لُغَة من مده، وفيما سبقته ها التنبيه، ويُشار بِهُنَا لمكَان القريب، وبِهُنَاك أَو بِهُنَالِكَ، أَو ثم هِنَا بالفتح، والكسر للمكَان البعيد. وأَمَّا المَوْصُول فحقيقته مَا افتقر أَبداً إلى عائدٍ، أَو خلفه، وجُملة صريحة أَو مُؤوَّلة؛ وهو: الَّذي للمُفْرَدِ المُذكر، والتي: للمفردة المؤنثة، واللّذان للتثنية المذكر. واللتان للتَّثنية المؤنَّثِ. رفعاً. واللّذيْن واللتَيْن نَصْباً وجَرّاً. والذِينَ لجَمْع المذكر مطلقاً. واللاتي واللاَّئي لجمع المؤنث، وَمَنْ لِمَنْ يعْقل مفرداً أَو مثنًّى أَو مجموعاً. وَمَا لِمَا لاَ يعقل، إلاَّ إذا نُزل مَا لاَ يَعْقل، بمنزلة ما يعقل فَيُعَبَّر عنه بِمَنْ. وكذلك إذا نزل من يَعْقل، بمنزلة من لاَ يَعْقِل، لخفَّة عَقْلِهِ، فيعبر عنه بِمَا. كقوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ وإذا اجتمع العاقل مع غيره خير الناطق بين من وما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. وقال تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾. وَمِن المَوْصُولات ال وذُو، في لُغَة طِيء. وذا بعد مَنْ وَمَا الاسْتفهَامتيْن، مَاذَا صَنع كذا، وَمَا ذا صنعت، أي ما الَّذي صنعت، وكذلك أَيّ تقول: أَعجبني أَيُّهم قَامَ. أي الَّذي قَامَ. وإنَّما سُمِّيَتْ هَذِه الأَسْمَاء مَوْصُولات؛ لأَنها لاَ تفيد إلاَّ إذا وُصِلتْ بشيء تصير به دَالة على مَعْنَى. واشتملت تلك الصّلة على رابطٍ يَرْبطُها بالموصولِ، حتى لا تكون أَجنبية. قال في الألفية:

وَكُلُّها يَلْزَم بَعْدها صِلَة ... عَلى ضَمِيرٍ لائِقٍ مشتَمِلَة

وَتَقدَّم. أنَّ مَنْ. تقَع على المذكَّر والمؤنث، والمفرد والمثنى والجمع، فلفظهما مجرد، ومعناها يقع على ما تقدَّم، فالضمير إن عادَ عَلَيْهَا، يصحّ فيه مراعاة لفظها. لأنَّ لفظها مُفرد مذكر، فيفرد وَيُذكر دَائماً. ومُرَاعاة مَعْنَاهَا، فيطابق ما وقعَتْ عليه، فَمِنْ مُراعاة لفظهَا، قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾. فَإِن راعَيْت اللفظ، فَلك أن تراعي المَعْنَى بَعْدَ ذلِكَ، تقول: مَن عرفته فأَحسَنْت إليهم. ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ﴾. وإن راعيْت الْمَعْنَى أولاً. فَلاَ يجوز أن تراعي اللفظ بعد ذلك، فَلاَ يجوز أَنْ تقول: جاءَنِي مَنْ عَرَفتهم فأَحسنت إليه. وَذَكر في التَّسْهيل، أنه يجُوز على قِلَّة. قال: ويعتبر المعنى بعد اعتبارِ اللَّفظِ كثيراً. وقد يعتبر اللفظ بعد ذلِكَ هـ. فرع: يجوز حذف الموصول، وإبقاء صلته إذا علم. ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّـٰغُوتَ﴾. أي ومَن عبد الطاغوت، ويجوز حذف الصّلة في مقام التهويل والتفخيم، تقول: ما فعلت كذا إلاَّ بعْدَ التي، والتي؛ أي بعد المشقة التي يكل اللسان عن التعبير عنهَا، والتي تفوت التعبير. والله تعالى أَعْلَمُ.

والرابع من المعارف: الاسم الذي فيه الألف واللاَّم، نحو الرجل والغُلاَم؛ وهو المعرف بِأداة التعريف. وَهَلْ الأداة: ال برمَّتها؛ وهُوَ مَذْهَبُ الخليل، فهي عنده كَهَلْ، وقد والهمزة همزة قطع عُوملَت معاملة همزة الوصل لكثرة الاسْتعمال، أَو اللاَّم فقط. والهمزة همزة وَصْل، اجتلبَت للابتداء بالسَّاكن؛ وهو مَذْهب سيبويْهِ. دليله: أَنَّ حرف التَّنْكير حرف واحد. وهو التنوين، فكذلك دليل نقيضه وهو التعريف. ولذلكَ كَانت سَاكنة كالتنوين؛ وهي إمَّا لبَيَانِ الحقيقة من حيْث هيَ؛ وهي التي لا يخلفُها كُلّ. نحو: «وَجَعَلْنَا مِنَ الماءِ كُلَّ شَيءٍ حَيّ». وإمَّا لشمول أَفراد الجِنْسِ؛ وهي التي يخلفها كل. إمَّا حقيقة، نحو: «وَخُلِقَ الإنْسَانُ ضَعِيفاً». «إنَّ الإنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ». أَو مجازاً نحو: أَنت الرجل علماً. أي اجْتمع فيكَ ما افترق في الرِّجَالِ. وإمَّا عَهْدِية. والْعَهْد إمَّا ذِكْرِي. نحو: «فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ». أَو ذِهْنِي، نحو: «بِالْوَادِ المُقَدَّسِ طُوَىٰ». «إذْ هُمَا في الْغَارِ». وحُضُوري: نَحْو: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينكُمْ». وبلغها بعْضهم إلى عشرين. ست معرفات. وأربع موصولات، وعشر زائدات، ونظم ذلك القاضي شعبان فقال:

عَرِّف بِأَل وَلاَمَه وَصِلْ وَزِدْ وَاقْسِمْ على عِشْرِينَ قِسْماً تَسْتَغِلْ
عَرِّف بست نصفها لِلْعَهْدِ ونصفها جنسية في الْعَدّ

وصنوه والوصف والمماثل ... وصل بأربع ما اسم الفاعل
وغير لازم ترى لِلتَّا مَعَهُ ... وزد بِعَشر والتزم بِأَربعة

وانظر التوضيح والتصريح، تستخرج ذلكَ إن شاء اللَّهُ. واللَّهُ تعالى أَعْلَمُ.
الخامس من المعاني: ما أضيف إلى واحدٍ من هذه الأربعة. نحو غلامك، وغلام زَيْد، وغلام هذه، وغلام الَّذي قام أَبوهُ، وغلام الرَّجل، ثم ذكر النَّكرة فقال: (ص): والنكرة: كُل اسم شائع في جِنسِهِ، لا يختَصّ به واحد دون آخر. (ش) فإذا قلت: رجل أَو امرأة، صَدَق ذلك على جِنْس الرجال، أَو النّساءِ. وكذلك أَسَد بخلاف أَسَامة، فإنه وُضع للحقيقة بعد تعيينها في الذّهن. وإن صدقت على كثير، فإن العلم قد يعرف له الاشتراك والعموم في اللفظ بعد التعيين. وقوله: لا يختصّ به واحد، أَدْخل الباء على المقصور عليه. والأكثر دخولها على المقصور عليه. تقول: خصصت العطاء بزيد، أَحْسن من قولك: خصصت زيداً بِالْعَطاءِ، ونظمه بَعْضهم فقال:

دُخُولها على الَّذي قد قصروا ... والباء بَعْد الاختصاص يكثر
ذكرها الحَبْر الهمام السيدُ ... وعكسه مستعمل وجيّد

ولو قال: لاَ يختصّ بواحدٍ بسلك طريق الأكثر ثم ذكر ضابطاً آخر فقال: (ص) وتقريبه: كل ما صَلُح دخول الألف واللاَّم عليه. (ش) يريد أو يقع موقع ما يقبلها، نحو: ذُو، بِمَعْنَى صاحب، فإنه لا يقبل ال، ولكن وقع موضع صاحب. فتقول: الصاحبُ. وكذلكَ مَنْ وَمَا الاستفهام والشرطة، فإنهما لاَ يقبلانها، ولكنهما واقعانِ مَوْقع ما يقبلَها؛ وهي شيء.

وتقول: مررت بمَن معجب لكَ. أي مررت بإنسانٍ، وبما معجب لكَ، أي بشيء. وقال الجَزُولي: علامة الاسم: النكرة إذا كَان مُفْرداً قبول الألف واللاَّم، أَو أَداوْه معنًى لاَ يكون إلاَّ نَكِرة. وإن كَان مضافاً، فقبولُ ما أُضيف إليه الألف واللاَّم مباشراً أَو بواسطة، أو جواز جَرْيه نعْتاً على النكرة هـ وكل ما دَخَلَ عليه رُبّ فهو نكرة.

تنبيه: أَنكر النكرات شيء ثم موجود ثم محدث، ثم جِسْم، ثم قال، ثم حيوان، ثم إنسان، ثم بالغ، ثم ذكر، ثم رَجُل. والأصح أَنَّ المعدوم ليس لشيءٍ. وعليه فليس لشيء أَعلى من موجودٍ. وقوله: (ص) نحو الرجل والفرس. (ش) هو تمثيل لِمَا يَصْلح دُخُول أَلْ عليه، مع دخولها بالفعل والفرس. يقع على الذّكر

والأنثى. ويَتميَّز بالوصفِ، تقول: فرَس أنثى، وقيل، يُقال الأنثى فرسه بالهاءِ، والجمع لهما أفراس وفروس. واللَّهُ تعالى أعْلمُ.

الإشَارَةُ: والمعرفة باللَّهِ، تظهر في خَمْسَة أَشياء، فَمَنْ عَرَف الله فيها فهو عَارف، ومَن جهلها، أو أثبتها مع الله فَهُوَ تالف:

أوّلها الكنايات: نحو: أنَا وأنت، فما دمت تقول: أنَا فَعَلْت أو أنت فَعَلْت، فأنت جَاهِلٌ مُشْرِكٌ. وإن غِبْتَ عنكَ وعن غيْرك، فأنت مُوَحِّد عارف. **ثانيها**: أَسماء الأشخاص والأماكن، فإن عَرَفتَ اللَّهَ فِيهَا فأنت عارف. وإن أثبتَّهَا مَعَ اللَّهِ فأنت جَاهِلٌ. الأكْوَان ثابِتة بإثباتِهِ. ممحوَّة بِأحدية ذاتِهِ، مَا نُصِبت لك العَوَالم لِتَرَاهَا، بَلْ لترى فيها مَوْلاَهَا. **ثالثها**: المبهماتُ؛ من الكَائنات، كَهذا فعل كذَا، وهذه فَعَلَتْ كذا. فما دام الْعَبد ينسب التأثير للغَيْرِ، ويتوقَّع منه ضرراً أو نَفْعاً فهو جَاهِل باللَّهِ. **رابعها**: المعرف عند الناس بالرِّيَاسَة والجاه، كالسلاطين والقواد، وغيرهما، وأهل الرياسة الظَّاهرية، وكذلك أَهْل الرياسة الباطنية، كالأولياء، والصالحينَ، فَمَن عَرَف الله فيهم، ورأى أنهم مصرفون تحت قهرية الحقّ، يتصرفون بقدرته وإرادته، لَيْس بيَد أحَد منهُمْ شيء، بل لاَ وُجُود لَهُم مع الحَقّ؛ فَهُو عارف. ومن أثبت لَهُمْ ضرراً أَوْ نفعاً، ودَخَل قَلْبَهُ منهم جزع أو خَوْف؛ فهو جَاهِل بالله. دعواه أكبر من قدمه. **خامسها**: ما أُضيف لواحدٍ من هؤلاءِ، كَالأَصْحابِ وَالعَشَائر؛ فهو بِمَنْزِلتهم، لاَ وُجُود لهم وَلاَ تأثير، كَانَ اللَّهُ وَلاَ شيْء مَعَهُ. وهو الآن على ما كَان عليه. نَعَمْ الإضافة لها تأثير في المُضاف، فَمَن انضاف إلى أَهْلِ العِزِّ باللَّهِ تَعَزَّز، وَدَامَ عزه. ومن انضاف إلى أَهْل العِزّ بالخلقِ أو بالمال، ماتَ عزّهُ، وأعْقَبَهُ الذلّ. ولله درّ القائل حيْث قال:

عَلَيْكَ بِأَرْبَابِ الصدور فَمَن غَدا ... مُضَافاً لأَرباب الصُّدُورِ تَصَدَّرَا
وإيَّاكَ أَنْ ترضى بِصُحْبة سَاقطٍ ... فتنحطّ قَدْراً من علاك وتحقرَا

وأَرْبابُ الصدور؛ هُمُ العارفون باللَّهِ الَّذين صدرهم اللَّهُ لنَفْع عبادِهِ، والدّعاء إِلَيْه، على قدم رسول الله ﷺ. والسَّاقط: هو الْجاهل باللَّهِ وبِأحكَامِهِ كائناً مَنْ كَانَ. وكَان الإمام مالك رضي الله عنه كثيراً ما ينشدُ هَذَا البَيْت:

عَنِ الْمَرْءِ لاَ تَسْئَلْ وَاسْأَلْ عَنْ خَلِيلِهِ ... فَكُلّ قَرِينٍ بِالْمُقَارِنِ مُقْتَد

وبالله التوفيق.

بَابُ الْعَطْفِ: العطفُ في اللُّغَة: الرّجُوع والتثني، يُقال: عطف الفارس على قرْنه إِذا رَجَعَ. وعطفت هذا الثوب عَلى هَذَا، إِذا أثنيته عليه، وأَمَّا في الاصطلاحِ، فقسْمَانِ عطف بَيَانٍ وعطف نسق، ولم يتكلّم المؤلف على عطف البيان لقلته. ولإِمكَان إِدْراجه في البَدَل؛ لأنه موافق له غالباً. والفرق بيْنهما: أَنَّ البدل على نية تكرار العامل. وعطف البيان العاملِ فيه، هو العامل فيهما قَبْلَه. فلذلك كل مَوْضع يصلح للبيان. يصلح للبدلِ، إِلاَّ إِذا كَان العامل في الأول، لا يصلح لمباشرة الثاني، نحو يا زيد الحارث فيتعيَّن فيه البيان، إِذ لاَ يصحّ أن تقول يا لحارث. وكذلك قول الشاعر:

أَنـا ابـن الـتـارك الـبـكـري بَـشْـر ... عـلـيـه الـطـيـر تـرقـبـه وقـوعَـا

فبشر عطف بيان، وَلاَ يصح في البدلية، إِذ لا تقول: أَنا ابن التَّارك بَشر، إِذ لاَ يصحّ المقرون بأل، إلى المجرّد مِنْهَا. وعطف البَيَان، هو كما قال ابن الحاجب: تابع غيْر صفة، يُوضح متبوعه. وقال في الألفية:

فَـذُو الـبَـيَـانِ تَـابـع شِـبْـه الـصـفـةْ ... حـقـيـقـة الـقَـصْـدِ بِـهِ مُـنْـكَـشِـفـةْ

فالنَّعْت يُوضح ما قَبْلَهُ بِصفَتِهِ، والبيان يُوَضح ما قَبْله لبَيَان ذَاتِهِ. ويكون في المعارف والنكرات، فمثاله في المعارف، قول الشاعر:

وثـبـاً قـسـم بـالله أبـو حـفـص عُـمَـر ... مـا مـسـهـا مـن نـقـب وَلاَ دبـر

فَعمر عطف بيان، لأَبي حفص. ومثاله في النكرات، قوله تعالى: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾. فزيتونة بيان لشجرة. وَلاَ التفاتَ لمن مَنَعَه في النكرات، قال ابْن مالك: فَقَدْ يَكُونَانِ مُنَكَّرَيْنِ، كَمَا يكُونَانِ مُعَرَّفَيْنِ؛ وهو في مطابقة لمَا قبلهُ كالنَّعْت الحقيقي، فيتبعه في أَربعة من عشرة، وقد بيّنت في النَّعْتِ. وأَمَّا عطف النَّسَق، فهو الَّذي ذكره المصَنّف، والنَّسَق بفَتح السّين. اسم مَصْدَر، ونسقت الكَلام، أَنْسَقه نسقاً بالتسكين أي عطفت بعْضه على بَعْضٍ. والمراد بِهِ المَنسُوق. وأَمَّا في الاصطلاح، فهو تابع لِمَا قَبْله، بواسطة حَرْفٍ متبع، فتابع جِنْسٌ، وَبِوَاسطته خرج سَائر التوابع؛ لأنها بِغَيْر وَاسطة. وكقوله متبع ما بعد، أي التفسيرية في نَحْو قَولِكَ: مَرَرْتُ بِغُضَنْفَر. أي أَسَد، فأَي حَرْف تفسير، وأَسَد عطف بيانٍ. ثم عَدَّ حروف العَطفِ فقال: (ص) وحُرُوف العطف عشرة (ص) أي عند الجمهور، وأَسقط بَعْضهم لكن، وبعضهم إِمَّا. (ص) وهي الْوَاوُ (ش) وهي لمطلق

الجَمْع، فيعطف بها اللاّحق على السّابق. نحو: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ». والسَّابق على اللاّحق، نحو: «وَلَقَد أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وإِلى الذِينَ مِنْ قَبْلِكَ». والمُصَاحِب في الحُكْم، نحو: «فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ»، وإذا قلت: جَاءَ زَيْد وَعَمْرٌو، يَحْتَمِل المعاني الثلاث. قال ابن مالِك: وكَونها للمعية أَرجح، وللترتيب كثير، وللعكْس قليل، وقال كثير من النحويّينَ: إنها تفيد الترتيب. وأَخَذ به الشافعي، فأَوجب الترتيب في الْوُضُوءِ، ونقله الرّضَى عن الكسائي، وابن مردويه، يعني إفادتها الترتيب. (ص) والفاءُ، (ش) وهي للترتيب والتعقيب، تقول: جاء زيْد فَعَمْرو. أي متصلاً بِهِ، ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ﴾. أي كَان قتله عقب اللّقاءِ، والتعقيب في كل شَيْء بِحَسَبِهِ، تقول: تزوج فلاَن فكَان بولد لَهُ. إذا لَمْ يكن بيْنها إلاّ مدة الحمل، وتقول: دَخَلْت البُصْرة فبغداد إذَا لم يكن بَيْنه وبيْن دخولها إِلاّ ثلاثة أَيّام. وقد تفيد السببيّة، إذا عطفت جملة أَو صفة، فالأول، كقوله تعالى: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾. ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾. والثاني؛ قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ﴾ وقد تجيء في ذلِكَ، بمجَرَّدِ الترتيب، نحو: «فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ»، أيْ مال فجاء بِعجْلٍ سَمِينٍ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِم «لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَة مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ». وقد تكونُ بِمَعْنَى ثمّ كما في التسْهيل. كقوله تعالى: ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ الآية، (ص) وثُمَّ (ش) وهي للترتيب مَعَ الْمُهْلَةِ. وقد تقع مَوْقع الفاءِ كَقَول الشّاعِر:

كَمَرِّ الرُّدَيْن تحت العجاج جَرَى في الأنابيب ثم اضطرب

أي جَرَى فاضطرب. وقد تبدَل تاؤها فاءً. ويقال: فَمَّ، ويقال ثمتْ بإسْكانِ التّاءِ وفتحهَا (ص) وَأَوْ (ش) وهي موضوعة لأحدِ الشيئَيْن أَو الأشياء، وَلَهَا ستّ مَعَانٍ. أَحدها التخييرُ، نحو: تزوجْ هنداً أَو أُختهَا. **الثاني** الإِبَاحَة، نحو: جالس الأولياء أَو العلماء، والفرْق بيْنهما، أَنَّ التخيير لا يَجُوزُ الْجَمْعُ بيْنَهما، بِخِلاَفِ الإِباحَةِ. **الثالث**: التقسيمُ، نحو: الكَلمة اسم أَو فعلٍ أَو حَرْف. **الرابع**: الإِبْهَام، نحو: «وإِنَّا أَو إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدَى أَوْ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ». **الخامس**: الشَّكّ، نحو: «لبِثنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْم». والفَرْق بَيْن الإِبْهام وَالشكّ. أَن الإبهام، المتكلم عالم بالحكْم، وَأَبْهَم على السّامع، وَالشكّ لاَ علمَ عِنْدَهُ، وهو شاكّ. **السَّادس**: الإِضراب، بمعنى بَلْ. كقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾. أَثبتهُ ابن مالك، وتوزع فيه، وقَدْ تَرِدُ بِمَعْنَى الواو، كقول الشاعر:

جـاء الـخِـلافَـة أَوْ كـانـت عـلـى قـدر كـمـا أتـى مُـوسَـى ربـه عـلـى قـدر

والمراد به: عُمَر بن عبد العزيز، أي جاء الخِلافة، وكَانت على قدر سابق. لم يتشوق إليها، ولم يطلبْهَا، وقد ترد بمعْنى التقريب، نحو: لا أَدري اسلم أَو ودع، وترد بمعنى إِن الشرطية، نحو: لأَضربنه عاش أَوْ مَات، أي إِن عاش بعد الضرب أَو مات. قاله السّوداني. وفيه نظر، فإن أَوفى المِثال لا يصلح مَوْضعها إن فَتَأَمَّلْهُ هـ. (ص) وَأَم (ش) لطلب التعيين، وتقع بعد هَمْزة دَاخلة على أَحَد المتساويْين، نحو: أَزيد عندكَ أَم عمرو. إذا كنت قاطعاً بأَن أَحَدهما عنده، ولكنك تشككتَ في عيْنِهِ أَوْ بعد همزة التسوية. وهي المسبوقة سواء. أَوْ ما يفيد مغنَاهَا. كَقوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ وكذلك: لاَ جناح عَلَيْكَ أَو لاَ حَرَجَ. فَعَلت أَمْ لم تفعل. وهذه الهمزَة تسبك مع ما بعدها بالمصدر، والتقدير: الإِنذار وعدمه سواء في حقهم. وهذه أَم المتصلة. وأمَّا المنقطعة؛ فهي الخالية مع هَذِه القيود، وتكون بمعْنَى بَلْ الأَضرابية، كقوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾. وكل ما بَعْدها في الآية فهو للأَضراب، وكذا قوله تعالى: ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾ وسميت منقطعة، لانقطاع الجملة التي بعدها عما قبْلَهَا. (ص) وَأَمَّا (ش) وهيَ مِثْلَ أَوْ في معانيهَا. بشرط تقدّم إِمَّا أُخرى قبلها. تقول: خُذْ مِنْ مالي إِمَّا دِرْهماً وإِمَّا دينَاراً. وجَالسْ: إِمَّا الْعُلماء أَو الأولياء، وهكَذَا. وقيل: ليْسَت بعاطفة. وإنما العاطف الواو وقَبْلَهَا؛ وهي تفصيلية. (ص) وَبَل (ش) للإِضراب والرّد على الخطأ من الحكم بعد نفي. نحو: مَا قَامَ زَيْدٌ بَلْ عَمْرو. ولصَرْف الحكْم إلى ما بعدهَا بعد الإِيجاب، نحو: قام زيْد بل عَمْرو. (ص) وَلاَ (ش). وهي نافية، لِلرَّدِّ على الخَطَإِ في الحُكْم بعد الإِيجاب. تقول: جاء زيد لاَ عَمْرو، ردّاً على مَن اعتقد مجيء عمرو. ويُعطف بِها أَيْضاً بعد الأمر، نحو: اضرِبْ زيداً لاَ عمراً. وبعد النّداءِ، نحو: يا زيْد لاَ عَمْرُو. قال في الاتقان: لَمْ تقعَ لاَ عاطفة في القرآنِ. (ص) ولكِنْ (ش) وهي للاسْتدراكِ، وَلاَ تعطف إلاَّ المفردات ويشترط خلوها من الواو ومع تقدم نفي أو نهي نحو: ما قام زيد لكن عمرو. ولا تضرب زيداً لكن عمراً. فإِن قرنَتْ بِالواوِ، وكَانت حرف ابْتداءِ، كقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ فرسول الله خبر كان محذوفة أي ولكن كان رسول الله. (ص) وحتى في بعض المواضع. (ش) اعلمْ أَنَّ حتَّى تسْتعمل على ثلاثة أَوْجُه، **أحدها**: أَن تكون حرف جَرّ، نحو: (حتَّى مطلع الْفَجْرِ)؛ وهي التي ينتصب المضارع بَعْدَها بأَن مُضْمَرة، **ثانيها**: أَن تكون ابتدائية؛ وهي الدّاخلة على الجمل الإسمية، كقَوْلِ الشاعر:

فَـمـا زَالَـت الـقـتـلـى تـبـيـح دِمَـاءَهَـا بـدجـلَـة حـتَّـى مـاءَ دَجْـلَـة أشـكـال

أَو فعلية؛ التي فِعلها ماضٍ، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَفَوا﴾ أي كثروا. **ثالثها**: أَن تكون حَرْف عطفٍ؛ وهو قليل. وَلاَ يكون إِلاَّ بَعْضاً مِمَّا قَبْلَهُ. أَوْ كَالبعضِ. تقول: قَدِمَ الحُجَّاج حتى المشاة. أَو أَعجبتني الجارية حتى كَلامها، فإِنَّ الكَلام لَيْس بعضاً. لكنَّه كالبَعْضِ. وقد يكون المعطوف مُبَايناً لمَا قبلهُ، فيقدَّر بعضيته. كَقَوْلِ الشاعر:

القى الصحيفة كي يخفف رحله والـزاد حـتـى نـعـلـه ألـقـاهـا

أي ألقى ما يثقله حتى نعله، ولا يكون المعطوف بها أيضاً إلا غاية لما قبله في شرف أو في خسة تقول: مات الناس حتى الأنبياء وجاء الناس حتى الحجامون وقد اجتمعا معاً في قول الشاعر:

قـهـرنـاكـم مـن الـكـمـاة فـأنـتـم تَـهَـابـونـنـا حـتـى بـنـيـن الأصـاغـر

واختُلِف في حَتَّى هل هي لمطلق الجمع كَالْواو، أَوْ للترتيب كَالْفَاءِ. أَوْ بيْن الفاءِ وَثم خِلاَف (ص) فَإِنْ عطفتَ بِهَا (ش) أي بهذه الحروف العَشرة. (ص) عَلَى مرفوع رَفَعْتَ، أَوْ عَلَى مَنصُوبٍ نَصَبْتَ. أَوْ على مخفوض خفضتَّ. أَوْ عَلَى مَجْزُوم جَزَمْتَ. تقول (ش) في العطف على المرفوع. (ص) قَامَ زَيْدٌ وعَمْروٌ. (ش). وَفِي عطف المنصوب (ص) رَأَيت زَيْداً وعَمْراً وَ (ش) فِي عطف المخفوض (ص) مررت بِزَيْدٍ وعَمْرو. (ش)، وفي عطف المجزوم، زيد لَمْ يَذْهَبْ ويقم. ومنه قوله تعالى: ﴿يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا﴾ ومِثالُه في النَّصْبِ فِي الفِعْلِ قوله تعالى: ﴿لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةً مَّيۡتًا وَنُسۡقِيَهُۥ﴾. وفي الرفع «وَلاَ يُوذَنُ لَهُمْ فَيَعتذِرُونَ». وَلاَ يشترط اتحاد الفِعْلَيْن، فيجوز حذف المضارع على الْمَاضِي، مع اتِحَادِ الزَّمان، كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيۡرًا﴾. ثم قال: «وَيَجْعَل لكَ قُصُوراً». فيجعل على قراءة الجزمِ معطوف على ويجوز عَطْف الاسم الشبيه بالفِعْلِ، على الفِعْلِ، كقوله تعالى: ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَمُخۡرِجُ﴾. وقيل معطوف على فَالق فلا دَليل فيه. ويجوز العكسُ؛ وهو عطف الفعل على الاسم الشبيه به. كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ﴾. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُصَّدِّقِينَ وَٱلۡمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقۡرَضُواْ﴾. وإنما صحَّ العطف مع اختلافِ الجنْسِ لصَيرورة أَحَدهما إلى الآخِرَ بالتلوينِ، فيؤول قَوْلُه: «ويقبِضْنَ» بقَابِضَاتٍ. والمصدقين بالَّذين تَصَدّقُوا وأقرضوا. واللائي تصدقن وأَقرضن ومخرج، يُؤَوَّل

بيخرج، وهكذا، وتعطيف الجملة الاسْمية عَلَى الاسمِيَة. والفعلية على الفعلية. والعكس فيهما، والله تعالى أَعْلَمُ.

الإِشَارَةُ: علامَة العطفِ مِنَ الله على عبْدِهِ عشرةٌ، هِدَايته وتوفيقُهُ، وتوليته وتقريبُهُ من حَضْرَتِهِ. وكشف حِجَابِهِ، وانتقامهُ من أعْدائه. وقيامُهُ بشؤُونِهِ بِلا تَعَبٍ، وقَذْف محبَّتِهِ في قُلُوب عبادِهِ. وإنهاض القلوب بهِمَّته وَحَالِهِ وكَلامِهِ. وعَلاَمَة العطف من العَبْدِ عَلى مَوْلاَهُ: امتثال أَمْرِهِ واجْتناب نَهْيِهِ، والإكثار من كثرة، والاستِسْلاَم لقَهْرِهِ ومحبَّة كَلاَمِهِ. ومحبَّة رسوله ﷺ. ومحبَّة أَهْل بيْتهِ، ومحبَّة أَوْليائِهِ، وصحبتهم وخِدمتهم، والثقة بِرَبِّهِ، والتوكل عليه في جميع أُمُورِهِ، وعَدَم التدبير ولا الاختيار مع رُبُوبيته، والرِّضَى والتسليم لجميع أَحْكامه الجلالية والجمالية، وتحقيق معرفته، ودوام شهودِهِ. والحضور معه في جُلِّ أوقاتِهِ. فَهَذِهِ علامة المحبَّة مِنَ الجانِبَيْنِ. وقال الشيخ: من هذه الإشارة، وحروف العطف عشرة، أي أَسْبَابُهَا؛ وهي واو الجمْع؛ أَيْ جمع القلب بِالله. والجمع مع أَهْل الله، وفاء الترتيب؛ وهي ترتيب وَظَائف العبودية في الظَّاهر، على ترتيب الشريعة. فلولاَ ورد ما كَان وارداً لا يُنكِرُ الْورْد إلاَّ جَهُولٌ. وثُمَّ التي تدلّ على المهلةِ وعدَم الْعَجلة، فالتَّأَنِي مِنَ اللَّهِ، والعَجَلَة من الشيطانِ. مَنْ تَأَنَّى أصابَ أَوْ كَادَ، ومَنِ اسْتَعْجَلَ أَخْطَأَ أَو كَادَ كما في الحديث. وكَان الولي الكَاشف المجذوب، سيدي أحمد أبو سلهام كثيراً ما ينشد في هذا البيْت، حين ندخل عليه في حَالِ شبابي.

تَأَنَّ وَلاَ تَعْجَلْ لأَمْرٍ تُرِيدُهُ وَكُنْ رَاحِماً بِالْخَلْقِ تُبْلَى بِرَاحِمِ

وَأَوْ الَّتي تفِيد التخيير، فإذا خيَّره سيِّده، اختار العبودية على الحرية فبِقدر ما يتحقق بالعبودية في الظَّاهر. تتحقق له الحرية في الباطنِ. والعبودية هي السّفليات دون الْعلْويات أو الإباحَة، فَيبيح ماله وعرضه لجميع الخلق، كَأَبي ضمضام، فالصُّوفي مَالُهُ مُبَاحٌ، ودَمه هَدَرٌ أو التقسيم، فَيُقسم ما جعله الله على يَدَيْهِ، من الأرزاق الحِسّيَّة والمعنوية، كالعلوم والأسرار على من يسْتحقها. «قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ»، فيخاطب كل واحدٍ على قَدْر فَهْمِه وعَقْلِهِ، أو الإِبْهام. فيبهم ويكْتُم سِرَّهُ اكتفاءً بِعلمِ الله. اسْتشرافك أَن يعلم النَّاس بخصوصيتك دليل على عدم صِدقك في عبوديتك، أو التشكيك في وِلاَيته؛ بعدمِ التعرّضِ لأسباب الظهور وفي ذلكَ يقول المجذوب رضي اللَّهُ عنْهُ:

اخْضَرْ لِسِرَّكْ وَدُكُّ فِي الأرضِ سَبْعِينَ قَامَا

وَخَلِّ الخلائق تَشْكُو إلى يَوْم القيامَا. أو الإضراب: وهو إضرابه عن الدّنيا وَأَهْلها، وتوجهه إلى مَوْلاَهُ، فَبِقَدْرِ مَا يَغِيبُ فِي حسّ الظَّاهر، تشرق عليه أنوار الباطِنِ. قال الشيخ أَبُو الحسن رضي الله عَنهُ: غِبْ عن حسّ ظاهركَ، إنْ أردت فتح باطنكَ هـ. وأم التي يطلب بها التعيين؛ وهو تعيين الحق فَيُتَّبعُ. ومن الباطل فَيُجْتَنَبْ، أو تَعْيين طريق السلوكِ، فَيَسْلكها على يَد أَهْل التَّسْوية فَيَسْتوي عنده الذَّهب والتراب، في عَدَم الرَّغبَة والذّل والعِزّ، والفقر والغِنَا والذَّم، والْمَدْح والمَنْع والعَطا وهكذا تسْتوي عندهُ الأحْوَال، فيتحققُ بِمَقَام الاسْتواء. الَّذي يتأَهَّل به للولاية الكبرى. وأَمَّا ما جرى في أَوْ فَيجري فيها. وَبَلْ تشير إلى إضْرَاب المريد عن الكَوْنَيْن، غَيْبة في المُكَوّن. فناء وشهوداً. وَلاَ تَنْفِي السّوَى، وتُثبت المولى، فتقول: الحق موجود لاَ غَيْره، ولكن تشير إلى اسْتدراك ما فات من الْعُمرِ في البطالة والتقصير، بالجدّ فيما بقي. والاجتهاد والتشمير. قال أمير المؤمنين سيدنا علي رَضِي الله عَنهُ وكَرَّم وَجْهَه. نعم بقية عُمرِ المُؤمِن يدرك بهَا العبد ما فات. ويحيي مَا أَمات، وحتى: تشير إلى انتهاء السَّيْر بالوصول إلى غَايَة المعرفة والتمكين من دوام الشهودِ. فإن عطفْت بها على مَرْفوع رفَعْتَهُ، أي زدتَ في مَعْرفتِهِ، أو منصوب للتوجّه والسَّيْر، نَصَبْتَهُ لَهُ. حتَّى وصَلْتَهُ، أَوْ على مخفوض لِلْهَوَى والنَّفْسِ بالْمُجَاهَدة والمُكابدة، خفضتها. وأَعَنْته عليهما. أَوْ على مجزوم السَّيْر؛ طالب الوصول جَزَمْته، وشددت عقده، حتى يُشاهد أَسْرَار ذاتِك، وأنوار صفاتك وبالله التوفيق. وهو الهادي إلى سواء الطريق.

بَابُ التَّوْكِيدِ:

وهو مصدر وكّد، ويُقال التأكيد، مصدر أَكّد. والأول أكثر وأَفْصح، وهو لغة القرآن. قال تعالى: ﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾. وهو على قسْمَيْنِ، لفظي وَمَعْنوي، فاللفظي إعادة اللفظ بعيْنِهِ وتقويته بِمُرَادِفِهِ نحو: انزل نزال، ويكون في الأسماء، نحو قول الشاعر:

أَخَاكَ أَخَاكَ إِنَّ مَنْ لاَ أَخَا لَهُ ... كَسَاعٍ إلى الهَيْجَا بِغَيْرِ سِلاَحِ

وبعده:

وإن ابن عم المَرْءِ فاعلم جناحه ... وهل ينهض البازي بغير جناحِ

ويكون في الأفعال كقول الشاعر:

فَأَيْنَ إلى أَيْن النجاة ببغيتي ... أَتَاكَ أَتَاكَ اللاَّحقون احبس احبس

وفي الحروف، كَقَوْلِ الشاعر:

لاَ لاَ أَبُوح بِحُبُ بثينة إنَّها ... أخذت عَلَيَّ مَوَاثِقاً وعهودَا

وفي الجُمل نحْو: أيا من لست أقلاه ولا في العبد أنساه. لك الله على ذلك لك الله. ونحو:

قُمْ قائماً قُمْ قائماً قُمْ قائماً ... إنَّك لاَ ترجع إلاَّ سَالماً

قال عزّ الدين ابن عبد السلام: اتفَق الأدباء، أنَّ التوكيد اللفظي في لسَان العربِ لا يزيد على ثلاثة مرات هـ. وقد يكون اللفظي مكرّراً بِغَيْرِ لفظِ الأوَّلِ، إلاَّ أنه عيْنه في المَعْنَى. قالوا: حسن بسن وشيطان ليطان. ورجس نجس، وجائع نَائع، فالثاني تأكيد لفظي لا مَعْنوي؛ لأنه بألفاظ مَعْلُومَة، وليْسَت هذه منها. وأما التوكيد المعنوي، فَحَدَّه ابن الحاجب بقوله: تابع يقرر متبوعه في النسبة والشمول. وعرّفه المصنف بقوله (ص) التوكيد تابع لمؤكده في رفعه ونصْبه وخفضه وتعريفه (ش) ولم يقل وتنكيرهِ، لأنَّ مذهَب البصريينَ، منع توكيد النكرة؛ لأنْ المجهول لاَ يؤكَّد. وجوَّزه الكوفيون إنْ أفاد وهو الصحيح. قال في الألفية:

وَإنْ يُفِدْ توكيد منكورٍ قُبِلْ ... وَعَنْ نُحاة الْبُصْرَة الْمَنْعُ شَمِلْ

وصحة توكيد النكرة بشرطيْن. كوْنها موقتة محدودة، وكَوْن التوكيد من ألفاظِ الإحاطة والشمول وذلكَ نحو قولكَ: صمْت شهراً كُلَّهُ. وسَنَة كلهَا. ومنه قول الشاعر:

لكنَّه شأنه إن قيل ذا رجَبْ ... يَا لَيْت عدَّة حول كله رجب

وقول الآخر:

يَا لَيْتَنِي كُنْتُ صَبِيًّا مُرْضعاً ... تَحْمِلُنِي الذَّلْفَاءُ حَوْلاً اكْتَعَا

إذَا بكَيْت قَبَّلَتْنِي أرْبَعَا ... إذا أَظَلَ أَبْكى الدَّهر أجْمَعَا

والذَّلفاء: البكْر. قال المصنف: (ص) ويكون بألفاظ معلومة؛ وهي النَّفس والْعَيْن (ش) قلت: أما النَّفس والعَيْن فيؤكَّد بهما يَرفع توهم المجاز، من حَذْف مضاف أو غيره. أو السهو أو النسْيان. فإذا قلت: جاء زيد، فيحتمل جاء خبره أو كتابه أو رحله، فإذا قلْت نفسه، ارتفع ذلك الإيهام. وثبتت الحقيقة، فإن أكّدا مثنى أو مجموعاً، جُمعَا على وَزْن أَفْعَل تقول: جاء الزَّيدان أنفسهما، أَوْ أَعْينُهُما، وجوز ابن مالك وولده تثنيتهما، ومنع ذلك أَبُو حيان. وإن اجتمعا أخرت العَيْن

وُجُوباً، تقول: جاء زيد نفسه عيْنهُ. ويجُوز جرهما بالبَاءِ الزَّائدة، وامتنع ذلكَ في غَيْرهما، وأمَّا (ص) كل وأجمع وتوابع أَجْمَعُ (ش) فيذكر بهما لإرادة الإحاطة والشمول. وتوهم إطلاق البعض على الكُلّ. ووجع في أجمع وتوابعه، أن تكون غيْر مُضَافة، فالخلوّ من الرّابط شرط فيها. كما يشترط في الجملة المضاف إليها. (ص) تقول: قام زَيْد نَفْسُهُ (ش) أو عيْنه، وَرَأَيت زيداً نفسَه أَو عيْنهُ. وَمَرَرت بزيد نفسه أو عيْنه. أو جاء زيد بنفسه أو بعينه. وجاء الجيْش كُلُّه، والقبيلة كلها، والقوم كُلّهم، والهندات كلهنَّ. (ص) وَرَأَيْتُ القَوْمَ كُلَّهُمْ (ش) وجاء الجيْش أَجْمَع. والقبيلة جَمْعاً. (ص) وَمَرَرْتُ بِالقوم أجمعين (ش) والهندات جمع. وأما توابع أجمع؛ فهي أكتع وأبصع، وأبتع، فأكتع مشتق من ثوبٍ كتيع، أي كَامِلٍ. وتَكَتَّعَ الجِلْد: إذَا اجْتَمَعَ وتقبّض. وأبصع قال الجَوْهري: البَضع: هو الجمع. سَمعْته من بَعْض النحويينَ، وَمَا أَدْري ما حجّته. وأبْتَ من البَتْع؛ وهو طول العنق. يُقال: بَتَعَ الرَّجُل فهو بتع طويل العُنُق. والأنثى بَتعة، فإذا اجْتَمَع الثلاثة، كان الأول توكيداً مَعْنَوياً، والباقي لفظياً. ومن ألفاظِ التوكيد: كِلاَ وَكلْتَا متصلان بِضَمير المؤكد، مستغنًى بهما عن تثنية أجمع وجمعاً، نحو: جاء الجيْشان كِلاهُمَا. والقبيلتَان كِلْتَاهُمَا، وَلاَ يؤكَّد بهما، وبِكلّي إلاَّ مالَهُ أَجْزَاء. فَلا يُقال: جَاءَ زيْد كُلّه، إذْ لاَ يتوهَّم مَجِيء بَعْضه. وَلاَ تقول: جاء الزَّيدان كِلاَهما، وَلاَ الهِنْدَان كلْتَاهُمَا؛ لعَدَمِ تجريتها، هكذا سَمِعْت من بَعْض مَشايخنَا، وَيَرُدُّه قوله تعالى: ﴿أَوْ كِلَاهُمَا﴾ فإنه توكيد لضمير الوالديْن، أي هما كِلاَهما. فَتَأَمَّلْهُ. فرْع: إذا أَردتَّ أن تؤكد الضمير المتَّصلَ بِالنَّفس أو بالْعَيْنِ أو بهِمَا. لم يَجُزْ ذلِكَ، إلاَّ بعد تأكيده بالضَّمير المنفصل. تقول هند خرجتْ هيَ بِنَفْسِهَا، أَوْ عيْنهَا، إذ لَوْ قُلْتَ خرجت نَفْسها، لاختَمل المَوْت، وكذلكَ خرجَتْ عَيْنها، لاختمل خروج الْعَيْنِ. وحمل على ذلكَ ما سِوَاهُمَا، نحو: زَيْدٌ قَامَ هُوَ نَفْسُهُ، ومَرَرْت بِهم أَجْمَعِينَ. والكَلام هنا يطول، فلْيُنْظر في مَحَلّهِ.

الإِشَارَةُ: التوكيد في الأمور، والعَزم عليها، والجدّ في طلبها، تابع للمؤكَّد المطلوبِ، فإنْ كَان أَمراً رفيعاً عظيماً، كمعرفة الله وَرَسُوله بِالعيانِ، فالتوكيدُ والعزم يكون بليغاً عظيماً. فَالحَضْرَة مَهْرها النفوس، فَبَذْل الأرواح والمُهَج قليلٌ في حَقِّهَا. فالله تعالى عزيز لاَ يُنَال إلاَّ بِدَفع العزيز عندكَ؛ وهو نَفْسَكَ، فبقدر أَتْعَابِها تكون راحَتها، وبقدر بيْعها والغَيْبَة يَعْظُم مَقَامُهَا. فَبِقَدر الكَدُّ والجدّ تدرك المعاني، كما قال الشَّاعر:

بِـقَـدْرِ الـكَـدِّ تَـكْـسَـبُ الْـمَـعَـالِـي   وَمَـن طـلـبَ الْـعُـلا سَـهِـرَ الـلَّـيَـالِـي
تُـرِيـدُ الْـعَـزْمَ ثُـمَّ تَـنَـامُ لَـيْـلاً   يَـغُـوصُ الـبَـحْـرَ مَـنْ طَـلَـبَ الـلآلِـي

وإن كان المؤكد أي المطلوب متوسطاً، كَعِلْم الرسوم وحروف القرآن، فالتوكيد والجزم يكون متوسّطاً. فقد يَذْركه أَهْل الرياسَة والْجَاه، وأَهْل الأسْبَاب والشواغل القلبية. بخلاف المقام الأول. فلا يُذكره إلاَّ أَهْل التجريد ظاهراً وباطناً. وإن كَان المؤكد أمراً نبوياً، فالتوكيد والحرص فيه على قَدْر الهِمَّة. هذا: إشارة قوله: تابع للمؤكَّد في رفعه في المقام الأوَّلِ مع المقرَّبينَ. ونصبه أي توسطه في المقام الثاني مع الأبرار الصَّالحينَ. وخفضه في المقام الثالث مع الغافلينَ، ويتبعه أيْضاً في تعريفه، فبقدر كدّه واجتهادِهِ يكون تعريفه، وكشف الحجاب عَنْهُ. وقد يتبع في تنكيره، إن قلَّت مجاهدته وتفرّغه، فيتنكّرُ الحق له على قدر شغله عنهُ. ويكون التوكيد والجدّ في الطلب بالنَّفْس، أي بَيْعهَا وبَذْلها للحتوف والمكارة أَوَّلاً، وبالغيْبَة عَنْهَا ثانياً. ويكون بالْعَيْنِ أي بِالذَّاتِ، باتعابها في مَرْضَاة الله، وبالكِلّ، أي بالنفس والرُّوح، وكل ما تمْلك، تَهِبُه لله، ولمن يعرفك بِالله. وبالله التوفيق.

بَابُ الْبَدَلِ:

البَدَل عبارة البصريينَ، ويعبّر عنه الكوفيُّون بالترجمة والتبْيين وحده، التابع المقصود بالحكم بلا واسطة، فالتابع جِنْسٌ يشمَل التَّوابع الخمسة. وخرج بالمقْصود بالحكم سائر التوابع، ما عد العطف بهل بعد الإثبات. وَبِلاَ واسطة. العطف بِبَلْ بَعْد الإثبات. والمراد بالمقصود بِالحكم، استقلاله بِالقضْدية، وانظر المحاذي فقد حرَّز المسألة. ثم قال المصَنّف (ص) إذا أُبْدل اسم من اسم أو فعل من فِعْل تبعه في جميع إعرابِهِ. (ش) فمثال الاسم من الاسم: «إلى صراط العزيز الحَميد الله» في قراءة الجرّ، ومثال: بدل الفعل من الفِعْلِ: «وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً يُضَاعفْ». ويكون في الجمل؛ كقوله تعالى: ﴿أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ۝ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ﴾ الخ. وقوله: في جميع إعرابِهِ يُفْهَم منهُ، أن البَدَل لاَ يتبعُ ما قَبْلَهُ فيما سِوَى ذَلِكَ. من التعريف والتَّنكير، والتذكير والتأنيث، والإفراد وضدْيه؛ وهو كذلكَ إلاَّ في التَّذكير والتأنيث، والإفراد وضِدّه. فتبدل النكرة من المعرفة. كقوله تعالى: ﴿لَنَسْفَعًا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝ نَاصِيَةٍ﴾، والمعرفة من النكرة، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾. وأما النكرة من النكرة، والمعرفة من المعرفة فواضح، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝ حَدَآئِقَ﴾. وقوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ

عَلَيْهِمْ﴾. وأما التذكير والإفراد وأضدادهما فإن كان بدل الشيء من الشيء فلا بد من المطابقة إلاَّ لمَانع كما تقدَّم في الآية: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا حَدَآئِقَ﴾. فإنه مُنع مِنْ جَمْع مَفاز، كونه مَصْدَراً، فإنَّ المَصْدَر لاَ يثنَّى وَلاَ يُجْمَع. كما أنه إذا قصد تفصيل البدل لم يكن مطابقاً كقول الشاعر:

وكُنْت كَذِي رِجْلَيْن رجل صَحيحَة ... وَرِجْل رَمَى بِهَا الزَّمَانُ فَشُلَّت

وأمَّا أنواع البَدَل الباقية، المبيَّنة فيما يأتي فلا يلزم المطابقة في ذلكَ، ثم بيَّنَ أَنْوَاع البَدَل فقال (ص) وهو عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَام: بَدَلَ الشيْءِ من الشيْءِ، وبدَل الْبَعْضِ مِنَ الكُلِّ. وبَدَل الاشتمَال، وبدل الغَلَطِ. (ش) يعني. أنَّ البَدَل يَنْحَصِر في أَرْبَعَة أَقْسَام: بَدَل الشيء من الشيء؛ وَيُقال له بَدَل المطابقَةِ، وَبَدَل الكل من الكلِّ. والعبارتان الأوليَانِ أَحْسَن، لافْتِضَاءِ الثلاثةِ؛ اختصاصه بما له أَجْزَاء، مع أنه يَقَعُ فيما ليس له أَجْزَاء، كذات الحقِ تعالى، كما تقدَّم في الآية: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ٱللَّهِ﴾ ومِثالهُ: جَاءَ زَيْد أَخُوكَ. ومِثال الْبَعْضِ مِنَ الكُلِّ. أَخَذتِ المال نِصْفَهُ. وحقيقته ما كان مدلوله جُزءاً من الأول. وَلاَ فرْق بيْن أنْ يكون الثاني أقلّ من الأوّل أو أكثر، أو نصفه. وَزَاد بعضهم: بَدَل الكُلِّ مِنَ الْبَعْضِ، ومثله بقوله تعالى: ﴿يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾. وأجَاب الجُمْهُور بأنه من بَدَلِ البَعْض مِنَ الكُلِّ؛ لأنَّ الجَنَّة عامّ، وجنات عَدْنٍ بَعْضهَا، ومثال بدل الاشتمال، أعجبني زيْد عِلْمه. وحقيقته: مَا كَانَ بيْنه وبيْن الأوَّل مُلاَبَسَة بِغَيْر الكلية والجزئية. وقيل: ما يصحّ الاسْتغناء عنه بالأوّل وليس كُلاً وَلاَ بَعْضاً. وقيل: ما اشتمل العامل عليه وعلى معْنَاهُ بطريق الإجمال، اشتمالاً لاَ مَعْنَوياً. كاشتمال الظرف على المظروفِ.

تَنْبيهٌ: اسْتعمل المُصَنِّف لفظ الكلّ والبَعْض بالتعريفِ، جائز على من يَرَى تنكيرها لفظاً ومعْنًى. وأمَّا مَن قال إنهما مُلاَزِمان للإضافة، وتنوينهما للعوضِ فلا يجوز، وبه جَزَم السيوطي في أَلْفِيَتِهِ:

كُلّ وبَعْض لازمَاهَا فَامْتنِعْ ... تعْرِيفَهُ بالـلاَّم أَوْ حَالاً يَقَعْ

ثم مثَّل المصَنِّف للأقسام الأربعة فقال: (ص) تقول: قَامَ زَيْد أَخُوكَ (ش) هذا مثال لبَدل المطابقة. (ص) وأَكلْت الرَّغيفَ ثُلُثه (ش) هَذَا مثال الْبَعْضِ من الكُلِّ. وتقدَّم، أنه لاَ فَرْقَ بيْن تقدُّم الأكثر أو الأقلّ أو النّصْف (ص) ونَفَعَنِي زَيْدٌ

عِلْمُهُ. (ش) هذا مثال لبدل الاشتمال. ويشترط في هذيْن النَّوْعيْن اشتمالها على رابطٍ يربطهما بالمبدل منهُ. إمَّا ضميراً أو ما يقوم مَقَامَهُ لفظاً أو تقديراً. فاللفظي ما تقدم، والتقديري، كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ﴾ مِنهُم ومثال المقدر في الاشتمال، قوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ٱلنَّارِ﴾ فالنَّار بَدَل من الأخدودِ، أي النَّار فيه. وقال الكوفيونَ: أل نائبة عن الضَّمَّة، فلا تقدير. ثم مثَّلَ لبَدلِ الغلطِ فقال. (ص) ورأيت الفرس فَسَبقك لسَانك لذكر زيد، ثم نطقت بها قصدت. فالفرس بدل غَلَط، أي بدل من الشيْءِ الذي ذكر غلطاً، لأنَّ البّدل هو الغَلَط، كَمَا قد يتوهَّم. فالغلط إنما هو في الْمُبَدل مِنْهُ لاَ فِي الْبَدَلِ؛ وهذا هو أَحَد الأقسام في بدل الغلَط، وبقي عليه نوْعانِ، الأول بَدَل الإضراب، ويسمَّى بَدَل البداء، والثاني بَدَل النسْيان، والفَرْق بيْنهما، أَنَّ بدل الإضراب المقصُود هو الأول. ثم ظهر فساد ذلك القصد. وقصدت الأول. ثم تَذَكَّرْتَ فَسَاد قَصْدكَ. ومِثال ذلكَ: خذْ ثوباً كتاباً. فيصحّ مثالاً للأقسام الثلاثة، فإن كَان القَصْد، الأمر بأخذ الكتاب، لكن سبق اللّسَان لذكر الثوب، فبدل غلط، وإن كان المقصود الأمر بأخذ الثوب، ثم تبيَّن لك فساد ذلكَ القصْد. وإن الصواب هو أَخْذ الكتاب فبدل الإضراب ويسمى بدل البداء. وإن كان المقصود أخذ الكتاب لا غير إلا أنه عند إرادة الكلام والأمر ذهب من الحافظة ونسي وخطر مكانه الأمر بأخذ الكتاب فبعد أن ذكره زَال النّسْيان، وتعيَّن فسَاد إرادته. فَذَكَرَ الكتابَ. فَهَذا بَدَل النّسْيانِ، فالغلط محله اللسان، والنّسْيان محله الجنان، لكن الأحْسَنِ في الأنواع الثلاثة، أن يؤتى بِبَل المقيدة للإضراب. ومثال بَدَل الاشتمال في الفِعْل: إنْ تُصَلّ تَسْجُد لله يرحَمْكَ، ومثاله في الغلط، إن تضرب تكرم زيداً يعظّمْكَ. وَيُبْدَل الظَّاهر من الظَّاهر كما تقدَّم. والمُضْمَر من المُضْمَرِ، نحو: أَكْرَمتك إيَّاكَ. وقيل توكيدٌ. وأَمَّا المضَمَّن من الظَّاهر فَلَمْ يَقَع، نحو: أَكْرَمْت زَيْداً إيَّاهُ. وأَمَّا الظَّاهر من الْمُضْمر فجائز. إن كَان بَعْضاً أَو اشتمالاً. أَوْ دَلَّ على إحاطةٍ. فالأوَّل، أعجبتني وجهك، والثاني، كقول الشاعر:

فَما أَلْفَيْتني حلمي مضاعاً. والثالث، نحو: جئتم كبيركم وصَغيركم. ومنه قوله تعالى: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾ والله تعالى أَعْلَمُ.

الإِشَارَةُ: إذا أُبْدل اسم من اسْم في مقام الفناء في الذَّاتِ، فيترقَّى من اسم العبد إلى اسم الرَّبِّ، حين تستولي عليه أنوار الحقائق، فيغيب العَبْد في وجود

الرَّبِّ؛ وهو مقام الوصال والاتصال، يغطي الحق تعالى وصف عبده بِوصفهِ ونعته بنعتهِ، فيوصله بما منه إليه، لاَ بِما في العَبْد إليه، فيغطي وصف العبودية، بوصف الرّبوبية، ونعْت الحدوث بنعْت القدم، فيفْنَى الحادث، ويبقى القديم، أو فعل من فِعْل في مقام الفناءِ، في الأَفْعَال، فَلاَ يَرَى فاعلاً قط إلاَّ اللَّهُ. وفي هَذَا المقام، قال الشاعر:

إذا مَا رَأيتَ اللَّهَ في الكُلِّ فاعِلاَ　　رأيت جميع الكائنات سلاحا

وهذا بداية السَّالكينَ، ونهاية الصالحين ووسط الفنا في الذات للمستشرفين. قال القطب ابن مشيش رضي الله عنه. حقيقة الشُّرْب أي شرْب الخمرة، المحبَّة: مَزج الأوصَاف بِالأوْصافِ، والأفعال بالأفعال، والأسماء بالأسماء، والأنوار بالأنوارِ الخ كَلامه. والمراد بالأَنْوَارِ الذَّوات بالذَّوات. ومَعْنَاه: الغيْبة في اللَّهِ عما سواهُ. وقال الشيخ أَبو العبَّاس المرسي رضي اللَّهُ عنهُ، لله رِجَال محا أوصافهم بأَوصافِهِ، وأفعالهم بِأفعالهِ، وذواتهم بذواتِهِ، وَحَمَّلهم من الأسْرار ما تعجز عنه عامَّة الأولياء هـ. فإِذا أَبدل اسمه باسمه، وفعْله بفعله، تبعه في جميع تجلّيَاتِهِ. فإِذَا تجلَّى سبحانه بِاسمه القابض، انقبضَ، وينقبض الوجود بقبْضِهِ، وإذا تجلَّى باسمه الباسطِ، انبَسط، وينبسط الوجود ببسطِهِ؛ لأنه خليفة الله في أَرْضه، فكل ما يتجلَّى به تَعَالى، يتجلَّى في قَلْبِ العارف؛ الذي هو بَدَل من الله في مُلكِهِ وتصريفهِ، ثم يتجلَّى في الْوُجُودِ بجلالٍ أَو جَمَالٍ؛ هو على أَرْبَعَةِ أَنْواع، إمَّا أَنْ يكون بَدَلاً من الحق، ونائباً عنه في الكل؛ وهو مَقَام الغوْث الجامع؛ لأن المَدَ كله للدَّائرة كُلّها. حِسّي وَمَعْنَى. وأَمَّا أَنْ يكون بَدَلاً مِنهُ في الْبَعْضِ، كمقام الأقطاب، والأوْتاد، والأبْدال، والنجباء، والنقباء والصالحينَ، فإنهم يصَرِّفُونَ في بَعْضِ المَمْلكة، على حَسَبَ ما مَلّكهم الله التصريف فيه. وإِمَّا أَن يكون بَدَلاً منهُ، لاشتمالِهِ على علوم وأنوار وَأَسْرار، لَمْ تُوجدْ لغيره، وهَذَا مَقَام الأفراد؛ فإن الْفَرْد أَكْمَلُ مِنَ الْقُطْبِ الجامع في الْعِلم باللَّهِ. قال الشيخ أَبُو العبَّاس المِرْسِي رضي اللَّهُ عَنهُ: كان الجنَيْدُ قطباً في العلوم. وكَان البسطامي قطباً في الأحْوَالِ. وكان سَهْل قطباً في المقامات هـ. وقد يكون ذلك البَدَل دعوىً وغلطاً. نعوذ بِاللَّهِ منَ الدَّعوى العريضة، من القلوب المريضة، وباللَّهِ التوفيق.

بَابُ مَنصُوبَاتِ الأَسْمَاءِ: أي الأسماء المنصوبات، ثم عَدَّهَا فقال (ص) الْمَنصُوبَاتُ خَمْسَة عَشَرَ؛ وهي المفعول بِهِ، والمَصْدَرُ، وظرف الزَّمان، وَظرف

المكَانِ، والْحَال والتمييزُ والمسْتَثنى، واسْم لاَ، والمُنَادى، والمفعول من أَجْلِهِ، والمفْعُول معه، وَخَبَر كَانَ وأَخواتها. واسم إِنَّ وأَخواتها، والتابع المنصوب وهي أَرْبعة أَشياء: النَّعْت والعطف والتوكيد والبَدَل (ش) قلت: ذكر أَوْلاً؛ أنها خَمْسَة عَشَرَ. ولم يعد إِلاَّ أَربَعَة عشَرَ ولَعَلَّ الخامس عشر هو مفْعولاَ ظَنَّ وأَخواتِهَا. وأَما خَبَر ما المجازية وَلاَ وَلاَتَ، وأَنَّ المشبهات بِلَيْسَ فتندرج في كَان وأَخواتِهَا، فمثال ما المجازية قَوْله تعالى: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾. ومِثال لاَ. قولهم: لاَ أَحَد خيْر من أَحَدٍ إلاَّ بالعافية، ومثال لاَ وَلاَتَ حِينَ مَنَاصٍ، أي ولَيْس الحين حين فرار، والكلام عليها مَبْسُوط في محلِّهِ.

الإِشَارَةُ: المقامات المنصوبات للمريد إذا قطعها وَصَل: خمْسَة عشرَ:

التوبَة، ثم التقوى، ثم الاسْتقامة، وهي متابعة الرسول عليه السلامُ في أقواله وأَفْعاله وأَحْوالِهِ، ثم الخوف، والرجا، ثم الصبر والشكر، أي الصَّبْر في البلية، والشكر في النِّعْمة؛ من حيْث أنها نِعْمَة. ثم الوَرَع، ثم الزُّهد. ثم التوكل؛ ثم الرِّضَى والتَّسليم، ثم الإخلاص والصِّدْق؛ وهي التبرّي من حَوْلِهِ وقوَّتِهِ ثم الطمأنينة، ثم المراقبة ثم المحبَّة. ثم المشاهدة ثم المعرفة؛ وهي الرّسُوخ والتمكين في شهودِ الحقّ. وبالله التوفيق، ثم تَرجم المُصَنِّف كل واحدٍ فقال: (ص) بَابُ الْمَفْعُولِ بِهِ: قلت: المفاعيل خَمْسَةٌ: مفعول به، ومفعول فيه، ومفعول لَهُ، ومفعول مَعَهُ، ومفعول مطلق، وحد الجزولي المفعول الأعمّ الشامل للخمسَة، فقال: المفعول: ما تضمَّنه الفعل من حَدَثٍ وزمان، والتزَمه الحدث من مكَانٍ، واسْتدعَاهُ من محلٍ وباعث ومصاحب فالأول: المفعول المطلق. والثاني ظرف الزَّمان، والثالث، ظرف المكَان، وشملها المفعول فيه، والرابع المفعول بِهِ. والخامس: المفعول من أَجْلِهِ. والسادس: المفعول معَهُ. وَبَدأَ المصنف بالمفعول بِهِ؛ لأنه هو الذي يصدق عليه اسم المفعول عند الإطلاق وكان حقه أَيْضاً أَن يصدق على المفعول المطلق لكن صار وصف الإطلاق قيْداً فيه، فَلاَ يُذكر إلاَّ مقيّداً به فقال: (ص) وَهُو الاسم المنصوب (ش) فَلاَ يكون فِعْلاً وَلاَ حرفاً. وكوْنه منصوباً حكْم من أَحْكامِهِ. وتقدّم ما فيه، وَيُفيد نَصْبه بِمَا لَمْ يُنب عَنِ الفَاعِلِ. وقوله: (ص) الذي يَقع بِهِ الْفِعْل (ش) أي يَقَع عليه، فيكون مَحلاً لفعل الفاعِلِ. ويكون الفعل الواقع عليه حينئذٍ متعدياً، وضدّه اللاَّزم الذي لا يطلب شيئاً، ثم مثَّلَ بمثاليْن فقال: (ص) نحو قولك: ضَرَبْت زَيْداً، وركبْت الْفَرَسَ. (ش) إشارة إلى أنه لاَ فرْق بيْن صيغة فِعْل أو فعل المتعدي. فزيد والفَرَس وَقَعَ الْفِعْلُ عليْها حِسّاً.

وقد يكون الوقوع معنوياً، نحو: فهمت المَسْأَلة. وكتبت العلمَ. (ش) وهو على قسْمين: ظاهر وَمُضْمَر، فَالظَّاهِر ما تقدَّم ذِكرهُ (ش) أي مِنْ ضربت زيداً الخ (ص): والمضمر قَسْمانِ: مُتَّصل وَمُنْفَصِل (ش) وقد تقدم حقيقتها. (ش) فالمتَّصل اثنا عَشَر (ش) اثنان للمتكلم، وخَمْسَة للمخاطب، وخمْسَة للغائب. فالمتكلم (ص) نحو قَولك ضَرَبَنِي، (ش) للمتكلم وحده. (ص) وضَرَبْنَا. (ش) للمُعظم نفسه أَو مَعَهُ غَيْره، وللمخاطب (ص): ضَرَبْكَ (ش) بفتح الكَافِ للمُذَكَّرِ (ص) وَضَرَبْكِ بِكَسْرهِ للمؤنَّثِ (ص) وَضَرَبْكُمَا (ش): للمخاطبَيْن مطلقاً مُذَكَّرَيْنِ أَوْ مُؤنَّثَيْن، أَوْ مُخْتَلفيْنِ. (ص) وَضَرَبَكُمْ (ش) لِلْمُخَاطَبينَ الْمُذكَّرينَ (ص) وَضَرَبَكُنَّ (ش) لِلْمُخَاطَبَاتِ المؤنثات (ص) وَضَرَبَهُ (ش) للمذكر الغَائب. (ص) وَضَرَبَهَا (ش) للغائبة (ص) وَضَرَبَهُمَا (ش) للغائبيْن. مُذكَّرَيْن أَوْ مؤنَّثيْن أو مختلفيْنِ (ص) وَضَرَبَهُمْ (ش) وللغائِبينَ المُذَكَّرِينَ. (ص) وَضَرَبَهُنَّ (ش) للغَائباتِ. (ص) والمنفصل. (ش)؛ وهو الذي يصحّ الابتداءُ بِهِ، ويقع بعد إلاَّ في الاختيار (ص) اثنا عَشَرَ نحو قولك: إيَّاي. (ش) أكرمت للمتكلم وحْدَه (ص) وإيَّانَا (ش) للمتكلّم عظيماً أَوْ مُشَارِكاً. (ص) وإيَّاكَ (ش) للمخاطَب المُذَكَّرِ (ص) وَإِيَّاكِ (ش) للمُخَاطبَةِ. (ص) وإيَّاكُمَا (ش) للمخاطبَيْنِ، مُذَكَّرَيْنِ أَو مُؤنثيْن، أَو مختلِفَيْنِ (ص) وإياكُمْ (ش) للمخاطبِينَ المُذَكَّرِينَ (ص) وَأيَّاكُنَّ (ش) للمُخَاطبَاتِ. (ص) وإيَّاهُ (ش) للغَائِب. (ص) وإيَّاهَا (ش) للغَائبَة. (ص) وَإِيَّاهُمَا (ش) للغَائبَيْن؛ مُذَكَّرَيْنِ أَوْ مُؤَنَّثين أَو مُخْتَلِفَيْنِ (ص) وَإِيَّاهُمْ (ش) للغائبينَ الذكُور (ص) وَإِيَّاهُنَّ (ش) للْغائباتِ. واختلف في هذه الضمائر المنفصلة، فقيل: إيا هي الضمير ولواحقه حروف تدل على المتكَلِّم، أو الخطاب، أو الغيبة؛ وهو مَذْهب سِيبَويْه، وذهب الخليل إلى أَن إيَّا ضمير مضاف إلى لواحقِهِ؛ وهي ضمائر أَيْضاً. وقال الزَّجَّاجي: إنها من قبيلِ الأَسْمَاءِ الظَّاهرة، ومعناهُ: حقيقة الشيْء. قال: ومعْنَى قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أي حقيقتكَ نعبد. مشتق من الآية؛ بمعْنَى العَلامَة؛ وهو بَعيدٌ. وقيل: أيا عماد. والضمير ما بعدهَا. فهي كحرف زَائِدٍ.

فَائدةٌ: فيما يعرف المجهول به، أَنَّه يصحُّ أن يُجْعَل مبْتدأً وَيُخْبَر عنه باسم مفعول تَامٍّ. من لفظِ فِعْلِهِ، نحوُ قولكَ. ضَرَبْتُ زَيْداً، فتقول زيْد مَضْرُوبٌ. وَيَجُوز حَذْفُ المفعول بِهِ؛ إِنْ دَلَّ عليْه دَلِيل، أَو أفاد حَذفه العموم، ويجُوز حَذْفُ نَاصِبِهِ؛ إنْ عُلِمَ. وَقَدْ يكُون حَذْفُهُ ملتزماً. والله تعالى أَعْلَمُ.

الإِشَارَةُ: المفعول به؛ هو الَّذي تحقق فَنَاؤه، وَكَمُلَ بَقَاؤهُ باللَّهِ. قد غَابَ عن

وجُودِهِ؛ ووجودِ فِعْلِهِ؛ فَهُو مفعول به في كل ما يَفْعَل وَيَذُرُ لَيْسَ له عن نَفْسِهِ إخبار، وَلاَ مَعَ غَيْرِ اللَّهِ قرار، فِعْله بِاللَّهِ، وتَرْكُه بِاللَّهِ. فَمِثْل هَذَا لَمْ يَبْقَ عليه مِيزَان، وَلاَ يتوَجَّه عَلَيْهِ عِتابٌ. إِذا هُوَ نَائب عَنِ اللَّهِ في فِعْلِهِ؛ وهو عيْن من عيُونِ اللَّهِ: لأنَّ وصفهم البشري مغطى عَنهُمْ، ومغمور بنور القدم، وإلى ذلكَ يشير ما ورد من قَوْلِهم: الشأن أَنْ تكون عيْن الاسْم، أيْ عَيْنَ المُسَمَّى. وقولهم: أَصَابتك عَيْنٌ مِنْ عُيُونِ اللَّهِ. ومن ذلك قول سيدنا عمر رضي الله عَنهُ لِلرَّجل الذي شجَّهُ عليّ كَرَّم اللَّهُ وَجْهَهُ؛ والدَّم يسيل على شجّتِهِ، أَصَابتْكَ عيْن من عيُونِ اللَّهِ، بَعْدَ أَنْ سَألهُ عن سَبَبِ الضَّرْبَة. فقال: رَأَيْته مفاوضاً لامْرَأَة، فَسَاءَنِي ما سَمِعْتُ منْهُ فَضَرَبْتُهُ. وَرَدَ عَنْ أَبِي بَكْرِ في قضية أُخرى: أَنا لاَ أَقيّد من وَزْغَة اللَّهِ. والْوَزغَة كُبَراء الجَيْش، الذين يحشون بيْن صفوف الحرب لتقويمهَا وتمهيدها. وذلك إشارة منْهُمْ إلى رجَالِ القبضة المتصرفينَ بِاللَّهِ، الأمناء على أَسْرار اللَّهِ في خليفته وَمَمْلكتِهِ؛ وهم المحبُوبُونَ؛ الذينَ وَرَدَ فِيهم، فإذا أَحْبَبْتُهُ كُنتُهُ. وقال المصنف؛ وهو الاسم المنصوب لجرَيان المقادير عليه؛ لَمْ يَبْقَ لَهُ تَدْبيرٌ وَلاَ اختيار؛ الذي يقع به الفِعْل من اللَّهِ فهو آلة لفِعلهِ، وسَيْفٌ من سُيُوفِهِ، ينتقم به من أَعْدائِهِ إِذَا شَاءَ؛ وهو على قسْمين؛ ظَاهر معروف، أَظْهرَه لنَفْعِ عِبَادِهِ، أَو إقامة الحجَّة عليهم في الإنذار، ومضمرٌ خَفِيٌّ؛ وهو كَنْزٌ مِن كُنُوزِ اللَّهِ، ضَنَّ به على خلقِهِ، فَهُو مَسْتور تحْتَ أَسْتار البَشَرِيةِ، حتَّى يَلْقَى اللَّهُ. وبالله التوفيق.

بَابُ الْمَصْدَر: الصواب: التَّعْبيرُ بالمفعول المطلق؛ لأنه هو الَّذي يُنْصب دَائماً. وأَمَّا المَصْدَرُ، فقد يكون مَرْفوعاً، نحو ضَرْبُك ضَرْبٌ شديدٌ، ومجروراً نحو: عجبْتُ مِنْ ضَرْبِكَ، بخلاف المفعول المطلق؛ فَلاَ يكونُ إِلاَّ مَنْصُوباً، والعُذْر لَهُ: إنما لمَّا كان الغالب أنه لاَ يكُون إِلاَّ مَصْدَراً عَبَّرَ عَنْهُ بِالْمَصْدَرِ. وأَما ما ورد منْهُ غَيْر مَصْدَرِ، فإنه من باب النيابة كما يأتي. ولذلكَ عَرَّفه بَعْضهم بقوله: المفعول المطلق؛ هو المصدر الفُضْلة، المسلط عليه عامل من لفظِهِ، أَو من مغْنَاهُ. **فالأوَّل**: نحو: ضَرَبْتُهُ ضَرْباً. **والثاني**: جَلسْتُ قعوداً. واحتَرَزَ بِالفضلةِ من العُمْدةِ، نحو: كَلامك كَلام حسَن، وطال جلوسكَ، فإنه مصدر غير مفعول مطلق. وعَرَّفه ابْن هِشَام بقولِهِ: اسْم يؤكِّد عَامِلهُ، أَو يبيِّنُ نوْعَهُ أَوْ عَدَدهُ. وليْس بخبر وَلاَ حالٍ. وعرف المصنف المصدر الذي يكُون مفْعولاً مطلقاً فقال: (ص) وهو الاسم المنصوب الذي يجيء ثالثاً في تصريف الفِعْلِ نحو: (ش) قولهم في تصريفِ ضَرَبَ. (ص) ضَرَبَ يضرب ضَرْباً (ش) وقام يقوم قياماً. وأكرمه يكرمه إكراماً

(ص) وهو على قسْمين؛ لفظي ومَعْنوي؛ فإن وافق لفظه لفظ فعله فهو لفظي، نحو: قَتَلْتُه قتلاً. (ش) ومثلهُ: «وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تكليماً» (ص) وإن وافق معْنَى فِعْله دُونَ لفظِهِ؛ فَهُو معْنوي، نحو جَلَسْت قعوداً، وقمت وقُوفاً (ش) قلت: إنما سُمِّي الأول لفظياً؛ لاتفاق المَصْدَر مَعَ عَامِلِهِ في اللفظ المُستلزم للمعْنَى. وأما الثاني فلمَّا اختلفا لفظاً، واتفقا معْنَى سُمِّي مَعْنوياً؛ وهذا مبْنى على أَنَّ العامل في الثاني الفعل المذكور وجَعَله كثير من النَّحْوِّيينَ منصوباً بِفِعْلٍ مقدَّرٍ من لفظِهِ، فيكون لفظياً. فيسقط هذا القسم المعنوي؛ وهو على تقدير ثبوتِهِ؛ فَهُوَ مِنْ باب النيابة عن الأصْلِ. الموافق لِلَفظِ الفِعْلِ. فقد يحذف المصدر المفعول المطلق، وينوب عنه أشياء، فمن ذلِكَ. كُلّ وَبَعْض مُضَافَيْن إلى المصدر، نحو قوله تعالى: ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ ٱلْمَيْلِ﴾. ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾. وكذلك العَدَد، نحو: فأَجْلِدُوهُمْ ثمانينَ جَلْدَةً». وأسْمَاء الآلاتِ؛ نَحْوَ ضَرَبْتهُ سَوْطاً. والصفات؛ نحو: «وَاذْكُر رَبَّكَ كَثيراً» أي ذِكراً كثيراً. ومِنهُ: «فَكُلاً مِنْهَا رَغَداً أي أَكْلاً رَغَداً. وقيل حال من مَصْدَر الْفِعْلِ المفهوم مِنْهُ، أي فكُلاً حالَة كوْن الأكلِ رغداً. وانظر شرح الشيخ علي بَرَكة، فقد اسْتوفى المَسْأَلة نثراً ونَظماً. تَنْبِيهَاتٌ: **الأَوَّل**: المَصْدَرُ هو الأصل للفعلِ والْوَصْفِ، فهُمَا مُشْتَقَّانِ مِنْهُ على المختار. **الثاني**: الناصب للمفعولِ المطلق، إمَّا فِعْلهُ أَوْ مَصْدر مثلُه، نحو: «فإنَّ جَهَنَّمَ جَزاؤُكُمْ جَزاءً مَوْفُوراً». ووصف؛ نحو: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا﴾ **الثالث**: المفعول المطلق: فائدته ثلاث: ما أن يؤكد عامله نحو: ضَرَبَهُ ضَرْباً، أَوْ يُبَيِّنُ نَوْعَهُ، نحو: سِرْتُ سَيْراً حَسَناً. أَوْ عَدَدَهُ نَحْوَ، ضَرَبْتَهُ ضَرْبَتَيْنِ أَوْ ضَرَبَاً. الرَّابع: يجوز حَذْف عَامِلِ النَّوعي والْعَدَدِي دون التوكيدي، قَالَ فِي الخلاصة:

وَحَذْف عَامِلِ المؤكَّد امْتَنَعْ وفي سِوَاهُ لِدَلِيلٍ مُتَّسَعْ

واعْتَرَضَ عليه وَلَدهُ بَدْر الدِّين، بالمَصْدَرِ النَّائب عن فِعْله، كقوله تعالى: ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾. فإنَّ التقدير؛ فاضربوهم ضَرْبَ الرِّقَاب. فقد حُذِف مَعَ كَوْنِهِ مؤكداً لعَامِلِهِ، قال المَكُودِي. واعتراضُهُ؛ فَتْحُهُ. وَرَدَّه أَبو إسحاقَ الشاطِبي؛ بأَنَّ المَصْدَر النَّائب عن فِعْلِهِ؛ ليْس من المؤكَّد لعَامِلهِ في شيءٍ. بَلْ هو نائب عَنْهُ وقَائمٌ مقامَهُ في الدِّلالَةِ على المَعْنَى، فلا يلاحظ ذلكَ الفعل أَصْلاً، بَلْ صار نِسْياً مَنسياً. قال ابن غازي رحِمَه اللَّهُ؛ وَقَدْ كَتَبَ بَعْض الأَذْكِيَاءِ في طرَّة الشارحِ، قول الشاعر:

وَابْنُ اللَّبُونِ إذَا مَا لزَّ في قَرْن لم يسْتطع قوْله البزل القنَاعِيسِ

والبَزْلُ: الجمل الكبير؛ الذي بَلَغَ خَمْسَ سنينَ، أو ستاً فأكثر: والقناعيس: القَوي الغليظ وهو مثال لم يتعرض على الأكابر، ولم يبْلغ مَبْلَغهم. والله تعالى أعلم.

الإِشَارَةُ: المصدر ما صَدَرَ عن الحقّ من أنوار تجلياته، وأسْرار ذاتِهِ. وهو الاسم المنصوب، أي ما نُصب من الكَائنات ليعرف بِهَا، ويشهد فيه، فما نُصبت لك الكَائنات لتراهَا، بل لتَرى فيها مَوْلاَهَا. وقال صاحِب العَيْنية: فَأوصافهُ والاسم والأثر الذِي هُوَ الكَوْن عيْن الذَّاتِ والله جامع. وقال فيها أَيْضاً: هُوَ موجد الأشياء وهو وجودها، وعين ذَوَات الكل وهو جَوَامع. وإنَّما يجيء هذا ويكشف في تصريف الفعلِ ثالثاً في فعل الشريعة، والطريقة، والحقيقة. فتشتغل النفس أولاً بأفعال الشريعة. حتى ترتاضَ بِهَا وتذوق حَلاَوتها، ويشتغل القلب ثانياً بأفعال الطريقة، فيتخلَّى مِنَ الرَّذائل، ويتحلَّى بالفضائِلِ. وتشتغل الروح ثالثاً بِالعُكُوف في بَحْرِ الحقائق، حتى تسْتَمرَّ مَعَهَا ويَرْسَخ قدمها في شهود أنوارهَا وأَسرارها؛ وهو: أي ما صَدَر من الكَائناتِ على قسْمَين، قسم غلب معْنَاهُ على حِسِّهِ، فصار معنوياً كَالمَلاَئكة، والعَارفينَ من بني آدَمَ، وقسْم غلب حسُّهُ على مَعْنَاهُ؛ كالجماداتِ والحيواناتِ، ويلحق بهم مَن غلب حسُّهُ على معناه وشهوته على عقلِهِ من بني آدَمَ؛ وهم المنهمكُونَ في الغَفْلَةِ. المتكبون على الدّنيا بالكلية. فانطمَسَتْ بَصِيرتهم، واتَّسَعَتْ دائرة حِسِّهِمْ؛ فَهُمْ مسجُونُونَ بمحيطَاتِهِمْ. محصُورُونَ فِي هَيْكل ذَاتِهِمْ، عَائذاً بِاللَّهِ من حَالِهِمْ. قال بعض العارفين: الْخَلْق ثلاث؛ قسْم لهم عَقْل بِلاَ شهوة؛ وهم الملائكة. وقسْم لهم شهوة بِلاَ عَقْلٍ؛ وَهُمُ البَهَائِمُ؛ وسَائر الحيواناتِ، وقسْمٌ لهم عَقْل وشهوة؛ وهم بَنُو آدَمَ. فَمَنْ غَلَبَ عقله على شهوتِهِ، كَانَ كالمَلاَئكة أَوْ أَفْضَل ومن غلبَت شهوته على عقلهِ كَان كالبهَائم أَو أَضَلّ، وَمَا شرف الآدمي وأكرمه الله إلاَّ بمجاهدة شهوتِهِ، فَمَن جَاهَدَ نَفْسَه وَزَجرهَا حتى ملكها وظَفر بِهَا، كَان أَشرف من الملائكة، إذ لاَ مجاهدة لهُمْ، فَلاَ تكمل مُشاهدتهم كمال الآدَمِي. وبالله التوفيق.

بَابُ ظَرْفُ الزَّمَانِ وَظَرْفُ الْمَكَانِ: هذا هو الثالث من المفاعيل؛ وهو المَفْعُول فيهِ، ويُسَمِّيهِ البصريّون الظرف، وهو في اللّغة: الوعاء. وعده بعضهم فقال: هو ما ذكر فضلة لأَمْرِ وَقَعَ فيه، من اسم زَمان مطلقاً أَو مكَان مُبْهَم، أَو مَادَّته مَادَّة عَامِله هـ. وعَرَّفه المصنف ببَعْضِ خَوَاصِّهِ فقال: (ش) ظرف الزَّمانِ هو

اسْم الزَّمانِ. (ش) أي مُبْهماً كَانَ أَو مختصاً. (ص) المنصوب (ش) أي بفعل أَو شِبْهِهِ. (ص) بِتقدير في (ش) أي بتضمين معْنَى فِي الدَّالَّة على الظرفية. ولَيْس المراد أَن في مقدرة فيه أَو كَانت هناكَ وحذفتْ لأنَّ هذا النوع يُقال فيه مَنصوب على إِسْقاطِ الخافض: وهو غير مطرد، إلاَّ مَعَ إِن وأَن وكي ولَيْسَ من هَذَا الْبَابِ.

وإِنما المراد أَنَّ الكلمة تضمَّنَتْ وقوع شيء فيها، ثم عدّ الظروف فقال. (ص) نحو اليوم. (ش) كقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾. فاليوم ظرف لأَكْمَلْتُ، واليوم عند العرب من طلوع الشمس إلى الغروب. ومثله النَّهار. وَرُوي عَنِ الشعْبِي أَنَّ ما بيْن طلوع الفَجْر وطلوع الشمس ليْس من اللَّيْل وَلاَ مِنَ النَّهَارِ. (ص) واللَّيْلة. (ش) وهي من غروب الشمس إلى طلوع الفَجْرِ (ص) وغدْوَة (ش) وهي من صَلاَة الصُّبْح إلى طلوع الشمس. وقيل من طلوع الشمس إلى وقت الضحَى. وَيُقال لها الغداة. وقد مَدَحَ الله تعَالَى أَهْل الصفة بِقَوْلِهِ: «يَدْعونَ رَبَّهم بالغداة والعشي يريدون وَجْهَهُ». أي يَذْكُرُونَ اللَّهَ فيها. وفي الحديث القدسي: «يَا بْنَ آدَمَ. اذكرني أَوَّل النهار، وآخِره أَكْفكَ ما بيْنَهُمَا». وفي حديث آخر: «ذِكر الله بالغدَاة والْعشي أَفضل مِنْ حطم السيوف في سبيل اللَّهِ هـ. (ص) وبُكْرَة. (ش) وهو أَوَّل النَّهَار؛ وهو قريب من الْغَدَاة. (ص) وسَحَراً. (ش) بِالتنوينِ، إذا لَمْ ترد سحر يوم بعينِهِ. وإِذَا أَرَدتَ ذلكَ لم تنوّن لامتناعِ صَرْفِهِ لِلْعَدْلِ والتعريفِ؛ وهو ثلث آخر الليل إلى الْفَجْر (ص) وغداً (ش) وهو اليوم الذي يَلِي يَوْمك (ص) وَعَتَمَة (ش) وهو ثلث اللَّيْلِ الأول من مغيب الشفَقِ (ص) وَصَبَاحاً (ش) وهو أَول النَّهار، كالغداة. (ص) ومَسَاء (ش) وهوما بيْن الزَّوَالِ إِلى الغُرُوبِ (ص) وَأَبداً (ش) وَهُوَ ما يستغرق الزَّمان المقبل. (ص) وأَمَداً (ش) وهو قطعة منَ الزَّمانِ مُبْهَمة. (ص) وَحِيناً ووقتاً (ش): وهما متقاربَانِ؛ ومَعْنَاهما مُدَّة مِنَ الزَّمان مُبْهَمة. فمن حَلَفَ أنه لاَ يكَلّم فلاناً أَمَداً أَو حيناً أَوْ وقتاً لَزمه سَنَة احتياطاً. قال خليل وسنَة في حينٍ وَزَمَن وعصْر وَدَهْرٍ هـ. (ص) وما أَشْبَه ذلِكَ (ش) مما يدلّ على الزَّمانِ أَو أُضيف إليه وإِن لم يكُنْ زماناً، ككلّ وبعض، نحو: سِرْت كل اليوم، أَو بعض اليَوْم ونحو ذلِكَ. (ص) وَظَرْفُ المكَان هو اسْم المَكَانِ (ش) أي المُبْهَم؛ وهو ما ليْسَت له صورة. وَلاَ حُدُود مَحْصُورةٌ. بخلافِ المخْتصّ، وهو ما له صورة، كالدَّار والمَسْجِدِ، والعراق والشَّام، ونحو ذلِكَ. فَلاَ تنصب على الظَّرْفية، وإِنما تنصب على اسْقاطِ الخافضِ. (ص) المنصوب بتقدير في (ش) أي بتضمين في كَمَا تقدَّمَ. وخرج ما ليْسَ على مَعْنَى في، نحو رأَيْت مكَان زَيْد، فإنه مفْعُول

بِهِ، فمِن المُبْهَم؛ الجهَاتُ السّتّ. (ص) نحو: أَمَام وخلْفَ وقُدَّامَ (ش) بِمَعْنَى أَمَامَ (ص) وَوَرَاءَ (ش) بِمَعْنَى خلف (ص) وفوق وتَحْت. (ش) ويمين ويسار، نحو جلسْت أَمام الخطيب، خَلْفَ السَّارية فوْق البسَاطِ تحت السَّقف، يمينَ المحراب، يسار الباب. قال تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾. ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾. ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾. ﴿تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾. ويلْتَحِق بِأَسْمَاءِ المَكَانِ ما أَشبهَهُ في الإِبْهَام، كبريد وفرس وَمِيلٍ. وإِن كَانَتْ محدُودة، فمكَانها غَير معيَّن. ومِنَ المُبْهَم (ص) عِنْدَ (ش) لِمَا قَرُبَ مِنَ المكَانِ، نحو؛ «وعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ» فعند مَنْصُوبٌ بِالاستِقْرار، لأَنَّهُ خَبَرٌ مقدَّمٌ، (ص) وَمع (ش) لمكَانِ الاجْتِمَاع؛ وهِيَ مُلاَزمَةٌ للإِضافَةِ. وقَدْ تُنَوَّنُ وتنْصَبُ على الحَالِ، نحو جَاءَ مَعاً، وَجَاءُوا مَعاً. قَالَ الشاعر:

ولــمــا تــفــرقــنــا كــأنــي ومــالــكــاً ... لـطـول اجـتـمـاع لـم يـبـت لـيـلـة مَـعَـا

(ص) وإِزاء وحذاء (ش) للمكان الملاقي (ص) وتلقاء (ش) للمكَان المواجه (ص) وهُنَا (ش) إِشارة للمكَانِ القريبِ. وقد تتقدَّمهُ هاء التنبيه، وإِن أُريد البعيد، أَلحقته كَاف الخطابِ، أَو مع اللاَّم، نحو: «هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤمِنُونَ» (ص) وَثَمَّ (ش) اسْمُ إِشارة للمَكَانِ البعيد. قال تعالى: ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْآخَرِينَ﴾. «وإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً»، أي وإِذا وقعت منكَ رؤية وأَنت ثَمَّ، «رَأَيْت نعِيماً وَمُلكاً كبيراً» (ص) وما أشبَه ذلِكَ. (ش) من الأَلفاظِ الدَّالة على المكَانِ الْمُبْهَم، كجانب وناحية، ويدْخل فيه من صيغ من المصدر؛ وإِنْ كَان مختصًّا كمقعد وَمَجْلس وَمَرْمَى. بشرط أَنْ يعمل فيه مشاركه في المادَّةِ، كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ ونحو ذلكَ؛ وهو يصلح للزَّمانِ والمَكَانِ، تقول: قعدتُ مَقْعَد زَيْدٍ. أَيْ في مَكَانِهِ، أَو زمان قُعُودِهِ. واعْلَمْ أَنَّ الظرفَ على قسْمَيْن، مُتَصَرِّف وغَير مُتَصرفٍ، فَالْمُتَصَرِّفُ هُوَ الَّذِي يخرجُ عن الظرفية إِلى الفاعلية والمَفْعُولية، والمبتدأ والخبَر، كاليوم والليلة وشبههمَا، تقول: أَعْجَبَنِي يَوْمُك، وليلتك ليلة مُبَارَكة، وأَعجبني غدُوّ. صَبَاحُكَ حسن، ومساؤك مُبَارَكٌ. وعَتَمتك مُبَاركة. «ونَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ، والَّذي لاَ يتصرف قسْمَانِ: قِسْمٌ لاَ يخرج عَنِ الظَّرفية قطّ، نحو: قط، وعوض. تقول: مَا فَعَلْتُ قط. أي فيما مضَى من الزَّمَانِ، وَلاَ أَفْعَله عَوْض بفتح العَيْنِ، وسكون الواو. أي فيما يُسْتَقبل مِنَ الزَّمَانِ. وقسْم يخرج عن الظرفية؛ إِلى ما يُشبهها، وهو الجرّ بِمِنْ؛ لأَنَّ الجرَّ بِمِنْ أَخُو الظَّرفِ؛ وهو خَمْسَة ظروف. قَبْلُ

وَبَعْد، ودُونَ، وعِنْدَ وَلَدُن. والفَرْق بيْن عنْدَ ولَدُن أَنَّ لَدُن تدُلّ على الاتِّصَالِ والالتصاق دُونَ عِنْدَ، وينقسم الظَّرف أيْضاً إلى مُنْصَرِف؛ وهو الذي يدْخله التَّنوينّ، وَإلى غير مُنْصرف؛ وهو الَّذي لا يَدْخلهُ ذلِكَ، كَسَحَر إذا أُريد سَحَرُ يَوْم بعَيْنِهِ وقد يكون الظَّرْف مبنيًا على الْكَسْرِ كَأَمْسِ، إذا أُريد اليوم الَّذي قبل يومكَ.

فَرْع: قد يحذف الظَّرْف وينوب عَنْهُ المَصْدر، تقول: جَلَسْت قرْبَ زيْدٍ، أي مكَان قربه، وجئتك طلوع الشمْس، أو صلاة الْعَصْرِ، أيْ وَقْت طلوع الشَّمْسِ، ووقت صَلاَة الْعَصْرِ. وفي الخُلاَصَة:

وقد ينوب عن مَكَانٍ مَصْدَرُ ... وَذَاكَ فِي ظَرْفِ الزَّمَانِ يكثرُ

تَنْبِيهٌ: الظروف كلها مُذَكَّرَة إلاَّ قُدّام، وَوَرَاءَ، قاله ابن عُصْفور في شَرْحِ الْجُمَلِ. والله تعالى أعْلَم.

الإِشَارَةُ: اعْلَمْ أنَّ الوجود المتجلَّى به كُلُّه ظروف، وأواني لأَسْرار المعَانِي. ولذلكَ قال الشَّاعر:

لاَ تَنْظُرْ إلَى الأَوَانِي ... وخُضْ بَحْرَ الْمَعَانِي لعلك ترانِي

والأَوَانِي عَيْنُ المَعَانِي، إذ لاَ اثْنينية في الوجود؛ ولذلكَ قال أيْضاً:

إنَّ نطقي من خَلْف ذَاكَ الأَوَاني ... وأَنَا دَائِم كل الأَوَانِي أَوَاني

فَالكَوْن كُلّه كثلجَةٍ، والثلجَة ظَاهِرها ثلجَة، وَبَاطِنها مَاءٌ مَائِعٌ، كذلكَ الكَوْن، ظَاهره كَوْن كثيفٌ، وباطنه سِرّ لطيفٌ، ظاهره كَوْنٌ، وحقيقته مكوِّن. وفي ذلِكَ يقول الجيلاني في عيْنيتِهِ رضي اللَّهِ عَنْهُ:

وَمَا الكَوْن فِي التَّمثيل إلاَّ كَثَلْجَةٍ ... وَأَنْتَ لَهَا الْمَاءُ الَّذي هُوَ نَافِعُ

فَمَا الثَّلْجُ فِي تحقيقنَا غَيْر مائِهِ وغير إن في حكم دعته الشرائع. وقال القطب ابن مشيش رضي الله عَنْهُ: مخاطِباً لوارثه أبي الحسن رضي الله عِنْهُ: يا أَبَا الحَسَن: حَدِّد بَصَرَ الإيمانِ، تجد اللَّهَ في كل شَيْءٍ، وعِنْدَ كل شَيْءٍ، وَمَعَ كل شَيْءٍ، وَقَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، وَبَعْدَ كُلِّ شَيْءٍ، وفَوْق كل شيْءٍ، وَتَحْت كل شيْءٍ. وقريباً مِنْ كل شيءٍ، ومحيطاً بكل شيءٍ. بقرْبٍ هو وَصْفه، وَبحَيْطَةٍ هي نعته. وَعُدَّ عَن الظَّرفية والحدود، وعن الأماكن والجهات، وعن الصحبة والقرب في المسافات، وعن الدّورِ بالمخلوقاتِ، وامحَق الكُلَّ بوصْفِهِ الأول وَالآخر. والظَّاهر والباطِن؛ وهو هو هو. كَانَ الله وَلاَ شيء مَعَهُ؛ وهو الآن على ما عليه كَان هـ. قوله: وعُدَّ عَنِ

الظرفية؛ فَلاَ تعتقد أَنَّ الحق مظروف لشيءٍ، أَوْ محدود بِشَيْءٍ؛ لأنَّ الظرف عيْن المظروف. والذَّات العالية عمَّت بكلِّ شيءٍ، وأَحَاطتْ بكلِّ شيءٍ. ومَحَتْ وُجُود كُلِّ شيْءٍ. وفي الحِكَم: كيْف يحتجبُ الحق تعالى بشيءٍ. والَّذي يَحْتَجِبُ بِهِ ظَاهر، وَمَوجود حَاضِر هـ. وقوله: وعن الدّور بالمخلوقاتِ. اعلم أَنَّ الأَسْرَار اللطيفة الباقية على كَنْزيتها، لا شكَّ أَنها محيطة بالأَنوار التي وقع التجلي بِهَا، ودائرة بِهَا. لكن لمَّا كانت هي عيْنها، ومتدفقة منهَا، صار الكل بحراً متَّصلاً. رتقاً منطبقاً. وصار الدَّائر عيْن المدار عليه، ولذلكَ قال: وامحق الكُلّ بوصفِهِ الأول والآخر والظَّاهر والباطن. إِذ لاَ يخرج شيء عن هذه الأَسماء الأَرْبَعة؛ فهو أَوَّل كلِ شِيء. وآخر كل شيءٍ. والظاهر بكل شيءٍ، والباطِن في كل شيءٍ. وقوله وهو هو هو. **الأول**: يشير إلى الوجود الأول الأولي قبل التجلّي، **والثاني**: إلى حالِه بعد التجلّي. **والثالث**: إلى حالِ بعْد طي هذا التجلّي. وإظهار تجلٍّ آخَرَ، يدوم وجوده وظهوره؛ وهو المعبَّر عنه بالآخرةِ. وقال بعض العارفينَ في هَذَا المَعْنَى: الحقّ تعالى منزَّهٌ عن الأَيْن والجهة والكَيْف. والمادَّة والصورة. وَمَعَ ذلكَ لاَ يخلُو منه أَيْن وَلاَ مكَان، وَلاَ كَمٌّ وَلاَ كيْف. وَلاَ جِسْم وَلاَ جَوْهَرٌ متكيّف بكل كَيْفٍ، غَيْر متقيّدٍ بذلكَ، ومن لم يذُقْ هَذَا؛ وَلَمْ يشهَدْهُ فهو أَعْمى البصيرة. محرومٌ عن مُشاهدة الحق تعالى هـ. وَلاَ يفهم هذه الأَسْرَار، وَيَذُوقها إلاَّ مَنْ صَحِبَ الرجال، وخَدَمَهم، وقَبَّل الترابَ من تَحْت أَقدامِهِمْ ومن لَمْ يقدرْ على هَذَا فَلْيُسَلِّمْ للرِّجَال فيما رَمَزُوا لهُ وأَشارُوا إِلَيْه:

إِنْ لَمْ تَرَ الْهِلاَلَ فَسَلِّمْ ... لأنَاسٍ رَأَوْهُ بِالأَبْصَارِ

ولله درّ ابن الفارض رضي الله عنه حيْث قال:

وَلاَ تكنْ ممَّن شيْطته طروسُهُ ... بِحيْث استخفَّتْ عَقْله واستفرت

فَثَمَّ وراءَ النقل عِلْم يدقّ عَنْ ... مدارك غايَة العُقول السليمَة

تلقيته مني وعنّي أَخذته ... ونَفسي كَانَتْ من عطاء ممدتي

وَإِذا تنزَّلتَ إلى عالم الحكمة؛ وهو عالم التشريع، وجدتَّ الظروف متفاوتة في الشرف والعلوّ على حسَبِ مظروفها، أشباحاً كَانَتْ أَو أزمِنَة، أَوْ أَمكنة. فالأشباح تعظم بشرف الأرواح، فإن كانت الرّوح عارفة بِاللَّهِ، مكاشفة لأَسْرار الذَّاتِ. كَان البدَن الَّذي احتوى عليْها عظيماً شريفاً، يقتبس منه الأنوار والأسرار، ويُتبَرّك منه حيًا وميّتاً، وَيَزدحم النَّاس على قبْرِه، ويستشفى بِترابِهِ وإِن كَانَت عَالمة

بِأحكَام الله، كان لها شرف دون ذلِكَ. وكذلك إذا كَانَتْ حاملة لكتاب الله، كان لَهَا شَرَف دُونَ ذلِكَ، ثم عامّة المؤمنينَ، وإن كَانَتْ لا إيمان لَهَا، كان جسدها جيفة لاَ قدْر لَهُ وَلاَ قيمة. وأمَّا الأزمِنَة فتعظم أَيْضاً بِقَدْرِ مَا يقع فيها من الطاعة والإحسَان. كليلة الْقَدْر والليالي الْعَشر، ويوم عرفة، وأيام العَشر، ويوم عاشوراء، ولَيْلة المَوْلدِ لأنَّه ظهر فيها سيّد الوجود. فالظرف تابع لمظروفه في الشرف، وضده. ولذلك كَانت أَوقات العارفين كلها ليلة القدْر؛ لأنها كلها عندهُمْ عظيمة. لاشتمالهَا على العبادة الكبيرة؛ وهو شهود الحبيب، والقُرب منْهُ. وفي ذلك يقول الشاعر:

لَوْلاَ شُهُودُ جَمَالِهِ فِي ذَاتِي ... مَا كُنْتُ أَرْضَى سَاعَةً بِحَيَاتِي
فَمَا لَيْلَةُ الْقَدْرَ الْمُعَظَّمُ شأنها ... إلاَّ إذَا عَمَّرْتُ بِكُمْ أَوْقَاتِي
إنَّ الْمحِبَّ إِذَا تَمَكَّنَ فِي الْهَوَى ... والحبُّ لَمْ تحتجْ إلى مِيقَاتِ

وقال آخر:

وكلّ الليالي ليلَة القَدْر إنْ بَدَا ... كَمَا كل أَيَّام اللقا يوم جُمْعة

وَكَان الشيخ المرسي رضي الله عنه يقول: نحْن والحمد لله؛ أَوقاتنا كُلّها ليلة الْقَدْرِ؛ لأنَّ عبادتهم التي يَعَمِّرُونَ بِهَا أَوْقاتهم كلها فكرة واعتبار، وشهود واستبصار. وفكرة سَاعة أفضل من عبادة سَبْعين سَنَة، كما في الحديث. وكذلكَ الأمكنة، تعْظم بقدر ما يقع فيها من الطّاعاتِ، كَجَبلِ عرفة، والمساجد الثلاثة، ثم مَسَاجِد الباقية والزَّوَايا، وخلوات الأولياء ونحو ذلك، مما عظّمته الشريعة، وعند العارفينَ: الأماكن كلّها عرفة، لأن الأماكن تشرف بهم، وتطيب بحضورهم، وفي ذلكَ قال شاعرهم:

كُلُّ وقت من حبيبي ... قدْره كَألف حَجَّة

وينخرط في سِلْكِ هذا، تفضيل آيات القرْآن بَعْضها على بَعْضٍ؛ وذلكَ على حَسَب ما تدلّ عَلَيْهِ، من تعظيم الرّبوبية، وكشف حِجَابِهَا. وكذلك تفضيل الأذكَار فَبِهَذَا المَعْنَى، وتفضيل بعض الصلاة على رسول الله ﷺ على بعض، بِحَسَب ما تدلّ عليه من تعظيم الرَّسُول، وتمجيده ﷺ. وبالله التوفيق.

بَابُ الْحَال: هو الخامس من المنصوبات، والحَال في اللغة: هيْأة الإنسَان، وتطلق على الزّمانِ؛ الذِي بيْنَ الماضي والمستقبلِ. وَرُوح الإنسَان، وما يعتريه من

فرح أَوْ ضِدِّهِ. وهو يُذَكَّرُ ويُؤَنَّثُ. يقال له: حَالٌ حسَنٌ، وحسنَة، وَحَقِيقتهُ: وَصْفٌ فُضْلَةٌ مُنْتَصِبٌ مُفْهِم في حَالِ كَذَا. وقال الفاكِهِي: هو الْوَصْف الفُضْلة المسُوق لبيَانِ هيأة صاحب. وَعَرَّفَهُ المصنف بقوله: (ص) الْحَالُ هو الاسم (ش) أي فلا يكون فِعْلاً وحده. وَلاَ حَرْفاً ويكون جُملة في تأويل الاسْم (ص) المنصوب (ش) بفعل أو شبهه. خرج به الوصف المرفوع أو المجرور وسَائر التوابع. (ص) المُفَسّر لمَا انبهَمَ (ش) أيْ جُهل. خرج به سَائر المنصوبات، و (ص) مِنَ الهيآت (ش) خرجَ التمييزُ؛ لأنه يُفَسِّر لمَا انبهَمَ من الذَّواتِ. ونقل الرَّاعي عن شيخهِ: سَمِعْت أنه قال: قَوْل النحات، انبهَمَ في حدِّ الحَالِ. والتمييز مفقود عليهم؛ لأنه لم يوجد في كَلام العَرَبِ. والصَّوَاب: اسْتَبْهَمَ. وأَيْضاً: لأَنَّ الفعل مختصّ بِالعلاَج، والتأثير في الغَالِب. تقول: عجنت الدَّقيق فَانْعَجَنَ، وضربت فلاناً فَانْضَربَ. وقد يكون لغَيْر العلاج كَانْصَرَفَ. ويكون الحال منَ الفاعِلِ (ص) نحو جاءَ زَيْدٌ رَاكباً. وَ (ش) من المَفْعُولِ نحو: (ص) ركبْت الفرسَ مُسْرَجاً. وَ (ش) يحتملها نحو: (ص) لقيتُ عبْدَ الله رَاكباً وَمَا أَشْبَهَ ذلِكَ (ش) من الأَمْثِلَة، ويكُون من المجرور بالْحَرْفِ، نحو: مَرَرْت بِهِنْدٍ جالسَة. وَلاَ يكون من المُضَافِ إليْه، إلاَّ إذا عَمل فيه المُضَاف، نحو: «إلَيْه مَرْجعكم جميعاً» أو كَان جزءًا من المضاف إليه، نحو: «ونَزَعْنا ما في صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَاناً» أو مثل جزئه، نحو: «واتبعوا مِلَّة إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً». وهَذا مَبْنِي على أَنَّ العامِلِ في الحال؛ هو العامل في صَاحِبِهِ. فإن كَان المُضَاف الأول غيْر عامل في الْحَالِ، لَزِمَ أَنَّ العامل في الْحَالِ غير العامل في صاحبه؛ وهو غيْر جائز. وأَمَّا إن كَان جُزْءاً أو مثل الجُزْءِ، فلمَّا كَان يصحّ إِسْقاط الأول، صار كَأنه عامل فيهما، أَلاَ ترى أَنكَ تقول: «ونَزَعْنَا مَا فِي صُدُورهم مِنْ غلٍّ». «واتبعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهيمَ». فيصحُّ الكَلاَمُ. وَيأتي الحال مِنَ المبتدإ أَوْ من الخَبَر. إلاَّ أَنَّ مَجِئَه مِنَ المبْتدإ ضَعيفٌ. قال الشيخ السنوسي في شرح عقيدة الجزائري. (ص) وَلاَ يكُون الحال إلاَّ نكرة (ش) فإن عُرِّفَ لَفْظاً فاعْتَقِدْ تنكيرهُ مَعْنًى، نحو وَحْدَكَ اجْتهِدْ. أي اجتهد أي منفرد أو ادْخُلُوا: الأَوَّل فالأَوَّل، أي مترَتبينَ (ص) وَلاَ يكونُ إلاَّ بعد تمام الكَلاَمِ (ش) أي بعد أَخْذ الفعل فاعله، والمبتدإِ خبره؛ لأنه فُضلَة. ومن ثم قيل: إنه لاَ يأتي من المبْتدإ. (ص) وَلاَ يكون صاحبها إلاَّ معرفة (ش) أي غالباً؛ لأنه محكوم عليه بِالحَالِ. وَلاَ يصحّ الحُكم على المَجْهُولِ إلاَّ بمُسَوّغ منها تأخره عن الحالِ، نحو قول الشاعر:

لِمَيَّة موحِشاً طَلَلُ ... يَلُوح كأنه خلَلُ

أي لمية طلل؛ موحشٌ. والطَّلل ما شخص من الديار بعد خرابها، وانتقال أَهْلها عَنْهَا. ومنها تخصيصه بالوصف، كقوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾. أَو يتقدَّم عليه نَفْي، نحو: «وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ أَلاً ولَهَا كتابٌ معلومٌ» أَوْ نَهْي نحو قول الشاعِرِ:

لاَ يَــرْكــنــن أَحَــد إلــى الإحــجــام يَــوْمَ الــوَغَــى مُــتَــخــوِّفــاً لِــحِــمَــامِ

والإحجام: التأخر، والْوَغَا: الحَرْبُ. والحِمَامُ: بكَسْر الحاءِ: المَوْت. أَو اسْتفهام: كَقول الشاعر:

يَـا صَـاحِ هَـل حـم عـيْـش بـاقـيـاً فـتـرى لـنـفْـسـكَ الـعُـذْر فـي أَرفـادهـا الأمـلا

أي يا صاحِ هل قدر عيْش يدُوم فيتعَذَّر في تأخير الأمَل. بل لاَ عيْش يَدُومُ، فشَمِّرْ، وتَزوَّدْ، واجعل الموْت نصْب عينيْكَ. يُصْبح أَو يُمْسِي عَلَيْك، ومن غيْر الغَالِب، وهو إتْيان الحال منَ النَّكِرَةِ بِلاَ مُسَوِّغ. وقَوْله في الحديث: صلى رسول الله ﷺ قاعداً. وصلَّى وراءه رِجَال قيَّاماً. وأَخَذَ الشَّافِعِي بهذَا الحديث؛ لأنه الآخر من فعْله عليه السلام، وقال أبو حنيفة. يجلسُونَ مَعَهُ أَخْذاً بالحديث الصحيح. وأمَّا مالِك فَلَمَّا رَأَى تعارض الحديثيْن، لم يأخذْ بواحدٍ منهما، إلاَّ أَن يسْتوَوْا في الْعُذْرِ والله تعالى أَعْلَمُ.

الإِشَارَةُ: الحَالُ عند الصوفية، وارد يَرد على الْقَلْب من كشفِ أَسْرار الذَّاتِ وأَنوارها، فتدهش الرُّوح وتهيم وتسكر، ويظهر ذلكَ في الجَوَارِحِ، فَيهْتَزُّ الرَّأْسُ، ويشطح البَدَن، ويُقال فيها الوجد وربما وقع صاحبه في المهالكَ، وهو لا يشْعُر وقد حُكِيَ أَن الشبلي أَخذهُ حَالٌ في موضع مقصبَة فيه بقية قصب قطع. فقام عَلَيْهَا، فَدَخَلَتْ في رجله فمات من ذلِكَ. وقد مات كثيرٌ من الصّوفية بالحالِ. وقد أَشار الشيخ أَبُو مَدْيَن رضي الله عَنْهُ إلَى شيْءٍ من ذلِكَ فقال:

فَـقُـلْ لِـلَّـذِي يَـنْـهَـى عَـنْ الْـوَجْـدِ أَهْـلـه إِذَا لَـمْ تـذق مـعـنَـى شَـرَاب الـهَـوَى دَعْـنَـا

إِذَا اهْـتَـزَّتِ الأَرْوَاحُ شَـوْقـاً إِلَـى الـلِّـقَـا نَـعَـمْ تَـرْقُـصُ الأَشْـبَـاحُ يَـا جَـاهِـلَ الْـمَـعْـنَـى

أَمَـا تَـنْـظـر الـطَّـيْـر الْـمُـقـفَّـصَ يَـا فَـتَـى إِذَا ذُكِـر الأَوْطَـان حَـنَّ إِلـى الْـمَـغْـنَـا

يُـفَـرّجُ بِـالـتَّـغْـرِدِ مَـا بِـفُـؤَادِهِ فـتـهْـتَـزُّ أَرْبَـاب الْـعُـقـول إِذَا غَـنَّـا

وَيَـرْقُـصُ فِـي الأَقْـفَـاصِ شـوقـاً إِلـى الـلِّـقَـا فَـتَـضْـطَـرِبُ الأَعْـضَـاءُ فِـي الـحِـسِّ وَالْـمَـعْـنَـا

كَـذَلِـكَ أَرْوَاحُ الـمـحـبـيِّـنَ يَـا فَـتَـى ... تُـهَـزِّزهـا الأَشْـوَاق لـلـعَـالَـم الأَسْـنَـا
أَنُـلْـزِمُـهَـا بـالـصَّـبْـرِ وَهَـيْ مـتـشـوقَـة ... وَهَـلْ يَـسْـتَـطِيعُ الصَّبْرَ مَنْ شاهَدَ الْمَعْنَا
فَـإِنَّـا إِذَا طِـبْـنَـا وَطَـابَـتْ قُـلُـوبـنَـا ... وَخَـامَـرَنَـا خَـمْـرُ الْـغَـرَامِ تَـهَـتَّـكْـنَـا
فَـلاَ تَـلِـمُ الـسَّـكْـرَانَ فِـي حَـالِ سُـكْـرِهِ ... فَـقَـدْ رُفِـعَ الـتـكـلـيف فِـي سُـكْـرِنَـا عَـنَّـا

بَعْد الحالِ المَقَام؛ وهو السّكُون والطُّمأنينَة، بالخروج مِنَ السُّكْرِ إِلَى الصَّحْوِ. فتطْمَئِنّ الرُّوحُ، وتسْكُن في مَقام المشاهدةِ؛ في مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ. وفي هذا المَقام، قيل للجنَيْد رضي اللّهُ عَنْهُ: مَالَكَ كنْت تتحرَّك عنْدَ السَّمَاع وَتَرْقصُ. واليَوْم لَمْ يَظهر عَلَيْكَ شَيْء مِن ذَلِكَ. فقرأ: «وَتَرَى الْجِبَال تَحْسِبها جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ». ومِنهُمْ مَنْ يَبْقى في الحَالِ بَعْد تمكّنِهِ، من الشهودِ. فيكون قطب الأحْوَال كما تقدم عن البسْطامِي، إلاَّ أنَّ صاحب المَقام يؤهَّلُ للاقتداءِ، والاهْتداءِ. بِخلافِ صاحب الأحْوَال، فلا يقتدَى به في حَالِ سُكْرِهِ. وقلَّ من يَنْجَح على يَدهِ، لصعوبَة تَرْبيتهِ، كَحَال أَبي الشتاء. فقد حُكِيَ أنّه كَانَ يعلق المريد رأسه أَسْفل، ورجله فوق، ويوقد النَّار تحتهُ فَأوّل السَّير عِلْم، ثم عَمَلٌ، ثم حَال؛ وهو الذَّوق، ثم الشرْب والسُّكْر، ثم المقامُ؛ وهو الصَّحْوُ ويُقال: الأحْوَال مواهب، والمقامات مكَاسبُ. وكسبها هو تقدّم الأحوال عليْهَا. كَأَنَها نتائجهَا، وكَوْن الأحْوَال مواهب، يَعْنِي بَعْد التحرّك في جَلبها، كَخَرْق العوائد، وحُضور حِلَق الذّكر، أَو السماع، مع تفرّغ الباطِن مِنَ العَلاَئقِ. وقد تكون الأحْوَال ظلمانية، أَو نَفْسَانِيَة، أَو شيْطانية. فإن أَهْلِ اللَّهْو قد ينحدبون في لهْوهِمْ، فيقطعونَ الليل أَو النَّهار واقفين في لهْوهِمْ غَائبينَ عنهُمْ. والأحوال الرَّبَّانية؛ هي التي تَنشأ عن ذِكْرِ اللّهِ، من القلوبِ المنوَّرة، وعن سَمَا ما يحرك إلى الحضْرَةِ. وقد تَنْشأ عن سَمَاع اللَّهْوِ إذَا كَان عَارفاً يَصْرِفه مِنَ الباطِلِ إِلى الحقّ. كما وَقَعَ للرَّجُل الذي سَمع القائل يقولُ:

إذ الـعـشـرون مـن شـعـبـان وَلَّـتْ ... فَـوَاصِـلْ شُـرْبَ لَـيْـلِـكَ بِـالـنَّـهـارِ
وَلاَ تَـشْـرَبْ بِـأَقْـداح صِـغَـار ... فَـقَـدْ ضَـاقَ الـزَّمَـانُ عَـلـى الـصِّـغَـارِ

فَهَامَ على وَجْهِهِ، وَذَهَبَ إِلَى مَكَّة، فَبَقِيَ بِهَا مُجَاوِراً حتّى ماتَ رضي اللّهُ عَنْهُ: ففهم أَنَّ الْعُمُرَ إِذَا ذَهَبَ جُلّه. فقد قرب الرَّحيل وضاق الزَّمان على العبادة الصُّغرى. فَطلَب المواضِع التي تكونُ فيها العبَادة كُبْرى، فتضاعَف فيه الأعْمَال،

وهَذَا الرَّجُل كَانَ مِنَ العلماءِ المجتهدينَ، ولو كَانَ مِنَ الْعَارِفِينَ لَمْ يحجَّ إلى ذَهاب مكّة بل عبادة القلوب مضاعفة بأَضعاف كثيرة، في أيّ مَوْضِعٍ كَانَتْ. ولذلكَ قَالَ بَعْضهُمْ: «الذَّرَّة من أَعْمَال القلوب، أَفضَل مِن أَمْثَالِ الجِبالِ، مِنْ أَعْمَالِ الْجَوَارِحِ. وقال عَلَيْه الصَّلاة والسلامُ: رَكْعَة مِنْ عَالم بِاللَّهِ. أَفضَل مِنْ أَلْفِ رَكْعَةٍ مِنْ جَاهِلٍ بِاللَّهِ». ذكره في الجامع. ولْنَرْجِعْ إلى ما كُنَّا بِصَدَدِهِ مِنَ الإِشارَةِ فنَقُولُ:

الْحَالُ هو الاسْمُ، أي الوَصْف الفُضْلَة؛ لأنه مَوْهِبَة ومَحْض فَضْلٍ. المُنْتَصِب لِلْمُريدينَ السَّائرينَ. يُرَقيهم من حَالٍ إلى حَالٍ. ومِن مَقَام إلَى مَقَام. فَأَوَّل الأَحْوَال وَارِد الانْتِبَاه؛ فينتبه من نَوْم البِطالة والتقصير إلى حالِ الجدِّ والتَّشمير، ثم وَارد اليقظة، فينتبه من نَوْم الغَفْلَة، إلى حَالِ الذّكر الدَّائم. ثم وَارِد السَّيْرِ، فيتجَرَّد مِنَ العَلاَئِق، لتشرق عليه أَنوار الحقائق. ثم وارِد الوِصَال فيخرج من سِجْن الأَكوانِ، إلى شهودِ المُكوّنِ. وقد أَشار في الحِكَم إلى بعض هَذَا فقال: أَوْرَد عليك الوارد، لتكون بِهِ عليه وارداً. أَوْرد عليك الوارد، ليسلمكَ مِن يَدِ الأغيارِ، ويُحَرِّرَكَ من رق الآثار. أَوْرَد عليك الوارد ليخرجك من سجْن وُجُودِك إلى فضاءِ شهودِكَ هـ. المُفَسّر لِمَ انْبَهَم من هيْآتِ الرِّجال، وَمَا كَمُن في سَرَائرهم، بما كَمُن في السَّرَائر. ظَهَر في شهادة الخواطر تَنَوَّعتْ أَجْناس الأَعْمَالِ، لتنوّعِ وارداتِ الأحوال فَمَن كَانَت أَحْواله صافية، مُوافقة للشريعة المحمدية. عَلِمْنَا أَنَّ باطنه صَافٍ لاَ تخليط فيه. ومن كَانَت أَحْوَاله ظلمانية، مخالفة للشريعة المحمدية. عَلِمْنَا أَنَّ باطنهُ ظَلمانِي، لاَ صَفَاءَ فيه. فصفاء الظَّاهر، من صفَاءِ الباطِنِ، وتخليط الظَّاهر، من تخليط الباطِنِ، لا تنطق الأواني إلاَّ بما سَكَنَ. والأَحوال الصافية، تظهر نتائِجُهَا على صَاحِبهَا. فَالوارد الرَّبَّانِي يُثْمِرُ أَحْوَالاً سَنية، فيعقبه الزُّهدُ والوَرَع، والخشية والهيْبَة، والرَّزَانة والطمأنينة، والسكينة والوقار والتواضع والسخاء والكَرَم. وغَيْر ذلك من الأَخلاقِ الحسَنَة، والشِّيَم الزكية.

والوارد النفسَاني والشيطاني، تعقبُه القسَاوة والفظاظة. والتكبّر والصولة على النَّاس، والرَّغبة في الدّنيا والجاه. وغَيْر ذلِكَ مِنَ الأَخْلاَقِ الذَّميمَة. وفي الحِكَم لاَ تزكين وارداً لا تعلم ثمرته؛ فَلَيْس المراد من السحابة الأمطار، وإنما المراد منها وجود الأثمار هـ؛ وزاد في الخلاصَة في أَوْصَافِ الحالِ النحوية، الانتقال والاشتقاق فقال:

وَكَوْنُهُ مُنْتَقِلاً مُشْتَقا   يَغْلُبُ لكِنْ لَيْسَ مُسْتَحِقا

وقالت الصّوفية: إنما سُمّي الْحَال حَالاً لتحوله وانتقاله، فالحَال لاَ يَدُوم لصاحِبِهِ، وإما هو عارض مُمْطِر على القُلُوبِ، غيث المعارف، وعلم الغيوب والأسرار، والكشوفات، والأنْوَارِ. فإذا أودع ما فيه أَقْلَعَ فَلاَ تَطْمَعَنْ في دَوَامِهِ، بل اسْتغن بالله عن كل شيءٍ. فَلَيْسَ يُغْنِيكَ عنه شيْءٌ. وفي الحِكَم: لا تطلبن بقاء الواردَاتِ، بعد أَنْ بسطت أنوارهَا. وأودعت أَسْرارها، فلكَ في الله غِنَى عن كل شيْءٍ. وليْس يغنيكَ عنه شيْءِ هـ. فكُن عبْد اللَّهِ بلا عِلَّةٍ، وَلاَ تكُن عَبْد الْحَال، فالفاني لاَ يُغْني. ومعنى اشتقاقِهِ عِنْدهُمْ: طلبُه واستجلابُهُ بِسَبب يُحركه كما تقدَّمَ. وبالله التوفيق.

بَابُ التَّمْيِيزِ: هذا هو السادس من المنصوبات. ويُقال فيه التمييز والمميّز والتفسير والمُفسّر، والتبيين والمبيّن، وهو في اللّغة: مصدر ميَّزْت الشيء إذا فسَّرته وبينتهُ. وفي الاصطلاح ما قاله المصنف. (ص) التمييز هو الاسم المنْصُوب المُفَسّر لِمَا انْبَهَم مِنَ الذَّواتِ. (ش) أَيْ أو مِنَ النَّسَبِ، فخرج الْحَالُ. قال ابن مالك: التمييز؛ كلُّ نكِرة فيها مَعْنى الْجِنْسِية، وأفعله لأقدم عن جملة أو مُفْرَدٍ تام، بإضافة أَوْ تَنْوين ظاهراً أو مُقَدّر، أو نون تُسْقِط للإضَافَةِ هـ. ثم ذكر مثَال تمييز النّسْبَةِ؛ وهُوَ الَّذي يَقَع بَعْدَ الجُمْلة؛ وهو على أَرْبَعَةِ أَقْسَام، إمَّا محوَّل عن الْفَاعِلِ. (ص) نحو قولك تَصَبَّبَ زيْد عَرَقاً. (ش) أي انحدر. والأَصل: تصبَّب عرق زيْد. (ص) وتفقأ بِكرٌ شحماً. (ش) أي امْتَلأ. وقيل: تشقق. يُقال: تَفَقأَتِ السَّماء عن مائهَا، أي تشققت، والأوَّل أَنسَبُ. والأصل: شَحْم بكْر. (ص) وطابَ محمّدٌ نَفْساً. (ش) ﷺ. والأصل، طابَت نَفس محمَّدٍ ﷺ، أي صَارتْ طيبة. يُقال طاب الشيْء يطيب طيباً وتطياباً، وإنما عَدَل عَن الأصْلِ إلى التمييز؛ لأنَّ البيَان بعد الإجمال من مَقاصِد العقلاءِ؛ لأنَّ النَّفْس إذا سمِعتْ شيئاً مجْمَلاً تشوقت إلى بَيَانِهِ. فإذا فسّر مَوْقعٌ منها، أيْ موْضع. فإذا قلت: تَصَبَّبَ زَيْد، بقيت النَّفس مستشرفة، ما الَّذي تصبب مِنْهُ. فإذا قلت: عَرَقاً عَرَّفْتَهُ. وهكذا البَاقِي، وإمَّا محوَّل عن المفعول، نحو غَرَسْت الأرضَ شَجَراً. ومنه. قوْله تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾. والأصل: غرست شجر الأرض وفجرنا عيون الأرض وإما محول عن المبتدأ نحو: «أنا أكثر منك مالاً» والأصل: مالي أكثر. وإمَّا غَيْر محوَّل من شيءٍ: نحو: زيْد أَكْرَم النَّاس رَجُلاً. ورَد بعضهم تمييز النسبة، إلى تمييز الذَّاتِ، وهو تمييز المفرد، وهو ظَاهِر المصنف، ووَجْهُه: أَنَّ قولك طاب زيد. يُفْهم منه أنه طاب مِنْهُ شيْء، ثم بَيَّنَهُ بِقولِهِ: نَفْساً. وإذا قلت: غَرَست الأرض، يُفْهَم مِنْهُ، أَنَّ شيئاً غرس فيها؛

وهو مُبْهَمٌ. فَفَسَّرْتَهُ بِالتَّمييز، وكَذَٰلِكَ أَنَا أَكثر منك، يفهم منه، أَنَّ شيئاً كثر منه، ثم بيَّنَه بالمالِ، وهكَذَا. فيرجع التمييز كلهُ لتمييز الذَّواتِ، كما قال المصنف. انظر شرح الشيخ علي بركةَ، ثم ذكر تمييز الْعَدَد، وهو من قبيل تمييز الْمُفْرَدِ اتفَاقاً فقال (ص) واشتريْت عشرين غلاَماً. وملكْت تسْعينَ نَعْجَةً. (ش) ومِنْه أَحَد عشرَ كَوْكباً. ويلحق به تمييز المساحة. نحو ملكْت شبراً أَرْضاً. وجريداً نَخْلاً. وتمييز المقادير، كَرِطليْن عَسَلاً. ومنون تمراً، وأردب نحاً. وزق زيتاً، ومنه قوله تعالى: ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا﴾. وأَمَّا قول الْمُصَنِّف (ص) وَزيدٌ أَكرم منك أَباً. وأَجمل منك وجهاً. (ش) فهو من تمييز النِّسَبةِ المحوَّل عن الْفَاعِلِ. والأصل زَيْد كَرم أبوه، وجمل وَجْههُ. وقد تقدم الجواب عن المصنف، أن الجميع لتمييز المُفردِ. ثم قال: (ص) وَلاَ يكون إلاَّ نكره (ش) يعني أن التمييز لاَ يكون إلاَّ نكِرة؛ لأن لفظ التنكير يُقيدُ المقصود، فلا يتكلَّف التعريفَ. وأما قول الشاعر:

رَأَيْتُـك لـمَّـا أن عـرفْـت وجـوهـنَـا صَددت وطبْت النَّفس يا قيس عن عَمْرِ

فأَلْ فيه زائدة للضرورة، وليْسَت معرفة. وقال الكوفيّونَ: يكون التمييز معرفة. محْتجِّين بقول تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ أي سَفِه نفساً. وأُجيب بأَن نفسَه مفعول بِسفه، لتضَمُّنِهِ معنى جهل، أَو أهلك. أَوْ لأَنَّ الضَّميرَ فيه مَعْنَى الشيُوع الذي فيمن فمن يكسب التعريف، أو على إسْقاطِ الجارِّ. وإيصال الفعل إلَيْه كقوله: ضرب فلان الظهر والبطن.

تَنْبِيهٌ: قال في المَغنِي: الحال أو التمييز اجتمعَا فِي خَمسَة أَمُور، وافترقا في سَبْعَة. فأوجه الاتفاق أنَّها اسْمَان نكرتانِ، فُضْلَتَانِ، منصوبتانِ، رافعَتَانِ لإبْهَام. وأَوْجُه الافتراق، أَنَّ الْحَال تكون جُمْلة. والتمييز لا يكون إلاَّ مُفْرداً. وإنَّ الحال تتعَدَّد. تقول: جَاء زيد رَاكباً، فرحاً مَسْرُوراً بخلاف التمييز. وإنَّ الْحَال تتقدَّم على عَامِلها، إذا كَان مُتصرفاً، نحو: خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يخرجُونَ بخلاف التمييز على المشهور. وقال في الألفية:

وعَـامِـل الـتَّـمْـيـيـز قَـدِّمْ مُـطْـلـقـاً والْـفِـعْـل ذو الـتـصـريـف نَـزْراً سَبَـقـاً

ومن تقديمِهِ قول الشاعر:

أنـفـسـاً تـطـيـب بـنـيْـل الـمُـنَـا وَدَاعـي الـمـنـون يـنـادي جـهـارا

وإن حَقّ الحال الاشتقاقُ، وحقَّ التمييز الجمود، وقد يتعاكَسَانِ، وإن الْحَال

مؤكِّدَة، نحو: «وَلَّى مُدْبِراً فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً، وَلاَ يقع التمييز. كذلك هـ. وجزم في القطر، بأَن التمييز قد يؤكد كقوله الشاعر:

تَزَوَّد مِثْل زادِ أَبِيكَ فِينَا ... فَنِعْم الزَّاد زاد أَبِيك زادا

قلت: وبقي عليه من المفروقات، أَنَّ التمييز قد يُجَرّ بِمنْ، بِخلاَفِ الحالِ. قال في الألْفية:

وَاجْرُرْ بِمِنْ إنْ شِئْتَ غَيْر ذِي الْعَدَدْ، والفاعل المَعْنَى كَطِب نَفْساً تُفَدْ، والله تعالى أَعْلَمُ.

الإِشَارَةُ: لاَ يكون العَارِف عارفاً حتى يَحْصَلَ لَهُ التمييز بيْن الضِّدَّيْن اللَّذَيْن وقَع بِهِمَا التجلّي. فَيُمَيِّزُ بيْن الرّبوبية والعُبُودية في مَظْهر واحِدٍ. وبيْن الرّوحانية والبشرية، وَبَيْنَ الحسّ والمَعْنَى. وبيْن القُدْرة والحِكمَة، وبيْن الأمر والخلق. وَبَيْن الشَّرِيعة والحقيقة، وبيْن الفنا والبَقَا. وبيْن السكر والصّحو. وهكَذَا سَائر الضِّدّيْن الموجوديْن في الكَوْنِ الَّذي وَقَعَ به التجلّي. أَمَّا التمييز بيْن الرّبوبية والعبودية. فالرّبوبية محلها البواطِن. والعبودية الظَّوَاهِر، فهذا مِن عجائِب أَسْرار الرّبوبية؛ إن ظَهَرَتْ في قوالبِ الْعُبُودية، ولذلك تعجَّبَ صاحب الحِكَم الْعَطَائية، حيث قال:

سبْحَانَ مَنْ سَتَرَ سِرَّ الخصوصية بظهور وَصْف البَشَرية وظهر بعظمَة الرَّبوبية، في إظهار العبودية. وقال الْحَلاج رضي اللَّهُ عنه في هَذَا المعنى:

سُبْحَانَ مَنْ أَظْهَرَ نَاسُوتَهُ ... سِرَّسنا لهوته الثاقبِ

ثم بَدَا في خَلْقه ظَاهِراً ... في صُورَةِ الأَكْل والشُّرْبِ

حتَّى لَقَدْ عَايَنَهُ خلقه ... كَلَحْظَة الحاجب بِالحَاجِبِ

ولعَدَم فَهْم كَلاَمِهِ؛ قَتَلَه أَهْل الظَّاهر ووافقهم أَهْل الباطن لإفشائِهِ السِّرّ؛ وهو وليّ الله حقاً. وأَمَّا الرّوحانية والبشرية؛ فالرّوحانية قائمة بالبشرية قيام الماءِ بالعود الأرطب، منسوبة إلى الرُّوح. فالبشرية محلّ التكليف والرُّوحانية: محلّ التعريف. البشرية: محلّ العبودية، والرّوحانية: محل شهود الرّبوبية. فإذا استولتِ الرّوحانية على البشرية وكَسَتها اكتساء النّار للفحمَة. صار صاحبها روحانياً سَمَاوياً. وعَلاَمته: أَنَّهُ لا تجول روحه غالباً إلاَّ في أَنْوَارِ التوحيد، وأَسْرار التفريدِ. وإذا اسْتَولتِ البَشْرية على الروحانية، صار صاحبها بشرياً أرضياً. وعلامته جَوَلاَن روحِه غالباً في حسّ الكَائنات، وكَلاَمه غالباً في الفُرُوقاتِ. وأَما الحسّ والمَعْنَى. فالحسُّ ما ظَهَرَ

للبَصَرِ من حسّ الأوانِي، والمعْنَى: مَا انْكَشَفَ للبصيرة من أسْرار المعاني، فَمَن وَقف على حسّ الأواني، كان محجوباً عن اللَّهِ. ومن نَفَذَ إلى شُهُود الْمَعَاني، كَان عارفاً بِاللَّهِ. وفي ذلِكَ يقول الششتري رضي الله عَنْهُ:

لا تـنـظـرْ إلـى الأوَانِـي وخُضْ بحر الْمَعَانِي، لعَلَّكَ تَرَانِي

وقال أيْضاً رضي الله عَنْهُ: نطقي من خلاف ذاك الأواني وأنا دائم كل الأواني أواني. وكمون المعاني في الأواني كَكُمُونِ الماء في الثَلجَةِ فَالْمَعَانِي قَدِيمة، وظهور الأواني حديثة، فإذا اسْتولتِ الْمَعَانِي على الحسية، صار الكلّ قديماً. ولذلكَ قال الجنيد رضي الله عَنْهُ لِلَّذِي قال: الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَم يَزِدْ رَبّ الْعَالَمِينَ فقال: كَمّلْهَا فقال لَهُ: أَيُّ قدْر للعالمينَ حتى تُذْكر مَعَهُ. فقال له الجنَيْدُ: كَمّلْها يَا أَخِي، فإن الحادث إذا قرن بِالقديم، تلاشى الحادث. وَبَقِي القديم. وأَمَّا القدرَة والحِكمَة، فالقدرة من شَأْنِهَا الإبْرَازُ والإظْهَارُ. والحِكْمَة: من شأنها التغطية والإسْتَار. لأنَّ الحِكمَة هي اقتران الأسْبَاب والعِلَل بمسَبّبَاتها، فإذا بَرَزَتِ القُدْرة ما سَبَقَ بِهِ الْقَدَر، جَعَلَت الحِكمَة لذلكَ أَسْبَاباً وَعِلَلاً ليبقَى السِّرُّ مَصُوناً، والكَنْزُ مَدْفوناً. فالحِكْمَة هِيَ التي تُسَمِّيهَا الْعُلَمَاءُ الكسْب والاكتساب عند أهل السنة. فالجَبْرية وقفُوا مَعَ القدْرة؛ ولم ينظروا إلى الحِكْمَة؛ وهو جَهْل وجُمُودٌ. والمعتزلَة وقفُوا مَعَ الحِكمَة؛ ولم ينفذُوا إلى شهود القدرة؛ وهو شِرْكٌ، أو كُفْرٌ. وأَهْل السّنَّة نَظَروا إلى تصرف القدرة، مُرْتدية بِرداءِ الحِكْمَة؛ وهو عيْن الكَمَال، إلاَّ أَهْلَ الشهودِ والعِيَان. وأَمَّا الخلْقُ والأَمْرُ، فالخلق عِبَارة عن خَلْقِ الأشياء بالتَّدريج، حسَبمَا اقتضَتْهُ الحِكْمَة. والأمْر عِبَارة عَنْ إبْرازهِ في لحْظَةٍ كَمَا هُوَ شأن القدرة. قال تعالَى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾. إلاَّ أَنَّ الأمْرَ لا ينفكُّ عَنِ الْخَلْقِ إلاَّ في المعجزَةِ للنَّبِي أو الَرامَة لِلْوَلِيّ كَمَا لاَ تَنْفكُّ القُدْرة عن الحِكمَة؛ لأن عَالَم الخَلق مِنْ جُمْلَةِ الحِكمَة؛ التي وَقَعَ بها الاسْتتار لسِرِّ القدرة. وأَمَّا الشَّرِيعَةُ والحقيقة. فالشريعة أَدَب الظواهر، والحقيقة مَعْرفة البَوَاطِن الشريعَة تغطية للحقيقة كالحِكمَة لِلْقُدْرةِ بل هي مِنْ جُمْلَةِ الحِكْمَة. وأَمَّا الفناء؛ فهو الغيْبَة عن حسّ الكَائناتِ بشهودِ المعاني. والبَقَاء: شُهُودُهُمَا مَعاً. فيعْطي كل ذي حق حَقَّهُ. وَيُوفِي كل ذي قسْط قسْطهُ والسكر هو عيْن الفناء. والصحو عيْن الْبَقَاءِ. واللَّهُ تعالى أَعْلَمُ. فالتمييز هو المُفَسّر لما انبهَمَ من الذَّواتِ مَعَ المعَانِي، فيميّز بيْنهما، ويقوم بحق كل واحد منهما. وباللَّهِ التوفيق.

بَابُ الاسْتثنَاءِ: الاستثناء لغة: إخراج الشيء مما دَخَلَ فيه غيرهُ، وإدْخَال الشيء فيما خرج منهُ غَيْرُهُ. وفي الاصطلاحِ: الإخراج بإلاَّ أَو إحدى أَخَوَاتها تحقيقاً أَو تقديراً من مَذكور أَوْ متروك. بشرطِ الإفادة. فقوله تعالى تحقيقاً: إشارة إلى الاستثناءِ المُتَّصل أو تقديراً، إشارة إلى الاسْتثناءِ: المنقطع ماكان المستثنى من غَيْر المسْتثنى مِنهُ. نحو: قَام القوم إلاَّ حماراً. ومنه قوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ﴾. إلاَّ الموتة الأولى، وقوله: من مَتْروكٍ أو مذكورٍ إشارة إلى التَّام والناقص، وسَيَأتي. وقوله: بشرْطِ الفائدة. فخرج لنحو: ما ضربْت إلاَّ ضرب إذ لاَ فائدة فيه. ثم ذكرت الأدوات فقال: (ص) وحروف الاسْتثناء ثمانية؛ وهي إلاَّ وغيْر، وكسِوى وَسُوىً وَسَوَاء وخَلاَ وعَدَا وحاشَا. (ش) قلت: أطلق عليها حروفاً تغليباً، وإلاَّ فمنها ما هي حروف باتفاقٍ. وهي إلاَّ. ومنها ما اسْم باتفاق؛ وهو غَيْر وَسِوَى؛ كَرِضىً. وسُوىً كَهُدىً. وسواء، كَسَمَاء. ويُقال: سواء كَبِناء. ومنها ما هي مترَدّدة بيْن الفعلية والحرفية. وهي خَلاَ وعَدَا وحَاشَا. فإن جَرَّتْ فهي حروف. وإن نصبَتْ فهي أفعَال، ما لم تتصِل خَلاَ وعَدَا بِمَا. وإِلاَّ تعيَّنَتْ فعليتهما. ثم ذكر حكم المستثنى فقال. (ص) فالمسْتثْنى بإلاَّ يُنْصَبُ (ش) أَيْ وُجُوباً، كان متصلاً أو منقطعاً (ص) إذا كان الكلام موجباً تامّاً. (ش) فالموجب هو الّذي يتقدمه نفي أو شبْهُهُ. والتام هو الذي يُذكر المستثنى مَعَهُ قَبْل إلاَّ. (ص) نحو قولكَ قام القوم إلاَّ زيداً (ش) أي أَو إلاَّ حِمَاراً (ص) وخرجِ النَّاس إلاَّ عَمْراً (س) أي أَوْ إلاَّ حماراً. (ص) وإذا كَان الكَلامُ منفياً (ش) أي بأَن تقدمه نفيٌ أو نهْي أو استفهام إنكاري (ص) تامًا (ش) بأَن ذكر فيه المستثنَى منْهُ. (ص) جاز فيه البَدَل والنَّصْبُ (ش) أي إذا كان متصلاً (ص) نحو: ما قَام أَحَد إلاَّ زيدٌ. (ش) بالرفع على البَدَل من أحدٍ. ويجبُ في بَدَل البَعْضِ من الكل، اتصاله بضمير المُبْدَل منْهُ لفظاً أو تقديراً؛ وهو هُنَا مُقدَّر، أي إلاَّ زيد منْهُمْ. (ص) وَإِلاَّ زيداً (ش) بالنَّصب على الاسْتثناءِ. وإذا كَان الاستثناء منقطعاً، وجَبَ النَّصْبُ عند الحِجَازيّينَ. نحو: ما قام أَحَدٌ إلاَّ حِمَاراً. وبِلُغَتهم جَاءَ القُرْآنُ. نحو قوله تعالى: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾. وترجَّم عند تميم، ويقرؤونَ إلاَّ اتباعُ بِالرَّفعِ اتباعاً للمحلِّ. وفي الألفية:

وانْصَبِ مَا انقَطَعْ   وعَنْ تميم فيه إبْدالٌ وَقَعْ

هذا إذا لم يتقَدّم المستثنى منْهُ وإلاَّ فالنَّصْب عند الجميع. قَالَ الشاعر:

مَالِيَ إلاَّ آل أَحمد شيْبَة   ومَالي إلاَّ شعب الحق مشعب

والاتباع قليل ذكر يونس: مالي إلاَّ أخوك ناصر. (ص) وإذا كَان الكلام ناقصاً (ض) بأن لم يذكر فيه المستثنى منهُ، ويُسَمَّى مُفَرَّغاً. (ص) كَان على حسَبِ العوامل (ش) أي كَان إلا كالعدم. (ص) نحو ما قام إلاَّ زيْد، وما ضَربْت ألاَّ زيداً، وما مَرَرْت إلاَّ بِزَيْدٍ. (ش) وإذا تَعَدَّدَتِ المسْتثنيات، جُعِل واحد منها على ما تقدم، ونصب الباقي وجوباً، نحو ما قام أحد ألاَّ زيداً إلاَّ خالداً إلاَّ بشراً. (ص) والمسْتثنَى بغير وسِوىً وسُوىً وسواء مَجْرور لاَ غيْر (ش) أي بالإضافة، فلا يجوز فيما بعدها إلاَّ الجرّ. وأما هي فتعربُ إعراب الاسْم الذي بعد إلاَّ. فإن كَان الكَلاَم موجباً تامًا وجَبَ نصبها على الحال، وإن كان مَنْفياً تاماً جاز فيها البَدل والنَّصْبُ نحو ما قام أَحَد غَيْر زيْدٍ وغَيْر زيد. وإن كَان ناقصاً كَانَتْ على حسبِ العوامل، نحو ما قام غيْرُ زَيْدٍ. وما ضَرَبْت غيْرَ زَيْدٍ. وما مَرَرْتُ بِغَيْرِ زَيْدٍ. وكذلكَ سِوىً وسوى. ويُقدَّر فيها الإعراب (ص) والمستثنى بخلاَ وعَدَا وحَاشَا؛ يجوز نَصْبُه وجرهُ. (ش) وإن نَصَبن فأفْعَال. وإن جَرَرْنَ فحروف. (ص) نحو ما قام القوم خَلاَ زيداً وزيْدٍ. وعَدَا عَمْراً وعَمْروٍ. وحَاشَا زيداً وزَيْدٍ. (ش) فخلاَ فعلٍ ماضٍ جَامد. والفاعل مستتر يعود على الْبَعْض المدلول عليه بِالكُلّية السابقة. وَزيداً مفعول خَلاَ. وجُمْلة خَلاَ زيداً في مَوْضع الحالِ مستأنفة فَلاَ موْضع لَهَا. وإنْ جَرَرْتَ ما بَعْدها فخلاَ حرْف جَرٍّ، وزيد مجرور بِهَا. وموضع خَلاَ ومجرورها نَصْب. إمَّا من تمام الكَلاَم أو بالفِعل السَّابِق. وعدَا وحَاشَا على وَزْنِ ما قبله جُمْلة وتفْصيلاً. وبَقِيَ على المصَنِّف. المستثنى بلَيْسَ. وَلاَ يكون. والْعُذْرُ لَهُ. إنه اكْتَفَى عنهما بِما تقدَّم في كَان وأَخواتها، لأن خَبَر لَيْسَ وكَانَ تقول: قام القَوْم لَيْس زيداً. وَلاَ يكون زيْداً أي لَيْس بعضهُمْ أو لاَ يكون بعضهم زيداً. والله تعالى أَعْلَمُ.

الإشَارَةُ: المستثنى من الفزع الأكْبَر، هو من فضْل الإيمان والطاعة، أو مقام الإحْسَان والمعرفة، وأَسْبَاب النجاة منْهُ ثمانية: التقوى ظَاهِراً وباطِناً. واتباع السّنة قولاً وفعلاً. والصبر على الطاعة وعن المعصية، وفي النّعْمة والبلية، والرّضَى عنِ اللّهِ في الجَلاَلِ والجَمَالِ. والتوكل عليْهِ في المَنْع والعطاءِ، والوَرَع عن المحرَّم والمكروه والزّهد في الفضول من كلّ شيءَ، وَمُرَاقَبَة اللّهِ في السِّرِّ والعلانية. فَمَن حصَّل هذه الأمور كان من الذِينَ قال الله فيهم: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾. ويكون ممَّن اسْتثنى الله بقولِهِ: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ ومن غَلبه القدر فالتوبة معروضة. وَبِالله التوفيق.

بَابُ لاَ: أي التي لنفي الجِنسِ. وتسَمَّى لاَ التبرية؛ لأنَّها تنفي الجِنس، فكَأنّها تدلّ على البراءَة من ذلكَ الجِنسِ. والأصل فيها ألاَّ تَعْمَل لعَدَم اختصاصها بالأسماءِ. لكن إذا قَصَد بِهَا نَفْي الجِنس على سبيل الاسْتغراق، ونصّ العموم عملت بالحمل، على أَنَّ المؤكدة في الإثبات وهي مؤكَّدة في النفي، والشيء يُحْمل على ضِدّهِ. كما يُحْمل على نِدِّهِ. ولمَّا كَان عملها بالحملِ، جعلوا لها شروطاً ستة. أولها: أن تكون ثابتة لا زائدة. ثانيها: أن تكونَ لنَفْي الجِنْسِ، لاَ لنَفْي الوحدة. ثالثها: أَنْ تكون نصّاً في العموم. رَابِعها: أَنْ يكون معمولها نكرة اسمها وخَبَرُها. خَامِسُها: أَنْ تكون متصلة بِاسْمِها. سَادِسُهَا: أَلاَّ يَدْخل عليها حرْف جَرٍّ. وقد نظمه بعضهم في بَيْت فقال:

لِنَفْي جِنْس منكر نصّاً وصل ... بِلا وَلاَ جَرٌّ شروطاً لاَ عَمَل

زاد بعضهم سَابعاً؛ وهو أَنْ لاَ يكون اسْمُها معمولاً لغيرهَا. كقوله تعالى: ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْۚ﴾. فإنه مَعْمُول لمقدّر. أي لاَ يُقَال لَهُمْ: لا مرحباً بهم. أي وجدتم مكَاناً رحْباً، فإن توفرتْ هذه الشروط، وجب عملهَا، تَكَرَّرَت أَمْ لاَ؛ وهو ظاهر كلاَم صاحب الألفية، حيْث قال:

عَمَلَ أَنَّ اجْعَلْ لِلاَفِي نَكِرَةْ ... مُفْرَدَةً جَاءَتْكَ أَوْ مُكَرَّرة

خِلاف ظَاهر كَلاَم المُصَنّفِ حيْث قال: (ص) اعْلَمْ أَنَّ لاَ تنْصِبُ النكرة بِغَيْر تَنْوِينٍ إِذَا بَاشَرَتِ النكرة ولم تتكرَّرْ لاَ. (ش) فظَاهره، أَنَّ عدَمَ التكرار شرط. وليْس كَذَلِكَ. وإنما المَدَار على توفّر الشروط. فإن توفَّرَتْ وجَبَ العَمَل؛ وهو البِنَاء على الفَتحِ في النكرة المفردة، والنَّصْب في غَيْرها، وقوله: تنصب النكرة. ظاهرة أنه نَصْبُ إعرابٍ؛ وهو مَذْهب الجرمي والزّجاجي، والسيرافي. وحذف التنوين عندهم تخفيفاً. ومذهب البصريينَ أنه مبنيّ معها. إن كان نكرة مفردة. وينصَب إن كَان مضافاً أوْ شَبيهاً بِهِ. والمراد بالمفرد هُنَا ما ليْس مضافاً وَلاَ شبيهاً بالمُضَافِ. فيَصدق بالمفردِ، نحو: لاَ بَيْعَ فيه. وبالمثنَّى كقول الشاعر:

تَعَزَّ فَلاَ الفَيْن بالعَيْش متّعَا ... ولكن يُورَّاد المنون تتابع

أي تَصَبَّرْ على فِرَاق الأحْبَابِ. فَلاَ حبيبين متعا بالعَيْش الدَّائِم. ولكن لشراب كَأْس المَنُون، تتابع وتوارد، والمَنون بفتح الميم: المَوْت. وبالجمع، نحو: لاَ رِجَال وَلاَ مُسْلمينَ، فيبنَى على الفَتْحِ أَوْ نائبهُ. وبالجمع المُؤنَّثِ، كقول الشاعر:

إنَّ الشَّبابَ الَّذي مَجْدٌ عواقبه ... فيه تلذ وَلاَ لذَّاتِ للشيبِ

إلاَّ أَنَّ جمع المؤنث، يجوز فيه الفتح والكَسْر، فيروى لاَ لذات بالفتح والكَسْر، واختلف في علة بنائِهِ. فقيل لتضمنه مَعْنًى مِنَ الاسْتغراقية، بدليل ظهورها في قول الشاعر:

فَقَام يذُود النَّاسَ عَنْهَا بسيْفِهِ ... يقول إلا لا من سبيل إلى هند

وقيل لتركيب لاَ مَعَ اسْمِهَا؛ تركيب خمْسة عشَرَ. وأمَّا إن كَان مضافاً، نَحْو لاَ غلاَمَ سفر حاضر، أَوْ شَبيهاً بِالمضافِ؛ وهو الذي يطلبُ ما بَعْدَهُ. نحو: لاَ ماراً بزيد عنْدَنَا، وَلاَ طالعاً جبَلاً حاضرٌ. فينصَب اتفاقاً ثم مثَّل فَقَال. (ص) نَحْو: لاَ رَجُلَ فِي الدَّارِ (ش) ومثله: لاَ إِلَهَ إلاَّ اللَّهُ. فَلاَ نافية للجنسِ. وَإِلَهَ اسْمُهَا مبْنِي على الفَتْح. وَإلاَّ إبْطال النَّفْي. واللَّهُ بَدَلٌ مِنَ الضَّمير المسْتتر في الخَبَرِ. أَيْ مَوْجُوداً. وفِي الاسْتقرار في الوجودِ، أو مِنِ اسْم لا باعتبارِ مَحلِّهِ، قَبْلَ دُخُول لاَ؛ وهو الابتداء؛ وَهُوَ ضَعِيفٌ. وقيل خَبَرَ لاَ. كقَوْلِكَ: لا عَالِمَ إلاَّ زيْد، وقيل مبْتدأ، وَلاَ إلَه خَبَرُهُ. والأَصْلُ. الله إلَهُ، ثُمَّ قدّمَ الخَبَرَ للْحَصْرِ، وَبُني مَعَ لاَ وَقيلَ: نَائب عَن الْفَاعِلِ؛ لأن إلَه بمعْنَى مَا له. أي معبود، والمَعْنَى. لاَ معبود إلاَّ اللَّهُ. فهو نَظِيرُ قولكَ: لاَ مضروب إلاَّ زَيْد. وقيل مَرْفوع على الصِّفَة، باعتبار مَحَلِّهِ. وإلاَّ بِمَعْنَى غَيْر، ولَمَّا كَانت إلاَّ عَلَى صورة الحرف. وأَصْلها الحرفية، انتقل إِعْرابُهَا إلى ما بَعْدَهَا.

والخَبَر حينئذٍ مَحْذُوف، أي لاَ إلَه غَيْر اللَّهِ موجودٌ. ويجُوز فيه النَّصْبُ على حَدِّ قَوْلِكَ: ما قامَ أَحَد إلاَّ زيْداً على ما تقدَّم. أَوْ على أَنَّه صفَة الإلَه باعتبار مَحَلِّهِ، بعد دُخول لاَ. والخَبر مخذوف، أيْ لاَ إلَه غَيْر اللَّهِ مَوْجُود وسيأتي الكَلاَم على مَعْنَاهَا فِي الإشارة إنْ شاءَ اللَّهُ، ثم ذكر مفهوم الشرط فقال (ص) فإن لَمْ تباشِرْهَا (ش) أَوْ كَان مَدْخولها معرفة (ص) وجَبَ الرَّفع وَوَجَب تكرار لاَ نحو: لاَ في الدَّار رَجُلٌ وَلاَ امرأة (ش) ومثله «لاَ فِيهَا غَوْلٌ وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ». ومِثال المَعْرفة. لاَ زيْد في الدار وَلاَ امرأة. تَنْبيه: قد تنكَّرُ المعرفة، ويُقْصَد شيوعهَا، فتدخُل لاَ عَلَيْهَا، وتُبْنَى عَلَى الْفَتْحِ، كقولهم: لاَ هيثم الليْلة المطي. وهَيْثَمْ عَلَمٌ على رَجُلٍ كَان شجاعاً، أيْ لاَ مِثْلَ هَيْثم، وتقول: لاَ حاتم عنْدنَا، قال في التسْهيل: وقد يؤول غَيْر عبد الله، وعبْد الرحمْن بِنكِرة، فيُعَامَل مُعَاملتَهَا بَعْد نَزْعِ مَا فيه، أَوْ ما أُضيفَ إِلَيْه مِنْ أَلف وَلاَمٍ. وَلاَ يعامل بهذه المُعَاملة ضمير وَلاَ اسم إشارة، خِلاَفاً

للفَرَّاءِ هـ. ثم قال المصنف (ص) فإن نكرت لاَ. جَازَ إعْمالها وَإِلْغَاؤهَا. نحو: لاَ رَجَلَ في الدَّار وَلاَ امرأة. (ش) أي بالإعْمَال. (ص) وإن شئتَ قلت: لاَ رَجُل في الدَّار وَلاَ امْرأة. (ش) أي بالإهْمَالِ. وتقدَّم البَحْثُ فيه. والتحقيق: إنه إنْ قَصَدَ النَّفْيَ على سبيل التنصيص، وجب البناء. تكَرَّرتْ أَمْ لاَ. وإن قَصَدَ النَّفْيَ على سبيل الظُّهُورِ، ولم يرد التَّنْصيص، وجَبَ إهْمَالُهَا، أَوْ تَعْمَل عَمَل لَيْسَ. قال الشيْخُ على بركة، رحمه الله. وقد يعْتبر الجواز، بحسب إرَادة المتكلّم، وعَدمه. بِمَعْنَى، أنَّه يجُوز أَنْ يُريد التنصيص، فيأتي بِهَا عَلى مقتضَى عَمَلِهَا في البَابِ. ويجُوز أَلاَّ يُريدهُ بل يُبْقِي الأَمْرَ على الظهورِ، فيأتي بِهَا على الإلغاءِ، أو عمل ليْس. قال: وهَذَا واضحٌ لِمَن أَنْصَفَ. واللَّهُ تَعَالى أَعْلَمُ. تتميمٌ: يجوز في لاَ حَوْلَ وَلاَ قوَّة خَمْسَة أَوْجُهٍ: فَتْحُهُمَا، رَفْعُهُمَا، فتح الأول، وَرَفْع الثاني، ونصبه. رفع الأول، ونصب الثَّانِي. ويُمْنَعُ رفْعُ الأول وفتح الثَّانِي. فَرْعٌ. يجوز حَذْف اسْم لاَ، وإبقاء خَبَرِهَا كَقَوْلِهِمْ: لاَ عليك أَنْ تَفْعَلَ أَو لاَ بأْسَ أَوْ لاَ شيءَ عليْكَ. وأمَّا حذف خَبَرها فكثير، إذا دَلَّ عليه دَليلٌ كقوله تَعَالَى: ﴿فَلَا فَوْتَ﴾. ﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ﴾. ويُلْزِمُ حَذْفَهُ التميميُّونَ والطَّائيُونَ. وأمَّا إذا جُهِل يجب ذِكْرُهُ. كقولِهِ في الحَدِيثِ: «لاَ أَحَداً غَيْرَ اللَّهِ». واللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

الإشَارَةُ: نَفْي الجِنْسِ، وَالبُعْدُ عن الحسِّ شرْط في دُخُول حَضْرَة القدس، ومحلّ الأنسِ فَرِّغْ قلبَكَ من الأغيارِ، تملأه بالمعارف والأسرار كيْف يُشْرق قلبٌ، صُوَرُ الأشياء منطبِعَةٌ في مِرْآتِهِ، أَمْ كيْف يَرْحَلُ إلى اللَّهِ، وهو مكبَّل بشهواتِه، أَمْ كيْف يَدْخُل حضْرَة اللَّهِ؛ وهو لَمْ يتطهر من جَنَابَةِ غَفَلاَتِهِ؛ ولهذا شرعت كلمة التوحيد وهي: **لاَ إلَهَ إلاَّ اللَّهُ**: وهي تنفي الشرك الجَلي وَالْخَفِي. وتُطَهِّرُ القَلْب مِنَ الشواغِل والعَلاَئق. فالعامَّة تنفي الشرْك الجلِي. أو نَار أَوْ غير ذلِكَ ممَّن اعتقدتِ الْعَرَب وأَهْل الضَّلالة، أَنه يستحق أَنْ يُعْبَد مع الله. فَمَعْنَى لاَ إلَه إلاَّ اللَّهُ لاَ مستحق للعبادة إلاَّ اللَّهُ؛ فهي تنفي اسْتحقاق العبادة عَنْ غَيْرِ اللَّهِ. وتثبتها لله جَلَّ وَعَلاَ. فقول الاستثنى هو الصواب. وأَمَّا نفيها للشركِ الخَفِي، فإنَّ مَن أَحَبَّ شيئاً فَهُوَ عَبْد لَهُ. وَمَن ركَن إلى شيءٍ فَقَدْ تَأَلَّهَهُ. وكذلكَ مَنْ خَاف مِن شيءٍ فَهُوَ عَبْدُهُ، فإذا قال المُؤمِن: لاَ إله إلاَّ الله. فَقد أَخْرَجَ من قَلْبِهِ كُلَّ شَيْءٍ. مَالَ إليه قَلْبُهُ، أو خَافَ مِنْهُ: أَوْ طَمع فيه. فَمَعْنَى: لاَ إلَه إلاَّ اللَّهُ. لاَ حَبِيبَ لِي، وَلاَ مَعْبُودَ لِي إلاَّ اللَّهُ. أو لاَ رُكُون لِي إلى شيْءٍ، وَلاَ خَوْفَ لي مِنْ شَيْءٍ إلاَّ اللَّهُ. فكل واحدٍ ينفي ما في قَلْبِهِ مِنَ الأَغْيَارِ. فأَوّلها تَخْلية، وآخِرها تحلية. ولذلكَ كَان بَعْضهم إذا قال: لاَ إلَه إلاَّ

اللَّهُ. أَشار بِرَأْسِهِ إلى ناحية قَفَاهُ، كَمَنْ يَرْمِي شيئاً. وإذا قال: إلاَّ اللَّهُ. أَشَارَ برأسِهِ إلى قَلْبِهِ. ليتمكَّن الله مِنْ قَلْبِهِ. هكذا يستَمِرّ، حتى لاَ يجد ما يَنْفِي، فَيَرَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يوَحِّد نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ. ويخبرنا: أَنَّهُ لاَ إِلَه سِوَاهُ. فحينئذٍ يَقُولُ: اللَّهُ اللَّهُ، ثم هُوَ هُوَ، ثم يَغْرق في بَحْرِ الأحدية. فَيَصْمُت اللسَانُ ويثبُت الشهود والعيانُ. وما ذلكَ على الله بعزيز.

بَابُ الْمُنَادَى: وهو اسم مَفْعُول، من نَادَيْته نِدَاءَ بِكَسْرِ النُّونِ في الأَشْهَرِ. ويجوز الضَّمُّ. وهَمْزته بَدَل من الواو. لِقَوْلهم: نَدَوْت القَومَ نَدْواً. أي جَلَسْت مَعَهُمْ في النَّادي؛ وهو المَكَان الذي يُنَادِي فيه بَعْضَهم بَعْضاً. قال تعالى في شأن قوم لوطٍ: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾. أي في مَجْلِسكم ومَجْمَعِكم. وفي اللُّغَة: الدّعاء لعَاقِلٍ مجيب. أَوْ لغَيْر الْعَاقِلِ على طريق التَّذَكُّرِ والتّذكير. كنِداءِ الأَطْلاَلِ والدّيار، كَقَول الشَّاعِرِ: أَلا يَا دَار مية بالعلياء فالسّند هـ. وحيَّاك الله يا جَمَلُ أَلاَ يا سَذْبَ القطا مهل من يعير جناحه الخ. وفي الاصْطِلاحِ: الدّعاء بيَاءٍ أَوْ إِحْدَى أَخَواتِهَا. فإذَا قلت: أَدْعُوكَ أَو أَقبلْ عليَّ. أو إِحْضرْ، وَقَصَدتَ بِذلكَ الإنشاد. كَانَ نِدَاءَ لُغَةً لاَ عُرْفاً. وإذا قلت: يَا زَيْدُ، كَان نداءَ لُغَة وعُرْفاً. وحروف النّداء ثمَانيةٌ: الهَمْزة، وأي مقصورتانِ ومَمْدودتَانِ، وَيَاء وأَيَا، وهيَا، وَوَافي النُّدْبَةِ. فالهمزة المقصورة للقريب. إلا إِذا نُزِّل منزلة الْبَعيد، لنَوْم أَوْ سَهْوٍ. فيُنَادَى بِمَا لِلْبَعِيدِ؛ وهو ما سِوى الهَمْزة. وقيل: الهمزة المقصورة للقريب. والممدودة للمتوسط. والْبَاقي للبَعيد. وأعَمّها دُخولاً الياء، وتتعيَّن في اسم الجلالةِ، وفي الاسْتغاثة، نحو: يا أَللَّه للمسلمينَ، فإذا قلت: الله تعالى أقرب من كل شيء فكيف ينادى بما للبعيد، نحو: يا رحمٰن، باللَّهُ. فَالْجَوَاب إن المُنَادَى يستصغر نَفْسه وينزلها منزلة الْبَعيد تواضعاً واحتقاراً لنَفْسِهِ. ثم ذَكَرَ أَحْكَامَ المُنَادَى فقال: (ص) المُنَادى خمْسَة أَنْوَاع: المفردُ الْعَلَمُ، وَالنَّكِرة المقصودة. والنكرة غير المقصودة. والمضاف، والمشبَّه بالمضافِ. (ش) قلت: المراد بالمفْردِ هنا: ما لَيْس مُضَافاً وَلاَ شبيهاً بِهِ. فَيَصدق بالمفرد والمثنّى والجَمْع. نحو: يا زيد، وَيَا زيدانِ، وَيَا زَيْدُونَ. والمُرَاد بالنكرة المقصُودَة: ما عيَّنتَهُ وأَقْبَلْت عليه، سواء كَانت مُفردة أَو مثنَّاة. أَوْ مجموعة، نحو: يا رجل، يا رجلانِ. وَيَا رِجَالُ. وَيَا نِسَاء، ونحو ذلِكَ. والنكرة غَيْر المقصودة، هي غَير المعيَّنة كقول الأعْمَى: يا رَجُلاً خُذْ بيَدي، وَكَقَوْلِ الْوَاعِظِ: يَا غَافِلاً والمَوْت يطلبكَ. وسواء كَانَتْ أَيْضاً مفردة أَوْ مثنَّاة أَوْ مجموعة، نحو: يا رجلَيْن وَيَا رِجَالاً. والمُراد بِالمضَافِ مَا أُضيف إِلَى مَا بَعْدَهُ. نحو: يا عبد

اللَّهِ. وَيَا صَاحِبَي السِّجْنِ. مفرداً كَان أَوْ مثنى أَو مَجْموعة، والمشبَّه بالمضافِ، ما عمل فيما بَعْدَهُ. مطلقاً. نحو: يَا طالعاً جَبَلاً. وَيَا رَحِيماً بالعبادِ. وقد يُقَالُ: هو ما اتَّصَلَ به شَيْء من تمام معْنَاهُ. فَيَدْخل فيه، يا حَاضِراً لاَ يغيبُ. ويا ثلاثة وثلاثينَ، مسمّى بِه، ثم أَشار إلى بَيَانِ حُكْمهَا، في البِنَاءِ والإعراب فقال. (ص) فأَمَّا المُفرد الْعَلَمُ، والنكرة المقصودة فيبنيَانِ على الضَّمِّ مِن غَيْر تنوين ما فيهما مِنَ الشَّبَه بضَمير الخطابِ، وإِمَّا لإجرَائهما مَجْرَى الأَصْوَاتِ؛ ونُسب لسيبويْهِ. وقوله على الضَّمِّ. الصَّواب أَن يقول: فَيُبْنَيان على ما يُعْرَبان بِهِ، ليشمل المفرد والمثنى والمجموع بِأَنواعهِ. (ص) نَحْوَ يَا زَيْدُ ويَا رَجُلِ (ش) ويَا زَيْدانِ وَيَا زَيْدُون، وَيَا هنْدات، ويَا رجال وَيَا هُنُود، وعبارة الخلاصَة أَكْمَلُ حيْث قال:

وَابْنِ الْمُعَرَّفَ الْمُنَادَى الْمُفْرَدا عَلَى الَّذي فِي رفعه قَدْ عُهِدَا

وكَأَنَّه لما كَان الأَصل: البناء على الضَّمِّ، وما سِوَاهُ فَرْعٌ: اقتضى على الضَّمِّ. وما كَان مبنياً قبل النِّدا نَوَى ضَمَّهُ، نحو: يَا هَؤلاَءِ، ويَا سِيبَوَيْه، ونحو ذلِكَ. ويظهر أَثر ذلِكَ في التابع. تقول: يا سيبويه الْعَالِمُ بالرَّفعِ. مُرَاعاة للضمَّة المنوية. ويُنْصَب مُرَاعاة للمحلِّ؛ لأَنَّ محَلّه نَصْبٌ لأَنَّ الياء نائبَة عن ادعوا. ويجوز أَيضاً الضَّمّ والفَتحُ في قولك، يا زيْد بن عمرو، ويَا هند بنت سَعْدٍ. أَوْ عطف بيَانٍ. فإن كَان التابع مضافاً دُونَ ال، وجَبَ نَصْبُه، نحو يَا زيْد ذَا الخيْلِ، ويا تميم كلهم، ويا علي زيْن العابدينَ، اتباعاً للمحلِّ. وإِن كَانَ مَقروناً بأَلْ أَوْ غَيْر مُضَافٍ. أَو مضافاً مقروناً بأَل. ففيه وجهانِ: الرَّفع مُراعاة للظَّاهر، والنَّصْب مراعاة للمحلِّ، نحو يا زيد العالم، ويا تميم أَجْمعينَ. ويا زيد الحسن الوَجْه. وإِن كَان التَّابع بَدَلاً، أَو عطف نَسَق، جُعل كَأَنه مسْتقل بالنَّداءِ؛ لأَنَّ البَدَل وعطف النَّسَق على نية تكرار العَامِلِ. تقول: يا زيْد بشرِ. ويا زيد كرز بالضم فقط. وتقول: يا زيدُ أَخَانَا، ويَا زيْداً أَخَانا بالنَّصْب فقط. إِلاَّ أَنَّ النَّسَقَ مقروناً بِأَلْ ففيه وجْهَانِ، ورفع ينتقي، كقول الشاعر:

أَلاَ يَـا قَيْـس والضَّحَّاك سِيرَاً فَقَدْ جَاوَزْتُمَا خَدَّ الطَّرِيق

وهَذَا في غَيْر تَابع أَيّ. وأَما تابعها فواجب الرَّفع، نحو: يا أَيُّها النَّاس «يَا أَيُّها الَّذي نُزِّلَ عَلَيْه الذِّكْرُ»؛ لأَنَّ هذه نكرة مقصودة وَلاَ تَسْتعمل في النِّدارِ أَلاَّ كَذَلِكَ. وهي وصْلة لنداءِ مَا فيه أَل إذ لاَ يجوز أَن يُجْمَع بيْن يَا، وأَل. إِلاَّ مَعَ الله. ومَحْكِي الجُمَل، نحو ياالله، يا منطلق زيد مسمّى بِهِ. ويا لخليفة هيْبة. لأَنه في

المَعْنَى. يا مثل الخليفة وكَثُرَ في نِداء اسْم الجلالةِ حَذف اليَاءِ، وتعويض الميم المشَددة عنها، نحو: اللهُمَّ، وَلاَ يُجْمع بيْنهُمَا إِ لاَ في الضرورة كقَولِ الشَّاعِرِ: إنِّي إذَا حَدَثَ أَلَمَّا أَقول ياللهُمَّ يَا للَّهُمَّ.

تنبيه: يجوز نداء ضمير المتكلم أو المخاطب دُونَ الغيْبَةِ، إذ لاَ يُمْكِن نداء الغَائب. وقول الصوفية: يا هُوَ، بل يَبْقى عندهم غائباً، بل صار قريباً متعيّناً. إذ لَمْ يَبْق نَظَرهم إلا هُوَ لانطبَاقِ بَحْر الأحدية عَلَيْهِمْ. فَلَمْ يَرَوْا سِوَاه. وقال القشيري: هُوَ عِنْدَهُمْ عَلَمٌ عَلَى الذَّاتِ، فَلَيْس هو عِنْدَهُمْ ضميراً. وإنما هو اسم للهوية الحقيقة الفَرْدانيَة. واعتراض أبي حيَّان عليهم؛ لأنه لَمْ يعرف مَقْصَدَهُمْ. «قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاس مَشْرَبَهُمْ» والله تعالى أعْلَمُ. ثم قال المصنف. (ص) والثلاثة الباقية منصُوبة لاَ غَيْر. (ش) قلت: الثلاثة الباقية: هي النكرة غيْر المقصودة. والمضاف والمشبَّه بِالمُضاف، فمثال غيْر المقصودة قول الواعظ: يا غافلاً، والموت بطلبه. وقول الأعمَى، يا رجُلاً خذ بيَدِي. ومثال المُضَاف. يا عَبْد اللَّهِ. ويا أبَانَا، ومثال المشبِّهِ بالمُضَافِ، ويُقال له المطوّل، يا طالعاً جَبَلاً، ويا رفيقاً بِالعبادِ. ويا ثلاثة وثلاثينَ، مسمًّى بِهِ. وإن نَادَيْتَ جَماعة هذه عدتهُمْ فإن لم تعيّنْهم فَذَلَكَ. وإن عيَّنْتَهُمْ قلتَ: يا ثلاثة والثلاثون، ببنَاءِ الأول وتعريف الثاني. ويجوز فيه الرفع والنَّصْب كَمَا تَقَدَّمَ. ويدْخل في هَذَا. النكرة الموصوفة بجملة نحوياً عظيماً، يرجى لكل عظيم، ويا حاضراً لاَ يغيبُ. فَيَتَعَيَّنُ نَصْبُه على المشهُور. وقَوْل المُصَنّف لاَ غيْر. لاَ نَافية، تعمل عَمَل ليْس. وغير اسمها مَبْنِي على الضَّمّ أقطعه على الإِضَافةِ، وخَبَرها محذوف، أي لاَ غَيْر النَّصْب جائزاً، وأنكره في المغني، وقال: إنه لحقٌّ والمشهور جَوَازه، بدليل قول الشاعِرِ:

لعمرك ما أسْلفت لا غير تسْئل... والله تعالى أعْلَمُ.

الإِشَارَةُ: المُنَادى في الأَزمات والمآرب خمْسَة المفرد العلم؛ وهو الحق جلَّ جلاله، وهذا هو المقصود بِالذَّاتِ، والأربعة وسَائل. وقد يطلق المفرد العلم على الرَّسُول عليه الصلاة والسلام؛ لانفراده بالكَمالاَتِ، وظهوره بِالْمُعجِزَاتِ، ظهور نار القِرَى لَيْلاً على عَلَم، وإليه أشار صاحب البردة بقولِهِ: خفضت كل مقام بالإِضافة إذْ... نوديت بالرَّفع مثل المفرد العَلَم. وَلاَ شَكَّ أنه عليه السَّلاَمُ، باب اللَّهِ الأعْظَم، وشفيعهُ الأكرَمُ به تفرّج الكُرَب، وتُقْضَى المَآرب. ولله دَرُّ القائل، سيدي محمد البِكْري الصّدِيقي حيْث قَال:

فَلُذْ بِهِ فِي كُلِّ مَا تَرتَجِي فَهُو شَفِيعٌ دائماً يُقْبَلُ

وَعِذْبِهِ فِي كُلِّ مَا تَخْتَشِي فَإِلَيهِ الْمَرْجِعُ والمُؤَمَّلُ

والنكرة المقصودة؛ وهي سِرّ الوِلاَية، فمن ظفر بها كان باباً من أبواب الله يفزع إليه في الشدائد وتُقضى بشفاعته الحوائج لأنه نائبٌ عن الرسول الذي هو الحجاب الأعظم، وإنما فَسَّرْنَا النكرة المقصودة هُنَا، بِسِرّ الخصوصية؛ لأنها تنكر أوَّلاً، وتقصد ثانياً بعد التَّمكُنْ منهَا، يظهر الله صاحبها بَعْدَ الخفاءِ، لينتفع به العباد. وتحيا بِهِ البلاد. والنكرة غير المقصودة هي الخصوصية التِي بقيت على حال الخفاء، حتى مات صاحِبُها؛ فهو كَنْزٌ مِن كُنُوز الحقّ. وَعَرُوس الحضرة لا يعرفه إلاَّ أمثَالهُ. ومن قرب منه، والمُضاف إلى أَوْلياءِ اللَّه؛ بالتربية والخِدمَةِ. وهو مُلْحَق بهم في المآلِ. والمشبه بالمُضَافِ؛ وهو مَنْ تَزَيَّ بِزِيِّهِمْ وانتَسَبَ إليهم، ولم يكُن له ناهِضَة للظفر بِسِرّهِمْ، فَلاَ شكَّ أَنَّهُ تلحقه بركَاتهم، وَتَنْسَحِبُ إليه أَنوارهُمْ. كَما قال القائل:

لِي سَادات مَنْ حُبِّهُمْ أَقدامهُمْ فَوْق الجِبَاهِ

إِنْ لَمْ نَكُنْ مِنْهُمْ فَلِي فِي حبهم عز وجاه

فأما المفرد العَلم، ويُرَاد به الرسول عليه السلامُ، والنكرة المقصودة، فيبنَى أَمرهُمْ على الضَّمّ على اللَّهِ، والجميع بِاللَّهِ مِنْ غَيْر ثنوية الأثر بشهودِ المؤثر. فَلاَ يفترقون عنه سَاعة. والثلاثة الباقية منصوبة للمقادير. يجري عليهم ما كتب لَهُمْ مَعَ السكونِ تحت مجاريه. إِن قَرَّبهم فبفضلهِ، وإِن فَرّقهم فبعدْلِهِ. والسِّرُ من أَجْلِهِ؛ يجلُو. وبالله التوفيق.

بَابُ الْمَفعولِ مِنْ أَجْلِهِ: ويُقال له: المفعول لهُ، والمَفعُول لأَجْلِهِ. وحدّه في التَّسْهِيل بقولِهِ: هو المَصْدر المُعَلَّل، به حدَّث مشاركه، ظاهراً أو مقدّراً. والفاعل تقديراً أو تحقيقاً هـ. وقال الفاكِهي: هو المَصْدر القَلْبي الفُضْلَة، المحدث لحدث مشاركهِ. وقتاً، وفاعِلاً، وعَرَّفه المُصنف بقولِهِ: (ص) وهو الاسم المنصوبُ الذي يُذكر بَيَاناً لسَبَب وُقُوع الْفِعْل. (ش) فخرج بالاسم: الفعل والحرْف، وَبِالمَنْصُوب المجرور. وبالَّذي يُذكر الخ سائر المنصوبات، ما عدا المفعول لَهُ. فالمفعول لَهُ، هو الذي يُذكر علّة وَبَاعثاً للفعل الْوَاقِع. فإذا قلْت: قمت، دَلَّ على أَنَّه وَقَعَ منْكَ قيامٌ. وَلاَ يَدْري ما عِلَّتُهُ، وَلاَ الباعث عليْه، فإِذا قلت: إِجلاَلاً ومحبَّة، فقد بيَّنْت

عِلَّة القيام. فالمراد، بالفِعْل اللُّغَوي فَيَصْدق بِالمَصْدَرِ والفِعْلِ العُرْفِي. نحو: كَان قيامي إجلالاً، وسواء كَان باعثاً وعِلَّة، أو باعثاً فقط كقعدتُّ على الحربِ حيناً. ويشترط في نَصْبِهِ خَمْسَة شروط: **الأول**: كوْنه مصدراً، فلا يجوز جئتك السَّمْن والعَسَل. **الثاني**: كَوْنهُ قَلْبِيّاً كَالرَّغْبةِ والإِجْلاَلِ، فلا يَجُوزُ؛ جئتك قراءة الْعِلْم؛ لأنَّ القراءة لسانية، ونظرية. **الثالث**: كوْنه ظاهراً، فلا يجوز جاءوك لمَّا جئتَهُ. **الرابع**: اتحاده بالمعلَّل به وقتاً. فلا يجوز جئتكَ أَمْسِ طمعاً في معروفكَ الآن. **الخامس**: اتحاده بالمعلل به فاعِلاً. فَلاَ يَجُوز جئتكَ إِيَّايَ. وقد اسْتكمل هذه الشروط، ما مثَّل بِهِ المصنف مِنْ قولِهِ: (ص) نحو: قام زيدٌ إِجْلالاً لِعَمْرو. وقصدّتك ابْتغاءَ مَعْرُوفِكَ. (ش) فالإِجْلاَلُ والابْتِغاء مَصْدرانِ قلْبِيّانِ وفاعل القيام والإِجْلاَلِ واحدٌ. ومتى فُقدِ شَرطٌ. وجب جرّه بحرف التعليل. ففاقد المصدرية قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾. و ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي خَلَقَ ما في الأرضِ لأجلكم. وفاقد القلبية: جئتك لقراءة القرآنِ. وفاقِد الظهور جاءوكَ لما جئت لهُ. وفاقد الاتحادِ في الوقتِ. قول الشاعر:

فجئت وقد نضت لِنَوْم ثيابِهَا ... لدي السّتر إلاَّ لبْسَة المتجمل

وفاقد الاتحادِ في الفاعل، قوله:

وإنّي لتعروني لذكراك هزَّة ... كما انتفض العُصْفور بَلَّله القطرُ

لأنَّ الذّكر فعل المتكلم، وَفَاعل تعروني الهزَّة. وَإِنَّما قُلْنَا يجر بحرف التعليل، ليدخل اللاَّمُ. وَمعا يقوم مَقَامها كمن كما في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ﴾ وفي كقوله ﷺ: «دَخلَت امرأة النَّار في هِرَّةٍ» والباء نحو: «فبِظُلْم مِنَ الَّذينَ هَادُوا» والكَاف: «واذكرُوه كما هَدايكُمْ». وعلى نَحْوِ: «ولتكبّروا اللَّهَ علَى مَا». وَلاَ يمْتنع جَرّهُ بهذه الحروفِ مَعَ توفّر الشروط. نحو: قنع لزُهدٍ. واعلم أن المفعول لهُ على ثلاثة أقسام: **أَحَدُهَا**: أَن يكون مُجَرَّداً مِن أَل والإِضافَة. نَحو: قمْت إِجلالاً لكَ. **والثاني**: أن يكون مَقْرُوناً بأَلْ نحو قمْت الإجلال لك. **الثالث**: أن يكون مُضافاً، نحو قَصَدتُ ابتغاءَ مَعْرُوفِك. وقد اجتمع التفريد والإِضافة في قوله تعالى: ﴿يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾. ومن المُعَرَّف بأَلْ الراجز:

لاَ أَقعد الْجُبْنَ عَنِ الهيجَاءِ ... وَلَوْ تَوالَتْ زُمَر الأعداءِ

أي لاَ أَقْعُد عَنِ الْحَرْبِ؛ لأَجْل الجبْن، وقد اجْتَمع الثلاثة في قول العجاج:

تركيب كل عاقر جمهور مخافة وزعل المحبور والهَوْل من تهوّل الهبور، والنَّاصِبُ لِلْمَفْعُول له ما تقدَّمَ مِن فِعْل وشبْهِهِ. ويجوز تقديمه عليه، إِذ لاَ مَانِعَ، إذا كَان منصرفاً، والله تعالى أَعْلَمُ.

الإِشَارَةُ: المفعول من أَجْلِهِ؛ هو المسمَّى عند الصوفية بِعَالَم الحِكْمَة. وهو عَالَمُ الأَسْبَاب والعِلَلِ بخلاف عَالم القدْرة؛ فإِنَّه عَالَم الإِبراز والإِظهار، فعالم القُدْرَة، هو عالمُ الأَمْرِ وعَالَم الحِكمَة هو عَالَمُ الخلقِ. «أَلاَ لَهُ الخلقُ والأَمرُ». فالقدرة تَبرُّز، والحِكمَة تستّر، فَلاَ تبرز القدرة شيئاً، إِلاَّ مُرْتدياً برداءِ الحِكْمَة، إِلاَّ في المعجزة للرسول والكرامة للولي فإِن القُدْرة تُبْرِز بلا تغطية، تصديقاً لذلكَ النَّبِي أَو الولي، فَعَالَم الدّنيا القدرة فيه باطنة، والحِكْمة فيه ظَاهرة؛ لأَنه عالم التكليف. ليظهر فيه مَزِية الإِيمان بِالْغَيْبِ. بخلاف عَالَم الآخرة فإِن القدْرة تكون فيه ظاهرة، والحِكمة باطنة؛ لأنه عالم التعريف، قد انقطع فيه التكليف. وها أَنَا أَذكر لكَ أَمثلة، تفهم منها القدْرة والحِكمة، فمثال ذلِكَ. الأرزاق الحسية، والمعنوية؛ فإِنَّها بارزة في عيْن المِنَّة بِمَحْض القُدْرةِ. لكنها متغطية بالحِكمَة؛ وهي الأَسْبَاب والْعِلل لِيَبْقَى سِرُّ القدْرة مَصُوناً، وكنزها مَدْفُوناً. وقد تظهر القدرة فيه بلا حِكْمَة، فيأتي مِنْ غَيْر سَببٍ، كَرَامَةً لأَهْل التَّوجُّه، وتفريقاً لَهُمْ. لِيُقْبِلُوا عَلَيْهِ. وكل من تحقق تقواهُ، ظَهَر رزقهُ بِلاَ سبَبٍ. لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾. ومثال للقدرة أيضاً مع الحِكمَة: جَرْيّ السُّفن على الماءِ، فهي بِمحْضِ القُدْرة، لكن لاَ بُدَّ فيه مِنْ أَسْبَابٍ واصْطلاح. إِذا اخْتَلَّت وقعَ الغرق. وكذلك الْغَرْسُ وَالزَّرْعُ، وكُلَّما يُسْتنبتُ، فلا بُدَّ من سَقْيِهِ وصَوْنِهِ. ليجنيَ ثمرتهُ مع أَنَّ الحق تعالى قادر على خَلْق الثمار فيها من غَيْر عِلاَج، لكن لاَ بُدَّ مِن وُجُودِ الأَسْبَابِ في هذا العَالَم الدّنيوي. ليبقى السّرّ مصوناً. ومنها تذكيرُ الأَشجار، وقد أَرَاد عليه السَّلام، أَنْ يظهر القدرة بِلاَ حِكْمَة، فسقطت الثمار. فقال: أَنتم أَعْلَمُ بِدُنياكُمْ؛ التي هي محلّ الأَسباب والْعِلل. وكذلك القضاء والقدَر، لاَ يُبْرَز إِلاَّ مَعَ الحِكمَة. فإِذا قَدَّر الحق تعالى على عبْد مصيبة مِن مَرَضٍ أَو حَبْس، أَو غَيْره. أَو شفاء أَو فرج، في وقت مَعْلُوم، فإِذا وصَلَ ذلِكَ الوقت، حرَّكه الحق تعالى لِيُسَبِبَ ذلكَ. فينزل به ما قدر له مستتراً بتلك الحِكمة، بالجاهل يقف مَعَ الحِكمَة، والعارف ينفذ إلى شهود القدرة. وقسْ على هَذا، فالمفعول من أَجْلِهِ؛ وهو

الباعث: هو الاسم المنصوب لتغطية القدرة؛ الذي يذكر بياناً لسَبب وقوع الفعل السَّابق في الأَزلِ. ومنه الإِجلال والتعظيم الذي هو سبب الفتح الكبير، والطلب والابتغاء الذي هو سبَب الوصول إلى معرفة الحق، وبالله التوفيق.

بَابُ الْمَفعُول مَعَهُ: هُوَ الْخَامِسُ من المفاعيل. وعَرَّفه ابن هشام بقولِهِ: اسم فُضْلة تلِي الواو، بمَعْنَى مَعَ، تالية لجملة ذات فعل أَو اسْم فيه مَعْنَاهُ، وحروفه هـ. فخرجَ بقولِهِ اسم، نحو: لاَ تأكل السمكة وتشرب اللَّبَنَ، وسرت والشمس طالعة. وبقوله: فُضْلة، نحو اشترك زيْد وعَمْروٌ. وبقولِهِ: تلِي الواو، نحو: جئتكَ مع عَمْرو. وبقوله: بِمَعْنى مَعَ، نحْو زَيْد والخبَر محذوف. أي مقرونَانِ. فلم تتقَدَّم على الواو جملة. وبقوله: فيه مَعْنَى الفعل دون حُرُوفه فلا يَعْمل فيه، خلافاً لأَبي علي، وَلاَ يجوز جَرُّه لعدم إِعادة الجارّ. وَلاَ رفعه لفساد المعْنَى. فإِن قلت: قد قالوا: ما أَنت وَزيداً. وكيْف أَنتَ وقِصْعة من ثريدٍ. بالنَّصْبِ. فَالْجَوَابُ أَنَّ مَن نَصَبَ قَدَّر العامل أي ما تكون، وكيْف تصْنع، فالعامل في المفعُول معه تكون. وتصنع المقدرة، ولما حذف الفعل، انْفَصَلَ الضَّميرُ، وأَكثرهم يَرْفعون ذلِكَ بالعطف. وعَرَّفه المصنف بقولِهِ: (ص) هو الاسم الْمَنْصُوبُ الذي يُذكر لبيان مَن فَعَل معه الفعل (ش) يَعْني، أَنَّ المفعُول مَعَهُ هو الاسم المنصوبُ، وناصبه ما سبَق عليه من الفعل وَشِبْهِهِ، لاَ الواو، خلافاً للجرجَانِي؛ لأنه لَوْ كَان الواو نَاصِبَه، لصحَّ اتّصال ضميره بِهِ، كَمَا يتصل بإِنَّ وأَخَوَاتها، وحُروف الجرّ. وقيل منصوب بإِسقاط الجرّ. وقيل انتصب انتصاب المصدر الملاقي. وحكمته أن يبيّن الشيء الذي وقع الفعل معهُ (ص) نحو جاء الأمير والجيْش (ش) فإِذا قلْت: جاء الأمير لا يَدْري هَلْ جَاء وحده أو مَعَه غيْرهُ. فإِذا قلت والجيش. فقد بيَّنت مَن فعل مَعَه الْفِعل. وكذلك (ص) اسْتوى الماءُ والخشبة. (ش) أي استوى مع الخشبة، وأتى بمثالين: أحدهما يصح فيه العطف، وهو الأول، والآخر لا يصح فيه العطف وهو الثاني، لأن الاستواء إنما يتصور من الماء، وأما الخشبة فلا فعل لها. قال الفاكهي: الماء اسم جنس إفرادي، ونقل ابن وتاد: اسم جنس جمعي، بينه وبين مفرده سقوط التاء. تقول: ماءة وماء، نقله القلشاني في شرح ابن الحاجب.

تنبيه: الاسم بعد الواو خمس حالات، وجوب العطف نحو اشترك زيد وعمرو، ورجحانه نحو: جاء زيد وعمرو لأنه الأصل، وقد أمكن به ضعف وجوب المفعول معه لعدم صحة العطف إِمَّا من جهة الصناعة نحو مالك وزيداً وإما

من جهة المعنى نحو مات زيد وطلوع الشمس وسرت والنيل ورجحانه نحو قمت وزيداً، فالنصب أرجح لعدم الفاصل كقول الشاعر:

فكونوا أنتم وبني أبيكم مكان الكليتين من الطيحال

إذا المعنى: فكونوا مع بني أبيكم، والخامس امتناعهما معاً لقول القائل:

علفتها تيناً وماء بارداً حتى غدت همالة عيناها

وقال آخر:

إذا ما المغنيات برزت يوماً وكحلن الحواجب والعيون

أما امتناع العطف فلانتفاء المشاركة، وأما امتناع المفعول معه فلامتناع المعية في الأول وامتناع الإعلام بها في الثاني، ويجب في ذلك إضمار فعل ناصب للاسم على أنه مفعول به أبي وسقيتها ماء، وكحلن العيون. وقد يؤول الفعل المذكور بعامل يصح انصبابه عليها معاً، فيؤول علفتها بناولتها وكحلن بحُسْن. وقد يجب تقدير العامل في نحو قوله تعالى: ﴿فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ فيمن قطع الهمزة لأن أجمع لا يعمل إلا في المعنى كالأمر ونحوه، والتقدير: فاجمعوا أمركم واجمعوا شركاءكم بفتح الميم، والله تعالى أعلم.

الإشارة: المفعول معه هو الذي تفعل الأشياء كلها معه وبحضوره، وهو «الله» القائم على كل نفس بما كسبت، الرقيب على كل شيء، والحاضر مع كل شيء قال تعالى: «وهو معكم أينما كنتم» وقال ﷺ: «اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل والمال والولد» فالمعية عند أهل الفرق بالعلم والإحاطة، وعند أهل الجمع بالذات والصفات، لأن الصفة لا تفارق الموصوف، فالعلم لا يفارق العالم. وقال تعالى: «ما يكون من نجوى ثلاثة إلا وهو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا» قال العارف بالله الورتجبي رضي الله عنه: المعية بالعلم عموم وبالقرب خصوص، والقرب بالعلم عموم وبظهور التجلي خصوص وذلك دُنُوٌّ «دنا فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى» فإذا ارتفع الأين والبين، والمكان والجهات، واتحدت أنوار كشوف الذات والصفات، فالعارف بذلك حقيقة المعية، إذ هو سبحانه وتعالى منتزه عن الانفصال والاتصال والحدث، ولو ترى أهل النجوى الذين مجالستهم لله وفي الله لترى من وجوههم أنوار المعية، أين أنت من علم الظاهر الذي يدل على

الرسوم؟ ألم تر أنَّ علمه تعالى أزلي؟ وبالعلم يتجلى للمعلومات. فالصفات شاملة على الأفعال، ظاهرة من مشاهد المعلومات. فإذا كانت الذات لا تخلو من قرب الصفات كيف تخلو عن قرب الذات الأرواح العالية، المقدسة العاشقة، المستغرقة في وجوده لا المراد منه.

وحاصل كلامه، أن المعية بالعلم تستلزم المعية بالذات لأن الصفة لا تفارق الموصوف، وهذا السر لا يفهمه إلا أهل الفناء في الذات، بصحبة مشايخ الشهبة، وإلا فشأن من لم يبلغ أذواقهم التسليم.

إنْ لَـمْ تَـرَ الـهـلالَ فَـسَـلِّـمْ لأنـاس رَأَوْهُ بـالأبـصـار

وبالله التوفيق.

ثم قال الشيخ رحمه الله: وأما خبر كان وأخواتها واسم إن وأخواتها فقد تقدم ذكرهما في المرفوعات. قلت: وكذلك مَفْعُولا ظن وأخواتها. ثم قال وكذلك التوابع فقد تقدمت هنالك، لا فائدة في إعادتها لأن من المعادات معادة المعادات، ثم ذكر المخفوضات من الأسماء فقال:

باب مخفوضات الأسماء: أي الأسماء المخفوضات، فهي من إضافة الصفة إلى موصوفها ثم بينها فقال:

ص: المخفوضات ثلاثة، مخفوض بالعرف ومخفوض بالإضافة.

ش: الصحيح أن الخافض للمضاف إليه المضاف الأول، فالخافض لفظي فيهما، ثم قال

ص: وتابع للمخفوض

ش: أي مخفوض بالتبعية، وزاد بعضهم المخفوض بالجواز نحو: هنا حجر ضب ضرب وتقدم قول امرىء القيس: بجاد من مل، وزاد بعضهم، المخفوض بالتوهم كما تقدم في قول الشاعر:

ولا سـابـق شـيـئـاً إذا كـان جـائـيـا

والصحيح حصر المخفوض في اثنين: مخفوض بالعرف وبالإضافة، فأما التابع فالصحيح أنه مجرور بما جر به المتبوع، إلا البدل فإنه على نية تكرار العامل، وأما المخفوض بالمجاورة وبالتوهم فالصحيح أنهما يرجعان إلى الجر بالمضاف وبالحرف، قاله ابن هشام، وبعضهم حصر المخفوض في

المضاف إليه فقط وهو كل اسم نسب إليه شيء بواسطة حرف الجر لفظاً أو تقديراً.

الإشارة: المخفوضات عن مراتب الرجال ثلاثة: مخفوض بسبب الحرف، وهو من يعبد الله على الحرف أي طمع في عوض دنياوي أو أخراوي فهو كالعبد السؤ إن أعطي عمل وإلا لم يعمل فإن أصابه خير وهو العرض الذي طمع فيه، اطمأن به وسكن إليه، وإن أصابته فتنة وهو فقدان ذلك العرض، انقلب على وجهه ورجع عن عبودية سيده خسر الدنيا والآخرة أما الدنيا فلفقدان حظه منها، وأما الآخرة فلعدم التزود لها، ذلك هو الخسران المبين، ومخفوض بالإضافة إلى الأراذل وصبحتهم، وتقدم قول الشاعر:

وإياك أن ترضى بصحبة ساقط ... فتسقط قدراً من علاك وتحقرا

وكان سيدنا عيسى عليه السلام يقول: «لا تجالسوا الموتى فتموت قلوبكم» قيل ومن الموتى يا روح الله؟ قال: «الراغبون في الدنيا المحبون لها» أو كما قال عليه السلام. وفي حديث نبينا ﷺ: الْمَرْء على دين خليله. وقال: «مَن أَحَبَّ قوماً حُشِرَ مَعَهُمْ». والْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ. وَلاَ تعرف مَرَاتب الرِّجَال إلاَّ بأَصحابِهَا، أَعْني مشايخهَا. ومخفوض بالتبعية لنَفْسِهِ، وهَوَاهُ. فَمَن تبع هواهُ أَهْوَى بِهِ إلى الهوانِ. كما قال الشاعر:

لاَ تَتْبَعِ النفسَ في هَوَاهَا ... إِنَّ اتباعَ الهوَى هوان

وقال آخر:

نورُ الهَوَى مِنَ الهَوَانِ مسْرُوقة ... وأَسير كل هوى أَسير هوان

ولابْن دُرَيْد رحمهُ اللَّهُ:

إِذَا طلبتك النَّفس يوماً بشهوة ... وكَان إِليها للخلاف طريق

فَدَعْهَا وخَالف ما هويت فإِنَّمَا ... هَوَاكَ عَدوّ والخلاف صديق

فالعِزّ كله في مخَالفة الهوى ... والذّل كله في اتباعِهِ

ويكفيكَ قوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ الآية. ثم بَيَّنَ المصنف ما يخفض بالْحَرْف فقال (ص) فَأَما ما يخفض بالحَرْفِ؛ هو ما يخفض بِمِنْ وعَنْ وعَلَى، وفي، وَرُبَّ، والكَاف، واللاَّمُ. وبحروف القسَم؛ وهي الواو والباء والتاء. (ش)

قلت: قد تقدم الكلام عليها عبارة وإشارة. وَزَادَ هُنَا (ص) وبِوَاو رُبَّ (ش) نحو قول امْرِىء القيْس:

ولَيْلٍ كَمَوْجِ البَحْرِ أَرْخَى سُدُولَهُ عليَّ بأَنواعِ الهُمُوم ليبتلي

وَظَاهر قوله: أَنَّ واو رُبَّ هي الخافضة بنفسها؛ وهو مَذْهب الكوفيين وَمَذهب البَصْرِيينَ: أَنَّ الخفضَ بِرُبَّ محذوفة بَعْدَ الواو، كما تُحْذف بعد الفاءِ، كقولك فمثلكِ حبلَى.

فمثلكِ حبلى قد طرقت ومرفعا فألفيتها عن ذي تمائم مغوان

محول وبَعْد بل كقول الشاعر: بل بلد ملء العجاج قيمتها.. لا يشتري كنانة وجهرها. وقد تحذف من غير تقدم شيء كقول الشاعر:

رسم دار وقفت في طلاله كنت أقضى الحياء من جلله

أي ربَّ رسم دار (ص) وبِمُذ ومُنْذ (ش) هما بمعْنى من إِن جرّاً زماناً ماضياً. نحو ما رأيته مُنذ يوم الجمعة. أي من يوم الجمعة، وبمعنى في إِن جَرَّا حَاضِراً. نحو: ما رأيته مُنْذ يومنَا. وقد تسْتعمل مُذ ومُنْذ اسمين. إذا وقع بعدهما اسْم أو فعل ماضٍ. قال في الخلاصَة: ومُذْ ومُنْذ اسْمَين حيْث رفَعَا أَوْ أُوْلِيَا الْفِعْل كجِئت مُذْ دَعَا. (ص) وَأَمَّا مَا يخفض بالإضافة، فنحو قولك غلام زَيد. (ش) قلتُ: الإضافة في اللغة هي الإلصاق. تقول: أَضفت ظهري إلى الحائط أي أَلصقته بِهِ. قال امرؤ القيس:

فَلَمَّا دخلْنَاهُ أَضَفْنَا ظهورنَا إلى كل حاري جديد مشطب

وفي الإصطلاح: نسْبة تقييدية بيْن اسْميْن، توجب جرَّ الثاني منهما أَبَداً. (ص) وهو على قسْميْن، ما يتقدر باللاَّم. (ش) أي الإستحقاقية. (ص) وما يتقدَّر بِمِنْ (ش) أي الجِنسية. وزاد بعضهم ما يتقدَّر بفي الظرفية. وضابط الذي يتقدَّر باللاَّم، أَلاَّ يكون المُضاف بعض المضاف إليه، ولا يصلح المضاف إليه أَنْ يجبر بِهِ عن المُضَافِ. وضابط الَّذي يتقدَّر بمن، أَن يكون المضاف بعض المضاف إليه. وَصَالِحاً للإِخْبَارِ عنْهُ. نحو: ثوب خَزّ. ودرهم فِضَّة. أَلاَ ترى أَنَّ المضاف الأول بعض المضاف إِلَيْه. ويصلح المضاف إليه أَن يخبر عن المضاف. فَتَقول: الثوب خزّ. والدرهم فضَّة. بخلاف نحو غلام زَيْد ونحوهِ بما يُقدَّر بِمِنْ. وضابط ما يتقَدَّر بفي، أَنْ يكون المُضَاف إِليه ظرفاً للمضاف الأول. نحو: «بَلْ مَكْرُ اللَّيْل وَصِيَامُ

ثلاثة أيَّام» «وتَرَبّص أَرْبعة أَشْهُرٍ». «وأَلَدُّ الخِصَام»، فالخصام ظرف مَجَازِي لِلَدُّ. «وَيَا صَاحِبَي السِّجنِ» وَمَالِكَ يَوْم الدِّين، ويا سَارِقَ الليلة أَهْلَ الدَّار. وفي الحديث في شأن مالك رضي الله عَنْهُ: «فَلاَ يُوجد عَالم أَعْلَم من عَالِم المدينَة». ونحو ذلِكَ. والحق أنه قليل ثم مثل المصَنِّف للأَمْرَيْن فقال. (ص) فَالَّذِي يتقدر بِاللاَّم نحو غُلاَم زيْدٍ. (ش) وعبْد الله وشبهه. (ص) والَّذي يتقدر بمن نحو ثوب خَزّ. وبَاب ساج، وخاتم حديد (ش) وتقدم ضابِطُهُ، وسَكَتَ عن الثالث؛ لأنه قليل بالنسبة لأولين وفي الخاتم لُغَات فتح التاء وكَسْرها، وخيْتام كبيطارٍ، وَخَاتَام، كساباط. فائدة لُغَوِيّة: لم يأتِ فاعل بفتح العيْن في الصفات فقط. أتى في الأسماء في ألفاظ محصورة، كالخاتم، والغالب، والطابع والتَّابل؛ وهو الإبزار، والكاغِد؛ وهو الْوَرَق، بفتح الغيْن، وبالدَّال المهملة. وكتب العامَّة له بالطاءِ لحْنٌ. وقدْ نَظَّمَ ابن مالك رحمه الله ما أتى على فاعل من الأَسْمَاءِ فَقَالَ:

واخْصُص إذا أَطلقت وَزْن فاعَل	ببادقٍ وخاتم وَتَابَل
وَدَانقٍ وَرَصق وَرَمك	وَزَابح وَزَامج وَزَاحَلْ
وسَامَج وشَامَخ وشَالخ	وطابَع وطَابَق وَحَصل وَخَاطَل
وطَالق وعَالم وقَارب	وقَالب وَكَاغد وَقَابَل
وكَامخِ وهَارَن وَيَارَج	وَبَارَق وبَعْضها بِفَاعِلِ

وبَقِي عليه ما لغة مدينة الأنْدلسِ فإنها بفتح اللاَّم، ذكر هذه الفائدة: شيخ شيوخنا سيدي أحمد بن عبد العزيز الهلالي رحمهُ اللَّهُ فِي كتابِهِ: شَمْس الأذمُوس، في اصطلاح القامُوس وبالله التوفيق. وهو الهادي إلى سَوَاء الطريق وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين، وإمام المرسلينَ، وحبيب رب العالمينَ. هذا آخر ما قصدناه من الفتوحات القدوسية. في شرْح المقدمة الأجرُومية. نسأل الله تعالى أَن ينفَعَ بِهِ من كَتبهُ، أَوْ طالعَهُ أَو حصَّلَهُ، أَوْ سَعى في شيء منْهُ. وأَن يكسُوَه جلباب القبول وأَن يُبَلِّغَنَا بِهِ القصد والمأمول إنه على كل شيءٍ قديرٌ.

أحمد بن محمد بنعجيبة

شَرح نونية الإمام الششتري لسيدي أحمد بنعجيبَة
رضي الله عنه

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمَّد وآله وصحبه وسلم تسليماً

الْحَمْدُ لِلَّهِ الوَاحِدِ الأَحَدِ، الْفَرْد الصَّمَد. الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ. وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كَفُؤاً أَحَدٌ. قَدْ تَنَزَّهَتْ أحديته عن مُزَاحمَة الشركَاءِ والنفراء والأنداد. وتقدَّسَتْ عَظَمَةُ ذَاتِهِ عن وَقْف الحُلُولِ والإتِّحاد. والصَّلاةُ والسلامُ على قطب دائرة الأَكوَانِ وسيِّد الأسْيَادِ. الَّذي من نور فيْضه الأوَّل. ظهَرَتْ نعمة الإِيجاد والإِمْدَادِ. سيِّدنا ومولاَنا محمد المبعوث بالعِزِّ الدَّائِم والشرف الفاخِرِ رحمة للعبادِ. وبَعْدُ: فهذا شرح عجيبٌ لنونية الإمام المحق بَحْرِ زمانِهِ. وفريد عَصْره وأَوَانِهِ. إمَام أَهْل الأذواق والوُجْدَان. وقطْب أهلُ التوحيد والعِرفَانِ أَبِي الحَسَن علي بن عبْد الله الشَّشْتري. وَقَدْ سَبَق إلى شَرْحهَا العَلاَّمة الصّوفي، سيِّدي أَحمد زَرُّوق. رضي الله عَنْهُ. اقتصر فيه على حَلِّ أَلفاظِهَا. وبيَان ما انغلَقَ مِنْ بَعْضِ معانيها. غَيْر أنه لم يَخُضْ في تَيَّارِ بَحْرِ أَسْرَارِ التوحيد منها؛ على غَوَامِض أنوارها. ولا فَضَّ خَاتَم أَسْرَارهَا. وَلا دَاخَلِ بِعَرَائِسَ أَبْكَارِهَا. ولَعلَّه شَرَحَهَا قَبْلَ أَنْ يُفتح عليه في أَسْرَار الحقيقة. فقد كَانَ شيخ شيوخنا سيِّدي علي العمراني رضي الله عنه يقول: ما فتح على الشيخ زرّوق إلاَّ في آخِرِ عُمُرِهِ. أي بحيْث لم يؤلف شيئاً بَعْد الفتْحِ. والله أَعْلَمُ. وَكِتَابُهُ شاهده بِذَلِك. إذ الكَلامُ وصْف المتَكَلِّم. وَمَنْ تَكَلَّم عُرِف مِن سَاعَته. فَهُوَ في عُلُوم الطريقة إمامٌ. وأمّا في علوم الحقيقة وأَسْرَار الأذواق فَلَمْ يَنَل فيهَا شيئاً إلاَّ في آخِرِ عمرهِ، وكاد أن يخرج منها صِفْر اليَدَيْنِ. ولذلك كثر اعْتِراضه على أهل الله. وظَهَرَ فِي كَلامِهِ التَّشديد والتضييق عَلَيهم. وقد رأيته في نوم كاليقظة. فقلت لهُ: قَدْ شددتَ على أهل اللَّهِ. في عدة مرُيدينَ فقال: وَمَا قلْت فيها؟ فقلت له: قلت كذا وكذا. وذكرْت له بعض ما انتقد عليْهم. وما شدَّد فيها. فقال: ذَلِكَ الَّذي يُنَاسِبُ مَذْهَبَ مالكٍ. فَقلْتُ له: الصُّوفِي الحقيقي لاَ يُقَلِّد مَالكاً

ولاَ غَيْرَهُ بل يأخذ الشريعة مِن أصلها. والحقيقة من مَعْدِنِها. فقال مَنْ بَلَغَ هَذا؟ أَوْ صَحِبَ مَن بلَغَه ولا يتكلَّم مَعَهُ فقلتُ: واللَّهِ لَقَدْ بَلَغْنَاهُ. وصَحِبْنَا مَنْ بَلَغَهُ. فَغَاب عَنِّي.

وَكَانَ بَعْض الْفُقَهَاءِ يقول: الشيخ زروق مُحْتَسِب الصوفية. قُلْتُ: إنما يكون مُحْتَسِبَ صوفية الظَّاهِرِ؛ أَهْلِ العبادَةِ الظَّاهِرة. والنُسْكِ الظَّاهِرِ. وأما أَهْلُ البَاطِنِ أَهْل التَّرْبية. فَلا احتساب له عَلَيْهم. إذ لم يُحِطْ عِلْماً بِمَا عِنْدَهُمْ. ولقد سَمِعْت شيخ مشايخ التَّرْبية في زَمَاننا: مولاي الغرْبي الدَّرقاوي الحسَيني رضي اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ:

الشَّيْخ زرُّوق عنْد أَهْل الظَّاهِرِ شيء كَبيرٌ. وعِنْدَ أَهْل البَاطِنِ شيءٌ صَغيرٌ. وأَهْلُ مكَّةَ أَعْرَف بِشِعَابِهَا.

لا يَعْرِفُ الشَّوْقَ إلاَّ مِنْ يُكَابِدُهُ. وَلاَ الصَّبَابَةَ إلاَّ مَنْ يُعَانِيهَا. وَمَرَاتِبُ الأَوْلياء، كَطَبَقَاتِ الجِنَان. الأعْلَى يَعْرف الأسْفَل. دون العَكْس. واللَّهُ أَعْلَمُ. قال في أَوَّل شَرْحِهِ لهذه القصيدة في التعريف بالشيخ: وأَمَّا الشيْخ فهو الأسْتاذ الفقيه، المُقرىءُ المحدِّثُ. الصوفي العالم، العامل الكامل المحقق المدقق. أبُو الحسن علي بن عبْد اللَّهِ النّميري، ثم الشُشْتُري بمعجمتين. أولاهما مضمومة. وبَعْدها تاء فوقية. كذلك نسْبة إلى شُشتر. قرْية بالأندلس. على مَقْرَبة مِن لوشة. وبالعراق أيْضاً قرية تسَمَّى بِذَلِكَ. قال ابن ليُون: كَان مِن أَبنَاءِ الملوك والأمراء، فصار من سَادة الفقَهاءِ. وكان يُقرأ عليه القرْآن بِالرّوايات. وكَان عَارِفاً بِالأُصُولِ السِّتَّة. وَأَنْوَاع الرّواة. وقال الطَّوام: كان من التُّجّار السُفَّار. ثم صار من الشيوخ الأبرار. قرأ الرّأي. أي الفقه. ثم تصوَّف والتزم طريقه فما تشوف. وكان ذا عزمة وهمَّة. مع مشاركة في علوم جمَّة.

نزل طرابلس، فأخذ عنه أَهْلها علوماً. ثم عَرَضوا عليه قضاءَهَا. فَلَمْ يوافق عليه، وَلاَ مَقَامَ حَوْلَهُ. فاستحمقوهُ. فقال في ذلك:

رَضِيَ الـمُـتَـيَّـمُ فِـي الْـهَـوَىٰ بِـجُـنُـونِـهِ ... خَـلُّـوهُ يُـفْـنِـي عُـمْـرَهُ فِـي فـنـونـه

لاَ تَـعْـذِلُـوهُ فَـلَـيْـسَ يَـنْـفَـعُ عَـذْلُـكُـمْ ... لَـيْـسَ الـسُّـلُـوُّ عَـنِ الْـهَـوَى مِـنْ دِيـنِـهِ

قَـسَـمـاً بِـمَـنْ ذُكِـرَ الْـعَـقِـيـقُ مِـنْ أجـلِـهِ ... قَـسَـمَ الـمُـحِـبُ بِـحُـبِّـهِ وَيَـمِـيـنِـهِ

مَـالِـي سِـوَاكُـمْ غَـيْـرَ أَنِّـي تَـائِـبٌ ... مِـنْ فَـتْـرَةٍ فِـي الـحـبِّ أَوْ تَـلْـوِيـنِـهِ

مَالِي إِذَا هَتَفَ الْحَمَامُ بِأَيْلَةٍ ... أَبداً أَحِنُّ لِشَجْوِهِ وشُجُونِهِ
وَإِذَا الْبُكَاءُ بِغَيْرِ دَمْعٍ دَأْبُهُ ... فالصَّبُّ تَجْرِي دَمْعُهُ بِعُيُونِهِ

وإنما أَنْشَدَ القصيدة اعْتَزازاً عَنْ إعْرَاضِهِ عَنِ القَضَاءِ. وكَأَنه يقول لَمْ أَترُكْهُ زُهْداً فيه. ولاَ رَغْبة عَنِ الشريعة. إِلاَّ أَنَّهُ يُوجب التشتيت والتلوين. هذا ظاهِرُ كَلاَمِهِ. قال الطَّوام. كان يجيز في المتصفِّى والمجل؛ وله طريقةٌ حَسَنةٌ في المقاماتِ. ولكَلامِهِ عُذُوبة. ولم تَزل معه مصحوبة، ثم قال: وكَان يُرْمى بمذهب شيخه الإمام. الولي الكامل المحقق سيِّدي عبد الحق بن سبعينَ ثم حَمَلَ على الرجوع عنه في حكاية وقَعَتْ لهُ بِبَجَاية. والَّذي كان يُرْمَى ابن سبعين. هذا القول بالحلولِ والاتحادِ والميل إلى الزَّيْغ والإلحاد. معاذ الله أن يكون من أَهْل ذلك؛ وهو من أهل الْعِلْمِ. والتمسك بالأحكام الشرعية. وإن كانَتْ له ظواهر تقتضي ذلك. فالواجب أنَ يوكل علمُهَا إليهم. وتأوَّل بِالوَجهِ الصحيح عليهم. والتَّسْليم أَنْجَى وأَسْلم. فقد قال الشيخ أبُو عبد الله المقري الفقيه القاضي رحمهُ اللَّهُ. وغَفَر لَهُ: الاعتقادُ ولايةٌ.

والانتقاد جِنايةٌ. فَإِن عَرَفْت فَاتَّبِعْ. وإن جَهلت فَسَلِّمْ.

وسُئِل الشيخ الغوري رحمه الله. عن ابن العربي الحاتِمِي فقال: أَعْرَفُ بِكُلِّ فَنٍّ. مِنْ أَهْلِ كل فَنٍّ. قيل: مَا سَأَلْنَاكَ عَنْ هَذَا. فَقَالَ: اختلف فيه من الكفر إلى القطبانية قِيلَ لَهُ: ماذا تُرَجِّحُ؟ قال: التَّسْليم. وأَخَذ يستدل لَهُ.

وسُئِل النَّوَوي رحِمَهُ اللَّهُ عن ابن الْعَرَبِي الحاتمي فقال: الكلام كلام صوفي. و «تِلك أُمَّةٌ قدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ. ولَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ. ولاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعملُونَ» وَقَال الْقَرافِي في أَجْوبَتِهِ. بعد نقل كَلاَمِ النَّاس فيه: الأولى أَن يُحْكَمَ عَلَى الكلام فيقال: هذا الكلامُ يَقْضِي كذا. ويَدلُّ على كذا. وَيُنَكَّرُ من كَذَا. ولاَ يتعرضُ لتكفير صاحبِهِ لاحتِمَالِ رجُوعِهِ عَنه. لاَ سِيَمَا وقد كَانَ عالِماً بالسُّنَنِ والأثَرِ وفي كَلاَمِهِ ما يدُل على اقتداءٍ كثير. هذا مَعْنَى كَلاَمِهِ. وقد قال الشيخ أَبُو بَكْرِ بن فورك رحمه اللَّهُ: الغلط في إدْخَال أَلْفِ كَافرٍ بِشُبْهَةٍ. ولا الغلَطُ فِي إخراج مُسْلِمٍ واحدٍ بِأَلفِ شُبْهَةِ كُفرٍ. نقله عنه عَيَّاض في الشفاءِ. انتهى كَلاَم زروق رضي اللهُ عنهُ.

قلتُ: وسبب انتقادِ أَهل الظَّاهر على أَهْل البَاطِن. أَنَّ أَهْل البَاطِن لمَّا استَشرفوا على بِحَارِ زَوَاخِر من التوحيد الخاصِّ. راح بَعْضُهم للتعبير عَن تِلْكَ

الأسْرَار فضَاقت عبارتهم عن ذلك. فَفَهموا مِنا غَيرَ مَا أَرَادُوه فَرَمُوا بالحُلُولِ والاتحادِ. مع تنزّههم عنْهُ. وَذلك كابنِ العربي. والششتري وابن الفارض وأضربهم. وهذه الأسرار لا تدرك بالعبارة. وإنها تنال بالصحبة والسراية. ومَنْهُمْ من عَبَّر عَنْهَا بإشارة رقيقة. وعِبَارة دَقيقة. غطَّاها بنوع مِنَ التشريع. فَقُبِل منه. وأُقِرَّ في مَحَلِّهِ. كابْن عطاءِ الله. رضي الله عَنْهُ. وأَشياخهُ: المُرْسِي. والشاذلي. وابن مشيش. فَسَلموا من الانتقاد عليْهم. وكلهم أولياء رضي الله عنهم أَجْمعين. هـ.

ولنَرْجع لِمَا كُنَّا فيه مِن تعريف بالشيْخ؛ وذلك أن الششتري أَلَّف كتاب: العُرْوَة الوُثْقَى. وكتاب المقاليد الوجودية. وكتاب الرسالة العلمية؛ وهي التي اختصرها ابن ليون التجيبي في الإقالة. في الانتصار للطائفة الصوفية. وله مقطعات وأزجال في الخمرة الأزلية. قال ابن ليون: دُفِنَ الششتري رضي اللَّهُ عنه بالطينة. عن مَقْرَبة مِن دُمْياط. وقد مَاتَ دونها بِثَمَانِية عَشر مِيلاً. فَحَمله الفقراء على أَعْنَاقِهِمْ حتى وَصَلوهُ إليها. وقد سُئِلَ قرْب ذلِكَ: مَنِ الفقير؟ فقال. الَّذي يَمْشي بعد مَوْتِهِ ثمانية عشر ميلاً. فكان كما ذَكَر وذَلِكَ سنة ثمانية وستين وستمائة «668 هـ» كما ذكره الطوام. قُلْتُ: فكان في عصْر الشاذلي وتأخَّر مَوْتُهُ عنه بِنَحْوِ اثنتي عشْرَة سنة. قال الشيخ زروق رضي الله عَنْهُ: فأمَّا هذه القصيدة فقد احْتوتْ على مقاصد طريق العارفين. وتعريف أحوال الرِّجَالِ. وقد جزَّأها ثلاثة أَجْزَاء: الجُزْء الأول في تعيين المطلوب وما يطلب به، وما يقوم فيه. وَوَجه المعاملة في ذلك نفياً وإثباتاً. وهذا من أَوَّلها إلى قَوْلِهِ: أَمَامك هَوْل فاسْتَمع لوصيتي. الجُزْء الثاني من هُنا إلى قوله: فكَم واقفٍ أَرْدى. وقد ذكر فيه آيات العَقْل. وتطويره بالمحاسن والقبائح. وما يعرف فيه. الجزء الثالث: في الأمور التي اكتسبها العَقْل لذويه من نَقص أو كَمَالٍ أو تَضَمَّن ذلك تعريف جماعة من الرِّجَالِ وسيُذكر كلٌّ في مَحَلِهِ إنْ شَاءَ اللَّهُ:

وَهَذَا أَوّلُ القصيدة. قال رضي اللَّهُ عنْهُ:

أَرَى طَالِباً مِنَّا الزِّيَادَةَ لاَ الْحُسْنَى ... بِفِكْرٍ رَمَى سَهْماً فَعَدَّى بِهِ عَدْنَا

يقول رضي اللَّهُ عَنْهُ: أَرَى طالباً مِنَّا مَعَاشر الصوفية. بسيرِهِ ومجاهدتِهِ، وإحسانِهِ فِي معاملته. إنما هو الزِّيادة المذكورة في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ لاَ الحُسْنى التي هِيَ الجَنَّة؛ التي فسِّرت بها الحُسْنى. والزِّيادة المَذْكورة في الآية، هي النَّظرُ في وجهه الكريم. ودوام شهوده. أو المعرفة. وزيادة الترقي فيها أبداً سَرْمداً. وإنما كان مطلبهم ذَلِك لمسكِ هَمَمِهم. ورَفْعِها عن الأكْوَانِ

بِأَسْرِهَا. فالجنَّةُ كَوْنٌ مِنَ الأكْوَانِ. فمن رحل بقلبِه عنِ الدّنيا. وطلب الجنَّةَ وزَخَارِفَهَا. فقد رَحَل من كَوْنٍ إلى كَوْنٍ فيكونُ كَحِمَارِ الرَّحى ما انْتَقَلَ عَنْهُ. هو الَّذي صَارَ إليهِ. والمطلوب إنما هو الرَّحيل مِنَ الكَوْنِ إِلَى المُكَوِّنِ. ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾. قال أبُو مَدين رضي اللَّهُ عَنْهُ.

«شتَّانَ بين مَنْ هِمَّتُهُ الحورُ والقُصُورُ وبيْن مَن هِمَّتهُ رفع الستور، ودَوام الحضور وقد مَدَحَ الحق تعالى أهل الصُّفَّة بقوله: «يريدونَ وَجْهَهُ» أي ذاتَهُ. فكَانَتْ عبَادتهم لإرادة معرفة ذَاتِه. وكذلك الصوفية برفع همَّتِهم. لاَ يَرُومونَ إلاَّ مَعْرِفة الذَّات. وكشف الحجابِ عَنْهَا. وإنما طلبُوا الزّيادة المذكورة بفكر دلَّهم عليْهَا؛ وإنها أَرْفَعُ المَطالِبِ فكانَت بمثابة قوس رمَى سَهْماً؛ وهو نظره السديد. وأَمَله المديد الذي لم يَزَل يَجُولُ بِهِ حتَّى انتهى بِهِ لأَرفع المطالب وأسنى المآرب؛ وهي معرفة الذَّات وشهودها. فعدَّى بتشديد الدَّال. أي جاوز بذلك النظر. عَدْناً: أي جنَّةُ عَدْنٍ؛ فَلَمْ يلتفِتْ إِلَيْهَا. ولاَ قَصَّرَ نظره عليها. بل جاوَزَ إلى ما هو أعظم منْهَا. وإنما مقصوده شهود الحبيب؛ الذي هو نعيم الأرْوَاحِ: لا الجنَّة التي هي نعيم الأشباحِ. وفي ذلك يقول ابن الفارضِ:

لَيْسَ سُؤْلي مِنَ الجِنَانِ نعيماً ... غَيْرَ أَنّي أُرِيدُهَا لأَرَاكَ

وَلاَ يلزَمُ مِنِ المسْك الهمَّة عن الشيءِ، اختصار ما سَمَتْ عنه؛ لأنَّ اللَّهَ عَظَّمَ شَأْنَ الجنَّةِ، وأَعدَّها لأَوْليائِه. وإنَّما الْمُرَاد أَنَّ معاملتهم ليْسَتْ في مُقابلة ذَلِكَ. وإنما هِيَ عَبُودية ومحبَّة. وطلبٌ لمَا هو أوْلى وأَعْظم. والله أَعْلَمُ. ولمَّا كَانَ مطلبهم رفع الهمَّة عَنِ الكَوْنَين؛ وهُمَا مِن جُمْلَة السُّوَى الْبَاطِلِ. كما قال لبيد:

أَلاَ كُلُّ شَيءٍ مَا خَلاَ اللَّهَ بَاطِلُ ... وكل نَعيم لاَ مَحَالَةَ زَائِلُ

تحقَّقُوا بالحق. وصارُوا من أَهلِ الحقِّ فَعَبَّرُوا بِهِ عن ذاتِ الحقِّ. فَجَرى في مخاطبتهم اسم الحقّ. فيقولونَ: قال الحق. إلى غَير ذَلِكَ مما هو معلوم في مُحَاورَتهم رضي الله عَنْهُم. ثم بيَّنَ أَنَّ كوْن المطلوب. هو عَيْن الطالب في الحقيقة عند أَهْلِ الفناءِ فقال:

طَالِبُنَا مَطْلُوبُنَا مِنْ وُجُودِنَا ... نَغِيبُ بِهِ عَنَّا لَدَى الطَّعن إذْ عنا

يقول رَضِي اللَّهُ عَنْهُ: وطالِبُنَا. أي والطالبُ مِنَّا تلك الزِّيادة التي هي المعرفَة. هو عين مَطْلُوبنَا. إذ ليْسَ الأمر خارجاً عَن ذَاتنا عند تحقيق الفَنَاءِ.

فالطّالب هو المطلوب والمطلوب هو الطالب في الحقيقة. إذا لا إثْنينية، ولاَ غَيْرية عنْد المُحَققينَ مِنْ أَهْل التوحيد الخاصّ. وهَذَا كقولِهِ في بَعْضِ أَزْجَالِهِ:

لَـقَـدْ أَنَـا شَـيْءٌ عَـجِـيـبٌ لِـمَـنْ رآنـي أَنَـا الـمُـحِـبُّ والـحَـبِـيـبُ مَـا ثَـمَّ ثَـانِـي

يَـا طَـالِـبـاً عَـيْـن الـخَـبَـرْ غِـطَـاهُ أَيْـنَـكْ الْـخَـمْـرُ مِـنْـكَ وَالْـخَـبَـرْ والـسِّـر عِـنْـدَكْ

ارْجِـعْ بِـذَاتِـكَ واعْـتَـبِـرْ مَـا ثَـمَّ غَـيْـرَكَ

وقال آخر:

لاَ تَـظُـنَّ الأَمْـرَ عَـنْـكَ خَـارِجـاً هـو ذَوْق ثُـمَّ شُـرْبٌ ثُـمَّ رَيّ

وقال آخر:

أَنَـا مَـنْ أَهْـوَى وَمَـن أَهْـوَى أَنَـا نَـحْـنُ روحـان حَـلَـلْـنَـا بَـدَنَـا

وليس هُنَا حلولٌ ولا اتّحاد؛ لنفي الْغَيْرية والإِثْنينية، حتّى يَتَّحِدَ بِالآخَرِ. كَانَ اللّهُ ولاَ شَيْءَ مَعَهُ وَهُو الآن على مَا عليه كَانَ. فَيَا عَجَباً كَيْفَ يَظْهر الوجود فِي الْعَدَمِ. أم كيْف يثبتُ الحَادِثُ مَعَ من لَهُ الْقِدَمِ. وقول الشاعر:

نحن رَوْحان: أَشَار به إلى الرُّوحِ التي هي المَعْنى الْقَائِمة بِالأَشْيَاءِ. فَهِي قائِمَة بِالرُّوح. والرّوح قائمة بِالجِسْم. والجِسْم من تجليات الحقّ تجلى بِهِ وبَطنَ بَعْد تجلّيه: بما أظهر فيه مِن أَوْصاف الْعُبُودية؛ ليتحقق فيه اسْمُه الظَّاهِر، واسْمُه البَاطِن. ففي الحقيقة لا وُجُود للعَبْدِ أَصْلاً. وَإِنَّمَا تُثْبِت العَبْدَ في عَالَم الفَرْق حِكْمَةً. وتنفيه في عَالَم الجَمع قُدْرَةً. فإِذَا اسْتولى على العَبْد الجَذبُ والفَنَاء أَصْلاً. غابَ عَن مقام الْفَرْقِ. فَلاَ عبْد أَصلاً؛ وصار الطالب عَيْن المَطلوب. والمطلوب عيْن الطالب. والذَّاكر عيْن المَذكور وهذا الذي لاحظ الشيخُ بِقَوْلِهِ: وَطَالِبُنَا مَطْلُوبُنَا مِن وُجُودِنَا أي هو مِنْ عَيْنِ وُجُودِنا لا خَارِجاً عَنَّا نغيب به. أي بشهود مطلوبنا عَنَّا عَنْ وُجُودِنَا عَنَّا لَدَى الطَّعْنِ. أي عند الطَّعْن؛ وهُوَ زوال الْعَبْدِ وفَنَاؤه واضْمحلالُه عِنْد سُطُوع أَنْوارِ أقِدَم على ضحضاح البشرية. فيفْنَى ما لم يكُنْ. ويبقى ما لَمْ يَزَلْ وقوله: «إذ عَنَّا» أي حين عَرَضِ هذا الطَّعْنِ. لوجود العبد الوهمي، نغيب عن وجودنَا. وعن كلّ شيْءٍ.

وفي الحِكَم: العارف مَنْ إذا اشارَ وجَدَ الحقَّ أقرب إليه من إشارتِهِ لهُ. لفنائِهِ فيه ووجودِهِ وانطوائِهِ في شهودِهِ. . وقال أيضاً: «كيْف يحتجب الحق بشيءٍ والذي يحتجب به هو فيه ظاهرٌ وموجودٌ حاضِر» وقال في التنوير: أَبَى المحققون أنْ يشهدوا مَعَ الله غَيْرهُ.

لِمَا حَقَّقَهُمْ بِهِ مِن شهودِ القيّومية. وإحاطةِ الدَّيْمُومية. وقال الشيخ عبد القادر الجيلاني في عَيْنيته:

هُوَ مُوجِدُ الأَشْيَاءِ وَهُوَ وُجُودُهَا وَعَيْنُ ذَوَاتِ الكُلِّ وَهُوَ جَوَامِعُ

لاَ تَطمَعْ أَنْ تَفْهم هذه الأسْرار. إلاَّ بصُحْبة الرِّجَالِ، أَهْل الفناءِ والبَقَاء. وإلاَّ بقيتَ مَعَ أَهْل التَّنْكير والانتقادِ على أَوْلياء اللَّهِ على الدَّوام. فَتبُوء بالخيبة والخسْرَانِ. والعياذ باللَّهِ. ثم هذا المطلوب إنما ينال ويُدْرك بالحظوظ واللحُوظِ. كما أَبَانَ ذلِكَ بِقَولِهِ:

تَرَكْنَا حُظُوظَنَا مِنْ حَضِيضِ لُحوظِنَا مَعَ الْمَقْصَدِ الأَقْصَى إلى الْمَطْلَبِ الأَسْنَى

قلتُ: الحُظُوظُ: ما تميلُ إليه النَّفْسُ وتَهْواهُ. واللُّحُوظُ: الإلتفات إلى الحادِثِ. وقصده بالنَّظر. والْحَضِيضُ: المكَان المنخفض. يقول رضي اللَّهُ عنْهُ: تركْنَا حظوظاً مِنْ حظوظِ أَنْفُسِنَا: التي تَهْوي بصاحِبِهَا إلى الحضيض الأسْفلِ؛ بِسَبَبِ لحوظِهِ لغَيْر اللَّهِ. والتفاته إليه. فَعَبَّر عن حظوظ النَّفس بالحضيض. وهو التَّسَاقط إلى المَرْكَزِ الأَسْفل؛ لأَنَّها سببُه؛ لأَنَّ مَنِ انْهَمَكَ فِي اللَّحُوظِ قطعاً يَسْقط إلى الحضيض الأَسْفل. وأضَافه إلى اللحوظِ؛ لأَنَّ الاشتغال باللَّحُوظِ مسبَّب عن لحُوظ الغَيْر، والإلتفات إليه. وأَمَّا لَو اشْتغَل بِاللَّهِ لَنَسي حُظوظهُ ولحوظَهُ. وحَاصِل مَعْنَى البَيْت: تركْنَا حُظوظاً من حُظُوظِ النَّفْس التي تَهْوِي بنا إلى الحَضيض الأَسْفَلِ بِسَبَبِ لُحُوظِنَا إِيَّاها والتفاتِنا إليهَا. التي لا يَرْضَى بِهَا ذو هِمَّة عالية. ولاَ يتمكَّنُ مَعَها فتوح رَبَّانية. والحظوظ ثلاثة: حظوظ جسمانية. وحظوظ قلبية. وحظوظ روحية. وكُلُّهَا تحجُبُ عَنِ اللَّهِ لِمَنْ وَقَفَ مَعَهَا. . فالجسمانية: كتمتع النَّفس بلذَّةِ المطاعِمِ والمشارب، والمَنَاكِحِ وما يَرْجع إلى ذَلِكَ. مما تتمتَّعُ به البشرية، ويزيدُ في حسِّهَا. إذا سكَن شيْء منها في القلب. لم يَرْحل إلى اللَّهِ أَبداً ما دامَ ساكناً فِيهَا.

والقلبية: كحُبِّ المَالِ والرياسَة، والجاه والتقدم وحبِّ المَدْح والثناءِ والتعْظيم، وإقبال النَّاسِ وكاتصافه بالكِبْرِ والحسد وغَيْرهما مِن مَصَائِبِ الْقَلْب.

وهذه أَقبح من الأولى، وأصعب منها علاجاً.

واعْتَبِر بقصة آدم مع إبليس فكانَت شَهْوة آدم فِي بَطْنِهِ، فتداركه بالتَّوْبَةِ.

وكانت شهوة إبليس في قلبه، فَطُرِدَ وأُبْعِدَ.

والحظوظ الروحانية، كطَلبِ الكَرَامَاتِ، والوقوف مَعَ المقاماتِ وحَلاوةَ الطَّاعاتِ.

وغَيْر ذلك من الخوارق. فكلهَا تقدم في العبودية التي هي سبَبٌ في شهودِ الرُّبُوبية. ولذلِكَ قَالَ في الحِكَم: الحَقُّ لَيسَ بِمَحْجُوبٍ عَنْك. وإنَّما المحجُوبُ أَنتَ عَنِ النَّظَرِ إلَيه. ثُم قال: متَّصلاً بِهَذِهِ الحِكمَةِ: أُخْرُجْ مِنْ أَوْصَاف بشريتكَ عَنْ كُلِّ وَصْفٍ مُنَاقِضٍ لعُبُودِيتكَ. لتكون لنداءِ الحقِّ مجيباً. ومِنْ حَضْرتِهِ قريباً. فكَأَنَّهُ قالَ: إنما حجبكَ عنِ النَّظرِ إليه أوصاف بَشَريتكَ. أُخْرُجْ عَنْهَا يَحْصل لَكَ النَّظَرُ إلَيْه. وعلى هَذَا المَسْلك سَلكَ النَّاظِمُ حيْث قَالَ: وطالبنا هو مطلوبنا. أقرب إلَيْنَا مِنَّا مِنْ وجودِنَا. ثم قال: تَرَكْنَا حظوظاً الخ. فَكَأَنه يَقُول: مطلُوبُنَا أَقرب إلَيْنَا مِنَّا. وإنما حجَبَ النَّاسَ عنهُ، الاشتغالُ بحظُوظِهِمْ ولحوظِهِم التي أَهْوَتْ بِهِمْ إلى الحَضِيضِ، فقد تَرَكْنَا ذَلِكَ، فَوَجَدْنَا الطَّالب مِنَّا عيْن المطلوب. وقولهُ: لا مَعَ الْمَقْصِد الأَقْصَى، أي مَعَ تَرْكِ المَقْصَد الأبْعد: وهو نَعِيم الجِنَانِ مِنَ القصور والحور التي هي الحسْنَى. فَهُو وإن كَانَ لَيْسَ مِنَ الحَظِّ العَاجِلِ، فَهُوَ لحظ والتفَات إلى الْغَيْرِ وسَمَّاهُ المَقصد الأَقْصَى؛ لأنه بعيد من حُظوظ هذه الدَّار وَعَامَّة الناس يقصدونه بِمعَامَلتهم. وقوْلُهُ: «إلَى الْمَطلِبِ الأَسْنَى»؛ وهو الزّيادة؛ التي هي المُشاهدة والترقي في أنوارها أَبداً سَرْمداً. جعلنا الله من هَذَا القبيل آمين. فتحصَّلَ أَنَّ الْعَبْد لا يدخل حضرة الشهودِ، حتى يترك الحظوظ كلها. ويَبْقى بقلبٍ مُفْرَدٍ لِلَّهِ تعالى. كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ﴾. وقيل للجُنَيْدِ: كَيْف الْوُصُولُ إلى الانقطاع إلى الله عَزَّ وَجَلَّ؟ فقال: «بتوبَةٍ تُزِيل الإصْرار، وخوف يقطع التَّسْويف، وَرَجاءٍ يَبْعَث على مَسَالِكِ العمل وإهانة النَّفس بِقرْبِهَا مِنَ الأَجَلِ وَبُعْدِهَا مِنَ الأَمَلِ. قيل لهُ: بِمَاذَا يَصِلُ العبد إلى هَذَا؟ قال: بِقَلْبٍ مُفْرِدٍ يزور. ثم ذكر نتيجة ترْك الحظوظ واللُّحُوظِ؛ وهو كشف حجاب الكَائنات فقالَ:

وَلَـمْ نُـلْـقَ كُـنْـهَ الْـكَـوْنِ إلاَّ تَـوَهُّـمـاً وَلَـيْـسَ بِـشَـيْءٍ ثَـابِـتٍ هَـكَـذَا الْـفَـنَـا

يَقول رضي اللَّهُ عَنهُ: وَلَمْ نُلْقَ بِضَمّ النُّونِ، أي نَجِدُ كُنْهَ الْكَوْنِ، أي حقيقته، عنْد انكشافِ ظُلْمَةِ الحسِّ إلاَّ تَوَهُّماً، أَيْ عَدَماً مَحْضاً؛ تَوَهَّمَ النَّاس أَنَّهُ شيْء ثابتٌ مَعَ اللَّهِ، وليس شيئاً ثابتاً معَهُ إنَّما هُوَ كَالْهَبَاءِ في الْهَوَاءِ، إنْ فتَّشته لَمْ تَجِدهُ شَيْئاً خارجاً عَنْ أَنْوَارِ الأُلُوهية، وإنَّما الوجود لله وحْدَهُ. كَانَ اللَّهُ وَلاَ شَيْءَ مَعَهُ. وَهُوَ الآن على ما عَلَيْهِ كَانَ. على هَذَا دَرَجَ أَهْل الأَذْوَاقِ، من أهْل التوحيد قاطبة. وبِذَلِكَ غَنَّوْا فِي أشعارهم، كَقَوْلِ الْقَائِلِ:

مُـذْ عَـرَفْـتُ الإلَـهَ لَـمْ أَرَ غَـيْـرَ وَكَـذَا الْـغَـيْـرُ عِـنْـدَنَـا مَـمْـنُـوعُ

مُذْ تَجَمَّعْتُ مَا خَشِيتُ افْتِرَاقاً ... فَأَنَا الْيَوْمَ وَاصِلٌ مَجْمُوعُ

فَلَمْ يَبْقَ إلاَّ اللَّهُ لَمْ يَبْقَ كَائِنُ ... فَمَا ثَمَّ مَوْصُولٌ وَلاَ ثَمَّ بَائِنُ

بِذَا جَاءَ بُرْهَانُ الْعِيَانِ فَمَا أَرَى ... بِعَيْنَيَّ إلاَّ عَيْنَهُ إِذْ أُعَايِنُ

إلى غَيْر ذلِكَ من مَوَاجِيدهم، وأَذواقِهِم رضي الله عَنهُمْ. قال ابن عَطَاءِ الله في الحِكَم: «مَا حَجَبَكَ عَنِ الحقّ وُجودُ مَوْجُودٍ مَعَهُ إِذْ لاَ شَيْءَ مَعَهُ. وإنَّمَا حَجَبَكَ تَوَهُّم مَوْجودٍ مَعَهُ». وقال في التَّنْوير: «فما سوَى الله تَعَالى لاَ يوصف بِفَقْدٍ وَلاَ بوجُودٍ؛ لأنه لاَ يُوجد مَعَهُ غَيْرهُ، لثبوت أَحَديتهِ. وَلاَ فقد لغَيْره؛ لأنَّه لا يُفقد إلاَّ مَا كَانَ مَوْجوداً. وَلَوِ انهتَكَ حجاب الْوَهْم، لَوَقَعَ الْعِيان على فَقْدِ الأعْيَانِ. ولأشْرَقَتْ نور الإيمَانِ، فَغَطَّى وُجُود الأكْوَان.

وقال في لطائف المِنَنِ: «وأَشْبَه شيْءٍ بالكَائنَاتِ وُجُودُ الظِّلاَلِ فالظِّلُّ لاَ موجود باعْتبار مَرَاتِب الوجودِ، وَلاَ معدوم باعتبار مَرَاتب الْعَدَم». واعتبار العَدَم في الظَّاهر أَقربُ؛ لأنَّهُ خَيَالٌ لاَ حقيقة لَهُ. وتَشَبُّه الكَائنَاتِ بِالظلِّ؛ لأنه يُنسَخُ ويُعْدَمُ عند وصُول الشَّمْس إلى مَحَلِّهِ، فَكَذلك حِسّ الأوَانِي يُعْدَمُ وَيُفْقَدُ، عِنْدَ طلوع شَمْس الْعِرْفَانِ عليه. فإذا أَشرقت شَمْس المعانِي، ارتفع حِسُّ الأوَانِي. وإليه الإشارة بقوله تعالى على طريق أَهْل الإشارة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾. أي ظِلّ الكَائنات: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾. أي وَلَوْ شَاءَ لجعل ذلِك الظِّلَّ سَاكِناً. ما ارْتفعَتْ ظُلْمَتُه عنِ القلوبِ. ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ﴾، أي شمس العِرْفَانِ ﴿عَلَيْهِ﴾ أيْ عَلَى ذَلِكَ الظِّلّ ﴿دَلِيلًا﴾ حتى صار ذلكَ العارف يستدل باللَّهِ على غَيْرِهِ ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ﴾ على قلوب المتوجِّهينَ ﴿قَبْضًا يَسِيرًا﴾: شَيْئاً فَشَيْئاً. على حَسَبِ التصفية والترقية حتَّى يَنقَطِعَ بِالكلية. وقد أَشَار النَّاظِم في بعض أَزْجالِهِ إلى هَذَا المعْنَى فقال:

تجلَّتِ المعانِي وغَابت الظِّلالُ ... كُسِّرت الأوَانِي وَمُزِّقَ المِثَالُ

وقال ابن عطاءِ فِي الحِكَم: «الأكْوَان ثابتة بِإثْبَاتِهِ، مَمْحوَّةٌ بِأَحَدية ذَاتِهِ. لاَ يَدُلُّ على ثُبُوتها اسْتقلال. وإنَّما الْمُرَاد أنَّه أظهر حِسهَا ليُعْرَفَ بِهَا ثم مَحَاهَا بِأَحَدية أَسْرَار ذَاتِهِ؛ وهي المَعَانِي الْقَائمة بِهَا قيام الثلْجَةِ بِالْمَاءِ، فإذا ظَهَرَ الْماء بدون الثلجة، فلاَ ثَلْجَةَ كَمَا قال صَاحِب الْعَيْنية:

وَمَا الْكَوْنُ فِي التِّمْثَالِ إلاَّ كَثَلْجَةٍ ... وَأَنْتَ بِهَا الْمَاءُ الَّذِي هُوَ نَابِعُ

وَمَا الثَّلْجُ فِي تَحْقِيقِنَا غَيْرُ مَائِهِ وغَيْر أَنِّي فِي حُكْمِ دَعَتْهُ الشَّرَائِعُ

وقَوْلُهُ: هَكَذا الفَنَاءُ: أيْ هَكَذَا حَقِيقة الْفَنَاءِ: مَحْو الأشياء واضمحلا لها كما قال الشيخ أبُو الْمَوَاهب: حقيقة الْفَنَاءِ مَحْوٌ واضمحلالٌ. وَذهاب عَنْكَ وَزَوَالٌ وَمِنَ الأَشياء وجود النَّفس، فَلاَ يحقق العَبْدُ الفَنَاء حتَّى يغيب عن وُجُودِهِ، ووجود الكَوْن بِأَسْرِهِ في شهود وجود محبوبِهِ. وفي نسْخة الشيخ زروق: «وليس بشيْءٍ ثابتٍ هكذَا الفَنَاء». قال يعْني هَكَذَا وَجَدْنَا إشارة إلى أَنَّ معرفَتَهم من طريق الذَّوْقِ والمُنَازلة لاَ مِنْ طريق العِلْم والمُحاولة. قلت: وهو غَيْر جيّد؛ لأنه يُؤدي إلى نَوْع تِكْرارٍ مَعَ أَوَّل البَيْتِ لأَنَّ قولَه: وَلَمْ نَلْقَ، أي نَجِدْ صريحاً في الذَّوْقِ والْوُجْدَانِ، فَلاَ مَعْنَى لإِعَادَتِهِ. واللَّهُ تعالى أَعْلَمُ. ثم ذكر ما أَنتج هذا الوجود فقال:

فَرَفْضُ السِّوَى فَرْضاً لأَنَّنَا بِمِلَّةِ مَحْوِ الشِّرْكِ وَالشَّك قَدْ دِنَّنَا

يَقُولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَرَفْضُ السِّوَى، أَيْ طَرْحُهُ والغَيْبة عنهُ فَرْضٌ واجِبٌ علينَا معشر الموحِّدِينَ. وهذا البَيت مُرَتَّبٌ على ما قبْله؛ لأَنَّ مَن وَجَد الكَوْنَ توهُّماً لاَ حقيقة لِوُجُودِهِ ـ والكَوْن كلُّ ما سِوَى اللَّهِ ـ تَعَيَّن عليه رَفْضُهُ، وعدم اعْتباره، نظراً واعتباراً. ومحبَّة واسْتناداً. فَلاَ يُرَى فِي الوجود إِلاَّ اللَّهُ. وَلاَ يعْتمد في أُمُوره إلاَّ عليْهِ. كما قال الشَّاعِرُ:

حَرَامٌ عَلَى مَنْ وحَّدَ اللَّهَ رَبَّهُ وأَفْرَده أَن يَحْتَذي أَحداً رِفْدَا

فَيَا صَاحِبِي قِفْ بِي عَلَى الحَقِّ وَقْفَهْ أَمُوتُ بِهَا وُجْداً وَأَحْيَا بِهَا وُجْدَا

وَقُلْ لِمُلُوكِ الأَرْضِ تَجْهَدُ جُهْدَهَا فَذَا المُلْكُ مُلْكٌ لاَ يُبَاعُ وَلاَ يُهْدَى

وكذلكَ لا يميل لمحبَّتِهِ شيْءٌ من حُسْن الكَائِنَاتِ، وإنما يَتَعَشَّق إلى أَسْرار الْمَعَانِي؛ التي هي وَجْه الرَّحْمَن. فَافهَمْ؛ لأَنَّ مَنْ سَابقَتْه المَعَانِي، لاَ يَلْتَفِتُ إلى جَمَالِ صُوَرِ الأَوَانِي. وغابَ عَنْهَا فِي جَمَالِ المتجلِّي بِهَا فيَغيب بحَلاَوَة لذَّةِ الشُّهُود، عَنْ جَمَالِ كل مشهودٍ. ثم علَّلَ رَفْضهُمُ السِّوى بِقَوْلِهِ: لأنَنا بِمِلَّةِ مَحْوِ الشِّركِ والشَّكِّ قَدْ دِنَّا؛ أي لأنَنا تمسَّكنا بِمِلَّة الحنَفية الإِبْرَاهيمية؛ التي جاء بها رسولُنَا عليه الصَّلاة والسَّلاَمُ؛ وهي مؤسَّسَة على محْو الشركِ وَرُؤْية الْغَيْر عن عيْن القَلْبِ؛ لأَنَّ إبراهيم عليه الصَّلاَة والسَّلاَمُ، حين زُجَّ بِهِ فِي المنجنيقِ. وَرُمِيَ بِهِ فِي النَّارِ، تَعَرَّضَ لَهُ جبريل في الْهوَاء، فَقَالَ لَهُ: أَلَكَ حَاجَةٌ؟ فقال: أَمَّا إِلَيْك فَلاَ. وأَمَّا إِلَى اللَّهِ فَبَلَى. فقال جبريل: سَلْهُ فقال إِبْرَاهيم: «عِلْمُهُ بِحَالِي يُغْنِي عن

سُؤَالِي». فَلَمْ يلتفِتْ إلى الواسطةِ قطعاً. ولم يشركْ في تملقه أحَداً، سوَى مَوْلاهُ الذي لاَ يخفى عليْه. وكذلك محْو الشَكِّ والرِّيبَة، فإنه عليه السلامُ، طَلَبَ الانتقَالَ مِنْ عِلم اليقينِ، الذي يمكِن أنْ يُزاحِمَه خاطِر تُهْمَة، إلى عَيْن الْيَقين؛ الَّذِي لاَ يَبْقَى مَعَهُ وَهْمٌ، وَلاَ رِيبَة أَصْلاً. إذ ليْسَ الخَبَرُ كالْعِيَانِ. وذلِكَ حينَ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ الآية. فَأَسعَفه الحق تعالى في ذلِكَ، حتَّى انتقل مِنْ علم اليقين. إلى عَيْن اليقينِ. وَهَذَا مَعْنَى قَوْله: لأَنَّنا بِمِلَّة مَحْوِ الشِّرْكِ والشَّكِّ قَد دِنَّا. أيْ اتَّخذناهُ دِيناً، نتمسَّكُ بِهِ ظَاهِراً وَبَاطِناً. وعلى هَذَا يَدُور فلك قُطْب التَّصوف، بِحَيْثُ لاَ يَبْقَى فِي الْقَلْب ريبَة، وَلاَ تهْمَة في ظهور الحقِّ وانفرادِهِ بِالوجودِ؛ لأَنَّهُمْ بَلَغُوا رُتْبَة الْعِيَانِ وَارْتَفَعُوا عن مقام غَيْب الإيمان. وكذلكَ الأمور الموعود بِهَا. صارت عِنْدَهُمْ كَأَنَّها حاضرة لدَيْهم حتى صَارُوا بِحَيْث لوْ كُشف الغِطَاء عَنْهَا وظهرتْ، ما ازدادوا يقيناً كما قال سيّدنا عليّ كرَّم اللَّهُ وَجْهَهُ، وكما قال حارثة فِي قضيته المشهورة حينَ سُئِلَ عَن حقيقة إيمَانِهِ. وكذلكَ مُعَاذ بن جَبَلٍ رضي الله عَنْهُمْ. ثم التفَتَ إلى ما قدَّمناه من مُشاهدة نَفْي المُكَوّنِ مع وجود رفضِهِ. ورأى ذلكَ كالتناقض فقال:

وَلَكِنَّه كَيْفَ السَّبِيلُ لِرَفْضِهِ وَرَافِضُهُ الْمَرْفُوضُ نَحْنُ وَمَا كُنَّا

قلت: رَافِضهُ مُبْتدأ. والمرفوضُ خَبَرٌ، ونحن خَبَرٌ، ونحن خَبَرٌ عن مُضْمر يعود على الرَّافِضِ. وهو ونَحْنُ وَمَا كُنَّا حالٌ. يقول رضي الله عَنْهُ: قد قَدَّمنا أَنَّ رَفْضَ السِّوَى فَرْضٌ علَيْنَا، ولكنَّهُ إشكال؛ وهو أَنْ نقول: كيْفَ الطريق إلى رفْضِه. والرافض هو المرفوض. والمرفوض عينُ الرافضِ؛ لأَنَّ الجَميع سِوى، وهو مصدرٌ محض فالرافض هو نَحْنُ. وَمَا كُنَّا شيئاً، بل عَدَماً محضاً لاَ كنَّا من جملة السِّوَى فتحصَّلَ: أَنَّ الحقَّ تعالى، هو الَّذِي فعَلَ جميعَ ذلكَ، حتَّى عَرَف نَفْسَهُ وَأَزَال المَوَانع عن ذَاتِهِ بِذَاتِهِ وَيُجَاب بأنَّ الحق جل جَلاله، لمَّا تجلَّى بِاسْمِهِ الظَّاهر، من عَالَم الغَيْبِ إلى عَالَم الشهادَةِ تجلَّى أَيْضاً بِاسْمه الباطِنِ، فبطن في ظهوره، واختفى في حالِ تجلِّيهِ؛ وذلكَ بِمَا أَسْدَلَ عَلَى وَجْهِهِ من رِدَاءِ كِبْرِيائِهِ؛ وهي رِداء الحُسْنِ، ويسمَّى هذا الرداء، عَالم الحِكْمَة، وَعَالَمَ الأَشْباح، وعَالَمَ الفَرْقِ وإنما تَرَدَّى بذلِكَ؛ لِيَبْقَى الكَنْزُ مَدفوناً والسرُّ مصوناً. فسُبحان المُدَبِّر الحكيم العليم. فَلَمَّا بَرَزَتِ الروح مِنْ عَالَم اللطافة والصَّفَاءِ، إلى العَالَم الحسِّي، انْسَدَلَ عَليها الحجاب، مِن جُملَةِ مَنْ انسدل عليهمْ. فَمَا فَتَحتْ عينيها إلاَّ في هذا العالم الحِسِّي

فعشقته وَمَالَتْ إليه وتَاهَتْ فِي فروقِهِ ونَسِيَتْ أَصْلَهَا. وَجَهلتْ رَبَّهَا، فَبَعَث اللَّهُ تعالى مَنْ يُعَالجها من الأنبِيَاءِ والرُّسلِ وَخُلَفَائهم مِنَ الأولياءِ الفحُولِ فَأَمَرُوهَا بالأَدَب مَعَ الرّبوبية في الظَّاهِرِ فَعَلَّمُوهَا ثم أَمَرُوهَا بِالأَدَب فِي الباطِنِ مَعَهُ؛ وهو تَرْكُ الحظوظ واللحوظ، ورفضُ كُلِّ مَا يشغل عن اللَّهِ؛ وَهُوَ المُعَبَّر عنه بالسّوى، فَإذا فَعَلَتْ ذَلِكَ، رَجَعَتْ إلى أَصْلها، وشاهدتْ أَسْرار رَبِّهَا. وتَنَزَّهَت فِي جَمَال ذَاتِهِ. حين ارْتفَع عَنْهَا رِداء الْحِسِّ. فَظَهَرَ حينئذٍ بهذا الاعْتبار الرافضُ والمرفوض وانحَلَّ الأَشْكالُ الذي توهَّمُوه. وأَمَّا لو تركْنا هذا الاعتبارَ لبطلتِ الأحكامُ والحِكْمة؛ وهذا كفْر وزندقة. فالواجِبُ على العارِف أنْ تكُون لَهُ عيْنَانِ: عيْن تَنْظر لعَالَم الجَمْعِ؛ وهو أمام الفناءِ فَلاَ يَرَى إلاَّ الحقّ متجلّياً بِاسْمه الظَّاهِر؛ وهذا هو الحقّ في عيْن الحقيقة. فَيُثْبِتُ الحِكمة والأحكَام ويُسَمَّى هَذَا المَقَامُ مقام البَقاء، فيكون كامِلاً مجموعاً فِي فَرْقِهِ. مفْروقاً في جَمْعِه. يُعطِي كل ذي حق حقَّهُ. ويُوَفِّي كلَّ ذِي قسْطٍ قسْطهُ. وبهذا الاعتبار عنّى الشاعِرُ شاكياً، لِمَا أُشْكِلَ عليه مِن ذلك فقالَ:

الـعَـبْـدُ حَـقٌّ والـرَّبُّ حَـقٌّ ... يَـا لَـيْـتَ شِـعْـرِي مَـنِ الـمُـكَـلَّـفُ
إنْ قِـيـلَ عَـبْـدٌ فَـالـعَـبْـدُ مَـيِّـتٌ ... أَوْ قِـيـلَ رَبٌّ أَنَّـى يُـكَـلَّـفُ

فأجاب شيخُ شيوخنا سيدي عبد الرحمن الفاسي فقال:

نَـعَـمْ بِـحَـقٍّ إثْـبَـاتِ عَـبْـدٍ ... بِـنَـعْـتِ فَـرْقٍ بِـهِ يُـكَـلَّـفُ
والـعَـبْـدُ مَـيِّـتٌ بِـكُـلِّ حَـالٍ ... لِـسِـرِّ عَـوْنٍ بِـهِ مُـكَـلَّـفُ

فالعَبْدُ في الحقيقة لاَ وجود لهُ من ذَاتِهِ أَصْلاً. لكِنْ لمّا تجلَّى سبْحَانَهُ بِمَظْهَرِ الرُّبوبية، في قَوالب الْعُبُودية، سُمِّيَ ذلك المَظْهُر باعتبار القَالب عبْداً؛ وهو محذوف بِاعتبار الْمَظْهرِ. فإنْ نَظَرْت إلى مطلق التَّجلِّي، رأيْت عَظيمَة قَدِيمة أزلية وَلاَ عَبْدَ. وَإِنْ نظرتَ إلى تطوير ذلِكَ التجلِّي بِشكل الْعَبْد وَصُورَتِهِ. رأيْت عبداً فقيراً وإلَى ذلك أَشار في الحِكَم بقولِهِ:

سُبْحَانَ مَنْ سَتَرَ سِرَّ الخصوصية. في وَصْف البَشَرية. وظَهَرَ بِعظَمة الرُّبوبية في إظهار العُبُودية. وأَمّا قول الشَّاعر:

أَرَبٌّ وَعَـبْـدٌ وَنَـفْـيُ ضِـدِّ ... قُـلْـتُ لَـهُ لَـيْـسَ ذَاكَ عِـنْـدِي
فَـقَـالَ مَـا عِـنْـدَكُـمْ فَـقُـلْـنَـا ... وُجُـودُ فَـقْـدٍ وَفَـقْـدُ وِجْـدِ

تـوحـيـدُ حـقٌ بِـتَـرْكِ حَـقٌ ولـيْـسَ مِـنْ سِـوَايَ وَحْـدِي

فَإِنَّمَا أنكر وجود العَبْد مستقلاً مفروقاً كما هو اعتقاد عامَّة أَهْل الدَّليل والْبُرْهَان مِن أَصْحاب اليمين. وَهُوَ مُحَالٌ مُنْكَر عندَ العَارِفِينَ المُقَرَّبِينَ وإنما أَطَلْتُ الكَلامَ هُنَا؛ لأَنَّ هذه المَسْأَلة خَفِيَتْ عَنْ كثير ممَّن ينتسبُ للوجدان والعِرْفان فضلاً عن غَيْرهم وباللَّهِ التوفيق. ثم نَهَى المريد عن نسْبة الفعل إلى نفسه مَعَ كَوْنِهِ لاَ وجود له مع ربِّه بِنَاءً على مَا تَقَدَّمَ لَهُ. فقال:

فَيَا قَائِلاً بِالْوَصْلِ وَالْوَقْفَةِ الَّتِي حُجِبْتَ بِهَا ازجِعْ وَارْعَوِي مِثْلَ مَا أُبْنَا

قلت: إرْعَوْ أَمْرٌ مِنِ ارْعَوَى، بِمَعْنَى انزَجَرَ. ومنهُ قول الشاعِرِ:

أَلاَ ارْعِـواء لِـمَـنْ ولَّـتْ شـيـبَـهُ وَأَذِنَـتْ بِـمَـشـيـب بـعـده هَـرَمُ

وَإِثْبَات الياءِ في الأَمْرِ للوَزْنِ. ومثل صفة لمصْدَرِ محذوفٍ. وَمَا مَصْدَرية، وأُبْنا بِضَمّ الْهَمْزِ من آب، أي رجعَ كقلنا من قال. أي انزَجِرْ وارْجِعْ عن ذلِك، رجوعاً مثلِ رُجُوعِنَا. يقول رضي اللَّهُ عَنْهُ، منكراً عَلَى من يَدَّعِي الوصول إلى الله بنفسِهِ، أيْ بحولِهِ وقوَّتِهِ أَوْ بمجاهَدته وَرِياضته. وَعَلَى مَنْ يشتكِي الْوقفَة مِنْ نَفْسِهِ إذ كِلاَهما عِلَّةٌ فِي الطَّرِيقِ وشِرْكٌ كَادَ أَن يكون جَلياً عند أَهْل التحقيق. فقال: يا قائلاً بالوصول إلى الله بنفسٍ وبمجاهدتِهِ. ويا قائِلاً بالوَقْفَةِ، والفترة عن السَّيْر التي حُجِبْتَ بِهَا عن الوصول اسْمَع ما أقول لك في نصيحَتِي، وارْعَوِ. أي انْزَجِرْ عن هذه المقالة. وارْجِع إلى الله بالتوبة والاستغفَارِ رجوعاً مثل رُجُوعنَا. فقد كنا في هذا المحلِّ ثم تُبْنَا، وَرَجعنا إلى الله عَنْهُ. فَإِنَّ ادِّعَاء الْوُصُول إلى اللَّهِ، مع وجُودِ النَّفس، دَعْوى وكذب. واعتقاد الوصول بالعملِ علة وشِرْكٌ. فيجب على العَبْد التَّوْبَةُ مِنْ جميع ذلِكَ. فالواجب حينئذٍ الدّخول على الله من بَابِ الكَرَمِ لاَ مِن بَابِ العَمَلِ فَمَن دَخَلِ منْ بَاب الكَرَم وجدَ البَابَ مَفتوحاً. وَمَنْ دَخَلَ مِن باب العمل وَجَدَ الْبَاب مَغْلُوقاً. وفي الحِكَم: «لَوْ كُنْتَ لاَ تَصِلُ إِلَى اللَّهِ إلاَّ بعد فَنَاءِ مَسَاوِيكَ لن تَصِلَ إليه أَبَداً. ولكن إذا أَرَاد أَنْ يُوصِّلك إلَيْه. غَطَّى وصْفكَ بِوَصْفِهِ ونَعْتكَ بِنَعْتِهِ. فَوصلك إليه بِمَا منه إِلَيكَ. لاَ بِمَا مِنْكَ إِلَيْهِ».

وكذلكَ القائل بالوَقفة؛ وهي الفَتْرَة التي تَعْتَري المريد في السَّيْرِ، بحيث تَبْرُد قريحتُهُ وتنْحَلُّ عَزِيمتُهُ. وَلاَ يَنْبَغِي أَنْ يُظهرهَا إِلاَّ لشيْخِهِ، وَلاَ يشتكِي بِهَا لِغَيْرِهِ. إذ كُلّ ذَلِكَ مِن اللَّهِ امتحاناً لعَبْدِهِ. فَلْيَثْبُتَ فِي الطريقِ، وَيُلاَزِم صُحْبَة أَهْل القوَّةِ

والتحقيقِ. وَقَال بَعْضُهُمْ، الفَرْقُ بيْن الْوَقفة والفترةِ. أَنَّ الوَقفَة تردّد. بل حتى يَمُنَّ الكريمُ الوهَّاب عليه بالقوةِ. فليتحقق بيْن الأَقْوياءِ من ذَوِي التحقيق.

وقال بَعْضهُمْ: الفَرْق بيْن الوقفَة والفترة. أَنَّ الوقفة تردّد فِي صحَّة الطَّريق.

والفَتْرة: ضَعْف القريحة؛ والعَزْم مَعَ الجَزْم بِصحَّة الطَّريق فالوقفَة أَقْبَحُ من الفَتْرةِ. فَإِذَا جَزَمَ بِعَدَم صحَّة الطريق؛ فَهو رُجُوع والعياذُ باللّٰهِ.

وحاصل كَلام الناظم: تحقق الفناءِ عن النفس، والغَيْبة عَنْهَا بِالكلية. فَلا يُنسَب إِليها، وَصْلاً وَلاَ وقفاً. وَلاَ قوة وَلاَ ضعفاً. إِذ الكلُّ مِنَ الله تعالى، ولِذلكَ قال محيي الدّين بن العربي رضي اللّٰهُ عَنْهُ:

«مَنْ شَهِد أَنَّ الخلقَ لاَ فِعْل لَهُمْ فَقَدْ حَازَ، ومنْ شَهِدهُمْ لاَ حَياةَ لَهُمْ فَقَدْ فَازَ. ومن شَهِدَهم بِعَيْن الْعَدَمِ فَقَدْ وَصَلَ». وأَنْشَدُوا فِي ذَلِكَ:

مَـنْ أَبْـصَـرَ الـخَـلْـقَ كَـالـسَّـرَابِ ... فَـقَـدْ تَـرَقَّـى عَـنِ الـحِـجَـابِ
إِلَـى وُجُـودٍ يَـرَاهُ رَتْـقـاً ... بِـلاَ ابْـتِـعَـادٍ وَلاَ اقْـتِـرَابِ
وَلَـمْ يُـشَـاهِـدْ بِـهِ سِـوَاهُ ... هُـنَـاكَ يُـهْـدَى إِلَـى الـصَّـوَابِ
فَـلاَ خِـطَـابٌ مِـنْـهُ إِلَـيْـهِ ... وَلاَ مُـشِـيـرٌ إِلَـى الـخِـطَـابِ

فَقَوْلُهُ: فَلاَ خطَابٌ منهُ إِليه: يشير إِلى قَوْلِهم: مَن عَرَفَ اللّٰهَ كَلَّ لِسَانُهُ، فالضَّمِير فِي مِنْهُ يعود على مَنْ أَبْصَرَ. واللّٰهُ تعالى أَعْلَمُ. ثم بيَّنَ أَصْلَ الْعِلَلِ فَقَالَ:

تَـقَـيَّـدتَ بِـالأَوْهَـامِ لَـمَّـا تَـدَاخَـلَـتْ ... عَـلَـيْـكَ وَنُـورُ الْـعَـقْـلِ أَوْرَثَـكَ الـسِّـجْـنَـا

يَقول رضي اللّٰهُ عَنْهُ لِمَنْ وَقَفَ مَع الاسْتِدْلاَلِ، وَقَنَعَ بِمَقَام الإِيمَانِ: لَمَّا تَدَاخَلَتْ عليكَ الأَوْهَامُ والشكوك والخَوَاطر. تَقَيَّدتَ بِهَا، وحُجِبْتَ عن مَقَام الإِيمَانِ. وَالْمُرَادُ بِالأَوْهَام وَهْمُ وجودِ الكَوْنِ واسْتقلاله ومشاهدةُ الأَثَرِ فوقف مع ظلمة حِسِّهِ وَلَمْ يَشْهَد الحقَّ قَبْلَهُ وَلاَ بَعْدَهُ فَأَعْوزَه وجود الأَنْوَارِ وحُجِبَتْ عنه شموسُ المعارف بسحُب الآثار وَوَهْم تخلُّف ضَمَان الرِّزق، فَاشتغَل بتحصيل أَسْبابِهِ، واجْتهادِهِ في جَمْعه واحْتِكَارِهِ فَأَعْوَزَهُ أَنْوَارُ التوكّلِ، وتظلَّمَ باطِنُهُ بِهَمِّ الرِّزْقِ، وخَوْف الفقر وَوَهْم ضَرَرِ الخَلْقِ، ونَفْعهم، فَاشتغل باطِنُهُ بتحصيل أَغْرَاضِهِمْ، وتظلَّم بِالْخَوْفِ مِنْهُمْ.

فهذه هِيَ الأَوْهَامُ التي تداخَلَتْ قلوب أَهْل الحِجَابِ. فبقوا من وراء البابِ. وتَدَاخُلُ الأَوْهَام هُوَ تَرَدُّدُها وتَرَادُفُهَا على الْقَلْبِ حَتَّى انْحَصَرَتْ فِكرَتُهُ فيهَا. وتقيُّد

قَلْبُهُ مَعَهَا. والوقوف أَيضاً مَعَ نور الْعَقْلِ يُورث السِّجْنَ؛ وهو البَقَاءُ مَعَ دَائِرة الأَكْوانِ؛ لأَنَّ الْعَقْلَ غاية مَدْركِهِ، يَدْرِكُ: أَنَّ الصَّنْعة تحتاج إلى صَانِعٍ، وَلاَ يَنْفذ نُورُه إلى تَرق مِنَ الكَائِنَاتِ، حتى يُفْضِيَ إلى أَسْرَار المعَانِي؛ وشُهُودِ المُكوِّنِ؛ لأَنَّ ذلِكَ مِن مَدَارِكِ الرُّوحِ والسِّرِّ. فَإِذَا رَجَعَتِ الرّوحُ، وغابَ عليْها ذكر اللّهِ. فُتِحَتْ لَهَا مَيَادِين الْغُيُوبِ وخرجَتْ فِكَرَتُهَا عن دائرة الأَكْوَانِ إلى فَضَاءِ شُهود المُكَوِّنِ. وإلى ما ذكره النَّاظم، أَشَار فِي الحِكَم بِقولِهِ: «الكَائِنِ فِي الكَوْنِ ولم يُفتح له ميادين الْغُيوبِ، مَسْجُونٌ بِمُحِيطاتِهِ. مَحْصُورٌ فِي هَيْكلِ ذَاتِهِ. وهذَا الأَمْرُ لاَ يَفهمهُ إلاَّ أَهلِ الأَذْوَاقِ وإلاَّ فَحَسْبُهُ الإيمان بِاللّهِ، والتَّصْدِيق بِوُجُودِهِ عِنْدَ أَرْبَابِهِ. وقد تُحْجَبُ القُلُوبُ بِالأَنْوارِ، كما تحجَبُ بالأَغْيَارِ، وإلى ذَلِكَ أَشارَ بِقَوْلِهِ:

وَهِمْتَ بِأَنْوَارٍ فَهِمْنَا أُصُولَهَا ... وَمَنْبَعَهَا مِنْ أَيْنَ كَانَ فَمَا هِمْنَا

وَقَدْ تَحْجُبُ الأَنْوَارُ لِلْعَبْدِ مِثْلَ مَا ... تَقَيَّدَ مِنْ إِظْلاَمِ نَفْسٍ حَوَتْ ضِغْنَا

يقول رضي اللّهُ عَنْهُ: وَهِمْتَ أَيُّهَا الْعَبْدُ المَحْجُوب عَنِ اللّهِ، أي تِهْتَ وَتَلفْتَ عَنِ السَّيْرِ إلى حضرةِ الحقِّ وشُهُودِهِ، بِأَنْوَارٍ قد فَهِمْنَا نَحْن أُصُولَها. ومِن أَيْنَ تَفَرَّعَتْ ومَنْبَعَهَا، ومن أَيْنَ نَبَعَتْ وظَهَرَتْ. ومن أَيْنَ كَانَتْ. فَمَا هِمْنَا أيْ فَمَا تِهْنَا عَنْ طَرِيقِ الحقِّ؛ بِالوقوفِ مَعَهَا، والرُّكُون إِلَيْهَا. وذلِكَ كَأَنْوَارِ حَلاَوَةِ الطَّاعَاتِ، وَلَذَّةِ المُنَاجَاة. وَظُهُور الكَرَامات، والتنزّه في المقاماتِ للعُبَّادِ والزُّهَادِ والصَّالحين. فَقَدْ وَقَفُوا مَعَهَا وَاعْتَمَدُوا عَلَيْهَا وَرَأَوْا غَايَة الْوُصُول؛ وهم أَشدّ حجاباً عَنِ اللّهِ. لا يخرجهم مِن ذَلِكَ. إلاَّ صُحْبَة شيخ كَامِلٍ، بنور محرق، وكتحقيق المَسَائل، وتحرير النوازِلِ. والتَّفَنُّن فِي أَنواع العلوم الشَّرْعيةِ، وَهَذَا حجاب كَبير للعلماءِ يَرَوْن بذلِكَ أَنَّهُمْ حَازُوا قَصَبَ السَّبْقِ فِي الكمالاتِ؛ وهم باعتبار الرِّجَال فِي بِدَاية البداياتِ. وَلاَ يخرجهم مِن ذَلِكَ. إلاَّ حَطُّ رُؤُوسِهم للعارفينَ من مشايخ التَّرْبية، وكتحقيق الأدِلّة العقلية والنقلية في معرفة الحقّ من طريق الاسْتدلالِ؛ وهُوَ من أقبح الحجاب لعلمَاءِ الكَلاَمِ وقِسْ على هَذَا سَائر العلوم والأحوال والواردات فَمَنْ وقف مَعَ شَيْءٍ من هذه الأنوار لَمْ تنفُذْ بصيرته إلى شهودِ ذَاتِ الحقِّ؛ فهو محجوب عن رؤية النّور الأصْلِي. فقد فَهِمْنَا هذه الأنوار، وعَلِمْنَا أصْلها ومَنْبَعَهَا فَرَحَلْنَا عَنْهَا، وما هِمْنَا بالوقوف مَعَهَا.

وفي بعض الإشارات عن الله تعالى يقول: «يا عَبْدِي لاَ تَرْكَنَنْ إلى شَيْءٍ دُونَنَا فَإِنَّك إن رَكَنْتَ إلى العِلْم جَهَّلْنَاكَ فيهِ. وإِنْ ركَنْتَ إلى العمل رَدَدْنَاهُ عليكَ. وإِنْ

رَكَنتَ إلى حَالٍ وقفْنَاكَ مَعَهُ. وإن ركَنْتَ إلى مَعْرفةٍ نكَّرنَاهَا عليكَ فأي حيلة لكَ؟ فكُن لنَا عبْداً حتَّى نكُونَ لكَ رَبّاً». أو كما قال تَعالَى.

وقال في الحِكَم: «لاَ تطلُبْ بَقَاءَ الوارداتِ بَعْدَ أَنْ بَسطتْ عَلَيْكَ أَنْوارَهَا. وأَوْدَعْتَ عليكَ أَسْرَارَهَا فَلَكَ فِي اللَّهِ غِنَى عَنْ كل شيءٍ. ولَيْس يُغنيكَ عنه شيءٌ».

ومن هذا أيضاً، قَوْلُ الشيخ مَوْلانا عبد السلام بن مشيش رضي اللَّهُ عنه في شأن مقام الرضَى والتَّسْليم: «أَخَافُ أن تشغِلَنِي حَلاَوتهما عن اللَّهِ وبعد هَذَا كُلِّهِ فَمَنْ لَمْ يَتَّصِلْ بشيخ التَّرْبية لاَ يطمع في الرَّحِيل عن هذه الأمور أَبَداً. ولَوْ عمل ما عملَ.

وقوله: «وقد تُحجَبُ الأنوار للعبد» الخ. هو تقريرٌ لما قَبْلَهُ. والمراد بالأَنْوارِ ما تقدَّمَ مِن حَلاَوةِ الطاعات، وتحقيق المقاماتِ، وتتابع الأحوال والسكَرات وفيْض العلوم الرّسْمِيَّاتِ. فقد تُحجَبُ هذه الأَنْوار للعَبْدِ إذَا استحْلاَهَا، وَوَقَفَ مَعَهَا وتُسَمَّى أَنْوَارَ التوجُّهِ. قال فِي الحِكَم: «اهْتَدى الرَّاحلونَ إليه بِأَنْوار التوجُّهِ. والواصلونَ لهم أنوارُ المُوَاجَهَة. فَالأَوَّلَ للأنوار. وهؤلاء الأنوار لَهُمْ؛ لأنهم لهُ. لاَ لشيْءٍ دونِهِ. قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾.

وأنوار المواجهة؛ هي أنوار الشهودِ؛ لأنهَا تواجه الْعَبْدَ، فيغرقُ فيها ويَغيبُ عن رُؤْية الأغْيَار؛ وهو مَا سِوَى اللَّهِ. وقوله: «مثل ما تَقيَّد مِن إظْلاَمِ نَفْس حَوَتْ ضِغْنَا». أيْ تحجبُه الأنوارُ، وتقيِّده عن النهوضِ إلى اللَّهِ. مثل تقييدِهِ مِنْ أَجْل ظلم نَفْسٍ، حيْث غَيَّبتِ القَلْبَ بظلماتِ الْهَوَى، والحظوظ حينَ حَوَتْ ضِغْناً، أيْ خبْثاً فِي الباطِنِ؛ وهي سَائر الأمْرَاضِ مِنَ الحسَدِ والكِبْرِ، والحقد وغيرها مِمَّا هو مُقَرَّرٌ فِي مَحَلِّهِ. وَحَوَى الشَّيْءَ: ضَمَّهُ وصار في حَوْزِهِ ثم نَهى عَنْ دَعْوَى الوِصَالِ والأَمْنِ مِنَ السَّلْبِ والرجُوعِ فَقَالَ:

وَأَيُّ وِصَالٍ فِي الحقِيقَةِ يُدَّعَى وَأَكْمَلُ مَنْ فِي النَّاسِ لَمْ يَدَّعِ الأَمْنَا

يَقُولُ رضي اللَّهُ عنهُ: قَدْ تَكَلَّمَ النَّاسُ فِي قضية الوِصال والاتِّصَالِ؛ وادَّعَى كلُّ واحدٍ أَنَّهُ بَلَغَ فِي ذَلِكَ الْغَاية والنِّهاية؛ وهو في ذَلكَ تَالفٌ وَمُخْطِئٌ. وكيْف يَدَّعِي النِّهَاية فِي الْعِلْم. وقد قال تعالى لسيِّدِ العارفينَ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾. فَلَوْ عَاشَ الْعَبْدُ عُمُرَ الدُّنْيَا والآخرة. يَتَرَقَّى فِي العلوم والمعارفِ ما بَلَغَ معشار عُشرهَا. وَبَعْضهم ادَّعَى التمكينَ في الوصول إلى الحقِّ. والأَمْنَ الرُّجُوع. وكيْف يَدَّعِي في المسْأَلة الأمْنَ من السَّلْبِ. وأكْمل ما فِي النَّاس وهُو سيِّد الوجود لَمْ يَدَّعِ الأَمْنَ، حتى قال: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾. وهذَا مِنْه عليه السلام مَعَ اتِّسَاع في

العِلْم والمَعْرِفة؛ لأنَّ صاحب الاتِسَاع لاَ يَقِفُ مَع وعْدٍ وَلاَ وعِيدٍ. إنما ينظر ما يبرز من عُنْصُر القدرة لحْظةً، لغَيْب المشيئةِ. ولذلك كَان العارف لاَ يزول اضطرارهُ. وَلاَ يكون مَعَ غَيْر الله قرارهُ. واعْتبِرْ بحال الأنبياءِ عليهم السلامُ. كقول الخليل عليه السلامُ: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا﴾. فاسْتثنى مع جَزْمه بعَدَم خَوْفِهِ من أَصْنَامِهِمْ. ثم بيَّن وجْهَ الاسْتثناءِ فقَال: ﴿وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾. وكذلك سيّدنا شعَيْب عليه السَّلاَم حين قَالَ: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ﴾. وكذلك قضية نبينا ﷺ مع الصديق مَعَ بَدْرٍ، حيْث بَات يَتضَرّعُ، ويَدْعُو مَعَ وعْدِ اللّهِ له بالنَّصْرِ حتَّى قال له الصّدّيق: «أَمْسِكْ يَا رسُولَ اللّهِ ﷺ. فإنَّ الله مُنْجِزٌ لَكَ مَا وَعَدَك». فوَقفَ الصّدّيق مَعَ ظَاهِرِ الوَعْدِ، وأَخَذَ عليه السَّلاَم إلى غَيْبِ المشيئةِ لاتِّسَاع عِلْمِهِ بِاللّهِ.

والحاصل أَنه عليه السلامُ مَأْمُون في الدُّنْيَا والآخِرَة. بوَعْدِ اللّهِ له بذلكَ حَيْثُ قال: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾. وهذا باعْتِبَار الدّنْيَا. وقال تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾. باعْتِبَارِ الآخِرَة إلى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الآيَاتِ. لكِنَّهُ عليه السَّلاَمُ، أَظْهَرَ العُبُودية وَلَمْ يَقِفْ مَعَ شَيْءٍ ﷺ. وكذلك خُلَفَاؤه من الأولياءِ لاَ يقفون مَعَ وَعْدٍ وَلاَ وعِيدٍ لغَيْب المشيئَةِ. وفي بَعْضِ الأخْبَار، يقول اللّهُ تَعالَى:

«يَا عَبْدِي لاَ تَأْمَنْ مَكْرِي وَإِنْ أَمَّنْتُكَ فَإِنَّ عِلْمِي لاَ يحيط بِه مُحِيطٌ». وقد يَبْلُغُونَ مِنَ التمكينِ مع الحقّ، مقاماً يَتَرجَّحُ مَعَهُ الأمْنُ. بقولِهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾. فمَنْ تحقق مَقَام الإيمَان، حتى بلغ منْهُ مقام العِيَانِ. وانتفى عَنْهُ الشرك الجلي والخَفِي. فقد حَصَلَ لَهُ الأمْنُ بِنَصّ الآية. قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عَنْهُ:

«يَبْلُغُ الْوَلِيُّ مَقَاماً يُقَالُ له: افْعَلْ مَا شِئْتَ، قد أَصْحَبْنَاكَ السَّلاَمَةَ، وأَسْقَطْنَا عَنْكَ الْمَلاَمَةَ». وقال في شَأْنِ تلميذه الْمُرْسِي: «قَدْ تَمَكَّنَ الشيخ أبُو العَبَّاس مع اللّهِ تَمَكُّناً. لَوْ طَلَبَ الحِجَابَ لَمْ يَجِدْهُ. ويُسَمَّى مَقَامَ المحْبُوبية». ويُعَضّده قولَهُ تَعَالَى فِي حقّ سُلَيْمَانَ عليه السلامُ: ﴿هَـٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

هَذَا؛ وَإِنْ كَانَ فِي مَقَام النبوءة، فَلِلْوِلاَيَة قِسْط بِحَسَبِ الوِرَاثَةِ. وبَعْدَ هَذَا كلهِ لا يزول عنهم خَوْفهم. فَلاَ يَزُول اضطرارهم، وَلاَ يكون مَعَ غَيْرِ الله قرارهُمْ لاتّسَاع دائِرة عِلْمِهِمْ. وقد حققنا هذه المسألة فِي التفسير في سورة الأنعام والأحقاف فَانْظُرْهُ إن شِئْتَ. وبِاللّهِ التوفيق.

وقد تكَلَّمَ النَّاسُ فِي حقيقة الْوُصُول. قال في الحِكَم: «وُصُولُكَ إِلَيْهِ، وُصُولكَ إِلَى الْعِلْمِ بِهِ. وَإِلاَّ فَجَلَّ رَبُّنَا أَن يَتصل بِشيءٍ، أَوْ يَتَّصل به شَيْءٌ». وأَحْسَنُ ما يُقال في حقيقة الوصول؛ أَنَّه فَنَاء الرسول والأشكال بظهور الكَبير المتعال فيَفْنَى مَا لَمْ يَكُنْ؛ وهو الْوَهْمُ والْجَهْلُ. ويَبْقَى من لم يَزُلْ؛ وهو الحق وحْدهُ. فقد كَان وحْده لاَ شيْءَ مَعَهُ. وقد بَقِي مَا كَانَ عليْهِ. فالوصُول إلى اللّهِ. عبَارة عن تحقيق الْعِلْمِ بِوَحدتِهِ. وغَيْبة العَبْدِ عَنْ وجودِه فِي وُجُودِ مَعْبُودِهِ حتى لاَ يُشَاهدَ إِلاَّ عظمَتَهُ فِي كل شَيْءٍ. مُرتدياً بِرِدَاءِ الْكِبْرِيَاءِ لِيَبْقى السِّرُّ مَصُوناً. والكَنْزُ مَدْفوناً. ثم بَرْهَنَ عن كَوْنِ الوصول لاَ يكون بِمُجَرَّدِ الدَّعْوَى فقال:

وَلَـوْ كَـانَ سِـرُّ الـلَّـهِ يُـدْرَكُ هَـكَـذَا لَقَالَ لَنَا الْجُمْهُورُ هَا نَحْنُ مَا خِبْنَا

يقول رضيَ اللَّهُ عَنهُ: لَوْ كَانَ سِرُّ اللَّهِ؛ وهو الوِلاَية والمعرفة على سَبِيل الْعِيانِ؛ وهُوَ مَعْنَى الوصول إلى اللَّهِ، يُدْركُ هكَذَا، أيْ بِمُجَرَّدِ الدّعْوَى مَع وجودِ النَّفس، وَرَاحَة الجسْم، ورقوده تحت ظِلّ الجدي لقال جمهورُ النَّاس أي عَامَّتُهُمْ: هَا نَحْنُ ما خِبْنَا الْمَعْرفة، بل نَحْنُ وَأَنْتُمْ فيهَا سواء. أيْ لو كَانَت تُنَال بِلاَ مجاهدة وَلاَ تَرْبِيَة. لاَدَّعَاها كلُّ النَّاسِ لكنَّهَا لاَ تُنَالُ إلاَّ بِذَبْحِ النُّفُوسِ وحَطِّ الرُّؤُس لأَرْبَابِهَا. وَبَذْلِ الْفُلُوس زُهْداً فِيهَا. وَارْتِكَابِ الشَّدَائِدِ والأَهْوَالِ وتَتَابع الوارداتِ والأَحْوَالِ، ومُفَارقة الأوطَانِ والأحباب، والغَيْبة عَنِ الْعَشَائر والأَصْحَاب.

قَالَ فِي الحِكَم: «لَوْلاَ مَيَادِينُ النفوس، مَا تَحَقَّقَ سَيْر السَّائِرِينَ». وقال أَيْضاً: «كَيْفَ تُخْرَقُ لَكَ العوائدُ، وأَنْتَ لَمْ تخرق مِن نَفسك العَوَائد». وَقَدْ بَيَّنَ ذلِكَ الشيخ بِقَوْلِهِ:

فَـكَـمْ دُونَـهُ مِـنْ فِـتْـنَـةٍ وَبَـلِـيَّـةٍ وَكَمْ مَهْمَةٍ مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ قَدْ جُبْنَا

يَقُولُ رَضِي الله عَنهُ: فَكَمْ دُونَ الْوُصُولِ من فتنةٍ وبَلِيَّة أي مِن امتحانٍ واختبارٍ للمريد؛ هل هو صادِقٌ في الطَّلَبِ أَوْ هُوَ كَاذِبٌ. فَإِن ثبت وصبَرَ وصَلَ وإلاَّ رجَعَ مِن حيْث جَاءَ. فَأَوَّل ذلِك تسْليط النَّاسِ عليه بِالإِذَايَة والإهانَة، والتَّصْغير والهِجْرَانِ. وَرُبَّما وصلُوا إلى ضَرْبِهِ وسجنه. وتطويفه وقتلِهِ فإِن صَبَرَ على ذَلِكَ، تعرَّضَ له إبليس بالتخويف والتسويف وتبعيد الفَتْح وتبطي السَّيْر فإن صَبَرَ على ذَلِكَ تَعرَّضَتْ لَهُ الدّنْيَا بتزيين زَخَارِفِهَا وحظوظها وَزَهْرَتِهَا، فَإِن أَعْرَضَ عَنْهَا، تَعَرَّضَتْ لَهُ الآخِرة بحورِهَا وقصُورهَا، وسائر نَعِيمها فَإِن أَعْرَضَ عَنهَا، تعرَّضَتْ لَهُ الكَرَامَاتُ، وصَوْلة الأَحْوَالِ وَحَلاَوة المقاماتِ. فَإِن أَعْرَضَ عن هَذَا كُلِهِ. قال له

الحق جَلَّ جَلاَلَهُ: «مَرْحَباً وَأَهلاً هَذِه حَضرة قُدْسِي. تَنَعَّمْ فِيهَا بِمَا شِئْتَ وتَنَزَّهْ بِفِكْرَتِكَ حَيْثُ شِئْتَ». ويُقَالُ لَهُ حينئذٍ:

لَكَ الدَّهْرُ طَوْعٌ والأَنَامُ عَبِيدُ   فَعِش كُلَّ يَوْم مِنْ أَيَّامِكَ عِيدُ

وَإِنْ وقَفَ مَعَ شيءٍ مِن هَذَا، رجَعَ من الطريق. وأَمَّا مَن وَصَلَ فَلا رُجُوعَ عَلَيْهِ لَهُ: أيْ بِفَضْلِ اللَّهِ وكَرَمِهِ؛ لأَنَّ اللَّهَ لاَ يجب عليه شيءٌ. وَالْوُصُول هُوَ تحقيق الفَنَاءِ، والتَّمَكُّنُ من البَقَاءِ. وقولهُ: «وَكَمْ مَهمَةٍ الخ». هي المَفازة البعيدة. وَيُجْمَعُ على مَهَامِهِ. وَمَعْنَى جُبْنا: قطعْنَا. والجَوبُ: هو القَطْعُ. أي كَمْ مِن مَفَازَة للنَّفسِ قَدْ قَطعْنَاهَا بِالمُجِاهَدَة والمُكَابَدة والرّياضة. كمشاقّ الأسْفَار إلى زيارة المشايخ والإخْوَان وكَقَطع عوائد النَّفسِ. وَمَا ركَنَتْ إليه مِنَ الْجَاهِ، والرَّاحة، وإقبال الخلقِ بتحمُّل أَضْدادِهَا من الذّلّ والتعبِ. والإعراض عن الخلق بالعُزْلَةِ والانفرادِ، وهَذَا هو خَرْق عوائدهَا؛ وهو شرْط في عمارَة الباطِنِ. قال بَعْضُهُمْ: ما ينال ما عنْدَ اللَّهِ إلاَّ بِتنضِيج الجلودِ، وضِيْق الكبود. وقال الشيخ زُرّوق رضي اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ الْمُرِيدَ لاَ يَصِلُ لعَيْن الحقيقة، حتَّى يَرَى مِنَ المِحَنِ والفِتَنِ والبلايَا مَا لاَ مَزِيدَ عليْهِ. ويجوب مَعَ ذَلِكَ مَهَامِهَ، وتقصر فيها الخطَى، فَمَن عَصَمَه الله نفذ. ومَنْ أَهانه رجَعَ. فَإِنْ جَدَّ تقابِله الدُّنيا والخلق بالإدْبَارِ، والنفس بالتعصبِ، وإبْلِيس بالتسلُّطِ. فَإِن صَبَرَ وَجَاهَدَ وجدَّ والْتَزَمَ، فَازَ وَوَصَلَ، وإلاَّ هَلَكَ فِي بَعْضِ أَوْديتهِ. ثم يُقَابِله كذلِكَ بالإقبالِ. والتخير، كذا فإن سكَن كذا وحذر نَجى، وإلاَّ ذَهَبَ في الاغترارِ والاسْترسال ونَحْوِهَا، ثم يقابلة الجميع بِالتميكنِ. فَإِن ثبت وإلاَّ انقلَب عَلَى وَجْهِه في اتباع الْهَوَى رداً وقبولاً.

وقال الشيخ عبْد القادر فِي عينيته فِي هَذِهِ المَعْنَى:

وَإِيَّاكَ فَاصْبِرْ لاَ تَمُلَّ فَإِنَّهَا   بِصَبْرِ الْفَتَى جَاءَتْ إِلَيْهِ الْمَطَامِعُ

وَهَوِّنْ عَلَى النَّفْسِ ارْتِكَاباً لِهَوْلِهَا   فَغَيْرُ مُحِبٍّ مَنْ دَهَتْهُ الفَجَائِعُ

قلتُ: مَنِ اتَّصَلَ بشيخ التَّرْبية، سهل عليه ذلِك كله إن الْتزَمَ وَتَأَدَّبَ. وإنْ لَمْ يتصل بشيخ التَّرْبية، أتعَبَ نَفسهُ بِلاَ طَائِلٍ كما جَرَّبْنَا ذَلِكَ وَذقْنَاهُ وجَرِّبْ فَفِي التجريب علم الحقائق، وباللَّهِ التوفيق. وتمام ذلك كلّه إِدَامَة السَّيْرِ، وعَدَم الالتفات إلَى الغَيْرِ كما أَبَانَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ:

فَلاَ تَلْتَفِتْ بِالسَّيْرِ غَيْراً وَكُلُّ مَا   سِوَى اللَّهِ غَيْرٌ فَاتَّخِذْ ذِكْرَهُ حِصْنَا

وَكُلُّ مَقَامٍ لاَ تُقِمْ فِيهِ أَنَّهُ حِجَابٌ فَجُدَّ السَّيْرَ واسْتَنْجِدِ الْعَوْنَا

يقول رضي اللَّهُ عنهُ: فلا تلتفت في حَالِ السَّيْرِ إلى غَيْرِ الله تعالى أياً مَّا كَانَ سواء كَانَ علوماً أَوْ أَحْوالاً. أَوْ مقاماتٍ، أو طاعات، أو كرامات. أو إقبال الخلقِ، أو إدبَارَهُمْ، أَوْ عِزّاً، أَوْ غَيْر ذَلِكَ. فكل ما سِوَى الله غَيْرٌ، وحجابٌ عَظِيم لِمَن وَقَفَ مَعَهُ. فالمقصود والمطلوبُ، هو الوصال إلى شهودِ عظمة ذَاتِ الحقِّ عياناً. ومعرفته دواماً واتّصالاً. افتخذ ذِكْرَهُ بِقَلْبٍ حصناً من ذلِكَ القواطِع. و ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾. وَلاَ شك أَنَّ ذِكر اللَّهِ حصْن مَانع مِنَ الشيطانِ، وسَائر القواطِعِ. يكون أوَّلاً بِاللِّسَانِ. ثم بِالقَلْب، ثم بالرُّوح، ثم بالسِّرّ. وهو مقام التمكين مِنَ المعرفة. فحيئذٍ يحصل الأمان مِن الخَلْقِ والشيطَانِ، ومن سَائر القواطع في الغَالِبِ. ومن جملة القواطع، الوقوف مع المقاماتِ؛ فلذلكَ قال: «وكل مقام لا تَقُمْ فيه أَنَّهُ حجابٌ». وَلاَ مفهومَ للمَقَامات، وكذلك الأحْوَال والواردات، لاَ ينبغي استحلاؤهَا، وَلا التطلع إلَيْهَا. قال في الحِكَم:

«لاَ تطلُبَنْ بَقَاءَ الْوَارِدَاتِ بَعْدَ أَنْ بُسِطَتْ أَنْوارُهَا. وَأُودِعَتْ أَسْرَارُها. فَلَكَ فِي اللَّهِ غِنًى عَنْ كُلِّ شَيْءٍ. وليْسَ يُغْنِيكَ عَنْهُ شَيْءٌ. تَطَلُّعُكَ إلى بَقَاءِ غَيْرِكَ، دليلٌ على عَدَمِ وُجْدَانِكَ. واستيحاشكَ بِفُقْدَانِ ما سِوَاهُ، دليلٌ عَلَى عَدَمِ وَصْلَتِكَ بِهِ، وقال الشيخ أبو هادي في صباحِ يوم لأصحابِهِ: بِمَ يَرْتَفِعُ الْعَبْدُ من حالَةٍ لِمَا هُوَ أَرْفَع مِنهَا؟ قَالُوا بِفَضْلِ اللَّهِ ورَحمَتِهِ، قَالَ: إنما سَأَلتُكم عنِ السَّبَب الخاصِّ بِهَذَا الأمْرِ، قَالُوا: من عند الشيخ. قال: يخلق اللَّهُ له هِمَّةً أَعْلَى مِن هِمَّتِهِ. فيرفعه بها إلى رُتْبَة أَعْلى من رتبته. قُلْتُ: وَأَقوى الأسْبَاب فِي الارْتِفَاع، الانكسارُ والاتِّضَاعُ. فَإذا انْكَسَرَ المُرِيد اتَّضَعَ لسيِّدِهِ، بِسَبَبٍ أَوْ بِغَيْرِ سَبَبٍ. حَصَلَ له التَّرَقِّي إلى مَقَام لَمْ يَكُن يَعْرِفُهُ. ثم أَمَر الشيخ بالجِدِّ فِي السَّيْرِ والنهوض فقال: «فَجُدَّ السَّيْرَ» أيْ فجُدَّ الْعَزْمَ وَدُمْ على جِهَادِ نَفْسِكَ، ومخالفتها. فَلَوْلاَ مَيَادِين النُّفوس، ما تحقق سَيْر السَّائرينَ. والْزَمْ صُحبة الرِّجَالِ والمشايخِ، فَلاَ عَوْنَ أَعْظم من ذَلِكَ. وتأمَّلْ ما قاله الشيخ عبْد القادر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي عينيته:

فَشَمِّرْ وَلُذْ بِالأَوْلِيَاءِ فَإِنَّهُمْ لَهُمْ فِي كِتَاب اللَّهِ تِلْكَ الْوَقَائِعُ

هُمُ الذُّخْرُ لِلْمَلْهُوفِ والكَنْزُ لِلرَّجَا وَمِنْهُم يَنَالُ الصَّبُّ مَنْ هُوَ طَامِعُ

بِهِمْ يُهْتَدَى للعَيْنِ مَنْ ضَلَّ فِي الْعَمَا بِهِمْ يُجْذب العشاقُ والرَّبْعُ شَاسِعُ

واسْتَنجِدِ العَوْنَ، أي أَطْلُبْهُ مِنَ اللَّهِ، بعد تحصيل ما تقدَّمَ، فَإِنَّه يُعينك عَلَى مَا تريدُ. والاسْتنجادُ: الإلحاحُ في الطَّلَبِ. قَالَهُ في القاموس ثم ذَكَرَ وَجْهَ العَمَلِ فِي الفرار من الوقوف مع الغَيْر فقال:

وَمَهْمَا تَرَى كُلَّ الْمَرَاتِبِ تُجْتَلَى عَلَيْكَ فَحُلْ عَنْهَا فَعَنْ مِثْلِهَا حُلْنَا

وقُلْ لَيْسَ فِي غَيْرِ ذَاتِكَ مَطْلَبٌ فَلاَ صُورَةٌ تُجْلَى وَلاَ طُرْفَةٌ تُجْنَى

يَقُولُ رَضِي الله عَنهُ: ومهْمَا تَرَى كُلَّ الْمَرَاتب من مَرَاتب أَهْل التخصيص والتَّقْريب تُجْتَلَى؛ أي تَظهر عليكَ كَظهور الكراماتِ، والكشف عَنْ أَسْرار المقاماتِ، وحَلاَوة الطاعات وإقبال الوَرَى وأَبْنَاء الجِنْس، فَحُلْ عَنْهَا؛ أَيْ تَحَوَّلْ بِهِمَّتِكَ عَنْ الالتفاتِ إِلَيْهَا، وعن الوقوف مَعَهَا، فإنَّ الوُقُوف مَعَ شيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، حجابٌ عن شهودِ الحقِّ. قال في الحِكَم: «مَا أَرَادَتْ هِمَّةُ سَالِكٍ أن تقف عندما كُشِفَ لَهَا إلاَّ ونَادتْهُ هَوَاتِفُ الحقيقة؛ الَّذِي تطلب أَمَامَكَ وَلاَ تبرَّجتْ ظَواهِر المكوّنات، إلاَّ ونَادَتْهُ حَقَائِقُهَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ». والمراتب الَّتِي تُجْتَلَى للسَّائر فِي سَيْرِهِ ثلاثٌ: فَنَاء فِي الأفعال وفَنَاءٌ في الصفات، وفَنَاء فِي الذَّاتِ. فَإِذَا كُشِف للسَّائرينَ عن توحيد الأَفْعَالِ وذَاقَ حَلاَوَتَهُ. وأَرَادتْ همَّته أَن تقف مَع ذلِكَ المَقَام، نَادَتْهُ هواتِف الْفَنَاءِ فِي الصِّفَاتِ؛ الَّذِي تطلبُه أَمَامَكَ. وإِذَا تَرَقَّى إِلى الْفَنَاءِ فِي الصِّفَاتِ، وكُشف له عَنْ سرِّ توحيد الصفات. فاسْتشرف على الفَنَاءِ في الذَّاتِ، وأَرَادَتْ هِمَّتُهُ أَنْ تَقِفَ مَع ذَلِكَ الْمَقَام نَادَتْهُ هَوَاتفُ الفَنَاءِ في الذَّاتِ؛ الذي تطلب أَمَامَكَ وإِذَا تَرَقَّى إِلَى الفناءِ فِي الذَّاتِ، وكُشِف لَهُ عَنْ سِرِّ توحيد الذَّاتِ. وأَرَادَتْ همَّته أَنْ تقفَ مَعَ ذَلِكَ. نادَتْهُ هَوَاتِفُ حقيقةِ البقاء وبقاء البَقَاء. وهكذا إِلى مَا لاَ نهايَة لَهُ مِنَ التَّرَقِّي. وإِذَا تَبَرَّجَتْ، أَيْ ظَهَرَتْ بِزِينَتِهَا وَزَخارفها ظَوَاهِرُ المكوّناتِ بخَرْقِ عوائدِها. وانقيادِها لَهُ. وتصرفِهِ فيها بِهِمَّتِهِ. كالمَشْي عَلَى الماءِ، والطَّيَرَان فِي الهواءِ. وطَيّ المسَافة البعيدة فِي لحْظَةٍ. وغَيْر ذَلِكَ من الكَرَامات الحسِّية. وأَرَادَتْ همَّةُ السَّالك أن تقف مَعَها، نادَته هَوَاتفُ الحقيقةِ؛ وهي أَسْرارُ المَعَانِي الباطنية. إِنَّما نَحن فِتْنَةٌ لَكَ، نَخْتَبِرُكَ هَلْ تقف مَعَ ظَاهِرِهَا فَتُحْجبَ بِهَا، أَوْ تَنْفُذَ إلى بَاطِنِهَا. فتعرف مَالِكها والمتجلِّي بِهَا.

قال الشيخ أبو عُثْمَان بن عاشوراء رضي الله عَنْهُ: «خَرَجْتُ مِنْ بَغْدَادَ أُرِيدُ الْمَوْصِلَ. فأَنَا أَسِيرُ، فَإِذَا بالدُّنيا عُرِضَتْ عليَّ بِعِزِّها وَجَاهِها، ورفعتِها، ومراكبِها ومَلاَبِسهَا. ومزيناتِها وثمارِها ومشتهيَّاتِها. فأَعْرضت عَنْهَا. فعُرضَت عليَّ الجنَّةُ

بِحُورِهَا وقصورِهَا، وأنهارِها وثمارِهَا فَلَمْ أَشْتَغِلْ بِهَا. فَقِيلَ لِي يَا عُثْمَان، لَوْ وقفتَ مع الأولى لَحَجَبْنَاكَ عن الثانية. ولو وقفت مع الثانية لَحَجَبْنَاكَ عَنَّا. فَهَا نَحْنُ وقسْطكَ من الدَّارِيْنِ يَأْتِيكَ». وقال بَعْضُهُمْ: مَنْ سَمَتْ هِمَّتُهُ عَنِ الأَكْوَانِ. وصَلَ إلى مُكَوِّنِهَا. وَمَن وقَفَ بِهِمَّتِهِ مَع شيْءٍ دُونَ الحقّ فَاتَهُ؛ وهُو أَعَزُّ مِن أن يرضَى مَعَهُ بِشَيْءٍ. وإلى هَذَا أَشَار الشيخ بقولِهِ: فَلاَ يشغلنَّك عنه أَيُّهَا الْمُرِيدُ صُورَة تُجْلَى، أي تظهر لك من نَوْعِ الكَرَامَاتِ. وَلاَ طرفة تجْنَى، كوجُودِ الثمارِ من غَيْر إِبَّانِهَا. وحَلاَوَةِ الطاعات. فإنَّها سُمُوم قاتِلَةٌ.

قال الشيخ أبو يزيد رضي اللَّهُ عَنَهُ: «أَوْقَفَنِي الحقُّ بَيْنَ يَدَيْهِ فَقَالَ تُريد الطرف فَقُلْتُ لاَ. فقال: تُرِيدُ الْغُرْف. فقلْت لاَ: فقال: تريدُ التحقق قُلْتُ لاَ. قَالَ: فَمَا تريدُ؟ قلْتُ: أُرِيدُ أَنْ لاَ أُرِيد؛ لأنّي أَنَا الْمُراد وأَنْتَ الْمُرِيد». وَحَكَى أَنَّهُ قَالَ: كَان الحق تعالى يريني الكراماتِ، فأعرضُ عَنهَا. فَلَمَّا رأى ذَلِكَ مِنِّي جَعَلَ لِي إلى مَعْرِفتِهِ سَبِيلاً. قال بَعْضهم: كُشف لِي عن أَرْبعين حَوْراء، فَرَأَيتهُنَّ يَتَشَخَّصْنَ فِيَّ فَالتَفَتُّ إِلَيْهِنَّ. فَحُجِبْتُ عن مَقَامِي مدَّةً. ثم كشف لِي عن ثمانينَ، فسجدتُ وأَنَا أَقُولُ: اللَّهُم إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِمَّا سِوَاكَ.

وقال شيخ شيوخِنَا سيّدِي علي العمراني رضي اللَّهُ عَنهُ: «اشتَقْتُ يَوْماً إلى الجنَّة، فإذَا أَنَا آكل مِن ثمارِهَا، وأقطف مِن أزهَارِهَا، وأَشْربُ مِن أَنهَارِهَا. فاشتغلْتُ بذلكَ عن حَلاَوَة الشهود فتبْتُ إلى اللَّهِ فأَخْرَجَنِي من سِجْنِهَا». وقال الجُنَيْدُ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ: «أَلْطَفُ مَا يُخَادَعُ به الأَوْلياءُ، الكَرَامَاتُ والمعونات». ويُحْكَى أَنَّ بِشراً الحَافِي رضي اللَّهُ عَنهُ، رأى عليّ بن أَبِي طالبِ في النَّوْم. فقال لهُ: «يَا أَمِيرَ المؤمنينَ، ما أَحْسَنَ عَطفِ الأغنياءِ على الفقراءِ رَجَاء الثواب. فقال لَهُ عليّ كَرَّم الله وَجْهَهُ: وأَحْسَنُ له من ذلِكَ، تِيه الفقراء ثقة باللَّهِ».

قَالَ بعض المشايخ: وأَكْبَرُ من ذلِكَ، هِمَّةُ العَارِفينَ، تتشاكَى له فِيهَا جميع المقدورات، فضلاً عن المخلوقات.

ولمَّا قَدِمَ الشَيْخ أَبُو الحسَن رضي الله عَنهُ على القُطْبِ ابن مشيش، وجَدَه في مغارته يَدْعُو. فكَره الدّخول عليه ليْلاً، وكَان في مقصد الشيخ أبي الحسَن نَفْعُ النَّاس، وجلبُهُمْ إِلَيْهِ ليدْعُوهُمْ إلى اللَّهِ. وكَان يتردَّد فِي خاطِرِهِ، هل يدْخل للمُدُنِ أَوْ يَنْقَطِع فِي الجِبَالِ والقفار، للعبَادة، فَسمعَ الشيخَ من دَاخِلِ المغارة يَقُولُ اللَّهمَّ إنَّ قوماً قد طلبُوا منكَ انْ تُسَخِّرَ لَهُمْ خَلْقَكَ. فَسَخَّرْتَهُمْ لَهُمْ. فَرَضُوا بذلِك. وأَنَا أَسْألك اعوجاجَهُمْ عَلَيَّ، حتى لاَ يكونَ مَلْجَئِي إلاَّ إِلَيْكَ.

فقال الشيخ أَبُو الحسَنِ: يا نَفسي من أي بَحْرٍ يغترفُ هَذَا الرَّجلُ. فَلَمَّا دَخلَ وَسَلَّمَ عليْه. قال لهُ: كَيْفَ أَنْتَ يَا سَيِّدِي. قال: أشكُو مِنْ بَرَدِ الرِّضَى والتَّسْلِيم، كما تشكُو أَنْتَ مِنْ حَرِّ التَّدْبِيرِ والاخْتِيَارِ. فقال: يا سيِّدِي أَمَّا شَكْوَاتِي من حَرِّ التَّدْبير والاختيارِ، فقد ذُقْتُهُ وأَنَا فِيهِ. وأَمَّا شكوَاكَ أَنْتَ مِنْ بَرَد الرِّضا والتسْلِيم. فلِمَاذَا؟ قال: أَخَافُ أَنْ تشغلَنِي حَلاَوتُهما عَنِ اللَّهِ. ثم قال يا سيّدِي: سَمِعْتُكَ تقول: اللَّهُمَّ إني أَسْأَلك اعْوجاجَ الخَلْقِ عَلَيَّ. قال ابن مشيش: يَا أَبَا الحسَن: عِوَضَ أن تقول: اللَّهُمَّ يَا ربِّ سَخِّر لِي خَلْقَكَ قل يا رب كُنْ لِي. أَفَتَرى إن كَانَ لَكَ، أيفوتُك شَيْءٌ؟ فما هذه الجبانة. انتهى بمعْنَاه. فهذه المقامات والكرامات كلها تصرف المريد إلى التعلّق باللَّهِ. وعَدَم الالتفات إلى ما سِوَاه كَائناً ما كَانَ. ولمَّا حَرَّضَ على الفَنَاءِ والفِرَار إلى اللَّهِ. أَمَرَ بالتَّمسك بالشريعة، وهو مَقَامُ البَقَاءِ، وكَمَالِ الكَمَال فقال:

وَسِرْ نَحْوَ أَعْلاَمِ الْيَمِينِ فَإِنَّهَا سَبِيلٌ بِهَا يُمْنٌ فَلاَ تَتْرُكِ الْيُمْنَا

يقولُ رضي الله عَنْهُ: إِذَا أَفْردتَ قلبكَ لله، وَلاَحَتْ علَيْكَ أَنْوارُ الْفَنَاءِ. فتمَسَّكْ بِالشريعة المحمَّدية. وسِرْ نحو أَعْلام الْيَمِينِ، واسْتَظِل معهم تحتَ ظِلِّ لِوَاءِ الشريعة؛ وأَعْلاَمِهَا، فَإِنَّهَا طريق بِها يُمْنٌ وبَرَكَةٌ ونجدةٌ وغنيمَةٌ، فَلا تَتْرُكِ اليُمْنَ والبركةَ فَتَقَع في الخُسْرَانِ والنَّدَامة. ولذلِكَ قيلَ:

مَنْ تَصَوَّفَ وَلَمْ يَتَفَقَّهْ فَقَدْ تَزَنْدَقَ. وَمَنْ تَفَقَّهَ وَلَمْ يَتَصَوَّفْ فَقَدْ تَفَسَّقَ. وَمَن جَمَعَ بَيْنَهُمَا فَقَدْ تحقَّقَ.

قال الشيخ زروق رضي الله عَنْهُ:

تَزَندق الأولُ لإهْمَاله الشريعة. وقد جَاءَ بها الصَّادِقُ المصدوقُ؛ فهي باب الدُّخول إلى اللَّهِ. وتَفَسَّقَ الثاني لإهْمَالِهِ الحقيقة، وتحقق الثالثُ، لجمعه بينهُمَا. قال: وكان شيخنا أَبُو العبَّاس بن عقبة الحَضْرَمِي كثيراً ما يُنْشد هَذَينِ الْبيتيْن:

اتْبَعْ رِيَاحَ الصَّبَا وَدُرْ حَيْثُ دَارَتْ وَسَلِّمْ لِسَلْمَى وسِرْ حَيْثُ سَارَتْ

وَمُرَاده سَلْمَى فيما أَظنُّهُ: الشريعة. واللَّهُ أَعْلَمُ. قُلْتُ: بَلِ الظَّاهِر، أَنَّهَا الحقيقة. إذا هِيَ التي يكني عنها أَهْلُ الفَنِّ بِسَلْمَى. وعزَّة ولَيْلَى وأَيْضاً: هِيَ المتصرفة في الأشياء كلها فيجب الميلِ مَعَهَا أيْنَ ما ظَهَرَتْ. والسَّيرِ بِسَيْرِهَا حيْث سَارَتْ. وأَمَّا الشريعة فَإِنَّها رِدَاءٌ لَهَا وسَتْر لأَسْرَارِها. واللَّهُ أَعْلَمُ.

فَالتَّمَسكُ برسومِ الشريعة لأهْلِ الحقيقة فَرْضٌ لاَزِمٌ. وَمَنْ أَخَلَّ بِهِ، رَجَعَ مِن حيْث جَاءَ. وَلاَ يُرْجَى فَلاَحُهُ. وقال السَّاحلي في بغيتهِ لمَّا تكَلَّم على آداب مَقَامِ الإِحْسَانِ بعد كَلاَمِ الثالث: إقامة رسوم الشريعة، أَحْسَنَ إِقَامَةٍ؛ فَهِيَ شعار العُبُودية، وهي الوَسَائِل إلى دَرْكِ الحقائق الإلَهية. وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ ذلِكَ مُسْتَغْنَىً عَنْهُ عندَ مواردِ التحقيق؛ فَهُوَ مَغْبُونٌ في حقيقته. مفتونٌ فِي وِجْهَتِهِ. رَاضٍ بِالحِرْمَانِ وَالْهَوَانِ. وَمِن عَلاَمَاتِ صِدْق أَهْلِ الاخْتِصَاصَاتِ عَدَمُ حَلِّ الْيَد مِنْ عُرْوَة الشريعة، بَلْ فِي اسْتغراقهم الحِفظ عليها، في إقامة الرُسُوم الشرعية، كَمَا أَنَّ مِنْ عَلاَمَةِ الخِذْلاَنِ، حَلَّ اليَدِ مِنْ عُرْوَة الشريعة، عنْدَ وُرُود الحقائق، رزقنَا الله مِنْ حِفْظِهِ وكَلاَءَتِهِ، مَا يَحْملنا على مَنَاهِجِ الْعَارفينَ. قُلْتُ: ورسوم الشريعة: هو فِعْلُ المَأْمُوراتِ، وترْكُ الْمَنْهِيَاتِ. نَهْي تحريم، أَو نَهْي كَرَاهةٍ. وقال أيْضاً: في شروطِ المعرفة: الثالث: المحافظة عَلَى الرّسوم الشرعية وإقامة الوَظَائف الرَّبَّانية. اقتداءً بإِمَامِ العارفينَ، وسيّد الْمُقَرَّبينَ الَّذِي تفطَّرتْ قدمَاهُ من طولِ القيام في الصلاةِ لِتَمَكُّنِ مَعْرِفتِهِ، وقد ضَلَّ قَوْمٌ، وزَلَّتْ أَقْدامُهُم حينَ ادَّعَوْا المعرفة. وقالُوا بترك الشريعة، وَرَأَوْا ذَلِكَ مِنَ البِر والتقوى. ولم يشعرُوا بِأَنَّ ذلِكَ تعطيلٌ وَكُفْرٌ وحَاشَا المعرفة من ذَلِكَ. قال إمام هذه الطريقة، وسيّد أَهْلِ الحقيقة أبو القاسم الجنَيْد رضِي اللَّهُ عَنْهُ: «الْقَوْلُ بِإِسْقَاطِ الأَعْمَال عندِي عظيمٌ والَّذِي يسْرق ويزنِي، أَحْسَن حالاً عندي مِنَ الَّذِي يقول بإسقاط الأعمال؛ أي الشريعة». قال النقشْبَنْدي: وقد صَدق رضِي اللَّهُ عَنْهُ. فَإن السَّارقَ والزَّانِي عاصٍ بسَرقته وزناهُ. وَلاَ يَصِلُ إلى حَدِّ الكُفرِ. وأَمَّا القائل بسقوطِ الفرائِضِ. وتحليل المحرمات الْمُعْتَقِدُ لِذلِكَ فقد انْسَلَّ الإيمانُ مِنْهُ إسلاَلَ الشَّعْرَة منَ العجِينِ. ثم قال الجُنَيْدُ: «فَإِنَّ العارفينَ أَخَذُوا الأعمالَ مِنَ اللَّهِ». ثم قال: وَلَوْ بقيتُ ألف عام لَمْ أنقُصْ مِن الشريعة ذَرَّةً. ثم قال السَّاحِلِي في آدَابِ المعرفة: الثالث: مُلاَزَمتُه الهيبة، والصعود إلى غايتها. فإنَّ الهَيْبَة مِن أَمَارَات المعرفةِ، كلما ازدادتْ معرفته ازْدادتْ هيْبتهُ. وقد يُعَبَّر عن الهيْبة بالخشية. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾. وقال ﷺ: «أنَا أَعْرفُكُمْ باللَّهِ وأَشدُّكُمْ خشيتهُ». فإن قلت: كَلاَمك يشير إلى المعرفة: محوٌ مطلق. والمَحْوُ المطلق: فَنَاءٌ عن الرُسوم والصفات، والهيْبة مِنَ الرّسوم والصفات. فالجواب أَنَّ المعارفَ، وإِنْ كَانَ بِهَذِهِ المَثَابَة مِنَ الاسْتغرَاقِ فِي معروفِهِ. والاستهلاك في مَوْجُودِهِ لشُهُودِهِ. فَمِنْ عَلاَمَاتِ قرْبِهِ، وإن اخْتُطِفَ عن إحساسِهِ، أَنْ تَبقَى رسومُ الأَدَبِ محفوظة عليه، بحفظ الله تَعَالَى إيَّاها عليْه. وإقامته فيها مقام الحَمْد، فيكون

سِرّه مستغرقاً في شهودِهِ وَرَسْمِهِ. قائماً بوظائف معبُودِهِ مِنَ البُغْيَةِ. وَلِلَّهِ دَرُّ سيدي عَبْد الله الهبطي حيْث قال في مَنْظُومَتِهِ؛ الَّتِي سَمَّاها شَمسَ الضُّحَى:

وثالثُ الفُصُول فِي الشريعَهْ ... لأنَّهَا إلى الهُدَى ذَريعَهْ

فَكُلُّ بَابٍ دُونَهَا مَسْدُودْ ... وَمَنْ أَتَى مِنْ غَيْرِهَا مَرْدُودْ

قَدِ اصْطَفَاهَا رَبُّنَا عَزَّ وَجَلّْ ... بِفَضْلِهِ وَجُودِهِ عَلَى المِلَلْ

طريقَةُ الرَّحْمٰنِ لِلْعَدْنَانِ ... مَحْفُوفَةٌ بِالنُّورِ والرِّضْوَانِ

طُوبَى لِمَنْ أتَى بِهَا لِلْعَرْضِ ... وَالْوَيْلُ لِلَّذِي بِهَا لَمْ يَقْضِ

وَإِنَّمَا أَطَلْتُ الكَلامَ هُنَا؛ لأنّي رَأَيْت كَثيراً مِنَ الْفُقَرَاءِ خَلَّوْا يَدَهُمْ مِنَ الشَّريعَةِ. وَظَهَرَ عَلَيْهِمُ المَسْخُ وَالْبُعْدُ وَالْعِيَاذ بِاللَّهِ مِنَ السَّلْبِ بَعْدَ الْعَطاءِ. ثم حَذَّرَ الشيخ من الوقوفِ مَعَ مُجرَّدِ الْعَقْلِ؛ لأنَّهُ مَعْقُولٌ عن شُهُودِ الأسْرَارِ فَقال:

أَمَامَكَ هَوْلٌ فَاسْتَمِعْ لِوَصِيَّتِي ... عِقَالٌ مِنَ الْعَقْلِ الَّذِي مِنْهُ قَدْ تُبْنَا

قُلْتُ: عِقَالٌ بَدَلٌ مِنْ هَوْل. يقول رضي اللَّهُ عَنهُ: قُدَّامك أيُّهَا السَّائر هَوْلٌ عَظِيمٌ؛ وَهُوَ عِقَالُ فِكْرَتِكَ عَنِ النُّفُوذ إلى مَيَادِين الْغُيُوب، وفضاء الشهود. وهَذَا العِقَال هو عقلكَ، حيْث وَقَفْتَ مَعَهُ. وَلَمْ تُدْرِكْ إلاَّ مَا أَدْرَكَهُ مِنْ صنعة الكَوْنِ. وافتقاره إلى صانعه، ولم تَنْفُذْ إلى مَا وَرَاءَهُ مِن شهودِ المُكَوِّنِ في مَظَاهِرِ مُكَوِّنَاتِهِ. فَإِنَّ أَسْرَارَ المَعَانِي خارجة عن دائرة العُقُولِ وإحَاطَة النُّقُولِ كما قال ابن الفارض في تائِيَّتِهِ:

وَلاَ تَكُنْ مِمَّنْ طَيَّشَتْهُ طُرُوسُهُ ... بِحَيْثُ اسْتَخَفَّتْ عَقْدَهُ واسْتَفَزَّتِ

فَثَمَّ وَرَاءَ النَّقْلِ عِلْمٌ يَدِقُّ عَنْ ... مَدَارِكِ غَايَاتِ الْعُقُولِ السَّلِيمَةِ

تَلَقَّيْتَهُ عَنِّي ومِنِّي أَخَذْتَهُ ... وَنَفْسِي كَانَتْ مِنْ عَطَاءِ مَمَدَّتِي

فَاسْتَمِعْ لِوَصِيَّتِي؛ وَهِيَ لاَ تقف مَعَ تَوَهُّمَات العَقلِ. وتخيُّلاَتِهِ التي تُبْنَى مِنْهَا. وَرَجعنا إلى ربِّنَا، فاشتغلْنَا بِذِكره، ذِكْراً مُتَّصِلاً. وَتَرَكْنَا حُظُوظَنَا ولُحُوظَنَا فأَشْرَقَتْ علينَا الأنْوَار، وَلاَحَتْ علينَا الأسْرَار، فَخَرَجْنَا عن دائرةِ الأكْوَانِ. وأَفْضَيْنَا إلى فَضَاءِ الشهودِ والعِيَانِ بَعْدَ صحبَة المشايخ وخِدْمتِهم وامتثالِ أَمْرِهِمْ، وَلَوْ أَفْضَى إلَى العَطَبِ وتصْديقِ قَوْلِهِمْ. وَلَوْ كَانَ مُحَالاً، كَمَا قَال الشاذِلِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِذَا جَالَسْتَ إِلَى الكُبَراءِ، فَدَعْ مَا تَعْرِفُ لِمَا لاَ تَعْرِفُ؛ لتَفُوزَ بِالسِّرِّ المَكْنُونِ». ثُمَّ ذَكَرَ وبَالَ مَنْ وَقَفَ مَعَ عَقْلِهِ فَقَالَ:

أَبَادَ الْوَرَى بِالْمُشْكِلاَتِ وَقَبْلَهُمْ بِأَوْهَامِهِ قَدْ أَهْلَكَ الْجِنَّ وَالْبِنَّا

الجِنُّ والبِنُّ: قبيلتَانِ مِنَ الجِنِّ، عَمَّرَتَا الأرْضَ قَبْلَ آدَمَ. هَكَذَا وُجِدَ بِخَطِّ النَّوَوِي مِنهُمْ أَسْوَد البُهْمِ، أَوْ سَفَلَة الجِنّ وضُعَفَاؤُهَا، فَقَدْ ذَكَرَهُ في القَامُوسِ ونَصُّهُ: والجِنُّ بالْكسْرِ: حَيٌّ مِنَ الجِنِّ منهُمُ الكلابُ السُّودُ البُهْمُ أو سَفَلَةُ الجِنِّ وضُعَفَاؤُهُم أَوْ كِلاَبُهُمْ أَوْ خَلْقٌ بيْن الجِنِّ والإنْسِ. وأَمَّا البِنُّ: فَقَالَ فِي القَامُوس أَيْضاً: البِنَّة: الرِّيح الطيبة. ثم قال: ومَوْضع بِكَائِلٍ، وَبَلدة بِبَغْدَاد. وحِصْنٌ بالأنْدَلسِ. فَلَمْ يَذكُر أنّه من قبائِلِ الجنّ. لكن مَنْ أَثْبَتَ حجة، ولَمْ يذكُرْهُ فِي مَادَّةِ المقصورِ. يقول رضي اللَّهُ عَنْهُ فِي ذَمِّ الْعَقْلِ لِمَنْ وَقَفَ مَعَهُ، وحَكَّمَهُ في أُمُورِ عقائدهِ: أَبَاد الْوَرَى: أي أَهْلَكَهُمْ وَأَتْلَفَهُمْ بِالمشكِلاَتِ النظرية. رداً وقَبُولاً إذ العَقْلِ إذَا لَمْ يَتَأَيَّد بِأَنْوَارِ الشريعة، وَلَمْ يَقِفْ مَعَ الحِجَابِ الأعْظَمِ؛ وهو النبيّ ﷺ ضَلَّ وأَضَلَّ. وَهَذَا سَبَبُ هَلاَكِ الْمُعْتَزِلَة، والْقَدرِية، والْجَمَامية، وغيْرِهم مِن الطوائف الضَّالة: الاثنين والسَّبعين المفترقة في هذه المِلَّةِ. ومن قِبَلِهِمْ من الفلاسفة، والطَّبَائِعيينَ وأضْرَابهم حيْث لَمْ يتقيَّدُوا بِالْوَحي الإلَهِيِّ. بل اسْتَصْغَرُوهُ كَمَا قَالَ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾، أي وتَهَانُوا بِغَيْرِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾. قيل إنه صادقٌ بالفلاسِفَة. وإنَّهُمُ اعْتَقَدُوا أَنَّ عِنْدَهُمْ مَا يستغنُونَ بِهِ عَنْ عِلْمِ الأنبيَاءِ عليْهِمُ السلامُ. ولَمَّا سَمِعَ بُقراط الحكيم بموسَى عليه السلامُ. قيل لهُ: لَوْ هاجرْت إليه فقال: «نَحْنُ قَوْمٌ مُؤَدَّبُونَ فَلاَ حَاجَةَ إلَى مَنْ يَهْدِينَا». ورَأى بَعْضُ الصَّالحينَ النَّبِيّ ﷺ. فَسَأَلَهُ عَنِ ابنِ سينَاءَ. فقال ﷺ: «إِنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَصِلَ إلى اللَّهِ بِدُونَ وَاسِطةٍ، فَانقَطَعَ عَنِ اللَّهِ». وعلى فَرْضِ وُقوفِهِمْ بَعْد رياضةِ النَّفْسِ، وتهْذيبِهَا، على التجرُّدِ وانكشافِ قُدْسِ حضرَةِ الحقِّ. فَلاَ يظفَرُونَ بالعُبُودية، وَلاَ بالفَنَاءِ في توحيدِ الرُّبُوبيَّةِ، والتخليصِ من لَوْثِ وُجُودِهِم. والشَّأنُ أن تكونَ عيْن الاسْم. لا أن تَعْرِفَ الاسْمَ والْعَيْنَ وإنَّمَا تُقْتَبَسُ من مشكاةِ مَهْبِط الْوَحْي. وانصبابِ أَنْوَار الغَيْبِ. إنَّمَا تَفِيضُ بِواسطةِ درَّة الوجودِ عليه السلامُ. وتظهر سرّ العيان الأحَدِي الأحْمَدِي. فَافْهَمْ. قال شيخ شيوخنا سيدي عبْد الرحمٰن الفَاسِي، رضيَ اللَّهُ عَنْهُ. وَرَضِيَ بِه عَنَّا.

وَالحَاصِلُ: أَنَّ مجرَّد العَقلِ لاَ يُنجِي صَاحِبَهُ. بل يضرُّهُ إنْ وَقَفَ مَعَهُ. وَلاَ يَصِلُ السَّالِكَ إلى اللَّهِ تعالى إلاَّ بِالغَيْبَة عَنْهُ فيتلَقَّى فِي بِدَايَتِهِ مَا يَرِدُ مِنْ قِبَلِ شيْخِهِ بالقَبُولِ وَلَوْ كَانَ مُحَالاً في نَظَرِهِ. فإذا دَخَّله الحَضْرَة، تلقَّى مَا يَرِد عليه مِنْ رَبِّه. وتَرَكَ عَقْلَهُ وَرَاءَ ظَهْرِه؛ لأنَّ نُورَ الْعَقْلِ كَالْقَمَرِ، ونور الْمَعْرِفَة كَالشَّمْسِ وَلاَ وُجود

لنور الْقَمَرِ عند طلوع الشَّمْسِ؛ وهَذَا قَبْلَ كَمَالِ تَصفِيَتِهِ كَمَا يَأْتِي. وقَوْلُهُ: وقَبْلَهُمْ قَدْ أَهْلَكَ بِأَوهَامِهِ الْجِنَّ والبِّنَا. يَعْنِي أَنَّ الْعَقْلَ قَبْلَ الوَرَاءِ؛ أي الإنسان أَهْلَكَ بِأَوْهَامِهِ وتَزيِينِهِ؛ قبيلتين مِنَ الجِنِّ. زيّن لهم الكفر والفسَاد حتى حَارَبَتْهُمُ المَلاَئكة وأَسَارَتْ أَبَاهُمْ إِبْلِيس فأَسْلَمَ وَعَبَدَ في السماواتِ. فَلَمَّا أُمِرَ بالسُّجُودِ لَهُ. فهَمهُ التكبر. فَطُرِدَ وأُبْعِدَ وَلَوْ خَرَجَ عن رأي عَقْلِهِ. ما استعمل القِياسَ الفَاسِد في تَفْضِيل النَّارِ عَلَى الطين. وَبِاللَّهِ التوفيق. وإِذَا كَانَ العَقْلُ مهلكةً. فَعَزْلُهُ وَاجِبٌ. وعليه السُّلُوك. كَمَا أَبَانَ ذلِك بِقَوْلِهِ:

يَقُولُ رضِيَ اللَّهُ عَنهُ: محجَّتُنَا أي طريقنا التي نسْلكُهَا إلى ربِّنَا هي قطع الحِجَا. أي الْعَقْلُ والغَيْبة عَنهُ بالاشتغال بِذِكْرِ اللَّهِ. والفناء فيه. حتَّى تفيض علينا أنوار المواجَهَة والشهود فنَغِيب عَنِ الشاهِدِ في المشْهُودِ. فَلَيْسَتْ طَرِيقَتُنَا طريقة الاسْتِدلالِ: لفَهْمِ الطَّريق. حتَّى نحتاجَ إِلَى الْعَقْلِ إنما هِيَ طريقة أذْواقٍ وَوُجْدَانٍ، يغيبُ الدَّليل في المَدْلولِ. والذَّاكر في المَذْكور، والواصل في الموصُول فَنَسْتَدِل باللَّه على غَيْرِهِ فَلاَ نَجِدُهُ؛ وهذا هُوَ حجُّنا. وغايَة بُغيتنَا. وعَرَفةُ وُقُوفِنا. مَنْ وَصَلَ إِلَيه تَمَّ نُسُكُهُ وَحَجُّهُ. وَمَنْ تَعَوَّقَ عَنْهُ خَابَ سَعْيُهُ. وضَاعَ تَعَبُهُ. وهَذَا أَيْضاً حُجَّتُنَا. وَبُرْهَان مَعْرِفَتِنَا. فَمَا دَامَ السَّالِكُ يَفْتَقِر إلى الاسْتِدْلاَلِ فَهُوَ فِي الطَّرِيق. فَإِذَا اسْتَغْنَى عَنِ الدَّلِيلِ بِشُهُودِ المَدْلولِ عليه وَرُؤيته فقد تحقق وُصُولهُ. وفي الحِكَم: «إِلَهِي كَيْفَ يُسْتَدَلُّ عَلَيْكَ بِمَنْ هُوَ في وُجُودِهِ مُفْتَقِرٌ إِلَيْكَ. أيكُونُ لِغَيْرِكَ مِنَ الظُّهُور ما لَيْسَ لَكَ. حتَّى مَتَى غِبْتَ حَتَّى تحتاجَ إلى دليلٍ يدلُّ عَلَيكَ؟ ومتى بَعُدتَ حتى تكون الآثار هي التي تُوَصِّلُ إِلَيْك؟ وَقولُ الحِكَم: بِمَنْ هُوَ فِي وجوده مُفْتَقِرٌ إِلَيْكَ. يشير إلى حِسِّ الْكَائِنَاتِ. مَعَ أَنَّهَا لاَ وُجودَ لَهَا أَصلاً. إذ المَعْرفة اسْتهلاكُ الحِسِّ في المَعْنَى. وقَالَ الشَيْخ أبو الحسن رضي اللَّهُ عَنْهُ: «كَيْفَ يُعْرَفُ بِالْمَعَارِفِ. مَنْ بِهِ عُرِفَتِ المعَارِفُ». وَأَنْشَدُوا:

عَـجِـبْـتُ لِـمَـنْ يَـبْـغِـي عَـلَـيْـكَ شَـهَـادَةً وَأَنْـتَ الَّـذِي أَشْـهَـدتَـهُ كُـلَّ شَـاهِـدِ

وَفِكْرَة الاعتبار التي فيهَا شَيءٌ مِنَ الْعَقْلِ تَغْمِش عيْنَ البصيرة التي هي مَبْنَى فِكْرَةِ الاسْتِبصَارِ. فلاَ تخلفُ فِكْرَة الاسْتِبْصَارِ إلاَّ بقطع موادِّ العَقْلِ والاسْتِدْلالِ. وقوله: تَتْلُوهُ بَاءٌ. أَيْ وَتَتْلُو مَا ذُكِرَ مِنْ حَجِّنَا وحُجَّتِنَا بَاء الْوَحْدةِ. فَقَدْ تِهْنَا بِهَا. وغِبْنَا فِي بَحْرِهَا عن وُجُودِنَا وَرَسْمِنَا وَعَقْلِنَا وَفَهْمِنَا. ولِلَّهِ درُّ سيِّدي عبد الرحْمن المجذُوب حيْث قال:

يَـا قَـارِئِـيـنْ عِـلْـمَ الـتَّـوْحِـيـدْ هُـنَـا الْـبُـحُـورْ الْـلِّـي تَـغْـبِـي

هَـذَا مَـقَـامُ أَهْـلِ الـتَّـجْـرِيـدْ الْـوَاقِـفِـيـنَ مَـعَ رَبِّـي

وَبَاءُ الوَحدةِ تشير إلى بِي كَانَ، ومَا يكون، في توحيد الأفعَال، وَبِي قَامَتِ الأشْيَاء في تَوْحِيد الذَّاتِ. فَإِذَا غَرِقَ الْعَبْدُ فِي تَيَّارِ بَحْرِ الذَّاتِ. غَابَ عَنْ حُكْم عَقْلِهِ. واسْتَغْنَى بِشُهُودِ رَبِّهِ، عَنِ الاسْتِدْلاَلِ بِعَقْلِهِ. إِذْ لَيْسَ الخَبَرُ كَالْعِيَانِ. ونقطةَ الْبَاءِ يُشِيرُونَ بِهَا إلى نقطة الكَوْنِ. فَإِنَّهُ مَظْهَرُ تَجَلِّي الذَّاتِ. ومُعَرِّفٌ لَهَا. كَمَا عُرِفَتِ الْبَاءُ بِنُقطتِهَا. وقد سَأَلَ الجُنَيْدُ الشِّبْلِي مَنْ أَنْتَ؟ فقال: أَنَا نقطة الْبَاءِ. فَأَجَابَهُ الجُنيْدُ بتحقيق ذَلِكَ. إذ قَالَ:

«أَنْتَ لشَاهِدِهِ مَا لَمْ تَجْعَلْ لِنَفْسِكَ قَدْراً». أَنْتَ محقّق لِمَعْرِفَتي لأَنَّهُ شيخهُ. مَا لَمْ تُثْبِتْ لنفسك وجوداً مَعَ الحقِّ لأَنَّ النقطة لها انفصال عَنِ البَاءِ. وَلاَ انْفِصَالَ للعارِفِ عن مُوجِدِهِ. وَلا للكَوْنِ بِأَسْرِهِ عَنِ التجلّي بِهِ. وقَدْ أَشَار النَّاظِم إلى هَذا المَعْنَى، في قصيدته المشهورة. حيث قال فيهَا:

نُـقـطـةَ الـبَـاءِ كُـنْ إِذَا شِـئْـتَ تَـسْـمُـو أَوْ فَـدَعْ ذِكْـرَ قُـرْبِـنَـا يَـا مَـولَـهْ

ويحتمل أَنَّ يُشِيرَ بنقطةِ البَاءِ هُنَا إلى العبودية؛ وهي التجلّي بالسُّفليات، دون العلويات. فإِنَّهَا سَبَب العِزِّ والارْتِفاع. واللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

ومن وَبَالِ الوُقُوفِ مَعَ الْعَقْلِ أنه يُبْطِيء السَّيْرَ لما قال رضي الله عَنْهُ يُبطُئنَا عَنِ الصُّعُودِ لأنَّهُ، يَوَدُّ لَوْ أَنَّ لِلصَّعيد قَدْ أَخْلَدْنَا.

يقول رضي اللَّهُ عَنهُ في شأْنِ الْعَقْلِ، أَنَّهُ يُبْطِئنَا؛ أي يَعوقُنَا عَنْ الصعود عَنهُ إلى أَسْرَار التوحيد الخاصِّ. بالوقوف مَعَ دَلاَئِلِهِ وَحُجَجِهِ؛ لأَنَّهُ يَرَى أَنَّ مَا أَدْركه لاَ غَاية فَوْقَهُ. وَأَسْرَارُ التوحيد الخاصّ خارجة عن مدارك العقول وإنما كَان يُبْطِئنَا عن الصعودِ مِنْهُ إلى الترقّي في مَدَارِجِ الأَسْرَارِ؛ لأَنَّهُ لا يُحِبُّ أَنْ نُفَارِقَهُ. بَلْ يُحِبُّ بَقَاءَنَا فِي عقالِهِ أبداً.

وكَذَلك العوائد التي تَعَوَّدْنَا بِهَا، لاَ نحب أَنْ نُفَارقهَا. وحُظُوظ النَّفْسِ لاَ تُحِبُّ أَنْ نَخْرُجَ عَنْهَا. بل جميع ذلِكَ يحبُّ أَنْ نَخْلُدَ للصَّعيد؛ أَيْ نُقيمَ فِي عَالَمِ الأشْبَاحِ، وهو عالم الصلصال حتَّى نبقى في قياده مَرْهُوناً مَعَهُ. فيشغلنا العَقل بِعلومِهِ وفهْمِهِ وأوهامه وَأَحْكَامِهِ. وتشغلنا العوائد بالوقوف مَعَها. والنُّفُوس بالعكوف على حظوظها. وكُلُّ هَذَا مَانِعٌ مِن إشراق أنوار التوحيد. والعروج إلى أَسْرَارِ التفريد. فَلاَ بُدَّ مِنَ الخروج عَنِ العَقل وخَرْق العَوَائد، ومُخالفة النّفوس،

وإلاَّ بقينا في عَالَم الأشْبَاحِ مَحْجُوبينَ عَن عَالَمِ الأرْواحِ، مَسْجُونينَ فِي ظُلْمَةِ الأكْوَانِ. عن شهودِ الْمُكَوِّنِ.

تنبيه: مَا ذكرهُ الشيْخُ مِنْ ذَمِّ الْعَقْلِ، إنَّمَا هُوَ لِمُريد سُلُوكِ طريق الأذْواقِ. فَلاَ بُدَّ أَنْ يَنْعَزِلَ أَوّلاً عن عَقْلِهِ وعِلْمِهِ، وفَهْمِهِ، وينظر ما يُشيرِ عليه شيْخُهُ. فَإِذَا زُجَّ بِهِ في نُورِ الحَضرةِ، اسْتَغْنَى بِذَوْقِهِ عَنْ عَقْلِهِ، وَأَمَّا مَنْ قنع بِمَقام الإيمانِ، وبَقِيَ في مَحلِّ الاسْتدلالِ والبُرْهَانِ. فلا بُدَّ مِن اسْتِعْمَالِهِ والاسْتِغْنَاء بِشأنِهِ في اسْتخراج البَرَاهين العَقلية، والنَّقلية. فَمَا عُرفَ الإلَهُ إلاَّ بِهِ. وَلاَ عُبِدَ إلاَّ بِهِ. وفي الحديث: «قِوَامُ الْمَرءِ عَقْلُهُ. وَلاَ دِينَ لِمَنْ لاَ عَقْلَ لَهُ».

وَقَالَ عليه الصَّلاَة والسَّلاَمُ: «المَغبُونُ مَن أخطأَ حَظَّهُ مِنَ العَقْلِ. وَلاَ تَوَصَّلَ النَّاسُ بشيءٍ أَفْضَل منه في الدّنيا والآخرة». وقَال أَيْضاً: «أَساسُ الدِّينِ الْعَقلُ، وسَيدُ النَّاس: أَعْقَلُهُمْ». وقال: «سيِّدُ أَهْلِ الجنَّة بعد الْمُرْسَلينَ: أَفْضَلُهُم عَقلاً. وأَفْضَلُ الناس: أَعْقَلُ النَّاس». وقال: «مَوْتُ أَلْفِ عَابِدٍ صَائِم النَّهَار قَائِم اللَّيْلَ. أَهْوَنُ مِنْ مَوْتِ عَاقِلٍ عَقَلَ عن اللَّهِ أَمْرهُ ونَهْيَه ومَا أَحَلَّ لَهُ، وَمَا حَرَّمَ عَلَيْهِ. وانْتَفَعَ بِعِلْمِهِ ونَفَعَ بِهِ وَإِنْ كَانَ لاَ يَزيد عَنِ الفرائِضِ التي فرضَ عليه كبير زيادةٍ».

وقال ﷺ: «قَسَّمَ اللَّهُ الْعَقْلَ على ثلاثة أقْسَام، فَمَنْ كُنَّ فِيهِ كَمُلَ عَقْلُهُ. وَمَنْ لَمْ يَكُنَّ فيه فَلاَ عَقْلَ لَهُ: حُسْنُ المعرفة بِاللَّهِ. وحُسْنُ الطَّاعَةِ. وحُسْنُ الصَّبْرِ عَلَى أَمْرِهِ». والعَقْلُ على قسْمَينِ: عَقْلٌ مَوْهُوبٌ، وَعَقْلٌ مَكْسُوبٌ. فَالْمَوْهوبُ هو الَّذِي يسْتَعْمِله صَاحِبُهُ فِيمَا يُقَرِّبُهُ إلى اللَّهِ. ويُعَرِّفُهُ بِهِ. والمكسُوبُ: الَّذِي يَكْسِبُهُ العَبْدُ بالتجارب والمِحَنِ. وَيَسْتَعْمِله صاحِبُهُ في أُمُور دنْيَاهُ. واللَّهُ تَعالَى أَعْلَمُ. ثم أَخَذَ فِي ذِكْرِ تَطَوُّرَاتِهِ وتَحويلاتِهِ فَقَالَ:

تَلُوحُ لَنَا الأطْوَارُ مِنْهُ ثَلاثَةٌ ... كَراءٍ وَمَرئِيٍّ وَرُؤْيَةِ ما قُلْنَا

يقول رضي اللَّهُ عَنْهُ: إنَّ العقْلَ يَتَطَّورُ بِاعْتِبَارِ كَمَالِهِ وَنُقْصَانِهِ بِهِ، على ثلاثة أطْوَارٍ: فَتَارة يُنْظَرُ فِيهِ بِاعْتِبَارِ الرَّائي، أي الناظِرِ بِهِ، فَيتطَوَّرُ بِوَصْفِهِ، فَإن كَان النَّاظِرُ بِهِ كَامِلاً، اتصفَ عَقْله بالكَمَالِ، وإن كَان نَاقِصاً، اتَّصفَ بالنقصانِ في الرائِي. باعْتبار عِرْفَانِهِ وإتقانِهِ. وَزُهْدِهِ وَوَرَعِهِ. وصلاحِهِ وكَمَال طَاعَتِهِ، وَقُرْبِهِ مِنْ رَبِّه، أَوْ باعْتِبَارِ جَهْلِهِ وضُعْفَ يَقِينِهِ، وحِرصِهِ وطَمعهِ. وفَزَعِهِ وَفِسْقِهِ، وَبُعْدِهِ من رَبِّهِ.

فالعقلُ يَزْدَادُ نُورُه بِالطَّاعةِ، والنَّزَاهة والْعِفَّةِ. والتفرُّغ مِنَ الشَّوَاغِلِ وينقُصُ بِالمعصية والحرص، وحبِّ الدُّنيا، والحظوظ واتِّبَاعِ الهَوى. كَمَا قال الشاعِرُ:

إِنَارة الـعَـقْـلِ مـكْـسُـوفٌ بِطَـوعِ الْـهَـوَى   وَعَـقْـلُ عَـاصِـي الْـهَـوَى يَـزْدَادُ تَـنْـوِيـراً

وتارةً يُنظر فيها بِاعْتِبارِ الْمَرئِي أي المنْظُورِ فِيهِ. فيتطوّر بِنَعْتِهِ، فإِنْ كَان علوماً نافعة، أَوْ أَحوَالاً سَنِيَّةً، يُريد التجلّي بِهَا. فَيَنْظُرُ فِي سَبَبِهَا. أو مقامات عالية يريد الرُّقيَّ إِلَيْهَا. لِكَمَالٍ، أَوْ مَعْرِفَةٍ كامِلَةٍ يريد الصُّعودَ إِلَيهَا. فيتفكَّرُ بِعَقْلِهِ في معارجِها. فهذا العقل كَامِلٌ لكمالِ المنظور فيه. وهو المُراد بِالمَرْئِيِّ. وإن كَانَ الْمَرْئِيُّ أي المنظورُ فيه ناقصاً. كعُلوم حَدِيثَةٍ. أَوْ فَلْسفية. أَوْ أقوال فاسِدَة. تُسَوِّس بَذْرةَ الإيمان، أَوْ أَنْظَاراً تخييلية أو وَهْمِيَةً لاَ حقيقية. وَقِسْ على هذا. فَهَذَا العَقل نَاقِصٌ باعتبار المنظور فِيهِ.

وتارة النظر بِاعْتِبار مَا قُلْنَا فيما سَلَفَ، فَإِنْ كَان صاحِبُهُ مُريداً طريق الأذواقِ والْوُجْدَانِ. فالنَّظَرِ بِهِ نُقْصانٌ، والوقوف معه خِذلان. وإن كان قاصداً تصحيح مقام الإيمان. على طريق الاسْتِدلالِ والبُرْهَانِ. فَالنَّظَرُ بِهِ كَمَال. وَاعْتباره واجبٌ في البَرَاهِنِ التي لاَ تَدْرك إلاَّ بِهِ في بَابِهِ. وإن أَيَّده بأَنْوار الشريعة. مِنَ الكتابِ والسنة. فهو كمال الكَمَالِ؛ وهذا معنى قوله: تلوحُ: أي تظهر لنا الأطوار منه ثلاثة. تارة يتطوَّرُ كراءٍ بِهِ. وتارة كمرئي فيه. وتارة كرؤية ماءٍ. كما قلنا فيما تقدم من التفصيل. والله أعلمُ. ثم ذكره النَّاظم أطواراً. باعتبار الرأي فقال:

وَيَـبْـصِـرُ عَـبْـداً عِـنْـدَ طَـوْرِ بَـقَـائِـهِ   وَيَـرْجِـع مَـولَـى بِـالْـفَـنَـا وَهُـوَ لاَ يَـفْـنَـى

يعني أنَّ العقل يتطوّر أيضاً باعتبار الرأي في مقام البقاءِ والفناءِ، والسلوك والجذب، فإن كان صاحبه في مقام البقاء الأوَّلِ. وهو مقام الحجاب، أَبْصَرَ العقل. ورَأَى عبداً؛ لأنَّ صاحِبَهُ عبْدٌ. ما بَرح عن مقام العبودية؛ وهو السلوك الأول عند غيْبُوبته. ويُسمَّى مقَام الجذبِ. وهو اختطاف العقل. من شهود الكَوْنِ إلى شهودِ المُكوِّن. أو من شهود الخلق إلى شهود الحقِّ. فالعقل لاَ يفنى بفناءِ صاحِبِهِ. وإنما يتغطَّى نوره بنور شمس العِرْفَانِ. كنور القمر مع الشمس وكما أنه يتغطَّى نوره بالخمرة الحسية. كذلكَ يَتَغطَّى بالخمرة المعنوية الأزلية. فإذا صحَا المريد من سكرته، وخرج من الفناءِ إلى البقاء. رجع نور العَقل إليه. فيميز بِهِ بين الحسّ والمعْنَى. وبين الحِكْمة والقدرة. وبين الشريعة والحقيقة. فيعْطي كل ذي حقٍّ حقهُ. وكل ذي قسْطٍ قِسْطَهُ. فالبقاء بَقَاءَانِ: بقاءٌ أولٌ: وهو بقاء النَّفس. وحقيقته: شهود الخلق بِلاَ حق. وبقاءٌ ثانٍ بقاء بِاللّهِ: وهو شهود خلق بِحَقٍّ. فمراد الناظم: الأولَ؛ لأنَّ صاحبَه عبدٌ محض. وأَمَّا البَقَاء الثاني، فصاحبه مخيَّرٌ. إن رأى إلى نَفْسِهِ رَأَى نفسه عبداً. وإن نظر إلى معناه: رآه مرًّا. فهو يتطوَّر كيْف يشاء: العبودية طوْعُ يَدِهِ. والحرية طوع يدهِ. وهذا هو العارفُ الكامِلِ يطور العقل لوحاً وقلماً. كما أَبان ذَلِكَ النَّاظِمُ بقولِهِ:

وَلَوْحاً إذا لاَحَتْ سُطورُ كَيَانِنَا ... لَهُ فِيهِ وَهُوَ اللَّوْحُ وَالْقَلَمُ الأدْنَى

يقول رضي الله عنهُ: ويبصر العقل أيضاً لوحاً. أي كاللوح المحفوظ إذا لاحت سُطُورُ الكَائِنَاتِ إذا صَفَا وَتطَهَّر نورهُ حتى اتصل بالعقل الأكْبَرِ؛ وهو أَوَّلُ نور فَيَّاض من بَحْرِ الجبروتِ. وفي الحديث: «أَوَّلُ ما خلق اللَّهُ العَقل. فقال له: أقبل، فَأَقبلَ ثم قال له: أدبر فأَدبرَ. ثم قال: فوعزَّتِي وجَلاَلِي لا أُعطيكَ إلاَّ لِمَنْ أَحْبَبْتُ مِنْ عبادِي. وهو حديث متكلَّمٌ فِيهِ بالوضع والضعفِ. ويُسَمَّى أَيْضاً هَذَا العَقْلِ: الرُّوحَ الأَعْظَم، فَإِذَا تَطَهَّرتِ الرُّوح، وَكَمُلَ صَفَاؤهَا، استولى نُورها على الكَائِنَات بِأَسْرِها. فالعَقل والرُّوحُ إذا كمِل تطهيرهما انْطوى فيهما جميع الكائنات وصار كاللوحِ المحفوظ، وإلى ذلك أشار في المباحث الأصلية بقولهِ:

أَعْـقِـلْ فَـأَنْـت نُـسْـخَـةُ الـوجـودِ ... لِـلَّـه مَـا أَعْـلاَكَ مِـن مـوجـودِ

أَلَـيْـسَ فـيـكَ الـعـرشُ والـكُـرسِـيُّ ... والـعَـالَـم الـعُـلْـوِي والـسّـفـلـيّ

مَـا الـكَـوْنُ إلاَّ رجُـلٌ كَـبـيـر ... وأنـت كَـوْنٌ مِـثْـلُـه صَـغِـيـرُ

وقال النظام في بعض أزجَالِهِ:

وَأَنت مرأىً للنظر قطب الزمانِ وفيك يطوى ما انتشر مِنَ الأواني.

وقوله هنا: سُطُور كياننا، أصْله كواننا، فيجمع على أكوانِ وَكِوَانٍ. أي يصير لوحاً، إذا لاَحَتْ سُطور أَكْوانِنَا لصاحبِهِ فيه: أيْ فِي عَقْلِهِ؛ وهو حينئذ اللَّوْح المحفوظ الأدْنَى والقلم الأدْنَى: أي الأصغَر، إذِ الأكبَر هو اللَّوح المحفوظ؛ والقلم الذي يَكتب فيه. ومِن تصرُّفِهِ بالقلمية فِي لوحه ما ذكر الناظم بقوله:

يَـمُـدُّ خُـطُـوطَ الـدَّهْـرِ عِـنْـدَ الْـتِـفَـاتِـهِ ... إحَـاطَـتُـهُ الْـقُـصْـوَى الَّـتِي فِـيـهَـا أُظْـهِـرْنَـا

يقول رضي اللَّهُ عَنهُ: لَمَّا شَبَّه العقل بِالْقَلَم إذَ اتَّصل نوره بِالْعَقلِ الأكْبَرِ يمدّ هذا العقل خطوط الدَّهر، فَيُجَلِّي فيهِ المَاضِي والآتِي والحال. فَكَأَنَّ الأَزْمِنَة قد كَتَبت وسطرت في مرآته، من مدد نُورِه عند التفاتِهِ إِلَيْهَا فيرى الأول عيْن الآخر. والماضي عين الحال. إذ المتجلي في الأزمنة واحد، وهذه إحاطته القصْوى، وغاية إدراكِهِ. وأما تفاصيل كيْفيتها وما يقع فيها مِنَ المقدوراتِ. فمن شأْن الرّبوبية؛ لأنَّا في هذه الأزمنة ظَهَرْنَا، وظَهَر وجودنَا. فلا نعرف وراءه تَفْصِيلاً. وهي سِدْرة منتهى الْعقل، كَما أبَان ذَلِكَ النَّاظمُ بقوله:

أَقَـامَ دُوَيْـنَ الـدَّهْـرِ سِـدْرَةَ ذَاتِـهِ ... ونَـحْـنُ وَوَصْـفُ الـكُـلِّ فِي وَصْـفِـهِ صِـرْنَـا

قلتُ: دُوَيْنَ: تَصْغير دون؛ وهو ظرف لأَقَامَ، والدهر عبارة عن مرور الفلكِ، وسِدْرةَ مفعول أقامَ. ونحن مبتدأ، وصِرْنَا خَبَرٌ. وفي وصفه متعلق بِهِ. يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ فِي شأن العقل الأصْغَرِ، أنه أقَام سِدْرةَ ذَاتِه، ومنتهى عِلْمِهِ، دون إحَاطَة الدَّهرِ. وَمُرورِ أفلاكِهِ. فَلاَ يعرف ما وراءها من الأَسْرَار اللطيفة؛ التي لاَ نهاية لَها وَلا حدّ فوقاً وَلاَ تحتاً، وَلاَ طولاً وَلاَ عَرْضاً، وَرُوي أن ملكاً اسْتأْذَنَ الله تعالى أنْ يصعد في هذه الأسْرَار، الخارجة عن العرشِ. فأَذِنَ لَهُ؛ فطار ثلاثين أَلْفَ سنة. فقال أَيْنَ أَنْتَ يَا رَبّ. فَقَالَ: «أَنَا مَعَكَ»، فَتَابَ وَطَلَبَ الرُّجُوعَ ثم طار ثلاثين أُخرى، فقال: أَيْنَ أَنتَ يا ربّ. فَقَالَ: «أَنَا مَعَكَ» فَتابَ وطلب الرُجوعَ إلى عُشِّهِ فَالعظمة المحيطة بكورة الكَوْنِ لاَ نِهايَة لَهَا.

فالعقل المعقول، مسجُون بمحيطاتِهِ محصور في هَيْكل ذَاتِ صاحبِهِ. فَلا يرى إلاّ حِسّ الكَائنات المحيطة بِهِ ولو تكمل نورهُ واتَّصلَ بنور العَقل الأكْبَرِ لخرجَتْ فِكْرتُهُ عن دائرة الأكوانِ إلى شهودِ المكوّن في دائرة مكوّنَاتِهِ. وفيما خرج عَنْهَا مِنَ الأسْرارِ التي أَحَاطَتْ بِأَفْلاَكِ الأنْوَارِ. مع كَوْنِ العقل عاجزاً عن النفوذِ إلى ما وراء أفلاكِ الدّهر فَقَد حَار النَّاس فِي أَفلاكه، بل وصفه عموماً وخُصُوصاً فَلم يقفُوا على كُنْهِ حَقِقتِهِ. وَلاَ أَيْن محَله؛ وهذا مَعْنَى قولِهِ: ونحن ووصف الكُلّ في وصْفه حِرنَا. وأقرب ما قيل فيه: إنه نور لطيف يُدركُ به العلوم الضرورية والنظرية. قيل: محَلُّه الدّماغ؛ وهو مذهب الفلاسفة. وقيل محله القلْب. لقوله تعالى: ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾. وجمع بعْضهم بيْن القَوْلَيْنِ، بأَن قال: محلهُ القلبُ. ويتصل شعاعه بالدِّمَاغ بدليل أَنَّ الإنسَان إذا ضُرِب فِي دمَاغِهِ، اختَلّ عقلهُ. والله أَعْلَمُ ثم ذكر النَّاظِمُ تطويراً آخر فقال:

يـقـيّـدُ بـالأزْمَـانِ لـلـدَّهْـر مِـثْـلَ مَـا ... يـكـيّـف لِـلأَجْـسَـام مِـنْ ذَاتِـهِ الأيْـنَـا

يقول رضي الله عنه في شَأْن العقلِ أن يقيد الدَّهر بالأزمنة: بالماضي والمسْتقبل والحَالِ. فالحركة التي انْقَضَى من الفلك زمانها ماض. والآتية زمانها مستقبل، والحاضرة زمانها حال ولوْلاَ العقل لاَسْتَوَتِ الأزمنة. أَلاَ تَرى أَنَّ غَيْرَ العاقلِ لاَ شعور له بهذه الأزمنة. فإِذَا صَفَا نور العقل، وتَوجّه لِمَوْلاَه، غَابَ عن المَاضي والمُسْتقبل، واشتغل بعمارة الأرضِ الوَقتَ الذي هو فيه.

وأما العَقل الأكْبَرُ، فما عنده زمان واحد، لرؤيته للمتجلي به؛ وهو واحد. فصاحب الشهود غائب عن الماضِي والمستقبل. والدّنيا والآخرة؛ لاسْتغراقه فِي شهودِ

الحقّ الّذي لاَ يتقيد بزمَانٍ، وَلاَ مَكَانٍ بل هو عيْن الكُلّ موجود في الكُلّ، فافْهم.

ومن كَلاَم شيخ شيْخنا رضي الله عنه في بعض رَسَائِلِه لَنا: إذَا حَصَلَتِ الرؤية، غَابَ الرائي، والدّنيا والآخرة. وغاب كل شيء، إلى آخر كلامِهِ رضِيَ اللّهُ عَنهُ. ومن شأن ذَاتِ العقل أيْضاً، أن يكيِّف للأجسام الأماكنَ والهيآتِ. ويميز بيْن الأشخاص والذّوات، ويعرف ما كان مجموعاً في عَالَم الغَيْبِ. وما هو باق في جَمْعيتِه فِي عَالَم الشهادة. إذ الوجود كله ذات واحِدة وبحر متصل في الحقيقة بالعقل الأصْغَرِ الذي هو فرَقَ ما كان مجموعاً؛ لأنه معقول ومحصور في عالم الحِكمة فَلا يدرك ما غاب عنه في عالم القدرة. وأَما العقل الأكْبَر، ويسمَّى أَيْضاً: الروح الأعظم، فإنه يَرَى الوجود كُلَّهُ ذاتاً واحدة، وَهذه الأشكال والرُّسُوم، تلوينات وتطويرات، للخمرة الأزلية الكُلّية المتصلة بعضها بِبَعض وَهَذَا الذي قصده الشاعر في الشعر المتقدم بقولِهِ:

إلــى وجــود تــرانــي رتــقــاً بــلاَ ابْــتــعَــادٍ وَلاَ اقْــتــرابِ

وإلى هذا التكييف والتميز أشار النَّاظم بقولِهِ: مثل ما يقيد للأجسام أي يقيد الدَّهر بالأزمانِ تقييداً شبيهاً بتكييف الأجسام بالأيْن، والوصف، وقوله: من ذاتِهِ، أيْ منْ ذَاتِ العَقْل وحقيقته الضعيفة كَيْف الأجسام والأَيْن والجهات؟ ولو قوي نوره، لاتَّصَلَ نَظَرُهُ بِكل الجهاتِ. وأَرَادَ بالأيْن هُنَا مَا يَعُمُّ الذَّوات، والأمَاكِن، والصفات، وسائر العوارض الجسْمَانية. واللّهُ تعالى أَعْلَمُ. ومما يُدركه العقل أَيْضاً على سبيل الإجْمَالِ، بعض العوالم العلوية، كما قال النَّاظِم:

وَعَـرْشـاً وَكُـرْسِـيّـاً وَبُـرْجـاً وَكَـوْكَـبـاً وَحَشْواً لِجِسْمِ الكُلّ فِي بَحْرِهِ عُمْنَا

يقول رضي اللّهُ عَنهُ: ومما يُدْركه العَقْلُ أَيْضاً: من العَوَالِم العلوية. العرشُ والكرسِيُّ أي شَخْصُهُ. ويميزهُ على ما أدركه من طريق السَّمْعِ وإلاَّ فَلاَ مُدْرِكَ لَهُ لهذه العَوَالم الغَيْبِية، بمجرَّدِهِ. ويدرك أَيْضاً البُرْجُ والكَوَاكبُ والمنازِلُ؛ وهذا أَمْر مشاهَدٌ بِالْبَصَرِ. وإنَّما شأنُ العقلِ فِيه التفصيل، وتدْقيق ما فيها مِنْ عَجَائِبِ القدرةِ، وأَسْرَار الحِكْمة. ويدرك أَيْضاً الحَشْو الذي بيْنهُمَا؛ وهو الفضاء الّذِي بيْن العَرْش والكُرْسِيّ. وبيْن كل سَماءٍ وسمَاءٍ، وبيْن السَّمَاءِ والأرْضِ؛ وهو الهَوَاء الّذِي نَحْنُ فِيهِ، وهَذَا معْنَى قَولِهِ؛ وحشواً لجِسم الكلّ. أي ويدرك حَشواً، المنسوب لكل جِسْم؛ وهو الهواء الّذِي بيْن الأجسام العُلْوية، وبيْن العلوية والسّفلية. ثم ذكر الشيخ أَنَّ الخلقَ كُلَّهُمْ دائمُونَ، وسَابحونَ في بَحْر أَسْرارِ الذَّاتِ. بقولِهِ: في بَحْره

عُمْنَا. أيْ فِي بَحْرِ الكُلِّ عُمْنَا؛ وهو بَحْرُ الوَحْدَةِ؛ لأَنَّ بَحْرَهَا مُتَّصِلٌ والخلق فيه كالحُوتِ في المَاءِ. وإِن كَانُوا لاَ شعور لَهُمْ بِذَلِكَ فَمَنْ شَعَرَ بِذَلِكَ واتَّسَعَتْ معرفته حتى خَرَجَتْ فِكْرَتُهُ عَنْ دَائِرَةِ الأَكْوَانِ، واتَّسَعَتْ نَظْرتهُ، وَجَدَ الأفلاَكَ تدور فِي الشَّمْسِ والقمر، ويشرقان في فضاءِ قلبِهِ. كما قال النَّاظم في بَعْضِ أَزْجَالِهِ: الفُلْكُ فِيكَ يَدُورْ. وَيَطْلَعْ وَيَلْمَعْ والشموس والبُذُورْ فِيكَ تغِيبْ وتطْلَعْ. وقال غَيْرُهُ:

إِذَا كُنْتُ كُرْسِيًّاً وَعَرْشاً وَجَنَّةً ... وَنَاراً وأَفْلاكاً تَدُورُ وَأَمْلاَكَا

وكُنْتَ مِنَ السِّرِّ المَصُونِ حَقِيقَةً ... وَأَدْرَكْتَ هَذَابِالحَقِيقَةِ إِدْرَاكَا

فَفِيمَا التَّأَنِّي فِي الحَضِيضِ تَبَطُّأً ... مُقِيماً مَعَ الأَسْرَى أَمَا أَن إِسْرَاكَا

أَي إِذَا كنْت أَيُّهَا الآدمي جامعاً لهذِهِ العَوَالِم، وكُنتَ مِنْ عَيْنِ السِّرِّ المَصُونِ. وعيْنِ الكَنْزِ المَدْفون، وعَرَفْتَ أَنَّ هَذَا كَامِنٌ فِيكَ، فَفِي أَيِّ شيْءٍ هَذَا التأخير والتَّوانِي، عن النهوضِ إلى اللَّهِ، بحذفِ عَوَائِدِكَ. وجهادِ نَفْسِكَ، حتَّى تعرف هَذَا ذَوْقاً وكشفاً. وإلى كَمْ تَبْقَى في الحَضِيضِ من عالَم الأشباحِ تَثبّطاً عنِ العُرُوج إلى سَمَاءِ الأرواحِ مقيماً مع الأسَارَى، في أيْدِي نُفُوسِهِمْ تَلْعَبُ بِهِمْ كيف شاءَتْ فما هَذَا إلاَّ الخُسْرَان المبين، أَمَا آن إِطْلاَقَكَ من يَدِ نَفْسِكَ. وعروجك إلى فضاءِ شهودِ ربِّكَ. وفي الحِكَم: وَسِعَكَ الكَوْنُ مِنْ حيْث جثمانيَّتُكَ، ولم يَسَعْكَ مِنْ حيْث ثبوتُ رُوحَانيتُكَ، وباللَّهِ التوفيق، ثم ذكر النَّاظم فِي تطوير العَقْلِ أيْضاً:

وَفَتْقٌ لأَفْلاَكٍ جَوَاهِرَهُ الَّذِي ... يُشَكِّلُهُ سِرُّ الحُرُوفِ بِحَرْفَيْنَا

قلت: فَتْقٌ: مبْتدأ، وخبره محذوف، أي من شأنه فتْق. والمسَوّغ: العمل وجَوَاهِرَهُ مفْعُول بِهِ. والضمير للأفلاك. والمراد بها الجنس. ولو قَال جَوَاهرها التي يُشَكِّلها لكَان أَحْسَن. يقول رضي اللَّهُ عَنْهُ: ومِن شَأْنِ هِذَا الْعَقل: أَنْ فَلَّقَ الأفلاك الدَّائرة بكرة الأرضِ. جواهرها. بِأَن أدرك محاسنَها، وخواصها من مَنَافعها ومضارهَا. بقدرة الحكيم العليم لاَ على ما يزعمهُ أَهْل التنجيم. فقد جعل الحق سبحانه بقدرته وحِكمتِهِ لكلِّ فلكٍ خاصية يقع بها التصرف في هذا العالم السُّفلي. وفي الحقيقة. إنَّما التصرف لله الواحد القهَّار. وإنما ذلكَ منها أَمارات وعَلاَمَات، كما جعل في العشب، وجعل لنزول المطرِ أَمَارة، وغير ذلك مما هو مقرر في عِلْم الحِكْمَةِ، فَإِنَّ عَالَمَ الحِكمة مبنيٌّ على الأسباب، والعِلَلِ، والحكم. وعَالَم القدرة في لحظة بِغَيْرِ عِلةٍ، وَلاَ سَبَبٍ لكن لِكلِّ قدْرة حِكْمة؛ وهي رداؤها وصوانها في هذه الدَّار؛ التي هي محلّ التكليف. ويسمى في الاصطلاح عَالَمُ الحِكْمة عالَمُ

الخلق، وعَالَمُ القدرةِ: عَالَمُ الأمْرِ. كما قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾. فَعَالَم الخلق بالتدرج والأسباب. وعالَم الأمر كُن فيكون. لا يَبرز شيء من عَالَم الأمْرِ إلا بِرِدَاءِ عَالَم الخلق إلاَّ ما كَانَ من الخوارق، كالمعجزات والكراماتِ في هذه الدَّار. الحكمة ظاهرة والقدرة باطنة. وفي دار الآخرة بالعكْسِ، القدرة ظاهرة والحِكمة باطنة، لاَ تصرّف لَهَا. فلذلك تظهر الخوارق للعام والخاصّ؛ لأنها دار التصريف. وهذه دار التكليف. لتَظْهَر مزية الإيمان بالْغيب هُنَا. وهذه الجَوَاهر أي الخَوَاصّ التي فتقها العَقْل بِالأفلاك إما يشكلهَا في الأفلاكِ. ويَبْرز منْهَا ما يَبْرز. فسِرّ الحروف الهجائية وكذلك الدَّراري السبعة لها خَوَاصّ وطبائع، على ما زعَمَه أَهْل التنجيم؛ ولها حروف من حروف العَجَم، تتصرف في باب الحِكمة، التي مَحَلُّها الظواهر. وأمَّا في الباطِنِ، فما ثَمَّ إلاَّ اللَّهُ.

وقول النَّاظم بِحَرْفينَا. لعَلَّهُ يشير إلى حرف الألفْ والباءِ. فإن جُلَّ أَسْرار الحروف راجعة فِي المعْنَى إِلَيْهِمَا؛ لأَنَّ الألف يشير إلى وحدةَ الذَّاتِ والباء تشير إلى وحدة الصفاتِ والأفعال: إِنِّي أنا الواحد الأَحَدُ بِي كَانَ وبي يكون إلى الأبَدِ. وقول الشيخ زروق، يشير إلى اسْمه الظَّاهر والباطن لا مُنَاسبَة لهُ في هَذَا المقام، فهو بعيدٌ. واللَّهُ تعالى أَعْلَمُ. ثم ذكر النَّاظِمُ حكْماً آخَرَ للعَقْلِ فَقَالَ:

يُفَرِّقُ مَجْمُوعَ الْقَضِيَةِ ظَاهِراً   وَتُجْمَع فَرْقاً مِنْ تَدَاخُلِهِ فُزْنَا

يقولُ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ: ومن شأن العقل أيْضاً أَنَّهُ يُفَرّق مجموع القضية، أي يُفَرّق ما أصْله مجموع في قضية الخَمْرَة الأزلية. ففي الحقيقة، الوجود كله مجموع، ذات واحدة، وبَحْرٌ واحد متصل أوله بآخِرِهِ وظَاهره بباطنه وإنما جَاءَ تَفْريقهُ في الظَّاهر من ناحية العَقل، لقصر إدْرَاكه. فَإنما أَدرك الفروقات الكونية الحسية. وفاته المعاني المتصلة القديمة الأزلية. وهي المراد بمجموع القضية. ففرقُهَا ظاهره. وهي مجموعة في فَرْقِهَا.

وهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ: «وتجمع فَرْقاً» فالجملة حالية، وفَرْقاً حال من ضمير تجمع: أي يُفَرِّق مجموع الخمرة الأزلية ظَاهراً، والحال أنها تجمع في حال فَرْقِهَا، فهي مفروقة ظاهرة مجموعة باطناً. ومن أَجْل تداخل فَرْقها في جَمْعِهَا وجمعها في فَرْقها فُزْنَا بالمعرفةِ الكَامِلَة، حيث مَيّزنَا بَيْنَهمَا، فَأَنْزَلنا الفَرْقَ فِي مَحَلِّهِ، وهو عَالَم الحِكمة والجمعَ في مَحَلِّهِ. وهو عَالَمُ القُدْرَةِ وعالَمُ الذَّاتِ. وكثيرٌ مِنَ النَّاس التبسَ الأمرُ عليْهِم. فَوَقَفُوا مع الفَرْقِ المحْضِ. وحجبُوا بِهِ عَنِ الجَمْعِ. وبعضهم غَرَقُوا

فِي بَحْرِ الجَمْعِ، وحجبُوا عن الفَرْقِ. وهو نقصان بِمَحْضِ جذبِهِ، أَوْ زَنْدَقتِهِ إِنْ كَانَ له سلوك. وبالله التوفيق. ثم قال النَّاظم رضي اللَّهُ عَنْهُ:

وَعَـدَّدَ شَـيْـئـاً لَـمْ يَـكُـنْ غَـيْـرَ وَاحِـدٍ   بِـأَلْـفَـاظِ أَسْـمَـاءٍ بِـهَـا شَـتَّـتَ الْـمَـعْـنَـى

قلت: هذا تقرير لمَا قبله، وتتميم لهُ. يقول رضي اللَّهُ عَنْهُ: ومن شأن العَقل المعقول. أنه عدَّدَ شيئاً؛ وهو الوجود الحقيقي، وكثَّر فُرُوعَهُ، مَعَ أَنَّهُ لم يَكُنْ فِي الحقيقة إِلا شيئاً واحِداً، أَوْ ذَاتاً واحدةً. قال الشَّاعِرُ:

هَـذَا الـوجـود وإن تـعـدد ظَـاهـراً   وحـيـاتِـكـم مـا فـيـه إلاَّ أَنْـتُـمُ

ومعْنَى قوله: وعدَّدَ: أي اعتقد تعديده وكثرتهُ. مع كونه واحداً في الأزلِ. كَانَ اللَّهُ وَلاَ شَيْءَ مَعَهُ. وهو الآن على ما عليه كَانَ. وإنما تعدَّد هَذَا الشيْء الواحد عند العَقْل بسَبب ظهور ألفاظ الأسماء لمسَمَّيَاتٍ متعددة. كالسَّماءِ والأرضِ والعرشِ والكرسي، وأَسْمَاء أَنْوَاع الحيواناتِ، والجَمَادات، فلكل شخصٍ جزئي من هَذَا الوجودِ اسم يخصّه، ليتميَّزَ بِهِ وفي الحقيقة إِنما هي تجليات، ومظَاهر، للواحد الأحَدِ، وفروع وتلوينَات للخمرَة الأزلية.

وَفِي ذَلِكَ يقول الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي اللَّهُ عَنْهُ، ونَفَعَنَا بِبَرَكَاتِهِ:

تَـجـلَّـى حَـبِـيـبـي فِـي مَـرَائِـي جَـمَـالِـهِ   فَـفِـي كُـلِّ مَـرأىً لـلـحـبِـيـبِ طَـلائِـعُ

فَـلَـمَّـا تَـبـدَّى حُـسْـنُـهُ مـتـنـوِّعـاً   تَـسَـمَّـى بِـأَسْـمَـاءٍ فَـهُـنَّ مَـطَـالِـعُ

وقوله: بما شَتَّتَ المَعْنَى أي بسبب تَعَدُّد هذه الأشياءِ، مَعَ أَنَّ المسمَّى واحد. فرّق العَقلُ المَعْنَى أي اعتقد تفريقها ظاهراً؛ وهي مجموعة متصلة باطِناً. فبحر المعاني متصل، وأمْواجه متفرقة؛ وهي مِنْهُ، بل عيْنهُ. والمراد بالمعْنَى: السِّرّ الأزَلِي اللطيف. القائم بالأشياء الحسية. السَّارِي فيها. والأشياء الحسية. إِنما هي تكلف للمَعْنَى اللطيف، الذي هو الخمْرة الأزَلي، فلولاَ الحسّ، ما ظهرتِ المعْنَى. ولولاَ المعْنَى، ما قام لِلأَشياءِ وجود فالأشياء الحسية، حاملة للمعاني، ولهذا قال النَّاظِم في بَعْض أَزْجالِهِ:

لاَ تَنظر للأوَانِي، وخُضْ بَحْرَ المعاني، لعلكَ تَرَانِي. وقال ابن الفارض في خمريته رضي الله عَنْهُ:

ولـطـف الأوانـي فـي الـحـقـيـقـة تـابـع   لِلُطفِ المَعَانِي والمعاني بِهَا تَسْمُو

والمعاني تَسْمُو أي تظهر وترفع بالأواني فلا ظهور لها منها فَافْهَمْ واصْحَبِ الرجَالَ. حتى يُدْخِلوكَ بِلاَد المَعْنَى، فتفُوزَ بالحِسّ والمَعْنَى. وللشَّيخ زرُّوقَ هنا خبطٌ يدلّ على أنَّه لم يدخل بِلاَدَ المَعَانِي وما فتح عليه فيها إلاَّ في آخِرِ عُمُرِهِ كما تقدَّمَ. وبالله التوفيق. ثم قال النَّاظمُ:

وَيَعْرُجُ بِالمِعْرَاجِ مِنْهُ لِذَاتِهِ لِتَطْوِيرِهِ العُلْوِي بِالوَهْمِ أَسْرَيْنَا

يقول رضي الله عنهُ: ومن شأنِ العقل أيْضاً، إذا اتَّصلَ بالطبِيبِ المَاهِرِ أَن يَعْرُجَ، ويُرفعَ عن عَالَم الحسِّ إلى عَالَم المَعْنَى. ومن عَالَمِ الأشباحِ، إلى عَالَمِ الأرْوَاحِ. ومن شهودِ المُلْكِ إلى شُهُودِ الملكوتِ والجَبَرُوت. وذلك بَسبَبِ عروجه عن رؤية حسِّه، إلى شهودِ مَعْنَاه. فالعروج والارْتقاء إنما هو منهُ إِليْهِ. وهذا معنى قَوْلِهِ: منهُ لذاتِهِ أي من شُهُودِ حِسِّهِ الظاهر، لِرُؤْية ذاتِهِ الحقيقة المعنوية. فليْس الأمْرُ عنك خارجاً كما قال النَّاظم فِي بَعْضِ أَزْجَالِهِ:

وَإِلَيْكَ وَأَنْتَ مَعْنَى الخَبَرْ وما دونك غَيْرياً محل الفقر

أي الذَّاتُ. وإنما جاءهُ هذا الرفع والعروجُ المذكورُ لتطويره بالمقام العلوي، وهو محل الشهود والعيَان الذي هو مقام الإحسان. وإذا حققت الأمر لاَ تجد ارْتفاعاً وَلاَ عروجاً؛ لأن الحق كَان وحدهُ؛ وهو باقٍ وحْدَهُ. لكنَّ الوَهْمَ أَثبتَ الغَيْرية والأثنية فإذا ارْتَفَعَ الْوَهْم، والجَهْلُ، لم تجد إلاَّ الواحد الأحد في الأزَلِ. وفيما لاَ يزال. ما تجلَّى بِهِ في الأزلِ، هو ما تجلَّى في الأبَدِ، من غَيْر زيادة وَلاَ نقصانٍ. إذا وقَعَتِ الغَيْبَة عَنِ الأشكالِ والرّسوم التي هي وَرَاءَ الْكِبْرِيَاءِ. وهذا مَعْنَى قَوْلِهِ: بالوَهْم أَسْرَيْنَا أي إنما أَسْرَيْنَا وارْتَقَيْنَا، وثبت لنا ذلِكَ بسبب الْوَهْم. وأمَّا لَوِ ارتَفَعَ الوَهْم وثبت الحقُّ، لم يَثْبُتْ لأحَدٍ ارتِقاءٌ ولا عُرُوجٌ، وهذا الوهْمُ وإن كَانَ عَدَمياً فَهُو حاصل فِي عَالَم الحكمَة، وثبوته حق بِهِ وَقَعَ الحجاب لجلّ النَّاسِ. فهو نَوْع من قَهْرية الحقّ. الذَي قَهَرَ بِهَا عبادهُ كما قال في الحِكَم: «مِمَّا يَدُلك على وجودِ قَهْرِهِ. أَنْ حَجَبَكَ بِمَا لَيْسَ بِمَوْجودٍ مَعَهُ». وَباللَّهِ التوفيق، ثم ذَكَرَ النَّاظِم نُزُوله لِلْعُبُودية، بالقيام بوظائف الربوبية فَقَالَ:

وَيَجْعَلُ سُفْلِيّاً وَيوهِمُ أَنَّهُ لِسُفْلِيّهِ الْمَجْعُولِ بالذَّاتِ أَهْبطْنَا

يعْني أَنَّ العقل تارة يَرْتَقِي علوياً بعروجِهِ، مِن أَرْضِ الأشباحِ، إلى عالم الأرواح، في مقام الفَنَاءِ، وتَارة يُجعل سُفْلياً بنزولِهِ من سَمَاءِ الحقوقِ إلى أَرْض الحظوظِ. للقيام بِآدابِ العبودية، في مقام البقاءِ ويُوهم إِذَا نَزَل إلى السّفليات أنه

المَجْعول سُفلياً بالذَّات حقيقة. وليس كذلِكَ. وإنما هو تنزّل وإظهار للعُبُودية مع كُوْنه علوياً حقيقة ذاتية. لأَنَّ هَذَا إنما هو تلوين للخمرة الأزلية تظهر التنزيل منها إلَهِيّاً، فهي علوية في سفليِّها رفيعة في وَضْعِهَا. قال شيخ شيوخنا سيدي على الجَمَلِ رضي اللّهُ عنهُ: «انظر يا أخِي وتَأَمَّلْ هذه الخمرة كيْف كَمَلت فيها الأوصاف، وتوفَّرَتْ فيها الشروط، وكيْف كَمُل نُقصانها، كما كَمُل كمالها. سبحان من أظهرهَا بالكَمالِ في النَّقْصِ والكمال حتى صار الكُلّ كَمَالاً وَلاَ نَقْصَ». وكذلكَ «أُنظر يا أَخِي ما أَقرَبَهَا فِي بُعْدهَا. وَمَا أَبعدها في قُرْبِهَا، وما أَرْفعها في سُفليِّهَا. وما أَوضعها فِي علوِيِّها. وما أَكْبرهَا في صغرها. وما أَصْغرها في كِبَرِهَا. وَمَا أَقواها في ضُعْفِهَا. وَمَا أَضْعَفَهَا فِي قُوَّتِهَا. وَمَا أَغْنَاهَا فِي فَقْرِهَا. وَمَا أفقرَهَا فِي غناهَا. وَمَا أعزَّها عَلى نَفْسِهَا، وَمَا أَذَلَّهَا لنَفْسِهَا وما أَعْظَمَ قدرتها على نفسهَا، وَمَا أَضْعَفَ عجْزَها عن نَفْسِهَا» إلى آخِرِ كَلام رضي اللّهُ عنهُ. والمراد إنَّها تُسْتَر في حَالِ تجلّيهَا فَتُظهر من نَفْسِهَا النَّقْصَ؛ وهي في غاية الكَمَالِ لِيَبْقَى السِّرُّ مَصُوناً. والكَنْزُ مدفوناً. وقوله أُهْبِطْنَا لعله حذف قُلْ أي يُوهم أنه المَجْعول بالذَّات سُفلياً، ويُوهم أنه قد أُهبطنا من عُشّ الحَضْرَة الْعلية إلى أرْض الحظوظ السّفلية. مع أَنَّنَا لَمْ يَقَعْ لنَا هُبُوطٌ. إنَّمَا هُوَ شَرَف، وزيادة فِي الارْتقاءِ؛ كَأَنَّ المُرِيد كُلَّما نَزَل لأَدَاءِ الحقوق، ارْتفعَ وارْتَقَى إلَى دَوَام الشهودِ، لأَنَّهُ يَنْزِل بِالإذنِ والتمكين، والرسُوخ في اليقين. لاَ فِي المُتْعة والشهوة، والله أعلمُ بمرادِ الشيخ بقولِهِ: أهبطنَا، وأظنه تَصْحيفاً. إذْ لَيْسَ فِي يَدِنَا إلاَّ نسْخة مصحَّفَة ومن ظَهَرَ لَهُ غيْر ما قلْنَا فليلحقه بِالطُّرَّةِ، وأَجْرُهُ على اللّهِ.

ثم قال النَّاظِمُ:

يُـقَـدِّرُ وَصْـلاً بَـعْـدَ فَـصْـلٍ لِـذَاتِـهِ وَفَـرْضَ مَـسَـافَـةٍ يُـجَـدُّلَـهَـا الـدَّهْـنَـا

قلت: وفرض عطف على وصْلاً. ويُجدُّ بالذَّالِ المعجمَة يقطع، والدَّهْنَاءِ بِالْفَتْح والمَدِّ ويُقصر: الفلاة كما في القاموس. يقول رضي الله عنهُ: ومن شأن العَقْلِ أنه يقدر الوصول إلى حضرة الحق بعد انْفِصَالٍ، كان بَيْنَه وبَيْنَها. وهَذَا من جُمْلة وَهْمِهِ. إذ لاَ انفِصَال وَلاَ بينونَة بيْنَ العَبْد وَرَبِّهِ، وإنما جَهْله هو الذي بَعَّدَهُ في حال قرْبِهِ، وفَصَله في حال وَصْلِهِ. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾. وفي الحِكَم: «لاَ مَسَافَةَ بيْنكَ وبيْنَهُ حَتَّى تطويهَا رحلتكَ. وَلاَ قَطيعة بيْنك وبَيْنَهُ حتى تمحُوهَا وَصْلَتك». وقال أَيْضاً: الحق ليْس بمحجوب عنكَ. إنما المحجوب أَنْتَ عن النظر إليه. إذْ لو حجَبَه شَيْء

لسَتَرَه ما حَجَبَهُ. ولو كَان له سَاتر، لكَان لوجوده حاصِر. وكل حَاصِرٍ لشَيْءٍ فهو لَهُ قاهِرٌ: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾. وقال أَيْضاً: «كَيْفَ يَحْتَجِبُ الحقّ تَعَالَى بِشَيْءٍ. والذي احْتَجَبَ بِهِ هُوَ فيه ظاهر، وموجود حَاضِرٌ. فتحَصَّل أَنَّ الحق تَعَالى لاَ حَائِلَ بيْنَكَ وَبَيْنَهُ. وَلاَ فَصْلَ وَلاَ بينونة، كما قال الْقَائل:

فَـلَـمْ يَـبْـقَ إِلاَّ الـلَّـهُ لَـمْ يَـبْـقَ كَـائِـنُ ... فَـمَـا ثَـمَّ مَـوْصُـولٌ وَلاَ ثَـمَّ بَـائِـنُ

فَالْعَقْل لضعفه هو الَّذِي يُقَدّر الوصلَ، بعد الفَصْل لذاتِهِ عن حَضرة الحقّ. وَيُقَدّرُ أَيْضاً: فرضِ مسَافات وَمَهَامِه بيْنَهُ وبيْن الوصول إلى الحق، يقطع لأجْلها الفلوات والمفاوز من الأرْضِ. وهذا كُلّه اسْتعارة وكناية عن قطع مَألوفَاتِ النَّفس وَعَوائِدِهَا. والخروج عن الطبع البَشري الذي يحجب عن شهُودِ الحقّ، والنفوذ من شهُود حسِّ الكَائنات إلى مَسافة المَعَانِي. قال الشطيبي رضي اللَّهُ عنهُ في شَرْحِ الحِكَم: واعْلَم أن طريق اللَّه تعالى، لَيْسَ فيه مَفَازة، وَلاَ متاهة، بل هي مَنَازلُ وأَحْوالٌ، قد جعل اللَّهُ لجميعها أَعْواناً وأَنصاراً؛ وهو سبحانه يصدق وَعْدَهُ، وَيَنْصُر عبْدهُ. ويَهزم الأحزابَ وحْدَهُ. وإنما المَفَاوزُ والمَسَافات في الرّكُونِ إلى المَألوفاتِ واتباع العادات. وفي مسامحة النَّفْس في الوقوف مع الحسِّ والحَدَس. وعن كشف الغطاء يتبيَّن ذَلِكَ. وعن قطع هذه المألوفات ورياضة النَّفْس عبَّرُوا بالسَّيْر والمَنَازل والمَنَاهل، كما قال في المباحث:

وَإِنَّـمَـا الـقَـوْمُ مُـسَـافِـرُونَـا ... لِـحَـضْـرَةِ الـحَـقِّ وَظَـاعِـنُـونَـا

فَـافْـتَـقَـرُوا فِـيـهِ إِلَـى دَلِـيـلِ ... ذِي بَـصَـرٍ بـالـسَّـيْـرِ وَالْـمَـقِـيـلِ

قَـدْ سَـلَـكَ الـطَّـرِيـقَ ثُـمَّ عَـادَا ... لِـيُـخْـبِـرَ الْـقَـوْمَ بِـمَـا اسْـتَـفَـادا

ومن شأْنْ العَقْلِ أَيْضاً، إِثباتُ المَعيَّةِ، وَالاثْنَيْنِيَّةِ، بِمشفْعية الآثَارِ. كما قال النَّاظِمُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

يُـجَـلِّـي لَـنَـا طَـوْرَ الْـمَـعِـيَّـةِ شَـكُّـهُ ... وَإِنْ لَـمَـعَـتْ مِـنْـهُ فَـتُـلْـحِـقُـهُ الْـمَـيْـنَـا

وَيُـلْـحِـقُـهَـا بِـالـشِّـرْكِ مِـنْ مَـثْـنَـوِيـةٍ ... يَـلُـوحُ بِـهَـا وَهُـوَ الْـمُـلَـوَّحُ وَالْـمُـثْـنَـا

قُلْتُ: شكُّهُ: فَاعل يُجلّي. وأَطْلَقَ الشَّكَّ هُنَا على مُجَرّدِ الْوَهْمِ، وَفَاعِلُ لَمَعَتْ مَحْذُوف. أي أنوار الخلائق. والمَيْن: الكذب الملوّح. اسم فاعلٍ، والمثَنَّى بِضَمّ الميم اسْمُ مفعول. والجملة حَالٌ. يقول رضي اللَّهُ عَنْهُ: يُجَلِّي أَيْ يُظْهِرُ نُورَ العَقلِ لنا طوْر المعية. أي وُجودها وثبوتها وذلكَ أَنّهُ لمَّا أَثبتَ الأثَرَ، وأثبت نَفْسَهُ

مَعَ اللَّهِ لزمَهُ وُجُود الْمَعِية، والأثنينية. وهي حَال عند المحققينَ من أهْلِ التوحيد الْخَاصِّ. قال في الحِكَمِ: ما حجبك عن الله وجودُ موجودٍ معَهُ. إذ لاَ شيْءَ مَعَهُ. وإنما حجبك تَوَهُّمُ موجودٍ معهُ. وقال أيْضاً: الأكْوَان ثابتة بإثباتِهِ. ممحوة بِأحدية ذاتِهِ. وإن لمَعَت من العَقل أنْوَار تلك الحَقَائِق، مَحَتْ تلك المعية، وأَثْبَتَت الوجود لِلْواحِدِ الأحَدِ. فَتُلْحِقه الْمَيْنَ والكَذب في اعتقاد المعية والإثنينية. وتثبت الْوَترية للوِتْر الفَرْد. قال الناظمُ في بَعْض أزْجالِهِ.

وَبِرَوْحِ وَرَاحِ عَادَ شفعي وتري. أي وبِرَوْحِ الوصالِ، وشُرْب خَمْرَة الأزل؛ صار شَفْعِي؛ وهو اعتقاد وجودي مع الحقّ وتري، حتى امتحى وُجُودي فِي وُجُودِهِ. فثبتَتِ الوترية التي كَانَتْ وَلَمْ تَزَلْ وإنما وَهْمُ العَقلِ أثبت ضِدّهَا. فَإن قلت: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾. بصحبة المَعِيَّة، سواء قلنا بالذَّاتِ أو بِالْعِلْمِ قُلْنَا: الخطابُ وَارِدٌ فِي عَالَم القدرة، إلى عَالَم الحِكْمةِ وهو محلُّ التشريع. وعالَمُ الحِكمة هو عالَمُ الأشْباحِ ويُسَمَّى عالَمَ الفَرْقِ، وعَالَمَ الأثَرِ، وعَالَم الحسِّ، وعَالَم المُلْكِ. أثبته تَعالَى بِحِكمَتِهِ لِتظهَرَ فيه آثَارُ صفاتِهِ وَأَسْمَائِهِ، وتظهرَ فيه آداب العبُودية للرُّبوبية إذ المَلِكُ بِلاَ رعية نَاقصٌ. فأَثبتَها فَرْقاً، ومحاها بِأَحدية ذاتِه جَمْعاً. فأهل الحقائق ينظرونَ لعَالَم القدْرةِ. ويُسَمَّى عَالَم الْمَعَانِي، وعَالَم الملكوتِ. فَلاَ يَرَوْنَ إلاَّ اللَّهَ.

وأَهْل الشرائع يَنظرون لعَالَم الحِكْمَة، فيُثْبتُونَ الأثَرَ والمُؤَثِّر. وعليه وَرَدَ الخطاب بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾. قال العارف الرَّبَّانِي، الإمام الْوَرتَجبي رضي اللَّهُ عنه مَا نَصُّهُ: في هَذه الآية مَقَامَانِ: مقام الجمع، وَمقام إفراد الْقِدَمِ عَنِ الحُدُوثِ. فَمن حيْث الوَحدة والقِدَمُ، تتصاغر الأكْوانُ، فِي عِزَّة الرَّحْمَن. من سطوات عظمته، حتى لاَ يَبْقَى أثرهَا، ثم قال: ومن حيْث الجمْعُ، بإثر نور الصفة، نور العقل، ونُورُ الصِّفَةِ قائم بِالذَّاتِ. فتجلَّى بنورِه لفعلِه من ذاتِهِ وصفاته. ثم يتجلى من الفِعْلِ، فترى جميع الوجود مِرْآةَ وجودِهِ، وهو ظَاهر بكلِّ شيْءٍ، من كل شيءٍ، لِلْعُموم بالفعل، وللخصوص بِالاسْم والنَّعْتِ، ولِخُصُوصِ الْخُصُوصِ بالصفاتِ. وللقَائِمِينَ بمشاهَدَة ذاتِه بِالذَّاتِ. وهو تعالى مُنَزَّهٌ عن البَيْنونية، والحلول، والافراق، والاجتماع، وإِنَّمَا هُوَ ذَوْق العشق، وَلاَ يعلم تأويله إِلاَّ اللَّهُ.

وحاصلُ كَلاَمِهِ أَنَّ المعية بِذَاتِهِ لذَاتِهِ مِنْ ذَاتِهِ. وَلاَ يَفْهَمها إلاَّ العَاشقعونَ، أهْل الفناء والبَقاء. وقوله: ويلحقها بالشركِ؛ أي يلحق العَقل المعية التي أثبتها

بِوَهْمِهِ بالشركِ الجليّ عند أهْلِ الفَنَاءِ من أهْلِ الباطِنِ. وبالشرْكِ الخفِي، عند أهْلِ الظاهِرِ من مثنوية، أي من أَجْلِ مثنوية الأثَرِ؛ الذي أثبته مَعَ الحقّ. يُلوّح أي يُظهر بها ويعتقدها وَهْماً وجَهْلاً. وهذا في عَالَم الحِكْمة، وهُوَ عالمُ الْفَرْقِ، وعَالَم التَّشْريع. وأمَّا فِي الحقيقة؛ فهو المُلَوِّح أي المُظهر للإثنينية سرَّ الأسرار رُبُوبيته. أَن تُبْتَذل بالإظهار. ويُنَادى عليها بِلسَان الاشتهار؛ وهو أيْضاً المُثْنَى، الَّذِي صارَ شفعاً بِاعْتبارِ الأثَرِ؛ فهُو الظَّاهِرُ في بُطُونِهِ، والباطن في ظهورِه. وباللَّه التوفيق. ثم ذَكَرَ النَّاظم حجابَ العَقْل والرّوح عن سِرّ الوحدة. بعد أن كَانَتْ عَارفة بِهَا فَقَالَ:

فَنَحْنُ كَدُودِ الْقَزِّ يَحْصُرُنَا الَّذِي صَنَعْنَا لِدَفْعِ الحَصْرِ سَدْنٌ لَنَا مِنَّا

يقولُ رَضِي اللَّهُ عنهُ: فنحْن كَدُود الْقَزّ أي دود الحرير؛ لأنها تبدو أولاً ظَاهِرة مُطلقة لاَ حجاب عَلَيْهَا، ثم تنسِج على نَفْسها مِن حَريرِهَا. كذلكَ الأرْوَاح الإنْسَانية، تبرز لهذا الْعَالَم على الفِطْرة الأصْلية لاَ حجَابَ عَلَيْهَا. ولذَلِكَ نَرى الصّبْيَانَ ينطقون بالمغيباتِ، وبالحِكَم الباهرة، فَإذا بَلَغت الرُّوحُ. وكمل عَقْلُهَا نظَرت إلى هَذَا الْعَالم السّفلِي. وعشقت فرُوقه. وتاهَتْ فِي حُظوظها وشهواتها، فكلما زَادَتْ فِي تيَاهِهَا. تَرَاكَم حجابُهَا. فمنها من يتراكمُ عليها حجاب الظلمة. كظلمة المعاصِي والمساوىء؛ وهم العَوَامّ. ومنها من يتراكم عليها حجاب الأنوار. كالإشتغال بِالعلوم النقلية والرّسمية، والعقلية. فَتَتَغَلْغَل في تلك العولم وترسخ فيها فَيَعْسُر انتقالها عَنْهَا؛ وهو أَشَدّ الحجاب. وكالوُقوف مع حَلاَوة الطَّاعاتِ، وظهور الكَرَامات، وتحقيق المقامات. كما هُوَ شأْن العُبَّادِ والزُّهَّادِ، والمُسْتشرفينَ على علْم الحقيقة، وهذا أَيضاً حجاب عظيمٌ؛ ولذا قيلَ:

أَشدُّ النَّاس حجاباً عَنِ اللَّهِ العلماءُ ثم العبَّاد، ثم الزُهَّاد، فَهُمْ يعملونَ في خلاصِ أَنْفسِهِمْ مما يظنّونَ؛ وهم في الحقيقة يزيدون في حجَابها، وهذا مَعْنَى قوله: يحصرنا الَّذِي صَنَعْنَا، لَدَفْع الحَصْر. أيْ يَحْصُرُنَا عن مَيَادِينِ الغُيُوبِ وفضاءِ الشُّهُودِ الذي صَنَعْنَاه من الطَّاعاتِ لدفع ذلكَ الحصر. فهو أي ما صَنَعْنَا سَدْنٌ، أيْ حجاب لَنَا مِنَّا لأَنْفسِنَا والخلاصُ من هَذَا الحجاب، التضرّع إلى اللَّهِ في العُثور على الطبِيبِ؛ وهو شيْخ التربية النبوية فيلقي إليه زمام نفسهِ، ويَلْزَم خدمتَهُ وصحبَتَهُ. حتى يقول له: هَا أَنْتَ وَرَبكَ. فيخرجه من حَصْر الأكوانِ إلى فضاءِ العيَانِ فتخرج فِكرَته عن دَائرة الأكوان، ويسقط عنه الحجاب بالكلية. فَلاَ يزال في الترقي أَبَداً على مُرُورِ السَّاعة والأيام. وَأَمَّا مَن لم يسقط على صاحبِ التربية، فَلاَ

يزيد في مُرُور أيامه وأنْفَاسِهِ إلاَّ حجاباً، وغطاء عن أَسْرَار غوامضِ التوحيد. وكُلُّ ما يفعَلهُ في علاج نفسِهِ، عبَثٌ وضَرْب في حديد باردٍ. وتأمل بعضَ ما قَالَهُ بَعْضُ الفقرَاء، وأظنه الشيخ زروق بنفسِه. كما نقله عنه في كفاية المحتاج، في تَرْجمتهِ، قال: طُفت المشارق والمغارب في طلبِ الحقِّ، واستعملت جميع الأسباب المذكورة في معالجة النفس، وتخيَّلْتُ بقَدرِ الإمكَان في مرضاة الحقِّ. فما طَلَبْت قرْبَ الحق بشيءٍ، إلاَّ كَان مُبْعِدِي عَنْهُ، لرؤيَة نَفْسِي، وَلاَ عَملت في معالجة النَّفس بشيءٍ إلاَّ كَان معيناً لها عَلَيَّ. وَلاَ توجَّهت لإرْضَاءِ الخلقِ بشيْءٍ، إلاَّ كَانَ سَبَبَ عَدَاوَتِهِمْ لِي. فعدتُ إلَى الإسْتسْلام، فَخَرَجَ لِي منه رؤية وجودِي؛ وهو رَأْسُ الْعِلَلِ فطرحْت نَفْسِي بيْن يَدَي الحقِّ طرحاً لاَ يَصْحَبه حَوْلٌ وَلاَ قوَّةٌ فصحَّ عندي أنَّ السَّلامةَ في كل شيْءٍ. والتَّبَرِّي مِن كل شَيْء، وإنما الغنيمة مع كل شَيْءٍ بالرجوع إلى اللَّهِ بكل شيْءٍ. اعتباراً بالقدرة وإثبَاتاً للحكمَةِ، وقياماً مع الطِّبَاع، بِشواهِدِ الانطبَاع إلى تمام كَلاَمِهِ. نقله هنا الشيخ زروق عن بَعْضِ الفقرَاءِ، وأَظُنُّه عَنَى نَفْسَهُ. واللَّهُ أعلمُ. كما نقله الشيخ أحمد بابا السّوداني في ترجمَتِهِ. وإنما تعَطَّل الفتح على الشيْخ زرّوق، لقلةِ صُحْبتِهِ لشيْخِهِ الحَضْرَمِي. فقد قال عن نَفْسِهِ إنما صحبَه أوّلاً سَبْعَة أشهُر، أو نحوهَا، ثم انفَصَل عنهُ، ثم رجع لزيارتِهِ. فبقيَ معه ثمانية أشهُر. فكَان المجموع من صحبته خَمْسَة عشر شهراً أو نحوها. قال: وانتفَعْتُ بِهِ انتفاعاً لاَ يخفَى. قُلْتُ: هذه المدَّة لا تسْلخ المريد من كلِّ طبْعِهِ. وَلاَ تخرجه عَنْ عِلْمِهِ وَعوَالِمِهِ. لاَ سيَمَا وقد كَان مُتَغَلغلاً فِي الْعُلوم النَّقلية والْعقلية. فلا يسلخه مِنْها إلاَّ طول الصحبَة بِالصِّدْقِ والخِدْمَةِ، والتجريد. كَما هو مجرَّبٌ فِي شَأْنِ أَمْثَالِهِ. وقد كَان شيْخُهُ يكاتِبهُ بشيْءٍ من الحقائق؛ فلَمْ يَهْتد إِلَيْهَا؛ لأَنَّها لاَ تؤخذ بمجردِ الْعِلْمِ، وإنما تُؤخذُ بالسراية مَعَ تحقق الصدق والتحقيق.

واعْلَمْ أَنَّ كثيراً مِنَ العلماءِ صحبُوا المشايخ العَارِفِينَ، ولم يَنَالُوا مِن حقائقهم شيئاً؛ لأنهم كَانُوا يصحبونَهم على نَظَرِ نفوسِهِمْ لا على نَظَر المشايخ. فإذَا أَمرُوهم بشيْءٍ، أَوْ نَهَوْهُمْ عن شيْءٍ وَزَنوهُ بميزَانِ شريعتهم. فما وافق نظرهم قبلوهُ. وما خَالَفَ ردُّوهُ. فلم يغرقوا في بَحْرِ أَسْرَارهم. والله تعالى أَعْلَمُ. ثم ذَكَرَ النَّاظِم ما يفيده العقل من نَقْصٍ وكَمَالٍ، باعْتِبَار صاحبِهِ فقال:

فَكَمْ وَاقِفٍ أَرْدَى وَكَمْ سَائِرٍ هَدَى   وَكَمْ حِكْمَةٍ أَبْدَى وَكَمْ مِنْ مُمْلِقٍ أَغْنَى

يقول رضي الله عنهُ في شأن العَقْل أنه ظَهَرَتْ على الْخَلْقِ منهُ آثار مختلفة،

فَمِنْهَا ما هو خسْرَان ومِنهَا ما هو رِبْحٌ، فكم واقف معَهُ، ولم يَنفذ إلى ما وَرَاءَهُ من الأسْرَار الخارجة عن مَدَارك العقول. أرْدَاه: أي أهْلَكَهُ وَأوْقَعَهُ فِي الرَّدَى: وهو بقاؤه مَعَ الحِجَابِ، أو أوقعه فِي انحِلال حيْث وقف معَهُ وحكمه على نفسه، ولم يقبل من العَقَائد والأحْكَام، إلاَّ مَا أدْركه عَقْله، كما فَعَلَتِ المعْتزلة، وضَلُّوا. فقدَّمُوا العَقل على صحيح النقل مِنَ الكتاب والسّنَّة. فَرَدُّوا الأحاديث الصحيحة، لمَّا خَالَفَتْ قَواعد عقولهم وأوَّلُوا الآيات الصريحة، لتطابق ما أدركته عقولهُمْ. وهو زَيْغ وَإلحادٌ. وكَمْ سالكٍ هداه الله إلى طريق الوُصُول حيْث ميَّزَ بِهِ مَا يضرّه وما ينفَعُهُ فترك ما يَضره، وهو كل ما يُشغل عن ربِّهِ واشتغل بما ينفَعُهُ. وهو كل ما يُقَرِّبُهُ مِن رَبِّهِ. وإذا لاَحَ شَيْءٌ مِنْهُ، وَزَنَهُ بِالكتابِ والسّنَّة. فطبَّق بيْن المعقول والمَنقُول وإذا تَعَذَّرَ الوفاقُ بيْنهُمَا. قَدَّمَ مَا وَرَدَ في الكتابِ والسّنَّة، وحَكَم على العقل بَالضُّعفِ، وكَمْ حِكْمة أبْدَى لصاحبِهِ، حيث نَوَّره بطاعةِ ربِّهِ، ومخالفة هَوَاهُ فإن العَقل إنّما عَقَل صاحبهَ عَنِ الْهوَى، ونطق بينابيع الحِكمة.

وفي الحديث: «مَنْ زَهَدَ في الدّنيا أرْبَعينَ يوماً نَطَقَ بِالحِكْمَة». وقال أيْضاً عليه السلامُ: «مَنْ أُعْطِيَ زُهْداً وصمتاً حسَناً فاقرَبُوا منْهُ، فإنه يلقي الحِكْمَة». أوْ كَما قال عليه السَّلاَمُ. والحِكْمَةُ الإصابة في الشيْءِ. وقيل: اتقان الشيْءِ وَإبْداعهُ وَمَحلُّها القلْبُ وتظهر آثهارها على الجوارِحِ. ففي العبد مثلاً بالصَّنَائع العجيبة، وفي اللسانِ بالمعانِي الغَريبة، ولذلك يُقال: نَزَلتِ الحِكْمَةُ عَلَى ثلاثة أعْضَاءِ في الجسَد: على قلوب اليونانِ، وعلى ألْسنَة العَرَبِ، وعلى أيْدِي أهْل الصِّينِ فَإنَّ اليُونَان قَدْ أُعْطُوا الأنْظَارَ فِي العَقْلِيّات واستِخْراج البَرَاهينِ المنطقيات.

والعَرَبُ قد أُعْطُوا الحِكمَة في أَشعارها وخطبِهَا، وأَهْل الصِّين قد أُعْطُوا الصَّنَائع البَدِيعَة فِي البُنْيَانِ والنَّقْشِ والأوَانِي الرفيعة. وكَمْ من مُمْلِقٍ أي فقير أَغْنَى أي صَيَّرَه غَنِيّاً؛ وذَلِكَ حيْث دَلَّهُ على صحبَة العَارفينَ. وَوَصَّلهُ اللَّهُ إلَيْهِم، فإنهم يُغنُونَهُ بالنَّظَرِ. وقَدْ قال الشيْخ أَبُو الحَسَن الشَّاذلِي رضيَ اللَّهُ عَنهُ: الخلوة معنا نفيسة توجب غِنَى الدَّارَيْنِ». وقال أيْضاً: «طَرِيقنا طريقُ الغِنَى الأكْبَر». وقال الشيخ أبُو العبَّاس المُرسِي رضي اللَّهُ عَنهُ: «ما بيْني وبيْن الرَّجُلِ إلاَّ أنْ أنظرَ إليه وَقَدْ أغْنَيْتُهُ». وكل زَمَان له رِجَال يغنون. فالْعَقل الذي جَرَّ صاحِبَهُ للدّخول مَعَ الأغنياءِ بالله هو العَقْل المغني.

وقال بَعْضُ الحُكَمَاء: «خَيْرُ مَا أُعطيَ المَرْءُ عَقْلٌ يَزجُرُه، فَإن لَمْ يكن، فمالٌ يستُرهُ، فَإن لم يكُنْ فحيَاء يَمْنعهُ، فإنْ لَمْ يَكُن فصاعقة تحرِقهُ ليسْتريح منه البلاد

والعباد». ولأجل ما ظَهَر عليه من المَنَافِعِ، اعْتَنَى بشأنِهِ كبار الفلاسفة وغيْرهم، كما قال النَّاظم:

وَتَيَّمَ أَلْبَابَ الْهَرَامِسِ كُلِّهِمْ   وَحَسْبُكَ مِنْ بُقْرَاطَ أَسْكَنَهُ الدِّنَا

وَجَرَّدَ أَمْثَالَ الْعَوَالِمِ كُلِّهَا   وَأَبْرَأَ أَفْلاَطُونَ فِي أَمْثَلِ الْحُسْنَى

وَهَامَ رَسْطُو حَتَّى مَشَى مِنْ هُيَامِهِ   وَبَثَّ الَّذِي أَلْقَى إِلَيْهِ وَمَا ظَنَّا

وَكَانَ لِذِي الْقَرْنَيْنِ عَوْناً عَلَى الَّذِي   تَبَدَّى لَهُ وَهْمُ الَّذِي طَلَبَ الْعَيْنَا

يَقُولُ رضي اللّٰهُ عَنْهُ: وَتَيَّمَ الْعَقل أَلْبَابَ الْهَرَامِسِ؛ أي أَخَذَ قلوبَهُمْ، حيْث صَرفُوا عَنَان عِنَايتهم لِشَأنِهِ. والْهَرَامس: الفلاسفة والكفَّار منهم، وجُلّهم كَانُوا من اليونَانِ. وفي القاموس، الهِرْماسُ بِالكَسْرِ: الأَسَد الشديد الْعادِي على النَّاسِ كالهرمس والهَرَامسِ. ولعل تسْمية الفلاسفة بِذلكَ لشدَّة عُقُولهم أو لعُدْوانِهِمْ، إذ جُلُّهم كَفَّار. وَحَسْبُكَ مِن بُقراطَ أَنَّهُ أَسْكَنه الدِّنَا أيْ ويكْفيكَ في العَقْلِ أَنَّهُ أسْكن بُقراط الحكيم الدِّنَا أي الجَرَّة: وهي الآنية الكَبِيرة التي تُغرسُ في الأَرْضِ أسْفلها ضيّقٌ وأَعْلاهَا وَاسِعٌ ويُقَالُ لهَا: الرَّاقود، وفي القاموس: الدَّنُ: الرَّاقود العَظِيمُ. ثم قال: لا يَقْصد إِلاَّ أَنْ يحْضر لهُ. وظاهِر إِطْلاقِهِ، أَنَّهُ بفتح الدَّالِ كما هُوَ اصْطلاحُهُ؛ وذَلِكَ أَنَّ بُقرَاط دَخَلَ جرَّة وجَلس فيها ليَحْصر فِكْرَهُ لئلاَّ يشوْش عقلهُ. وتقدَّمَ أَنَّهُ كَانَ فِي زَمَنِ موسى عليه السلامُ، فقيل لهُ: لوْ ذَهبْتَ إليه لتأخذ منه الشريعة. فقال: نَحْنُ قَوْمٌ مهذَّبُونَ لا نَحْتَاجُ إلى أَخْذٍ. فَأَرْدَاهُ عَقْلُهُ حيْث صَرَفَهُ عنِ التَّمَسُّكِ بِأَنوارِ الشريعة فَكَانَ مِنَ الضَّالِّينَ.

وقَولهُ: وجَرَّ أَمْثَال العَوَالِم، يَحْتَمِلُ أنْ يعود الضَّمير على العَقْل، ومِن شَأْنِ الْعَقْل، أَنَّهُ جَرَّد العَوَالِم العلوية والسّفلية، وَمَيَّزَ بَعْضَها مِنْ بَعْض. وَيَحْتَمِلُ أَن يَرْجِعَ لأَفْلاَطُون، فإِنه تكلم عن العَوَالم الحسية بعقله وحَدْسِهِ. فَإِنَّ عِلْمَ النَّجوم والأفلاك جلّه مأخوذ عن الفلاسِفة القدماءِ. يُقال: إِنه كَان بعْدَ الطّوفانِ بِقَريب. ولعَلَّه تمسَّك بِشريعة نوح عليه السَّلاَمُ أو غيْره من الأنبياءِ، فلذلِكَ قال النَّاظِم في حَقِّهِ، وَأَبْرَأَ أي أَنشأ العقل أَفلاطونُ فِي أَمْثَل الحُسْنَى، أي فِي أَفْضَل الحسْنَى أي جعله ناشئاً فِيهَا وَمُلاَزماً لَهَا إذا كان موافقاً للحقّ باعتقادِهِ على ما ذكره بعض من عَرَّف بِهِ. قاله زرّوق وذكَر ابْن خَلْدون في شفاء المسائِلِ، أنَّ أَفلاطون شيخ الصوفية، قاله الشيخ زروق، وفيه نَظَر؛ لأنه لَمْ يَذْكُره في هَذِهِ الأَبْيَاتِ إِلاَّ فلاسفة الأقدمينَ. قلت: ثم رأَيت في الإنالة للتجِيبي، أنه شيخ أرسطُو. ونَصُّهُ: وأَفلاطون

قال بُحُدُوثِ العالم. وتلميذه أَرسْطو بِقدمِهِ. وأَرسطُو من كبار الفلاسفة، ويُقال له: أَرسطو طاليس. وهو أَحَد المَشَّائين الذينَ كَان مشيهُمْ على ساحِل البَحْرِ لطلب الزِيادة فيما بدا لهُ. فَكَانَ مشيهُ وهيامه طرباً مِما حَصَّلَ وطالباً ما لم يحصُلْ وهو معْنَى قوْلِهِ. وَهَامَ رسْطُو حتَّى مشَى مِن هيامه. ويقرأها أَرِسطوْ بِحذف الهَمْزَةِ لِلْوَزْنِ، والهيَام نَوْع من القلق في طَربِ. وقال في القاموس: الهيام كالمجنونِ من العشقِ. وقوله: وبَثَّ الخ.. أي أَنَّ أَرِسْطُو بث ما ألقَى إليه عقله من العلوم والحِكْمَة. وكَانَ وزيراً لذي القرْنين فكان ذُو القرْنين يسْتعين به في أُمور الحِكمة، وتدبير المملكة. وهذا مَعْنَى قوله: وكَان لذي القَرْنين عوْناً على الَّذِي تَبَدَّى لَهُ. أي كَانَ عوناً لهُ على ما ظهر له من المُلك. وما خَصَّهُ اللّٰهُ به من تيسير الأسْبَاب المبلغة لما قصده مِنَ الأوَابِي جمع أَوْبة. فكان يسْتعين به فِي عَالَم الحِكمة، وإن كَان على غَيْر دينه؛ لأَنَّ ذا القرْنيْنِ الأكْبَر. قيلَ كَانَ نبياً. أو رجُلاً صالحاً. وذكَر أَهْل التَّفْسِير، أنه حجَّ البيْت، فلقي سيدنا إبْراهيم الخليل، وأَخَذَ عنه الشريعة الحنيفية. وقوله: «وهُوَ الَّذِي طلَبَ الْعَيْنَ». يَحتمل أن يكون أَرسْطُوْ هو الَّذِي طَلَبَ عيْن الحياة؛ وهي التي مَنْ شَرِبَ مِنهَا لم يمت إلى آخِرِ الدَّهْرِ. ويحتمل أن يكونَ ذا القَرْنَيْن وهو المشهورُ. فقد كَان يطلبُ عيْنَ الحياة هو والخَضِر عليه السلام، فَعَثَرَ عليْها الخَضِر وحُرِمها ذو القرنيْن، كما قال بعض المفسّرينَ. أي ردَّ بحثَهُ عَنْهَا غيْناً. بل وهُو الذي كَان يَبْحثُ عن أَسْبَاب ما قد سمعتم في القرآن من جولانِهِ فِي الأرضِ، شرقاً وغَرْباً، وجوفاً وقبلة. ويبْحَث أيْضاً عن عيْن الحياة، وبِبَحثه عنْهَا، وحِرْصِهِ عليها حُرِمَهَا، وتغطّتْ عَنْهُ. وَهَذَا مَعْنَى قوله: وبالبَحْثِ غَطَّى العَيْن إذ رَدَّه غيْنا». أي ردَّ بحثه عنْهَا غَيْناً. أيّ غطاء وسِتْراً عَنْهَا. وقال الشيخ زروق رضي الله عَنْهُ. وبالبحث غَطَّى ذو القرْنيْن العَيْن، أي الكشف الذي حَصَلَ لهُ. فرَدَّه غيناً. أي غِطَاءً وَغِشاء. أي بحيث ظن الجاهل أنَّ ملكَهُ كَان مقيّداً بِالأَسْبَابِ، وما كان كذلِكَ بل مؤيّداً بالْوَحْي إن كَان نبياً. وبالإلْهَامِ إِن كَانَ وليّاً. ثم قال: تنبيه: ذَكَرَ رِجَالاً مُرَتَّبِينَ على المواقف الأربعة. فبقراط من الواقفين مع العَقْلِ، وأَفْلاطون من السَّائرينَ بِهِ، وأَرِسطُوْ من أَهْل الحِكمَة وذو القرنيْن من أَهْل الغِنَى الأكْبَر سواء قلْنا إنه نبيٌّ أوْوَليّ. فتأَمَّلْ ذلِكَ. ثم ذكر النَّاظِمُ رِجَالاً اهْتَدَوْا بِعقولِهِمْ إلى الْحَقِّ، مِنَ المِلَّةِ المُحَمَّدِية فَقَالَ:

وَذَوَّقَ لِـلْـحَـلاَّجِ طُـعْـمَ اتِّـحَـادِهِ ... فَـقَـالَ أَنَـا مَـنْ لاَ يُـحِـيـطُ بِـهِ مَـعْـنَـا

فَـقِـيـلَ لَـهُ ارْجِـعْ عَـنْ مَـقَـالِـكَ قَـالَ لاَ ... شَـرِبْـتُ مُـدَاماً كُـلُّ مَـنْ ذَاقَـهَـا غَـنَّـا

وَأَنْطَقَ لِلشِّبْلِيّ بِالْوَحْدَةِ الَّتِي — أَشَارَ بِهَا لَمَّا مَحَا عِنْدَهُ الْكَوْنَا
وَكَانَ لِذَاتِ النُّوفَرِيّ مُوَلَّهَاً — يُخَاطِبُ بِالتَّوْحِيدِ صَيَّرَهُ خِدْنَا
وَكَانَ خَطِيباً بَيْنَ ذَا نَيْنِ مَنْ يَكُنْ — فَقِيراً يَرَى الْبَحْرَ الَّذِي فِيهِ قَدْ خُفْنَا
وَأَضْمَتَ لِلْجِنِّي تَجْرِيدَ خَلْقِهِ — مَعَ الأَمْرِ إِذْ صَارَتْ فَصَاحَتُهُ أُكْنَا

يَقُولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وذَوَّق الْعَقل حينَ تَنوَّرَ، واتَّصلَ نورهُ بِالعَقْلِ الأَكْبَر لِلْحَلاَّج وهو أَبُو مغيْثٍ الحسين بن منصُور، صَحبَ الْجُنَيْدَ والنورِي وغيْرَهُما؛ وهو من أَكَابِرِ الأَوْلِيَاءِ المحققينَ، غيْرَ أَنَّه غلب عليه الوُجْدُ، فَعَرْبَدَ فِي الحقيقة، حتَّى مَاتَ عَلَيْهَا. فَقَد ذَوَّق له عَقْلُهُ طُعْم اتِّحَادِهِ، أي طُعْم فَنَائِهِ، فالاتحادُ يطلق على مَعْنَيَيْنِ، أَحَدهما اختلاط ذَاتَيْنِ، حتَّى تَصِير ذَاتاً واحِدَةً؛ وهَذَا محالٌ فِي حقِّهِ تَعَالَى. وَمَنِ اعتقده كَفَرَ، والثَّانِي يطلق على الوحدةِ الحقيقية. يُقال: اتَّحَدَ الشَّيْء إذا صَارَ واحِداً؛ وهو الَّذِي يعَبِّر عَنْهُ الصوفية، ويَذْكرُونَهُ فِي أَشْعَارِهِمْ. فَهُوَ كِنَايَة عَنْ سقوط الغَيْرية والإثنينية، فيفْنَى مَا لَمْ يَكُنْ، ويَبْقَى مَنْ لَمْ يَزَلْ. فقال الحَلاَّجُ حينَ غَابَ عَنْ وُجُودِهِ فِي شُهُود محبوبِهِ، أَنَا مَنْ لاَ يُحِيط بِهِ مَعْنَى. أي أَنَا اللَّهُ الَّذِي لاَ تَحصُرُه معْنًى، وَلاَ يحيط بِهِ وهَمٌ وَلاَ فِكْرٌ. وقال أَيْضاً: مِنْ جُمْلة الكَلاَمِ والَّذِي قُتِلَ بِهِ: أَنَا أَنتَ بِلاَ شَكٌ. سُبْحَانَك سبحاني. وتوحيدك توحيدي، وَعِصيانك عِصْياني، وقال أَيْضاً: ما في الجُبَّة إِلاَّ اللَّهُ، والَّذِي تعبُدون تحْتَ قَدَمِي. فقيل له: ارجع عن مَقَالِك، وإِلاَّ قتلك سَيْف الشريعة. فقال: لا لأني شرِبْتُ مُداماً، أيْ خمرةً قويةً. كُلّ من ذَاقهَا غَنَّى. لاَ سيمَا إِذا شَرِبَ وسكر، وفي هذا مَنْ عَبَّرَ عَنْ حَالِهِ:

سقَوْنِي وقَالُوا لاَ تُغَنِّي وَلَوْ سَقَوْا — جِبَال حُنَيْنٍ مَا سَقَوْنِي لَغَنَّتْ

والنُّطْق بِالأَنَانية صَارَ مِن كثير من الأَوْلِياء، في حالِ فَنَائِهِمْ. قال بَعْضهُمْ: لقد قال كثير من الأَوْلياءِ في مقام الفَنَاءِ، أَنَا. وقال آخر في مقام البقاء: هُوَ. فَيُقَال للأول صَدَقْتَ وَمَا كَذَبْت. ويُقال للثاني: أَحْسَنْتَ وَتَأَدَّبْتَ. ولمَّا حبس للقتلِ، قال له الشبلِي، يا أَبَا المُغيث: ما معْنَى التَّفرّد؟ فقال له: «هُوَ أَنْ يَنْفرد الْعَبْد بالواحِدِ الأَحَدِ الفَرْدِ. فَإِذَا رآه الحق انفرَد عَنِ الخَلْق، أَمَّنَهُ مِنْ عَذَابِ الطَّرْدِ، فيصير للحق مشاهداً. والحقّ عَلَى لِسَانِهِ شاهداً. فحينئذٍ يتخلَّصُ لمَقَام المعرفة. ويوصى إلى خاطِرهِ. ويحرس سرَّه عمَّا سواهُ. فَلاَ يَرْشح منْهُ غَيْر الحق، من حضرة الحق بِالحقّ». قال الشبلِي رضي اللَّهُ عَنه لِلْحَلاَّجِ: ما المعرفة؟ فقال الحلاَّجُ:

«اسْتِهلاكُ الْحِسِّ فِي المعْنَى». فقلت له: مَا الوُجْد؟ فقال: لهيبٌ ينشأ عَن الشوْق فِي الأَسْرَارِ. وتطرب به الجوارحُ، ثُمَّ يَزُولُ لأنه مقرونٌ بِالزَّوَالِ. وَيَبْقى نتيجته العِرْفانية. لاَ تحول وَلاَ تزولُ. ثم قال يا شبلِي مَنْ رَاقَبَ اللَّهَ عِنْدَ خُطوات قلبِهِ. عصَمه عند حركاتِ جوارحِهِ. ثم قال يا شبلِي: السْتَ تحفظ كتاب اللَّهِ. فقال الشبلِي بَلَى. فقال: قد قال لنبيه عليه الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾. يَا شبلِي: إِذا رَمَى اللَّهُ قَلْبَ عَبْدِهِ بحبَّة من حُبْهِ. نادى عليه مَدَى الأزمان بِلسانِ العِتَابِ. فقلْت له: ما المحبَّة؟ فقال الحَلاَّج: الغَيْبة عَمَّا سِوَى المحبوب. فقلْت له: مَا الأنسُ؟ فقال: وجود الهيبة، مع ارتفاع الخشية. وغلبَة الرجاء على الخَوْف. ثم قتل شهيداً رضي اللَّهُ عنه ببغداد، يوم الثلاثاء، لست بقيْن من ذي الحجة سنة 306 هجرية. وتأخَّرَت وفاته عن الجُنَيْدِ بتسْع سنينَ. أمَّا ما ذكر بَعْضهم أنَّ الحلاج تصور به بيْته، حتى ملأ البيْت فلم يقدر أحَد على إخراجِهِ، فذكَرُوا ذِلِك للجُنَيْدِ، فَأَتَى إِلَيْهِ، وقال: يا حسَيْنُ، فتحتَ ثغراً لاَ يَسُدّها إلاَّ رؤيتك. فاخرج وسلّم. فَأَنْفش بَدَنَهُ، وخَرَجَ مُسَلِّماً، مشكك فيه. لأنَّ الجُنَيْدَ مات سَنَة سَبْع وتسعين ومئتين (297 هـ.) في قول الأكثر ممَّن عَرَّفَ بِهِ. فكيف يخضر قَتْلَهُ؟ وكذلك قول من قال في محْنة الصوفية إِنَّهُ الآمِرُ. قال للعلماء: قتلتم الحَلاَّجَ، وهو وليُّ اللَّهِ. وأَنتم تريدون قتلَ الجنَيْد فلا يصحُّ أيضاً. إلاَّ أن يكون وَقَعَ الغلطُ في مَوْتِ الحَلاَّجِ للشعرَانِي فِي طبقاته فإني نقلته منهُ. ثم رأَيْت الشيخ ابن زكْري وافق ما للعشراني نَعَم. ذكر الفقيه المسْنَاوي في نصرته خلافاً ضعيفاً في وفاة الجنيْد. فالله تعالى أَعْلَمُ. وقوله: أَنْطَقَ للشبلي. أيْ صيَّر العقل الشبلِي ناطقاً بالوحدةِ التي أشار في قولِهِ: أَنَا النّقطة التي تحتَ البَاء كَمَا مَرَّ قريباً. لما مضى عن رؤية الكوْن. والإشارة بالباءِ إلى بَحْر الجَبَرُوتِ التي تدفقتْ منه نقطةُ الكَوْنِ. وفي مَعْنَى ذَلِكَ قِيلَ:

بَـيْـنَ الـتـذلّـلِ والـتَّـذَلُّـل نـقـطَـة ... فِـي فَـهْـمِـهَـا يَـتَـحَـيَّـرُ الـنَّـحْـرِيـرُ

هِـيَ نُـقْـطَـةُ الأَكْـوَانِ إِنْ جَـاوَزْتَـهَـا ... كُـنْـتَ الْـمُـرَادَ وَعِـنْـدَكَ الإِكْـسِـيـرُ

والإِمَامُ الشبلِي: هُوَ أَبُو بَكْرٍ، قيل اسْمُه جَعْفَر بن يُونُسَ؛ وهو شيْخ الصوفية. وإِمَام أَهْل البَاطِنِ. كَانَ صَالِحاً فقيهاً، على مَذْهَبِ مَالِكٍ ذو الأنباءِ البَديعة، والأخبار الغَريبة. وأَحَد المتصرفينَ في علم الشريعة والحقيقة. أصْله من خراسان، من قرْية يُقَال لها شبْلَة. ونَشَأَ بِبَغْدَاد. فكَتب الحديث، وَصَحب الجُنَيْد. ومَن فِي وَقْتِهِ مِن المشايخ. وَرَوَى عنه جماعة، كَالأَزْهَرِي والرَّازِي وغيرهما. قال

الرَّازِي: لَمْ أَرَ فِي الصوفية أَعْلَمَ مِنَ الشبلِي. وقال الجنَيْدُ: هو عيْن الْعَيْن. خَلَّف أبُوه ستين أَلْف دينارٍ، سوى الضياع والعقار. قال: فَأَنفقتها كُلها في سبيل اللَّهِ. ثم رجعت إلى الفقراء لا أرجع وَلاَ داري وَلاَ أَسْتظهر بمعلومٍ. وكان جَسيماً بَديناً. فقيل لهُ: إنَّ المحبَّة تقضِي، فَأَنشأ يقول:

أَحَبَّ قَلْبِي وَمَا دَرَى بَدِنِي وَلَوْ دَرَى مَا أَقَامَ فِي السِّمَنِ

وَرُئِيَ خارجاً من المَسْجِد يوم عيدٍ وهو يَقُولُ:

إِذَا كُنْتَ لِي عِيداً فَمَا أَصْنَعُ بِالْعِيدِ
جَرَى حُبّكَ فِي قَلْبِي جَرْيَ الْمَاءِ فِي الْعُودِ

وسُئل الشبلي عن الزُّهد فقال: تحويلُ قلبكَ عَنِ الأشياءِ. وقال في التَّصَوُّفِ: ضبْط حواسكَ، ومُرَاعاة أَنْفَاسِكَ. أي أَوْقَاتِك. توفي رضِي اللَّهُ عَنْهُ: سنة 334هـ (أربعة وثلاثين وثلاثمائة). وقوله: وكَان لذَات النوفري مُولهاً. أيْ وكان العَقْلُ لذَاتِ النَّوفري مُوَلَّهاً. أيْ مُغَيَّباً عَمَّا سِوَى الحقّ. قال الشيخ زروق رضي اللَّهُ عَنْهُ: النوفري لاَ أَعرف اسْمَه، وَلاَ أدري حقيقة ما كَان عليه تعريفاً لكن ما قال هُنَا يدلُّ على أَنَّه كَان مسْتغرقاً في التوحيدِ، حتى تَولَّهُ مِن أجْل ذَلِكَ، حتى لاَ يخاطِبَ وَلاَ يخاطَبُ إلاَّ بِهِ. فَصَارَ لَهُ كَالْخَلِيل الملازم؛ وهو الخذن، واللَّهُ أَعْلَمْ.

وكان النوفري أيْضاً خطيباً بيْن ذَاتَيْنِ، أيْ بيْن عَالَم الأَرْواح، وعَالَم الأشباحِ. وَهَذَا من تمكنِهِ في مقام البقاءِ. وقَوْله: مَنْ لَمْ يكُن فقيراً الخ. كَلاَم مسْتأنفَ، بيَّن فيه أنه لاَ يَفْهم كَلاَمَهُ، ولا يتذوقه إلاَّ من دَخَلَ البَحْرَ الَّذِي دَخَل فيه. أي مَن يكون فقيراً حقيقياً يَرَى البَحْر الَّذِي غُصْنَاهُ، وَيَفْهَم الأَسْرَار التي أَشَرْنَا إِلَيْهَا في هذه القصيدة غيْرها. وَهَذَا كَقَوْلِهِ فِي بَعْضِ أَزْجَالِهِ:

سِرّي لاَ يَفْهَمْهُ إلاَّ مَنْ هُوَ مِثْلِي. قوله: واضمَت للجني: قال الشيخ زروق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَظُنُّ أَنَّهُ يَعْنِي ابن جِنّي النَّحْوِي. فإِنَّهُ أَلَّفَ كِتَاباً سَمَّاه: تجريد خلق الإنسَان. فَذَكَر فيه ما يتعَلَّق بالفَصَاحَة، والْعَقِل. أي وَأَضْمَتَ الْعَقْلَ لاِبْنِ جنِّي، كتابُهُ الَّذِي سَمَّاه: تجريد خَلْق الإنسَان. وإنما أَضْمَتَهُ؛ لأَنَّ الأمر يقتضي أَوْسَع مما ذَكَرَ فيه. فلمَّا قَصَّ فيه أَضْمَتَهُ عَقْلهُ. وقَوْلُهُ: مَعَ الأَمِيرْ، أيْ مَعَ اقتضاءِ الأَمْرِ أوسع من ذَلِكَ لاختلاف اللُّغات وَمَوَادِّهَا. واختلاف أَسْباب الفَصَاحَة، والبَلاَغَة والبَيَان. فصَارتْ فَصَاحة ابن جني أَكناً أي خرساً. أو فصارت فصاحَة الكَلاَم أُكْناً، أي

عجْمة. وَفِي القاموس: لكن كفرح، لكْناً محرّكاً، ولكْنة ولُكُونَةً فَهُوَ لَكِنٌ، لاَ يفهم العربيّة لعجمَة لِسَانِهِ. وحاصل الكَلاَم أنَّ كتابةُ الذي أَلْفَهُ في الفَصَاحَة والعَقْلِ، لَمْ يَبْلُغ منه المُرَامَ. فَأَصْمَتَهُ عَقْلُهُ. وقال لهُ: ليْتَكَ سَكَتَّ. وابْن جنّي: هو أبُو الفتح، عثمان بن جنّي، المُوصِلِي النّحوِي، كَان إماماً في العربية. قرأ الأدب على الشيخ أبي علي الفارسِي، وَقَعَدَ لِلإقْرَاءِ. فَرَآهُ شيخه أبُو عَليّ في حَلَقَة، والنّاس حوْله يأخذونَ عَنْهُ. فقال لهُ: أتَزَيَّت وأنت حِصْرِمٌ. فتركَ حِلْقتهُ، وَلاَزَمَهُ حَتّى تَمَهّرَ. وكَان أَبُوهُ جِنّياً رُومِياً، مملوكاً لسلْيمَان الأزْدِي. توفي ابن جنيٍّ سنة اثنتين وتسْعينَ وثلاثمائة (392 هـ). ثم ذكر النّاظِمُ جَمَاعَةً أُخرَى فَقَالَ رَضِي اللّهُ عَنْهُ:

تَثَنَّى قَضِيبُ الْبَانِ مِنْ شُرْبِ خَمْرَةٍ	فَكَانَ كَمِثْلِ الْغَيْرِ لَكِنَّهُ ثَنَّى
وَقَدْ شَذَّ بِالشُّوذِيِّ عَنْ نَوْعِهِ فَلَمْ	يَمِلْ نَحْوَ أَخْدَانٍ وَلاَ سَاكَنَ الْمُدْنَا
وَأَصْبَحَ فِيهِ السَّهْرُورِيُّ خَائِفاً	يَصِيحُ فَمَا يُلْقِي الْوُجُودُ لَهُ أُذْنَا
وَلابْنِ قُسِيِّ خَلْعُ نَعْلِ وُجُودِهِ	وَلُبْسُ إِحَاطَةٍ مِنَ الحِجْرِ قَدْ تُبْنَا
أَقَامَ عَلَى شَأْنِ الْمَسَرَّةُ نَجْلُهَا	لَمَّا رَمَّزَ الأَسْرَارَ وَاسْتَمْطَرَ الْمُزْنَا
وَلاَحَ سَنَا بَرْقٍ مِنَ الْقُرْبِ لِلنُّهَى	لِنَجْلِ ابْنِ سِينَاءَ الَّذِي ظَنَّ مَا ظَنَّا

يقول رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ: تَثَنَّى قَضِيبُ الْبَانِ: وهو رَجُل من أَهْل الشَّام، مِنْ أرْبَابِ الأحْوَال، كَانَتْ تَظْهَرُ عليه عجائب وغَرَائِبُ. وهو ممّن اختلف فيه بالقبول والرّدِّ. وكَان خَرَّبَ ظَاهِرَهُ. فكَان يَجْلِس بِالْمَزَابِلِ، وربَّمَا تَجرَّدَ مِنَ الثِّيَابِ، فَبَقِيَ عُرْيَاناً. وكَان يتصور في صور متعددة. وَهَذَا مغنَى قولِهِ: تَثَنَّى: أيْ صَيَّر من ذاتِهِ اثْنَيْنِ، مِن شُرْبِ خَمْرة، فتجوهر عَقْلُهُ، وخَرَجَ عَنْ طَوْرِ الفضلاءِ في الظَّاهِرِ، فكَان إذا تطوَّر، يَرَى كَمِثْلِ الغَيْرِ وهو بِعَيْنِه. لكِنَّهُ تَثَنّى، أي رجَع اثنَيْن. واللّهُ أعْلَمُ.

والشُّوذِي هو العفيف التِّلِمسَانِي المعروف بالحلْوِي، قاله زروق. ولم أَقِفْ عَلَى تَعريفِهِ. ومغنَى شَذَّ، أي خرجَ العَقْل بالشوذيِّ عَنْ نَوْعِهِ وجنْسِهِ من النَّاس. فكَان مُنفرداً وخدانيّاً، فَاراً مِنَ المُدُنِ والقرَى، لمّا صقلت مرآة عَقْلِهِ تأنَّسَ بِاللّهِ، وفرَّ مِمَّا سوَاهُ. فَلَمْ يَمِلْ لأصحاب وعشائر. وَلاَ سَاكن المُدن وكِبَار المَدَاشر؛ لأَنَّ الخُلْطة تُشَوِّش الفِكْرَةَ. سَيَمَا هَرَج المُدُنِ فلا يقوى عَلَيْهَا إلاَّ مَنْ قوي نُورُ معرفته، وباللّهِ التوفيق. والسَّهروريّ: قال الشيخ زُرّوق: المراد بِهِ المقتول، صاحب خواصِّ الأربعينَ الإدريسية وغيرهَا، أي صاحب العوارف، أي وأصبح السَّهْرُوريُّ

خَائفاً مِن جِهَة عَقْلِهِ، فَلَمْ يطقْ ما تجلَّى لهُ من أسْرار خواصِّ الأسْمَاءِ. فكَان يصيح في العَالَم بما عنْدهُ، فلم يَسْمَع أحَد نداءَهُ. وَلاَ ألقى إليه أذْناً. وفي بعض النسخ: يصيخ بالخاءِ المعجَّمَة. يُقال: أصَاخ للأمر: استمَعَ لهُ. وهَذَا بعيد المُنَاسَبَة.

وابن قسَيّ: هو صاحب خلْع النَّعْلَين، واقتباس النُّوريْن مِن مَوْضع القَدميْن، قالهُ زروق. ولم يذكر له تعريفاً. غيْرَ أنَّهُ اعترض عَلَى النَّاظِم تشريعه بِذَلِكَ، لأنَّ أَهْلِ الطريق قد تكلمُوا فيه، أي ولاِبْن قسيّ خلْع نَعْل وجُودِهِ، وغابَ عنْهُ لمَّا تحققتْ معرفته بِاللَّهِ. ولعلَّ كَلاَم أَهْل الطَّريق، حيْثُ لَمْ يَفْهَمُوا مُرَادهُ. كَمَا تَكَلَّمُوا في غَيْرهِ مِنَ المحققينَ.

وقوله: ولبْس إحاطة. أشار لكتاب سمَّاه بِذَلِكَ، أي ولهُ لبْس إحاطةٍ. وقوله: من الحِجْرِ قَدْ تُبْنَا: أي تُبْنا من ثبوت الحِجّرِ لثبوت الحرّية لَنَا، والتَّرْشيد من أشياخنَا. ولعل ذلك الكتاب المسمَّى بِلْبس الإحاطةِ، تكلم فيه على التحجِير، من جِهَة الشريعة، أوْ من جِهَة حصر الكَائنات. فقال النَّاظم: قد تُبْنا مِنْ ذلِكَ، وخرجْنَا منْهُ واللَّهُ أعْلَمُ. وقولهُ: أَقَام عَلَى شَأنِ المسَرَّة. قال الشيخ زروق: ابن المسَرَّة هو ابن سُرُور؛ وهو فقيه، صاحب يَد فِي العلوم القديمة، أي أقام ابن مسرَّة على متْن السّرور حيْث ظهر بما خفي على النَّاسِ من مكنونِ أسْرار الرّموز؛ لأنَّه ممَّن اغتنى بحلهَا وفكّهَا، كما فَعَلَ المقدسي وإليه أشار بقولِهِ: لمَّا رمَزَ الأَسْرَارَ، واسْتمطر المُزْنَا أي دَامَتْ مسَرّته، لما كشف الأسرار، وَاسْتَمْطَرَ: أي اسْتَنْزَلَ أَمْطار المعاني من سحائب الألفاظِ، أوْ من سُحُب الآثَار؛ وَهي الأوانِي. وَقوْلُه: وَلاَحَ سَنَا بَرْقِ الخ. أي ظَهرَ ضَوْء بَرْق لابْن سينَاء، من حقيقة عقله المُقرِّبة للعقول ما كان بعيداً عنهَا، فإِنَّهُ شَرَحَ مِن أَمْرِ العقل مَا لَمْ يشرَحْهُ غَيْرهُ.

وابن سينَاء هَذَا، هو المتأخرّ، وهو أَحَد فَلاَسِفَةِ الإسلام، وقد تكلَّم النَّاسُ فيه، واتهموهُ بِالكُفْرِ. قال الشيخ السنوسي في شرح الكُبْرى، ولَقد ضَلَّ ابن سيناء، وتستَّر بالإِسلامِ، حيث قال في الطبائع الأربعة.

وقولُ بُقْراط هو الصحيح ماءٌ ونَارٌ وَهَوَى وَرِيحُ.

قلت: أمَّا مجرَّد هَذَا القول، فَلاَ يَدُلّ على كُفْرهِ؛ لأَنَّ عالَـمَ الحِكمَة مَبْنِيٌّ على الأَسْبَابِ، والعِلَل في الظَّاهِر. والباطنُ هو اللَّهُ. فقد يكون تَكَلَّم على ما هو مقررٌ فِي عَالَم الحِكْمَةِ من ترْتيب الطَّبائِع والأسباب. نَعَم قد قيل عنْهُ إنه كَان يرَى أنَّ الشريعة للعَقْلِ تابِعة، فتدور معهُ في عِلَل الأَحْكَامِ. قال الشيخ زروق؛ وهو

مذهب فَاسِدٌ وإليه أشار النَّاظم بقولهِ: الَّذِي ظَنَّ مَا ظَنَّا. أي ظَنَّ الشريعةَ تَابِعَة لِلْعَقْلِ والحق أَنَّ العقل تابع للشَّرْعِ في عِلَلِ الأَحْكَام وأَسْرَارهَا. فإن أَدْرَكَ لَهَا عِلَّةً وحِكْمةً كَانَ عَيْن الكَمَالِ، وإن لم يُدْرِك لَهَا حَكَمَ بتقصيرهِ وتَعبَّد بِأَمْرِ سيِّدِهِ. وباللَّهِ التوفيق، ثم ذكر النَّاظِمُ جَمَاعَةً أُخْرَى فَقَالَ:

وَقَـدْ قَـلَّـدَ الـطُّـوسِـيُّ مَـا قَـدْ ذَكَـرْتُـهُ ... وَلـكِـنَّـهُ نَـحْـوَ الـتَّـصَـوُّفِ قَـدْ حَـنَّـا

وَلابْـنِ طُـفَـيْـلٍ وَابْـنِ رُشْـدٍ تَـيَـقُّـظٌ ... رِسَـالَـةُ يَـقْـظَانَ اقْـتَـضَـى فَـتْـحُـهُ الْـحَـيْـنَ

كَـسَـى لِـشُـعَـيْـبٍ ثَـوْبَ جَـمْـعٍ لِـذَاتِـهِ ... يَـجُـرُّ عَـلَـى حُـسَّـادِهِ الـذَّيْـلَ وَالـرُّدْنَـا

يقولُ رضي اللَّهُ عَنْهُ: وقَدْ قَلَّدَ الطُّوسِي؛ وهو الغَزَّالِي، أيْ قَدْ تقلَّدَ مَا قَدْ ذَكَرْتُهُ مِنْ تحكيمَاتِ الْعَقْل، واستحسَانَاتِهِ بِذلِكَ، من عجائب القلْبِ، وشرْح أَسْرَرهِ ما يقضى منه العَجب. وكذلك أسرار العباداتِ، والعاداتِ، وغَيْر ذلِك مما هو مذكُورٌ فِي كُتُبِهِ، لَكِنَّهُ نَجَا مِنْ وَبَالِ العَقْلِ؛ حيْث حَنَّ إلى التَّصوّفِ، فصرفَ عَقْلَهُ في استخراج أسْرار سرّ الشريعة، وحِكَم الأحْكَام.

والغَزَّالِي: هو حجة الإسلام، محمد بن محمد بن أحمد الغزَّالِي الطُّوسي. ويُكَنَّى أَبا حَامِدٍ حبْر هذه الأمَّة وَرَاهِبِها. اشتغل أَوَّلاً بالعلوم وتدريسهَا بِبَغداد. ثم تركَ جميع ذلِكَ، وسلكَ طريق التجريد والانقطاعِ، وخَدَم الصوفية بنفسه سنينَ ثم قَصَدَ الحجَّ. فَلَمَّا رجع قَدِم إلى الشام، وأقام ببيْت المقدِس مجاوراً، واجْتهد في العبادةِ وزيارة المشاهد والمواضع المعظمة. ثم عاد إلى دِمشق. واعْتكفَ في زاوية مِنْ منَار الجامع، وأخذ في التصنيف، لإحياء علوم الدِّين؛ وهو من أنْفَس الكتُب، لاَ يسْتغني عنها طالب الآخِرة. وكَان يُرَوِّضُ نَفسهُ في المجاهداتِ، ويُكَلِّفها مشاق الطاعات. ثم قصد مصر، وأقام بالإسْكندرية مدَّة، ثم رجع إلى بَغْدَاد، وعقَدَ بِهَا مجالس الْوَعْظِ، وتكلَّم على لسَانِ أَهْل الحقيقة. ثم عاد إلى وطنِهِ بطوس. ووزَّع أوْقاته على وَظَائِفِ الخَيْرِ، من خَتْمِ القرْآن، ومجالسة أهْل القبُولِ. وإدامة العبَادة إلى أَنْ نَقَّله الحقُّ إلى دار الكَرَامةَ، في يوم الإثنيْن، رابع جمادى الثانية، سنة خَمْسٍ وخمسمائة. (505هـ). بطوس وبها دُفِنَ. وقبْره بِهَا مشْهُورٌ. وذكر التالدي في كتابه المعزى: أنَّ سبَبَ تجريد الغزَّالي وانقطاعه، هُوَ أَخُوهُ. وكَان من محققي الصوفية. وَقَفَ عليه في مجلسِ عِلْمِهِ فَقَالَ لهُ: إلى أَيْن تحتبس في هذه المعاقِلِ، وأنشده شعراً أنهضه إلى رَبِّهِ، وذكر غيْرهُ، أَنَّهُ وصَّلَهُ بشيخهِ، وكان خرَّازاً، فجذبه إلى ربِّهِ، وأَمَرَه بتخريب ظاهرهِ وبالتجريد. فحينئذٍ ذاق ما ذاقَتِ الرجال. والغزَّالي

بتشديد الزَّاي نسبة إلى الغَزَّالِي. على عادة أهْلِ خَوَارزم وجُرْجَان، فإنَّهُم ينسبون إلى القصَّار، القصَّاري، وإلى العَطَّار العَطَّارِي. وقيل: إنَّ الزَّاي مخففة نسبة إلى غزالة. وهي قرْية من قُرَى طُوسٍ؛ وهو خِلاَفُ المشهور وطُوسٌ بِضَمِّ الطَّاءِ، وسكون الواو: قرية من قُرَى بُخَارى. وما يقال إنه مدفون بترعة، غلط فَاحِش. قال الدَّميري في حياة الحيوان. روينا بالسَّنَدِ الصحيح عن الشيخ أبي الحسَن الشاذلي رضي اللَّهُ عنهُ. أنه قال: رأيْتُ النبيّ ﷺ في النَّوْمِ. وقد بَاهَى موسى وعيسى بالغَزَّالِي، فقال لهُمَا: فِي أُمَتكما هذا الحَبْر؟ وأشار إلى الْغَزَّالِي. فقالا: لاَ. قال الشيخ أبُو العباس المِرْسِي: «إنَّا لَنَشْهَد لَهُ بِالْغَوْثِية العُظْمَى». وقيل القائل: هو الشاذِلِي رضي اللَّهُ عَنهم أجْمعينَ. ثم قال النَّاظم: ولابْن طُفَيْل وابْن رُشْد تيقظ. أَمَّا ابن طفيلٍ فهو من فلاسفةِ الإسلامِ. له عَقل وتيقظٌ في الأمور العَقلية. وَلَمْ أقِفْ على تعريفِهِ. وأمَّا ابْنُ رُشْدٍ، فالمرادُ به الحفيدُ؛ وهو محمد بن أحمد بن محمد بن رُشْد، الإمام المشهور. ولد سنة عشرين وخمسمائة (520هـ) قبل وفاة جدِّهِ أبي الوليد بِشهْرٍ وَاشْتَهَرَ بِالْحَفِيدِ، وهو من أهْل قرطبة. وقَاضِي الجماعة بِهَا. أَخَذَ الفقه عن المازري وغيْرِهِ. وأَخَذَ الطبَّ عن أبِي مِرْوان بن جريُونَ. وكَانت الدراية، أغلبَ عليه مَن الرِّوَاية خلاف جدِّهِ. ولم ينشأ في الأندلسِ مثْلهُ. حتى قيل فيه: كَانَ أفْقَهَ من جَدّهِ. وصنَّفَ وَقَيَّدَ مذهب ومالَ إلى علوم الأوائلِ. وكَانَتْ له فيها الإمامَة دُونَ أهْل عصرهِ. وكان يفزع إلى فِتْيَاه في الطبّ، كما يفزع إلى فتياهُ في الفقهِ. له تآليف جليلة. منهَا: كتاب بداية المجتهد ونهاية المقتصد. وذكر فيها أسْبَاب خلاف المذَاهب وعللهَا. وأفاد وأَقْنَعَ فيه. وَلاَ يُعْلم في وقتِهِ أنْفعَ مِنْهُ. وله كتب أُخرى ذكرها في الدِّيبَاجِ. تُوفي رحمهُ اللَّهُ سنَة خمسٍ وتسْعين وخمسمائة (595هـ) بمراكش. كَانَ قَدِمَ على السلطان فماتَ، ثم دفِنَ بِهَا، ثم نُقل إلى قبرسلة بقرطبة. وفي قَبْره دُفِنَ الولي الشهير أبو العباس السَّبتي. وقيل في الحفيد، إنه اتُّهِمَ بالاعتزال وبالميل لمذاهب الفلاسفة، كما رمي بذلك ابن طفيل، ولذلك قرِن مَعَهُ. ولم يَنْسُب لهما النَّاظم إلاَّ التيقظ في أُمور العقل فقط. قال الشيخ زروق: وأَمَّا ابن طفيل وابن رشد الحفيد فمن متفلسفة الإسْلاَمِ. وقد رُمُوا بأكبر الكفر والله أعْلَمُ. قلت: كتب الحديث موشحة بالأحاديث النبوية، ليْس فيها شيْء مما رُمِي بِهِ. وقد عرَّف به صاحب الدِّيباج وغيره، فلم ينسبُوا له شيئاً ممَّا يُنقصُهُ. وعند الله تجتمع الخصوم. ويقظان هو ابن يقظان، وله رسالة في العقليات. قال الشيخ زروق، وقد وقفت عليْهَا وهي مبنيّة على القول بالطبيعَةِ، وهو نوع من الكُفرِ، ولذلك قال

الناظم: اقتَضَى فتحه الحيْنَ؛ أي اقتضى فتح العَقْلِ لهُ الحَيْنَ؛ وهو الْهَلاَكَ.

كَسَى لشُعَيْبِ: المراد أبو مَدْين الغوث الشهير بالولاية شرقاً وغرْباً. كَان رضي اللَّهُ عَنهُ، من أعْيان مشايخ المغربِ، وصدور المُقَرَّبينَ، واسْمُه شعيْب، وولده مَدْيَن مدفون بمِصر، ببركة القرع، وقبْره مشهور يُزَارُ. وأما أبو مدْيَن، فهو مدفون بمدينَة تِلمسَان، في تربة العباد. مات وقد جاوز الثمانينَ سَنَةً. كَان مقيماً ببجاية. ثم إنَّ سلطان تِلمسَان بلغهُ خَبَرهُ. وما كان فِيهِ الشُّهْرَةِ. فأَمَر بإحضاره من بجاية ليتبرك بِهِ، لتعذُّر وصول السلطان إلى زيارته، خوفاً مِن اختلالِ رعيتهِ. فأَجَابَ بالسَّمْع والطاعةِ. ثم قال بخفض صَوْتِهِ: ما لنا وَللسلطان. الليلة نزورُ الإخوان، ثم نزور تِلمسان، واستقبل القبلة ليلة دُخُولِهِ، وتشهَّد ثم قال: هَا قَدْ جِئتُ وعجلْت إليك رَبِّ لتَرْضَى. ثم قال: اللَّهُ الحيُّ. وفاضت روحهُ. قال الشيخ عبد الرزَّاق: اجتمعْت بِالخضر عليه السلام، فسَألته عن شيْخنا أبي مَدْيَنَ. فقال: هو إمَامُ الصِّدِّيقينَ في هَذَا الوقتِ. وقد أعْطاه اللَّهُ مفتاحاً من السِّرّ المَصُونِ. فما في هذه السَّاعةِ أَجْمَعُ لأسْرَار المرسلينَ مِنْهُ. وقد أَجْمَعَتِ المشايخ على تعْظِيمِه وإجْلالِهِ. وكَانَ جميلاً ظريفاً، متواضعاً زاهِداً، وَرِعاً محققاً. قَدِ اشتَمَلَ على كَرَم الأخلاقِ. وَكَان يقول ليْسَ للقَلْبِ إلاَّ جِهَة واحدة متى تَوَجَّهَ إليْهَا، غَابَ عَنْ غيْرِهَا. وَقَالَ أَيْضاً: الفقرُ نُورٌ مَا دُمْتَ تَستُرهُ. فَإذا أَفْشَيْتَهُ ذهبَ نُورُهُ. وقال أَيْضاً: كل فقير كان الأخذ أحبَّ إليه من العطاءِ فهُوَ كَذَّابٌ، لم يشُمَّ لِلفَقْرِ رائِحَةً. وقال أيضاً: مَنْ لَمْ يَصْلُحْ لِخِدْمَتِهِ، شَغَله بالدُّنْيَا. وَمَنْ لَمْ يَصْلُحْ لمعرفَتِهِ، شَغَلَهُ بالآخِرَةِ. وقال أيْضاً: مَنْ لَمْ يَخْلَعْ له الْعُذَار، لم تُرْفَع له الأسْتَار. ومكَثَ فِي بَيْتِهِ سنَةً، لَمْ يَخرُجْ إلاَّ إلى الجُمُعَةِ فاجْتمع النَّاس على باب دَارِهِ، وطلبُوا منه أنْ يتكلَّم عَلَيْهِمْ، فلمَّا أَلْزَموهُ خَرَجَ. فَرَأته العصافير التي على سور في الدَّار، فَفَرَّتْ منه، فرجعَ، وقال: لوْ صلحْتُ للحديثِ عليكم لَمْ تفرَّ مِنِّي الطُّيُور. فَجَلَس في البيْت سنَة أخرى، ثم جَاءُوا إلَيْه، فَلَمْ تَفِرَّ منهُ الطيور، فتكلَّم على النَّاسِ. ونَزَلتِ الطُّيُورُ تَضْرِبُ بِأَجنِحَتِهَا، حتى مَاتَ منها طائفة، وماتَ رجل من الحَاضِرينَ. وَكَانَ الحق تعالى قد أَذَلَّ له الوحوشَ. فَإذا رآه الوحْش ارْتَعَدَ مِن هيْبَته. ومَرَّ يَوْماً على حمارٍ، والسَّبُع قد أكَلَ نصفهُ، وصاحب الحِمَارِ ينظر إليه من بَعيدٍ لاَ يسْتَطيع أنْ يقرب منهُ. فقال لصاحب الحمار: تَعَالَ. وذهب بِهِ إلى الأسَدِ. وقال: أَمْسِكْ بِأُذنِهِ. واستَعْمِله مكَان حِمَارِكَ حتى يمُوتَ. فأَخذ بِأُذنِهِ وركِبَ. وَصَارَ يسْتعمله مكَان حماره حتى مَاتَ الأسَدُ.

تُوفي رضي اللَّهُ عنهُ: سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة (593هـ) عن خمسٍ وثمانينَ. وخرج من دائرته ثلاثمائة قطب دُونَ الصَّالحينَ. وأَخَذَ الطريق عن أبي يَعْزَى والشيخ عبد القادر وسيدي علي بن حرزم رضي اللَّهُ عَنهم أجمعينَ. قال النَّاظم فِي مَدْحِهِ. كسَى لشعيب ثوب جمع لذات. أي كسَاهُ عَقْلُهُ ثوباً جامعاً لذاتِهِ على رَبِّهِ. فكان دائماً مجموعاً على الله، في بساطِ الحَضْرةِ. وكَان كثيراً مَا يُنْشد: اللَّهَ قُلْ وَذَرِ الْوُجُودَ وَمَا حَوَى. إنْ كُنْت مُرْتاضاً بُلُوغَ كَمَالِ. يَجُرُّ الذَّيل أي طرف الإزَار. والرُّدْنُ بِضَمِّ الرَّاءِ. أَصْل الكَمّ. أي يَجُرُّ ذَيْله وكَمهُ افتخاراً لمَوْلاَهُ. وشكراً لمَا بِهِ أَوْلاَهُ. قال الشيخ زروق: تخرجَ على يده ألْف وليّ، ولم يذكر عن أحَدٍ من أَئمَّة طعَن فيهِ، رضي اللَّهُ عَنهُ وأَرْضَاهُ. ونَفَعَنَا بِهِ؛ وهُو أَنْدَلسي، ثم ذكر النَّاظِم جماعة أُخْرَى فقال:

وَعَـنْـهُ طَـوَى الـطَّـائِـي بَـسْـطَ كِـيَـانِـهِ — بِـدَسْـكَـرَةَ الْـخُـلاَّعِ إذْ ذَهَـبَ الْـوَهْـنَـا
تُـسَمَّى بِرُوحِ الرُّوح جَمْراً فَلَـمْ يُبَلَّلْ — ولَـمْ يَـرَ نَـدّاً فِـي الْـمَـقَـامِ وَلاَ خِـدْنَـا
بِـهِ عُـمَـرُ بْـنُ الْـفَـارِضِ الـنَّـاظِـم الَّـذِي — تَـجَـرَّدَ لـلأَسْـفَـارِ قَـدْ سَـهـلَ الْـحَـزْنَـا
وَبَـاحَ بِـهَـا نَـجْـلُ الـحَـرَالِـيّ عِـنْـدَمَـا — رَأَى كَـتْـمَـهُ ضُـعْـفـاً وَتَـلْـوِيـعَـهُ غَـيْـنَـا
وِلِـلأمَـوِيّ الـنَّـظْـم والـنَّـشْـرُ فِـي الَّـذي — ذَكَـرْنَـا وإعْـرَابٌ عَـمَّـا نَـحْـنُ أَعْـرَبْـنَـا

المُراد بالطائي: ابن الْعَرَبِي؛ لأنه من ذرية حَاتَم الطَّائي، وكَان في زمانِهِ، يعرف بابْن سُراقة. وعند المتأخرينَ مِنَ الصوفية: محيي الدِّين. وهو الإمام المحقق، رأس العارفينَ، وإمَام المُقَرَّبِينَ. ذو النَّفحات القدْسية. والأنفاس الرّوحانية. والمعارف البَاهِرَة. والحقائق الزَّاهرة. له المحلّ الأرفع في مراتب القرْبِ، وَمَنَازِل الأُنْس؛ وهو أَحَد أَرْكَانِ هذه الطريق. وأَجَلّ أئمة أَهْل التحقيق. بحرُ زَمَانِهِ وفريد أَوَانِهِ. لقَّبه الشيخ أَبُو مَدْيَنَ بِسُلطانِ العارفين. وكَلاَم الرجل دليل على مَقَامِهِ. وكُتبه مشهورة بِأَيْدِي النَّاس. إلاَّ أنه مال فيها لإظهار الحقائق، وكشف غطائهَا. فَرُميَ بما رُمِي بِهِ غيْرهُ ممّن أَظْهَرَ. وَمِن كشوفاته رضي اللَّهُ عنهُ: أنه ذكَرَ فِي بَعْضِ كُتُبِه صفَة السلطان بن سليمان الأول، وفتْحَه القُسْطنطينيةَ في الوقت الفلاني. فجاءَ الأمْر كما قَالَهُ. وبيْنَهُ وبَيْنَ السلطان نَحْو مائتي سنةَ. فَبَنَى عليه قُبَّةَ عظيمة بِالشَّام، وَرَتَّبَ فيها طعَاماً وخَيْرات. بَعْدَ أن كَانُوا يبولُونَ على قَبْرِهِ. وحكى الشيخ الصالح سيّدي أحمد الحَلَبِي، أَنّه كَان له بيْتٌ مشرف على ضريح الشيخ محيي الدّين، فجاء شَخْص مِن المُنكرين، بَعْد صَلاَةِ العِشَاءِ بنارٍ يريد أنْ يحرق

تابُوت الشيخ، فَخُسِفَ بِهِ دُونَ الْقَبْر بتسْعَة أَذْرع، فَغَابَ فِي الأرض وأَنَا أَنْظُرُ فَفَقَده أَهْله في تلك اللَّيْلَةِ، فأَخْبَرَتهم بِالقصَّةِ فجاءُوا وحَفَروا رأسَهُ. فكلَّما حَفَرُوا نَزَلَ غَائِراً في الأرضِ إلى أن عَجَزُوا. ورَدُّوا التُّرَاب عَلَيْهِ.

وكَان رضي اللَّهُ عَنهُ: أولاً يكتب الإنشاء لبعْضِ ملوكِ المَغْربِ، ثم تَزَهَّدَ وتَعَبَّدَ. وسَاحَ ودَخَل مصر والشام والحجاز والرّوم. ولهُ في كل بلدٍ دَخَلَها مؤلفاتٌ. وكَان الشيخ عِزّ الدّين بن عبْد السلام يحطُّ من قدْرهِ كثيراً. فلمَّا صحبَ الشيخ أبَا الحسَن رضي اللَّهُ عَنْهُ. وعَرَفَ أَحْوَال الرِّجَال. صار يترجمه بالولاية والعرفانية. مات شهيداً سنة ثمان وثلاثين وستمائة (638هـ). وله من المؤلفاتِ نيف وأربعمائة، منها التفسير الكبير الَّذِي بَلَغ فيه إلى سورة الكهْفِ عندَ قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾. ثم توفي ولم يكمل. وهذا التفسير، كتاب عظيم بَلَغَ ثلاثين سِفراً. كل سفر بَحْر لاَ سَاحِلَ لَهُ. فقال النَّاظِم في ترْجمتِهِ: وعنْهُ طوى الطَّائِي بَسْط كيانهِ، أيْ وعن عَقْلِهِ طوَى الحاتمي الطَّائي بسْط وجوده، فغاب عقله عن إدراكِ حقيقته بخروج ما أدْركَ عن دائرة العُقُول. فالكيَان بِمَعْنَى الكَوْن، أيْ طوى عن عَقْله بسْط كَوْنِهِ. وكان ابتداء ذلِكَ الطي بِدَسْكَرَة الخُلاع، أي بِحَضْرَة اجتماع أَهْل الخمرة؛ وهُمُ الَّذِين يَخْلعون عُذَارَهُمْ في رِضَى محبُوبِهِمْ، فيخَرّبُونَ ظَوَاهِرَهُمْ، ويَهْتكون أَغْرَاضَهُمْ، وَلاَ يُبَالُونَ بِمَن لاَمَهُمْ وَعَابَ عَلَيْهِمْ.

وفي القاموس الدَّسْكرةُ: القرْية والصَّوْمعة، وبيوت الأعَاجِم، يكونُ فِيهَا الْخَمرُ والمَلاَهي، وهو المُرَاد هُنَا؛ لأنَّ الخَمْرَ مَعْنَوِي، والملاهِي، كِنَاية عَنِ التَّغَزُّلِ بالمحبُوبِ. وتُعَبِّرُ عنهُ الصّوفية بِالخَانِ، أي كَان ذا الفتح بمَحْضَر أَهْل الأذواقِ الذين خَلَعُوا عُذَارهُمْ، إذْ ذَهَبَ الْوَهْنَا: أي حينَ ذَهَبَ عنهُ ضعْفُهُ وكَسَلهُ، وفرْقه بخلع عُذَارهِ، وافْتِضَاحِ نَفْسِهِ؛ وهو الَّذِي تَسَمَّى بروح الرُّوح في شِعره المعلوم الذي قال فيه:

أَنَا الْقُرْآنُ والسَّبْعُ المَثَانِي	وَرُوحُ الرُّوحِ لاَ رُوحُ الأَوَانِي
فُؤَادِي عِنْدَ مَعْلُومِهِ مُقِيمٌ	نُنَاجِيهِ وَعِنْدَكُمُ لِسَانِي
فَلاَ تَنْظُرْ بِطَرْفِكَ نَحْوَ جِسْمِي	وَعُدْ عَنِ التَّنَعُّمِ بِالأَوَانِي
فَأَسْرَارٌ تَرَاءَتْ مُبْهَمَاتٌ	مُسَتَّرَةٌ بِأَنْوَاعِ المَعَانِي
وَمَنْ فَهِمَ الإشَارَة فَلْيَصُنْهَا	وإلاَّ سَوْفَ يُقْتَلُ بِالسِّنَانِ
كَحَلاَّجِ المحبَّة إذْ تَبَدَّتْ	لَهُ شَمْسُ المحبَّةِ بِالتَّدَانِي

فَقَال: أَنَا هُوَ الحَقُّ الَّذِي لاَ يُغَيِّر ذَاتَهُ مِنَ الزَّمَانِ

وتأويله: أَنَّهُ غَابَ عن وجودِهِ عنْدَ محْسُوسِهِ، فَشَاهد العَيْن بِالْغَيْنِ. فَصَارَ عَيْنَ الْعَيْنِ فقال: أَنَا مُنَزِّل القرْآن، وأَنَا رُوح الرّوح والذي هو السِّرّ المَكْنون؛ الذي قام بالأرواح والأشباحِ. ومن كَلاَمِهِ أيْضاً: تطهَّرْ بماءِ الْغَيْب إن كُنت ذَا سرٌ إلى آخر الأبيات المشهورة على ما نسَبه أبو المواهب التونسي حسبما ذَكَره الشعرانِي. ونسبَها غيره للجنيْدِ؛ وهو المشهور. وقوله لَمْ يُبَالْ. هكذا في نسختنا أي لَمْ يُبَالِ بِمَنْ أَنكَر عليه مَقَالتَهُ. ولم يَرَ له نَدْاً، أي شَبيهاً، وَلاَ معانداً في زمانِه في مقام الْعِلْم والدِّيَانَةِ.

وَقَوْلُهُ: وَلا خِدْناً، أي ولأصْحَابِهِ يقرب من حَالِهِ، بل رأى نفسه منفرداً بما حَصَّلَ وأصل. وَلاَ يستغرب من هَذَا فإنَّ الباطن يقلُّ في كل زَمَانٍ. ثم ذكر ابن الفارض فقال به: عُمَر بن الفارضِ. أي بالعَقل تجرَّد عُمَر بن الفارضِ الَّذِي اشْتهر بالنظم للأشعارِ. فَسَهُلَ عليه الحَزْنُ، أي الصَّعْبُ منه، وتحمّل مشاقه للمحبَّة التي اشتعلت في قلبِهِ التي هداه إلَيْها عَقلهُ مع تقدم القدرة والاقتدار. وفي القامُوسِ: الْحَزْنُ: ما غَلظ من الأرضِ، فإذا سَهُل ما غلظ منهَا فأَولى ما كَان بسيطاً.

وابن الفارض: هو الوليّ الكبير والمحبّ الشهير إمام العُشَّاق أبو حفص عمر بن الحسَن بن علي بن المرسف الحُمَيري الأصل المصري الدَّار والمولد والوفاة. له ديوان في الشعر رائق. وفي أُسْلوب غريب فائق. وله قصيدة مشتملة على ستمائة بيْت على اصطلاحَاتِهم ومناهجهم. وله قصيدتان تائيّتانِ. فيهما كَلاَم عامض شرح إحداهما أبو سَعِيد الفُرعاني شرحاً جيداً. وُلد رضي اللّهُ عنهُ سنة ست وسبعين وخمسمائة (576هـ)، وتوفي سنة اثنين وثلاثين وستمائة (632هـ). فعمْره ست وخمسُونَ. وقد ذكرت في شرحي لخمريته، مناقبه ومَآثره ومُلاَقاته بالشيخ البقال وسياحته في نواحِي مكَّة. وَرُجوعه لصَلاتِهِ على شيْخه عند مَوْتِهِ، واستقراره في مصْر فراجعه إنْ شئتَ.

والحُرَالي: قَالَ الشيخ زروق: هو أبُو الحسن، علي بن محمد التجيبي الحُرَالي بجائِي الدَّار. ترجمه صاحب عنوان الدراية: بِالعالم المطلقِ. وقال: مَا من فَنّ إلاّ وأَلَّف فِيهِ.

ثم قوله: وباح بها: يحتمل أن يريد الحِكمة بل المعقولية أو فوائدها المقصودة، أو الموجودة، أو المشهورة أي وَبَاحَ بِالحِكْمَة أو بفَوائدِ العَقْلِ ابن

الحُرَالِي، ولم يقدرْ على كتمهَا إذ رأى كتمَهُ لها ضعفاً في الإيمانِ؛ إن كتمهَا على أَهْلهَا، لقوله عليه السلام: «لاَ تُؤْتُوا الحِكمَةَ غَيْر أَهْلِهَا فَتَظْلِمُوها، وَلاَ تَمْنَعُوهَا عَنْ أَهْلِهَا فَتَظلمُوهُمْ». وَرَأَى أَيْضاً تلويحَه بِهَا، وإشارته بِهَا غيْناً أي غطاءً وسِتراً فما أَمْكَنَهُ إلاَّ التصريحُ نفعاً للعبَادِ.

والأموي: قال الشيخ زروق رضي اللَّهِ عنْهُ: كُنت أعرفه ثم غاب عن ذِهْني، وللأموي النَّظم والنثر في شأن العَقْلِ الذي ذكَرْنَا وإعراباً: أي بَيَاناً كَمَا نَحْنُ أَعْرَبْنَا أيْ بَيَّنَّا. واللَّهُ تعالى أعْلَمُ. ثم ذكر شأن شيْخه وشأن نفسهِ، وبهما وقع الختام. فقال:

وَأَظْهَرَ ابْنُ سَبْعِينَ لِي مِنْهُ مَا خَفَى ... وَكَشَّفَ عَنْ أَطْوَارِهِ الْغَيْمَ وَالدَّجْنَا

وَبَيَّنَ أَسْرَارَ الْعُبُودِيَةَ الَّتِي ... عَنْ إعْرَابِهَا لَمْ يَرْفَعُوا اللَّبْسَ واللَّحْنَا

ابْن سبعين، هو الإمام العارف الرَّبَّانِي، المحقق القطب الصمداني، عبد الحيّ بن إبراهيم بن محمد بن سبْعينَ. قال الغبريني: فقيه جليل، عارف نبيل فصيح. له حكمة ومعرفة، وبراعة وبَلاَغة. مشارك في المعقول والمنقولِ. أحَد مشاهير الفضلاء، وله أتباع كثيرة، وموضوعات كثيرة في يد أصحابه. فيها ألغاز وإشارات، وله موشحَات وأشْعارٌ فِي طريق القوم.

توفي رضيَ اللَّهُ عَنهُ سنة تسْع وستينَ وستمائة (669هـ)؛ وهو ممَّن اختلف فيه أهْل الظَّاهِر ردًّا وقبولاً. وأمَّا أَهْل الباطنِ، فأَجْمعُوا على تحقيق وِلاَيته ومعرفته.

وفي طبقات الشعرانِي: كَان ابن سبْعين من المشايخ الأكابر، مات بمكَّة، عن خمس وخمسين سنة (55 سنة). وقال فِي المُقدّمة: أخرجُوهُ من بلادِ المغرب، وكتبوا فيه كتاباً. وقالوا فيه: إنه يقول: أنَا هو، وهو أنَا. ولمَّا قَدمَ مكة وجد السلطان الذي فيها مريضاً قد ظَهَرَ مُخُّهُ؛ فَصَنَعَ له رَأْساً من القَرْعِ، وغَمَّ بِهِ مُخَّهُ فشفاه اللَّهُ فَقَرَّبَهُ وأَكْرَمَهُ وعظَّمَهُ. فما زال مُعظَّماً، حتى مات بِهَا رضي اللَّهُ عَنهُ. فقال النَّاظم فِي تَرْجمتِهِ. وأَظْهَر ابن سبعين مِنْهُ، أي من أُمُورِ العَقْلِ فَأَخفَى عن النَّاسِ، وأَضَافه إلى نفسه؛ لأنه شيخهُ. قال الشيخ زروق: وكَوْنه أظهر من حَقائق العَقْلِ وفوائدها ما خفي ظاهر من كتبِهِ، لاَ سِيمَا عندَ البَدْوِ وَمَا جَرَى مَجراهُ. وإن كانت عبارته تحتاج إلى مُسَامحة في مَحلِّهَا. فهي وإنْ كَانت عيْن التحقيق، فَلِلَّحْن نسبة في التعبير. وقوله: وبيَّن أسْرار العبودية، يَعْنِي في كتابه البَدْوِ، الَّذِي تكلَّم

فيه بِلِسَانِ المتكلم والفَيْلَسُوفِي، والفقيه والحكيم والمحقق. وأعطى كل مسألة حَقَّهَا من كَلاَمِهِمْ. وكشَّفَ بِشَدِّ الشين للمبالغة أي كَشَفَ عن أطوارِ العَقْلِ وَمَرَاتِبِهِ الغيم، أي السحاب الرقيق الَّذِي يغطِّي الشَّمْسِ والدَّجْن: أي الظَّلاَم. وبيَّنَ أيْضاً أسْرار العبودية إذ هي شَرَف الإنسان، التي لم يرفَعُوا: أي النَّاس والحكماء، عن إعرابِهَا: أي عن بَيَانِهَا، اللَّبْس أي الاختلاط والاشتباه. وفي القامُوس اللَّبْسُ بالفتح وَبِضَم: الشُّبهة. واللَّحْن بِسُكون الحاءِ. ثم ذَكَرَ شَأن نَفْسِهِ فقال:

كَشَفْنَا غِطَاءً مِنْ تَدَاخُلِ سِرِّهَا ... فَأَصْبَحَ ظَهْراً مَا رَأَيْتُمْ لَهُ بَطْنَا

هَدَانَا لِقَوْلِ الْحَقِّ مَا قَدْ تَوَلَّهَتْ ... لِعِزَّتِهِ أَلْبَابُنَا وَلَهُ هُذْنَا

فَمَنْ كَانَ يَبغِي السَّيْرَ لِلْجَانِبِ الَّذِي ... تَقَدَّسَ فَلْيَأْتِ لِيَأْخُذَهُ عَنَّا

يقول رضي اللَّهُ عَنْهُ، قد كشفنا عن العبودية غطاءً كَان حَاصِلاً من تداخل سِرِّهَا مع الحقيقة فبيَّنَّا محلَّ العبودية، من محلِّ الحقيقة. فَمَحَلُّ العبودية الظَّوَاهِرُ، ومحلّ الحقيقة؛ وهو شهود الرّبوبية البواطِن. وذلِكَ أَنَّ الحق تعالى تَجَلَّى بيْن الضِدَّيْن، فتلجَّى بمظهَرِ الرّبوبية، في قوالِب الْعُبُودية، ليتحقق اسمه الظَّاهر، واسْمُه الباطِن.

قال في الحِكَم: سُبْحَانَ من سَتَرَ سِرَّ الخصوصية بظهُور وصْف البشرية. وظَهَر بعظمة الرُّبوبيةَ، في إظهار العُبُودية. فَمَنْ نظر لمطلق التجلِّي، رأى رُبُوبية ظَاهرة أزلية، وَمَن نَظَرَ للقوالب رأى قوالب العبودية، فالعبْد مأمور بالقيام بِحقّ القوالبِ؛ وهي آدَاب العبودية. وبحقّ الظواهر، وهي شهود عظمة الرّبوبية. فَظَهر التمييز بيْن العبودية والرُّبُوبيَة. فأصبح ظَاهِراً مَا كَان بَاطناً خفياً. وهذا معنى قوله: فَأَصْبَح ظَهْراً مَا رأَيتم له بَطْناً. فظهراً خبرُ أصْبح. وَمَا اسمُها. وبطناً مفعولٌ ثانٍ لَرَأَيْتُم؛ أي فأصبح ما كنتم رأيتمُوهُ من العبودية بَطناً ظَهْراً. هَذَا وَلَمْ نَرَ للنَّاظِم كَلاَماً مُسْتَوفًى في العبودية. بل جلّ كلامه في أنظامه في أسْرار الحقيقة. فَلْنَتكلَّمْ على شيءٍ مِنْهَا؛ فنقول، وباللّهِ التوفيق: العبودية هي شَرَف الإنسَان وعزّه، وسبب ترقيه إلى كَمَالِ الكَمَالِ؛ وهي مِفتاحُ الفتوحاتِ كُلِّهَا. فبقدْرِ مَا يتحقق الظَّاهر بالعبودية يُشرِق على الباطِن أنوار الحقيقة. وتعرية الرأسِ، والجلوس على الترابِ، وغير ذلكَ مما يثقل على النَّفسِ، ويجمع ذلك كله السُّؤَال في الأسواق؛ فهو يجهز عن النفس مرَّة واحدة إن كَان بإذْنٍ، ولغَيْر طمع، ويلحق بذلك التخلق بالأخلاقِ الحسَنَة، كالتواضع، والسَّخَاء، والكَرَم، وسَعَة الصدر، وترْك الغضب للنَّفْس،

وغَيْر ذلِكَ. وإن أردتَّ أنْ تعرف العبودية، فانظر إن اشتريْتَ عَبْداً من مَالِك، كيف تحب أن يكون معكَ فكن أنت مع سيّدكَ كما تحب أن يكون عبدك مَعَكَ.

فَالعَبْد لاَ يكون بيْن يَدَي سيّده حتى يُحَرِّرَهُ سيّده إلاَّ فقيراً ذليلاً، وَلا يلبَس إلاَّ لباس الذّلِّ؛ وهيَ ثياب الخِدْمَة والمِهنَة. فالعبد المتأدّب لا يتحلّى بِحِلية سَيّدِهِ حتى يحرّره سَيّدُهُ. والعَبْد أَيْضاً لاَ يُدَبِّر أَمْر نَفْسِهِ؛ وهو في مَمْلكَة سَيِّدِهِ. إذْ لاَ ينفَعه ذَلِكَ أيْضاً.

وإذا أَرَاد العَبْد أيْضاً أن يَحظَى عند سيِّدِهِ، يكون عند أمْره ونَهيِهِ، سَميعاً مطيعاً بالفَهْم عَنْ سيِّدهِ فيَفْعَل ما يشتهي سيّده قبل أن يأمره بِهِ.

وأيضاً: العبد المحبّ لسيّده، لا يخدمه عن غرَضٍ، إذ لا يسْتحق على سيده شيئاً بل يخدمه عَبُودية ومحَبَّة. وفي الحديث: «لاَ يكُنْ أَحَدُكم كالأجِير السُّوءِ، إذا أعْطِي عمل وإلاَّ لَمْ يَعْمل». أو كما قال عليه السَّلاَمُ. ثم قال النَّاظِمُ: هَدَانَا اللَّهُ تَعَالَى أو العقل بإِذْنِ اللَّهِ لقولِ الحقِّ. فقلنا فيمَا نَظَمْنا؛ وَهُو شَرْحُ مَا تَوَلَّهتْ، أيْ تَحَيَّرَتْ لعِزَّتِهِ، أي لأجْل صُعُوبَتِهِ وغَلَبته أَلْبَابَنَا؛ أي عُقُولَنَا. وله هُدْنَا؛ أيْ رجعْنَا، بَعْدَ نُفُورنَا عَنْهُ لصُعُوبَتِهِ، أي وَلَهُ تُبْنَا ورجَعْنَا إن لَمْ نُصَادِف الصَّوَاب. ثم قَالَ: فَمَن كَان يَبْغِي السَّيْرَ والنُّهُوض إلى الجانِب الأقْدَس؛ وهو حضرة القُدْس، ومحلّ الأُنْسِ فَليأْتِ إلَيْنَا ليأخذه عَنَّا. فإنَّ طريق السَّيْر لا تؤخَذ إلاَّ عن أَرْبابِهَا؛ وهم الذين سَارُوا مَعَهَا. وعَرَفُوا وَعْرَهَا وَسَهْلَهَا. والمُرَادُ: تَرْبِيَةِ النفوس وتهذيبهَا. فَلا تؤخذ إلاَّ مِمَّنْ أَخَذَهَا عَنْ غيْرِهِ. وسَلَكَهَا بنفسِهِ. وخاض مَقَامَ الجذبِ، والسُّلُوكِ، وحازَ مقام الفَنَاء والبقاء. وَمَنْ لَمْ يَسْلك ذَلِكَ فلا يقتدى بِهِ فِي سُلُوكِهَا. وبالله التوفيق. وهو الهادي إلى سَواء الطريق. هَذَا آخِرُ ما قصدناه من شرْح النونية الششترية، على تصحيف في مَتْنِهَا. فَمَن وَقَفَ على خَلَلٍ فَليصلحْه مِنْهَا ومن شَرْحِهَا، إذ قَلَّ مَا يَخلصُ مُصَنَّف مِنَ الْهَفواتِ. أو يَنْجُو مؤلِّفٌ من العَثَرات. كما قال الشيخ خليل رحمه اللَّهُ. وكَان الفراغُ من تَبْيِيضِه، ضَحْوة يوم الخميس، فاتح رجب سنة عشرين ومائتين وألْف هجرية (1220هـ) على يد جامعه. العبد الفقير أحمد بن محمد بنعجيبة الحسني.

فهرس المحتويات